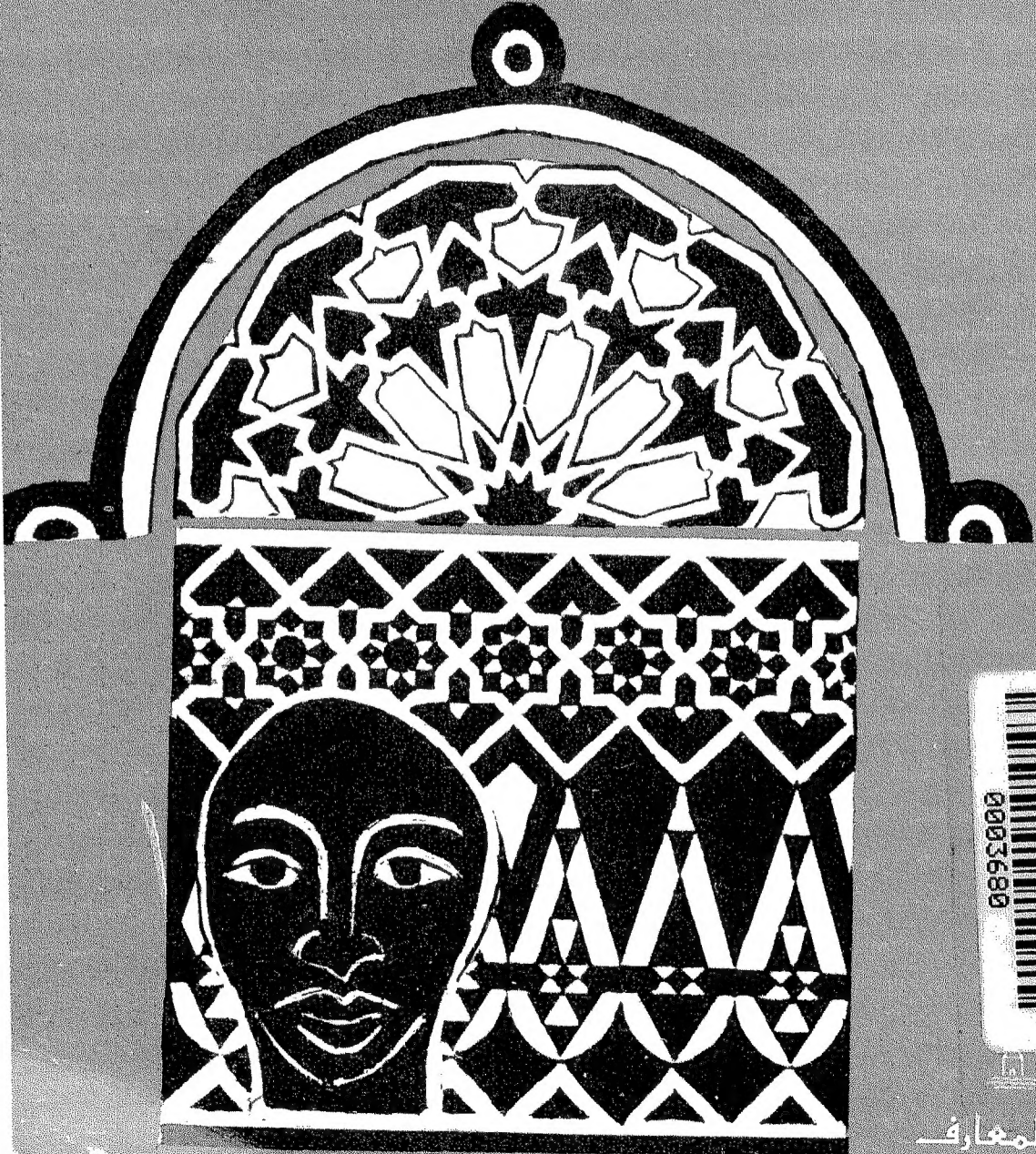


دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

التطور الاقتصادي والاجتماعي

في السودان
١٨٨١ ~ ١٨٤١



دار المعارف

التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان



١٨٨١ - ١٨٤١

دار المعارف

دكتور محمدنا الله مصطفى حسن
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة عين شمس

• ٨٩٩

الطبعة الأولى

١٩٨٥



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع

إهداء

إلى الأبرار الكريمة

عرفانا ووفاء وبراً

المحتويات

صفحة	
١٠ — ٥	المقدمة
	تمهيد : تطور السودان الاقتصادى والاجتماعى
٣٤ — ١١	بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١
٩٠ — ٣٥	الفصل الأول : تطور الأوضاع الزراعية
١٣٤ — ٩١	الفصل الثانى : الثروة المعدنية والصناعية
٢٦٤ — ١٣٥	الفصل الثالث : التجارة والمواصلات :
٢١٤ — ١٣٧	القسم الأول (التجارة الداخلية)
٢٤٢ — ٢١٥	القسم الثانى (التجارة الخارجية)
٢٦٤ — ٢٤٣	القسم الثالث (المواصلات)
٣١٠ — ٢٦٥	الفصل الرابع : الضرائب وشئون المال
٣٧٢ — ٣١١	الفصل الخامس : التركيب الاجتماعى وتطوره
٤٢٢ — ٣٧٣	الفصل السادس : العادات والتقاليد
٤٧٠ — ٤٢٣	الفصل السابع : الطرق الصوفية والمجتمع السودانى
٥١٨ — ٤٧١	الفصل الثامن : التعليم والثقافة
٥٢٣ — ٥١٩	الخاتمة
٥٤٠ — ٥٢٤	الملاحق والخرائط
٥٥٤ — ٥٤١	المصادر والمراجع

المقدمة

في السنوات الأخيرة بدأ سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس ينهج نهجا جديدا في دراسة التاريخ الحديث والمعاصر من خلال قيام أبنائه ، وبتوجيه من رواده ، الى إعطاء مزيد من الاهتمام للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي وغيره من جوانب التاريخ الأخرى والمتنوعة دونما الإغراق في التاريخ السياسي الذي ظل لسنوات طويلة خلت صاحب القدرح المعلى .

لذلك فقد آثرت ، جريا على هذا المنوال ، أن تكون دراستي عن التطور الاقتصادي والاجتماعي للسودان بين عامي ١٨٤١ ، ١٨٨١ • ولقد شكل العامان — اللذان بدأت بهما الدراسة واختتمتها — أحداثا اقتصادية واجتماعية هامة وان بدت — للمولعين بالتاريخ السياسي — غير ذلك • فقد شهد العام الأول بداية سبيل نهجر من التجار والمغامرين الأجانب نحو السودان ، مستظللين بمعاهدة لندن عام ١٨٤١ التي كانت تنص على تنفيذ معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ المبرمة بين الدولة العثمانية وانجلترا ، وكانت المعاهدة الأخيرة تحوى بندا هاما ، وبالتحديد البند الثانى الذى ينص على ضرورة السماح للدول الأجنبية بالإتجار فى أملاك الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، ذلك لأن السودان أصبح بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو وأول يونية عام ١٨٤١ يحكم بواسطة محمد على • وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية • كذلك فإن عام ١٨٤١ كان ذا مغزى إقتصادي فى مصر والسودان ، فمصر كانت خارجة لتوها من أحداث الشام وما أعقبها من تدهور مالى للبلاد ، لذلك فلا عجب أن نشهد وثائق القلعة — بالذات — فى هذا العام تفيض بالمراسلات بين محمد على والقائمين على شئون السودان فى كيفية زيادة موارد البلاد • بالإضافة إلى ما شهده السودان

في هذا العام من استمرار حملات سليم قبطان في النيل الأبيض لفتح
آفاق جديدة للتجارة السودانية • أما عام ١٨٨١ الذي شهد بداية الثورة
المهدية في السودان ، فقد كان نتيجة طبيعية ومنطقية لأحداث اقتصادية
 واجتماعية في البلاد وأعنى بها تجارة الرقيق ذات الأبعاد الإقتصادية
 والاجتماعية ، كما شهد هذا العام أيضا تدهورا خطيرا لمالية السودان
 كانت مواكبة ، الى حد بعيد ، لتلك التي جرت في مصر • ولعل تقرير
رعوف باشا — حاكم السودان — الذي قدمه في ٢٨ مايو ١٨٨٠ ثم
ميزانية السودان عام ١٨٨١ يؤيدا تماما ما ذهبنا إليه وقيما البرهان
ساطعا •

وينبغي أن أؤسّر الى أنني حاولت — قدر المستطاع — أن أتوخى
المنهج العلمى مقرونا بأمانته في عرض هذه الدراسة ، طارحا الأهواء
الشخصية التي لا تتفق والبحث العلمى •• كان سببى في هذا المنهج
أن أترك الوثائق لتروى الوقائع • ولذلك فقد حفلت الدراسة بكثير من
نصوصها الأصلية • ليس معنى ذلك أنني وقفت منها موقف المتفرج
بل تدخلت بالتعليق عليها حيناً ثم بالتحليل حيناً آخر في محاولة للخروج
بنتائج جديدة •

وقد حوت هذه الدراسة تمهيدا وثمانية فصول • تناولت في التمهيد
أوضاع السودان الاقتصادية والاجتماعية بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١ مركزا
على مسائل الأرض ونشأة المدن وما صحبهما من تطور اقتصادى
 واجتماعى •

وفي الفصل الأول عرضت للتطورات الزراعية التي مر بها السودان
من حيث الأرض ووسائل الإنتاج الزراعى • وفي الفصل الثانى ناقشت
موضوع الثروة المعدنية والصناعة من خلال البحث عن المعادن ، والحديث
عن أهم الصناعات والحرف التي كانت منتشرة ثم البحث عن العوامل التي
أدت الى تأخر قيام صناعة سودانية • أما الفصل الثالث فقد تناول

التجارة والمواصلات • وأمام الصلة العضوية والمنهجية بين موضوعاته عمدت الى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : الأول وتناول التجارة الداخلية في أقاليم السودان المختلفة من جنوبه الى وسطه وشماله ومن شرقه الى غربه ، عارضا الأهم مراكز السودان التجارية وما كان يتميز به كل واحد منها ، كذلك فقد عرضت للتجارة الأجنبية في السودان مبينا مراميها القريبة والبعيدة وما انتهت اليه •

وقد اقتضت الدراسة أن أعرض لموضوع التجارة مع مصر ضمن التجارة الداخلية ، اذ لم يكن المسئولون حينذاك يفرقون بينهما ، فقد كانتا تسيران وفقا لأوامر ولوائح متشابهة •

والقسم الثانى خصص للتجارة الخارجية مع الحبشة وبلاد شبيه الجزيرة العربية وما جاورها ومع شمال وغرب أفريقيا ، أما القسم الثالث فكان خاصا بالمواصلات على اختلاف أنواعها من برية ونييلية وبحرية • وفى الفصل الرابع عرضت للتطور الضرائبى والمالى فى السودان والى أى مدى كان هذا التطور مسئولا عما حدث عام ١٨٨١ وما قبله • وفى الفصلين الخامس والسادس درست المجتمع السودانى من حيث تركيبه السكانى والقبلى وعاداته وتقاليده ، مبينا التنوع الشديد بين سكانه من خلال الأصول العرقية ، الأمر الذى أفرز عادات وتقاليده متباينة أيضا • ولم أستطع أن أغض الطرف عن دراسة بناء القبيلة السودانى والذى كان سمة أساسية لهذا المجتمع • وفى الفصلين الأخيرين - السابع والثامن - عرضت للطرق الصوفية ثم التعليم والثقافة حيث انتشرت الطرق فى طول البلاد وعرضها ومارست دورها الدينى والاجتماعى ، تاركة آثارا جلية على ثقافة المواطن السودانى وحياته الاجتماعية ، كما بينت فى الدراسة الى أى مدى كانت هذه الطرق مركزا تجمع حوله السودانيون من كل عرق ، بحيث يمكن القول دون تردد إنها قد لعبت دورا أقرب ما يكون الى الدور الذى تلعبه الأحزاب فى أوروبا •

أما الجانب التعليمي فقد غلب عليه الطابع الدينى حيث انتشرت
الخلاوى فى أرجاء البلاد تؤدى دورها من خلال عمليات الدعم سواء
أكان نقودا أو أراض أو حتى فى صورة حبوب *

وقد بنيت أسس هذه الدراسة على ركام ضخمة من الوثائق ضمت
خزائن دار الوثائق والمحفوظات ، وتنوع بتنوع دواوين الحكومة
ومصالحها فى القرن التاسع عشر ، بالإضافة الى وثائق الخارجية
البريطانية والخارجية الأمريكية والخارجية الفرنسية أو ما يعرف
بالأرشيف الأوروبى بدار الوثائق القومية بالقلعة * كما اعتمدت هذه
الدراسة على كثير من الوثائق المنشورة وكتابات الرحالة ، والدوريات
المعاصرة للأحداث والدراسات العربية والأجنبية مما هو مسجل بثبت
المصادر *

وفى الختام أجد من الأمانة العلمية أن أقدم الشكر خالصا والثناء
عاطرا الى كل الهيئات العلمية التى وفرت لهذه الدراسة ولصاحبها كل
سبل الرعاية ، وعلى رأسها دار الوثائق القومية بالقلعة - من خلال
القائمين عليها - فقد عشت بينهم سنوات طويلة لم يخلوا فيها بشئ ،
وكذلك مكتبات دار الكتب المصرية والجامعات المصرية ، والجمعية
الجغرافية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وجميع مراكز البحوث
التي أعانتني على إخراج هذا العمل * كما لا يفوتني أن أشيد بالمنأخ
العلمى الرفيع الذى أحاطنى به سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث
والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس * ومن واجب العرفان أن أشكر
أخى الدكتور أحمد زكريا ، على تشجيعه وعونه لى * كما اننى أخص
بالثناء أستاذى العزيز الدكتور عبد الخالق لاشين الذى غمرنى بفيض
من علمه الغزير ، الأمر الذى يجعل قلمي عاجزا عن صياغة ما يكنه قلبى
له ، فقد استمعت إليه كثيرا كما كتب إلى وهو فى الخارج أكثر ، موجه
ومرشدا وناصحا *

أما استاذى الكريم الاستاذ الدكتور عبد العزيز نوار استاذ التاريخ الحديث بكليتنا والمشرى على السمناى ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط ، فقد أسبغ على هذه الدراسة وصاحبها كل رعايته وعلمه وكرمه •• فقد فتح لى كل الأبواب وذلك كثيرا من عثرات البحث فأضاء لى الطريق باستاذيته وريادته ، فجزاه الله عنى خير الجزاء •

وأخيرا فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى الإجابة على بعض التساؤلات — التى تطرحها مثل هذه الدراسة — من خلال النتائج التى توصلت إليها أو القضايا التى طرحت من خلالها •

والله ولى التوفيق

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

القاهرة ، حدائق القبة • فى أغسطس ١٩٨٤

تمهيد

تطور السودان الاقتصادي والاجتماعي

١٨٢١ - ١٨٤١

— الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١

• (أ) الملكية الزراعية

• (ب) النشاط التجاري

• (ج) نظام البداوة وآثاره الاجتماعية

• (د) دخول الطرق الصوفية

— التطورات الاقتصادية والاجتماعية بين عامي ١٨٢١ ، ١٨٤١

• (أ) السياسة الاقتصادية

• (ب) الأوضاع الزراعية والتجارية والصناعية وتطورها

• (ج) إنشاء المدن :

١ — مدينة دنقلة الأوردى (دنقلة الجديدة) •

٢ — مدينة الخرطوم •

٣ — مدينة محمد علي •

٤ — مدينة كسلا •

فجاءوا إلى سنار - ومنح هؤلاء العلماء إقطاعات ، ولم تكن السلطنة السنارية - في اعتقادنا - تستن سنة جديدة في هذا المجال تجاه العلماء ، فقد كان رجال الدين دائما في كل العصور يلاقون هذه الرعاية ، فهم دائما حلقة الوصل بين الرعاية والحكام ولسوف نشهد شيئا قريبا من ذلك في خلال الادارة المصرية عندما راحت تمنح القائمين على التعليم الدينى أراض معفاة من الضرائب حتى يمكنهم القيام بالرسالة التعليمية على خير وجه * وقد أعفى سلاطين سنار الإقطاعات الممنوحة لرجال الدين من الضرائب أو أية التزامات أخرى (١) *

أما النوع الثالث من هذه الإقطاعات فكان خاصا بالأفراد العاديين ، وقام فيه مشايخ القرى بتوزيع الأراضى على المزارعين لقاء ضريبة تحدد حسب المحصول ، وكان هناك مندوبون من طرف السلطان مكلفين بتسوية الحساب مع المشايخ وتسلم مستحقات الملك (٢) *

ولقد كان من حق صاحب الإقطاع تأجير الأرض وتوريثها من بعده لذريته من الذكور والاناث طبقا للشريعة الاسلامية (٣) * ولكن انتقال الإقطاع من شخص إلى آخر كان لابد أن يتم بموافقة السلطة الذى هو المالك الأصلى للأرض وإصدار توثيق بذلك يحمل خاتمه حتى ولو كان صاحب الإقطاع من رجال الدين الذين منحت لهم الأرض هبة دون التزامات * ذلك ما ورد في وثيقتين ترجعان إلى أوائل القرن الثامن عشر ، الأولى تمثل عقد للشيخ رحمه بن الشيخ يونس أمين السلطان تقرر بتنازله عن قطعة أرض للشيخ يعقوب هبة لوجه الله ، والثانية بتصديق من جانب

(1) Arkell : Fung Origins, S.N.R. Vol. XV, 1932, p. 250.

(2) Cailliaud : Op. Cit. pp. 290-91.

(3) Reid : Some notes on the tribes of the White Nile province. S.N.R. Vol. XIII, p. 158.

السلطان على هذا العقد (١) .

وتتمة للفائدة في موضوع الأرض قبل عام ١٨٢١ نشير الى سياسة سلاطين دارفور تجاهها . فقد وضع السلطان موسى بن السلطان سليمان سولونج أول سلطان من سلاطين الفور سياسة شاملة آزاء الأرض حيث اعتبر كل أراضى السلطنة ملكا خاصا له ، ثم مضى من جاء بعده من السلاطين على هذه السياسة ، يتصرفون فى الأرض كيفما شاءوا بالأخذ والعطاء (٢) .

ويذكر نعيم شقير أن السلطان موسى قد قام — وفقا لهذه السياسة — بتقسيم بلاد الحضر الى « حواكير » أو أقطاعات وزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه بحجج مختومة بخاتمه فعاشوا بريعهاهم ومزارعوها ، كما قام بتقسيم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمر من أبناء السلاطين أو بعين من الأعيان تجبى له زكاتها ، وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباه يجمعون « الفطرة والعشور » من الحضر ، وربما كان السلطان يتنازل عن نصيبه فى « الحاكرة » فيعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربه أحد من الجباه أو المقاديم . وقد سار على هذا النظام جميع سلاطين دارفور الذين أتوا بعد السلطان موسى حتى انتهاء السلطنة (٣) . ويعلق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم على ذلك قائلا : صحيح أن هذه السياسة التى وضعها السلطان موسى قد جعلت التصرف فى كل أراضى السلطنة بيد السلطان ، ولكن ينبغى ألا نبالغ فى الأمر بحيث يأخذنا التعميم بعيدا عن الوضع . فقد كانت

Arkell : Op. cit. pp. 248-250.

(١)

انظر أيضا نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٠١ . وحول هذا الموضوع انظر الدراسة التى أعدها الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم تحت عنوان الفونج والأرض عام ١٩٦٧ .

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم : الفور والأرض . ص ٥٦ .

(٣) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . الجزء الثانى

ص ١٣٦ .

(م ٢ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

بعض البلاد بعيدة عن قبضة السلطان المباشرة بحكم المسافات أو الأوضاع المحلية أو أن بعضها كان عديم الفائدة بحيث لا تجعله يقوم بمباشرة سلطته في التصرف^(١) .

لقد كانت ملكية السلطان لأراضي السلطنة مطلقة من الناحية النظرية وأيديتها الأعراف ، إلا أن الواقع كان يجري حسب الظروف القائمة في المنطقة * ومن ناحية أخرى كان هناك قانون « دالى » * الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، كما كانت هناك أيضا الشريعة الإسلامية بمثلها ونظمها وأشراطها والتي كان من المفروض أن يلتزم السلطان بها في تعامله وتصرفاته ، خاصة وقد كان احترام التقاليد والعلماء والعدالة أمورا يحرص الجميع عليها ، ولطالما تفاخر السلاطين في وثائقتهم بحمايتهم للعدالة ونشر الويتها ، وكانوا إذا حدث نزاع حول الأرض احتكموا الى القضاء الذى كان يأخذ بالشريعة والعرف معا * ومع ذلك كله فإن احترام العدالة والملكية أمر معنوى يتوقف على تصرف السلطان ومدى التزامه الأخلاقى ، فالسلطان لا سبيل إلى محاسبته ولا رقابة عليه^(٢) .

ولقد كانت العطايا التى يمنحها السلاطين على ثلاثة أنواع : الأول كان « أمر الرواعية » وهم عربان من كردفان أو الصباح كما تذكر الوثائق ، أو من دارفور ، حيث يعطى السلطان أحد رجاله حق التصرف فى هؤلاء على اعتبار أنهم رعاة فى مقابل أن يجد الرعاة حق المرعى والحماية ويقوم هؤلاء برعى حيوانات الموكل من قبل السلطان مع القيام بدفع حق السلطنة ، والنوع الثانى من العطاء يتعلق بالقبائل

(١) الفور والأرض . ص ٥٧ .

(*) قانون دالى : هو عبارة عن مجموع الأحكام العرفية ، وقد جمعها الفور فى كتاب واحد . وكانت تشكل قسما رئيسيا مع القضاء الشرعى الذى يستند الى الكتابة والسنة .

() انظر نعيم شير : المصدر السابق . ص ١٨) .

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم : المرجع السابق ص ٥٨ .

الرغوية أيضا ولا يقتضى أن تكون القبيلة عربية . ولم يكن هؤلاء الرعاة يدفعون الكثير من الحبوب ولكن ما يدفعونه من الابل والماشية والسمن كان كثيرا . وفي مقابل ذلك كانت القبيلة تنال الحماية وحقوق المرعى . كما كانت لصاحب العطاء أيضا مسئولية ادارية تجاه القبيلة . والنوع الثالث من العطاء هو قطع الأراضى التى تقدم للأفراد وهو أهمها جميعا وينقسم الى نوعين : نوع يعطى لشخص يزرعه ويستفيد من انتاجه فى معيشته ، وغالبا ما يكون فى شكل قطع صغيرة توصف بأنها هبة أو صدقة ، وأكثرها ما كان يعطى للعلماء والفقراء . والنوع الآخر ويسمى « بالحاكورة » وهى قطعة أرض كبير ، يختص السلطان وحده بمنحها عن طريق وثيقة تسجل فيها حدودها وكافة الشروط (١) .

ويشير التونسي الى الاقطاعات التى كانت تمنح للأفراد فى دارفور ، ومن بينها الاقطاع الذى منحه السلطان عبد الرحمن لوالد التونسي . وفيه يتضح تماما خلوه من أية التزامات أو ضرائب حيث كان يحق له أن يتصرف فيه كيفما يشاء ، لأنه على حد قول الوثيقة « هبة لوجه الله تعالى » (٢) .

ويذكر التونسي أيضا أنه كان للسلطان أراض خاصة يقوم بزراعتها الأهالى دون مقابل ، كما كان لحكام الأقاليم مزارع خاصة أيضا يقوم على زراعتها الأرقاء والأهالى (٣) .

ويقترح نظام ملكية الأرض بكردفان وتلقى من ذلك ، فكان أيضا يقوم على أساس أن جميع الأراضى كانت ملكا للملك الذى يمنحها

(١) محمد ابراهيم أبو سليم : المرجع السابق . ص ٥٩ وما بعدها .
 (٢) تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . ص ٦٧ ، أنظر أيضا نفس المصدر ص ٦٩ نص الوثيقة التى منح بمقتضاها والد التونسي اقطاعاتا بجهات دارفور .
 (٣) نفس المصدر . ص ١٧٧ .

للأفراد بقصد الاستغلال مقابل جزء من غلتها في صورة ضريبة (١) *

ذلك ما كان يجري بالنسبة للأرض الزراعية ، أما في مجال التجارة فيمكن القول إن السلطنات الوطنية والمشايخ والممالك التي نشأت في السودان قبل عام ١٨٢١ قد ارتكز نشاطها الاقتصادي بشكل أساسي على التجارة ، وكان زعماءها من سلاطين وشيوخ ومكوك من أكبر التجار * وقد اشتهرت في ذلك العصر مدن تجارية عديدة مثل الدر وأبريم ودنقلة وبربر والدامر وشندي في النوبة ، وسنار والعطبرة وقوز رجب وسواكن في شرقي السودان ، والأبيض وباره في كردفان ، والفاسر وكوبه في دارفور ، فجميعها كانت مراكز للتجارة * وأهم سلعة كانت تتداول آنذاك وتكاد تكون السلعة الرئيسية لجميع تلك المراكز هي الرقيق الذي كان يمثل ٣٨٨٪ من حجم تجارة دارفور وسنار (٢) * وأهم ما يلاحظ على النشاط التجاري آنذاك هو غياب الإدارة المنظمة التي تشرف على أمور التجارة ، اللهم إلا إذا استثنينا الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على القوافل ، كما أن تلك السلطنات والمشايخ لم تكن تخضع لسياسة تجارية موحدة ، فليست هناك عملة مشتركة بينها أو نظام ثابت للضرائب *

وفيما يتعلق بالحرف فلا نكاد نلمح تطورا ملموسا لها فقد كان جلها آنذاك يدويا بسيطا ، وكان هذا شيئا طبيعيا لمجتمع حاجاته محدودة إلى جانب أنه يأنف العمل اليدوي حيث يغلب عليه طابع البداوة *

أما البناء الاجتماعي للسودان في ذلك الوقت فيمكن القول إنه كان يستند إلى قاعدة سكانية متنوعة قوامها القبيلة * فمن بجاء في الشرق على ساحل البحر الأحمر إلى نوبيين في الشمال فقبائل عربية على طول

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ١٦٤ *

(٢) Terence Walz; Trade between Egypt and Bilad AS - Soudan.

1700 - 1820. p. 36.

وانظر أيضا بوركهارت : المصدر السابق * ص ٢١٣ ، ص ٢٥٢ *

النهر وأخرى متفرقة في أرجاء السودان ، الى مجموعات سكانية زنجية وعربية بدارفور وكردفان ، وزنجية خالصة في الجنوب .

نظام البداوة وآثاره الاجتماعية :

كان الرعى قبيل ضم السودان عام ١٨٢١ هو الحرفة الرئيسية لغالبية سكانه . ويميز البعض بين عدة أنواع للبداوة ، فهناك نوع يومية بين الصباح والمساء ، وآخر موسمي . فخلال موسم المطر يهبط الرعاة من الجبال الى السهول بين عطبره والنيل حيث تكثر المراعى ، وفي الصيف يفرون من السهول الجافة المحرقة الى الجبال المرتفعة حيث عيون المياه والمرعى . وهناك نوع ثالث من تلك الانتقالات أو الهجرات الجماعية والذي كان يشترك فيه الرعاة والحضر ويسمى بالنجيج والذي يكون تخلصا من الجذب كلما انخفض النيل أو فرارا من وباء الجدري الخطير (١) .

ونظام البداوة هذا ، كان من أبرز الظواهر البشرية للرعاة حيث تتحرك الجموع الهائلة من الحيوان ، وقبائل بأكملها أو أجزاء منها ، تتحرك عبر الصحراء والوديان والسهول صاعدة الجبال ومنحدرة منه ، آمنة متباطئة حيناً ، أو وجلة مهولة حيناً آخر هرباً من الخطر ، محدثة من الثغاء والرغاء والصهيل والنباح والصراخ ، منتقلة بخيامها ومشاكلها اليومية المألوفة . فاذا وصلت المهجر تعقد صلات ود وألفة قد تنتهي بعقد مصاهرات مع سكان المنطقة ، أو ربما تثير خصومة تؤدي الى اراقة الدماء بينهما . وفي كلتا الحالتين تتفق الآراء أو تختلف ، وتتفرق البطون المتحالفة أو يتحالف البعض مع قبائل أخرى فتضعف بطون وتقوى أخرى ، وتبرز قيادات جديدة تغير تاريخ القبيلة .

(١) حسين كامل أبو الليف : مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ص ٩٧ وما بعدها .

ومن الآثار الاجتماعية التي نجمت عن هذا النظام تفرق السكان السودانيين الى جماعات صغيرة العدد متركزة في مواطن متباعدة ، الأمر الذى أدى الى قلة العمران * وأصبحت الهجرة الى أمد معلوم أو حتى الى غير عودة شيئاً مألوفاً ، فلم يعرف السوداني — آنذاك — الالتصاق الشديد بمكان محدود كما كان الحال لدى فلاحى مصر •

دخول الطرق الصوفية للسودان :

ومن الظواهر الاجتماعية الملفتة للنظر أيضاً في تلك الفترة ظاهرة الطرق الصوفية التي بدأت تنمو في السلطنة السنارية •

لقد هيأ المناخ السياسى والثقافى للمجتمع آنذاك أن تتبوأ هذه الطرق مكانة كبيرة بين أفراد المجتمع ، فقد كانت بمثابة الزاد الفكرى الذى يرتوى منه الرجل العادى الذى تلقى تعليماً بسيطاً ، فلم يكن يستطيع أن يناقش بعض الأمور أو الظواهر الخارقة — وما أكثرها — التى كان يبدىها بعض شيوخ هذه الطرق ، وما كان لهؤلاء الأفراد الا أن يتقبلوا هذه الخوارق التى لا تقوى عقولهم على مناقشتها • كذلك فقد ساعدت الأوضاع السياسية على أن تجد هذه الطرق التربة الملائمة لى تنمو ، فقد كان السودان آنذاك مفكك الأوصال تتنازعه سلطنات وممالك ومشيخات راح كل سلطان و « مك » لها يقنع بدائرته الضيقة غير ملتفت الى ضرورة خلق كيانات موحدة ذات حجم كبير ، ومن هنا كانت هذه الطرق الصوفية هى البديل السياسى لى ينضوى فى صفوفها كل أبناء المجتمع السودانى من شماله وجنوبه الى شرفه وغربه ، وتلاقت على باب حلقة شيخ الطريقة — على حد قول البعض — « نعال الفونج والعرب » (١) •

(١) ود ضيف الله : مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان • ص ١١٨ •

هكذا كانت بنية السودان الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١ •• اقتصاد متخلف وأوضاع اجتماعية متردية ، تلاها على القمة وضع سياسى مفكك حتى جاءت رياح الشمال لتسوق اسماعيل كامل لضم هذا الشتات ومحاولة انشاء نظام اقتصادى واجتماعى جديد •

التطورات الاقتصادية والاجتماعية (١٨٢١ - ١٨٤١) :

لقد بات من العسير ان يتطور الاقتصاد السودانى فى المرحلة السابقة من الشكل البدائى ذى الطابع القبلى ، طالما كان التفكك السياسى والادارى هو الطابع السائد بين سلطاته ومشيوخاته • فلما خضعت البلاد لادارة واحدة منذ عام ١٨٢١ ، أصبح لهذه الادارة الجديدة سياسة اقتصادية تستمد نظمها وقوانينها من مثيلتها فى مصر ، وتعتمد أساسا على تنمية واستغلال موارد البلاد المتنوعة • وتتضح هذه السياسة حين خاطب محمد على بعض المشايخ والزعماء السودانيين قائلا : « إنه لا ينقصكم شئ لكى تتجحوا فليدكم الأراضى الواسعة ، كما عندكم الكثير من الماشية والغابات الشاسعة ، وشعبكم كثير العدد كما أن رجالكم أقوياء أشداء ونساءكم كثيرات الولادة • وقد كنتم « لغاية » هذا الوقت بدون مرشد يقودكم ويأخذ بيدكم ولكن ها هو قد جاءكم هذا المرشد ، وهذا المرشد هو أنا فأطيعونى واعملوا بنصائحي وحسب ارشاداتى وسوف أقودكم الى المدنية وأجلب لكم الرخاء ••• إن مصر ليست بالاقليم الواسع المترامى الأطراف ولكنها بفضل العمل والصناعة وبفضل نشاط سكانها أصبحت عظيمة وسوف تصبح أغنى من ذى قبل ، وهذا أيضا معروف عن كافة البلاد الأخرى • وإذا صرفنا النظر عن مشارق السودان ومغاربه واكتفينا بجزيرة سنار لرأينا أنها من جهة الرقعة أكثر من عشرة أضعاف مساحة مصر ولكنها تكاد لا تنتج شيئا لأن سكانها كسالى لا يميلون للعمل • وان الإنسان اذا توانى ولم يسع ، لن ينال المقصود • ضعوا فى رءوسكم جيذا انكم بدون عمل لا تستطيعوا

أن تحصلوا على شيء •• « (١) •

من بين فقرات هذا الخطاب السابق يمكننا أن نستخلص الخطوط العامة لسياسة محمد على الاقتصادية في السودان منذ ضمه عام ١٨٢١ والتي تتمثل في دعوة السودانيين الى استغلال مواردهم الطبيعية والبشرية ، ولفت أنظارهم الى أسس بناء هذا الاقتصاد المتمثل في الأرض الواسعة والثروة الحيوانية والنباتية ، بالإضافة الى الأيدي العاملة القوية والتي يمكن زيادتها بزيادة النسل ، وأخيرا تكتمل أسس هذا البناء بمجيء المصريين الذين يمثلون الخبرة الجديدة المتطورة التي كانت لها تجربتها القوية والراسخة • لقد ركز الباشا على العمل والصناعة مطالباً الاستفادة من موارد البلاد المحلية ، وكأنه بذلك كله يرسى قاعدة اقتصادية مؤداها ان نهضة أى بلد ، اقتصاديا ، لا يمكن أن تأتى كلية من الخارج بل لابد من تسخير كافة الموارد الداخلية من طبيعية وبشرية لخلق اقتصاد قوى • هكذا كانت سياسة محمد على الاقتصادية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وقد لا نسرف القول إن خلصنا إلى أن هذه الأسس والأفكار التي طرحت آنذاك أصبحت — أخيراً — حقائق ثابتة لدى رجال الاقتصاد في القرن العشرين •

لقد راحت الادارة المصرية تنفذ برنامجها السالف في كافة المجالات ، نفى مجال الزراعة أمدت مصر السودان بما تحتاجه من الخبراء والفنيين في شئون الري والزراعة ، حيث قاموا بشق الترع واقامة الجسور الجديدة في كافة مديريات السودان (٢) كما أرسلت أعدادا كبيرة من

(١) محفظة رقم ١٢٣ — ملف متفرقات — دوسية بدون تاريخ — السودان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر أيضا : الدكتور انجلو ساماركو : رحلة محمد على الى السودان تعريب طه فوزى ص ٩ — ١٠ •

(٢) دفتر رقم ٧٦٣ ، ديوان خديوى ، ترجمة المكتبة التركية رقم ٣٠٨ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ . من مأمور ديوان خديوى الى مأمور مبيت غمر والسنبلاوين . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر أيضا : الوقائع المصرية العدد رقم ١٢ بتاريخ رمضان سنة ١٢٤٤ هـ . ص ١٦ •

« الخولية » إلى سار لتنفيذ البرامج الزراعية هناك (١) *

ونود أن نشير هنا الى حقيقة هامة وهى أن الجيش المصرى — فى هذه المراحل الأولى لبدء الادارة المصرية فى السودان — قد حمل على كاهله الى جانب مهامه العسكرية ، عبء المشاركة فى الاصلاحات الاقتصادية ، فقد إعتد محمد على بشكل رئيسى على الجيش ، وكان الحكمدار ، قمة الجهاز الإدارى فى السودان ، ومديرو المديريات وسائر الكتبة — والذين كانوا جميعا من العسكريين — هم القائمين أيضا بالاشراف على تنفيذ البرامج الاقتصادية (٢) *

وقد تفانى هؤلاء الضباط وجنودهم فى تنفيذ تلك البرامج ، فكان على حد قول البعض ، « لا يمضى ستة أشهر على إنشاء معسكر للجنود المصرية فى السودان وإقامتهم فى معسكرهم حتى يكون من المؤكد ظهور الزرع والخضر .. » ، فالمصرى — كما يؤكد أحد الدارسين — ميال بطبيعته لغرس الحدائق والبساتين ، وفى أى مكان يحل فيه يتوقع المرء أن يجد بجواره بستانا (٣) * وكان بعض الضباط يقدمون عروضاً لإنشاء سواقي فى بعض المديريات كدنفلة وبربر ، والبعض الآخر ، كان يأخذ على عاتقه مهمة اباداة جيوش الجراد ، وحفر الآبار وتطهير بعضها (٤) *

هكذا جرت محاولات محمد على فى تنفيذ برنامجه الزراعى لأنه لم يكن يرمى الى اصلاح شىء موجود أصلا ، كما كان الحال فى مصر ، بل كانت محاولاته خلقا جديدا لشىء لم يكن موجودا من قبل *

(١) دفتر رقم ٢٠ ، معية تركى ، ترجمة البيورلدى رقم ٣٢٩ بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٤١ هـ . مرسوم . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) حمدنا الله مصطفى : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالسودان بين عامى ١٨٢٠ — ١٨٤٨ . ماجستير غير منشورة . كلية الآداب جامعة عين شمس . ص ١٦٣ .

(٣) Deherain : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. p. 210.

أنظر أيضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية . الجزء الأول . ص ٩١ .

(٤) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ١٦٤ .

وفي مجال الصناعة لا يمكننا القول بأن السودان قد شهد نشاطا إقتصاديا في تلك الفترة القليلة نسبيا ، فقد كان الأمر يتطلب جهودا وامكانات خاصة ومكثفة تؤدي في آخر المطاف الى خلق صناعة • وكل ما شهدناه في هذه الفترة عدة محاولات متواضعة للبحث عن المعادن وخاصة الذهب • بالاضافة الى استمرار الصناعات اليدوية البسيطة التي تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية وغيرها • لقد اصطدمت الصناعة السودانية أساسا بخيبة الأمل في وجود الثروة المعدنية التي هي أساس بعض الصناعات ، بالاضافة لبعض المعتقدات الاجتماعية التي تحتقر هذا اللون من النشاط الذي كان ، في نظرهم ، من اختصاص النساء والعبيد (١) •

أما الجانب التجاري في السنوات الأولى لضم السودان فقد شهد نشاطا ملموسا تمثل في التطورات السريعة بالنسبة للأوضاع الأمنية التي بدأت تنتشرها الادارة المصرية في ربوع السودان منذ أن توحدت الادارة ، بعد أن كانت التجارة مهددة من جانب قطاع الطرق وخاصة بين مصر والسودان والذين وصفهم بوركهارت وقاسى من هولهم الكثير (٢) • كما بدأت الادارة الجديدة منذ عام ١٨٢١ تعمل على عقد الاتصالات مع جيرانها أمثال سلطان دارفور وملك الحبشة رغبة في فتح آفاق جديدة للتجارة السودانية وازهارا لروح المودة ، خاصة بعد أن بدأت هذه البلاد تترقب الأوضاع الجارية في السودان عقب دخول اسماعيل كامل لسنار (٣) •

ويلاحظ في هذه الفترة أيضا قيام حملات نهريية بقيادة الضابط

(١) انظر فصل الثروة المعدنية والصناعة •

(٢) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ص ٢١ • انظر أيضا :

أمين سامي : تنوير النيل وعصر محمد علي باشا ، الجزء الثاني • ص ٣١٨ •

(٣) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ملف أحمد باشا مأهور السودان ، مرفق

بالوثيقة رقم ١٥ مسلسل أصلى • بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

المصرى سليم قبطان متجهة الى الجنوب عن طريق النيل الأبيض ، وبدأت أولى هذه الحملات في أوائل نوفمبر عام ١٨٣٩ ، والثانية في ٢٣ نوفمبر عام ١٨٤٠ والثالثة في سبتمبر عام ١٨٤١ ، وتوغل هذه الحملات حتى خط عرض ٤٢° ٤° شمالاً (١) * ومن بين النتائج التى أسفرت عنها هذه الحملات فتح طريق الملاحة والتجارة في النيل الأبيض والسودان الجنوبي فاندفع التجار حاملين تجارتهم محاطين بسياسج من الأمان *

ومن أهم الأمور التى تلفت الأنظار ان للسودان في الفترة ما بين ١٨٢١ ، ١٨٢١ يكاد ان يكون مقفلاً أمام التجارة العالمية بالذات ، اللهم الا من بعض المغامرين من الرحالة والمستكشفين الذين لم تكن بغيتهم التجارة في المقام الأول ، فقد احتكر محمد على أهم السلع التى كان ينتجها كالصمغ والعاج والجلود حتى اذا جاء عام ١٨٤١ بدأ الأوروبيون في الالاحاح ، وبشكل مكثف ، لتطبيق معاهدة ١٨٣٨ التجارية مع الدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة في تطور الاقتصاد السودانى في القرن التاسع عشر *

التطورات الاجتماعية :

لا نكاد نشعر في هذه السنوات القليلة بتطورات اجتماعية سريعة من حيث البناء الاجتماعى للسودان وما طرأ على مؤسساته الاجتماعية ، ولكن يمكننا أن نرصد ونسجل ظاهرة اجتماعية هامة في هذه المرحلة ونعنى بها إنشاء المدن الجديدة في السودان والتى من أهمها :

-
- (١) انجلو ساماركو : رحلة محمد على الى السودان ص ١٢ ، ١٣ .
 انظر أيضا : ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا في عددها الصادر في يوليو ١٨٤٢ ، الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) الصادر بها أمر ساكن الجنان محمد على باشا والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البيكباشى سليم قبودان . (تعريب محمد مسعود) ص ٨ ، ص ٣٧ .
 وأنظر أيضا : فردريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا . ص ٢٤ .

١ - مدينة دنقلة « الأوردى » (دنقلة الجديدة) :

سميت هذه المدينة بدنقلة الجديدة تمييزا لها عن دنقلة العجوز، أو القديمة ، كما سميت أيضا بدنقلة « الأوردى » (الجيش) ، ذلك ان جزءا من جيش إسماعيل كامل كان قد أقام معسكرا له فيها إبان ضم السودان . وقد حرف هذا الاسم بعد ذلك الى « العرضى » (١) . وقد كانت هذه المدينة بمثابة عاصمة للجزء الشمالى من السودان وعلامة بارزة للجهود المصرية فى نشر العمران فى هذا الجزء من البلاد . وقد احتلت هذه المدينة فى تلك الفترة مكانة تجارية هامة سوف نعرض لها فيما بعد ، فقد كان يربطها طريق تجارى الى الفاشر وآخر الى الأبيض * .

٢ - مدينة الخرطوم :

تعتبر هذه المدينة من أهم المدن التى أنشأتها الادارة المصرية فى السودان وعلى الرغم من أنها خلق مصرى ، الا أن أحد التجار الأجانب راح يقرر بأنها مدينة قديمة وأنها كانت قبل ضم السودان لمصر بنصف قرن مدينة عظيمة الى أن هاجمها « الثملك » من سكان النيل الأبيض عام ١٧٧٢ ودمروها حتى جاء المصريون وأعادوا تأسيسها (٢) .

ولكن البعض ينفى تماما ما قرره هذا التاجر ، لأن ذلك يتنافى مع ما تقرره الخرائط الهامة التى رسمت لأفريقيا وحوض النيل فى السنوات السابقة لسنة ١٧٧٢ ، فقد ظهرت تلك الخرائط وهى خالية من أى مدينة أو حتى قرية كبيرة فى موضع الخرطوم ، كما أن كتابات « كايو » الذى كان يرافق إسماعيل عند ضم السودان قد خلت من ذكر مدينة أو « حلة »

(١) نعوم شقير : المصدر السابق . الجزء الاول . ص ٨٣ - ٨٤ .

(*) عن أهميتها التجارية أنظر فصل التجارة والمواصلات .

(٢) Rollet, B; Le Nile et le Soudan, p. 153.

أنظر أيضا : أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ - ١٨٨٥ رسالة دكتوراه غير منشورة ، بجامعة القاهرة ص ٤٨ ، ٤٩ .

• في موضع الخرطوم (١) •

وحاول أحد الباحثين أن يربط بين اسم « الخرطوم » وبين قبيلة « الدينكا » التي تعيش في جنوب السودان على أساس أن هذا الاسم يتكون عند تلك القبيلة من مقطعين معناهما معا (نقطة التقاء مجريين مائيين) • وهنا تثار عدة تساؤلات حول ما اذا كانت منطقة الخرطوم وطنا للدينكا قبل مجيء العرب اليها وأنهم هم الذين أعطوها هذا الاسم أم لا ؟ (٢) •

واذا ما تتبعنا نشأة وتطور مدينة الخرطوم خلال مرحلة دراستنا لوجدنا أنفسنا نبدأ من عام ١٨٢٤ حين وصل عثمان بك (١٨٢٤ - ١٨٢٦) حكام السودان الى موضع الخرطوم والذي لم يكن به من آثار الحكومة الجديدة سوى المعسكر وسوق « القش » • ورغم قصر مدة حكم « عثمان بك » فإن عهده قد شهد بداية نشاط عمراني في البلاد تمثل في قيام مدينة الخرطوم التي نقل اليها أقاليم الحكومة ومخازنها بعد أن كانت بود مدني من قبل • وعمل عثمان بك على إقامة بعض المنازل بها للموظفين ، وأكثر من هذا أعطى للمدينة أهمية تجارية بين سائر مدن السودان (٣) •

وبعد وفاة عثمان بك خلفه محو بك (١٨٢٦) الذي قام بجمع الجنود المصرية وأقام بالخرطوم ، ولكن مع ذلك وحتى نهاية عهده لم تكن الخرطوم قد ظهرت بمظهر المدن • ويرجع الفضل الأكبر في تأسيس مدينة الخرطوم الى خورشيد باشا (١٨٢٦ - ١٨٣٨) فقد بدأ في بنائها

(١) Cailliaud; Op. Cit. Tome I. p. 252.

وأنظر أيضا : أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٤٩ •

(٢) أحمد أحمد سيد : نفس المرجع ص ٥٩ - ٦١ •

(٣) Walkeley; C.F.J. «The Story of the Khartoum, S.N.R. Vol. XVIII, (٣) 1935, p. 227.

أنظر أيضا فردريك بنولا : المصدر السابق • ص ١٧ •

حين شرع في إقامة الجامع في أواخر عام ١٨٢٩ ، وبعدها بدأ أهل البلد في العمارة ، وكان خورشيد يمدّهم بالألواح والأخشاب ، كما أعطى أوامره بإزالة « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (١) .

وكان السهل الذى اقيمت عليه المدينة يخلو من مواد البناء ، الأمر الذى أدى إلى جمود عمارتها في تلك الفترة مما دفع خورشيد الى إصدار أوامره الى الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة في حلة « كوكو » بحفر الآجر من بقايا مدينة سوبا القديمة ونقله على المراكب الى الخرطوم (٢) .

وهكذا أخذت الخرطوم تسمو في مبانيها ودورها وسط أقاليم السودان المختلفة وبدأت تزدهر بينما تضمحل سنار بعد أن كانت عاصمة البلاد . ولم تكن مدينة الخرطوم في سنة ١٨٢٧ الا قرية بائسة ، ولم يكن يقطنها سوى ستمائة مواطن تقريبا ، ولكن في سنة ١٨٣٤ ارتفع عدد سكانها الى حوالى خمس عشرة ألف نسمة واتسعت مساحتها وأصبحت المدينة الرئيسية التى يقيم فيها الحكماء (٣) .

وازدهرت الخرطوم تجاريا فأصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة تقصده القوافل من كل الجهات وتحمل اليها المنتجات المتنوعة من البلاد المحيطة بها ، لذا فقد زخرت بالوكلاء التجاريين القادمين من القاهرة والقسطنطينية (٤) .

وقد أعجب القنصلان الفرنسى « دروفتى » Drovetti والانجليزى « صولت » Salt بهذه المدينة حين اصطحبهما محمد على

(١) مخطوطة كاتب الشؤون ، تحقيق الدكتور مكى شبيبكه . ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) Combés; Edward, Voyage en Egypte et Nubie : dans les deserts et Beyouda. Des Bicharys et sur les cotés et la Mer Rouge. p. 111.

Ibid. p. 111.

(٤)

معه خلال زيارته للسودان (أكتوبر ١٨٣٨ - مارس ١٨٣٩) ، حيث تساهدا هذه المدينة وهى محاطة بالحدائق الواسعة ، وفى خارجها كانت القبائل تقوم بزراعة النباتات للماشية (١) . كذلك فقد لعبت الخرطوم دورا علميا وسياسيا واجتماعيا الى جانب دورها التجارى ، حيث كانت ترسل باشاعاتها نحو دنقلة وسواكن وأثيوبيا وغانشودة والأبيض ، وكانت منطلقا لرحلات الاكتشاف تجاه منابع النيل (٢) .

٣ - مدينة محمد على :

لقد ارتبطت نشأة هذه المدينة بزيارة محمد على للسودان ، وعملية البحث عن الذهب فى شرقى السودان . ولسوء الحظ أن هذه المدينة لم تنل قسطا من الإزدهار أو الشهرة كسائر المدن الأخرى التى أنشأتها الادارة المصرية بالسودان . وكانت هذه المدينة تقع على ميمنة النيل الأزرق ، ففى خلال عمليات البحث عن خام الذهب فى تلك الجهات أعجب محمد على بموقعها فحضر خيامه بها وأمر المهندس دارنر Darnoud أن يبنى بها قصرا ، كما طلب أن يقيم المهندسون بيوتهم بجوار القصر ، بالإضافة الى ثكنات لاقامة الجنود . وعلى هذا النحو برزت هذه المدينة للوجود .

ويعود الفضل الأكبر فى بروز هذه المدينة إلى أفراد الجيش الذين كانوا يرافقون البعثة العلمية الخاصة بالبحث عن الذهب ، وكانت بمثابة مدينة عسكرية عمالية لأن الجنود أقاموا ثكناتهم بها ، بالإضافة إلى كونها مأوى للمهندسين والعمال القائمة على عملية التنقيب . وحتى يخلد محمد على ذكراه فى تلك البقعة طلب اطلاق اسمه على هذا المكان « ليزداد

Driault; La Formation De l'empire De Mohamed 'Aly, De l'arabie(١)
au Soudan Correspondance De Consuls De France en Egypte.
p. 43.

Ibid. p. 43.

(٢)

عمرانا وليذكر على ألسنة الناس » (١) • إلا أن هذه المدينة — بالذات — لم يقرر لها أن تبقى طويلا وربما يعود ذلك الى فشل المهمة التي دعت لإنشائها •

٤ — مدينة كسلا :

على أثر فتح أحمد باشا أبو ودان * لإقليم الناقة في عام ١٨٤٠ تم إنشاء هذه المدينة • فقد اتخذ هذا الحَكَمَدار معسكره على نهر « القاش » بسفح جبل كسلا ، وحين غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، وحينئذ تدفق إليها الأهالي من المناطق المجاورة واتخذوها موطنًا لهم • ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المدينة عاصمة لمديرية الناقة • وواضح تماما أن نشأة هذه المدينة وإزدهارها يعودان إلى الجيش المصري فهو الذي استقر بها وأنشأ معسكره فيها ، وبعدها راحت المدينة تنمو وتتطور (٢) •

هكذا شهدت الفترة ما بين ١٨٢١ — ١٨٤١ تطورا اجتماعيا كان أبرزها إنشاء مدن جديدة مصحوبة بتطور إجتماعي • ومما يدعو إلى الاكبار والتقدير ان هذا الجهد الذي بذل في انشاء هذه المدن لم يكن عشوائيا ، بل كان قائما على الدراسة والتخطيط ولعل نظرة فاحصة الى المواقع التي انشئت فيها هذه المدن تقيم الدليل على مدى صدق هذه المقولة ، فقد توزعت هذه المدن في كافة أرجاء السودان وربطت بين

(١) محفوظة رقم ١٢٣ مترجمة عن وثيقة تركية — ملف متفرقات دوسيه بدون تاريخ (رجب / شوال سنة ١٢٥٤ هـ) رحلة ساكن الجنان مولانا محمد على باشا الكبير • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(*) انحصرت مدة حُكماديرته بين عامي (١٨٣٨ — ١٨٤٣) •

(٢) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق • ص ٢٠٥ •

أجزائه ففي الشمال برزت دنقلة الجديدة التي كانت حلقة وصل مع دارفور وكردفان من جهة ومع الأجزاء الواقعة شمالها وجنوبها من جهة أخرى . كما أصبحت الخرطوم ، التي كانت بمثابة القلب لكونها عاصمة البلاد الجديدة ، ملتقى للتجار ، بالإضافة الى كونها مقر الحكم ، ثم كسلا التي ربطت الأجزاء الشرقية من السودان بداخل البلاد . وقد تجلى المعنى الاجتماعي من خلال الهجرات السكانية الى تلك المدن الجديدة واستقرار الوافدين اليها ومن ثم تناقصت أعداد البدو الرحل مع عمليات التوطين الجديدة ونشوء علاقات اجتماعية جديدة تتواءم وحياة المدن .

الفصل الأول

تطور الأوضاع الزراعية

- الأرض : حجمها — أنواعها — شكل الملكية الزراعية أو الحيازة ♦
- العمل : عمال الزراعة في السودان وجهود الحكومة لايجاد عمال متخصصين ♦
- الري : وسائله وتطوره ♦
 - الفصول الزراعية ♦
 - الأدوات الزراعية ♦
 - الغلات الزراعية ♦
 - الثروة الزراعية ♦
 - الآفات الزراعية ♦
 - النظم والقوانين ♦

شغل موضوع الزراعة السودانية في القرن التاسع عشر أذهان المسؤولين بمصر والسودان ، فراحوا يبحثون عن وسائل شتى للنهوض بها * وذلك لوضع الاقتصاد السوداني على عتبات العصر الحديث ، أو على الأقل مواكبته للاقتصاد المصري آنذاك ، والذي كان قد سبقه في عدة مراحل من تطوره * وإذا كانت أذهان المفكرين الإقتصاديين المحدثين ، وخاصة أولئك المشتغلين بأمور الزراعة قد وضعوا ركائز أساسية لحراسة أى نشاط زراعى لبلد ما ، وجعلوا عوامل الانتاج الزراعى المتمثلة فى الأرض والعمل ورأس المال على قمة تلك الركائز الضرورية للنهوض بالانتاج الزراعى ، فإن القائمين على هذا الأمر فى مصر والسودان أيضا قد توصلوا الى مل هذه العناصر فى القرن التاسع عشر وإن اختلفت المسميات *

فى واحد من المكاتبات المرسلة الى السودان نقرأ « بأن أساس عمار الممالك مركب على ثلاثة أشياء : الأول وجود الأرض المخصصة والأمطار ، والثانى وجود النفوس لاستعمال الزراعة بها ، والثالث التبرعات التى تلزم لنقل المحصولات وتوصيلها لمحلات البيع والشرى * » (١) *

الأرض :

وفيما يتسلىق بالعنصر الأول وهو الأرض فإنه يمكن القول بأن الأراضى السودانية كانت مترامية الأطراف ومتعددة ، وتقدر بملايين الأفدنة * وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٧١ — على سبيل المثال — الى أن الأراضى الصالحة للزراعة فى مديرية « التاكة » وحدها تبلغ نحو

(١) دفتر رقم ٣٩١٠ مئة سنة — صورة الكاكة رقم ٨ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة . ، انظر أيضا : دفتر رقم ٥٥٨ مئة تركية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . اريادة سنة الى جعفر باشا وكيل حكمة السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(بج) الشرى : مقصد بها الشراء .

المليونين ونصف المليون من الأفدنة (١) * وكانت هناك شكوى دائمة من كثرة الأراضي الصالحة للزراعة في السودان بوجه عام والتي تتركز على سواحل نهر النيل ولا تجد من يقوم بزراعتها فنركت بورا ، نظرا لقلة الأيدي الزراعية العاملة (٢) ، وتأخر الوسائل الزراعية الحديثة كالآلات التي تختزل الجهد الآدمي والوقت معا ، بالإضافة الى عامل هام ومؤثر يتمثل في عزوف الرجل السوداني عن العمل في الزراعة والتي كان يعتبرها من أعمال العبيد ، وأخيرا يمكن أن نضيف الى ذلك خيف الفلاح السوداني من عديم الوفاء بدفع الضرائب عن الأراضي للحكومة * كل ذلك ، مع غيره من العوامل الأخرى ، قد ساهم بصورة فعالة في تراكم تلك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية وتركها دون زراعة *

وفيما يتعلق بأنواع الأراضي السودانية فإنه يمكن تقسيمها إلى ما يلي :

١ - الأراضي الفراجية :

وهي تلك الأراضي التي يمكن لصاحبها أن يقوم بزراعتها مقابل دفع ضريبة للحكومة ، وإذا توفي هذا الشخص دون وارث من الذكور ، أو قصر في أداء الضريبة ، فإن الحكومة تمنحها لشخص آخر يستطيع زراعتها واستغلالها وبالتالي يمكنه أن يؤدي ضريبتها (٣) *

(١) دفتر رقم ١٨٤٧ معبة سنبة - وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ . ص ٦٩ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٧ معبة سنبة - نفس الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ ج ١ معبة سنبة عربي - صادر أقاليم ، مديرية دنقلة وبربر - وثيقة رقم ٦ ص ٣٩ بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ .

انظر أيضا : مصطفى أبو شعيشع : تاريخ الزراعة في السودان منذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ - رسالة دكتوراه غير منشورة - معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة . ص ٢٤ .

٢ - أراضي مسموح المشايخ والمصاطب :

وهي الأراضي التي تركت لمشايخ البلاد ليقوموا باستغلالها لحسابهم الخاص دون أن يدفعوا عنها أية ضرائب ، وبالإضافة إلى ذلك فقد منحتهم الحكومة نسبة معينة على السواقي التي تقع في دائرتهم بواقع « فرانستين » * عن كل مائة فرانسة نظير معاونتهم للمديرين والكشاف في أمور الإدارة وجمع الضرائب .

وفي عهد محمد سعيد لم يحصل منهم ضريبة أربعة أفدنة عن كل مائة فدان ما في حوزتهم نظير جهودهم في جباية الضرائب من الأهالي (١) .
وفي مقابل الخدمات التي كان يؤديها المشايخ والمتمثلة في تقديم الطعام والمبيت لرجال الحكومة ، كان هذا المسموح بواقع ساقية واحدة عن كل خمس وعشرين ساقية بدون ضرائب (٢) . وقد أقرت هذه القاعدة في عهد محمد سعيد أبان زيارته للسودان وقيامه ببعض الإصلاحات المتنوعة والتي شملت الجانب الاقتصادي .

٣ - أراضي الأبعادية :

من المعروف أن هناك أراض واسعة في السودان وخالية من الزراعة ، ولم تكن في حوزة أحد ، فقامت الحكومة بإعطائها للأفراد من أجل إستغلالها بوسائل مختلفة . وتشجيعا لهم في إصلاحها أعفت بعضها من الضرائب لمدة ثلاثة أعوام ، فقد حدث أن منحت الحكومة بعض المهندسين من رجالها في السودان أبعاديات من الأراضي البور بواقع

(*) الفرانسة من ١٢ - ١٥ قرشا .

(١) دفتر رقم ٧٣٤ ديوان خديوى عربى - وثيقة رقم ٤٠ بتاريخ ٢٣ جمادى الأول ١١٧٣ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ - صورة المكتبة العربية رقم ٢ في غاية جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ أمر كريم الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

مائة فدان لكل مهندس ، يقوم باستصلاحها وزراعتها ، ووفرت لهم الآلات والأدوات والبذور (١) .

وفي عهد محمد سعيد منح الضباط غير القادرين على الخدمة العسكرية أبعاديات واسعة في السودان مكافأة لهم من جانب ، وكسبا لمساحات جديدة مستصلحة ومستزرعة من جانب آخر ، ووفرت لهم الحكومة التقاوى في السنة الأولى وأعفتهم من الضريبة لمدة ثلاثة أعوام أيضا (٢) .

٤ - أراضي الرزق :

وقد منحها الحكومة منذ عهد محمد على للمقتدرين والراغبين في زراعة مساحات من الأراضي « البور » على شكل « رزقة بلا مال » أى بدون ضريبة (٣) . وقد شملت هذه الأنواع من الأراضي مناطق متنوعة في السودان ، في سنار وحلفاية وكردفان (٤) ، ودنقلة (٥) ، وبربر والجاغلين ، وأقاموا فيها السواقي تمهيدا لإستغلالها (٦) . ويبدو أن

(١) محفظة رقم ١١٣ عابدين - رحلة ساكن الجنان محمد على باشا الى السودان دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٤ معية سنية عربى - وثيقة رقم ١٩ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ من اللواء أراكيل باشا الى المعية السنية . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفتر ٣٢٤ صادر شورى المعاونة الى حاكم السودان . ملحق الوثيقة التركية رقم ١٩٣ بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٣٢٤ صادر شورى المعاونة - الى حاكم السودان . وثيقة رقم ١٩٢ بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ٣٢٤ صادر شورى المعاونة - الى حاكم السودان - ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٦) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى - من الجانب العالى الى حاكم السودان - وثيقة رقم ٣٤٢٥ بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٢٦٠ هـ .

هذا النوع من الأراضي في السودان كان يعطى أساسا للمسؤولين الكبار القادرين على خدمه هذه الأراضي * وقد بقيت هذه الأراضي مستمرة في أيدي الورثة لا تنزع منهم طالما كانوا يقومون بزراعتها * ومن أمثلة هذه الأراضي ما أعطى لحكمदार السودان أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٩ - ١٨٤٤) بمديرية الخرطوم ، وقد ظلت زوجته بعد مماته تتصرف عليها ونسنيده بريعتها (١) * ومن أمثلة هذا النوع أيضا من الأراضي ما أعطى لخليل أعا أحد المسؤولين الكبار في إدارة السودان الذين خدموا الحكومة هناك بجهه بربر * وكانت هذه الأراضي أحيانا تعطى للأشخاص بناءً على طلبهم إن كانوا في حاجة للمعيشة ، ورعاية للأطفالهم إذا ضاق الحال بهم (٢) *

٥ - أراضي الأوقاف :

وهي تلك الأراضي التي أوقفت لخدمة المساجد والمدارس ، وذلك نسيجاً لأصداً عليها على إقامة شعائر الصلاة ، وتعليم أبناء السودان ، حيث كان المسجد وما يلحق به من خلوة يقوم بهذه المهمة التعليمية التي تحتاج - دون شك - الى مورد مالى ثابت يمكن أولئك الفقهاء من الالتفات الى هذه المهام (٣) *

٦ - أراضي الحكومة :

وهي تلك الأراضي التي احتكرتها الحكومة لنفسها وقامت

(١) دفتر رقم ٤٠٨ صادر معية ، وثيقة رقم ٩٤٦ بتاريخ ٩ محرم ١٢٦٢ هـ . من الجنات العالي الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٦٠٣ . صادر ديوان الكنخدا - وتيفه رقم ٦٩ بتاريخ ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٦٥ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة - وثيقة رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان عام ١٢٥٤ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

باستصلاحها وزراعتها لحسابها الخاص ، ببعض المحاصيل كالنيلة وقصب السكر والقطن (١) . وواضح أن هذه الأراضي قد زرعت بمحاصيل ذات نوعيه خاصه كانت توليها الحكومة رعاية من نوع خاص أيضا . فالنيلة كما هو معروف كانت في أيام محمد علي تخضع للاحتكار الحكرمي ، وأما قصب السكر والقطن فكانا من المحاصيل الهامة والرئيسية في البلاد وكان الأخير - ونعني به محصول القطن - يتشكل محصولا أساسيا في صادرات البلاد سواء في مصر أو السودان ، ومن ثم لا ندعش إذا خصت الحكومة في السودان أراض خاصة لها تخضع خضوعا مباشرا لائترافها حتى تضمن سلامة هذه المحاصيل وعدم خضوعها للإهمال الأمر الذي يجعلها تضمن إستمرار تصديرها للسوق الخارجية .

وتجدر الإشارة الى أن الأراضي السودانية - طبقا للظروف الطبيعية - ليست على وتيرة واحدة ، فقد وجدت هناك : أراضى الجروف ، وهى التى تقع على ضفاف النيل وتعتمد الزراعة فيها على مياه الفيضان إذا كان الشاطئ منخفضا وعلى السواقي إذا كان مرتفعا ، وأراضى الجزائر وهى الواقعة فى مجرى النهر وتتم زراعتها عقب إنحسار مياه الفيضان ، وأراضى « المتره » وهى الأراضى التى تسقى بماء « المتره » وهى حفرة واسعة تحفر بعيدا عن النيل فيتسرب اليها ماءه وتقام عليها السواقي . وينتشر هذا النوع من الأراضى فى دنقله وبربر . وأراضى « الكروه » ، وهى عبارة عن منخفضات أشبه ما تكون بالترع يغمرها النيل أثناء الفيضان . وأخيرا أراضى « الصهارى » أو ما تعرف أحيانا بالأراضى المطرية ، وهى التى تروى بماء الأمطار ، وتكون بعيدة عن مجرى النيل (٢) .

(١) محفظة ١٩ بحر برا . وتبقة رقم ٤٩ بـساربخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ . من الجنباب السالى الى حكمدار السودان . أنظر أيضا : إبراهيم فوزى : السودان بين بدى غردون وكثشنر - الجزء الأول ص ٦٥ .
(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - الجزء الأول - ص ١٤٢ . أنظر أيضا : نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية من عام ١٨٢١ - ١٨٤٨ . ص ٦٢ .

أما ملكية الأراضي السودانية في ظل الإدارة المصرية فقد بقيت من حيث المبدأ ملكا للحكومة ، إلا أنها تركت في حوزة أصحابها ولم تتعرض لها بشيء ، بل إنها أخذت تشجع الملاك على الحصول على حجج شرعية لهذه الأراضي حتى تضافى على هذه الأراضي نوعا من الملكية للفلاحين في السودان . ولما كان الحصول على مثل هذه الحجج متعذرا أمام الكثيرين منهم فقد تركتهم الحكومة يفلحون الأرض دون أن تناقشهم في مسائل فقهية حول ملكيتهم لها ، بل صار كل ما يعنى الحكومة هو أن يظل أصحاب الأراضي يزرعونها بانتظام ولا يتركونها بورا (١) .

وكان المبدأ الذى تسير عليه الحكومة في هذا الشأن كما ورد في سجلاتها الرسمية هو « أن الأرض ملك لمن يستصلحها ويزرعها (٢) » . ومن ذلك يمكن القول صراحة أن مسألة الملكية الزراعية في السودان واثباتها لم تكن هي الشغل الشاغل لرجال الإدارة ، بل كان الهدف الأساسى أمامها هو إستغلال هذه الأراضي زراعيًا والإستفادة منها بقدر الإمكان ، ولا بأس لديها أن يكون مزارعوها ملاكا أو لا يكونون ، فالأراضي شاسعة ومترامية الأطراف ، وسكان السودان أو « العمال الزراعيون » على وجه الخصوص قليلون أمام هذه المساحات ، ولذلك فإننا نود أن نشير الى حقيقة هامة وهى أن البلاد السودانية في تلك الفترة لم تشهد نموا أو بداية نمو لكبار الملاك الزراعيين فلم يكن الرجل السودانى يحرص كثيرا — بعكس الفلاح المصرى — على تكوين أو انشاء مثل هذه الملكيات .

وربما يرجع عزوفه عن ذلك الى كثرة الأراضي الزراعية في السودان ،

(١) محمد مؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٢) دوائر محافظة سوهاج (عربى) صادر دفتر رقم ٣٥٨١ (قديم) ص / ٢٨/٥/٢/٤ ، مكتوبة رقم ٦٩ مأمورة تركز عام ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وأنه مهما حاول هذا الفلاح أن يحوز منها الكثير ، فإنها لا تضي عليه مكانة إجتماعية خاصة ، أو حتى ترقى بها إلى مكانة سياسية عليا .

وقد كانت مسألة تملك الأراضى الزراعية في السودان ومنح الحجج يخضعان لعملية اختبار دقيق للمزارع ، فإذا أظهر جده واجتهاده في فلاحه الأرض استحق أن يملكها ، أما إذا تبدى منه القصور نزعت منه وأعطيت لغيره ممن يستطيع العناية بها (١) . ونادرا ما كانت الحكومة تتدخل في بحث الملكية ألا في تلك الأمور التي شرحتها ، أو في حالة وفاة صاحب الأرض الذي لا يترك وريثا فهنا تتدخل وتسلمها لآخرين (٢) .

وأما في جنوب السودان فقد كانت الأرض ملكا للدولة ، ولم يكن معترفا بالملكية الفردية ، وربما يعود ذلك لوفرة الأراضى التي كانت للقبيلة أو الجماعة تملكها على المشاع ، فالملكية هنا هي ملكية القبيلة ككل لا الفرد بعينه ، فلم تنم بعد تلك النزعة الفردية بينهم في هذه الناحية . ويفسر أحد الدارسين عدم شيوع الملكية الفردية في تلك الجهات بأن أغلب سكان الجنوب كانوا من الوثنيين ولم يأخذوا بما حوته الشريعة الإسلامية من الاعتراف بالملكية الفردية (٣) . وربما يكون هذا التفسير غير مجانب للصواب ، فليست الملكية الفردية قاصرة على الشريعة الإسلامية ، بل إننا نلاحظ شيوع هذه الملكية في بلدان أخرى لا تدين بالاسلام ومنها أيضا شعوب وثنية . ولكننا نميل الى ترجيح التفسير الأول الخاص بالملكية الجماعية على مستوى القبيلة التي تقوم بتلبية كل

(١) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى - صورة المكاتبه الصادره من المعية السنه الى المجلس الخصوصى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٩٠ هـ . نمره ٢١ ص ٤٩ .

دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٨٣ وارد المجلس الخصوصى - صورة المكاتبه الوارده من مديرية عموم السودان الى المجلس الخصوصى بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ نمره ٣ ص ١٣٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع ص

حاجة الفرد من خلال نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا ،
الأمر الذي لم يعد فيه مجال للفرد أن يزرع نزوعا فرديا .

وقد حدث تطور في الضريبة الزراعية التي كانت تحصل على الأرض
في السودان غنى تارة في أول الأمر ، وتحصل على الرعوس من الأهلى ،
ثم هى تارة أخرى نربط مباشرة على الأرض ، ثم يعلن سعيد باشا حراخه
إرتباطها بعدد الأفدنة التي فى حوزة الشخص ، إلا أن هذا النظام
الأخير الذى وضعه سعيد ألغى على يد الحكمدار موسى حمدى الذى
أمر بتحصيلها من الأفراد الذين فى حوزتهم الأراضى . ولا نريد أن
نستطرد فى مسألة الضرائب فى السودان فلسوف نعود الى ذلك فى موضع
آخر فيما بعد . وثمة نقطة أخرى تتعلق بموضوع الأرض ، وهى أن
محمد على عندما ضم السودان لم يقيم بعمل مسح لأراضيه وإعادة توزيعها
من جديد على الفلاحين ، كما حدث فى مصر عام ١٨١٣ ، وربما يفسر
ذلك العزوف عن القيام بمثل هذه المهمة إلى إتساع الأراضى السودانية
وتفرقتها فى جهاته . الأمر الذى كان متعسرا معه القيام بعملية حصر
دقيقة لها ، وزاد من صعوبة ذلك أن الأراضى السودانية كانت متنوعة —
كما ذكرنا — من أراضى جروف الى جزائر ومطرية وغيرها ، بعكس
أراضى مصر التي كانت من نوع واحد .

وأكثر أراضى السودان لا تقاس بالفدان ، كما فى مصر ، وان وردت
احصائيات متفرقة بالفدان ، ولكنها تقاس بالسواقي و « الجدعات » .
والساقية عبارة عن ثمانية أفدنة فى الجزائر وعشرة فى البر الثابت (١) .
وأما الجدعة فهى ثلاثة حبال ونصف (٢) .

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٣ . والحبل عبارة عن ثلاثة أذرع
وقبضة وعمامة والنقضة والعمامة مقاييس قديمة فى السودان .

النهضة :

وقد اتبعت مصر أساليب ستي للاهتمام بأمور الزراعة في السودان ، وبدأت في أول الأمر ومنذ عهد محمد علي تهتم بعنصر هام من عوامل الانتاج الزراعي ونعني به عمال الزراعة السودانيين أو بمعنى آخر وأكثر اتساعا المزارع السوداني ، فقد كان هذا العنصر البشري لا يعلم من أمور الزراعة إلا قليلا ، وحتى هذا القليل كان متخلفا وباليا لا يتواءم والنهضة التي تسهدها مصر في مجال الزراعة ، ولما كان هذا العنصر البشري ضروريا ولازما في بلد كالسودان يتمتع بأراضي واسعة تحتاج الى الخبرة الفنية من أهله في هذا المجال ، فقد أرسل محمد علي فوجا منهم الى مصر من أجل هذا الغرض « ليتعلموا أصول الزراعة والفلاحة » (١) ويعودوا الى أوطانهم لنقل هذه العلوم وتطبيقها في مجال الزراعة السودانية .

وقد تطلب إلمام هؤلاء المبعوثين بأمور الزراعة البقاء في مصر سنوات أكثر عما حدد لهم إذ ثبت أنهم كانوا في حاجة إلى مزيد من التعلم (٢) . ويبدو أن النية كانت صادقة تماما في إحداث نهضة زراعية سودانية تعتمد في أساسها على أبنائها ، وكانت المتابعة لهم جادة فلم تكن المسألة مجرد سفر أو نزهة خارج البلاد وحسب ولكنها كانت تعنى أكثر من ذلك ... تعنى إلماما حقيقيا وفعليا لأحدث الأساليب الزراعية في مصر . ولما أدرك السودانيون أن محمد علي قد وطد العزم ، قولاً وفعلاً ، على أن السودان لابد وأن يكون بلدا زراعيا من الدرجة الأولى ، وأنه قد بدأ يلقي بثقله لإحداث نقله زراعية في السودان بادر بعض المشايخ في السودان من تلقاء أنفسهم في تقديم عرائض يرجون فيها

(١) دفتر رقم ٣٢١ صادر شورى المعاونة . وثيقة رقم ٦٥٨ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كُتاب الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ٣٢١ ، صادر شورى المعاونة ، نفس الوثيقة السابقة .

السماح لأبنائهم بالسفر الى مصر لتلقيهم فن الزراعة (١) * وهنا أيضا لابد وأن نشير إلى التقاء وجهتي النظر حول هذا الموضوع ، فلم تكن النية موجودة لدى الباتس فقط ، ولكنها أيضا موجودة في الشعب السوداني ، فالجميع لديهم الرغبة في بدأ نهضة زراعية على أسس علمية لإحداث نقلة زراعية في السودان *

ولم تقف الجهود عند هذا الحد بل كانت الحكومة في السودان تقدم للمزارعين البذور بأسعار رخيصة وفي متناول أيديهم ، ولم تتقاض أثمانها منهم إلا عقب جمع المحصول بشرط أن يقدم المزارع ضمانا بالسداد مختوما بخاتم أحد المشايخ السودانيين المتصلين بهؤلاء المزارعين وأيضا بالحكومة (٢) * وهذه التسهيلات في تقديرنا أقرب إلى ما تقوم به الجمعيات الزراعية وبنوك الفلاحين في مصر في الأيام الحالية *

وحرصا على نشر الوعي الزراعي بين المزارعين السودانيين اشترطت الحكومة على المهندسين الذين استقدمتهم من مصر للبحث عن المعادن في السودان — ثم منحهم أبعاديات في المناطق الخالية أو البائرة « كي يقوموا بصلاحيها — أن يلحق بكل واحد منهم عدد معين من الأهالي توطئة لتعليمهم الزراعة الفنية على أسس سليمة ، من ناحية أساليب الزراعة وطرق العناية بها وغيرها من الجوانب الأخرى (٣) * وبلغ حرص الحكومة مداه ، أنها كانت تشترط في تعيين بعض مديري ومأموري المديريات

(١) دفتر رقم ٣١٧ ، صادر شورى المعاونة . وثيقة رقم ١٠٧٦ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٥٨ هـ ، ارادة الى مدبر ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر رقم ص / ٢٧/٥/٤٠ ، مكتبة رقم ٤٨ بتاريخ ١٣ ج (جماد ثان) سنة ١٢٨٦ هـ ص ٤٠ — رسالة الى الشيخ عمر أحد نجار سواكن . انظر أيضا صورة المكاتبه الصادرة من المعية السنية الى مدبر عموم شرقى السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر نمره ٢٤ بتاريخ ٧ رجب ١٢٩١ ، دفتر رقم ١٨٧١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محافظة ١٢٣ عابدين (دوسه بدون تاريخ) رحلة ساكن الجنان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودانية أن يكونوا خبراء في الزراعة مثل « على دمنه » الذي اختير
مأمورا على دنقلة نظرا لخبرته السابقة بأمور الزراعة (١) .

ومن بين تلك الوسائل التي اتبعت للنهوض بالزراعة في السودان
على عهد الخديو إسماعيل ، ما كانت تقوم به الحكومة من إعفاء بعض
السواقي والمزروعات وخاصة الحدائق ، من الأموال المقررة عليها
ترغيبا للأهالي في مزيد من الزراعة ، وعملا على استقرارهم في الأرض
بعد أن هجرها الكثيرون ، وفروا الى أطراف السودان من جراء
الضرائب (٢) .

ولم يكتف المسئولون بمصر بهذه الوسائل للنهوض بالزراعة
السودانية ، ويقتنعوا بتلك التقارير التي تصلهم من السودان عن سير
الأمور الزراعية بها ، ولكنهم كانوا يبعثون بلجان تفتيش خاصة من مصر
« لاستكشاف الأراضى ، وفحص السواقي والحشائش » (٣) . وتقديما
تقرير عن كل ذلك ، وهى أشبه بلجان المتابعة أو المراقبة ، وعلى ضوء
نتائج هذه اللجان كانت تحدث تطورات ملموسة في نواحي الزراعة
وغيرها من جوانب الاقتصاد السودانى ، بل كان ينجم عنها أحيانا
تغييرات وعمليات نقل لكبار رجال الإدارة في السودان إذا ما تبدى
أى اهمال من جانبهم .

السرى :

وقد أولى المسئولون في السودان إهتماما كبيرا لمسألة مياه الري ،

(١) دفتر رقم ٦١ صادر المعية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٣ بتاريخ
٢٠ شعبان ١٢٥٠ هـ . الى حاكم دار السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية سنوية — مكتبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب سنة
١٢٨١ هـ من الجنب العالى الى حاكم السودان . انظر أيضا : على
ابراهيم عبده : مصر واغريقية في العصر الحديث . ص ٢٦ .
(٣) دفتر رقم ٢ أوامر عربية — أمر كريم رقم ٧ صادر الى حاكم دار
السودان بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

فقد كان الرى الحوضى ، من قبل ، هو النظام المتبع فى السودان ، وعلى وجه الخصوص فى جهات النوبة الشمالية حيث تقل الأمطار حتى تكاد تنعدم • وعندما يرتفع منسوب مياه النيل فى الفيضان تفيض المياه على الحياض المختلفة والمتاخمة للنهر فتظل هذه البقاع مغمورة بمياه الفيضان حتى يبدأ منسوب النهر فى الانخفاض التدريجى والانحسار • وبعد أن تنحسر المياه عن الحياض يبدأ الأهالى بزراعة أراضيها (١) • كذلك فقد قاسى السودانيون أيضا من جراء انحباس الأمطار الأمر الذى أدى لحدوث شح فى الحبوب وظهور مجاعات نظرا لاعتماد السودانيون فى معيشتهم على الحبوب وخاصة الذرة منها (٢) • لذلك كله كان لابد للإدارة المصرية فى السودان أن تبحث هذه المسألة وتجد لها حولا مناسبة ، ففى محاولة لادخال الرى الدائم فى السودان قام المسئولون بتوجيه عنايتهم الى حفر الترعة والقنوات فى كثير من جهات البلاد ، ففى جهة دنقلة على سبيل المثال جرى حفر ترعة ، وأرسلت لذلك آلاف الفئرس للقيام بعملية الحفر (٣) • وفى عام ١٨٤٣ صدرت الأوامر بحفر مجرى مائى فى طريق عتومور الكائن بين (أبو حمد) وكرسكو ، وأسندت هذه المهمة إلى أحد المهندسين وبعض تلامذة « المهندسخانة » حيث تم توفير جميع الأدوات والتسهيلات اللازمة لانتقامها (٤) •

(١) مصطفى أبو تسميش : المرجع السابق . ص ٩ .
(٢) محفظة ١٩ بحر برا تركى — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ من المير مران أحمد منلكلى الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الوقائع المصرية : العدد رقم ٢٣٢ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٤٦ هـ . ص ٢ ، وأنظر أيضا دفتر رقم ٧٧٤ ديوان خديوى — ترجمة المكاتب التركيه رسم ٦٨ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٦ . من الجناب العالى الى مدير بربر . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة وثائق عن تاريخ السودان . ص ١٢ ، أنظر أيضا سجل تركى رقم ٢٠٨٨ وارد ديوان المدارس من غرة المحرم ١٢٥٩ هـ الى ١١ جمادى الآخرة ١٢٥٩ هـ — ترجمة الخطاب التركى رقم ٩٢٥ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٢٥٩ . من الشورى الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ذلك فقد تم إقامة السدود على مجارى بعض الأنهار لحجز مياه الفيضان واستغلالها في الزراعة كما حدث بالنسبة للسد الذى اقيم على نهر الجاش في اقليم التاكة على عهد الحكماء أحمد باشا أبو ودان والذى تم فتحه على يديه عام ١٨٤٠ ، وبذا أمكن الاستفادة من زراعة مساحات كبيرة من أراضي هذا الاقليم عن طريق التحكم في هذه المياه التى كانت تضيع سدى من قبل (١) *

وفي سواكن قام المسئولون بإيجاد الحل الملائم لمشكلة المياه سواء للزراعة أو للشرب ، فقد وجدت آلاف الأفدنة الصالحة للزراعة في حالة إهمال بسبب شح المياه فأرأوا ضرورة الاستفادة من مياه السيول التى تسقط في المنطقة والتي كانت أيضا تضيع دونما أية فائدة ، ولذلك فإنهم توصلوا الى أسلوب أمثل حيث كانت السيول تتجمع في خور يسمى بـ « التمانيب » (٢) ، وبدأوا يتحكمون فيها تماما ويعيدون توزيعها من هذا الخور الى ترع بلغ طولها ستة آلاف متر * وقد بدأ هذا المشروع في عام ١٨٦٩ وتم انجازه على وجه السرعة وبدأ يعطى حوالى مائتين وخمسين ألف متر مياه صيفا وشتاء ، وبذلك أمكن استمرار زراعة المحاصيل طوال العام بعد أن كانت موسمية وتقتصر على أنواع محدودة من المحاصيل الزراعية * وقد شارك في إنجاز هذا المشروع الحيوى ممتاز باشا (٣) *

وفي عام ١٨٧٢ وأثناء مرور محافظ مصروع على جهة « زلا » * التابعة للمحافظة لاحظ جملة أراضي متسعة صالحة للزراعة ، وبها خور لجرى السيل من جهة الحبشة فاقترح القيام بسده لحفظ المياه والاستفادة

(١) مصطفى أبو سعيد : المرجع السابق . ص ١٤ .
 (٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص ٤ / ٢ / ٢٨/٥ ج ٢ — مكتبة رقم ٢ بناربخ ٩ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٣) زلا : ميناء صغير جنوب مصروع .
 (٤) دفاتر محافظة سواكن — الوثيقة السابقة .
 (م ٤ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

برى الأرض المجاورة له ، وبالفعل تم البدء فى هذا المشروع وتنفيذه (١) .
وفى بعض جهات كردفان حيث تشح المياه ويبقى الاعتماد فقط على مياه
الآبار ، كان لابد من مواجهة هذه المسألة فقامت الحكومة باستكشافات
مكثفة بحثا عن أماكن مناسبة لحفر آبار للمياه ، وتوجت هذه الجهود
باستكشاف العديد منها فى (وادى أبو قري) و (وادى الرزان)
و (وادى جوز الحرما) (٢) .

ومن قبل إمتدح الرحالة جون بتريك ، الذى زار كردفان عام
١٨٤٧ ، مثابرة المصريين فى إيجاد المياه لزراعة الحقائق والبساتين وذلك
بحفر العديد من الآبار على الرغم من عمق مياهها الجوفية (٣) .

وفى عهد محمد سعيد استمرت هذه المحاولات التى جرت لإيجاد
مصادر جديدة للمياه ، ففى أحد أوامره لمدير الخرطوم طلب مدة
للقيام بحفر آبار للمياه فى الطريق الموصلة بين وادى حلفا والخرطوم (٤) ،
حيث كانت هذه المنطقة تكاد تكون خالية من الآبار على الرغم من أهميتها
كطريق بين السودان ومصر ، وكان يرمى من وراء حفر هذه الآبار
الاستفادة منها سواء فى الزراعة أو لسقى المسافرين المارين بهذه
الجهات .

وتابع الخديوى اسماعيل طريق أسلافه البحث عن المياه فى
السودان بشكل جدى ومنظم ورصد لهذا الأمر البعثات الكشفية ، ففى

(١) جورج جندى و جاك ناجر : اسماعيل كما بصوره الوثائق الرسمية
ص سجل رقم ١٨٤٨ - معبنة عربى .
(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى - عدد رقم ٧ بتاريخ غرة
ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ السنة الثالثة - ١١٩٧ دوريات دار الكتب
المصرية .

(٣) Petherick, J.: Egypt, the Soudan and Central Africa. (٣)

pp. 300 - 307.

(٤) دفتر رقم ١٨٩٣ صادر الأوامر - صورة الأمر الكريم رقم ٦ ص
٤٨ - الى مدير سنار والخرطوم فى ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٧٦ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلمة .

أواخر عام ١٨٧٤ كلف الخديوى اسماعيل « ستون باشا » رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بإعداد بعثتين كشفيتين تتجه إحداهما الى كردفان والأخرى الى دارفور ، اشترك فى الأولى ضباط مصريون أمثال أحمد حمدى وفى الثانية أيضا أمثال محمود صبرى وغيرهما . ولقد أسفرت الاستكشافات التى أجرتها هاتان البعثتان ، وخاصة الأولى منهما والتى تولى قيادتها الفعلية أحمد حمدى ، على طول المسافة الواقعة بين الدبة والأبيض ، عن أن الآبار المائية الموجودة بتلك المناطق تتميز بعذوبتها ووفرتها ، وأن أعماقها تتراوح فيما بين أربعة أمتار وخمسة وعشرين مترا الأمر الذى يشير الى مدى الجهد المضى الذى أنفقته الحكومة فى هذا السبيل . وبالإضافة الى ذلك فقد تمكن رجال البعثة المصرية من استكشاف مجموعة أخرى من الآبار كانت تقع فى عدد من الوديان المختلفة مثل وادى « أبو سدير » و « أبو أندراب » وغيرهما . وقد لاحظوا كثرة الآبار فى وادى « عيلاي » إذ كان يوجد به نحو ثلاثة وعشرين بئرا موزعة على إتساع مساحة الوادى التى تبلغ ميلين تقريبا ، وكانت أعماق هذه الآبار لا تزيد عن أربعة أمتار ومياهها قليلة ، ماعدا الآبار الموجودة بوسط الوادى التى تتميز بغزارة مياهها . كما أن جميع هذه الآبار تتميز بعذوبة مياهها (١) .

كذلك فقد حرص أفراد البعثة المصرية على إستكشاف عدد كبير من الأخوار المائية الموجودة بتلك المناطق والتى أصبحت إحدى المصادر الهامة لجلب المياه ومن أهمها أخوار الطريفة « وأبو سدير » و « البريجة » و « أبو هشيم » و « وأبو شاهين » و « الحسنائى » و « المزروب » و « وأبو عروق » وغيرها ، وقد كانت مياه هذه الأخوار تتكون من جراء

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الثانى — العدد ٧ بتاريخ غرة ربيع أول سنة ١٢٩٥ هـ (٥ مارس سنة ١٨٧٨ م) . تقرير بتملق بأشغال الاستكشافات التى أجراها من الدبة الى بندر الأبيض مركز مديرية كردفان صاغثول أغاسى أركان حرب تحت رئاسة « كولستون » . ص ٩٧ ، ص ٩٨ . ، أنظر أيضا : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو اسماعيل ص ١٧٣ ، وما بعدها .

سقوط الأمطار ، كما لوحظ أن بعضها كان ينبع من الجبال القريبة منها كجبال « الطريفة » و « الصنقور » و « الجلود » و « الأبرق » وغيرها • وكان المجرى المائى لهذه الأخوار يتراوح ما بين ثمانية أمتار وعشرين مترا ، وأعماقتها لا تزيد عن ثلاثة أمتار ، وقد تأكد أفراد البعثة من أن كثيرا من هذه الأخوار كانت تصب مياهها في الصحراء المجاورة ، بينما تصب بعضها كأخوار وادى « الزراق » و « المزروب » و « أبو عروق » في « بحيرة الصافي » وقد أجرى أفراد البعثة بعض الكشف عن هذه البحيرة فلاحظوا أن مياهها لا تتكون من مياه الأخوار فحسب ، بل أيضا من جراء إنحدار مياه الأمطار إليها حيث كانت أرضها منخفضة ، وعلى هذا فقد كانت المياه بهذه البحيرة غزيرة جدا الأمر الذى أهلها لأن تكون موردا مائيا هاما سواء للزراعة أو لسقى حوالى عشرة آلاف دابة تقف إليها يوميا حيث كانت تلك المناطق متميزة بتربية الماشية وتعتمد عليها اعتمادا رئيسيا •

كذلك فقد أنسار أفراد البعثة الى وجود بحيرة أخرى تبعد عن بحيرة الصافي بمسافة خمسة وسبعين ميلا تقريبا بالقرب من بلدة « كجر » أطلق عليها الأهالى اسم « مصارين » وتقل في حجمها عن سابقتها كما أن عمقها لم يكن ليزيد عن مترين ، ومياهها كانت تتكون أيضا من مياه الأمطار التى تتجمع في الوديان القريبة منها وتنحدر إلى البحيرة • وتوجد حول هذه البحيرة ثمانية آبار كان يفيد منها الأهالى في الحصول على المياه عقب انتهاء موسم سقوط الأمطار وجفاف البحيرة • كذلك فقد توصل أفراد البعثة إلى إكتشاف مناطق جديدة تصلح لحفر الآبار مثل منطقة وادى « أبو قمرى » الواقعة بين « برق عجيل » و « البريجة » ومنطقة « وادى الزراق » الممتدة بين « الهاويجى » و « الصافي » ومنطقة وادى جوز الحرما الواقعة بين الصافي و « كجر » (١) •

(١) حربه أركان حرب الجيش المصرى : العدد السابق ص ٢٩٨

وفي تقرير الضابط الأمريكي « بروت » ، الذى وصل الى الخرطوم فى أوائل مايو ١٨٧٥ وبدأ مهمته الكشفية على رأس بعثة مصرية بدأت رحلتها من أم درمان فى ٢٠ مايو ١٨٧٥ متخذة حذاء النهر طريقا ثم اتجهت نحو الأبيض ، نلاحظ وصفا دقيقا أيضا للآبار المائية التى مر بها فى طريقه مثل آبار « أبو جراد » و « الحطبة » و « الدناج » وغيرها . وقد لاحظ أن المياه الموجودة بها كانت على أعماق بعيدة ، تتراوح بين ثلاثين وخمسين مترا . بالإضافة الى قلة هذه المياه المستخرجة وإن كانت عذبة ، ولذلك فإنه أوصى فى تقريره بضرورة العمل على حفر آبار أخرى جديدة فى أماكن متفرقة حتى تنتشر مصادر المياه فى تلك الجهات (١) .

وفي أواخر عام ١٨٧٥ قام الضابط المصرى محمود صبرى على رأس بعثة كشفية إلى المنطقة الشمالية الغربية لدارفور ، وتحرك بالفعل من الفاشر فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ واستمرت بعثته حتى ٣٠ يناير ١٨٧٦ قدم على أثرها تقريراً الى بوردى ، ومن بين ما جاء فيه أن بعض القرى فى تلك الجهات التى زارها لم تكن تجد صعوبة فى الحصول على المياه إذ كانت تجاورها وديان مختلفة تنتشر بها عدة آبار مائية مثل آبار « وادى المجدوب » وآبار « وادى كتم » وغيرها فى كوبيبة والدور و « أبو سكات » و « أبو عرديب » وغيرها أيضا ، وقد لاحظ كثرة الآبار فى وادى كوبيبة غربى الفاشر حيث كان يتميز عن بقية الوديان الأخرى باتساعه ، ويتجه مجرى هذا الوادى من الشمال الى الجنوب حيث ينبع من جبال « سى » الواقعة على بعد خمسة عشر

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة - الجزء الأول من المجلد الأول - العدد ١ بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ١٣٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير وارد لديوان الجهادية من طرف المسيو « براوت » بكباشى أركان حرب ، ويتضمن نتيجة الأعمال الكشفية التى أجراها فيما بين الخرطوم والأبيض بولاية كردفان . وصورته بتعريب عمر أنندى رشدى بكباشى أركان حرب ص ١٢ .

ميلاً شمال شرقى بلدة « كبكبية » ويتوقف جريانه عند بلدة « دار الزريقات » جنوباً حيث يكون بركا ومستنقعات وذلك عندما تكون الأمطار قليلة ، أما إذا كانت الأمطار غزيرة فإنه يستمر في جريانه نحو الجنوب ، حيث يصب في بحر « الزريقات » الواقع جنوب دارفور والذي يسير مجراه من الغرب الى الشرق ليصب في بحر الغزال (١) .

وفي مجال البحث عن وسائل أخرى لجلب المياه بصورة منتظمة وسريعة إقترح المسؤولون بمصر إستخدام « طلبات هوائية » كذلك التى تستخدم في أوروبا لرفع المياه الى الترع ، والعمل على تدريب المزارعين السودانيين على استخدامها (٢) ولا شك في أن ادخال هذا النوع من الآلات سوف يزيد من حجم المياه المستخدمة في الزراعة بصورة ملموسة عما كان يتم رفعه بواسطة السواقي المستخدمة منذ القدم * وفى عهد الحكمدار اسماعيل أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٧) تم استخدام الآلات البخارية في أعمال الري (٣) .

ولم تكن الإدارة في السودان لتقبل أى نوع من التقاعس في مسألة مياه الزراعة ووصل الأمر بها - في بعض الأحيان - الى وقفه صرف مرتبات بعض المسؤولين عن هذا التقاعس (٤) ، فقد كانت لا تقبل ترك

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة - الجزء الأول من المجلد الأول - العدد ١ في ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير يتعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقدم من محمود أفندى صبرى يوزباشى أركان حرب الى ميرالى أركان حرب رئيس مأمورية استكشاف دارفور . ص ٤٩ .

(٢) محافظ أبحاث السودان - محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ .

(*) أدخلت الساقية التى كان يجرها ثور الى السودان منذ أربعة

قرون .

Smith Hempton : The New African : p. 25.

(أنظر :)

(٣) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر .

ص ١٩ .

(٤) دفانر محافظة سواكن : دفتر ص / ٢٨/٥/٢/٤ ، ورقم قديم

(٣٥٨١) مكتبة رقم ٦١٤٥ بتاريخ ٢ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« قيراط واحد بدون زراعة » (١) • وفي سبتمبر عام ١٨٧٥ اقترح أن يتم انشاء مقياس للنيل في جهة بربر بعد مصب نهر عطبرة مشابها للمقياس الموجود بمنيل الروضة بمصر • ولا شك أن مثل هذا العمل يعد قمة مشروعات الري في السودان ، إذ عن طريقه يمكن معرفة زيادة وعجز المياه (٢) •

الفصول الزراعية :

هناك ثلاثة فصول زراعية في السودان وتحسب بالأشهر القبطية وهى : الدميرة وهو فصل الفيضان ويبدأ من أواسط بؤونه ويستمر لمدة ثلاثة أشهر وتزرع فيه أرض السواقي ، والشتوى وهو فصل نزول النيل ويبدأ من أواسط شهر توت ويستمر لمدة ستة أشهر وهو أهم الفصول الزراعية ، وفيه تزرع أرض السواقي بعد حصاد زراعة الدميرة وتزرع أيضا الجروف والجزائر التى يغمرها النيل وأرض « الكروه » وأرض « الأمطار » • وآخر هذه الفصول الفصل الصيفى وهو فصل التحريق ومدته ثلاثة أشهر من أواسط برمهات إلى أواسط بؤونه وتزرع فيه أرض السواقي والجروف وتحصد مزروعات هذا الفصل قبل أوانها وغالبا ما تكون علفا للمواشى وذلك حتى يتم إعداد الأرض لزراعة الدميرة (٣) •

أما الأراضي المطرية فليس لها سوى فصل واحد هو فصل الأمطار ، ويمتد سقوط الأمطار في كثير من جهات السودان وحتى شمالى بربر • أما مديرية دنقلة فكانت الزراعة فيها بواسطة السواقي

(١) دفتر رقم ٣٤٧ ، صادر تحريرات مديرية بربر والجاعلين — مكانة رقم ٥ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٢٦٥ هـ . الى حاكم المنة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) محفظة رقم ١١ جهادية تركى — مكانة من الجناح العالى الى دولة ناظر الجهادية بتاريخ ٧ شعبان ١٢٩٢ هـ . انظر أيضا : أبين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث . ص ١٢٦٣ .

(٣) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٤٣ .

المقامة على النيل • ويستخدم السودانيون بالإضافة الى الساقية الثابتة الذي يشبه الساقية إلا أن له تجاوي في جسم الاسطوانة بديلا عن الأواني الفخارية في الساقية •

ومن أهم الآلات الزراعية المستخدمة في السودان المحراث والزحافة وتسمى « واسوق » ويستخدمها فردان أو فرد واحد وهي عبارة عن لوح خشبي مستوي يسحب من الأمام بحبل مزدوج من سطح اللوح الخشبي لتسوية الأرض وعمل الجسور ، والقصابية وتستخدم لتسوية سطح التربة ، وعصا الزراعة ، وهي عصا خشبية تنتهي بطرف مقوس ومفلطح وحاد وتدفع هذه العصا لاحتداث حفرة توضع فيها البذور ، وبالإضافة الى تلك الأدوات هناك الفأس والمنجل رستينة الحصاد والنورج والمذراة •

الغلات الزراعية :

القطن :

إذا حاولنا أن نتكلم عن أهم المحاصيل الزراعية في السودان ، فلا شك أن القطن يأتي في مقدمتها من حيث الأهمية البالغة التي أولاها له المسئولون في السودان • وقد عرف السودانيون القطن منذ زمن بعيد وصنعوا منه أقمشة عرفت باسم « الدمور » وكانت هذه الأقمشة تقوم مقام العملات النقدية في الأسواق ، إلا أن ذلك القطن كان من أردأ الأصناف (١) •

وحتى في مصر في أوائل القرن التاسع عشر كان القطن الذي يزرع

English, G. B. : Narrative of the Expedition to Dongola (١)
and Sennar. pp. 18-21.

انظر أيضا :

Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. p.

بها من نوع ردىء أيضا ولا يصلح الا « للتجيد » * وفى سنة ١٨٣١ حدث فى مصر تحول كبير فى زراعة القطن ، ذلك أن المسيو جوميل Jumel الذى جىء به من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج لاحظ نوعا جيدا من القطن فى حديقة محو بك فأعجب برتبته ، ونصح محمد على بتعميم زراعته فى الأراضى الزراعية بدلا من قصره على الحدائق (١) .

ولقد لفت نظر محمد على إرتداء أحد رجاله وهو المعلم حنا الطويل لثوب جديد مصنوع من قماش قطن « مكاده » بالحبشة ، فبعث الى حاكم سنار طالبا إرسال كمية من تقاوى هذا القطن لتجربة زراعته فى مصر (٢) . وطلب محمد على إجراء التجارب فى المزارع الحكومية بمصر ، وأسفرت النتائج عن وجود نوعين من القطن المكادى : أحدهما ذو لوزة سوداء ولم يعط محصولا وفيرا ، والنوع الآخر ذو لوزة خضراء ويعطى محصولا جيدا ، فأمر الباشا بالتوسع فى زراعة الصنف الأخير (٣) . وبمرور الوقت ساءت بذرة هذا النوع من القطن (٤) .

وقد أبدى محمد على إعجابه ، فى عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ — حين زار السودان — بالنتائج التى توصل إليها محو بك فى زراعة القطن بالروصيرص ، فطلب إرسال كميات من بذرته لزراعتها فى مصر بعد أن تغيرت بذرة

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٥٨٥ .
(٢) دفتر صادر معية تركى — ترجمة المكتبة التركية رقم ٦٢٩ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٤٠ هـ من الجنب العالى الى البك الكتخدا . انظر أيضا دفتر ٢٠ معية تركى — ترجمة المكتبة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤٠ هـ من الجنب العالى الى محو بك حاكم سنار . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ١٦٩ — ترجمة المكتبة التركية رقم ٩٠١ بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ من مجلس شورى المعاونة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) دفتر رقم ٢٠٠ عابدين — ترجمة الأمر العالى — رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجنب العالى الى حاكم السودان . دار الوثائق القومية .

المقطن المصري وهبطت بالتالى أسعاره فى أوربا (١) . واستمر السودان يبيع ببذور المقطن ذات النوع الجيد الى مصر لاستخدامها فى الزراعة (٢) ، وأحيانا كانت ترسل بعض الشجيرات المزروعة بعد عمل كل الوسائل والإحتياطات اللازمة لوصولها سليمة إلى مصر (٣) وهذا لا يعنى أن مصر ظلت تستورد هذه البذور والشجيرات على مر الأيام ، ولكن ذلك كان من قبيل التجارب ، بل إن مصر هى التى كانت — فى أحيان كثيرة — ترسل ببذور القطن إلى السودان عندما يحدث شح فيها حيث يتم توزيعها على الفلاحين هناك (٤) .

وكانت الحكومة تقوم بتشجيع الفلاح السودانى على زراعة القطن وذلك بتزويده بالبذور وتعليمه طريقة زراعته . ولم تقتصر زراعة القطن على فئات معينة كالمزارعين فقط ، بل طلبت الحكومة أن يقوم الآخرون أيضا بزراعته ، وحذرتهم جميعا من عدم زراعة كافة البذور وأن لا تترك «ولا بذرة واحدة» (٥) . كذلك ، لأجل زيادة تشويق المزارعين

(١) دفتر رقم ٢٠٠ عابدين — ترجمة الأمر العالى رقم ٨٣٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجنب العالى الى حكام السودان . دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٢٢٩ ديوان الكتخدا ١ — وثيقة رقم ٨٣ بتاريخ ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ . ، انظر أيضا : دفتر ٦٣٩ ديوان الكتخدا — وثيقته رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ الى الباشمعاون . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر — ج ٢ دفتر ص ٨٥/٥/٢/٤/ مكاتبه رقم ٤٣ — مأبورية توكر بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر ، نفس الدفتر السابق ، مكاتبه رقم ٥٤ بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفاتر محافظة سواكن (عربى) نفس الوثيقة السابقة ص ١١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المسودانيين على الإقدام نحو زراعة القطن على نطاق واسع ، قامت الحكومة برفع أسعاره عند شرائه منهم (١) .

ووصلت عناية المسؤولين بزراعة القطن إلى حد أنهم كانوا يبعثون من مصر بمراسلات تشرح الطريقة المثلى لزراعته ، ويبدو أن زراعة القطن في السودان لم تكن تحتاج إلى جهود ضخمة كما هو الحال بمصر ، من حيث تكرار الحرث والري ، بل يزرع ببذر تقاويه في الأرض مثل الذرة ، ثم تنظف الحشائش ، ولما ينمو الشجر لا يتأثر مطلقا بشيء ، ويروى أن شجرة القطن في السودان تعيش حتى عشرين سنة (٢) . ويتضح من ذلك أن شجرة القطن في السودان تعطى محصولا لسنوات متتالية ، وإذا ما غرست أغراس جديدة من القطن كل عام أصبحت الأراضي الخالية — على حد قول أحد المسؤولين آنذاك — « غابات قطن » (٣) . وحتى الجراد الذي عرف بخطورته في السودان لا يحدث ضررا بالغا على القطن ، فبالرغم من أنه يأكل أوراقه وفروعه إلا أن الشجيرات تنمو ثانية بعد ذهاب الجراد وتظل تعطى محصولا وفيرا . أما زراعة القطن في مصر فلا تنجح إلا عاما واحدا من شدة البرودة ، حتى أن القطن الذي تتأخر لوزاته في أيام الصيف يثلف من البرودة أيام الشتاء ويضطر إلى إعادة زراعته مرة أخرى . أما في السودان فإن القطن يعطى لوزات صيفا وشتاء إذا ما وجد ماء يرويه . وفي أيام الصيف إذا شححت المياه تسقط أوراقه ، أما اللوزات « فتتكرمش » وتبقى ، وبعد زوال الحر تنتج أوراقا ولوزات جديدة (٤) .

(١) دفاتر محافظة سواكن (عربى) ص ١ / ٤ / ٢ / ٥ / ٣٨ ج ٦
(رقم قديم ٣٥٥٣) الى محافظ السواحل بتاريخ ١٢ جماد أول سنة ١٢٨٨
من مكتبة رقم ١٠٩١ ص ٢٠ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ وثيقة رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق بالقاهرة .
(٣) محافظ أبحاث السودان — محفظة ١٨ ، نفس الوثيقة السابقة .
(٤) محافظ أبحاث السودان . نفس الوثيقة السابقة . دار الوثائق
اقومية بالقاهرة .

ومن بين الوسائل الأخرى التى اتبعت لتشويق الفلاح السودانى فى زراعة القطن أن الحكومة كانت تبعث — أحيانا — ببعض تقاوى القطن دون أن تتعاطى منه شيئا سواء بالنسبة للأسعاره أو نفقات نقله ، بالإضافة إلى أنها كانت تبعث إليه بالخبراء اللازمين فى شئون زراعة القطن لتبصيره بأفضل السبل فى زراعته (١) . وكانت أيضا لا تلزم الفلاح السودانى بدفع الأموال على الأراضى التى تزرع قطناً ، بل كانت تكتفى بتحصيل العسور (٢) .

وفى مقابل تلك التسهيلات كانت الرقابة صارمة على زراعة القطن فى السودان ، فلم يكن يسمح بأدنى تهاون ، لأن هذا المحصول ، على حد بعض التعبيرات التى رددتها أحد كبار المسئولين آنذاك ، « ينتج منه ذهب أحمر ، ومن محصوله يتيسر سداد الأموال بمواعيدها . وترتفع المشتقات والمضايقات . » (٣) وفى واحدة من الوثائق نقرأ تعنيفا شديدا لأحد المسئولين بسواكن ، ذلك لأنه سمح للمزارعين أن يضعوا بكل نقرة أكثر من ثلاث حبات من التقاوى حتى يفرغوا من زراعته على وجه السرعة (٤) . وكانت زراعة القطن فى السودان أشبه بالمعارك وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل ، فها نحن نقرأ إحدى الرسائل التى بعث بها مأمور « سنكات » بسواكن يشكو فيها من قلة الذين جندوا من العمال لإنهاء عملية زراعته ، ويطلب توفير المزيد منهم حتى « يصير

-
- (١) دفتر رقم ١٩٣٨ — صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٨٠ بباربع غرة المحرم سنة ١٢٨٨ هـ — دار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (٢) دفتر رقم ١٩٣٨ — صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (٣) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص ٢٧/٥/٤ — مكتبة رقم ٦٣ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ص ١٦١ — دار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (٤) دفاتر محافظة سواكن — نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

الهجوم على زراعته « في أيام قلائل قبل جفاف الأراضي وانقضاء موسم الزراعة (١) » .

ولقد ازدهرت زراعة القطن في عهد الخديوى اسماعيل فى السودان ولا سيما فى الأجزاء الشرقية منه ، وفى أحد التقارير المرسلة الى المسئولين بمصر نجد بيانا وافيا بأراضى السودان الخصبة والصالحة لزراعة القطن ، فى مصوع مثلا هناك ١٢٠١٢٠٧٤٩ فداناً تصلح لزراعته .

وفى سواكن وطوكر وبعض الجهات المجاورة يوجد ما يربو على مائتى ألف فدان من الأراضي التى يمكن ريها بواسطة السيول فقط وتكون جاهزة لزراعة القطن . وفى مديرية الناقة توجد أراضى مساحتها أكثر من سبعة ملايين فدان ، منها ما يزيد عن مليونين فى وادى القاش ، ويمكن زراعة مائة ألف فدان من أراضى هذه المديرية (٢) . وفى مأمورية القصارف شرقى سنار والخرطوم حيث تقل الجبال والرمال فى هذه الجهة فان جميع أراضيها منبثة وصالحة للزراعة ، وتتساقط قبل موسم هطول الأمطار فاذا أمطرت السماء إنساب الماء فى هذه السقوف وتشتبع الأرض بالماء ، وفى هذه الحالة يمكن زراعة مائتى ألف فدان من القطن (٣) .

وفى جهات سنار حيث التربة الصالحة تجود أيضا زراعة القطن (٤) ،

(١) دوائر محافظة سواكن — دفتر رقم ص ٢٧/٥/٤ (رقم تسديم ٣٥٨٠) — مكتبة رقم ٩ ص ١٥ الى مأمور سنكات بسواكن بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) محفظة ١٥٣ عابدى باريخ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ هـ وهذه البيانات موجوده بالمحفظة رقم ٢٣ ، دفتر ١ رقم ١ من محافظ ابحات السودان .

(٣) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

F. O. 87-1404 Chartum. Decemb. 10 th. 1857. John (٤)

Petherick to L. Muller, H. B. M's Acting Councul Cairo.

ونظرا للمساحات الشاسعة من أراضيها ، فإنه يمكن أن تتجاوز المساحات المزروعة قطننا بها ثلاثمائة ألف فدان (١) .

وفي مديرية الخرطوم توجد حولها أراضى بها القليل من الرمال ، وبها مواطن كثيرة للقبائل على النيلين الأزرق والأبيض وبحر عطره ، وجميع أراضيهم تروى بماء الأمطار ، بالإضافة إلى وجود أكثر من ألف ساقية ، وإذا أضفنا إلى ذلك كله توفر وسائل النقل في المديرية نظرا لوجودها قرب الأنهار أمكن زراعة حوالى مائتى ألف فدان قطن بها .

وفي مديرية كردفان ، خاصة الجزء الجنوبي (٢) منها ، يمكن زراعة مائة ألف فدان من محصول القطن (٣) . وفي مديرية بربر — لاسيما عند تلاقى نهر عطبرة بالنيل وفي الزاوية المنفرجة التى أوجدها تلاقيهما — بضعة مئات ألوف من الأفدنة صالحة للزراعة ويمكن زراعة مائة ألف فدان منها قطننا . وفي مديرية دنقلة حيث توجد أراضى صالحة للزراعة بواسطة السواقي ، كان من الممكن زراعة نحو ستين ألف فدان من الأقطان (٤) .

ومن هذا كله يتبين لنا مدى المساحات الشاسعة التى يمكن زراعتها قطننا فعلا آنذاك ، ويجب أن نلاحظ أن هذا لا يعنى عدم إمكان زيادة هذه المساحات التى ذكرت ، ولكن على العكس من ذلك توجد مساحات أخرى من أراضي المديريات السودانية يمكن بقليل من الجهود أن تضاف إلى المساحات السابقة ، إذ كان نقص الأيدي العاملة في السودان يمثل واحدة من المشكلات التى تقف أمام التوسع الزراعى هناك ،

(١) محفلة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة . ، انظر أيضا : دفتر ١٨٤٧ معبة سعدة ، وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١١٨٨ هـ ص ٦٩ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) انظر : F. O. 78-1404 Op. Cit.

(٣) محفلة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

بالإضافة إلى سوء وسائل نقل المحصول سواء باستغلال الأنهار السودانية أو غيرها من وسائل النقل الأخرى في أماكن إنتاجه .

ويرتبط إسم أحمد ممتاز في السودان بالقطن وخاصة في الجزء الشرقي من البلاد . فقد شغل هذا الرجل وظيفة محافظ سواحل البحر الأحمر في عهد الخديوي إسماعيل ، وبذل جهودا مضيئة في إستكشاف الأراضي الصالحة لزراعة القطن وتشويق الأهالي إلى الزراعة ، وطلب من مصر ارسال مقادير وافرة من البذور الجيدة وآلات لحلجه وكبسه واستخراج المياه (١) .

ولقد أراد ممتاز باشا الاستفادة من مياه السيول التي تضيع سدى واستخدامها في الزراعة ولا سيما زراعة القطن التي كانت شغله الشاغل آنذاك ، وذلك عن طريق عمل خزان لها قرب سواكن يتسع لحوالي مائتين وخمسين ألف متر مياه صيفا وشتاء ، كما سبق أن ذكرنا ، وقدرت تكاليفه بثمانمائة كيسة (٢) . ولم تكن قيمة هذا المشروع تكمن في زراعة مساحات واسعة من الأراضي المخصصة لمحصول القطن أو غيره من المحاصيل ، ولكن أيضا في توفير مياه الشرب العذبة ، بالإضافة إلى توفير قدر من المال للحكومة من جراء فرض مبلغ زهيد من المال لقاء هذه الخدمات (٣) ، ويبدو أن هذا المبلغ الذي فرضته الإدارة هناك كان بقصد تغطية نفقات هذا المشروع . ففي مكان يدعى « شطة » أقام أحمد ممتاز سدا ترابيا ضخما لعمل هذا الخزان ، وسخر له الأهالي لإنجازه بأسرع وقت ممكن . ولقد لاقى أحمد ممتاز

(١) دفتر رقم ١٩٣٨ — أوامر صفحة ١٨ ، صورة الأمر الكريم الصادر إلى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال ١٢٨٧ هـ . انظر أيضا :

Holt, P. M.; A Modern History of the Sudan, p. 73

(٢) محفظة ١٩ بحر برا ، وثيقة رقم ٢١ — تقرير أحمد ممتاز محافظ سواكن بتاريخ ٩ شعبان ١٢٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — نفس الوثيقة السابقة .

بعض المصاعب من جانب جعفر مظهر باشا الذى شكاه الى الخديوى اسماعيل ، ولكن — كما يذكر البعض — لم يلتفت الخديوى الى ذلك الأمر ، فقد كان تفكيره فقط مركزا على القطن وكيفية زيادة أسعاره وقيمة الأموال التى تتأتى من ورائه خاصة وأنه كان يطلب المال بأى وسيلة لسداد ديونه • وبدلا من أن يعاقب ممتاز باشا دعاه إلى القاهرة لشرح أفكاره حول زيادة إنتاج القطن السودانى ، فكشف ممتاز باشا عن مشروع لانتاج نصف مليون قنطار قطن سنويا فى شرقي السودان ، وبناءً على الصورة الوردية التى رسمها ممتاز للخديوى طلب الأخير إليه أن يضع مشروعه فى حيز التنفيذ (١) •

وفى عام ١٨٧٠ عينه الخديوى حاكما عاما على الأراضي الممتدة فى سواكن ومصوع حتى الساحل الصومالى • وازاء هذا النصر الذى ظفر به ممتاز باشا راح ينفذ مشروعه ، وتحت تأثير من سلطته طلب من مدير التاكه أن يقوم ببناء « أطواف » * فى قوز رجب على نهر عطبره حتى يتم نقل قطن دلتا « القاش » الى مصر عبر النيل (٢) •

وفى عام ١٨٧١ أرسل الخديوى ، وربما ليتأكد من أن ممتاز باشا لم يخدعه ، مستشاره الخاص شاهين باشا كنجد ليقدم له تقريرا عن مدى التقدم الذى أحرزه فى انتاج القطن ، وبالفعل وجد هذا المستشار أن ممتاز باشا عند وعده للخديوى ويعمل على قدم وساق فى إنجاز مشروعه القطنى ، وأثنى شاهين باشا على المشروع فى « شطه » ، وأوصى ببناء ترينكيتات Trinkitat (أطواف — أرماس) قرب توكر لشحن القطن ، ونصح بزراعة المزيد من الأراضي حينما لاحظ وجود الكثير من الأراضي

Hill, R ; Egypt in the Sudan. p. 115.

(١)

(*) الأطواف هى عبارة عن ألواح خشبية يشد بعضها الى بعض وتستخدم فى النقل عبر النيل •

Hill, Ibid. p. 115.

(٢)

انظر ايضا : مكى شبكه : السودان عبر القرون • ص ١٦٩ •

جاهزة للزراعة وتمتد من منطقة راوية الى عقيق (١) * ونظراً لنجاح زراعة القطن في طوكر ألزم كل شخص هناك بزراعة مساحات من الأراضي أقلها من أربعة الى خمسة أفدنة * ومن يأبى ذلك يفرض عليه « إجباريا » ، على حد قول ما ورد في إحدى المراسلات — ، « * ما دام القصد هو حصول النفع لهم لا لخلافهم واتساع معاشهم وانقاذهم من درجة الضيق * » (٢) *

وتتمتد مواسم زراعة القطن من أبيب الى أمشير * ، وفي زمن الصيف لا يعترضه أى ضرر بسبب ترادف الأمطار ، وكذلك في الشتاء لا يخشى عليه من شدة البرودة نظراً لقرب السودان من خط الاستواء ، وهكذا فإن الحرارة والبرودة لا يحدثان أى ضرر على زراعة القطن السودانى في تلك المنطقة (٣) *

وتجدر الإشارة هنا إلى إرتفاع أسعار القطن سواء في السودان أو في مصر في تلك الفترة من عهد اسماعيل وذلك بسبب الحرب الأهلية الأمريكية ، وانقطاع تصديره من الولايات المتحدة الى بلدان العالم الخارجى وخاصة أوروبا ، ولكن عقب انتهاء هذه الحرب ما لبث التجار أن انصرفوا عن شراء أقطان السودان (٤) *

Hill, Op. Cit. p. 116.

(١)

أنظر أيضا شوقى الجمل : الوثائق السياسية لسياسة مصر في البحر الأحمر . ص ١٠١ .

(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص ٢٧/٥/٤٠ . مكتبة رثم ١١٢ بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ هـ . ص ٨٣ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) أبيب وأمشير من الشهور القبطية ، وكان يسير وفقها الفلاح السودانى وغالبا ما يتبادل شهر أبيب شهر بولية ، وشهر أمشير شهر غبرابر .

(٤) دفتر رقم ١٨٤٧ — معية — من محافظة سواحل البحر الأحمر — الى المعية السنية بتاريخ ٥ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ هـ ص ١٤٦ — وثيقة رقم ٣ مرور . دار الوثائق بالقاهرة .

(٤) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥

ص ١٠٣ ، أنظر أيضا : Holt ; op. cit., p. 73.

(٥ م — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

ولقد جرت محاولات ضخمة لنقل القطن من مواقع الإنتاج وحتى وصوله إلى مصر ، وكان الجمل إحدى الوسائل التي ينقل عليها القطن من الحقول إلى النهر ، وحينئذ تقوم المراكب بنقله إلى بربر ، وممره أخرى تقوم الجمال بنقله عبر الصحراء من « أبو أحمد » إلى كرسكو ، على هيئة قوافل في مدة تصل من عشرة إلى خمسة عشر يوما ، ثم تشحن إلى سلال أسوان ، وعليها هنا أن تقطع مسافة ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال بالجمال حتى تصل إلى أسوان ، ومرة أخرى يتم شحن القطن إلى الاسكندرية عبر النيل (١) * ومن ذلك كله يتبين لنا أن محصول القطن كان يمثل واحدا من أهم المحاصيل الزراعية السودانية في عهد الإدارة المصرية ، وعلى وجه الخصوص في عهد الخديوى اسماعيل ، ولقى اهتماما مكثفا من المسؤولين في جميع مراحله بدءا من إنتقاء البذور ومرورا بتمهيد الأرض وتوفير المياه وإنتهاءً بنقله إلى مراكز الشحن والتصدير ، كذلك وضح لنا أيضا أن المسؤولين كانوا يسيرون وفق برامج وخطط مدروسة يقوم على تنفيذها رجال أكفاء أمثال ممتاز باشا في شرقى السودان ، والذي إستحق أن يقرن إسمه مع اسم القطن في السودان ، بالإضافة إلى وجود رقابة صارمة عليهم جميعا ، فكل هذه الخطوات كانت حلقات في سلسلة قوية ، وكل حلقة منها تؤدي إلى الأخرى لذا كانت النتيجة الطبيعية لكل تلك المقدمات المنطقية والعلمية إنتاج وفير من القطن غطى الاستهلاك المحلى في السودان ومصر وتم تصدير كميات ضخمة منه إلى الخارج استطاعت في فترة من الفترات أن تسيطر على الأسواق الأوروبية والعالمية * وفي النهاية أيضا إستطاع إنتاج القطن أن يساهم في ميزانية الدولة بما وفره من نقد ضخم أدى أيضا إلى التخفيف من الأزمة المالية التي كانت تمر بها مصر في تلك الآونة *

الذرة :

ويعد محصول الذرة من المحاصيل الرئيسية والتقليدية في السودان

اذ أنه كان يعد الغذاء الرئيسى للمواطن السودانى ، وتوجد عدة أنواع له أهمها : « الفترينه » و « الكمرقى » ويزرعان فى شرقى السودان ، وأم قرظ والصفرا ويزرعان على النيل الأبيض و « المقد » وهو من أجود أنواع الذرة السودانية (١) •

وتزرع الذرة فى الأراضى التى تعتمد على الرى الدائم أو الرى الفيضى أو أراضى المطر • وكان السودانىون يقومون بزراعتها مره واحدة فى العام ، ولكن فى بعض المناطق زرعوها مرتين فى العام ، كأقاليم النوبة الشمالية ، فالزراعة الأولى كانت تعرف بالزراعة الشتوية عقب الفيضان ويتم حصادها فى نهاية شهر مارس ، والزراعة الثانية هى الزراعة الصيفية وتبدأ بنهاية شهر ابريل ويتم حصادها فى شهر يوليو- (٢) •

وبالإضافة الى مناطق النوبة الشمالية فى زراعه الذرة نجد منطقة التاكة تحوز على شهرة واسعة فى إنتاجه حيث أنتجت أنواعا منه ذات سلالات ممتازة سواء من حيث كبر حجمها وجودة نوعها ونساعة بياضها وطيب مذاقها ، لذلك فقد كان يشتد طلب الأهالى عليها فى أنحاء السودان لدرجة أن خبز القمح لم يكن يفضل الخبز المصنوع من الذرة إلا قليلا (٣) •

ولقد حرص البشاريون فى عطبره على زراعة الذرة ولكنهم على الرغم من إمكانية الانتاج بصورة تكفى حاجاتهم ، فإنهم كانوا يعتمدون على إنتاج جيرانهم ، فكانوا يجلبونه من « قوز رجب » التى كانت تصلها

(١) نعوم شقر : المرجع السابق . ج ١ ص ٣٦ •

(٢) Ibry C. L & Mangles : Travels in Egypt & Nubia p. 14.

أنظر أيضا : مصطفى أبو شعبشع : المرجع السابق . ص ١٦٤ •

(٣) بوركهارت : المرجع السابق . ص ٣٠٥ •

الغلال من إقليم التاكة • كذلك فقد كانت الذرة هي المحصول الرئيسى عند الميرغاب فى بربر (١) • وفى جبل دول لم تجد العساكر فى أواخر ١٨٤٥ أى نوع من الحبوب أفضل من الذرة والتي كان الأهالى يحرصون على زراعتها (٢) • وحتى فى هرر أيضا حرص الأهالى على زراعة الذرة (٣) ، وكذلك فى فيزوغلى (٤) •

وفى محاولة لإدخال سلالات جيدة من الدرة إلى السودان ، نظرا للإقبال الشديد عليها من الأهالى ، قامت الإدارة المصرية هناك بتجربة نوع من الذرة الحبشية كانت تعطى محصولا وفيرا ، وبالفعل نجحت التجربة حيث أعطى كل عود ذرة ما بين « سبعة كيزان أو ثمانية » مما جعل محمد على يطلب تجربة زراعته بمديرية القليوبية بمصر (٥) • ويذكر فرن Werner المهندس الألمانى الذى رافق سليم قطبان فى رحلاته لكشف النيل الأبيض أن سليما قد أعطى السلطان (لاكونو) زعيم قبيلة البارى غلات زراعية من أجود السلالات ومن أهمها الذرة النيلية والذرة المويجة (٦) • وكان إنتاج الذرة فى السودان يعمل على سد الاستهلاك المحلى ، بل وترسل منه — فى بعض الأحيان — كميات ضخمة الى مصر يتم شراؤها من الأهالى حسب الأسعار الجارية « بدون

(١) دفتر رقم ١٥٨١ — صادر من خلاصات جمصة الحقانية — ونسقة رقم ١١٣ بتاريخ ١١ صفر ١٢٦٢ هـ — دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ٣٧٨ بعية تركى — ترجمة الارادة رقم ١٣٣٢ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٦١ ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) حريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد ٦ بتاريخ غرة رمضان سنة ١٢٩٤ هـ .

(٤) الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ ، بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(٥) دفتر رقم ١٦٩ صادر شورى المعاونة أقاليم — ترجمة المكاتب البركية رقم ٦١٣ بتاريخ ٥ ذى الحجة سنة ١١٥٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦) Werner, Expedition to discover the Sources of the White Nile in the years 1840 - 1841, Vol. II. p. 77.

مجبورية « (١) وأحيانا أخرى كان يحدث العكس حيث ترسل مصر تقاويه اذا حلت مواعيد زراعته وكان المخزون قد نفذ ، فكثيرا ما كانت تحدث ضائقة شديدة بسبب قلة هذا المحصول نظرا لعدم هطول الأمطار بالسودان (٢) • وكان الفائض من الذرة أحيانا أخرى يباع ومن أثمانه تحرف ماهيات بعض الجنود بالسودان (٣) •

الدخن :

ويجىء الدخن ، وهو حب صغير أصفر ، في المرتبة التالية للذرة كأحد المحاصيل الغذائية في السودان ، بل انه في كردفان كان يعد غذاء رئيسيا للأهالى (٤) ، حيث يعتمد عليه حوالى ٩٠ ٪ من سكانها • كذلك فإنه يزرع في أقاليم النوبة الشمالية •

وتتم زراعة الدخن في بداية موسم الأمطار ، ولا يحتاج في زراعته إلى عناء شديد ، اللهم إلا شخصين فقط أحدهما يحفر الأرض حفرا متباعدة بمسافات محددة ، ويقوم الآخر بوضع البذور في كل الحفر ثم يردمها بقدمه ، وتتم عملية نموه في فصل الصيف ويستغرق نضجه حوالى أربعة أشهر • ويعطى الفدان الواحد من الدخن متوسطا قدره

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى - صورة المكاتب العربية رقم ١ ص ١٣ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير الخرطوم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٣ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٢ هـ • ارادة سنة الى ممتاز باشا محافظ سواكن ومصوع ، أنظر أيضا : دفتر ١٨٨٦ - أوامر عربى - صورة المكاتب العربية رقم ٦ ص ٦٩ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير اسنا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر ١٠٠٧ نظارة المالية - الى جدة وبلاد السودان وغيرها - وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ الى حضرة خالد باشا حاكم السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد ٨ بتاريخ غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ • ص ٥٨٢ •

حوالى نصف أردب (١) • ويستخرج من الذرة والدخن شراب « البوظة »
أو الماريسة (٢) •

القمح :

أما القمح فلم تكن الأهالى تهتم بزراعته كثيرا لأنه لم يشكل غذاء رئيسيا لهم ، وكانوا يستعيضون عنه بالذرة • والمناطق التى كان يزرع بها قليلة جدا سواء فى النوبة الشمالية أو كردفان • وكانت زراعته تتم بواسطة الرى الدائم عن طريق الآبار خاصة فى فصل الجفاف •

واشتهرت المحس بزراعته خاصة فى جزيرة « صاى » ورغم تشجيع الحكومة على زراعته الا أن إنتاجه ظل قليلا وكان تناوله يعد نوعا من الشرف (٣) •

محاصيل أخرى :

كذلك فقد كانت زراعة الشعير قليلة فى السودان ، وهذا القليل منه كان يزرع فى دنقلة بشمالى السودان • ومن بين المحاصيل التى لقيت اهتماما كبيرا فى السودان ، كانت النيلة ، حيث استخدم محصولها فى صباغة الملابس ، وكانت فى بادئ الأمر تنمو برياً دون تدخل بشرى (٤) ، ولكن الادارة المصرية فى السودان لم تقنع بهذا المحصول الضئيل منها

(١) دفتر رقم ١٦٢٦ ج ٢ معية سنية — عربى صادر اقاليم مديرية كردفان ونيقة رقم ١١ ص ٨٩ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٧ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نعم شقير : المرجع السابق ج ١ ص ٣٦ .
(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكتبة العربية رقم ٥ ص ١٨ بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ . الى مدير كردفان .

انظر أيضا : مصطفى أبو شعيشع : المرجع السابق . ص ١٧ .
(٤) دفتر ١٩٧ معاونة جهادية — ترجمة المكتبة التركية رقم ٤٤٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ . من حكمدار السودان الى الجناب العالى :
دار الوثائق اقليمية بالقلعة .

فرأت أن تقوم بزراعتها والتوسع فيها والعمل على تحسين أنواعها لأن نباتها ينمو دون عناء ، فضلا عن أن استخراج الصبغة منها سهل وميسور ، بالإضافة الى ما يدره هذا المحصول من أرباح طائلة (١) .

ولقد نجحت زراعة النيلة نجاحا عظيما نتيجة الجهود الضخمة التي أولتها الحكومة لزراعتها ، وقد لاحظ ذلك الرحالة هوسكنز Hoskins خلال زيارته للسودان حيث خصصت لريها في « دنقلة العرضى » خمسة آلاف ساقية (٢) . وفي أرقو وحدها خصص لزراعتها خمسمائة ساقية (٣) . وفي كردفان زرعت مساحات شاسعة منها وبعثت الحكومة بخبيرين لزراعتها ، وآخرين لتجهيزها من حيث استخراج الصبغة منها . وعقب نضج المحصول كانت غالبا ما ترسل البذور الى مصر في صناديق أعدت لهذا الغرض (٤) . وكانت الحكومة تسارع بمد يد العون عند حدوث أى نقص في التقاوى ، التي تعددت أنواعها كالهندية منها والشامية (٥) ووصل الاهتمام مداه ساعة أن طلب محمد على من حاكم دنقلة أن يمتنع عن زراعة القطن ويتوسع في زراعة النيلة (٦) . وقد لا ندهش لذلك الطلب اذا ما علمنا أن النيلة في عهد محمد على كانت تدخل ضمن المحاصيل الاحتكارية التي كانت تعتمد عليها البلاد بدرجة أساسية في دخلها القومي ، ولم يكن القطن عند محمد على في ذلك الوقت قد أصبح

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان . ص ٣٠ .

(٢) Hoskins ; Travels in Ethiopia. p. 177.

(٣) حسن أحمد إبراهيم : محمد على في السودان . ص ١٥٢ .

(٤) دفتر رقم ١٨ صادر المعبة . وثيقة ٦٧١ بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٤٠ هـ . من الجناح العالى الى البك الكتخدا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) دفتر رقم ١٩٧ معاونة جهادية - الى حكامدار السودان - ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ . أنظر أيضا : دفتر رقم ٦٠٠ ديوان الكتخدا - وثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ٩ شوال سنة ١٢٦٥ هـ . الى حكامدار السودان - دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦) دفتر رقم ٢٦ معية تركى - ترجمة المكاتبه رقم ٦٠ بتاريخ ١١ جمادى الآخر سنة ١٢٤٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

يمثل محصولا رئيسيا ونقديا في السودان بل كان ذلك على عهد اسماعيل باشا *

وقد بلغ انتاج السودان من أقراص النيلة المصنوعة سنويا آلاف الاقات (١) * وكان الفدان الواحد من أوراق النيلة يعطى حوالى خمسين قنطارا ، ويمكن الحصول على مائة وستة دراهم من كل قنطار واحد (٢) *

ونود أن نشير هنا الى أن الحكومة ظلت تحتكر محصول النيلة في عهد محمد علي ، فكانت تشتري القنطار الواحد من الفلاح السودانى بسعر ١٢ قرشا ، وكانت تباع هى الأقة الواحدة على شكل أقراص مجففة بسعر خمسة وسبعين قرشا للنوع الممتاز من الدرجة الأولى ، وخمسين قرشا للدرجة الثانية وخمسة وثلاثين قرشا للدرجة الثالثة (٣) * وقد ظلت الحكومة تحتكر النيلة حتى عام ١٨٣٩ حيث أعلن محمد علي إبان زيارته للسودان حرية التجارة فيها ، مع إستمرار المعونات السابقة التى كانت تقدم لزراعيها من قبل للتوسع فى زراعتها (٤) *

وكان لهذا الإعلان أثر طيب فى نفوس الفلاحين السودانيين خاصة فى دنقلة — أهم مناطق زراعة النيلة فى السودان — الذين كانوا قد

(١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف متفرقات السودان ، وثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٢ صفر ١٢٥٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر بدون رقم — ديوان خديوى تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٢٧ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٥ هـ . من الجناح العالى الى حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ٢٩٧ معاونية جهادية — ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) دفتر رقم ١٩٧ — معاونية اقاليم — صورة المكاتبه رقم ٨٠٨ بتاريخ ١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناح العالى الى حاكم السودان دار الوثائق القومية بالقاهرة .

تقدموا بالتماسات الى الحكومة يرجون فيها السماح لهم بزراعة النيلة ،
وبالفعل أجيب طلباتهم ومنحوا « رخصا لزراعتها » (١) .

الأرز :

ومن المحاصيل التي حاولت الادارة المصرية زراعتها في السودان
بشكل منظم الأرز ، فقد كان هذا المحصول من قبل ينمو برياً ، بالإضافة
الى ما كانت تزرعه من قبل قبائل البقارة في كردفان على شواطئ
البحيرات ، وكذلك في جنوب السودان (٢) . الا أنه كان من النوع الرديء
ذى الحبوب الصغيرة والمذاق غير المستساغ .

أما تلك الجهود التي بذلت لإدخال أنواع أخرى جيدة فكانت تتمثل
في إرسال بعض التقاوى من الأرز المصرى لتجربته في أراضي السودان .
ويبدو أن هذه التجربة كان مصيرها الفشل ، اللهم الا في بعض المناطق
القليلة في السودان (٣) .

وفي سنار فشلت زراعته على عهد محمد على ، رغم الجهود المكثفة
التي بذلت من أجل زراعته ، وقد شرح المسئولون عن زراعته عوامل
الفشل التي كانت تتمثل في صعوبة وصول المياه الى أراضي سنار نظرا
لارتفاعها ، وكانت النتيجة أن العائد من زراعة هذا المحصول لم يغط
نفقاته ، الأمر الذي دعا الى العدول عن المضي في زراعته (٤) .

(١) دفتر رقم ١٩٧ — معاونة اقاليم — صورته المكاتبه رقم ٨٠٨ بتاريخ
١٣ ربيع باى سنة ١٣٥٨ هـ — من الجنب العالى الى حكمدار السودان .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) F. O. 78 - 1404. Chratum Decemb. 10 th. 1858 John Pethrick to Muller.

(٣) دفتر رقم ١٠ معية نركى — ترجمة المكاتبه التركيه رقم ٣٣٨ بتاريخ
٧ شعبان سنة ١٢٤١ هـ من حاكم سنار الى الجنب العالى . دار الوثائق
القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٧٦٤ دبوان خديوى تركى — ترجمة القرار التركى رقم
١١٧ ص ٤٠ بتاريخ غرة المحرم سنة ١٢٤٦ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

وفي دنقلة نجحت زراعته نسبيا ، الا أن نفقات انتاجه أيضا كانت باهظة ، الأمر الذي جعل القائمين على زراعته يقصرونه على مساحات محدودة تكفى فقط حاجة عساكر الجهادية المقيمة بدنقلة (١) • فمن المعروف أن العساكر المصرية قد اعتادت أن تتناول في وجباتها مقداراً من الأرز ، وأصبح هذا الطعام بحكم العادة ضرورياً ، فلما وصلت هذه العساكر الى السودان كان لابد أيضاً أن تستمر قائمة طعامهم كما هي ، وكثيراً ما وقع رؤساء الجنود في مأزق بسبب تأخر ورود الأرز من مصر ، وأيضاً بسبب عدم زراعته في السودان أو بمعنى أدق عدم نجاحه في التربة السودانية ، ولذلك فقد جرت كل تلك المحاولات لسد هذا النقص من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكي يعتاد عليه الشعب السوداني كما هو المتبع بمصر ، خاصة وأن السودان له من الأراضي الواسعة ما يساعد على تحقيق هذه الفكرة إذا ما زلت بقية الصعاب الأخرى كالمياه وغيرها • ورغم ذلك كله لم تنجح زراعة الأرز في السودان وأصبح اعتماده كلياً في القرن التاسع عشر على ما تنتجه مصر • ومن المدهش أن الجهود قد وقفت الى هذا الحد في محاولات زراعة الأرز في السودان ، واستمرت الأوضاع كما هي حتى القرن العشرين !

قصب السكر :

وقد جرت محاولة لإدخال زراعة قصب السكر في السودان ، وهو من المحاصيل الجديدة التي أدخلتها الإدارة المصرية في السودان ، وقامت بتجربة زراعته في مساحة بلغت ثمانية عشر فداناً بدنقلة بقصد استخراج السكر منه (٢) •

(١) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى تركى — ترجمة المكاتب التركية رقم ٥١ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥ هـ • من حاكم دنقلة الى الجناب العالى •
(٢) دفتر رقم ٤٤ معية تركى ترجمة المكاتب التركية رقم ١٤٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ من الجناب العالى الى حكامدار السودان ، انظر أيضاً شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل — ج ٢ ص ١٤٢ •

ويبدو أن زراعته في السودان كانت مبشرة في بادئ الأمر مما دفع الحكومة الى التوسع في زراعته في جهات بربر وسنار للملائمة مناخهما ، وتوفر المياه اللازمة بهما عن طريق السولقى ، لدرجة أن مأمور دنقلة طلب من الحكومة إنشاء مصنع للسكر فيها وإرسال خبر في هذا الشأن (١) .

ولقد تم إنشاء مصلحة حكومية للإشراف على زراعة القصب في بلدة « الكاملين » على النيل الأزرق وفي جنوب (أبو حمد) (٢) . ومع ذلك كله لم يكتب لزراعة قصب السكر في السودان النجاح التام أو الاستمرار ، فلم يقبل الأهالي على زراعته ، ووقفت المياه حائلا دون نجاحه إذ أن زراعته تحتاج إلى كميات وفيرة منها وبشكل منظم ، بالإضافة إلى جهد شديد يبذل في زراعته ورعايته . وهكذا قدر لهذا المحصول الفشل رغم المحاولات الجادة التي بذلت في البحث عن عوامل فشله (٣) ، ورغم المقدمات الطيبة التي ظهرت في تجاربه الأولية .

البن :

ومن المحاصيل التي عرفها السودانيون أيضا البن ، والذي يعتبر من أهم المحاصيل الزراعية في ساحل البحر الأحمر الغربي وخاصة في منطقة هرر ، والذي فاق في جودته سائر أنواع البن ، حتى أن البن الذي كان يباع في « مخا » باليمن ، والذي اشتهر بجودته ، هو في الحقيقة بن هرر زرع بها وقام التجار بتصديره وبيعه في مخا (٤) ،

(١) شوقي الجمل : المرجع السابق . ص ٤٤ .

Hoskins : op. cit. p. 5.

(٢)

(٣) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن السودان .

ص ١٠ .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصري — السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ .
الجزء الخامس — المجلد الأول ، أنظر أيضا : الوقائع المصرية العدد رقم ٦٥٦ الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٣٩٣ هـ (٢٣ أبريل ١٨٧٦ م) ص ١١٠ .

ذلك لأن الم عرف قد جرى آنذاك أن ينسب البن الجيد الى محل بيعه .
وقد اشتهرت عدة قبائل في هرر بزراعتة مثل قبائل « اللالا » ،
و « اينو شرشر » و « اويورا » و « العروس » (١) . وتثمر كل شجرة
من أشجار البن في السنة مرتين وكان مقدار ما يتحصل من الشجرة
المتوسطة سبعة أرطال هررى وكل رطل يقدر بحوالى ٢٤٤ درهما (٢) .
وقد كان أمراء هرر يحتكرون زراعة البن في تلك المنطقة ولا يسمحون
للأهالى بزراعتة ، ولكن الادارة المصرية تدخلت في هذه المسألة ،
وسمحت للأهالى أن يشاركوا هم أيضا في زراعتة ، وطلبت إعلان ذلك
للناس جميعا ، وأن يقوم الحكماء بنفسه بالمرور على الأهالى للتأكد
من تنفيذ هذا الأمر . وزيادة على ذلك طلبت بذل الجهد في زراعتة
وتحسين انتاجه ، وأوصت بالاستعانة بخبراء في هذا الشأن من الانجليز
ممن لهم دراية بذلك (٣) .

وفي مديريةية خط الاستواء أيضا جرت محاولة لزراعتة هناك ، حيث
قام أمين باشا باستيراد البن من أوغندا القريبة من المديرية ، وأدرك أنه
ظالما نجحت زراعتة في تلك الجهات المجاورة فانه بالتأكد سوف تنتج
محاولته أيضا في المديرية وبالفعل أتت محاولته بنتائج طيبة ونجحت
زراعتة بمديرية خط الاستواء (٤) .

ولقد أدخلت الادارة المصرية في السودان كذلك الكثير من أشجار

-
- (١) جريدة أركان حرب : العدد السابق ص ٤٦٢ .
(٢) جريدة أركان حرب — السنة الثامنة — العدد ٦ بتاريخ غرة شعبان
١٢٩٤ هـ ص ٤٧٤ .
(٣) جورج بنجدي ورجاك ناچر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية
ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ ، انظر أيضا : سجل رقم ١٠ أوامر عربية بتاريخ ١٢
شوال سنة ١٢٩٢ هـ (١١ نوفمبر ١٨٧٥) رقم ٤ ص ٣٧ ، انظر أيضا :
شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٢٩ وأيضا
شوقى الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر ص ٢١٨ .
(٤) محمد طوسون ، تاريخ مديريةية خط الاستواء — الجزء الثانى — ص ٥٥ .

الفاكهة كالبرتقال والليمون والرمان والعنب (١) • وكان البطيخ يزرع في السودان من قبل وخاصة في جهتي دنقلة ودارفور • وكانت له فائدة كبرى — بجانب أنه فاكهة — في دارفور حيث يستخدم كبديل للمياه طوال موسمه ، ولا يمكن للأهالي أن يقتربوا من مخازن المياه الا بعد نفاذ البطيخ (٢) •

وتوجد أنواع أخرى كثيرة في منطقته هرر كالموز والنانج والسفرجل وغيرها (٣) ومن الجدير بالذكر أن بساتين الفاكهة في عهد الخديوى إسماعيل كانت تعفى من الضرائب تشجيعا لزراعتها والإكثار منها (٤) • وقد عرف السودانيون أيضا زراعة الخضروات ، ولكن زراعتها لم تكن قد أخذت بعد شكلا كبيرا ، فمثلا لم يزرع في هرر إلا صنف البطاطس (٥) ، ويبدو أن الخضروات في تلك الجهة كانت في حاجة الى المياه الدائمة والمعدبة وهذا ما لم يكن يتوفر ، بل أن أحمد ممتاز أوضح في تقرير له عام ١٨٦٩ إلى عدم توافر هذه العوامل لإنجاح زراعة الخضر في معظم أنحاء السودان (٦) •

وقد اشتهرت السودان وخاصة سنار بانتاج نوع من التبغ وكثر

-
- (١) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي . ص ١٩٨ ، انظر أيضا :
عمر طوسون : المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ •
- (٢) سجلات السودان — دفتر حسابات دنقلة وبربر رقم ٥٥٠٠ من
العهده ١٢٦٠ ١٢ ثشوال سنة ١٢٩٢ هـ ص ١٠ ، انظر أيضا : السيد
يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن التاسع عشر .
ص ١٨٥ •
- (٣) جريدة أركان حرب : العدد ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ .
ص ٤٦٢ •
- (٤) دفتر رضم ٥٢٩ محبة سنوية — مكتوبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب ١٢٨١
من الاحزاب العالي الى حكامدار السودان . دار الوثائق القومية باقطة .
- (٥) جريدة أركان حرب : العدد السابق . ص ٤٦٢ •
- (٦) محفلة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ١٢١ بتاريخ ٩ شعبان سنة
١٢٨٦ هـ . من أحمد ممتاز الى مهمند دار جناب الخديوى بمحافظ أبحاث
السودان محفلة رقم ٢١ دفتر ١ •

تداوله خاصة في منطقة سُندى ويسمى باسم « تابا » ، وعقب إمتداد الحكم المصرى للسودان أدخلت زراعة نوع جديد من الدخان في بلاد القُضارف إمتاز بجودة نوعه وعرف باسم « التنباك » (١) .

كذلك فقد عرف السودانيون زراعة الكتان الذى كان ينمو برياً وخاصة بكردفان ، وقد طلب المسئولون بمصر جلب بعض منه لتجربته في مصر لمعرفة مدى فائدته في صنع الحبال ، ويبدو أن تجربته قد أظهرت نتائج مشجعة مما دعا المسئولين الى التوسع في زراعته خاصة في جهة دنقلة ، وقد طلب حاكمها السماح بزراعة هذا المحصول بها فأجيب الى طلبه وأرسلت له التقاوى اللازمة (٢) .

وتجدر الإشارة الى نبات آخر اشتهر به السودان وهو « السنامكى » والذى كان ينمو برياً وخاصة في النوبة الشمالية ، كذلك فقد عرفت زراعته في جهات النيل الأزرق . وتستخدم أوراق هذا النبات كمسهل . وقد ظلت الحكومة تحتكره حتى عام ١٨٤١ (٣) .

ومن محاصيل السودان الهامة والشهيرة الصمغ أو ما عرف باسم الصمغ العربى وقد اشتهرت به كردفان على وجه الخصوص ، ونظراً لأهميته فقد أنشأ محمد على مصلحة خاصة به وعين لها ناظراً يقوم بالإشراف على جمع المحصول ، بل إنه زيادة في العناية والحرص ، ورغم وجود هذا المسئول في كردفان مكان إنتاجه ، فإنه كان يرسل في بعض الأحيان أحد كبار الموظفين للإشراف على جمع ونقل هذا المحصول من كردفان الى دنقلة ، ثم يبدأ موظف آخر يتولى الإشراف على نقله

(١) نعوم شقر : المرجع السابق . ص ١٥٤ .

(٢) دفتر رقم ٧٤٠ — ديوان خديوى — ترجمة المكاتب التركية رقم ٦٠١ بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٤٣ هـ . من المجلد الى أميرالاي الجهادية . ، أنظر أيضاً : دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى — ترجمة المكاتب التركية بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٥ هـ . من الجنب العالى الى حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ١٢٥٨ — إبرادات — وبقية رقم ٢٥١ بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

من دنقلة الى حلفا ، وثالت من حلفا الى أسوان وهكذا حتى يضمن سلامة وصوله الى مصر (١) . وقد كان المحصول الذى يتم جمعه من السودان يقدر بحوالى خمسين ألف قنطار فى العام اذا كان الموسم جيداً من حيث كثرة الأمطار ، وبخمسـة عشر ألف قنطار فى المواسـم الشحيحة (٢) .

وللصمغ فى السودان أنواع عدة عرف بها مثل العطيس والنقى والزغل (٣) . وقد كان محمد على يحتكر محصول الصمغ ولا يسمح لغيره بالتجارة فيه ، فقد طلب فى إحدى رسائله لمدير التاكة فى عام ١٨٤٧ بأن « يمنح العرب من جمعه » حيث كان هؤلاء العرب يبعثون به الى الحجاز (٤) . وقد كان الباشا يعول أهمية بالغة على المحاصيل التى كان يقوم باحتكارها ومن بينها الصمغ ، ولم يكن ليسمح بأى تهاون فيها ، فهمى تمثل عنده ركنا أساسيا فى موارد البلاد النقدية حيث كان يصدره للعالم الخارجى ، فهو مثلاً يتدخل فى أدق شئون الصمغ ويطلب بل ويشرح الطرق المختلفة لحفظه من البلل ، ووصل به الأمر الى فصل أحد المسؤولين الكبار لاهماله فى العناية بهذا المحصول الحيوى (٥) .

-
- (١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف متفرقات — وارد من أحمد باشا الى دولة الباشمعاون فى ٢٠ المحرم ١٢٥٦ هـ ، أنظر أيضا : محمد الأمين سعيد سياسة محمد على فى السودان — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ص ٤٤ .
- (٢) محمد الأمين سعيد : المرجع السابق ص ٤٤ .
- (٣) دفتر رقم ٣٣١ صادر المعية — وثيقة رقم ٩١٠ بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٢٦٤ هـ . ارادة الى الباشا الكتخدا .
- (٤) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١١ كتاب رقم ٤١٣ صادر المعية وندقة رقم ١٣٥١ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير التاكة . دار الوثائق القومية بالقلعة .
- (٥) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة النركبة رقم ١٥٦٧ بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . ، أنظر أيضا : دفتر ٢١٥ عابدين — بند المتفرقات — ترجمة الافادة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . من معاون الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

الثروة النباتية :

وقد تميز السودان بأعداد وفيرة من الأشجار أشهرها النخيل وهي تكثر في بلاد النوبة وتشتهر بأجود أنواع التمر ، وأفضلها نخيل سكوت الذى حاز شهرة واسعة ، ثم نخيل المحس ، ثم نخيل الشايقية في جنوبى دنقلة • والدوم من أخص أشجار السودان ، وهو ينتشر في أجزاء متفرقة من البلاد • ويقوم السودانيون بتجفيف ثمره ثم يدقونه ويستخدمونه كغذاء (١) • ولما رأت الادارة المصرية في عهد الخديوى اسماعيل ضرورة مد خطوط التليغراف في أنحاء السودان وجدت أن سجر الدوم يصلح لهذه الخطوط ، فرأت الاستفادة من أشجاره في هذا الشأن خاصة وأنه يوجد بكثرة (٢) •

كذلك زخر السودان بأشجار أخرى مثل شجر الدوليب الذى يشبه أشجار الدوم ، والمرديب وهو شجر التمر الهندي ، وأشجار السدر وهي النبق ، وكذلك الجميز ، وأشجار السنط الذى اشتهر بصلاية أخشابها وثقلها وكانت تصنع منها المراكب الكبيرة وآلات السواقي في السودان •

وكذلك وجدت أشجار « الأبنوس » التى اشتهر بها السودان وحى تكثر على النيل الأزرق ، ومن أخشابها كانت تصنع الكراسى والموائد والصناديق والعصى والمسابح • وهناك أيضا شجر « العشر » الذى يستخدم في صناعة البارود والحبال والقوارب الصغيرة وأسرجة الحمير وألواح الكتابة (٣) •

وبالإضافة الى ذلك وجدت أشجار « الأراك » الذى يستاكون

(١) نعوم نعتير : المرجع السابق • ج ١ ص ٢٩ •
 (٢) دفتن رقم ٥٦٠ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٤ ص ٨٧
 تاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٢ هـ • من نريف باشا الى المهندار • دار الوثائق
 الخومية بالقاهرة •
 (٣) الوقائع المصرية : العدد ٥٤٨ ، الخميس في ٢٠ ربيع الآخر سنة
 ١٢٢٩ هـ •
 انظر أيضا : نعوم نعتير : المرجع السابق • ص ٢٩ وما بعدها •

بفرعه بعد تهذيبها ، وأنسجار الخروج ويستخرجون منها زيتا يدهسون به أجسادهم ورؤوسهم • وكذلك وجدت « الحلفا » وهى من النباتات الشهيرة أيضا فى السودان وتأكلها الجمال والدواب وتجفف وتصنع منها حبال يشدون بها السراقى والأسرة (١) •

وبالإضافة الى هذه الأشجار وجدت أنواع أخرى أيضا مثل « السليق » الذى يعتقد بعض السودانين أنهم اذا أرادوا أن يقدموا على سىء قطعوا غصنا منها وحملوه بأيديهم ظنا منهم أن حاجاتهم سوف تقضى بحمله (٢) • وهناك شجر « السردل » الذى ينبت فى كنف الجبال ويدوم أزمانا طويلة ، وتوجد أيضا شجرة « أبو خميرة » وهى تشبه شجر التمر حنا ويؤكل ورقها كورق « العرديب » ويدأوى به بعض الأمراض التى تصيب العين ، وله ثمر كألسنة الحيوانات (٣) ، وهناك أنواع كثيرة أخرى من هذه الأشجار مثل « اللعوب » ر « الدبكر » و « أم شالله » وغيرها • وقد استخدمت الأشجار فى دارفور لتخزين المياه بكميات ضخمة زمن الأمطار ، وتظل تشرب منها القوافل والأهالى لمدة ثلاثة شهور (٤) •

وكانت مصر فى حاجة الى أخشاب السودان ورأى المسئولون بمصر أن هذه الأخشاب لو عملت آرماتا وأرسلت الى مصر لانتفع أهاليها وتم توفير أثمان هذه الأخشاب ، وكانت الحاجة إليها شديدة فى مصر وخاصة فى المطابخ المصرية التى على حد قول المسئولين « لو استخدمت فسوف

(١) نعيم شقم : المرجع السابق ص ٣٥ •

(٢) الوثائق المصرية - العدد ١٠٣ ، الأرياء فى ٢٦ رجب سنة ١٢٤٠ هـ ص ٤ •

(٣) الوثائق المصرية - العدد السابق • ص ٤ •

(٤) محفلة رقم ٢٩ معبة عربى - مستخرج من المعية البركى رقم ١ - ٤٢ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ • من القائم محيد نادى الى الخديوى أنظر أيضا : السيد يوسف نصر : المرجع السابق • ص ١٨٥ •

يتضح مدى المبالغ التي يتم توفيرها « (١) » وبالفعل فقد جرت الاستعدادات من توفير الرجال والأدوات لقطع هذه الأخشاب في عام ١٨٧٧ من غابات النيلين الأبيض والأزرق (٢) .

ولما رأى المسئولون بمصر غنى السودان بالثروة النباتية وتنوعها طلبوا إرسال عينة « فسائل أشجار وتقاوى نبات » من هناك وتجربتها في الحديقة التي كان يجري تنظيمها داخل سراى « طوب قبو » السلطانى بالأستانة (٣) .

وبالرغم من تلك الجهود التي بذلت للاستفادة من غابات ونباتات السودان فانها تعتبر جهوداً متواضعة، ذلك أن تلك الثروة النباتية الهائلة كان يمكن إستغلالها بصورة أفضل مما حدث نظرا لحجم المساحات الضخمة من الغابات وتنوع هذه الأشجار . ويبدو أن صعوبة النقل والمواصلات في السودان وخاصة في الوصول الى تلك الغابات وعدم وجود الأيدي العاملة الكثيرة ونُدرة الأدوات الحديثة وأخيرا قسوة المناخ قد حال دون الاستفادة منها اقتصاديا بصورة كاملة .

الثروة الحيوانية :

وبالإضافة الى الثروة النباتية يمكننا أن نتكلم أيضا عن الثروة الحيوانية في السودان لما لهذا الجانب من أثر فعال في عملية الانتاج الزراعى ، وخاصة في مجتمع السودان في ذلك الوقت حيث كانت

(١) محافظ أبحاث السودان : محفظة ١٨ — وبشقه رقم ٢٤٥ بشاربغ ١٠ شعبان ١٢٨٢ .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٢ معبه عربى — صوره المكاتبه رقم ٨٨ ص ٦ الصادره من المعينه السننيه الى نذلاره المالبه بختم سماده المهردار بتاريخ ١٦ تسوال سنه ١٢٨٨ هـ .

(٣) دفتر ٥٥٨ معيه مركى — ترجمه الوندقسه الزكيه رقم ٣١ ص ٦٢ بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنه ١٢٨٣ هـ . اراده سنه الى حكمدر السودان دار الوثائق القومية بالقلمة .

الحيوانات كالجمال والثيران والأبقار تلعب دورا لا بأس به في عملية الاقتصاد . ومن المعروف أن السودان أيضا بالاضافة الى غناه في الثروة النباتية هو أيضا غنى بثروته الحيوانية سواء المستأنسة منها أو البرية ، ويمكن القول بأن الادارة المصرية منذ أن امتدت الى السودان استطاعت أن تستغل هذه الثروة الى حد كبير وتسخرها في خدمة الانتاج السوداني أو الانتاج المصري ، وقد حب محمد علي — منذ الوهلة الأولى — رجاله في السودان على الاجتهاد في ارسال المواشي السودانية الى مصر . وقد حصل محمد علي على هذه المواشي بثلاث وسائل ؛ الأولى عن طريق سرائها من أصحابها والثانية عن طريق الغزوات ضد القبائل المتمردة في جبال السودان ، والثالثة كانت تؤخذ — أحيانا — بدلا من الضرائب اذا عجز البعض عن دفعها نقدا (١) .

وكان الباشا يعين بعض « النظار » في الأماكن التي تتمر منها المواشي وهي في طريقها من السودان الى مصر ، وخاصة في جهات أسوان وجرجا والمنيا ، وكانت مهامهم تنحصر في تقديم الكشوف التي تصل الى هذه المناطق وعدد ما ينفق منها في مسيرتها الطويلة (٢) . بل انه زيادة في الاهتمام أرسل في احدى المرات أعدادا كبيرة من الضباط والمعاونين لتوظيفهم في « أسوان المواشي الآتية من بلاد السودان » (٣) .

-
- (١) حسن أحمد ابراهيم : محمد علي في السودان ص ١٢٨ — ١٤٠ .
انظر أيضا : Pallme : Travels in Kordofan. p. 37.
- (٢) دفتر ١٨٩ ، شورى المعاونة الملكية — ترجمة الوثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ . انادة الى الترسانة . وهي موجودة بمحافظ أبحاث السودان محفظة رقم ٨ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
انظر أيضا دفتر رقم ٣٦٩ معية تركي — وثيقة رقم ٤١٦٦ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى الشورى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (٣) دفتر رقم ٢١٠ ، صادر ديوان المعاونة للاشالييم — وثيقة رقم ٣١١ بتاريخ ٦ صفر سنة ١٢٥٩ هـ — كتاب الى حاكم السودان .
انظر أيضا : دفتر ٣١٧ — صادر شورى المعاونة — جهادية — وثيقة رقم ٧٤٩ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٣٥٨ هـ . كتاب الى مدير الجهادية .

وقد وفر محمد على كل السبل حتى تصل هذه المواشى سليمة الى مصر ، من حيث الأعلاف وطريقة السير بها عبر صحراوات السودان وبين دور كل مديرية من المديريات السودانية والمصرية التى تمر عبرها هذه المواشى . وزيادة على ذلك كله أمر الباشا بارسالها فى فصل الخريف حتى يضمن وجود العلف الكافى لهذه الحيوانات (١) . وقد استمر ارسال هذه المواشى فى عهد خلفاء محمد على الى مصر ولكن بصورة متقطعة ، واستطاعت هذه الحيوانات أن تسد نقصا كبيرا فى حيوانات الزراعة (٢) سواء فى السودان أو مصر ، فهذه المواشى فى السودان استخدمت فى ادارة السواقى ، ويمكننا أن نتصور مدى الخسارة التى كان يمكن أن نواجبها مديريه كدنفلة — على سبيل المثال — اذا لم تتوافر مثل هذه الأعداد الهائلة من المواشى ، فقد كانت هذه البلدة وما حولها تعتمد بصورة أساسية عليها فى ادارة آلاف السواقى ، بالاضافة الى استخدامها فى عملية الحراثة وغير ذلك من المهام التى كانت تؤديها .

ومن بين الحيوانات الأخرى التى اشتهر بها السودان كانت الابل ، وقد تفرقت فى منادى كثيرة من البلاد ، وكانت تؤدي هى الأخرى مهام عدة ، فقد كان السودانيون يقومون بتأجيرها لتجار الحضر ، بالاضافة الى أكل لحومها والانتفاع بأوبارها فى صناعة الخيام . الا أن الدور الكبير والرئيسى الذى لعبته الابل كان ينحصر فى الحمل والركوب ، ومن أشهر ابل الركوب والحمل ابل الهندوة نظرا لشدة

(١) دفتر رقم ٧١ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٤٦ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٥١ هـ ، أنظر أيضا : دفتر رقم ٢٤ معية تركى — ملخص الوثيقة رقم ٢٨٠ بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٤٤ هـ ، أنظر أيضا : دفتر رقم ٧١ معية تركى — ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤١ هـ . دار الوثائق القومية بالقطعة .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثانى — الجزء الثالث ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٣) أدخلت الابل الى السودان عن طريق الفرس منذ أن غزا قمبين مصر عام ٥٢٥ ق م .
انظر : Smith Hempstone, The New African p. 25.

صبرها على الجوع والعطش ، وأما ابل الركوب فأشهرها على الاطلاق
ابل البشارية نظرا لسرعتها وخفة حركتها ولين ظهرها (١) .

وتجدر الإشارة الى أن الابل قد لعبت دورا هاما في حملة عام
١٨٢٠ الى السودان ، فقد استعان الباشا بقبائل العبابدة في جنوب مصر
في امداده بالابل لحمل الأمتعة والأسلحة عبر صحراوات السودان ،
وقد ظلت الابل تلعب دورا هاما منذ ذلك الوقت في الجيش المصرى بل
حتى وقت قريب وخاصة بسلاح الحدود حيث توجد صحراوات واسعة
على كافة حدود البلاد .

ومن العجيب أن الفلاح السودانى لم يستخدم الجمل بصورة كبيرة
في عملية الانتاج الزراعى اللهم الا في مسألة نقل المحصولات الزراعية ،
فلم يستفد منه — مثلا — في ادارة السواقى مستغلا طاقته الكبيرة كما
يحدث ببعض جهات مصر وخاصة بالوجه البحرى . وربما يرجع ذلك الى
توفر البديل والمتمثل في الأعداد الهائلة من الثيران والأبقار بصورة
لم تدع الى استخدام الجمل في ادارة تلك السواقى ، وسهولة استخدام
تلك الثيران والأبقار عن الابل ، وأصبحت هناك شبه قناعة بأن الابل
ينحصر دورها في عملية النقل والتنقل عبر الصحراء .

ولما كانت الأبقار والثيران ترسل الى مصر ، فقد أرسلت أيضا الابل
لتؤدى دورها في عملية الانتاج الزراعى بمديريات مصر (٢) .

وبالإضافة الى ذلك وجدت الأغنام والماعز في السودان ، وعلى نطاق
واسع أيضا ، ولكن يبدو أن الصوف والشعر الناتج عنهما كان قصيرا ،
لذا فان المسؤولين بمصر رأوا أن من الأفضل لو أرسلت أعداد من

(١) نعيم شقير : المرجع السابق ج ١ . ص ٤٠ .
(٢) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — نمره أصلية ٢١ ، نمره خمره ٧٦ ،
بناربخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

الأغنام الى السودان فسيكون ذلك مدعاة لتحسين نسلها وظهور ذرية ذات صوف طويل (١) .

وتوجد أنواع أخرى من الحيوانات كالخيل بأنواعها الدنقلاوية والخرباوية والمكادية ، والحمير ، والبغال .

وربما يكون من المفيد أن نتسير الى المكانة الهامة والخطيرة التي احتلتها الثروة الحيوانية في حياة المجتمع السوداني ، فقد كانت تقيم مكانة الفرد بين قبيلته ، بل ومكانة القبيلة نفسها بين سائر القبائل الأخرى بما تمتلكه من هذه الثروة الحيوانية ، وحسب نوع الحيوان السائد في كل قبيلة ، فعند قبائل البقارة في غرب السودان وقبائل الدينكا في جنوبه كانت تقدر بحجم الماشية التي في حوزة كل من هاتين القبيلتين .

كذلك فقد لعبت الابل عند البجة دورا اجتماعيا هاما ، فالدية كانت تدفع ابلا ، وكذلك المهر ، وكانت الابل تفضل على سائر القطعان الأخرى كالأغنام مثلا ، ولا وجه للمقارنة عندهم بينها وبين الابل من حيث الأهمية الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية اللتين تضفيهما هذه الثروة الحيوانية على مالكيها . فالقبيلة التي تنقص ابلها أو تبيد تتعرض لكارثة ، وربما تهن ويضطرب كيانها ولا بد بعد ذلك ، ان أرادت الحياة ، أن تندمج في قبيلة أخرى وإلا فالفساء مصيرها (٢) .

وبالإضافة الى تلك الجهود التي بذلت في السودان للمحافظة على

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان . ص ١٥ ، أنظر أيضا : محافظ أبحاث السودان ، محفظة ١٨ ، دفتر رقم ٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله . ص ٥٢ .

الزراعة الزراعية ، امتد الاهتمام الى محاربة الآفات التى تعرضت لها الزراعة كالجراد مثلا الذى كان يهجم على المزروعات ، ويؤثر بالتالى على حجم الانتاج الزراعى . ففى عام ١٨٦٥ عجزت الأهالى فى حلفا عن منعه فأكل مزروعات تلك الجهة ، حتى جريد النخيل ، ولم يترك شيئا من « المزروعات والأشجار حتى سقزف المنازل أيضا » (١) .

وكثيرا ما كان ينتج عن تلك الهجمات الشرسة التى يقوم بها الجراد على المزروعات شح فى التقاوى والخبز أيضا (٢) .

ولم تقف الحكومة مكتوفة الأيدى أمام هذا الخطر . فكانت كثيرا ما تكل الى الجنود مهمة اباداة الجراد وتقليل خطره ، عن طريق تغيير مسار اتجاهه ، أو القيام بحفر حفر فى طريقه وإشعال النيران فيها (٣) . كذلك فقد كانت المزروعات تتعرض أحيانا لخطر بعض الديدان ، فكانت ترسل عينة منها لمصر لفحصها وابتكار الوسيلة الملائمة للقضاء عليها (٤) . وبالإضافة الى ذلك فقد وجدت الفئران فى بعض جهات السودان والتى كانت تصيب المزروعات بالتلف البالغ من جراء ما تسببه من أكل لها (٥) . وقد انتشرت أيضا الصراصير وهى ذات نوعين فى

(١) دفتر رقم ١ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٦٧ — ورد بتاريخ ليلة ١٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ . من مفتش عموم قبلى الى سعادة رياض باشا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتر رقم ٣٩٣ صادر المعية السنية — ترجمة الارادة التركية رقم ٥٥ بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان . ، انظر ايضا : محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ وثيقة بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٣) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٠ ، وثيقة مستخرجة من الدفتر رقم ٣٩٣ صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ٦٢ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقاهرة . ، انظر ايضا :

Hill ; Egypt in the Sudan p. 55.

(٤) دفتر رقم ٢٠ معية تركى . ترجمة المكاتب التركية ٢٨٥ — ٢٨ جماد أول ١١٤١ هـ من الجنب العالى الى حكام السودان — دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٥) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ ص ٤٩ .

السودان الأول منها يسمى « الجنبوب » وهو صغير الحجم والآخر يعرف باسم « الجدجد » وهو صرصار الليل ، وتكثر هذه الصراصير في مواسم الأمطار وتفتك بالبذور والنباتات الصغيرة ، وأخيرا وجد النمل الأبيض الذى انتشر في معظم أرجاء السودان وكان هو الآخر يلحق ضررا بالغا بالنباتات . وهذه الأخطار التى تعرضت لها الزراعة في السودان قد تركت بعض الآثار عليها . ورغم تلك المحاولات التى بذلت في القضاء عليها ، فقد أمكن — كما رأينا — وقف أو تقليل أخطار بعضها على المزروعات ، وفي أحيان أخرى كانت تحدث أضرارا جسيمة ، قد تؤدى الى مجاعات اذا كانت واقعة على الحبوب .

النظم والقوانين :

وفي ختام هذا الفصل نود أن نشير الى أن السياسة الزراعية التى اتبعت في السودان طوال هذه الفترة ، قد استمدت معظم عناصرها ونظمها الرئيسية من السياسة التى اتبعت في مصر آنذاك مع نية من التعديل الذى اقتضته ظروف السودان الخاصة ، لعل في مقدمتها وأهمها نظام الاحتكار الزراعى في عهد محمد على ، فقد طبقه في السودان وان لم يكن بنفس الشدة التى طبقه به في مصر ، فالاحتكار في السودان لم يشمل الحبوب وغيرها من الغلات الغذائية التى كان يعتمد عليها الفلاح السودانى في معيشتة ، وما يقال عن نظام الاحتكار الزراعى يمكن أن يقال عن نظام السخرة الذى اتبع مع الفلاحين . والسخرة في السودان كانت تنحصر في بعض نواح معينة كتكليف بعض الفلاحين المقيمين على ضفاف النيل بتسيير مرور المراكب والقوارب الحكومية وسحبها حين لا تقوى الريح على دفعها (١) .

(١) دفتى رقم ٣٩٢ مئة تركى — وثيقة رقم ١٨٥٦ بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٦٢ هـ من الحنايا العالى الى حكامدار السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ولم يحدث ذلك الا في بعض الأوقات وبشكل غير رسمى وتحت ظروف معينة • وكانت الحكومة ترسل بعض المسؤولين للتحقيق في مثل هذه الأمور وتعاقب المسئول عنها (١) •

وقد منع سعيد بانسا بشكل قاطع أعمال السخرة في السودان وطلب بأن « لا يصير تنشير أبقار ولا جمال ولا أخذ شيء من الأهالى بغير رضاهم » (٢) • وقد اعترف الأجانب ، رغم بعض تلك التجاوزات التى حدثت من قبل بعض المسئولين تجاه الفلاح السودانى على عهد محمد على ، أنه كان أسعد حالا من الفلاح المصرى (٣) •

ولم يشأ محمد على أو خلفاؤه أن يشيئوا في تطبيق النظم والقوانين مع الفلاح السودانى كما فعلوا مع الفلاح المصرى ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الزراعة في السودان في حاجة الى النهوض ولا بد من ترغيب السودانين فيها • وأما ما يقال عن تلك الخسائر التى شملها نظام الاحتكار في السودان فقد كانت بريئة ، مثل الصمغ ، وبعض المنتجات الحيوانية ، فالصمغ كان متوفراً في الغابات سواء بكرديان أو سنار ، وأما جلود الحيوانات فلم يكن السودانى يستفيد منها بصورة كبيرة نظرا لعدم معرفته بطرق اعدادها وتمليحها • وهذه الغلات كانت تشتري من المزارعين بأسعار زهيدة ، وأحيانا تؤخذ في مقابل الضريبة المقررة عليهم • ولم تكن الحكومة تصر على هذا الاحتكار ، فخلال زيارة محمد على للسودان في عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ استمع لبعض الشكاوى حول احتكار

(١) دفتر ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — أمر الى الشيخ أحمد على بشير شيخ ناحية أحمد بشير بخط المتبه — أمر رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى أول ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

الحكومة لزراعة النيلة ، وأهم يرغبون في زراعتها لحسابهم الخاص
فما كان منه الا أن أمر بحرية زراعتها والاتجار بها (١) •

وقد حلص محمد سعيد باشا الفلاح السوداني من مشاكله المالية
وذلك بالغاء الضرائب المتأخرة عليه ، وتخفيض الضريبة القائمة ، وأمر
في خلال زيارته للسودان عام ١٨٥٧ بأنه من الآن فصاعدا يقررون
بأنفسهم ما يتفق مع ظروفهم وأحوالهم ، وكانت النتيجة لذلك أن أقبل
الفلاح السوداني على الزراعة بنفس راضية وانعكس ذلك كله على الانتاج
زيادة ورخاء (٢) •

وفي الفترة التي تلت عهد محمد سعيد وحتى عام ١٨٨١ ، بدأت
تظهر بعض اللوائح والقوانين كأسلوب حتمي لمواجهة التطورات الزراعية
في السودان والظروف المالية التي تمر بها البلاد ، وبدأ المزارعون
يتذمرون منها ، خاصة وقد اشتط الحكام في اسلوب تطبيقها مما أدى
الى ضرورة بحث هذه اللوائح والقوانين حتى يتمكن الفلاح السوداني
من القيام بأمور زراعته ... ذلك ما قام به بالفعل رعوف باشا في
تقريره المشهور عام ١٨٨٠ عن أوضاع المديرية السودانية ولكن بعد
غوات الألوان • *

(١) محفظة ١٢٣ - ملف متفرقات - دوسية بسدون تاريخ سنة
١٢٥٤ هـ رحلة ساكن الجناح محمد على باشا الى السودان - وثيقة رقم
١٠٨/٢٥ ملف السودان - دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) Abbate : De l'Afrique Centrale ou Voyage Du S : A. (٢)
Mohammed Said - Pasha dans Ses Provinces du Soudan. p. 47.

(*) سوف نعرض بالتفصيل في فصل لاحق للضرائب وشئون المال في
السودان .

الفصل الثاني

الثروة المعدنية والصناعة

(أ) البحث عن المعادن :

- الذهب
- الحديد
- النحاس
- الرصاص
- الملح في الأجزاء الشرقية والجنوبية

(ب) أهم الصناعات وتطورها :

- الصناعات القائمة على الغلات النباتية :
- (صناعة حليج القطن — صناعة نسيج القطن)
- صناعة النيلة
- الصناعات الخشبية (صناعة المراكب — صناعة السواقي — صناعة الأسرة والأبواب والنوافذ — الأواني والأوعية الخشبية — صناعات أخرى) *
- الصناعات القائمة على أشجار النخيل والدوم *
- صناعة الصابون *
- صناعة قصب السكر *
- ادخال الحرف للسودان *
- عوامل فشل الصناعة السودانية *

الفصل الثاني

الثروة المعدنية والصناعة

لم يكتف محمد على ولا خلفاؤه في السودان بالاهتمام بالجوانب الزراعية وحسب ، ولكنهم راحوا يفتتسون عن مصدر اقتصادي آخر يساعدهم على بناء دولة قوية موطدة الأركان . ومنذ أن وطئت أقدام الجيوش المصرية أرض السودان بدأ البحث عن المعادن ، بل قد لا نسرف القول ان قلنا ان هذا الاهتمام كان قبل ذلك . فقد تردد كثيرا أن الذهب كان من بين الدوافع التي حفزت محمد على الى ضم السودان الى مصر . ومما لا شك فيه أن قيام أى نهضة صناعية في أى بلد من بلدان العالم لا يمكن لها أن تزدهر أو حتى تقف على أقدامها الا اذا توافرت لها جملة أسباب على رأسها توافر مواد الخام بصورة اقتصادية ، بمعنى أن هذه المواد الخام لابد أن تكون متوفرة بشكل يغطي جميع نفقات البحث عنها والا أصبحت عملية التنقيب ضربا من التخبط الاقتصادي . ولهذا ، بدأ محمد على ، كما ذكرت ، ينقب عن هذه المعادن وفي مقدمتها الذهب الذي أولاه عناية بالغة .

(أ) الذهب :

تركز البحث عن الذهب في السودان في منطقتين رئيسيتين هما : حول جهات فازوغلى وفي جبل شيبين الذي يقع جنوبى كردفان ، ولكن في واقع الأمر ان التركيز في البحث كان على أشده في منطقة فازوغلى .

وبمجرد أن سيطر اسماعيل كامل على سنار ، حتى قصد فازوغلى في أول يناير عام ١٨٢٢ ، ومكث بها ثلاثة عشر يوما ، ثم مضى بعدها الى جهات « القماميل » في جبال بنى شنقول ، وكان يرافقه في هذه

الرحلة أخصائي المعادن « المعدن » « مليود » وبعض « اللغمجية » (١) .

وكان الأهالي في هذه المنطقة قد حفروا عدة آبار « مناجم » في سبيل البحث عن هذا المعدن ، فملاً اسماعيل من ترابها جوربين وأرسله الى الباشا في مصر لاختصاعه للتجارب لمعرفة نوع الذهب ودرجته جودته (٢) . وعقب تسلم الباشا للجوربين قرر أن يبدأ فوراً البحث عن الذهب ، فطلب خبيراً أوريبياً له دراية واسعة في مجال التعدين ، وأمر بارساله عقب فصل الخريف مباشرة إلى السودان ليطوف مع نجله في تلك البلاد « فيعاين المواضع التي يرجى وجود المعدن فيها ويتبين من حقيقته الحال بمقتضى صنعته » ثم يقرر ما وجد ، ان وجد شيئاً وما لم يجده . فيقول الكلمة القاطعة « » (٣) .

ويبدو أن الأحداث التي اندلعت في السودان ، عقب الاجراءات الضريبية التي اتخذها « حنا الطويل » وغيرها من الأسباب ، قد حالت دون اتمام مهمة البحث عن الذهب . فعاد اسماعيل الى سنار ، ثم تطورت الأحداث لتؤدي الى مقتله في اكتوبر عام ١٨٢٢ ، ثم تتلو ذلك أحداث الدفتر دار الانتقامية . وأدت هذه الأحداث الى تهديد سلامة الطريق الى مناطق الذهب في جهات فازوغلى وغيرها . وعقب هدوء هذه الأحداث وسيطرة الحكومة على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب ، كلف محمد على في عام ١٨٢٥ « بروكى » بصحبة درويش أغا « ناظر المعادن » للبحث عن المعادن بشكل عام والذهب بصفة خاصة . ويبدو أن المسؤولين

(١) حسن أحمد ابراهيم : محمد على في السودان . ص ١٠٠ .

(٢) دفتر ١٠ معة تركى ، نرحمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٠ بتاريخ ٧ شعبان سنة ١٢٣٧ هـ . من الجناح العالى الى سر عسكر السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٠ معة تركى — نرحمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ ، بتاريخ ٧ شعبان سنة ٢٣٧ هـ من الجناح العالى الى سر عسكر السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

بالخرطوم لم يذلوا مهمة بروكى فمكت بها حتى عام ١٨٢٩ ولا ينجز مهمته التى جاء من أجلها (١) •

وفى عهد حكمدار السودان خورشيد باشا « ١٨٣٨ — ١٨٢٦ » أولى عملية التنقيب عن الذهب عناية لا بأس بها ، فقد آل على نفسه أن يذهب على رأس المنقبين ، أو يرسل « عيسى أغا » الى جبال بسى شنقول من أجل انجاز هذه المهمة ، ولكن ثمة أمور حالت دون اتمام خورشيد لمهمته ، حيب ترامت الى سمعه أخبار ترغم أن الأحباش يدبرون مع بعض القبائل السودانية والعصاة الفارين الى تخوم الحبشة مؤامرة للقضاء على سلطة الحكومة فى الجزيرة وسنار واعادة السلطة لأهل البلاد (٢) • إلا أن هذه القبائل السودانية ومن تسامعها لم تنفذ مؤامرتها ، ولم تنزل من جبالها ، وربما كانت هذه الأنباء اتساعات مبالغ فيها ، أو أن هذه القبائل ربما ترددت فى هجومها بعد أن علمت باستعدادات الحكومة الضخمة للقضاء عليها (٣) • وهكذا حالت هذه الأحداث دون ذهاب خورشيد الى مهمته •

ومن بين اهتمامات خورشيد بمعدن الذهب ، وفى محاولة لعدم تسرب الذهب السنارى الى جهات أخرى ، طلب هذا الحكمدار من محمد على أن يرسل اليه الفى كيس ✽ لشراء الذهب بواقع ثلاثمائة وخمسين قرشا للأوقية الواحدة (٤) • وقد قام الباشا بتحليل ذلك الذهب

-
- (١) سامركو : رحلة محمد على الى السودان . ص ٥ .
 (٢) محفظة رقم ٢٦٢ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية (بدون رقم)
 تاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٥٣ هـ .
 (٣) مكى شبكية : السودان فى قرن . ص ٤٢ — ٤٣ .
 أنظر أيضا : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٠١ .
 (٤) الكيس = حوالى ٥٠٠ قرش .
 (٤) دفتر رقم ٦٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٣٩ بتاريخ ٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

بدارسك النقود بمصر • وبالفعل قبل الباشا طلب الحكمدار وأرسل له نصف ما طلبه من النقود (١) •

وفي عام ١٨٣٧ خرجت بعثة علمية ضخمة توفرت لها الكثير من الاستعدادات من خبراء وعمال وأدوات بهدف البحث عن الذهب تضم ألفا من الجنود « الجهادية » برئاسة اللواء مصطفى بك يصحبهم مسيو روسيجير Russegger ، ومسيو بورياني Poreani الخيران الموفدان من قبل محمد علي للمساعدة في البحث عن معدن الذهب ، ووصل الجميع الى فازوغلي وترعوا في استخراج المعدن واستمرار البحث عنه ، ولكنهم لم يتوصلوا الى نتائج مرضية ، فتوجهوا الى جهة « سنجة » ومكثوا فيها ليلة ، ترجعوا بعدها الى مكان يسمى « زنبو » فمكان يسمى « نوجاتو » وقاموا بمسح هذه المناطق ، وكانت النتائج كسابقتها • وأخذ أفراد البعثة ينتقلون من مكان الى آخر ، ويختبرون الرمال ، وتعرضوا في عمليات البحث لمصاعب كثيرة خاصة من جانب بعض الحبيد في جبل سنجة (٢) ، ناهيك عن وعورة الأماكن ورداءة المناخ • وقد عاد أعضاء هذه البعثة بعد ستة أشهر الى الخرطوم ، فأخذوا يحللون ما تحصلوا عليه وعرض مسيو « روسيجير » ومسيو بورياني نتائج هذه التحليلات على الباشا فلم تكن مرضية ، فقد ورد في تقرير بورياني عن الذهب الذي عثر عليه في طريق عودة البعثة الى الخرطوم « ان التبر المستخرج من الستة عشر قنطاراً من التراب الذي أخذ من موضع المعدن الكائن بجبل فازنقروا وغربل وغسل بمعرفة خمسة عشر جندياً في ثلاث ساعات يكون بصفة معدل ثمانية قناطير وعمل سبعة « أنفار » والنصف في ثلاث ساعات ، وصافي الذهب السناري الحاصل من هذه القناطير الثمانية بعد الغسل والتصفية والاذابة خمس عشرة حبة بحساب

(١) شمس رستم ٦٧ معية تركي — ترجمة الأمر الكريم رقم ٥٨٨ بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) رفاة الطباطاوى : مهاجج الالباب . ص ٢٢١ — ٢٥٣ .

القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال في الوزن القديم وباعتبار الوزن السوداني * وعليه فيكون ما ينتج النفر الواحد من سكان البلد الموجودين في يوم بشرط أن يعمل عشر ساعات فيه من الذهب ست حبات وثلاثي الحبة * وبما أن « وقية » الذهب تساوي ثلاثمائة وخمسين قرشاً في بلاد السودان فيكون قيمة ست حبات وثلاث الحبة الحاصلة من المعدن المذكور سبعة قروش و ١١ بارة * و ٦ ما نقر وثلاث المانقر ، وعلى هذا الحساب اذا اشتغل شخص في استخراج الذهب فيساوي قيمة ما يستخرج في اليوم ٧ قروش و ١١ بارة و ٦ مانقر وثلاث المانقر * (١)

وفيما يتعلق بالذهب في جهات قماميل ذكر بورباني « أن انتبـ المستخرج من ستة عشر قنطاراً من الزراب الذي أخذ من موضع كائن بجبل « قنسين » من جبال قماميل وغرب غسل بمعرفة عشرين بندياً في ثلاث ساعات يكون بصفه معدل نمائية قناطير من الزراب وعمد عشر جنود في ثلاث ساعات وصافي الذهب السناري المستخرج من هذه القناطير النمائية بعد الغسل والتصفية والاذابة ثلاث عشرة حبة بحساب القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال في الوزن القديم وباعتبار الوزن السوداني * وعليه فيكون ما ينتجه « النفر » الواحد من أهالي البلد الموجودين في اليوم الواحد — بشرط أن يعمل عشر ساعات فيه — من الذهب أربع حبات وثلاث الحبة * وبما أن وقية الذهب تساوي ثلثمائة وخمسين قرشاً في بلاد السودان فيكون ثمن الحبة من الذهب ٤٣ بارة و ٧ ما نقر ، وعليه فيكون ثمن الأربع حبات والثلث الظاهر من المعدل أربعة قروش و ٢٩ بارة و ١/٢ مانقر وثلاث المانقر *

(١) البارة اسم نركى اطلاق على الصلابة المصرية « نصف فضة » وسواي ربع القرش .
(١) صحيفة رقم ٢٦٥ عابدي ، ملف حكدار السودان — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٨ بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(م ٧ — التطور الاقتصادي الاجتماعي)

وعلى هذا الحساب فإذا استغل شخص في عملية استخراج الذهب لنتج في اليوم الواحد من الذهب السناري ما يساوي أربعة قروش و ٢٩ بارة و ١/٢ هـ مانقر وثلاث المانقر (١) •

وعلى العكس من بورياني فقد كان زميله روسيجير متفائلاً فقد جاء في تقريره « ان الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلاثمائة وخمسين أقة من الرمل ، فيتحصل منها ذهب قيمته من نمانين قرشاً الى مائه قرش . فكان هذا المعدل يريد عن معدل مسيو بورياني عشرين مرة (٢) • وكان هذا الاختلاف بين التقريرين كفيلاً لاثارة حنق الباشا على بورياني ، الأمر الذي جعل الأخير يعدل عن رأيه — رغم اقتناعه به — قائلاً ان الطريقة التي اتبعها مسيو روسيجير ، وهى التحليل بالزئبق ، تعطى نتائج أفضل من الطريقة التي استخدمها ، وان العامل الواحد في البحث عن الذهب يستطيع أن يحصل على ما قيمته أربعين قرشاً يومياً (٣) •

ونظراً لودا التضارب الشديد بين النتائج الواردة في التقريرين قرر محمد على أن يبحث الأمر على الطبيعة ، فعزم في ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ على القيام بزيارة الى السودان والى مناطق فازوغلى وبنى شنقول لمعرفة حقيقة المعادن وقد أعد الباشا عدة من أجل البحث عن الذهب من حيث الخبراء ، والعمال اللازمين لعملية التنقيب الذين استطاع أن يجهز منهم أربعة آلاف ، ساعد في جمعهم — بالأجرة — الشيخ ادريس من كبار المشايخ السودانيين القاطنين بالقرب من مناطق المعدن • ووعد هذا الشيخ الباشا بالاتصال بسكان جهات بنى شنقول والقماميل

(١) صحيفة ٢٦٥ عابدين : الوثيقة المسماة ، انظر : حسن أحد اسامه المرجع السابق . ص ١٠٣ • ١٠٤ .

(٢) بغاة الطماوى : المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥٦ .

المخارجين عن سيطرته الحكومة لأقبايعهم بالدخول في طاعة الحكومة.
والعمل في مجال البحث عن الذهب نظير مرتبات لهم (١) .

وفي ١٤ يناير عام ١٨٣٩ وصل محمد على الى فازوغلى ونزل في قرية « غامكه » على النيل الأزرق ، ومن هذه القرية بعث الباشا بثلاثة من خبراء المصادن وهم بورياني الايطالى ، ولبير وأحمد يوسف الجشنجى الى نواحى « فاشنخارو » وبني شنقول للبحث عن الذهب (٢) . وتقام هؤلاء الخبراء بتجارب عدة وقرروا انهم تمكنوا من وجود أدلة تبت وجود هذا المعدن (٣) ، مما دفع الباشا الى الانتقال بنفسه الى هذه الجهات لتقرير الأمر على الطبيعه . ولقد قام الخبراء المعدنون بتجارب عديدة أملا في الحصول على نتائج طيبة ، إلا أن هذه النتائج كانت كسابقتها مخيبة للآمال . وجمع الباشا كل المهندسين للتشاور وقرروا عمل تجربة بأسلوب جديد حيث جمعوا الرمال من جميع الأماكن بمقادير متناسبة لمعرفة مقدار ما يمكن استخراجها منها وكانت النتيجة كالسابق (٤) . وقام محمد على بتشكيل لجنة لاعداد تقرير شامل عن الأعمال التى قامت بها تلك البعثة أشير فيه الى فشل البعثة في تحقيق هدفها . فقد كان استثمار المناجم بواسطة الغسل الاعتيادى لا يمكن العامل من الحصول على ما يساوى ثلاثة قروش عن عمله في اليوم الواحد (٥) . وعلى هذا يكون الباشا قد فشل في الحصول على الذهب من جهات فازوغلى .

-
- (١) محفظه ٢٦٥ عابدين — ترجمه الويفسة رقم ٤٤ / ١٩٩ أصل
بأريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) محمد فؤاد شكري : رحلة محمد على الى السودان — مقال
بمجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة . العدد ٨ عام ١٩٤٦ . ص ٤١ .
(٣) نفس المرجع ص ٥٣ .
(٤) رفاعه الطيطاوى : المرجع السابق . ص ٢٥٨ .
(٥) سامارى : المصدر السابق . ص ١١ .

وبالرغم من سوء النتائج التي توصل اليها فريق الباحثين عن الذهب ، إلا أن الباشا لم يوقف عمليات البحث في تلك الأماكن ، بل ترك وراءه نحو عشرين شرذا منهم لتابعة التنقيب (١) . وقد ارتبط بعملية البحث عن الذهب وزيارة محمد علي للسودان انشاء مدينة عمالية اقترن اسمها باسم الباشا وسميت بمدينة محمد علي كما سبق أن أشرنا إليها .

ولا تعنى تلك النتائج غير المرضية التي توصل اليها محمد علي أنه أغفل عملية البحث عن الذهب بعد أن غادر السودان ، بل إنه وعده حاكم دار السودان أحمد باشا أبو ودان أن يمدّه بكل الوسائل في هذا الصدد حتى يصل الى المهدف المنشود (١) . ويبدو أيضا أن النتائج لم تكن مشجعة في عهد أبو ودان ، فقد بعث بتقرير الى الجنب العالي من فازوغلى في ١٧ ابريل عام ١٨٤٣ فيما يتعلق بأمور البحث عن هذا المعدن في هذه المناطق أشار فيه الى الفشل الذريع الذي حاق بالخبراء في الحصول على هذا المعدن بعد بحوث وتجارب عديدة خاصة في « خور رونده » على بعد تسع عشرة ساعة ونصف من مدينة محمد علي ، وكان جملة ما تحصلوا عليه أربعين أوقية من الذهب فقط (٢) .

وفي عهد الحاكم أحمد باشا المنكلي طلب منه أن يذهب الى جهات فازوغلى وبالفعل أجري ، ما بين عامي ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، عدة تجارب لالبحث عن الذهب في الجبال الموجودة هناك ، إلا أن الكميات التي تم الحصول

(١) محمد فيزاد شكري : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢) انظر الفصل التمهدي .

(٢) محمد فيزاد شكري : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٣) محبلة رقم ١٩ محرر برا — ونشرة رقم ٢٣ بتاريخ ١٧ ربيع الاول سنة ١٢٥٩ هـ ، انظر ايضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٨ .

عليها لم تكن منسجعه على الخصى في البحث عنه (١) . ومع ذلك كان محمد علي قرر أن يرسل خبيرا من مصر لينتقل من صحبة النتائج التي ترسل اليها المنكلى (٢) .

وواصل الحكمدار خالد خسرو « ١٨٤٥ — ١٨٤٩ » جهود سابقيه في البحث عن معدن الذهب في جهات فازوغلى وبنى شتقول ، ذلك أن هذا الحكمدار قد ترامى الى سمعه ، عن طريق النسيخ عدلان شيخ قبائل العربان القاطنة جبل دول ، وجود بئر قرب هذا الجبل ، فقام الحكمدار بحملة في عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ / ١٨٤٧ م) من أجل هذا الغرض وأخرى في عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ / ١٨٤٨ م) الى جبل قسان (٣) . ولأجل مساعدته في انجاز هذه المهمة أرسل اليه محمد علي مهندسا روسيا يدعى كوفاليفسكى Kovalvesky . وستمئة جمل تحمل الأدوات من ترسانة بولاق (٤) . وعلى الرغم من ذلك كله فان هذه المحاولات — كالعادة — لم تأت بنتائج طيبة تتناسب والجهود التي بذلت من أجلها (٥) .

أما المنطقة الأخرى التي جرى البحث فيها عن معدن الذهب فكانت في جنوبى كردفان ونعنى بها « جبل شيبون » حيث زعم الأوروبيون الذين زاروا هذه المنطقة ، أمثال براون Brown ، وبالم Pallme وبتريك Petherick وروسيجير — أن هذا المعدن متوفر هناك (٦) .

(١) محفظة رقم ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ١٧ المحرم ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٨ ، انظر ايضا :

Hill : Egypt in the Sudan. p. 81.

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة رقم ٩٥ بتاريخ ٣ ربيع أول سنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Hill; Op. Cit., p. 83.

(٤)

Gessi; Op. Cit., p. 156.

(٥)

Bell; S.N.R. Vol. 20 (1937), «Shaibon Gold», pp. 129-30.

(٦)

ويذكر البعض أن الزنوج قد عملوا بالتنقيب عن معدن الذهب في تلك الجهة ولكنهم لم يعلموا قيمته تماما ، بينما على العكس منهم ، عرف الدناقلة ، الذين وصلوا الى هذه المناطق كتجار ، قيمته الاقتصادية فتنقبوا عنه وربحوا من ورائه كثيرا (١) .

وقد طلب محمد على من الدفتر دار الذى ضم اقليم كردفان أن يولى اهتماما كبيرا للتنقيب عن هذا المعدن النفيس ويبحث فيه بالنتائج التى يتوصل اليها فى هذا الصدد (٢) .

وقد أولى خالد باشا مسألة البحث عن الذهب فى جبل شيبون اهتماما بالغاً ، حيث قام بتعيين « حسن حيدر باشا » مسئولاً عن التنقيب عنه (٣) . ومرة أخرى ، نسجل فى هذه الجهة فشلاً لجماعات البحث عن معدن الذهب فى عهد محمد على .

وهكذا أنفقت الأموال الطائلة التى تحملتها الخزينة المصرية فى سبيل ذلك من حيث اعداد الآلات اللازمة للتنقيب وحملها الى تلك المناطق النائية وفى اعداد المهندسين والعمال اللازمين ، ولم تكن بطبيعة الحال الكميات التى تم الحصول عليها من الذهب — كما اتضح لنا من التقارير — تغطى النفقات الباهظة التى تحملتها خزينة الدولة فى مصر . ويسوق البعض (٤) عدة أسباب حول فشل بعثات التنقيب عن الذهب فى السودان على عهد محمد على وفى مقدمتها تلك التقارير المضللة التى تلقاها محمد على والتى تصور له امكان العثور على الذهب ، ثم الطريقة التى

Pallme; Travels in Kordofan. pp. 160-61.

(١)

(٢) دفسر رقم ١٠ معبة بركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Hill; Op. Cit. p. 83.

(٣)

(٤) انظر : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٣٤

وما بعدها .

استخدمها الخبراء في البحث والتي كانت بدائية ، بالإضافة الى العداء
السافر الذي لاقتنه بعثات التنقيب من جانب الأهالي في تلك المناطق
نظرا لما كانت تضمه هذه البعثات من عناصر أجنبية • وقد امتنع الأهالي
عن مد يد المعونة لهذه البعثات • كذلك فقد كره المصريون العمل في
السودان عامة والجهات النائية منه كجبل شيبون وجهات غازوغلي
خاصة ، كما أن المهندسين المسؤولين عن التنقيب لم يجدوا المعاونة
الكافية من المعسكر المسؤولين عن حراستهم ، بالإضافة الى أن عرب
الشايقية والزنوج السودانيين المكلفين بالعمل في التنقيب عزفوا عن
هذا العمل وهرب بعضهم كما حدث في عام ١٨٤٥ حيث فر ثلاثة من
النسايقية (١) •

وقد تعرضت البعثات التعدينية في أحايين كثيرة الى نقص في
الموعد بسبب هروب الأهالي وتركهم لأوطانهم ورفضهم امداد البعثات
بما تحتاجه • وأخيرا يمكن أن نضيف لتلك العوامل السابقة صعوبة المناخ
الذي لم يكن ملائما في مناطق البحث لرجال البعثات المكلفة بالتنقيب ،
فقد تعرضوا لبعض الأمراض كالمالاريا التي أودت بأحد رجال البعثة
التي تركها محمد علي في السودان وهو المسيو « ليفبره »
Levbre (٢) •

وبالرغم من ذلك كله فان خلفاء محمد علي حاولوا أيضا البحث عن
معدن الذهب فقد كانوا — وخاصة في مصر — في حاجة شديدة الى هذا
المعدن وخاصة في سك النقود ولذلك فاننا نلاحظ المراسلات العديدة

(١) دفر رقم ١ / ٣٤٥٣ مديرية بربر والجاعين عربي وارد • أمر
رقم ٣٧٣ • ص ٢٦ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦١ هـ •
دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(٢) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق ص ٢٦٠ •

الموارد من مصر الى السودان في طلب هذا المعدن * (١) وهذه المحاولات التي قام بها خلفاء محمد على كانت متواضعة للغاية وربما يرجع ذلك الى فتور الهمم ، خاصة عقب فشل تلك الجهود السابقة غير المشجعة ، او الى اهتمامهم بنواحي أخرى مضمونة النتائج كالزراعة والتجارة * وللأسف الشديد فأننا لم نعد نسمح على عهودهم عن جلب آلات حديثة او ارسال خبراء متخصصين في أمور المعادن الى السودان كما حدث في عهد محمد على ، بل ظلت عملية البحث والتنقيب متروكة لجهود الأهالي المتواضعة ، أو لمحاولات الحكومة التي ظلت على منوالها القديم تخضع لأساليب بالية ثبت عدم جدواها اقتصاديا * ويبدو أن المسؤولين في هذه الفترة الطويلة قنعوا بالنتائج التي توصل اليها المنقبون في عهد محمد على ، ولم يتداركوا أوجه القصور التي كانت تراجعه هؤلاء ومن ثم يبدأوا من حيث انتهوا فآثروا السلامة ، أو أن وجود هذا المعدن في تلك الأجزاء أصبح « أكذوبة » *

(ب) - الحديد :

ولم يقتصر البحث عن المعادن في السودان على معدن الذهب وحسب ، بل اتجه الى المعادن الأخرى كالحديد مثلا الذي اشتهرت به كردفان ، فصنع الأهالي منه أدواتهم المنزلية وآلاتهم المستخدمة في شئون الزراعة ورؤوس رماحهم وان استخدموا في ذلك أساليب بدائية لصهر هذا المعدن (٢) *

ولقد طلب محمد على الى الدفتر دار أن يتحقق من أماكن وجود هذا المعدن الذي ترمى الى أسماعه بأن مناجمه توجد بوفرة وأنه من

(١) أمين سامي : تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثاني ص ٤٢٨

Hill; Op. Cit., p. 57.

(٢)

النوع الجيد ، كذلك فقد طلب اليه أن يهيئ « الأسباب اللازمة التي تستوجبها سهولة استخراجها وصوغه ٠٠ » (١) وقد طلب محمد علي من الدفتر دار أن يرسل الى مصر خمسمائة قنطار من الحديد ، حيث كانت الكميات التي تحتاجها مصر تستورد من الخارج (٢) .

ولقد قام خورشيد باشا حاكم السودان في عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ باستخدام الحديد في صنع مسامير بترسانته في « منجارا » على النيل الأزرق . وقد أرسل محمد علي بعثة للتنقيب عن هذا المعدن ، تضم ثمانية من المكنشفين الانجليز ، الى منطقة على النيل الأبيض من أجل بناء مسبك « مصر » ، وقد صاحبهم أحمد أفندي يوسف المحلون الذي عين خصيصا كمسئول عن المصنع المزمع انشاؤه (٣) .

ولم تستطع البعثة أن تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل ، فقد أصيب أفرادها بالأمراض ومات منهم الكثير (٤) ، مما شل عملها وبالتالي أدى الى فشلها ، فقرر محمد علي عودة ما تبقى منها الى مصر (٥) . ولم نعد نسمع بعد ذلك عن استغلال معدن الحديد بكردفان إلا عندما أرسل المعدن روسيجير في عام ١٨٣٨ على رأس بعثة رسمية . وفي العام التالي أرسل محمد علي المهندس الفرنسي لاهبرت Lambert الذي زار المنطقة وكتب تقريرا عن وسائل صهر الحديد المختلفة التي كان يستعملها العاملون في هذا المجال (٦) . وفي عام ١٨٤٧ أرسل

(١) دفتر رقم ١٠ سعية تركي . ترجمة المكاتب التركية رقم ٢٤ بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Hill; Op. Cit., p. 57.

(٢)

Ibid, p. 57.

(٣)

(٤) دفتر ٣٨ صادر المعية السنية . ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٥ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) دفتر ٣١ / ١٩ معية سنية عربي صادر ، الأمر الكريم رقم ٣٠٤ ص ٣٤ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Hill; Op. Cit., p. 58.

(٦)

جون بتريك الى كردفان للتنقيب عن هذا المعدن واستخراجه بوسائل حديثة ، وسافر بالفعل وبدأ مهمته إلا أنه كان قد ترك الخدمة بالحكومة ، واستغل بالتجارة عقب وفاة محمد على (١) .

وفي عام ١٨٤٨ أرسل شخص يدعى ابراهيم أفندى بصحبة مهندس انجليزي وبعض « اللغمجية » للبحث عن معدن الحديد في كردفان (٢) .
إلا أن العمل قد توقف بناءً على طلب المسؤولين نظرا الى أن الحديد المستخرج لم يعد ينطى نفقات استخراجه (٣) .

(ج) - النحاس :

وأما فيما يتعلق بمعدن النحاس فقد اشتهرت جنوب دارفور به وخاصة في الجهة المعروفة باسم « حفرة النحاس » ونظرا لأن دارفور لم تكن قد ضمت في عهد محمد على ، وكانت حفرة النحاس بالتالي خارجة عن نفوذ الادارة المصرية في السودان وتابعة لسلطان دارفور ، فقد أرسل محمد على أحد أتباعه ويدعى أحمد بك ، الى دارفور للتشاور مع سلطانها في كيفية استخراج النحاس هناك (٤) . ويبدو أن هذه المساعي باءت بالفشل ولم يتمكن محمد على من الحصول على النحاس في تلك المنطقة .

وقد ظل استغلال حفرة النحاس يتم بمعرفة أهلها فقط ، وكان

(١) نسيم مقار : الرحالة جون بتريك ص ١ .
(٢) دفتر رقم ١٤ / ٢٥ معية سنية عربى وارد — وثيقة رقم ٣٤١ ص ٦٤ بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١١٦٤ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٣) دفتر رقم ٣٧ / ٢٢ ديوان المعية السنية عربى صادر — الوثيقة رقم ٢ ص ٧٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٣ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٤) دفتر رقم ١٠ صادر معية — وثيقة رقم ٢١١ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٦٤ هـ .

سلطان دارفور يمنع الآخرين من استغلالها . وتصريف النحاس للخارج . وفى عهد الخديوى اسماعيل أمكن الحصول على عينة من هذا النحاس وأخضعت لدراسات علمية تمهيدا لاستغلال هذا المعدن اقتصاديا . كما أن الزبير رحمت الذى كان مديرا لبحر الغزال أرسل عينة من هذا المعدن الموجود فى (حفرة النحاس) الى مصر لفحصها ، وكانت النتيجة أن النحاس المستخرج منها نقى وصالح للاستغلال (١) .

وقد جاء فى الوقائع المصرية بتاريخ ٣٠ ابريل عام ١٨٧٦ ، وطبقا للتقارير الواردة الى (أوستون باشا) رئيس أركان الحرب من « بوردي » أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الخديوية الذى كان يقوم باستكشافات فى جهات دارفور ، أن معادن النحاس المشهورة بتلك الجهات تبعد نحو ثلاث مراحل عن قرية « قبيسة » الواقعة على الدرجة الحادية عشرة من العرض الشمالى ، وأنه يمكن معاينة هذه المعادن وكشفها وهو متوجه الى موقع « حفرات المعادن » لأجل الوقوف على الحقيقة (٢) .

وفى أحد تقارير هيئة أركان حرب الجيش المصرى عام ١٨٧٨ ترد اتسارات حول وجود معدنى الحديد والنحاس حيث استرعى انتباه أفراد البعثة المصرية وجود مجموعات جبلية كثيرة تمتد من منطقة الدبة الى الأبيض مثل مجموعة جبال « زريقة » و « ايد الزلطة » و « الكاب » و « الحرارة » و « نصب الحصان » وغيرها . وتأكد هؤلاء الأفراد

(١) محفظة رقم ٩ معية عربى مستخرج من المعية التركى رقم ٤١ — ٤٢ ، بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . تقرير من القائم نادى الى الخديوى — دار الوثائق القومية بالقلعة . انظر ايضا : شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل — الجزء الثانى ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث — ص ١٣٢٢ .

من أن معظم هذه الجبال ترخر بكميات هائلة من الماسن وخاصة معدنى الحديد والنحاس (١) .

معدن الرصاص :

وفى دارفور أيضا جرى التنقيب عن معدن الرصاص فى جهة « جبل الكتم » ، وفحص الياسه المعدنية بجبل « مرة » فى عينين تسمى الأولى : بركة الأننى والثانية بركة الذكر (١) . وقد دلت الاستكشافات المصرية التى تمت على أيدي هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى غربى السودان بدارفور وخاصة ما ورد بتقرير الصابط محمود صبرى عن وجود معدن الرصاص فى أنحاء مختلفة من هذه الجهات وخاصة فى بلدة « البنداقه » الواقعة غربى الفاشر . ولعل اسم هذه البلدة يدل على كثرة ما كان يوجد بها من معدن الرصاص ، فهذا الاسم يعنى بلغة الفور المحلية كلمة الرصاص ، كما أن شيخ البلدة كان يلقب باسم « ملك الرصاص » (٣) .

وعلى سواحل البحر الأحمر بجهات زيلع وجبال بنى عامر بين سواكن وعقيق ، وعلى حدود هرر المتاخمة لشوا الحبشية ، كلف محافظ سواكن ووكيل محافظة زيلع (أبو بكر شحيم) وحكم دار هرر رءوف باشا

(١) حريدة أركان حرب الجيش المصرى — الجزء الأول من المجلد الثانى العدد رقم ٧ « تقرير أحمد حمدي » ، انظر أيضا : عبد العظيم خلاف : المرجع السابق . ص ١٨٢ .

(٢) دئتر رقم ١٤٨ معبة عربى — مكاتبه رقم ٥٢ فى ٢٧ ربيع الاول سنة ١١٤٣ من المعية الى حكم دار السودان .

(٣) حريدة أركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الأول — العدد الأول فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م) تقرير متعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقدم من محمود أفندى صبرى يوزباشى أركان حرب الى أمراى أركان حرب مأمورية استكشافات دارفور . ص ٤٩ . انظر أيضا : عبد العظيم خلاف : المرجع السابق ص ١٩٦ .

بفحص الفحم في تلك الجبرات وذلك حتى يتسنى معرفة مدى صلاحيته كوقود نافع (١) . كذلك فقد تم البحث عن مـدـن الملح في جهات السودان ، وخاصة سواحل البحر الأحمر . وقد تكونت في مصر عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ادارة خاصة لهذا الأمر أطلق عليها « مصلحة الملح والنظرون » كان من بين مهامها الاشراف على الملاحظات الموجودة بسواحل البحر الأحمر واستغلالها ، والعمل على استكشاف ملاحات جديدة (٢) . وكان بزيلع وحدها خمس ملاحات ، نظمت فيها عملية الاستخراج والتصريف ، وكان الأهالي في هذه المنطقة يعتمدون عليه اعتماداً رئيسياً في تجارتهم ، وقد حرصت الادارة المصرية هناك أن يباع الملح للأهالي بسعر منخفض . وقد تم بناء مخزن للملح المستخرج في بزيلع وأرسلت عينات منه الى البلاد الأجنبية والى لندن على وجه الخصوص لعمل الدعاية اللازمة له (٣) .

وبالإضافة الى ملاحات بزيلع ، توجد ملاحه « راوية » بجهة سواكن وأخرى بين سواكن ومصوع ، وكان الملح المستخرج من ملاحه راوية ينقل منها على الحمير حتى البحر ، ثم ينقل بعدها بحراً الى جدة (٤) .

وقد تم تنظيم هذه العملية بدقة بالغة تحت اشراف مسئولين

(١) دفتر رقم ١٨٣٥ معية عربى — مكتبة رقم ١٠ فى ١٦ صفر ١٢٨٧ هـ من محافظ سواكن الى المعية السنية ، انظر أيضا : دفتر رقم ١٧ مكتبة رقم ٢٠ سايرة فى ٥ رمضان ١٢٩٢ هـ . من رعييف باشا الى المعية ، وانظر كذلك : دفتر رقم ١٠ معية عربى — ص ١٣ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ الى حكامدارية هرر وملاحقها . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) شوقي الجبل : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ص ١٧٨ .

(٣) دفتر رقم ٢٤ وارد من معية عربى — مكتبة رقم ٤٩ سايرة ص ٢٤ بتاريخ ٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ . من محافظ بزيلع .

(٤) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا المجلد الثانى ج ٩١٢٣ .

مستولية مباشرة أمام كبار رجال الادارة ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الدقة ان وصلت ايرادات الملاحة المذكورة - في عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) وحده - الى عشرين ألف جنيه (١) .

وفي جنوب السودان كانت توجد ملاحة واحدة تسمى ملاحة « أونجاتى » وهذه الملاحة استطاعت أن تفى بحاجات جميع سكان مديرتى بحر الغزال وخط الاستواء (٢) .

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت بحثا عن المعادن فى شرقى السودان إلا أن النتائج لم تكن أيضا بذات قيمة اقتصادية بحيث يمكن أن تنسجع المسئولين على الاستمرار فى البحث عنها بصورة أكثر جدية . وتمة ملاحظة عامة حول البحث عن المعادن فى السودان ينبغى أن تذكر لوجه الحقيقة العلمية وهى أن المسئولين فى مصر بدءاً من محمد على وحتى عهد توفيق عام ١٨٨١ حين هبت رياح الثورة المهدية فى السودان ، لم يتقاعسوا فى البحث عن المعادن فى أرض السودان شماله وجنوبه . شرقه وغربه ، وان تفاوتت درجات الاهتمام من حاكم الى آخر . فلا يمكن مثلاً أن نقارن جهود محمد على فى هذا المجال بجهود خلفائه مجتمعين وهكذا يمكن أن نقرر ، بعد بسط هذا الموضوع وبحث الجهود المتتالية من أجله ، ان الآمال والطموحات (المعدنية !) كانت أكبر بكثير مما فى باطن التربة السودانية فتوقفت الجهود الى ذلك الحد ، وقنع المسئولون بتلك النتائج التى كانت لها انعكاسات خطيرة فى عدم قيام صناعة قوية فى السودان فى ذلك الوقت .

ونتيجة لما سبق ، فإن أى محاولة لرصد أو تتبع تدوير المعنائة

(١) دكتور رقم ٢ ابراهيم عريضة ص ١٢ ، رقم ٦ أمر كريم صادر الى عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الاحمر بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) سر طوسون : تاريخ تدريبة خط الاستواء ، الجزء الثانى ص

السودانية في القرن التاسع عشر بصفة عامة ، سوف تكون مسألة نسائه أمام أى باحث فيها ، فسوف لا يجد صناعه قوية كما كان الحال في شمال الوادي ، وينبغى عليه من ثم أن لا يضع في ذهنه صورة لبعض البلدان الرأسمالية الأوروبية - وخاصة في القرن التاسع عشر - حيث بدأت بها ثورة صناعية - حتى لا تخرج النتائج مغايرة تماما . كما أننا أيضا نهذر من استخدام بعض الاصطلاحات الخاصة ببعض المذاهب الاقتصادية ، اللهم في بعض المواضع التي يناسبها المقام ، في محاولة لسرح أوضاع الصناعة السودانية في ذلك الوقت ، فالأوضاع جد مختلفة هنا وهناك ، اللهم إلا في أمور قليلة في مسيرة هذا التطور . وخاصة في عهد اسماعيل عندما بدأ الأجانب يشكلون قوة ضاغطة عليه في السودان . وهنا بدأ السودان يتأثر بالفعل بما يجري في أفريقيا وتنعكس عليه ظروفه الاقتصادية التي جعلته يفتش عن أسواق جديدة لتصريف صناعاته .

لقد ظلت الصناعة السودانية في بداية عهد محمد علي - كما كانت قبل عام ١٨٢٠ تقتصر على انتاج سلع ضرورية تقوم على الغلات النباتية ، أو المنتجات الحيوانية ، بالإضافة الى بعض الأدوات التي صنعوها من المعادن كأدوات الحرب والقتال ، وأدوات الزينة ، وكلها صناعات بسيطة ، وكان يوكل أمر القيام بها عادة الى الرقيق والنساء اللاتي كن غالبا ما يقمن بأكثر الصناعات والمنتجات الريفية . ومع ذلك كله فقد كانت هناك بعض الصناعات السودانية على بساطتها تخدم بعضا من أمور الحياة في البيئة السودانية ، ويسمح بتصدير الفائض منها - كالحصر مثلا - الى الخارج .

وبالرغم من ذلك كله يمكن القول بصفة عامة بأن الصناعة السودانية ظلت متأخرة اذا نظرنا بعين الاعتبار الى امكانات البلاد الطبيعية من حيث هرة الخام - اذا استثنينا المعادن - والتي يمكن أن تقوم عليها بعض الصناعات التي تخدم نواحي النشاط الاقتصادي .

ومن الطبيعي خلال هذه المسيرة التاريخية الطويلة للحكم المصري حتى عام ١٨٨١ أن تقوم بعض الصناعات التي تفاوتت درجة تقدمها طبقا لما كانت تعتمد عليه من مواد خام * وفيما يلي عرض لأهم تلك الصناعات :

(أ) الصناعات القائمة على الفلات النباتية :

١ - صناعة حلب القطن :

كانت هذه الصناعة في بادئ الأمر وعلى عهد محمد علي نادرة في السودان ولم نسمع عنها بصورة قوية وربما سر ذلك أن زراعة القطن لم تكن قد ازدهرت بعد في السودان ، إذ أن هذه الزراعة — كما علمنا — كانت قد بلغت مرتبة عظيمة في عهد حكم دار السودان أحمد ممتاز علي عود الخديوي اسماعيل وعلى هذا فقد كان يتم تنظيف البذور في محالج مصر (١) *

وتتبرر الوثائق أنه في عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) قد حدثت مشقة حول وجود بذور القطن بالسودان نظرا لعدم توافر المحالج الكافية لهذا الأمر ، مما دعا المسؤولين هناك الى ضرورة « حضور دولاب حلاجة أفركي » يمكنه حلب كمية ما بين عشرة الى خمسة عشر قنطارا في اليوم ، بالإضافة الى حضور خبير له المام بتركيب هذه الآلة * كذلك فقد طلب المسؤولون أيضا ضرورة العمل على ارسال عدة « دوليب » أخرى نظرا لما سيصير اصلاحه من الأراضي مما ينتج عنه بالتالي زيادة في انتاج القطن السوداني (٢) * ولم يكتف رجال الادارة في السودان

(١) نشر رقم ٦٣٩ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٥٤٩ بتاريخ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) محافظ سماكن — صادر (عربي) دفتر ص ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ مكتبة رقم ٢ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . ص ٥١ معية سنينة . انظر أيضا : محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة ١٢٢ . بدون تاريخ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

على عهد الخديوى اسماعيل بما كانت ترسله مصر من خبراء يقومون بمهمه ادارة ماكينات حليج القطن فى السودان ولكنها آخذت على عاتقها ضرورة ارسال تلاميذ سواء من مدرسة الخرطوم أو من أبناء العساكر أو غيرهم لتعلم هذه المهنة ، ثم يعودون الى السودان للقيام بهذه المهمة ، خاصة وان زراعة القطن قد بلغت نأوا عظيما فى ذلك الوقت من حيث رراعة مساحات شاسعة من القطن فى أنحاء كثيرة من السودان خاصة الجانب الشرقى منه ، مما استلزم بالضرورة القيام بعملية الحليج قرب مواقع الانتاج وعلى سبيل المثال كان القطن المتحصل من طوكر يرسل الى سواكن للحليج ، ناهيك عن الصعوبات التى كان يتعرض لها الخبراء القادمون من مصر الى السودان من ناحية سوء المناخ الذى يجعلهم عرضة للموت (١) .

وفى عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) ازدادت الحاجة بشكل ماس الى المزيد من المحاليج ، فقد بلغ ما طلب فى احدى المرات « ستمائة دولا ب » للحليج من أجل تركيبها فى جهات الخرطوم وفاشودة والكوخ وأبو حراز وانصارف (٢) .

وعلى الرغم من ذلك كله فان ما كان يرسل من آلات حليج القطن الى جهات السودان لم يكن يفى بالحاجة المتزايدة اليها ، فقد جأر المسؤولون هناك بالشكوى لقلّة وجود هذه الآلات أمام الكميات الضخمة والمتزايدة من الأقطان السودانية التى هى فى حاجة الى حليج . ويبدو أن هذه الكميات قد بلغت من ضخامتها حدا جعل أحد المديرين فى

(١) دفتر رقم ٥٦٠ عربى - ونفذة بتاريخ ٢٩ ربيع الاول سنة ١٢٨٩ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى خرى باشا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ٦٧٣ عربى . وثيقة بتاريخ ٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٩ هـ من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(م ٨ - التطور الاقتصادى الاجتماعى)

السودان يقول انه « على قدر ما ترسل محالج ومكابس الأقطان من المحروسة غانه توجد أقطان لتسغيلها .. » (١) .

من ذلك العرض لصناعه حليج القطن في السودان يتبين لنا أن هذه الصناعة قد نمت وازدهرت على عهد اسماعيل على وجه الخصوص وهذا يعود الى السياسة الزراعية التي انتهجها أحمد ممتاز وخاصة زراعه القطن في شرقي السودان بشكل مكثف ، الأمر الذي كان لابد أن تقوم معه وتواكبه صناعة حليج أيضا .

٢ - صناعة نسيج القطن :

كانت هذه الصناعة في بادئ الأمر من نوع خشن رديء يسمى « الدمور » وقد ذكر جيمس بروس أثناء زيارته حلفاية في عام ١٧٧٠ أن صناعة نسيج القطن الخشن في المنازل كانت موردا رئيسيا للرزق هناك ، وأن (قطع الدمور) كان يتم التعامل بها بدلا من النقود وعلى نطاق واسع . ولقد اقتصرت هذه الصناعة على النساء دون الرجال - عدا العبيد منهم - حتى عدت منساركة الرجل في هذا العمل من أقبح علامات الكسل (٢) .

وكان يتم نسيج القطن بهذا الشكل البدائي في مناطق النوبة الشمالية والدامر ، والمتممة ، وسنار ، وتقلي جنوب كردفان . إلا أن منطقة النوبة السودانية - وخاصة في دنقلة وما يجاورها من بلاد - كانت قد اشتهرت بهذه الصناعة . فقد وجدت بها « الأنوال » العديدة التي تنتج الأقمشة القطنية ، فنحن نقرأ في وثائق عهد محمد علي في السودان عن انتشار هذه الصناعة في تلك المناطق وخاصة ما كانت تنتجه دنقلة وكان « يجري بيعه بالوجه القبلي من مصر » (٣) .

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان . ج ١ ص ٤٦ .

(٣) دحفظة رقم ٢٦٢ عايدس . ترجمة تقرير المسائل التي حرر عنها حكام السودان في ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

وكان القماش الذى يتم صنعه فى بربر من نوع يسمى « جديرى »
ويبدو أن القماش المنتج منه لم يكن على المستوى الطيب حيث نقرأ
سكاوى من جانب الأهالى بعدم مطابقة هذا القماش للمواصفات
المطلوبة (١) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل تم انشاء « ورشة بالحرطوم »
لصنع ملابس الجنود بناء على اقتراح حكمدار السودان فى عام
١٨٦٤ (٢) •

ويبدو أن دارفور كانت تقوم بسد حاجتها من الأقمشة المنسوجة
بمصانعها المحلية ، حيث طلب المسئولون بمصر ارسال عينة من الأقمشة
التي تصنع بها للاطلاع عليها ومعرفة مدى دقتها (٣) • كذلك نقرأ فى
جريدة أركان حرب الجيش المصرى أن أهالى هرر فى عام ١٨٧٧ بدأوا
يتقدمون فى صناعة الأقمشة ونسجها عن سائر بلاد السودان الأخرى على
الرغم من أن معظم مصنوعات المختلفة كانت تأتيها من بلاد العرب عن
طريق البحر الأحمر حيث كانت الصناعة فيها متأخرة وبدائية (٤) •

وبالرغم من هذه المحاولات المتواصلة لخلق صناعة لنسج القطن

(١) دغبر صادر رقم ٣٤٨٢ نشربرات مديرية بربر ودنقلة ونفلة ١٣١
فى ٢٤ شعبان ١٢٨١ هـ .

(٢) امين سامى : تقويم النسل وعصر اسماعيل باشا - مجلد ٢ ،
ج ٣ ص ٥٩٦ وثيقة بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٨١ هـ .

(٣) دغبر ٢٤ عابدين - صادر تليفونات - صورة التليفونات العربى
رقم ١١ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩١ هـ . من خبرى باشا الى سعادة حكمدار
السودان بالفائش ، انظر أيضا : دفتر رقم ١٧ (معية عربى) قيد الاقادات
الواردة من جات الاقاليم والمحافظات والسايره . ص ٣٥ مكتبة رقم ١
مرور بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٥٢ هـ . من حكمدار السودان الى
المعية الاسكنية .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى - السنة التالية - العدد ٥
بتاريخ ٤ رجب سنة ١٢٩٤ . ص ٤٦٢ - ٤٦٥

في جهات السودان فان هذه الصناعة ظلت فقيرة وغير دقيقة ولم تبلغ في جودتها ما كانت تنتجه المصانع المصرية آنذاك في اخميم والحلة * ولكن ينبغي أن ننسب الى أن تلك المصانع القليلة كانت تقوم — الى حد ما — بسد حاجة الاستهلاك المحلي * وأما فيما يتعلق بتواضع هذه الصناعة رغم الانتاج الوفير من القطن فان ذلك يعود في جملة الى أن معظم المُنشآت السودانية كانت تنقل الى مصر ولا يتم تصنيعها داخل السودان *

٣ — صناعة النيلة :

لقد كانت صناعة النيلة * واحدة من الصناعات الجديدة التي أدخلها الحكم المصري الى السودان في عهد محمد علي ، ف لأول مرة في تاريخ هذه البلاد انشئت خمسة مصانع للنيلة بمديرية دنقلة في كل من « مروي » و « حنك » و « حفير » ودنقلة العجوز ودنقلة العرض (الأوردي) بلغ انتاج الواحد منها حوالي ١٨٤٦ أقة سنويا (١) * وكان محصول الفدان الواحد من النيلة يبلغ حوالي خمسين قنطارا ، ومقدار الصبغة التي يمكن الحصول عليها من القنطار حوالي ١٠٦ دراهم (٢) *

ولقد أرسلت الحكومة الى دنقلة خبراء في هذا الصدد من مصنع قارب ، بالإضافة الى « مرجلين » بآلاتهما للإشراف على تجهيز النيلة

(١) أنظر الفصل السابق حول زراعة النيلة في السودان .

(١) دفتر رقم ٧٥٧ ديوان خديوى — وثيقة رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٥ هـ ، أنظر أيضا : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٢) دفتر (بدون رقم) ديوان خديوى تركى — ترجمة الوثيقة التركية ص ٢٢٧ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٥ هـ . من الجناح العالى الى حاكم دنقلة .

وتعليم الأهالى أصول هذه الصناعة (١) . كذلك فقد عينت الحكومه أحد الأوربيين ممن لهم دراية فى هذا المجال رئيسا عاما لادارة مصانع النيل فى السودان . ويبدو أن بقاء هذا الموظف الأجبى هناك لم يدم طويلا اذ يحدثنا الرحالة « بكلر مسكاو » الذى زار مصانع النيل عام ١٨٣٧ بأنه لم يعد يوجد أى موظف أوربى فى هذه المصانع (٢) . وربما يرجع ذلك الى حرص الباشا فى أن يتولى ادارة هذه المصانع والعمل بها عمال سودانيون بعد أن يتم تدريبهم على أيدي خبراء مصريين وأجانب ، وهذا بالفعل ما عبر عنه محمد على فى إحدى مكاتباته لخورشيد « أغا » ناظر سنار (٣) . ومسألة الاستعانة بالخبرة الأجنبية هذه ظاهرة واضحة فى المؤسسات التى كان يبنئها محمد على من جديد . فمعروف تماما أنه عندما أراد تكوين جيش قوى فى مصر أتى بخلاصة التفكير العسكرى الأوربى فى ذلك الوقت وكلفه بأداء هذه المهمة ونعنى به الجنرال سيف أو ما عرف باسم سليمان الفرنساوى وكذلك فى مجال الصناعة المصرية التى أنشأها فقد لاحظنا أنه أسند الى كثير من الخبراء الأجانب مهمة ادارة هذه المصانع وتدريب المصريين ، على ادارتها ، وهكذا كان سبيله أيضا فى بقية النواحي الطبية وغيرها . فلم يكن إذا الرجل منغلقا على نفسه بل كان يحاول الاستعانة بأهـداب ما وصل إليه العصر من تقدم ، ولذلك فإنه نجح كثيرا فى مشاريعه المختلفة . وكذلك كان الحال فى السودان فكانت سياسته فى السودان هى نفس السياسة التى اتبعها فى مصر .

(١) دسبر رقم ١٨ ، سادر المعبة — ترجمة المكتبة التركية رقم ٢٤ ، بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١١٤٥ هـ . من الجنا بـ العالى الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Puckler, Muskau; Egypt under Mehemet Ali, Vol. II, p. 164. (٢)

(٣) دسبر رقم ٧٤٢ ديوان خديوى — ترجمة الوثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ . من الجنا بـ العالى الى خورشيد ، ناظر سنار . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وأما طريقة تحضير صباغة النيلفة فتتلخص في وضع أوراق سيقان نبات النيلفة في حوض كبير به ماء لمدة ثمان عشرة ساعة تقريبا ، ثم تتل محترويات الحوض في إناء آخر تجرى فيه عملية الغليان لبعض الوقت يحرك المحلول أثناءها بعصى ذات أفرع تساعد على تفتيت أجزاء النبات . وبعد ذلك يستخلص المحلول من البقايا النباتية ويترك حتى يتحول الى مادة رسوبية تصنع منها أقراص فتجفف وتصبح معدة للاستعمال (١) .

وكانت مادة الصباغة التي يتم الحصول عليها بهذه الطريقة لا تقل جودة عن ذلك النوع الذي اشتهرت به الهند في ذلك الوقت (٢) .

وكانت النيلفة السودانية تدر دخلا طيبا للحكومة ، كما كانت تخضع لاحتكارها حتى عام ١٨٣٨ عندما زار محمد علي السودان حيث أعلن حرية زراعة الأهالي لها والاتجار فيها ، مما كان له الأثر الطيب في نفوس المزارعين فأقبلوا على زراعتها والتوسع فيها (٣) .

(ب) — الصناعات الخشبية :

١ — صناعة المراكب :

من المعروف أن السودان يتمتع بثروة خشبية هائلة تتمثل في الغابات ذات الأشجار الكثيفة ، وكان لابد من محاولة لاستغلال هذه

Cadalvene ; L'Egypte, La Nubie, Tome II, p. 340 & Hoskins; (١)
op. cit., p. 53.

وأنظر أيضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٢٢١ .

Muskau, P. op. cit., vol. II. p. 164. & Hoskins : op. cit. p. 52 (٢)
& Cadalvene : op. cit., p. 339.

(٣) دفتر رقم ١٢٦ ديوان خديوى — صورة المكتبة رقم ٤٠٨ بتاريخ ٨ صفر سنة ١٢٥٨ هـ . ، أنظر أيضا : رحلة ساكن الجنان — محفظة ١٢٣ — عابدين — ملف متفرقات ، دار الوثائق القومية بالقاهرة .

التروة في صناعة المراكب والسفن^(١) * وبالفعل فقد وجهت الادارة المصرية في السودان اهتماما كبيرا لهذا الأمر واتجهت في عهد الحكمدار حورثسيد باشا الى بناء ترسانة لصنع القوارب في « منجارة » أعلى النيل الأبيض ، وأخرى في جهة الكاملين ، كما تم تشييد ترسانتين أخريين في سنار وبربر^(٢) *

وقد اهتم محمد على وهو بمصر بإرسال جميع مستلزمات صناعة المراكب من مهندسين وخبراء متخصصين في هذا المجال ، خاصة اذا علمنا أن البلاد السودانية آنذاك كانت في حاجة ماسة الى مثل تلك المراكب ، فقد كانت الوسائل المستخدمة في مسألة النقل والتنقل — كما سنعرف — بدائية ولا تصلح لمسيرة عمليات التطور التي بدأها محمد على فقد بدأ يرسل البعثات العلمية في النيل الأبيض والتي كانت تعتمد أساسا على المراكب والسفن ، ناهيك عن الاستخدامات الأخرى لهذه المراكب في نقل المحاصيل بكميات ضخمة بدلا من الإعتماد على الإبل التي لا يمكنها نقل كميات كبيرة * ولهذا كله بدأت تلك الترسانات التي انشئت في جهات السودان تقوم بصنع مراكب تقوم بهذه المهام * وعلى الرغم من هذا الإهتمام بهذه الصناعة فقد وجه نقد للمراكب المصنوعة في ترسانات السودان الأمر الذي جعل محمد على يرسل في عام ١٨٣٢ سعيد أفندى للتحقيق في أسباب رداءة صناعتها وما ينبغي أن يتم إتخاذها نحو تقدمها *

وبمرور الوقت تحسنت صناعتها حتى إن كثيرا من واردات السودان

(١) الوقائع المصرية — العدد رقم ١٣١ — الثلاثاء ١٢ شوال سنة ١٢٤٥ هـ ص ١ .

Hill; op. cit., p. 61.

(٢)

انظر أيضا : دفتر رقم ٨٧٥ ديوان الخديوى تركى — وثيقة رقم ٣٠٤ بتاريخ ٢١ رجب ١٢٤٨ هـ ص ١٩١ ، انظر أيضا : دفتر رقم ٢٥ / ٣٤٥٨ مديرية بربر والجاغلين (عربى) صادر وثيقة رقم ٢٢٢ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦١ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

بدأت ترسل بواسطة المراكب في النيل (١) والأهم من ذلك إزدياد أعداد المراكب والسفن المصنوعة محليا وخاصة في عهد حكمدارية أحمد باشا أبي ودان الذي يعتبره البعض مؤسس النواة الأولى للبحرية التجارية في السودان (٢) .

ولقد لعبت ترسانه الخرطوم دورا بارزا في حملات الكشف عن منابع النيل الأبيض ، حيث أوفد محمد علي الضابط المصري سليم فيردان على رأس حملات ثلاث ، فأمدت هذه الحملات بالسفن اللازمة وسهلت من مهمتها وأسدت بذلك فوائدها عظيمة للكشوف العلمية في السودان حيث ترتب على هذه الرحلات كتابة تقارير علمية في غاية الأهمية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية وغيرها الأمر الذي ترتب عليه أن تمتد الحكومة إدارتها واهتمامها الى تلك البادان فيها بعد وإدخالها في ركب التقدم بعد أن كانت معزولة عن الجزء الشمالي من السودان .

كذلك فقد كان لتقدم صناعة السفن في السودان أثر طيب في نشاط حركة النقل المائي في النيل وبين المناطق الصالحة للملاحة ، ومع شمال الودان . وكانت السفن المصنوعة محليا تستخدم في نقل السلع والمنتجات السودانية المتنوعة كالصمغ وريش النعام والرقيق الى مصر ، كما كانت تقوم بنقل معدات الجنود وأدوات البحث عن المعادن في السودان (١) .

وكانت ترسانات السودان تقوم أحيانا بصنع أعداد كثيرة من المراكب وإرسالها الى مصر ، فقد طلب في عهد خورشيد من ترسانة سنار

(١) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق . ص ١٥٠ .

أنظر أيضا : نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٢٣٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار . الجزء الثاني ص ٢٣٣ .

أن تقوم « بصنع خمسين مركبا وإرسالها للمحروسة » (١) * وربما كان هذا الطلب لصنع هذه السفن في السودان بقصد توفير الجهد في نقل الأخشاب من السودان الى مصر ، وجعل هذه الصناعة قرب مواقع الإنتاج وهو تفكير إقتصادي سليم *

وبالرغم من تلك الجهود التي بذلت في سبيل الارتقاء بصناعة المراكب والسفن في عهد محمد علي فإننا نلاحظ أن الكثير من البواخر النيلية التي كانت موجودة بترسانة الخرطوم على عهد اسماعيل كانت قد أرسلت من مصر بطريق النيل بعد أن تم صنعها وتركيبها بمصر ، ماعدا الباخرة « الاسماعيلية » التي اتخذها حكمدارو السودان لركوبهم فقد جرى نقلها على هيئة قطع مفككة وتم تركيبها بترسانة الخرطوم (٢) *

ويبدو أن عملية الكشف الجغرافية الضخمة التي تمت في عهد اسماعيل في أرجاء السودان وأفريقيا قد جعلته يولى عناية فائقة لصناعة السفن النيلية فأصدر في عام ١٨٧٧ أمره الى الجنرال غوردون بإنشاء (دار صناعة نيلية) ، شأهتتم الأخير بذلك كثيرا وقام بتنفيذ إنشائها على نظام بديع وتم فيها بناء المعامل والورش المختلفة ، وبلغ عدد العمال ٤٥٠ فردا ، بالإضافة الى الكتبة والملاحين والقبودانات ، كذلك طلب أن تشيد بها ثمان بواخر ليصل بذلك عدد البواخر التي كانت تستخدم الى ست عشرة باخرة ، بالإضافة الى الصنادل والسفن التي لم يكن يقل عددها عن ثلاثمائة كان أكبرها يحمل نحو ١٥٠٠ أردب وأصغرها يحمل خمسمائة أردب (٣) *

-
- (١) الوثائق المصرية : العدد ١٣٦ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٤٥ هـ .
 ص ٢ .
 (٢) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل : الجزء الأول ص ١٦١ .
 (٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجزء الثاني ص ٣٣٧ .
 أنظر أيضا : ابراهيم فوزى : السودان بين بدى غوردون وكنتشنر ج ١ ، ص ١٧ .

٢ - صناعة السواقي :

وتعد صناعة السواقي في السودان من أهم الصناعات التي استغلّت فيها أخشاب السودان ، فقد بلغت أعدادها الآلاف الكثيرة وخاصة في شمال السودان في منطقة دنقلة * وعلى الرغم من بساطة هذه السواقي ، التي لم تكن تحتاج الى آلات معقدة بل الى بعض آلات بسيطة تتوفر لدى الفلاح السوداني ، فإنها قد أدت مهمتها على الوجه الأكمل * وقد تجعت الإدارة المصرية الفلاح السوداني على إنشائها والإكتار منها * وبلغت شهرة السواقي في جهات دنقلة حدا جعلت المسؤولين في السودان يقدرون الضرائب بعدد السواقي لا بعدد الأقدنة * *

٣ - صناعة الأسرة :

لم يكن استخدام الأسرة شائعا بكثرة في ذلك الوقت بين جميع السكان ولكنه اقتصر على سكان المدن وخاصة التجار منهم وقبيلة الشايقية وسكان المحسن ودنقلة * أما الفرائس الشائم عند البدو فكان الحصير *

والأسرة السودانية مستطيلة الشكل ذات قوائم أربعة قصيرة ، وقد تكون قاعدتها من الخشب أو أعواد الغاب ويعرف هذا النوع بالسريبر ، أو تشد بسيور دقيقة من الجلد شدا محكما وهنا يعرف « بالعنقريب » * وقد اشتهرت بصناعة الأسرة كل من سنار وبربر ، وإمتازت سنار بالأنواع الجيدة التي كانت تجد طريقها الى الأسواق الخارجية في مصر العليا وبلاد العرب (١) *

(*) انظر الفصل الأول : تطور الأوضاع الزراعية .

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

كذلك فقد صنع السودانيون الأبواب والنوافذ من الأخشاب واشتهرت هذه الصناعة في المدن الرئيسية مثل شندى وبربر وسنار ، أما النوافذ فكانت من الأحجام الصغيرة ، وكان يقتصر على نافذة واحدة في كل حجرة ، لذلك فلم تكن تعطى إلا ضوءاً بسيطاً ولهذا فقد كان دائماً باب الحجرة مفتوحاً (١) .

ومن الخشب أيضاً صنع السودانيون الأواني والأوعية الخشبية واختص بها طائفة من النجارين في المدن الشهيرة بالسودان كبربر وسنار والطياره بكردفان ، وإمتازت هذه الأواني بدقتها الشديدة إلى الدرجة التي لم تكن تبدو عليها آثار الآلات الحادة التي استخدمت فيها . وكان بعضها يستخدم في الطعام والبعض الآخر يعلق على الحوائط داخل الحجرات بقصد الزينة ، وكانت تطلّى بالدهان وتوضع على النار حتى ييسود لونها ، كما أن بعضها كان كبير الحجم بحيث يسع من الطعام ما يكفي لأعداد كبيرة من الناس ، وهكذا كان يرجع انتشار هذه الأواني الخشبية المتنوعة إلى كثرة الأخشاب في جهات السودان .

ومن الأخشاب أيضاً صنعت الأدوات الزراعية كالجاروف والمذراه ، وآيادي الفؤوس والبلط ومقابض السكاكين ، كما أنهم صنعوا من الخشب القسي والسهام والرماح .

(ج) — صناعات قائمة على أشجار النخيل والدوم :

من المعروف أن السودان وخاصة الجزء الشمالى في النوبة منه تكثر به أشجار النخيل ، كما تكثر أشجار الدوم في جهات أخرى مثل كردفان . وقد تقنن السودانيون في الاستفادة من هذه الأشجار فصنعوا من خوصها وأليافها الحصر والأوعية ذات الأحجام والأشكال المتنوعة

(١) نسيم مزار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

والتي إمتازت بدقة صنعتها وجمال ألوانها ، وكان السودانيون يصنعون بعض الأسرة والمقاعد من جريد النخيل وأليافه ، بالإضافة الى الحبال التي كانت تلعب دورا كبيرا في حياة قطاعات عديدة من سكان السودان ، فالبدوى في حاجة اليها لربط سلعه وخيامه على الإبل عند ترحاله ، والمزارع يستخدمونها في السواقي وغيرها من أمور الزراعة ، بالإضافة الى إستخدامها في صناعة السفن التي كانت تفتقر الى المسامير • أما التجار في المدن فكانوا يستخدمونها عند شحن بضائعهم فوق الجمال في خلال الرحلات الطويلة عبر مغازات السودان الشاسعة أو الى خارج البلاد •

تلك استخدم السودانيون نبات الحلفا في صناعة الحصر والأوعية والقندور المجدولة جدلا دقيقا يحول دون نفاذ الماء منها وقد استخدموها في حفظ اللبن ، وإستخدموا بالإضافة الى ذلك ، ثمار القرع بعد نضجها في صنع أقداح وأواني متنوعة الأحجام ، وكانت ترسم عليها أشكال من الطيور والحيوانات •

وقد تميزت الأواني المصنوعة من نمار القرع بخفتها وكثرة احتوائها على عكس ما يتصور ، بالإضافة الى سهولة تنظيفها وعدم تعلق أجزاء من الطعام على جوانبها كما يحدث في الأواني الخشبية ، وأكثر من ذلك فقد كان سعرها زهيدا جدا • وقد انتشرت جميع هذه الصناعات في بقاع السودان المختلفة سواء بين البدو أو الحضر ، بيد أن هناك بعض المراكز اشتهرت بإنتاج أنواع ذات صفات جيدة وجميلة واكتسبت بالتالي شهرة واسعة مثل بلاد النوبة ، كذلك فقد اشتهرت الدامر بصناعة أجود أنواع الحصر من شجر الدوم التي عرفت بإسمها ، كما أن بدو الشايقية اشتهروا بصناعة الحصر ذات الألوان الجميلة •

وهذا الملاحظ أن هذه الصناعات ، سواء التي قامت بين البدو أو سكان الريف والحضر في أنحاء السودان المختلفة كانت من اختصاص النساء وعزف الرجال عن القيام بها مفضلين الخروج للتجارة أو العمل

بالزراعة ، فكان الرجل يأنف أن يقبع في بيته كالسيدة ليؤدى مثل هذه الصناعات ، بالإضافة الى إرتباط بعض هذه الصناعات بالعبيد فقد كانوا يكلفون بها بالإضافة الى أعمالهم المنزلية فإرتبطت بهم وأصبحت عنوانا للتدنى وسط مجتمع يموج بالتيارات القبلية التى تفخر بأنسابها ، ومن هنا تركوا هذه الصناعات وظلت محصورة بين النساء والعبيد فلم يحدث فيها تطور ملموس وظلت كما هى بدائية الصنع وإن كانت تسد حاجة المجتمع الضرورية .

صناعة الزيوت النباتية :

كانت هذه الصناعة تسأنها فى ذلك شأن الصناعات السودانية الأخرى بدائية ، فإنه على الرغم من وجود النباتات الزيتية - كالمشمم - فى كثير من بقاع السودان فلم يستفد الأهالى منها إستفادة كاملة ، فقد ظلوا ، مثلا ، مكتفين باستخدام الخشب فى الإضاءة بدلا من زيت المشمس ، وفى عهد محمد على بدأ أهل كردفان ، كما يذكر « بالم » ، يستخرجون الزيت من المشمس ويستعملونه فى دهان ضفائر الشعر على رؤوسهم . بالإضافة الى دهن بشرتهم (١) . فالسودانى ، وخاصة أولئك الذين يقومون بالأسفار عبر صحراوات السودان لهم ولع شديد بوضع الزيوت وأنواع النحوم على رؤوسهم إتقاء لوهج الشمس المحرق . ومن أشهر النباتات الزيتية الأخرى « الخروع » الذى يزرع فى بلاد النوبة و « بطن الحجار » ومن ثماره يستخرج زيت طبى لدهان الشعر .

وهن الصناعات التى اشتهر بها السودان صناعة « العرديب » من التمر الهندى بدارفور وكردفان على وجه الخصوص ، وكانت تتم صناعته بوضع الثمار تحت تأثير حرارة الشمس حتى تختمر وتعمل منها

أقراص كبيرة يتم تصديرها الى كافة جهات السودان الداخلية وخارجه
حيث يستخدم كمشروب *

كذلك فقد عرف السودانيون صناعة الخمر وأنواع المريسة ،
وهذه الخمر يقصد بها كافة الأنواع التي تستخرج أو تصنع من البلح
والتي تسمى « عرقى البلح » في بعض جهات مصر ، والنبيد الذي
يستخرج من كروم العنب * وهذان النوعان اشتهرت بهما بلاد النوبة
وذلك لتوفر أشجار النخيل والكروم بها *

ويقوم النوبيون في السودان بصناعة الخمر من التمر وذلك بوضع
نمار البلح الناضجة في قدور كبيرة من الفخار بها ماء ثم توضع على
النار لتغلي لمدة يومين كاملين دون انقطاع ثم يصفى الشراب ويوضع
الرائق (العصير) منه في جرار من الفخار تغلق بإحكام وتدفن تحت
الأرض لمدة عشرة أيام أو اثني عشر يوما حتى يختمر الشراب فيكشف
عنه ويمكن عندها تقديمه للشرب (١) *

كذلك يصنع النوبيون نوعا آخر من الخمر يسمى (البوظة)
أو المريسة وهو شديد الشبه بالجة أو البيرة * ويتم استخراجها من
الذرة أو الشعير ، وأفضل أنواعه ما كان من الشعير * ويتم إعداد
المريسة دون مشقة أو مجهود إذ يؤتى بحبوب الشعير أو الذرة عقب
تجفيفها أو تحميمها على النار لتوضع في إناء من الفخار به ماء بارد
وتترك لمدة يوم كامل تتم خلالها عملية التخمر ، ثم بعدها يصفى السائل
بواسطة قطعة قماش ليقدم بعدها للشرب * وقد اشتهر شراب المريسة
في جميع أنحاء السودان نظراً لتوفر المادة التي تصنع منها وهي الذرة
أو الشعير بعكس البلح الذي لا يتوفر إلا في بلاد النوبة ، ولهذا كان
شراب المريسة ينتشر بين كافة السودانيين الى الدرجة التي جعلت البعض

(١) بوركهارت : المرجع السابق ص ١٢٤ — ١٢٥ *

يقول إن الكثير منهم كان لا ينسب قطرة ماء طوال السنة معتمدا على نرابها (١) *

وكانت المريسة على أنواع ، أشهرها المسمى « أم بلبل » التي تسبها أحد الرحالة الذين زاروا تلك المناطق في القرن التاسع عشر بالنمبانيا (٢) ، والبعض الآخر وصفها بأنها نوع من البيرة (٣) *
وكالعادة ، كان العبيد والنساء في البيوت هم المكلفين بإعداد المريسة *

وقد اشتهرت مناطق معينة في السودان كسنار ودارفور على سبيل المثال بزراعة التبغ ، وكان الأهالي يقومون بصنع أنواع من أوراقه على تسك أقماع هرمية الشكل ، وذلك بعد دقة - وهو أخضر - حتى يصير كالعجين ويجعلونه أقماعا ويجفف في الشمس وكانوا يتعاملون بها - كما يقول التونسي « في سفايف أمورهم ** » (٤) *

ومن الصناعات التي أدخلت الى السودان على عهد محمد علي صناعة الصابون وقد تم ذلك على يد الحكماء أحمد باشا أبو ودان في جهة كاملين بإقليم سنار حيث تم إنشاء معمل من أجل هذا الغرض *
وكان هذا المصنع يقدم للآليات المربطة هناك كل ما تحتاجه من الصابون * ولكن يبدو أن ثمة مشاكل حالت دون استمرار هذا المصنع في أداء مهمته لفترة ما ، وهذه المشاكل نشأت من الخلاف الذي دار بين اللواء حمزة باشا مدير الخرطوم وبين شخص يدعى نور الدين كان شريكا لحكماء السودان أحمد باشا أبو ودان الذي توفي وترك له

Poncet: Avoyage to Ethiopia, p. 26 (١)

(٢) نسبه مفار : المرجع السابق ص ٢٤٤ ، أنظر أيضا :

Journal of avist to some parts of Ethiopia, p. 260.

Muskou, P : op. cit., p. 164. (٣)

(٤) محمد بن عمر النونسي : شحيد الأذهان بسيره بلاد العرب والسودان ص ٣٠٠ - ٣٠١ *

ادارة هد المصنع ، وبدأ مدير الخرطوم يطالب الشريك الثانى بمبالغ باهظة ادعى أنها أثمان لمواد وردت بإسم الحكمدار السابق ولم تسدد منذ وفاة الحكمدار (١) .

ويبدو أن المصنع قد عاد ليؤدى مهمته مرة أخرى ، ففي فبراير عام ١٨٤٤ ابدى الرحالة لبسوس Lepsus الذى زار الخرطوم آنذاك إعجابا بالنشاط الظاهر فى بلدة الكاملين ، وأشار الى المصانع التى انشئت بها ومن بينها مصنع الصابون هذا . ويقرر أن ادارة هذه المصانع كانت على أحسن ما يرام من النظام والنظافة وهو أمر غير مألوف — على حد قرينه — فى تلك البلاد (٢) .

وفى شوال عام ١٢٧٧ هـ (ابريل ١٨٦١ م) على عهد محمد سعيد باشا تشير الوثائق الى أن هذا المصنع لم يمد يؤدى دوره على الوجه الأكمل ، وبدأ المسئولون بالسودان يكتبون الى مصر كى تبعث لهم بكميات الصابون الضرورية . ويبدو أن هذه المشكلة ناشئة عن الإهمال ، حيب نجد ردود المسئولين بمصر على هذه الطلبات بالغة الحدة حيث تطلب من مدير التاكة أن يقوم « بمعرفة مدير سنار والخرطوم بتدارك ما هو لازم من هذا الصنف بأى وجه حسب السوابق .. » (٣) .

(١) محفظة ١٩ بحر برا — ونفقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ من الميرمان أحمد منكل الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

أنظر أيضا : دفتر رقم ٣٩٢ معية نركى — ونفقة رقم ٨٦٥ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٦١ هـ خطاب الى مدير عموم الوجه القبلى .

Lepsus, Dr. R. : Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai. tr. (٢) by J., B. Horner. pp. 163-165.

أنظر أيضا سيد أحمد سيد : رفاعة فى السودان . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقم ١٨٩٤ — أوامر عربى — صورة المكتبة العربية رقم ٧٠ ص ٣٧ بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٨٧٧ . أمر كريم الى مدير التاكة .

صناعة قصب السكر :

ومن الصناعات التي أدخلتها الإدارة المصرية في السودان صناعة قصب السكر ، حيث سمحت بزراعة محصول القصب في دنقلة بقصد صناعة السكر منه (١) . وقد توسعت الحكومة في إنتاجه بالمديريات الأخرى كبربر وسنار حيث كان المناخ ملائماً لزراعته ، بالإضافة الى إمكانية توفير مياه الري بواسطة السواقي بشكل منتظم . وقد طلب مأمور دنقلة إنشاء مصنع للسكر فيها ، وإرسال خبير لإستخراج السكر من القصب (٢) . كذلك نقرأ في الوثائق عن وجود مصنع للسكر ، ضمن مجموعة المصانع التي كانت ببلدة كاملين بسنار ، أنشأه الحكماء أحمد باشا أبو ودان (٣) .

وفي عهد الخديوى اسماعيل يطلب أحد مديري السودان زراعة مائة فدان قصب حتى يتمكن من إنتاج السكر والعسل وتصريفه للأهالى بالأثمان المناسبة ، ويطلب المدير أيضاً من المسؤولين في مصر الإسراع بإرسال الأفراد اللازمين من « النجارين » و « السكاكرية » الذين بفرشوط لعمل عشر معاصر ، وتعليم من يلزم تعليمه من الأهالى . . » (٤) .

وقد اهتمت الحكومة بإنشاء المطاحن بالسودان على نطاق واسع وخاصة في عهد الخديوى اسماعيل . ففى عام ١٨٦٥ تمت الموافقة

(١) دفتر رقم ٤٤ معيه بركى — ترجمه المكاتبه النركيه رقم ٤٤١ . بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ . من الجناوب العالى الى حكماء السودان .
(٢) شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل . الجزء الثانى . ص ٤٢ .

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقه رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٨٥٩ معية — صورة المكاتبه الوارده من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنیه بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ هـ .
رقم ٩ ص ٤٢ دار الوثائق القومية بالقلعة .
(م ٩ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

على اقامة عشرة مطاحن موزعة على النحو التالى : ستة منها بكسلا ، وأربعة بسواكن • وبجانب هذه المطاحن تم إنشاء مخبز بجهة سواكن ، وهكذا أصبح من الممكن عقب إنشاء المطاحن والمخبز أن يقدم الجنود على حد تعبير أحد المسئولين « يوم جارية طازة ويوم بقسماط » (١) فقد كانت مسألة إعاشة الجنود فى تلك المناطق فى غاية الصعوبة • وكان الطعام الذى يقدم لهم مجففا مما دعا الكثيرين منهم الى الشكوى فكان هذا الحل الذى توصلوا إليه ، خاصة وان الحبوب كانت متوفرة الى حد ما بجهة سواكن •

وفى عام ١٨٧٥ طلب مأمور بربره إنشاء مطحين ومخبز بهذه البلدة نظرا لصعوبة جلب الدقيق حيث كان يكلفهم ذلك كثيرا من النقود ، بالإضافة الى الصعوبة الناتجة عن خبزه على « الصاج » الأمر الذى جعل صحة الجنود والضباط قد ساءت بسبب الاعتماد على « البقسماط » وحده دون الخبز ، وقام المأمور بشرح الفوائد التى تعود من إنشاء هذين المطحين ليس فقط بالنسبة للجنود ولكن أيضا سوف يتم بيع كميات من الخبز لمن يرغب فى الشراء بالإضافة الى تناول أجر عملية طحن حبوب الأهالى (٢) •

ولقد شجعت الحكومة فى السودان الأهالى على تعلم الصناعات والحرف وإتقانها على الوجه الأكمل • فمثلا كانت مصر تبعث بالقبايين وتطلب من المسئولين ضرورة الحاق أعداد من السودانيين بهؤلاء القبايين لتعلم أصول الصنعة ، وكذلك الحال بالنسبة للتجارين الذين بعث بهم الحكومة الى السودان • وزيادة فى حرص الحكومة على

(١) دفتر رقم ٢٤ معبة عربى — وثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ١٨ جمادى الثانية سنة ١٢٩٤ هـ ص ٧٥ من مأمورية بربره الى المعبة السننية • دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) أمين سامى : تقويم النبل وعصر اسماعيل • المجلد الثالث — الجزء الثالث ص ١٣٧٥ .

نشر هذه الحرف إقترحت على القبانين بأن من يرغب منهم في العودة الى مصر لا يمكن السماح له بذلك إلا إذا علم شخصين على الأقل حرفة « القبانية » وحتى لا تصبح هناك حاجة في المستقبل الى إرسال مثل هؤلاء من مصر (١) .

وسيرا على هذا المنوال في تشجيع تعلم الحرف وتعليمها للسودانيين قامت الحكومة — على عهد الخديوى اسماعيل — في مديرية البحر « النيل » الأبيض بجنوب السودان بمنح أرباب الحرف الذين يتوجهون اليها من البنائين والنجارين و « المهندسين » وغيرهم مرتبات تزيد عن غيرهم ممن لا يتوجهون الى هذه الجهات النائية . وطلبت من هؤلاء الحرفيين أن ينتشروا في عدة أماكن حتى يعم إنتشار الحرف والصناعات في هذه المناطق (٢) . وكانت الحكومة أيضا لا تتخذ في نشر هذه الحرف أسلوب القوة أو العنف في ترغيب الأهالى على تعلم هذه الحرف فكانت تحض رجال الإدارة في تلك الجهات على اتباع أسلوب حكيم في هذه المسألة ، وتشجيعا لأبناء الأهالى خصصت لكل صبي يقدم على تعلم مثل هذه الحرف راتبا من المال ، وأوصت بضرورة تعليمهم الحرفة على أصولها . ولم تنس في الجانب الآخر القائمين على عملية التعليم هذه إذ كيف تعمل على حل مشاكل المتعلمين بكافة الطرق وتغفل الطرف الآخر الذى يؤدي هذه المهمة فجعلت لكل معلم مكافأة مقابل كل فرد يقوم بتعليمه (٣) . ولا شك أن هذه النظرية تتسم بالحكمة في عملية التعليم حتى يستطيع المعلم أن يضاعف من جهده بنفس راضية . وهذا الأسلوب الذى طبقتة مصر في القرن التاسع عشر وفي جنوب السودان ، قد أخذت به الدول المتقدمة في أوروبا ، فهو يذكرنا بالسياسة المعروفة

(١) دفتر رقم ٧٤٤ — ديوان خديوى تركى — ترجمة الأمر التركى رقم ١٧٧ بتاريخ ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٤٣ هـ . من الجنب العالى الى خورشيد أنما ناظر سنار — دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) أمين سامى : المرجع السابق ، المجلد الثانى . ص ٥٦٤ .
(٣) نفس المرجع ص ٥٦٥ .

باسم : Stakanovism في الاتحاد السوفيتي ، وسياسة تمجيد الكفائية في العمل التي كانت هي أصل نظام Arbeitshere في ألمانيا الهتلرية (١) .

ولا نريد هنا أن نبالغ في حجم الصناعات والحرف التي نشأت في السودان حتى لا يتبادر الى الذهن صورة الحرف والصناعات التي نشأت في مصر ، ولكنها كانت هنا متواضعة جدا وتنمو على استحياء ، وكان قوامها من حيث الأفراد رجال الجيش المصري في السودان كما يبين الجدول التالي :

العدد	المرتبة	نوع الحرفة
٣٧١	نفرا	زينة
٣٤	اونباشي	—
١٢	جاويش	زينة
١	بلوك امين	مجهية
٤	بأسجاويش	—
٢	ملازمون ثوان	خدمات
٢	ملازمون أول	مخازن
١	صاغ	مخازن
١	بيكباشي	مخازن

جدول يبين أصحاب الحرف من الضباط والصف والجنود بالسودان عام ١٨٨١
(الوثائق الأفريقية — محفظة ١٠٣ — ملف ٦)

(١) على الجريتلي : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ص ١٣٥ .

وبالإضافة الى أفراد الجيتس المصرى ، استقدم بعض الصناع من مصر كما سبق القول • وعلى الرغم من تواضع هذه الصناعات فإنها قد حازت اعجاب العالم الخارجى عندما اطلع لأول مرة على مصنوعات السودان أثناء عرضها بمعرض باريس الدولى سنة ١٨٦٧ ، وخاصة المصنوعات الفضية منها (١) •

وهكذا يتبين لنا من خلال عرضنا لأحوال الثروة المعدنية والوضع الصناعى فى السودان مدى الجهود التى بذلت للبحث عن هذه المعادن ومحاولة خلق صناعة حديثة وتطوير الحرف والصناعات البدائية التى كانت تسود المجتمع السودانى ، ثم أيضا محاولة ادخال حرف جديدة اقتضتها الأوضاع الاقتصادية الجديدة فى السودان • ولكن مع كل هذه الجهود المبذولة لابد من طرح تساؤل ثم محاولة الوصول الى إجابته عن السر فى عدم رقى الصناعة السودانية الى مستوى مثيلتها فى مصر آنذاك •

وربما يعود ذلك الى ما يلى :

أولا : إن المواد الخام التى وجه المسئولون اليها عنايتهم فى بادىء الأمر ورصدوا لها كل الخبرات قد باءت بالفشل التام ، وقد يعلم تماما كل خبراء الصناعة مدى أهمية هذا العنصر لقيام صناعة حديثة وقوية ومتطورة ، خاصة اذا كانت هذه المواد متوفرة قرب المصانع •

ثانيا : ان الثروة الحيوانية والمائية فى السودان بالرغم من كثرتها وتوفرها فى جميع أنحائه لم تستغل إستغلالا كافيا فى المجال الصناعى ولو إنها استغلت لنشأت حولها عدة صناعات قوية قوامها الثروة الحيوانية والثروة السمكية • وهكذا أغفل السودانيون عنصرا اقتصاديا

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة الطهطاوى فى السودان • ص ٥٣ •

هاما لقيام الصناعة والذي يتمثل في مدى الإستفادة من التخصص
الاقليمي للبلاد •

ثالثا : لم يستخدم السودانيون في الصناعة طرق الإنتاج الحديثة على نطاق واسع ، وظلت تعتمد على أساليب قديمة بالية ، وربما يكون لهم العذر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كنا قد شهدنا تجربة لا بأس بها في شمال الوادي قام بها محمد علي ، إلا أننا لا يمكن أن نقبل الإعذار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث بدأ العالم الأوربي يأخذ بأساليب حديثة ومتطورة في كافة الجوانب الاقتصادية وخاصة الصناعية منها فظهر ما عرف بإسم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية •

رابعا : تخطيط المسؤولين الاداريين في السودان ، ومعروف أن استقرار نظام الحكم الإداري والقانوني في أى بلد ما ينعكس تماما على درجة النجاح الذي تصيبه السياسات الاقتصادية التي تنتهجها البلاد • حقيقة أن محمد علي كانت له سياسة واضحة وكان يقوم بتنفيذها على أحسن وجه ، ثم جاء بعده خلف لم يسيروا على نهجه تماما ، بل حاول بعضهم النكوص على عقبيه في مجال الصناعة في مصر وذلك بقفل أبوابها ، فكيف ننتظر منه أن ينشئ صناعة قوية في السودان ؟ وحتى اسماعيل الذي بدأ يأخذ بالأساليب الأوربية لم يعط الجانب الصناعي حقه بعكس ما فعل في الجانب الزراعي حيث شهدنا نهضة زراعية لا بأس بها وخاصة في مجال زراعة القطن •

خامسا : هناك سبب خاص بالسودان نفسه وهو أن الرجل السوداني قد عزف عن العمل في الصناعة مفضلا العمل في التجارة ، وهي مجال ضيق ، وغيرها من الأعمال ، وترك الصناعة للنساء والعبيد • ولذلك ظلت الصناعة السودانية بدائية في أكثرها ولم تشهد في تلك الفترة صناعة بالمعنى الحديث تعتمد على الآلات وتأخذ بأحدث الأساليب المعروفة آنذاك إلا فيما ندر •

الفصل الثالث

التجارة والمواصلات

(القسم الأول)

التجارة الداخلية

- طرقها
- التجارة في جنوب السودان :
 - (أ) تجارة العاج
 - (ب) تجارة الرقيق
- التجارة في غربى السودان :
 - (أ) في كردفان (مراكزها : الأبيض — باره — الطبرارة — أهم السلع)
 - (ب) في دارفور (أنواع التجارة — قوة نفوذ التجار وعلاقتهم بالحكم)
- التجارة في وسط السودان وشرقه :
 - (أ) في الناقة (كسلا) — أسواقها
 - (ب) في سواكن
- التجارة في شمالى السودان (بلاد النوبة) :
 - (أ) في سكوت والمحس
 - (ب) في دنقلة العجوز
 - (ج) في دنقلة الجديدة
 - (د) في بربر
 - (هـ) في شندي

- التجارة الأجنبية في السودان *
- التجارة مع مصر :
- (أ) طرق التجارة بين السودان ومصر *
- (ب) سياسة محمد على الاحتكارية وأثرها على السودان *
- (ج) أهم الصادرات والواردات بين البلدين وتطورها *

(القسم الثانى)

التجارة الخارجية

- طرقها *
- التجارة مع الحبشة *
- التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوب شرقى آسيا *
- التجارة مع شمال أفريقيا *
- قوانين ونظم التجارة السودانية *

(القسم الثالث)

المواصلات

- (أ) السكة الحديد *
- (ب) البريد والتلغراف *
- (ج) المواصلات النهرية *
- (د) المواصلات البحرية *

القسم الأول

التجارة الداخلية

شهدت التجارة السودانية اهتماما بالغا من المسئولين منذ أن ضم السودان الى مصر في عام ١٨٢١ ، بل ان هذا الاهتمام التجارى قد اعتبره الكثيرون ممن تتبعوا تطور العلاقات المصرية السودانية في القرن التاسع عشر أحد العوامل التى كانت قد وجهت محمد على شطر السودان ، إلا أن الاهتمام قد بدأ يتزايد تدريجيا في السنوات التالية ليأخذ طورا آخر ، وهذا الطور بدأ في عام ١٨٤١ بولوج التجار الأجانب وخصوصا الأوروبيين منهم مستظلين بتسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ التى فرضت على محمد على والتى تنص على ضرورة تطبيق كافة المعاهدات والاتفاقيات التى عقدتها أو تعقدها الدول الكبرى مع الدولة العثمانية ومنها اتفاقية عام ١٨٣٨ (بلطة ليما) التى حوت بندا هاما يتعلق بحرية التجارة فى أراضي الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، فقد أصبح السودان بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو ، وأول يونية ١٨٤١ يحكم بواسطة محمد على ، وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية فى أرضيه ، وهكذا وفى ظل مزايا تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ تدفق الأجانب على السودان ومنهم التجار ، وبدأ تغلغل النفوذ القنصلى والأجنبى فى السودان مثلما تغلغل فى مصر نتيجة اشراف الدول الأوروبية على الدولة العثمانية وبالتالي على مصر والسودان .

طرق التجارة الداخلية : —

قد يكون من المفيد ونحن نعرض للتجارة السودانية أن نبدأ بالتجارة الداخلية لنتعرف على الطرق التى سلكتها وأنواعها ، فمن أهم الدروب التى سلكتها هذه التجارة والتى كانت أكثر ارتيادا فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ما يلى : —

أولا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر ومنها الى سواكن
والجزء الأخير من هذا الطريق من بربر الى سواكن قدرت مسافته بنحو
٢٤٥ ميلا (١) .

ثانيا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر والى كرسكو .

ثالثا : الدرب الموصل من دارفور الى الخرطوم والى دنقلة .

رابعا : هناك درب يوصل بين الخرطوم والقضارف الى مصوع .

ويلاحظ أن هذه الطرق وإن كانت داخلية إلا أنه كان يمكن النفاد
من خلالها الى الطرق الخارجية التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ويصف لنا على مبارك طريق وادى حلفا دارفور فيقول : « انه
يخرج من وادى حلفا طريقان يوصلان الى دنقلة الأوردى ثم الى دنقلة
العجوز ومنها الى دارفور ، احدى الطريقين فى البر الشرقى والأخرى
فى البر الغربى ، فأما التى فى البر الشرقى فحجرية صعبة المسالك ،
ومسافتها حتى دنقلة الأوردى ثمانية أيام ، بسير الهجين المعتاد وعشرة
أيام بسير القافلة ، ولا يمكن السير فى هذا الطريق إلا بصحبة خبراء
من عرب تلك الجهات ، وكانت أجرة الجمل من حلفا الى شرق دنقلة
الأوردى مائة قرش ديوانى وحمل الجمل فيها من أربعة الى خمسة
قنطير » (٢) .

وأما الطريق التى فى الغرب فهى رملية سهلة المسالك لا صعود فيها
ولا هبوط إلا قليلا ، وهى أكثر أمانا ، ومسافتها إثنا عشر يوما بسير
القافلة وتسعة أيام بسير الهجين وستة أيام بسير هجين البريد ويمكن

(١) نعوم شقبر : المرجع السابق . ج ١ . ص ١٠ .
أنظر أيضا : الشاطر بصلى : تاريخ المواصلات فى السودان وادى النيل
(القسم الأول) حتى ١٩٠٦ . ص ٨ .
(٢) الخطط النوفيقية الجديدة : ج ٧ . ص ٤١ .

السير فيها بلا خبير . وإن جرت العادة السير في هذه الطريق بالخير لأنه يؤدي مهام أخرى غير الدلالة على الطريق كحمل أثقال المسافرين إذا عطبت رواحهم وضبط مسيرتهم * وتمر تلك الطريق على قرية صغيرة تسمى « سمنه » في البر الغربى على شط النيل ومنها يخرج طريقان : طريق الى الفانسر بدارفور وطريق الى الخرطوم (١) .

وقد فتحت بعثات الضابط المصرى سليم قبودان في النيل الأبيض طريق الملاحة والتجارة مع جنوب السودان ، فعلى سبيل المثال كان يمكن المولوج الى منطقة بحر الغزال من ثلاثة طرق :

أولهما عبر النيل الأبيض عن طريق مرفأ (شامبى) ، وثانيهما عن طريق بحر الغزال عبر مرفأ الرق ، وثالثهما عن طريق شمال دارفور بمنطقة راجا (٢) * وأصبح من الميسور اتصال الشماليين بأهل الجنوب وقيام نوع من التبادل التجارى بينهما *

وهكذا ارتبط السودان شرقه وغربه ، شماله وجنوبه بعدة طرق داخلية سلكتها القوافل والمراكب محملة بالبضائع *

التجارة في جنوب السودان :

(أ) تجارة العاج :

مع بداية أربعينيات القرن التاسع عشر ، وعقب فتح طريق الملاحة مع جنوب السودان بدأ التجار يتصلون بأهل الجنوب ، فمُنذ شهر مارس ١٨٤٠ وهو التاريخ الذى عادت فيه رحلة سليم قبطان الأولى الى الخرطوم توالى الأخبار الشفوية عن ثروات الجنوب ، لا سيما وقد

(١) الخطط التوفيقية . ص ٤٤ .

(٢) النيجانى عامر : جنوب السودان ، بحر الغزال بين العصابات

والحكومات ١٨٥٠ — ١٩٢٠ ص ١٧ .

عادت سفن الحملة الثانية الى الخرطوم وهى تحمل سن الفيل (العاج)
وبعضا من غلات الجنوب (١) •

وقد كان العاج (سن الفيل) من أبرز متاجر الجنوب فقد عرّفه
تجار شمال السودان قبل فتح النيل الأبيض للملاحة إذ كان معظمه يأتى
آنذاك من دارفور وكردفان • وبالرغم من الحظر الذى كان يفرضه
محمد على ، على بعض السلع ومنها العاج غداة ضم السودان إلا أن
التجار ومنهم تجار الخرطوم كانوا يقومون بتهريبه الى موانئ البحر
الأحمر حيث تحمله سفن الشركات الانجليزية بالهند والتي كانت تقوم
بإعادة تصديره الى أوربا (٢) •

وفى بادىء الأمر كان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما محتكرين
للعاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغزال
ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع منتشرين فى كل مكان •

وقد سبق هؤلاء الرجال مغامرون أوربيون أمثال جون بتريك الذى
نفذ الى بحر الغزال وتجوّل فى منطقة الدينكا عام ١٨٥٣ واستقر
بإحدى « الزرائب » حيث باشر منها أعماله التجارية بمنطقة الجور
حتى عام ١٨٦٣ (٣) •

كذلك نشير الى مغامر آخر فرنسى الجنسية وهو ألفونسو دى
مالزاك Malzac الذى جاء الى بحر الغزال عام ١٨٥٦ ، ويعتبر
هو المؤسس لبلدة (رمبيك) التى دخل موضعها عن طريق « شامبى »
وأسس له تجارة فى كليتيهما ، وظلّ يمارس نشاطه حتى وفاته ١٨٦٠ •

(١) نسيم مكار : جهود مصر فى الكشف الجغرافى ، البكباشى المصرى
سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ١١٣ •
(٢) أحمد أحمد سعد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٣١ •
(٣) الشجاني عامر : المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ •

وهناك أيضا شركة فرنسية ضمت لفيها من المغامرين أمثال « الإخوان امبروز وجوليز بونسيه Poncet » وهؤلاء دخلوا جنوب السودان عن طريق « سامبي » ومارست هذه الشركة كغيرها أعمال التجارة في كافة ما ينتجه الجنوب الى أن صفت أعمالها وغادرت بحر الغزال عام ١٨٧٣ (١) .

ولقد أصبحت تجارة العاج تشكل المورد الرئيسي لدخل التجار في الخرطوم إذ كانت الرحلة الى الجنوب إذا ما عادت ، على الأقل بنحو خمسة وعشرين قنطارا فقط من العاج قادرة على تغطية نفقاتها ، هذا وإن كانت الرحلة في أسوأ الأحوال لا ترجع بأقل من مائة قنطار ، وقدّر البعض قيمة الساج الذي قام سوق الخرطوم بتصديره بين عامي ١٨٦٠ - ١٨٧٠ بنحو أربعين ألف الى مائة ألف من الجنيهات في السنة (٢) .

ولما أصبح غوردون مأمورا على خط الاستواء (١٨٧٤ - ١٨٧٦) احتكر تجارة العاج في هذه المديرية وتوقع المراقبون الاقتصاديون كساد هذه التجارة ، إلا أن الأمور سارت عكس ذلك تماما في بادئ الأمر ، فلم تتعرض صادرات السودان من العاج في تلك السنوات لأي شكل من أشكال الضعف ، وذلك لأن العائد الذي تدره كفيلا بأن يحتال المتجار بكافة السبل للحصول عليه فقد كانت تدر دخلا لا يقل عن مائتين في المائة في أسوأ الظروف (٣) .

ويذكر أحد الدارسين أن الفترة التي عاد فيها غوردون حكاما للسودان (فبراير ١٨٧٧ - يناير ١٨٨٠) ، تذبذبت خلالها صادرات العاج تذبذبا شديدا ، فقد بلغت صادراته عام ١٨٧٩ حوالي

(١) نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٢) أحمد أحمد سيد أحمد : المرجع السابق ص ١٣٤ .

Gessi; op. cit., p. 61.

(٣)

(٨٠٠٠٠ من الكيلو جرامات) ، بينما بلغت في عام ١٨٧٨ أعلى معدل لها . طوال الحكم المصرى وهو ٢٠٥٠٠٠ من الكيلو جرامات) • ويفسر ذلك بأن التجار كانوا يخزنون العاج عقب تهريبه حتى إذا وجدوا الفرصة الطيبة لبيعه أخرجوه (١) •

ولدينا احصائية تفصيلية لإنتاج العاج في كل مركز من مراكز جنوب السودان عام ١٨٨١ ، تتسیر الى ارتفاع معدل انتاجه بشكل مضطرد ، إذ بلغ في هذا العام جملة انتاج هذه المراكز ١٧٠٠ قنطارا كما يشير الجدول الآتى :

اسم المركز	المقادير بالقنطار
بود	١٠٠
لادو	٦٠
كرى	٢٠
دوفيليه	١٥٠
فويرا	٢٠
لاتوكا	٢٠
فاديبيك	٥٠
مكراكا	٥٠٠
رول	٢٠٠
ممبيتو	٤٠٠
الاجمالى	١٧٠٠

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : المرجع السابق ص ١٣٤ •

وقد بلغ ثمن الـ ١٧٠٠ قنطار على أساس ثمن القنطار الواحد ثلاثين جنيها حوالى ٥١٠٠٠ جنيه مصرى (١) .

ولقد تعرضت سياسة احتكار العاج فى جنوب السودان لاستياء المتجار ونقد بعض المؤرخين ، فمن المعروف أنه ما أن تسلم غوردون حكم مديريةية خط الإستواء حتى أعلن :

أولا : أن التجارة فى العاج خاصة بالحكومة .

ثانيا : أنه لا يسوغ لأحد أن يأتى الى هذه النواحي دون الحصول على تذكرة « تصريح » من حاكم السودان العمومى ، وهذه التذكرة انما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة (غوند كرو وغيرها) .

ثالثا : أنه لا يسوغ لأحد أن يجمع رجالا مسلحين داخل هذه الجهات .

رابعا : ان جلب السلاح والبارود ممنوع .

خامسا : أن كل من يخالف هذا المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية (٢) ويتبين من هذه القرارات انها كانت ضربة قاصمة لتجار العاج فى تجارتهم فهى لم تحرمهم هذه التجارة وحسب ، بل حرمتهم حتى الدخول الى تلك الأراضى إلا بشروط شبه مستحيلة ، ومعنى ذلك كله أن غوردون سوف يقوم بإسم الحكومة بعملية إحتكار للعاج ، ولكن من أين له الخبرة فى هذا المجال الذى له رجاله ؟ * لقد أراد غوردون أن يستغل بعض التجار القدامى ويستثمر خبرتهم فى هذا المجال فضم إليهم بعضا منهم أمثال « الأطروش » وهو أحد صيادى العاج القدامى الذين قدموا الى هذه البلاد منذ زمن طويل مع مجموعة من الدناقلة

(١) عمر طوسون : تاريخ مديريةية خط الاسواء . الجزء الثانى .

ص ٧٧ .

(٢) ابراهيم فوزى باشا : كتاب السودان بين يدى غوردون وكتشتر -

الجزء الاول ص ٦ .

وعمل بتجارة العاج في بلاد المراكين « نيام نيام » ونجح فيها ،
وعقب احتكار الحكومة للعاج دخل في خدمتها (١) * فقد كان رؤساء
الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين
على إخلاء منشأتهم في ظرف ثمانية أشهر يصبح للحكومة بعدها
الحق في مصادرة العاج والإستيلاء عليه *

وقد تسببت هذه الاجراءات في خسائر جسيمة للحكومة تمثلت في
عدم دفع ضرائب سنة كاملة ، كما ترتب أيضا على إلغاء هذه الزرائب ،
والتي كانت مراكز طبيعية لتمويل الأهالي بلوازم المعيشة ، إزدياد نفقات
الحمالات التي قامت بها الحكومة في تلك البلاد الشاسعة (٢) *

وقد وصف البعض أيضا قرار إحتكار العاج بعدم الحكمة ، إذ أن
هذا القرار قد جعل صيد الفيل يقل بصورة ملموسة في المديرية وجعل
انتاج العاج في البلاد الجنوبية (الاونيورو بوجه خاص) يتجه نحو
الجنوب بدلا من الاتجاه صوب الشمال طريقه الطبيعي (٣) *

وكان الخديوى اسماعيل في بعض الفترات يلجأ الى الإحتكار
لأسباب خاصة ، فما هو يخاطب صمويل بيكر بقوله « واحتكروا التجارة
كما تقترحون وأنا أوصيكم بذلك لا لأننى أميل الى الإحتكار ولكن لأن
الإحتكار له ما يبرره في هذه الحالة فهو ضرورى لإقصاء التجار الذين
يستخدمون العبيد كوسيلة من وسائل المقايضة * على أنى أريدكم أن
تحتكروها إحتكارا ينطوى على السماحة (٤) * وكان التجار يقدمون
للجنوبيين في مقابل العاج الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه ، ثم الودع
والقصدير ، وكانت جميعها تستخدم للترين سواء بالنسبة للرجال

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . ص ٢٠٨ .

(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر
ملش ص ٧٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٧٢ ، ٧٣ .

— ص ٢٣٧ .

(٤) جورج جندى و جاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية

أو النساء ، وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة .
وكانوا يقدمون فى مقابل ذلك بالإضافة الى العاج ، ريش النعام والمطاط
والحديد والنحاس (١) .

(ب) تجارة الرقيق :

ولقد ارتبطت تجارة العاج بتجارة أخرى وهى تجارة الرقيق ،
لأن مطاردة الرقيق وحدها كانت لا تأتى ببربح وفير إذا ما سبق هؤلاء
الرقيق الى الساحل فارغى الأيدى .

فكان التجار فى غزواتهم المسلحة ينتهبون العاج ويحملون الرجال
والنساء والأطفال أسرى وعبدا (٢) .

وقد كان لاعلان حرية الملاحة فى النيل الأبيض خلال عامى
١٨٥٣ / ١٨٥٤ نتائج خطيرة ، إذ سرعان ما أصبحت أقاليم النيل العليا
وخاصة عند غندكرو . ميدانا لنشاط تجارة الرقيق (٣) .

ومنذ عام ١٨٥٤ أصبحت تجارة الرقيق السلعة الرئيسية فى سوف
الخرطوم بلا منازع بعد أن كان العاج يحتل هذه المرتبة ، ففى هذا العام
وبالقرب من غندكرو على بحر الجبل قتل تاجر العاج السردىنى
« فودى » مع بعض رجاله ، وعقب هذه الحادثة توسع تجار الخرطوم
فى استعمال الحراس بالإضافة الى أن عددا كبيرا من أصحاب
رؤوس الأموال الصغيرة من أهل الخرطوم المتعددى الجنسيات قد تنبهوا
منذ عام ١٨٥٠ الى ضخامة مكاسب رحلات العاج فبدأ الجميع يتجه الى

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٨ - ١٩ .

(٢) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ -

ص ٥٢ ، ٥٣ .

(م ١٠ . - التطور الاقتصادى الاجتماعى)

الجنوب ، كما أن الزنجى بدأ يرفع أسعار عاجه ، لذلك كان الاتجاه الى تجارة الرقيق الذى كانت تقل نفقاته كثيرا عن العاج (١) .

هكذا بدأ الاتجاه نحو الجنوب لإستنزاف رجاله فى صورة سلع وبدأت تنتعش تجارة من أبشع أنواع التجارة فى العالم والتي أطلق عليها البعض « تجارة العاج الأسود » وكان من الطبيعى أن يصحب هذه الانتعاشة اقامة عدة بيوت تجارية مثل بيت أحمد العقاد « وأبو السعود » « وأبو عمورى » والبصيلى وشنودة وغطاس وكجوك على وخليل الشامى ومحمد خير والزبير رحمت وخورشيد أغا وعبد الحميد وغيرهم .

ومن التجار الأجانب ديمونو Debono وأمبيلي Ambile وينتميان الى سلالة مالطية ، ومالزك Malzac وبارثلمي Barthelmy ولافارج Lafargue وبونسيه Poncet وينتمون الى فرنسا ، وبترك الانجليزى ، بالإضافة الى أحد البيوت الايطالية « انجيلو — بولوينزى — انطونيولى » (Angelo - Boloynesi - Antonyoli) الذى اختص بالتجارة الحبشية .

وفى عام ١٨٦٠ باع أكثر هؤلاء التجار زرائبهم ومحطاتهم الى التجار العرب حيث عجزوا عن منافستهم (٢) .

وهكذا تربع هؤلاء الأفراد على قمة هذه التجاره وتآلفت من « أبو عمورى » وبصيلى وكجوك على « ديكتاتورية ثلاثية » فرضت سطوتها على السودان فى اقليم بحر الغزال ، فى حين تألفت من شنودة

(١) أحمد أحمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٥ .
 (٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجزء الثانى ، ص ٣١٥ ،
 أنظر أيضا شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية
 ص ٨٥ .

وخورسید آغا ، ودييونو ديكتاتورية ثلاثية أخرى حول غندكرو بإقليم
بحر الجبل وجهات النيل العليا (١) .

وكان لكل عصابة من تلك العصابات « مشرع » خاص بها يسمى
مشرع الرق وأحيانا يسمى « زريبه » أو « ديم » * .

وكان لموسى العقاد في عهد الخديوى اسماعيل خمسة مشارع في
جهات النيل الأبيض (٢) وقد كانت شركة العقاد هذه من الشركات التجارية
بمصر والخرطوم التى استطاعت أن تحصل من حكومة الخرطوم على
احتكار حقوق الاتجار في أعلى النيل .

ومن الأسماء المقترنة بأسره العقاد أبو السعود العقاد الذى جاء
الخرطوم سابا حيب التحق ببيت العقاد التجارى . وفي عام ١٨٧٠ تبوأ
مكان الصدارة في هذه الشركة وبدأ يمارس هذه التجارة على نطاق واسع
الأمر الذى جعل بيكر يضيق ذرعا به وبأفعاله فوجه إليه في ١٨ يونية
١٨٧١ من غندكرو خطابا شديد اللهجة يتهمه فيه بالتحالف مع قبيلة

(١) شكرى : المرجع السابق ص ٨٦ .

(*) المشرع عبارة عن مكان محصن على شكل مربع مبنى من عروق
الخشب يقيم فيه التاجر أو وكيله ومعه حراس مسلحون ، وهذا المكان كان
يضم أفرادا من العبيد لمصاحبة أسبادهم في الفسارات والبحث عن العاج ،
والعمل في الحقول والبعض الآخر في رعى الماشية .

أنظر اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٣١٦ ، وأيضا
محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر . ص ٧٠ .

وأيضا : سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان . ص ١٨ .

وأيضا : دفتر رقم ١٩٢١ — أوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢
ص ٤ بيسارنخ ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ . أمر كريم الى حاكم
السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

Gessi; op. cit., p. 222.

وأيضا :

Douin; G.; Histoire Du Règne Du khedive

وأيضا :

Ismail L'Empire African. 3 Partie (1874-1876). Tome Troisième p. 58.

(٢) دفتر رقم ١٩٢١ — الأمر الكريم رقم ٢ بتاريخ ٢٩ ربيع الثانى سنة
١٢٨٢ هـ . الى حاكم السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

« البارى » ضد الحكومة ، وقيام جماعته بسرقة المواشى والزواج من داخل البلاد وائساعة الفوضى فى المنطقة ثم طلب إليه أن يخلى مع أتباعه المنطقة النازلين بها وأن يوافق على مصادرة المواشى المسلوقة لصالح الحكومة •

ويبدو أن الأمر قد تأزم بين بيكر و « أبو السعود » مما جعل الأخير يشكو بيكر للخديوى ويتهمه بالتهجم عليه وإفساد تجارته ويطلب بالتحقيق فى هذا الأمر • ولكن الخديو حدد له مهلة ليخلى المنطقة بل وصل الأمر الى حدد طلب القبض عليه فوراً ومنعه من هذه التجارة خاصة وأن بيكر منذ عام ١٨٦٩ كان معنيا بالقضاء على هذه التجارة كما جاء فى البند الثانى من العقد المبرم بينه وبين الحكومة المصرية (١) •

ومن التجار الذين اشتهروا فى هذا المجال أيضا على أبو عمورى بمنطقة بحر الغزال وهو ينحدر أصلاً من بلدة نجع حمادى بصعيد مصر •

ومن الشخصيات التى ارتبطت « بأبو عمورى » وذاعت شهرتها الآفاق شخصية « الزبير رحمت » فهو كغيره من التجار قد مارس تجارة الرقيق فى الجنوب وخاصة بحر الغزال حيث أنشأ « ديم الزبير » واكتسب فيها شهرة عظيمة من خلال تجارته وعصابته المسلحة هناك ،

Crabites; Gordon. The Sudan and Slavery (١)

pp. 33, 5, 49 - 50.

Hill; Abiographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan.

وانظر أيضا :

وكذلك : عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجزء الاول ص ٤٤ ، ٤٥ ، وأيضا جمبل عبيد : المديرية الاستوائية ص ٣٨١ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٧ • وكذلك : محمد أحمد الجابرى : فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ص ١٠٤ • وأيضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٥٣ •

واستطاع أن يعقّد مع عربان الرزيقات اتفاقاً لفتح طريق « نسكا » للتجارة بين مملكته في بحر الغزال وسلطنة دارفور ثم استولى على « شكا » وبسط سيطرته على جميع أجزاء بحر الغزال حتى استشعرت الحكومة خطره خاصة بعد هزيمته لمحمد الهاللي (البلالى) الذى أرسل إلى بحر الغزال في عام ١٨٦٩ ، فأُسندت إليه قيادة الحملة التى ضمت دارفور عام ١٨٧٤ (١) *

هذا فيما يتعلق بالأفراد والجماعات التى سلكت هذه التجارة ، أما عن أسلوب الحصول على هذه السلعة فكان يتم عن طريق اشعال الحرب بين تلك القبائل الجنوبية ، فكانت القرى تغير على مثلتها دون مبرر مقبول اللهم إلا مبرر السلب ، وكان الأسرى يباعون إلى القبائل الأخرى ويبادلون بالبقر والماعز ، وإلى هذه الخطوة يمكن أن يسأل الجنوبيون عن تشجيع هذه التجارة حتى يأتى تجار الرقيق والعاج ويمرون ببعض القرى ويشتررون صمنهم بوعدهم بالماشية ويستبقون لأنفسهم الرقيق والعاج ، وكانوا يبدأون جميعاً عملهم ليلاً بمساعدة الأهالى المسلحين بالرماح حيث يقومون بإشعال النيران في الأكواخ ، بينما يقوم حلفاء التجار بنهب الممتلكات ومنها الأفراد ، ويظل الأسرى مقيدين حتى يثك أسرهم ويقادوا محملين بالعاج ومعهم الماشية . وما أن يصلوا إلى الزربية حتى تقسم الغنائم على النحو التالى : العاج والعبيد للتجار ، والماشية للوطنيين *

ثم يقيد العبيد ويظلون هكذا لمدة ثلاثة أسابيع حتى يصلوا إلى

(١) دفتر رقم ١٨٦٤ معية ، ص ٣٨ ، صورة المكانة الواردة من مديرية عموم قبلى السودان إلى المعية السنية بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٨ هـ دار الوثائق القومية بالقلمة . ، انظر أيضا : السودان — مجلس الوزراء — محفظة موضوعات عوايد . دار الوثائق القومية بالقلمة .
وأيضا : سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٥ ، وشكرى : الحكم المصرى في السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . ص ١٧٣ .

الخرطوم • وكانت هناك وسيلة أخرى للحصول على الرقيق وهي قيام البعض من الأهالي ببيع أبنائهم بسبب الضائقات المختلفة مثل المجاعات وغيرها (١) •

ويفرق البعض بين نوعين من هذه التجارة ، الأولى وتعرف « بالبحارة » حيث يتوغل صيادو الرقيق في النيل الأبيض حتى يصلوا الى أعاليه منتشرين في بلاد بحر الغزال وخط الإستواء • والنوع الثاني يسمى « بالنهاضة » وهم الذين كانوا يغزون الجبال كجبال النوبا وجبال فازوغلى (٢) • وكان شعارهم « يا ذهب أحمر يا موت أحمر » (٣) •

وعقب تلك العمليات يصل الرقيق الى أسواق السودان لبيعه للأهالي أو للتجار الذين يقومون بتصديره الى الخارج وأشهر هذه الأسواق السودانية أسواق فاشودة والقلابات والأبيض وهي تختص برقيق دارفور وجبال النوبا وبحر الغزال وخط الإستواء والحبشة ، وكان التجار يشتررون من هذه الأسواق ويقومون بالبيع في أسواق الخرطوم والمسلمية وود مدنى وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندى ، ويصدرون ما يزيد عن حاجة البلاد عن طريق النيل والبحر الأحمر (٤) وبيع الرقيق في هذه الأسواق إما بالمزايدة العلنية أو عن طريق الاتفاق الشخصي ، ولحظة شراء الرقيق يسمح للمشتري قبل إتمام الصفقة بإيواء الرقيق بمنزله ثلاث ليال ذكرا كان أم أنثى في مقابل « عربون » يعادل ربع الثمن أو خمسة • ويعيب الرقيق أن يكون به

(١) الشاطر بصلى عبد الجليل • تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع الميلادى الى القرن التاسع عشر الميلادى ص ٤٠١ •

(٢) نعم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٥٠ - ٥١ •

(٣) عمر طوسون : المرجع السابق ص ٣٥٠ •

(٤) شقير : المرجع السابق • ص ٥١ •

مس من الجنون أو ألف التبول أو النسخير أتناء النوم أو مصابا بالزهرى ، فإن كان خاليا من هذه العيوب تمت الصفقة وإلا أعيد صاحبه واسترد العربون • أما إذا كانت الجارية بكرا وعاشرها المشتري معاشرة الأزواج فلا يمكن ردها (١) •

ويختلف ثمن الرقيق تبعا لإختلاف السن والصحة والجمال ، والصفة المطلوبة غالبا في الرقيق الذكر النشاط والقوة ، وفي الأنثى الشباب والجمال • والرقيق من الإناث — في أغلب الأحيان — أغلى من الذكور ، كما أن أثمان الأطفال أقل من أثمان المراهقين ، اللهم إلا إذا كانوا قد تعلموا اللغة العربية أو الخدمة بالمنازل فحينئذ تزداد قيمتهم خاصة وأن مسألة هربهم قد أصبحت غير متوقعة • وأثن الذكور جميعا الخصى المخصص لخدمة السيدات التركيات ، أما أثن الجوارى جميعا فالحيثيات حيث تباع أكثرهن للمتاع البدنى (٢) •

وظل هؤلاء التجار يمارسون هذه التجارة رغم ما صدر اليهم من أوامر منذ عهد محمد على بالكف عن هذه التجارة خاصة وأنه — كما سبق القول — لم يعد محمد على يكثر بعائدها ، وبدأت الدول الأوروبية تضغط عليه لمنعها واستمرت هذه المحاولات في عهد خلفائه وخاصة في عهد اسماعيل حيث أشرنا الى ما قام به مبكرا في هذا الصدد •

(١) تقرير بورنج السابق ص ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٤ •

(٢) نفس التقرير • ص ٥٧ • انظر أيضا :

أحمد أحمد سبد : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ويقسم الأهالى السودانيون الاناث من الرقيق الى طبقات السن الآتية : فالبنت اللاتى تقل أعمارهن عن ١١ سنة يدعون بالخماسى ، واللاتى عمرهن من ١١ — ١٥ سنة يدعون بالسداسى وهن أغلى الرقيق • انظر :

Cailliaud; Voage a Meroé Au Fleuve Blanc, Au Della De Fazogl dans le midi Du royaume de Sennar A. Syouh et dans Cinq autres Oasis, Tom. III, p. 117.

انظر أيضا : محظظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ١ ملف رقم ١ دار الوثائق القومية بالقاهرة •

وكثفت هذه المحاولات * على يد غوردون الذي أعلنها حربا شعواء على تجار الرقيق وأخيرا توجت بقرارات رسمية كان أهمها معاهدة ٤ أغسطس ١٨٧٧ التي نصت صراحة على إيقاف هذه التجارة ورسمت السبل الخاصة لمنعها تماما ولكن هذه المعاهدة لم تكن إلا مدادا على ورق فاستمرت هذه التجارة بشكل أو بآخر وأصبح من الصعوبة إيقافها حيث أمست متغلغلة في كيان السودان الاقتصادي .

وفي عهد الخديوي اسماعيل وضعت عدة أمور لتنظيم عملية التجارة مع الجنوب بعد أن كانت متروكة للأهواء الفردية لكل تاجر ، فأقامت الحكومة المحطات العديدة بهدف انتشار الأمن وراحة المتمردين عليها والمستوطنين وكمرسى للوابورات والسفن التجارية (١) .

وقد خصصت الحكومة في كل من هذه المحطات طبيبا ووفرت له كافة الأدوية لمعالجة من تقتضى معالجته من العساكر والأهالي والتجار ، على أن تتحمل الحكومة نفقات هذا العلاج . وكان الهدف من إرسال العساكر الحكومية الى هذه المنطقة كما جاء بالبند الثالث عشر لتنظيم

-
- (١) حول هذه الجهود انظر على سبيل المثال ما يلي :
- نص معاهدة الرقيق بتاريخ ٤ أغسطس ١٨٧٧ المشار إليها .
 - لائحة تنفيذ قرار الرقيق في السودان بمحفظه اللوائح بدار الوثائق القومية .
 - دفتر رقم ٤٦ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤٨ ص ٦٢ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٩٤ هـ . ارادة الى حكمدار عموم الاقاليم السودانية .
 - محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — دار الوثائق القومية بالقلمة .
 - محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — ترجمة نص الخطاب المرسل من نظارة الداخلية الى الكونت صالة بتاريخ ١٥ مايو ١٨٨٠ .
 - ونفس المحافظ — محفظة الرقيق — صورة المنشور الصادر من نظارة الداخلية بخصوص منع الرقيق بتاريخ غرة رجب ١٢٩٧ هـ .
 - (٩ يونية ١٨٨٠) .
 - (١) أمين سامى : تقويم النيل — المجلد الثانى ج ٣ ص ٥٦٥ .

جهات البحر (النيل) الأبيض هو « عماريتها وضبطها ووقاية أهلها والتجار المارة أو المقيمة بها من سائر أنواع الضرر (١) » • كذلك فقد جاء في البند السادس عشر أن كل هذه الأمور الأمنية التي أجرتها الحكومة في تلك البلاد كان القصد منها « توسيع دائرة التجارة في تلك الجهات » • ولم تكن الحكومة تقتصر في نشر مظلتها الأمنية على التجاء السودانيين أو المصريين بل إمتدت هذه الرعاية الى التجار الأجانب طالما كانوا يحترمون القوانين التجارية « في الأخذ والعطاء مع أهالي تلك الجهات » (٢) •

ولقد كانت هناك مبادرة شخصية من لدن موسى حمدي حكمدر السودان في شأن تنظيم عملية الأجرة التي كان يتقاضاها بعض المرشدين نظير ارشادهم لحملات التجار فاقترح هذا الرجل أن يدفع هؤلاء مائتي قرش لرؤساء الإرشاد (الأدلاء) بالإضافة الى مائة قرش للخدم ، ولكن التجار لم يكن لديهم استعداد أن يدفعوا أكثر من ستة وثلاثين قرشا فقط ، ونتيجة لهذا الشح الذي كان يقابل به هؤلاء الأدلاء ، تعرض كثير من التجار للمخاطر في هذه الرحلات ، من ذلك ما حدث للسيدة الفرنسية (تنى) Tinne التي تعرضت الى ظروف سيئة اضطرتها في النهاية الى دفع مبلغ مائة قرش بدلا من ستة وثلاثين قرشا •

ويبدو أن هؤلاء التجار الفرنسيين كانوا برمين بمثل هذه الأوضاع والتنظيمات التي كانوا يلاقونها من قبل المسؤولين في السودان (٣) •

(١) أمين سامي : المرجع السابق • ص ٥٦٥ •

(٢) نفس المرجع • ص ٥٦٧ •

(٣) الأرشيف الفرنسي : محفظة ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة • رسالة موجهة من :

M. C. Thibut, Vice - Consul de France à Khartoum à M. Testu,
Agent et Consul General de France. Alexandrie. Khartoum. Le 2 Juin,
1864.

ومن بين الأمور المنظمة للتجارة في جنوب السودان بنود تنص على الكشف على المراكب وعدد أشخاصها في الذهاب والإياب وإجراء التفتيش عليهم^(١) . ويصف ابراهيم فوزي أوضاع التجار ببحر الغزال عقب سيطرة الحكومة على هذه المناطق قائلا : « ... نم كتبنا منشورا الى جميع الجهات (بحر الغزال) لوكلاء الكباين (الشركات) والأهالي بصيرورتهم من رعايا الحكومة المصرية وأن يحضر أولئك الوكلاء والأعيان الى مركز (مشرع الرق) * ولم تمض أيام قلائل حتى حضر قناوى بك وأبو عمورى ونظاره (وكلاؤه) ومشايخه على القبائل طائعين ، وحضر أيضا وكلاء الخواجة غطاس * وهكذا أخذ رؤساء التجار يفدون واحدا بعد الآخر إظهارا لطاعتهم وسرورهم بإمتداد سلطة الحكومة المصرية عليهم ... »^(٢) .

وفي ظننا أن مجيء هؤلاء التجار لم يكن يعنى البتة رضاءهم عن هذه الأوضاع الجديدة التى أصبحوا فى ظلها تابعين بعدد أن كانوا يسيطرون على هذه الجهات بقوة السلاح وكانوا بحق ، ينسكرون حكومات غير شرعية * فمجيئهم اليوم لم يكن إلا نوعا من أنواع الهدنة المؤقتة ولا يمكن للمرء أن يتصور أن هؤلاء التجار سوف يقنعون بما تقرره الحكومة فى هذه الجهات ، ولعل فى ثورة سليمان نجل الزبير رحمت فى بحر الغزال ما يقوم دليلا على صدق هذه المقولة *

وقد أخذت الحكومة من التجار أسلحتهم ، وفرضت عليهم مقادارا معلوما من تجارتهم « كحصة للحكومة » كانت تقدر بثلاثة أخماس تجارتهم من ريش النعام والصمغ وسن الفيل وكان الحال يستوجب على الحكومة فى تلك الجهات المرور على أماكن هذه الشركات التجارية واحدا بعد الآخر ، لأخذ نصاب الحكومة منهم * وقد أبدى هؤلاء التجار كثيرا

(١) أمين سامى : المرجع السابق . ص ٥٦٧ .

(٢) السودان بين يدى غردون وكثشجر ج ١ . ص ٣١ .

من الضجر إزاء هذه المعاملة وجأروا بالشكوى والتمسوا في نظير ذلك أن تعفيهم الحكومة من أجرة نقل بضائعهم على مراكبها بين بحر الغزال والخرطوم (١) •

التجارة في غربى السودان (كردفان ودارفور) :

وفي غربى السودان كان من الطبيعى أن ينشأ نوع من الاتصال التجارى مع أجزاء السودان الأخرى وخاصة المجاورة له • وقد سهلت عملية ضم كردفان الى أجزاء السودان في عهد محمد على زيادة هذه الصلات خاصة وأن تجارة كردفان قبل هذا الضم كان أكثرها يتجه نحو مصر ، أما الآن ، وقد أصبحت الإدارة واحدة والجميع يخضعون لقوانين واحدة بدأت هذه التجارة وخاصة في كردفان يتجه كثير منها الى سوق الخرطوم • فكان سوق الأبيض يعج بتجار الخرطوم الذين يقومون بنقل بضائع كردفان الى سوق الخرطوم والتي كان أهمها الصمغ وريش النعام والعبيد والعاج وشمع العسل والقطن والسمن والجلود والتمر الهندى والملح والدخان والذهب والماشية بالإضافة الى كميات قليلة من السنامكى والحنظل (٢) •

وقد احتلت الأبيض — التى كانت عاصمة لكردفان — مركزا تجاريا هاما نظرا لموقعها الهام على ملتقى طرق القوافل القادمة من الجنوب وسنار ودارفور ووادى وشمال غرب أفريقيا ومصر (٣) • وقد سكن هذه البلدة الكثير من التجار سواء الذين كانوا قادمين من جهات السودان المختلفة أو أولئك الذين قدموا من خارج السودان ، وأصبح هؤلاء التجار يشكلون جاليات ولكل جالية حى تعرف به أو قرية من القرى الكبيرة • فالتجار الذين قدموا من دنقلة أقاموا في إحدى القرى بوادى

(١) ابراهيم فوزى — المصدر السابق • ص ٣١

Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.

Ibid. pp. 295-8.

(٢)

(٣)

نجيلي Nagela ، وكذلك الحال بالنسبة للقادمين من بلاد التكرور الذين سكنوا حيا عرف باسم حى التكرانه أو قرية الحجاج (١) .

وكان الرحالة والمكتشف جون بتريك واحدا من أولئك التجار الذين أقاموا فى الأبيض وتاجروا فى الصمغ العربى من كردفان بين عامى ١٨٤٨ — ١٨٥٣ .

ولم تقتصر الأبيض على هذه الأحياء بل اضيفت إليها أحياء أخرى عديدة على يد الإدارة المصرية فى السردان تبعا لإزدياد النشاط التجارى . ويصف أحد الرحالة سوق الأبيض بأنه كان من أكثر أجزاء المدينة حيوية ونشاطا (٢) ، فقد كان يضم أقساماً متنوعة لعرض السلع المحلية والواردة من الخارج ، فكان للابل والماشية والأغنام « قسم » ، وللسلع رخيصة الثمن « قسم » خاص بها وكذلك الحال بالنسبة للسلع عالية الثمن قسم ثالث . وكان الأخير أكثر تنظيما من الأقسام الأخرى فهو عبارة عن صفين من « الدكاكين » المشيدة من الطمي و « سقيفة » لحجب أشعة الشمس عن واجهتها وكانت الأدوات المعدنية والذهب من أهم السلع المحلية ، بينما كانت السيوف وأجراس الابل والأقواس ، والكحل والأسلاك النحاسية والحديد والمرايا والسكر والصابون والكبريت من أهم السلع الآتية من خارج كردفان (٣) .

وكان لتجار الجملة فى سوق الأبيض قسم خاص ، شيدوا فيه منازل خاصة بهم يقيمون فيها ، وتؤدى مهمة أخرى ، إذ كانت تعقد فيها الصفقات التجارية الكبيرة التى تأخذ طريقها الى الخارج مثل الرقيق وسن الفيل أو ريش النعام والصمغ والتمر هندي (٤) .

John Pethrick; op. cit., p. 300.

(١)

Hill; A Biographical Dictionary. p. 35.

(٢)

Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.

(٣)

Ibid. pp. 297-98.

(٤)

ولقد خضعت السلع التي كانت تعرض في سوق الأبيض لنظرية المعرض والطلب فهي تارة تنخفض بشكل نسبي أثناء قدوم القوافل المحملة بالكثير من هذه السلع وتارة أخرى ترتفع عندما يتعذر وصول القوافل من الخارج وخاصة في موسم الأمطار * والرقيق هو أوضح مثال لذلك إذ كان سعره يرتفع عندما يصبح المعروض منه في السوق قليلا والقوافل التي تقوم بنسحته على وشك مغادرة البلاد (١) *

والرقيق في الأبيض كان إحدى السلع التجارية الهامة والرئيسية التي اشتهر بها على كافة أجزاء السودان الأخرى * لذلك فلا عجب إذا لاحظنا أن أسواق الرقيق في الأبيض كانت تعقد يوميا *

ويتنم الحصول على هذه السلعة بواسطة الجالابة من مواطن الزوج القريه ، فقد اعتادت البقارة القيام بشن الغارات على قبائل الشلك والدنكا وسكان مرتفعات النوبا * ولم يكن يخلو بيت من البيوت من وجود الرقيق ذكرا كان أم أنثى للقيام بشئون المنزل بل إن كثيرا من البدو كان يفتنى الرقيق ، كما أن الفلاح الكوردفاني كان يعتمد عليه في الإنتاج الزراعي (٢) *

وبالإضافة الى الرقيق اشتهرت الأبيض بتجارة العاج إذ كان الجالابة من الأبيض وباره يحصلون عليه من جهات كردفان والأقاليم المجاورة مثل دارفور وبلاد الشلك وبعض المرتفعات * ومن المدن التجارية الأخرى والتي تلى الأبيض من حيث الأهمية التجارية مدينتا بارة والطبارة ويرجع الفضل في تشييد بارة الى الدناقلة * وإشتهرت

(١) نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية ١٨٤٨/٢١ ص ٣١٧ .

Pallme : op. cit., pp. 52-60.

(٢)

(*) جدر الإشارة الى أن الدناقلة قد احتلوا جزءا كبيرا من حركة النشاط التجاري في الأبيض وبارة والطبارة وغيرها من المراكز التجارية في كردفان بالإضافة الى مرتفعات النوبا المجاورة وكانت جماعتهم من أكبر

هاتان المدينتان على وجه الخصوص بتجارة الصمغ العربى ولم يكن الإستغلال التجارى لهذه السلعة يتم على نطاق كبير بل كان يقتصر على الجهات المجاورة للمدن الكبيرة كالأبيض وطبارة ، وإمتاز صمغ كردفان بجودة نوعه ولذلك فقد كانت أسعاره تزيد كثيرا عن مثيله من الصمغ المنتج من سنار والتاكا والحجاز والسنغال .

وتتم عملية جمع محصول الصمغ عادة عقب سقوط الأمطار في أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير ، وكان في استطاعة الفرد الواحد أن يجمع خلال هذه الأشهر الثلاثة خمسة قناطر من الصمغ (١) . وأصبحت الطرق بين الخرطوم وكردفان تعج بقوافل الصمغ كما إستمر حجم تجارته في إضطراب طوال الحكم المصرى في السودان ، إذ بلغت صادرات سوق الخرطوم منه سنة ١٨٨٠ مائة ألف قنطار (٢) .

كذلك فقد احتل ريش النعام أهمية كبيرة في تجارة كردفان وأصبح من السلع التجارية الهامة خاصة بعد عام ١٨٥٠ ، حيث سارع تجار الخرطوم الى إقامة الزرائب في كردفان لتربية النعام للحصول على ريشه وقشر بيضه . ويبدو أنه أصبح مادة تجارية بالغة الأهمية ومن

الجماعات التجارية في كردفان . وقد أخذ عليهم بالم الذي زار كردفان بين عامي (١٨٣٧ — ١٨٣٨) بعض سياساتهم التجارية من حيث عدم إمداد السوق بالسلع الجديدة ، بل وقفوا تجارتهم على السلع التقليدية التي اعتادوا المتاجرة فيها منذ سنوات طويلة ، كما ان الواحد منهم لم يكن يترك السوق من أجل جلب سلعة أخرى الا اذا باع كل ما لديه من السلع المعروضة حتى ولو كان المتبقى نسبيا قليلا ، كما أنه لا يبيع السلعة الا اذا وصلت الى السعر الذي يحدده بنفسه دون المسترعى ولو أدى ذلك الى تلفها . ولم يكن أحدهم ليثق في زميله التاجر في أن يترك سلعته معه حتى لو كان ابنه .

أنظر : (Pallme; op. cit., pp. 301-2).

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) أحمد أحمد سبد : المرجع السابق ص ١٢٦ .

ثم كانت تلك الترتيبات الخاصة من أجل إقامة هذه الزرائب التي كان بعضها يضم أكثر من مائه نعامة (١) •

وبمرور الزمن وطبقا لمجرى الأحداث السياسية في السودان ظهر نوع جديد من التجارة بين تجار كردفان وخاصة في الأبيض ونعنى بها تجارة الأسلحة والبارود وخاصة عندما ثار سليمان نجل الزبير في بحر الغزال ، فكان التجار يمدونه بهذه الأسلحة بل ويعطفون عليه لما ينالون منه من ربح وفير • وكانت هذه الذخائر ترسل بواسطة الجلابية أو صغار التجار فيما بين الأبيض وبحر الغزال • وقد حاول موظفو الإدارة في الأبيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات التي واجهتهم كانت عظيمة ، منها القبائل التي كانت تقطن المناطق الواقعة بين كردفان وبحر الغزال بالإضافة الى خروج التجار في قوافل صغيرة يمكنها الاختباء في الغابات والممرور منها بسهولة (٢) •

وقد تسببت هذه التجارة في أن يقوم غوردون باتسا باللجوء الى وسائل حساسة للقضاء عليها فأمر بالقبض على التجار الجلابية وإرسالهم بالقوة الى « دارة » و « طويشة » و « أم شنجة » والأبيض وحدد لهم تاريخا معيناً لوقف هذه التجارة وانهم مسئولون عن وجودها بعد هذا التاريخ ، وأمرهم بترك المراكز الواقعة جنوبى الأبيض والطويشة وطريق دارة وحصر تجارتهم في الجزء الشمالى والغربى • وقد أدت هذه الإجراءات التي عمد اليها غوردون الى قيام بعض القبائل ، منتهزين الفرصة ، بنهب الجلابية والتجار الذين كانوا بالأمس يعيشون بينهم وليس لهم دخل في تجارة الأسلحة والبارود (٣) •

(١) أحمد أحمد سيد أحمد . المرجع السابق ص ١٢٧ •

(٢) دفتر رقم ٤٧ عابدين وارد تلغراف - صورة التلغراف العربى المنشورة رقم ٣٥٥ ص ٧٥ بتاريخ ٢٧ بولية ١٨٧٧ • ورد في يوم الثلاثاء ٢٧ رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ، انظر أيضا : سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ص ٧ ، ٨ •

(٣) سلاطين باشا : المصدر السابق ص ٧ ، ٨ •

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الإجراءات القاطعة والأحداث الجسيمة التي مست التجار وتجارتهم قد أصابت تجارة كردفان وجعلت التجار يجفلون ولا يخاطرون بأرواحهم وتجارتهم إذ أنه من المعروف أن التجارة والأمن توأمان لا يفترقان *

كذلك فقد كانت هناك أمور أخرى تأثر بها عامة التجار في كردفان وهي تفضيل غوردون لبعض التجار مثل الياس أفندي (باشا فيما بعد) الذي أصبح « سر تاجر » ورئيس مجلس مديرية كردفان ، ويبدو أن هذا التاجر كان يسدى خدمات كثيرة للحكومة فقد جهز من تلقاء نفسه وعلى نفقته ثلاثمائة فرد مسلحين من جماعته بل إنه قام بتجهيز ملابس للعساكر دون تأخير (١) *

ولا شك أن هذا الرجل كان يطمح الى منصب سياسى لحماية تجارته ، فقد وصلت الأحوال التجارية في السودان بصفة عامة في عهد حكمدارية غوردون (١٨٧٧ ، ١٨٧٩) الى درجة من السوء حيث رفع تجار البلاد وأعيانها عريضة الى الخديو اسماعيل عام ١٨٧٨ يشكون حالهم وفساد الحكام ، وما أصابهم من جراء تلك السياسة المتبعة حيالهم (٢) *

وأما تجارة دارفور المجاورة لكردفان فتكاد تكون متصلة بينهما نظرا لتجاورهما ، ويمكن القول أن السلع والمنتجات التي كانت تتاجر فيها كردفان ودارفور متشابهة كالرقيق والعاج وريش النعام *

هذا ، ولا يمكن القول بأن تجارة دارفور مع مديريات السودان

(١) دفنر رقم ٥ معية عربى ، وارد الافادات ص ٦١ — مكتبة رقم ١١ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ من الحكمدارية الى المعية السنية أنظر أيضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن ١٩ ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٩ .

الأخرى قد توقفت تماما قبيل ضمها في عام ١٨٧٤ ، لكننا نقول إنها قد تأثرت بهض الشيء بالظروف السياسية التي حدثت في بعض أجزاء السودان وخاصة كردفان المجاورة لها والتي ضمت لسنار ، وخوف سلاطين دارفور من فقدان أزمة الحكم على يد محمد علي .

فجميع هذه الأمور والملايسات قد أثرت دون شك في مسيرة القوافل الدارفورية مع أجزاء السودان ولكن محمد علي أدرك سراً هذه الأمور ومدى خطورتها على الأوضاع التجارية فبدأ يكتب « رسائل إطمئنان » لسلطان دارفور ويبيع إليه بالهدايا تعبيراً عن الود وحسن الجوار . وفي نفس الوقت يحث حكمدار السودان ومدير كردفان على ذلك ، فيها هو ذا يكتب الى مدير كردفان قائلاً « ... من الواجب عليك إذا ما أظهر نحوك في خطابه تسعور المحبة والولاء أن تجامله وتعامله بالمتل ... » ، بل لقد وصل الأمر بمحمد علي أنه كان يختار العبارات التي يكتبها مدير كردفان حيث يقول « وليكن خطابك التالي على هذا النحو ... إنني بحكم الجيرة أتمنى لك الخير وأميل الى مصافاتك ، غير إنني أعلم أن حبل المودة مقطوع بينك وبين محمد علي منذ مدة . ولئن كان من الواجب على نظرا لما بيننا من المودة والولاء أن أسعى الى إزالة ما بينكما وإحلال التفاهم والوئام محل النفور والإختلاف ... » (١) .

ثم يقترح مدير كردفان على سلطان دارفور أن يسمح له باستغلال منجم النحاس الموجود في سلطنته وبذلك تكون أفضل وأجمل مناسبة لعودة المياه الى مجاريها وإتصال حبل الود بالإضافة الى فتح طريق التجارة بين الطرفين (٢) .

(١) دفتري رقم ٣٧٨ . معيه نركى - ترجمه الارادة التركية رقم ٩٠٢ بتاريخ ٢ صفر ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

وتمشيا مع سياسة تشجيع التجارة بين دارفور ومديريات السودان الأخرى طلب حاكم دار السودان في أواخر عام ١٨٧٣ من الزبير رحمت . عندما أصبح مديرا على جهات بحر الغزال ، عدم تعدد حدود دارفور بل « ... تكون المودة والتجارة والأخذ والعطاء ما بين هنا (بحر الغزال) ودارفور على ما كانت عليه ... » (١) .

وهكذا بدأت جسور المودة والتجارة تقوى وتمتد على إستحياء في عهد محمد على ثم بدأت تنمو في عهد خليفته عباس ومحمد سعيد الى أن تم ضم دارفور في عهد اسماعيل .

ومن أهم أسواق دارفور التي كانت تعج بالتجار والتجاره « الفانسر » وهي مقر السلطنة و « كويبة » و « كبكية » و « سرف الدجاج » و « منطقة قرلى » (٢) .

وقد نشطت التجارة في دارفور نشاطا ملحوظا ، وأما التجار من كافة أنحاء السودان وتبوا بعضهم مكانه رفيعة في دارفور ، فمن قسم عبود بمديرية الخرطوم جاء الى أم « شنقة » بدارفور أشقاء للمتاجرة فيها ووصل أحدهم ويدعى الشيخ فضل المولى محمد الى منصب « سرتجار » تلك الجهة (٣) ، أو ما كان يسمى أحيانا بإسم (ناظر التجار) (٤) .

(١) دغتر رقم ٢٢ عابدين وارد بليونات — صورة التلغراف العربى .
الشمرة رقم ٢٧٥ ص ٢ بتاريخ ٦ ذو القعدة ١٢٩٠ هـ .

(٢) النونى : شحيد الأذهان . ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٣) دغتر رقم ٥ معه سنة (عربى) ، وارد الانادات ص ١٦ ، مكانة رقم ٢ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٩١ هـ . من حكام السودان الى المعينة السنينة .

(٤) سجل أبعاديات بلاد السودان — نوتى سنة ١٢٦٥ هـ — مخزن رغم ٢١ (السودان) عين ٩١ نمر ٢٦١٧ . دار المحفوظات العمومية بالقلعة .

كذلك فقد جاء الى دارفور كثير من التجار الدنقلاويين الذين عرفوا بحب التنقل والمغامرة والولع بأمور التجاره كما لاحظنا في كردفان وغيرها من أجزاء السودان • فقد تقلد أحدهم في أوائل عام ١٨٧٥ منصب « سرتجار دارفور » بل وصل به الأمر بعد أن تضخمت تروته الى الزواج من شقيقه حاكم دارفور السابق السلطان ابراهيم (١) ، حتى يضيف على نفسه نوعا من الوجاهة وهو ما تلجأ إليه عادة طبقة التجار حتى تضمن سلامة تجارتها ولا مانع لديها من وضع بعض رجالها في دست الحكم إن وجدت الى ذلك سبيلا •

وتجدر الإشارة هنا الى أن جماعات التجار في دارفور قد لعبت دورا كبيرا في التمهيد لضمها الى الإدارة المصرية على عهد اسماعيل باننا ، فقد جرت اتصالات خفية بين بعض التجار وبين المسؤولين في الخرطوم لمعرفة أحوال دارفور ولعبوا دورا كبيرا في إرشاد الجيش المصرى لدخول دارفور ومن هؤلاء التجار الذين لعبوا هذا الدور الشيخ فضل المولى محمد « سرتجار دارفور » وشقيقه ابراهيم ، فقد قاما مع غيرهم بتأمين الأهالى والعربان والتجار المقيمين ببلدة (أم شنقه) وغيرها وأحضروا الأبقار والغلال اللازمة للجنود (٢) •

ويبدو أن هذين التاجرين كانا بعيدي النظر في هذا العمل فقد أدركا أن دارفور لا محالة سوف تفتح بيد الجيش المصرى وإذا ما تم هذا العمل بشكل دموى فلا شك أن في ذلك كسادا للتجارة والتجار ، وكعادتهم في كسب السلطة السياسية سسعوا الى كسب ود الجيش المصرى ، وبدأو يحسبون المكاسب والخسائر تماما كما يفعلون في التجارة

(٢) دفتر رقم ٤ معية عربى - وارد الافادات ص ٥٠ - مكتبه رقم ١٠ مرور بتاريخ ٣ دى الحجة ١٢٩١ هـ • ورد في ١٦ محرم ١٢٩٢ هـ من حكام السودان الى المعية •

(١) دفتر رقم ٥ معية سنه (عربى) وارد الافادات ص ١٦ • مكتبه رقم ٢ مرور بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩١ هـ - من حكام دارفور الى المعية السنية • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

عسلموا وسلمت تجارتهم ، بل إن حكمدار السودان إقترح منحهم « مراتب شرفية » وتعيين أحدهم في وظيفة « سرتجار أم شنقة » (١) •

كذلك فقد كان التجار في دارفور حلقة وصل في الأمور السياسية فهم حمله للخطابات التي تشرح الأمور الغامضة بين أمراء دارفور وخديوى مصر •

وليس معنى ذلك كله أن جميع طبقة التجار بدارفور لم يمسسها سوء خلال عمليات ضم دارفور فقد لوحظ أن العناصر الكبيرة من التجار هي التي نعمت تماما بما أسدته من خدمات للجيش ، كذلك فإن الأمراء الدارفوريين كانوا يشكون من الشكوى من الزبير رحمت وما أحدثه في بلادهم من آثار وتأثر التجار بذلك (٢) •

وقد تكون تباينات الأمراء صحيحه الى حد ما ، ولكن هي في مجملها « حركات حزينة » لما فقدوه من إمارة وأبهة في دارفور • وعموما فإن المكاسب التي عادت على التجارة السودانية عقب ضم هذه السلطنة كانت طيبة حيث إنفتحت على داخل السودان بشكل مباشر •

التجارة في وسط السودان وشرقه : - سوق الخرطوم :

أصبحت بلدة الخرطوم في عهد الإدارة المصرية مركزا تجاريا هاما في قليل من المرات ، وقد تجمع فيها كثير من الأجانب بالإضافة الى مواطنيها من السودانيين والمصريين ، فقد طلب محمد على إبان رحلته الى السودان ضرورة الاهتمام بأحوال التجار بها من أجانب ومواطنين « وضرورة وضع نظام لهم » واتجهت نيته منذ ذلك الوقت الى إنشاء سكة حديدية تصل

(١) نفس الوثيقة السابقة •

(٢) محفظة رقم ١٠٤ - ملف رقم واحد ، و ملف رقم ٦ - قسم الوثائق

الامريكية •

• ما بين السودان ومصر (١) •

ومدينة الخرطوم كان لها سوق يتوسط المدينة ويفترس ثلاثة أو أربعة سوارع نرابية ذات سقف من القش وفروع الشجر . تمتد على جانبيها محلات صغيرة متجاورة . وأمام هذه المحلات تقوم مصاطب من الطين الجاف بارتفاع قدمين . ويقوم التجار بوضع البضائع على هيئة أكوام وصفوف من أمامهم وخلفهم ، وفي المحل الواحد بسوق الخرطوم نجد كل شيء : الملابس والطرابيس والأدوية والدهانات والدخان وغير ذلك •

ولم تقتصر التجارة في الخرطوم على هذه المحلات الثابتة بل كانت هناك تجارة يحملها أفراد يطوفون بها من مكان الى آخر ، فقد عرف سوق الخرطوم أسلوبا أسبه بالمزاد في تصريف بعض السلع ولكن بشكل بعيد عن صورة المزاد في هذه الأيام ، إذ لم يكن يوجد مشتررون يلتفون حول البضاعة . بل كان التاجر يدور بها في السوق ويتلقى عروض الشراء ، فإذا قضى وقتا طويلا في هذه المسألة بحث عن أكبر عرض شراء قدم له وذهب الى صاحبه وأتم عقد الصفقة معه • ومن أهم ما كان يتاجر فيه على هذا النحو العبيد (٢) •

وقد كانت العملة التي يتداولها التجار في سوق الخرطوم هي نفس العملة المتداولة بمصر وكانت تضرب في مصر وتركيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا • ولم يؤد هذا التنوع في مصادرها الى تغير قيمتها وتنوع أسمائها فقط بل تعداه الى حدوث مشاكل واختلافات حول القيمة الشرائية لكل عملة وقبول بعض التجار التعامل بعمله ورفض البعض الآخر التعامل ببعض العملات •

(١) انظر رحلة ساكن الجنان : محافظ عابدين — السودان — وتيقنة بدون رقم ص ١١ ، ١٢ •
(٢) أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم • ص ١١٢ •

وغد كانت أبخس عملة في السوق قيمتها خمس بارات (نمن القرش) وأغلاها الجنيه المصرى وأسهرها الريال والقرش (١) •

وقد إختصرت كثير من العملات والموازين والمكايل والمقاييس بعد أن ظلت فترة طويلة — بعد ضم السودان للإدارة المصرية — تحت رحمة الإختبار ، وكان ذلك الإختصار نتيجة لإحتكاك تجار الخرطوم بأفراد المجتمع الكبير في المدينة وبخاصة المصريين والأتراك والأجانب (٢) •

ومن الجهود التي كانت الإدارة تبذلها في السودان في هذا الجانب تلك الزيارات المفاجئة التي كان يقوم بها مدير الخرطوم للسوق وبخاصة في يوم الجمعة لمراقبة البيع والشراء وفحص الموازين والمكايل ، وقد انتسبت بالخرطوم في عهد الحكمدار جعفر باشا مظهر قوة من « القواصة الخبطية » كانت تقوم بهذه المهام (٣) •

وأصبحت الخرطوم على عهد الادارة المصرية تتمتع بأهمية اقتصادية كبيرة — بالإضافة الى أهميتها السياسية على إعتبار أنها عاصمة البلاد — فقد كانت مركزا لكبار التجار وخاصة تجار العاج والرقيق وجاءتها القوافل من كل أنحاء السودان محملة بكل أنواع السلع والمنتجات سواء التي كانت موجودة في البلاد أو التي ترد إليها من

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١١٣ . ومن أهم الريالات التي كانت متداولة في السوق : الريال المصرى ويساوى ١٩١٥ قرشا والريال التركى (وكان يعرف « بالمحمودية » وهى عملة ذهبية) ويساوى ١٨ قرشا ، والريال النمساوى (ريال هاربانيزا) ويساوى ٢٠ قرشا وكان من أوسع العملات تداولاً . ومن القروش التي كانت متداولة في السوق : قرش الحكومة (الصاغ) وقرش النمساوى (نصف الصاغ) ، والقرش التركى (الذى صك عام ١٢٢٣ هـ) ، والقرش النحاسى . وقد تناوتت هذه القروش في قيمتها (أنظر حول ذلك امين سامى : تقويم النيل . الجزء الثانى المجلد الثالث . أمكى معددة) .

(٢) أحمد أحمد سيد أحمد : المرجع السابق ص ١١٣ .

(٣) دفسر رقم ٥٥٨ تركى قسم ثا — اراده رقم ٩ الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ نوال سنة ١٢٨٣ هـ ص ١٩ .

خارجها لدرجة أن الناس قد رددوا في السودان عبارة تقول « إينس معدوم في سوق الخرطوم » (١) •

ومن بين النظم التي استحدثت في السودان إنشاء « مجلس تجار الخرطوم » حيث تم الإسترشاد عند وضع قوانينه بنسخه من قوانين مجلس التجار التي كان يجري العمل بها في مصر ، وذلك للفصل في الدعاوى التجارية بالسودان (٢) •

كذلك فقد أصبح لسنار دور هام في التجارة السودانية نظرا لموقعها الجغرافي عند ملتقى طرق القوافل القادمة من كردفان والحبشة ومصر وسواكن وهي بذلك حلقة وصل بين أكثر مناطق السودان الهامة ، وهذه الأهمية ربما ترجع الى أنها كانت عاصمة للسلطنة السنارية • كذلك فإن هذه الأهمية التجارية ترجع أيضا الى أنها تقع في إقليم له شهرته الواسعة في بعض السلع والمنتجات التجارية كالرقيق والصمغ والتمر هندي والسنامكي ، بالإضافة الى الذرة والتبغ وغيرها من المنتجات الزراعية التي كانت متوفرة بشكل يزيد على حاجة الإستهلاك المحلي في سنار • وقد لعبت بعض المصنوعات القائمة على المنتجات الزراعية دورا هاما في تجارة سنار أهمها « الدمور » الذي إستتهرت به ، كذلك فقد كان لذهب سنار الذي يأتيها من فازوغلى وبنى شنقول والكمامل أهمية خاصة في تجارتها (٣) •

وجميع هذه السلع والمنتجات كانت تعرض في أسواق سنار • وأما ما كان يأتيها من الأقاليم الداخلية الأخرى فكان التمر والقمح

(١) نسقير : المرجع السابق • ج ١ ص ٩١ •

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ صادر أوامر عربي : أمر عالي لمدرية الخرطوم ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٧٣ • أنظر أيضا : أمين سامي تقويم النفل وعصر عباس حلمي ومحمد سعيد • المجاد الأول ص ٢٣ •

وأبضا : شوقي الحمل : تاريخ السودان • ج ٢ • ص ٧٦ •

Douin : op. cit., Tome. I. p. 62.

(٣)

والحيول من دنقلة . والحديد وتبر الذهب والرقيق من كردفان . وبالرغم من ذلك كله ينبغي أن ننسب إلى أن سنار لم تعد بعد عام ١٨٢١ تحتل المكانة الأولى في تجارة السودان بل إنها تخلت عن هذه المكانة للخرطوم العاصمة الجديدة للبلاد . كذلك فقد لعبت كسلا الواقعة عند دلتا نهر القانس دورا هاما في تجارة المنطقة ، فمن المعروف أيضا أن هذه المدينة كما سبق القول قد نشأت عام ١٨٢٠ إبان الحكم المصري في السودان على يد الحكمدار أحمد بانسا أبو ودان .

وفي عام ١٨٦١ وصف صمويل بيكر المعسكر الذي تركه أحمد بانسا أبو ودان عام ١٨٤٠ . ونعني به المكان الذي شعلته بلدة كسلا ، بأنه أصبح مدينة مسورة وحصينة ومحاطة بخندق من المياه ، فضلا عن ذلك فإن بها سوقا عامرة بقصدها التجار من الخرطوم وسواكن ، وكانت تقطنها طبقة غنية من التجار من أبناء البلد واليونانيين والمصريين ويرأسهم « سرتجار » مصري . وكانت المدينة على درجة كبيرة من الأهمية الأمر الذي دعاه إلى وضعها على قدم المساواة مع الخرطوم العاصمة (١) .

ومدينة كسلا تقع في الإقليم المسمى بالتاكة والذى امتاز بوفرة انتاجه من الصمغ والذرة ذات المواصفات الجيدة بالإضافة إلى ثروتها الحيوانية من الماشية ، والابل وهذا الإقليم تمر به أكثر قوافل بلاد النوبة وسنار ودارفور وكردفان المتجهة إلى سواكن على ساحل البحر الأحمر . وقد امتازت بلاده كسلا بموقعها الإستراتيجي في أسفل الهضبة الحبشية كمفتاح نحو الأراضي الحبشية ومفتق لل طرق (٢) .

(١) الناصر عبد الله أبو كروق : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ - ١٨٩٧ . رسالة ماجستير غير منسورة بجامعة القاهرة ص ١٥ . انظر أيضا :

Baker, Sir Samuel; The Nile Tributaries of Abyssinia & the Himran Arabs. pp. 69 - 75.

(٢) الناصر عبد الله : — المرجع السابق . ص ١٥ .

وفي إقليم التاكة هذا حذب نوع من التبادل التجارى . فحملت إليه قوافل شندى « الديمور » فى مقابل الدرة والماسية حيث كانت بلاد النوبة تفضل استيراد الماسية من التاكة للقيام بالأمر الزراعيه وأهمها ادارة السواقى التى اشتهرت بها . فكانت هذه الماسية تفضل على مانسيه سنار وغرب السودان (١) .

كذلك فقد قام تجار سواكن بنقل الصمغ من التاكة مقابل الملح والبصل وقد ظل هؤلاء التجار يتمتعون بحرية التجارة فى الصمغ حتى عام ١٨٤٧ حيث منعوا من ذلك وقامت الادارة نفسها بهذه المهمة على أن تدفع نفس الأثمان التى كان يدفعها التجار وتقوم بإرسالها لهم (٢) .

وقد كان للتاكة أسواقها المعروفة أهمها « سوق كسلا » و « سوق الهدندوه » و « سوق الحلتقا » . وأشهرها جميعا سوق الهدندوه الذى أصبح يعج بالانتساق التجارى . فقد كان يعقد مرة فى الأسبوع ويتردد عليه البدو وأهل الريف وبعض تجار القوافل المارة به . فأهل الريف بأنثون بالماسية والابل وبعض منتجاتهم الريفية ومصنوعاتهم اليدوية (٣) .

وكانت تعرض فى هذا السوق أيضا بعض السلع الجلوبة مثل الملح والتبغ من سنار وفارس واليمن ، بالإضافة الى بعض أنواع التوابل كالقرنفل والبخور . ولم تكن أسواق التاكة تخلو من بعض الحادادين

(١) دمبر رقم ٢٠٨ . صادر دبران المعاونة للأقاليم — وبيقه رقم ٤٥ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلمة .
(٢) دفنر رقم ٤١٣ صادر المعبة السنية ونبة رقم ٣٢٧١ بتاريخ ١٨ رجب ١٣٦٣ هـ ، كتاب صادر الى مدير التاكة .
(٣) محفوظة ٢٦٨٠ عابدى — ملف السودان — وبيقه رقم ٣٦ أصلية رقم ٧٨ حمراء . من احمد باتشا حكمدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٣١ جمادى الآخرة ١١٥٥ هـ . أنظر أيضا : دفنر رقم ٧٦٠ الديوان الخديوى . ترجمه المكتبة التركية رقم ٣٧٨ ص ١٤١ . بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٥ هـ .

الذين يفومون بعمل السكاكي ورؤوس الحراب والسهال • وتجدد الاشارة أيضا الى مركز تجارى رئيسى فى السودان الشرقى وهو « قوز رجب » الذى يقع على مسافة ميل تقريبا من الضفة الشرقيه لنهر عطبرة فى سهل رملى (١) وكانت هذه البلدة تتمتع بموقع جغرافى هام ، فالقوافل القادمة من سواكن الى سنار مباشرة كانت تمر بقوز رجب وتعرض فيها بعض السلع التى كانت تحملها •

وقد اعتمد سكان قوز رجب اعتمادا يكاد يكون كليا على التجارة ، إذ أنهم لم يكونوا يمارسون نشاطا زراعيا وإنما كانوا تجارا فى المقام الأول ، فقد كانوا يملكون القطعان الكثيرة من الأغنام التى ترعى على ضفاف العطبرة صيفا وداخل الصحراء شتاء ولم يكن ذلك ليصرفهم عن نشاطهم التجارى الذى إمتد الى أسواق النوبة لبيع الماشية والأغنام (٢) • كذلك فقد اشتهرت قوز رجب كغيرها من أجزاء السودان بتجارة الرقيق التى كانت شائعة آنذاك •

تجارة سواكن :

كذلك فقد كانت سواكن من أهم مراكز التجارة السودانية فى شرق السودان • ويهنا هنا الاشارة إليها من ناحية علاقتها بالسوق الداخلية للسودان ، أما علاقتها بخارج السودان فسوف نرجئه الى مقام آخر لحظة تعرضنا لتجارتها مع العالم الخارجى • لقد كانت هذه المدينة كغيرها من مراكز السودان التجارية تحفل بمجموعات ضخمة من التجار سواء من أهل السودان أو من القادمين إليها من الأقطار الخارجية ، والآسيوية منها ، على وجه الخصوص •

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٤ — ٣٠٥ •

(٢) Werne; Expedition to discover the sources of the white Nile in the years : 1840, 1841, vol. I. p. 20.

انظر أيضا نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٥ •

وفد ربطت سواكن مع أقاليم السودان الأخرى بعدد طرق •
اخترقتها قوافل التجار والنجارة ومن أهمها :

١ — طريق يربطها ببربر ويخترق الصحراء الشرقية التي تفصل بين النيل النوبي وساحل البحر الأحمر ومتجها رأسا من الشرق الى الغرب • وتقطعه القافلة في مدة اثني عشر يوما • وقد حف هذا الطريق قبيل الادارة المصرية بالمخاطر نظرا لإختراقه مواطن قبائل البشارية • ولكن الادارة المصرية عنيت به ، فأمنتته وحفرت الآبار على إمتداده ، خاصة بعد ضم سواكن • وهناك طريق آخر يصل ما بين سواكن وبربر ، مارا بالتاكة ، ولم يكن يطرقه أحد من التجار نظرا لخطورة المرور فيه • وبمجرد ضم التاكة أصبح هذا الطريق آمنا •

٢ — الطريق الذي يربط سواكن بشندى • وهو عبارة عن عدد طرق ، فهناك الطريق المباشر الذي يمر بالدامر • وهناك طريق آخر يمر بعطبره ومنها يتفرع الى فرعين : أحدهما يصل مباشرة الى سواكن مخترقا الصحراء والثاني يمر بالتاكة ، وكلاهما أكثر أمانا من الطريق الذي يمر بقبائل البشارية • أما طريق العطبرة فقد كان يمر بأوطان القبائل الصديقة للحداربة من تجار سواكن •

٣ — طريق يصلها بسنار وهو أيضا عبارة عن طرق ، كما وجد طريق آخر يمر بقزز رجب (سواكن — قوز رجب — سنار) ولا يمر بالعطبرة أو تشندى • وكان هذا الطريق مفضلا في الصيف رغم شدة الحرارة • ويرجع ذلك الى أن بدو النكرية اعتادوا تهديد الطريق شتاءً • بينما يرحلون عنه صيفا وفقا لنظام الانتقال الموسمي بحثا عن المرعى •

٤ — الطريق الواصل بين سواكن وكردفان ، وله مساران الأول يبدأ من الأبيض فشندى ومنها الى سواكن مارا بالدامر أو العطبرة ،

أو التاكفة . وآخر من الأبيض فسنار ثم الى سندی ثم الى سواكن
مارا بالتاكفة (١) .

وعن طريق المسالك السابقة انتقلت تجارة سواكن الى جميع أجزاء
السودان . وقد تزعم حركة النشاط التجاري في سواكن جماعة
الحدارية ، فقد ترددوا على سنار لشراء الذهب والرقيق ، كما ذهب
بعضهم الى سندی لشراء نفس هذه السلع في مقابل الخرز الزجاجي
المعروف بإسم ريش Reish الذي كان يرد الى سواكن من بلاد الهند
وكان يمدل - آنذاك - سلعة مربحة . بالإضافة الى إمكانيه
إخفائه عن عيون الحكام الطامعين . وبالإضافة الى الرقيق
والذهب كان تجار سواكن يحصلون من سندی على الخيل التي ترد من
دنقله ويقومون بتصديرها الى مخا والحديدة . ومن التاكفة استوردوا
الذرة التي لم تكن متوفرة بسواكن مقابل الملح والقرنفل والبصل .

وكانت السوق المحلية بسواكن تعقد في مكان مكشوف محاطة
بالأكواخ ، وفيها يتم عرض سلع ومنتجات السودان بالإضافة الى
المنتجات والسلع الواردة من الخارج عن طريق البحر . وكان البدو
المجاورون لسواكن يترددون على هذه السوق لشراء الذرة الآتية من
التاكفة والأقمشة القطنية « الدمور » الواردة من سنار .

وفي مجال الجهود المبذولة لخدمة التجارة الداخلية بين سواكن
وكسلا وإيجاد حل لمشكلة النقص في الابل اللازمة لنقل البضائع ، إقترح
المسؤولون في عام ١٨٦٥ تسيير عربات خشبية تجرها ثيران تسمى
« حريق » بين سواكن وكسلا ، خاصة وأن الثيران كانت متوفرة جدا
في تلك الجهات (٢) .

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥٩ .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية نركى - ترجمة الوثيقة التركية (بدون نمرة)
ص ٢٦ بتاريخ ٧٨ جمادى الآخرة سنة ١٨٨٢ هـ . ارادة سنة الى وكيل
حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

كذلك فقد وجدت اتصالات تجارية بين مصوع وزيلع وهرر وبربره وبين داخل الأراضي السودانية وكانت هذه الموانئ بمثابة جسر اتصال قوى للتجارة الخارجية لذا فسوف نرجى الحديث عنها الى موضوع التجارة الخارجية مع شبه الجزيرة العربية وبلدان جنوب شرق آسيا *

التجارة في شمالي السودان (بلاد النوبة) :

(أ) في سكوت والمحس :

وهما من المراكز التجارية التي لها شهرة خاصة بتجارة التمر في بلاد النوبة السودانية إن لم يكن في السودان كله * ففي جهات الدار و « ابريم » ينتج التمر بوفرة * وكانت الكميات الكثيرة منه تجد طريقها الى داخل السودان ولا تصل الى الأجزاء الشمالية من النوبة أو صعيد مصر * وربما يرجع ذلك الى صعوبة الملاحية في منطقة (بطن الحجار) شمالي سكوت ، بالإضافة الى أن تجار الأقاليم السودانية مثل كردفان وإقليم الشايقيه وسنار كانوا لا يكلفونهم مشقة الانتقال إذ كانوا يأتون بقوافلهم للحصول على التمر في مقابل الذرة والذبدة والدروع المصنعة من جلود التماسيح والتي أولع النوبيون باستعمالها * ولم تقتصر تجارة المحس على التمر ، بل شملت كذلك الرقيق الذي كان يأتيها من دنقلة وبربر ومنطقة الشايقية (١) *

(ب) في دنقلة العجوز :

تحتل دنقلة العجوز موقعا جغرافيا ذا أثر فعال في النشاط التجاري ، وأتاح لها هذا الموقع الاشراف على طريق القوافل بين مصر وكردفان حين مرورها ببلد « الدبة » الواقعة في جنوبها ، بالإضافة الى مرور قوافل سنار وسندي وبربر بدنقلة عبر صحراء « بيوضة » في بعض

(١) نسيم مختار : المرجع السابق . ص ٢٨٨ .

الأوقات ، إذا ما تعرض الطريق الشرقى عبر الصحراء النوبية لخطر الرباطاب (١) * وعلى هذا فقد تمتعت دنقلة بميزة تجارية من جراء هذا الموقع الذى أتاح لها الحصول على مختلف أنواع السلع التى تحملها القوافل المارّة بها * وقد عبر أحد الدناقلة عن ذلك للرحالة كومب Combes عام ١٨٣٤ بقوله « انه لم يكن هناك فى نظرهم أجمل وأعظم من منظر الغوازل حين تغادر بلادهم وحين تعود إليها ، وأنهم كانوا آنذاك فى رخاء ونعيم » (٢) *

ولقد اشتهرت دنقلة بتصدير الخيل التى كانت تقوم بتربيتها ، وكذلك التبغ بالإضافة الى التمر الذى كانت تنتج بعضا منه والبعض الآخر يأتيها من المحس * ولدنقلة شهرة خاصة فى الرقيق الحرب على الخدمة فى المنازل وتقوم بتصديره الى تندى وبربر وكان يفضل على غيره من أنواع الرقيق سواء الواردة من سنار أو غرب السودان * كما كان لدنقلة أيضا شهرة واسعة وقديمة فى التجارة بشكل عام ولكنها بدأت تتدهور داخليا بسبب الغارات التى كان يشنها أهل الشايقية الأمر الذى أدى الى هجرة الكثيرين منهم فى السنوات التى سبقت الحكم المصرى الى داخل السودان ، فاستهروا بنشاطهم التجارى وأصبحوا على حد قول البعض يملون « رجال المال والتجارة فى السودان » (٣) * ويسببهم كروفورد Crawford — فى هذا المجال — باليهود فى عصرنا الحاضر (٤) * فتد انتنروا فى كل جزء من أجزاء السودان وخاصة غربه وجنوبه وكانت لهم البيوت التجارية الضخمة وشاركوا فى أنواع التجارة التى عمت هذه المناطق من تجارة عاج ورقيق ثم بعد الغناء

Crawford; The Fung Kingdom of Sennar. pp. 215-219 & Hoskins; (١)
Travels in Ethiopia. p. 61.

Combes; op. cit., Tome. II. p. 21. (٢)

Cadalvne; L'Egypte et al Nubie. Tome. II. p. 191. (٣)

Crawford, op. cit., p. 290. (٤)

الأخيرة عملوا بالحراسة والإرساد • وهكذا حرمت دنقلة العجوز من تنسأط أبنائها لتسعد به مدن أخرى • ويبدو أن سمة الهجرة عند الدناقلة من السمات المتأصلة في نفوسهم إذ أنها لم تتجه الى داخل السودان وحسب ولكنها اتجهت أيضا نحو مصر والقاهرة على وجه الخصوص حيث عملوا في المنازل •

(ج) في دنقلة الجديدة (الأوردى) :

سبق القول إن هذه المدينة قد ظهرت مع إمتداد الادارة المصرية الى السودان عام ١٨٢١ ، وإستطاعت أن تحتل مكانة تجارية عظيمة وساعدها على تبوء هذه المكانة التجارية إزدياد حركة نقل السلع بين كردفان ومصر عن طريق (الأبيض - الدبة) المار بها خاصة بعد أن قل استخدام طريق الأربعين بين دارفور وأسيوط • ولقد تم إنشاء العديد من المتاجر بها ، وزارها الرحالة هو سكتز عام ١٨٣٣ ووصف سوقها بأنه « .. أعظم من سوق أسوان ، وتعرض فيه مختلف أنواع الأقمشة والطرابيش والأحذية والأواني الزجاجية وبعض أنواع الأدوية وأدوات التدخين ، والبن والسكر والملح وأدوات الزينة وبعض أنواع التوابل » (١) •

وفضلا عن ذلك فقد زحرت دنقلة بأسواق الرقيق الذى كان يأتيها من كردفان والخرطوم وسنار ويعرض بكثرة • وكان الجلالة عند مرورهم بدنقلة في طريقهم الى القاهرة يتخلصون فيها من بعض الرقيق بالبيع حتى يمكنهم الانفاق عليهم وربما لدفع الرسوم الجمركية (٢) •

(د) في بربر :

كانت بربر بحكم موقعها الجغرافى ملتقى للقوافل الآتية من داخل

Hoskins; op. cit., pp. 183-184

(١)

(٢) انظر بفرير هولرود الوارد بتقرير بورنج بكتاب الدكتور محمد نؤاد نسكى ناء دولة مصر محمد على . ص ٥٥٦ .

السودان وخارجه فهي تستقبل — بحكم موقعها شمال شندى وسنار — القوافل الآتية من مصر عبر صحراء العتباى قبل أن تصل الى هذه الجهات ، وتمر بها قوافل شندى وسنار وهي في طريقها الى مصر . وبالإضافة الى ذلك فهي تنقح على أقصر طريق يصل النيل النوبى بساحل البحر الأحمر (طريق بربر — سواكن) عبر الصحراء الشرقية ، الذى ازدادت أهميته وكثر استخدامه عقب فتح الطريق البحرى بين سواكن والسويس (١) . وهكذا هيا لها هذا الموقع شهرة تجارية تشهد بها بعض الرحالة الذين زاروا بلادهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢) . وقد كثر تردد قوافل بربر على دنقلة بانتظام حاملة التمر والتبغ ، كما كانت قوافل سنار تحمل إليها الرقيق والأسره الخشبية وجلود النيران بالإضافة الى البن الذى يجلبه تجار سنار من الحبشة والذى كان يباع ببربر بسعر أقل من بن مخا . وقد وجدت جماعة من تجار سنار ودنقلة كان لها نشاطها التجارى الملحوظ في بربر . كذلك فقد كان لبربر صلات تجارية نشطة مع إقليم التاكة ، فقد تردد تجار هذا الاقليم على أسواق بربر لبيع الابل والمائشيه والحصول على الأقمشة القطنية (الدمور) والتوابل (٣) . بالإضافة الى الرقيق إذ كانت بربر ملتقى لتجار الرقيق القادمين من سنار والخرطوم عن طريق صحراء كرسكو (٤) .

(هـ) في شندى :

كانت لشندى شهرة واسعة في التجارة بين بلاد النوبة جميعا بما

Petherick; Egypt, the Sudan, p. 143. & Crawford op. cit., p. 63. (١)

English; A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar.(٢)

pp. 116-117. & Caillaud; op. cit., Tom. II. p. 118.

(٣) دفتر رقم ٣٨٤٦ صادر بحريرات مديرية بربر ودنقلة بتاريخ ٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٧ هـ .

(٤) تقرير هولرويد السابق . ص ٥٥٦ .

ففيها بربر ، وكانت هذه الشهرة تعود الى قبل ١٨٢١ ، لدرجة أنها عدت كأكبر مدينة تجارية على مستوى وسط السودان وشرقه بعد سنار . ويرجع الفضل الى موقعها الجغرافي الهام الواقع على أعظم طريقين للتجارة في افريقيا الشرقية : الأول بين كردفان ودارفور غربا وسواكن على البحر الأحمر ، ويقدر ما كان هذا الطريق معبرا للحجاج القادمين من أفريقيا الوسطى الى مكة كان ممرا تجاريا هاما . والطريق الثاني كان يصل ما بين سنار والحبشة جنوبا ومصر شمالا . ولعل هذا هو السبب في شهرة شندى بإسم « البوابة » (١) . ويشبهها البعض في هذه الناحية بفلسطين الواقعة عند ملتقى الطرق الفاصلة بين الأقطار العربية التي حولها (٢) .

وعلى هذا فقد كانت شندى بمثابة « مخزن كبير » للسلع والمنتجات الآتية من سنار ودنقلة وكردفان ودارفور والحبشة ومصر وبعض الأقطار الآسيوية مثل الصين والهند ومناطق شبه الجزيرة العربية ، وظل اعتمادها الرئيسي على هذه الحركة الدائبة للقوافل القادمة من تلك المناطق والبلدان . وكغيرها من بلاد النوبة لم تخل أسواقها من تجارة الرقيق تلك السلعة التي كانت رابحة في ذلك الحين خاصة إذا أدركنا خطورة موقعها التجاري الذي كان لابد أن تسلكه قوافل الرقيق سواء المتجهة الى الشرق أو الشمال .

التجارة الأجنبية في السودان :

تعتبر تسوية عام ١٨٤٠ / ١٨٤١ معلما رئيسيا لتدفق الأجانب الى السودان ، مثلها في ذلك مثل مصر ، حين فتحت هذه التسوية باب التدخل الأجنبي وتغلغله في مصر . ونحن لا ننفي بذلك قيام محمد علي بتشجيع

(١) آلان دورميد : النيل الأزرق . ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

Crawford, op. cit., pp. 58-61.

(٢)

(م ١٢ — التطور الاقتصادي الاجتماعي)

الأجانب — من قبل — في القدوم لمصر وسياحتهم في السودان ، وتوفير سبل الحماية والأمن لهم ، حين كانت — آنذاك — سلطته وسيادته الداخلية عليهم كاملتين حتى تاريخ هذه التسوية . أما في أعقابها فبدأ التسرب الأجنبي يزداد بشكل واضح ، ساعد على ذلك ظروف أوروبا الاقتصادية التي كانت تعيشها في ذلك الوقت . ونعني بها الانقلاب الصناعي في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث بدأت أوروبا تشعر تدريجيا بحاجتها الى مصادر جديدة للخام ، وأسواق خارجية أيضا لتصريف منتجاتها ذات الانتاج الكبير ، ووجدت في مصر كل بغيتها ، فمصر ذات مناخ معتدل وأرض خصبة ، والأهم من ذلك كله أن مصر أصبحت بعد هذه التسوية « ذات وضع شاذ » بالنسبة للدولة العثمانية ناهيك عن معاهدات « الامتيازات الأجنبية » التي بدأت تسرى بموجب هذه التسوية (١) .

وقد عانى السودان — تقريبا — نفس المعاناة التي عاشتها مصر والناجمة عن تلك التسوية . فقد صدرت فرمانات : ١٣ فبراير ١٨٤١ ، ٢٣ مايو ١٨٤١ ، أو يونية ١٨٤١ من لندن الدولة العثمانية الى محمد علي ، وهذا كله يعنى ضرورة سريان المعاهدات والقوانين التي أبرمتها أو تبرمها الدولة العثمانية مع الدول ، وسريان قوانينها التي سنتها أو تنسها في السودان ، ومنها الامتيازات الأجنبية . كذلك فقد شجع الأجانب على القدوم الى السودان — عدا تسوية ١٨٤١ — عاملان رئيسيان : إستتباب الأمن في ربوع السودان نظرا لقيام حكومة موطدة الأركان في الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض بفضل الرحلات التي قام بها سليم قبودان بين عامي ١٨٣٩ ، ١٨٤١ . وقد وفد الى السودان في بادئ الأمر الرحالة والمستكشفون ، سواء مع جيش اسماعيل كامل نجل محمد علي أو في أعقابهم تبعهم التجار الأوروبيون والليفانتيون لجمع

(١) محمد غزاد شكرى : مصر والسودان . ص ٢١ .

العاج والإتجار فيه أولا ثم لاقتناص الرقيق بعد أن أصبح العاج غير مربح .

ولم يكن التجار الذين جاسوا خلال السودان بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ من خيار القوم ، بل كانوا — كما وصفهم القنصل الإنجليزى فى مصر « كوهون (Col. Quhoun) — من المغامرين الذين اقتصر تجارتهم على الرقيق ، تحميمهم الإمتيازات الأجنبية ويرعاهم القناصل (١) .

ولقد جاز الأجانب بالشكرى — كما سنفضله فى حينه — من جراء سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على حيل بعض المنتجات السودانية ، وجرت محاولات كثيرة لأثنائه عن هذه السياسة . وتجدر الإشارة هنا الى أن التجار الفرنسيين — على ما يبدو — كانوا ، أحيانا ، يلاقون « معاملة خاصة » من جانب محمد على ، ففى إحدى المرات ضبط تاجر فرنسى يتاجر فى الصمغ العربى الذى يدخل ضمن السلع المحكرة ، فعفا عنه الباشا نظرا « لما بينه وبين الفرنسيين من الروابط الأكيدة » (٢) .

وقد وضع الباشا فى عهده نظاما لتجوال وسفر الأجانب سواء من التجار أو السائحين يتمثل فى ضرورة حصول الفرد منهم على « تذكرة » (تصريح) من القنصل التابع له ثم يقدمها الى (ديوان الأمور الأفرنجية) الذى يقوم بالتوقيع عليها وختمها (٣) .

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٢٢ .
 (٢) دفتر رقم ٣٩٠ صادر ديوان المعاونة ، ترجمة الارادة الذركية رقم ٢٤٨ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٦١ . ارادة الى ارتين بك . انظر ايضا : دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعاونة — وثيقة رقم ٢٦٥٩ بتاريخ غاية محرم ١٢٦٠ هـ . ارادة الى احمد باشا المذلكلى .
 (٣) دفتر رقم ٤٥٨ — نسخة تركى — ترجمة المكانية التركية رقم ٣٥٥ بتاريخ ٨ جمادى الاخرة سنة ١٢٦٥ هـ . من المعية السننية الى حكام السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وقد يكون من المفيد أن نشير الى الفروق الهامة بين تغلغل النفوذ الأجنبي والقنصلى فى السودان وبين مثيله فى مصر ، وهى : أولا : كثرة ورود الأجانب الى السودان بالمقارنة مع مصر ؛ فحكومة عباس الأول لم تول الأجانب اهتماما كبيرا لذا فإننا نجد عزوفا بينا عن مجيئهم الى مصر فى عهده ، ولم يبدأ مجيئهم بشكل واضح إلا منذ أواسط عام ١٨٥٤ • ثانيا : ان النفوذ الأجنبي والقنصلى فى مصر — الذى بدأ بين عامى ١٨٥٤ . ١٨٦٣ واستمر بعدها — قد نتج عنه تقييد أو تقلص فى حقوق السيادة الداخلية لمصر ، وإرهاق للخزانة من جراء التعويضات الجسيمة والتمهيد للأزمة المالية • ولكن الوضع فى السودان كان أكثر خطورة • ذلك أن النفوذ القنصلى ومقره الخرطوم قد اتخذ لنفسه اسلوبا آخر غير المطالبة بالتعويضات المالية تمثل فى مؤازرة تجارة الرقيق حين تقلصت تجارة العاج (١) •

ومن العجيب حقا ، أن يتشهد عهد عباس الأول إزوار الأجانب عن مصر ، بينما يشهد نفس العهد فى السودان تدفقا ملحوظا ونشاطا واسعا لهم • ففى عهده نمت تجارتهم وأنشئت قنصلياتهم ، وبدأ رهبانهم يبسرون بالمسيحية حتى إشتد ضغطهم عليه (٢) • ففى ١٢ مارس عام ١٨٥٠ وردت رسالة من الخارجية الانجليزية الى قنصلية الاسكندرية بضرورة وجود وكيل قنصلى فى الخرطوم لحماية التجار الانجليز الذين بدأوا فى ممارسة تجارة الصمغ وسن الفيل وغيرهما من منتجات السودان ، كما وافقت أيضا على اقتراح بتعيين « جون بتريك » لهذا المنصب (٣) •

(١) محمد فؤاد سكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ •

(٢) مخطوطة ١٩ بحر برا — ملف رقم ١٦ — وثيقة رقم ١٠٢ ، مرفق حرب (د) سنة ١١٦٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) F. O. 78-841 March 12, 1850. M - C. A. Murray, 'Alexandria' Consular. No. 4.

وحول مهام القنصل الانجليزى أنظر الوثيقة التالية :

F. O. 78-841 Inclose in M - C. A. Murray. May 6, 1850 No. 20

وفي عهد الحكماء عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١) لاقى التجار الأجانب مشقة في تجارتهم حيث وجه اليهم هذا الحكماء تهمة سراء الرقيق وحمل الأسلحة ، كما اقترح أن تقوم الحكومة بإحتكار التجاره بدلاً منهم . وأمام ذلك كله قدم القناصل في الخرطوم شكوى لسيديته اللهيجه ضد عبد اللطيف باشا مطالبين بحريه التجارة ، واتهموه بالإساءة الى رهبان الكاثوليك في الخرطوم ، ثم طالبوا بإقصائه عن الحكم . وبالفعل نجحوا في مسعاهم وإستدعى عباس هذا الرجل وتم تعيين رستم باشا بدلاً منه (١) .

ويسجل عهد الخديوى اسماعيل ملحوظا للأجانب في السودان من تجار وسياح وموظفين تبوأوا أعلى مناصب الادارة في البلاد . ويبدو أن الأسباب التي دعت الى استخدامهم ترجع الى أن مصر كانت -- وهي لا تزال في طور إنتشاء الدولة الحديثة -- تفتقر الى الخبرات المتوفرة لدى هؤلاء الأوربيين . كما أن استخدام موظفين أوربيين في ذلك الأمر يمكن الخديوى من اكتساب عطف الدول الأوربية أو موافقتها على مشاريعه التوسعية في أفريقيا . وأخيرا فإن اسماعيل حاول أن يفتح -- من خلال ذلك -- هذه الدول ولا سيما إنجائترا أن سياسته في أفريقيا يمكن أن تخدم الحضارة الأوربية التي كان فريق من الإنسانيين ينادون بها آنذاك ، بل إنه تأكيداً على حسن نواياه دخل مع بريطانيا في معاهدة حادسة بالغاء تجارة الرقيق في السودان والمناطق المجاورة له ، حتى يجد اعترافاً منها بالدور الحضارى الذى تقوم به مصر في أفريقيا (٢) .

وقد بلغ من سيطرة الأجانب في السودان ان كان حكام السودان يخضعون أحياناً -- لأراء بعضهم بناء على نصيحة المسؤولين بمصر ، كما

(١) معنى شبكية : السودان عبر القرون . ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٢) جمال زكريا تاجم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٢٥١ .

تنسير احدى الرسائل التى بعثت الى موسى باتسا عام ١٨٦٣ (١) • بل بلغ الحد بهم أن كانت الأوامر تصدر فى صراحة تامة الى الحكمداريين بمؤازرة الأجانب فى السودان • نرى ذلك واضحا من خلال النصائح التى اعطيت لجعفر باشا حكمدار السودان خلال تسلمه لوظيفته عام ١٨٦٥ ، حيث قيل له « إنكم ستجتهدون فى تقرير رفاهية العباد وتأسيس عمران البلاد وتعاملون الأجانب وتعاملونهم بالحسنى » (٢) وبلغت سطوة الأجانب قمتها من خلال تعيين غوردون باشا حكمدارا عاما للسودان فى سنة ١٨٧٧ بعد أن كان حاكما لمديرية خط الاستواء •

وفى المجال التجارى راح التجار الأجانب ، والأوروبيون منهم بخاصة ، يجوسون ديار السودان من شماله الى جنوبه ومن غربه الى شرقه • وشملت تجارتهم جميع منتجات السودان المشار إليها • وازداد نشاطهم بإنشاء الوكالات التجارية • ففى احدى وثائق الخارجية الأمريكية بتاريخ ٣١ يولية عام ١٨٧٦ وصف للوكالات الأمريكية المنتشرة فى سائر مدن مصر الكبرى والخرطوم (٣) كذلك فقد طلبت اليونان أن يكون لها وكيل قنصلى بسواكن نظرا لوجود رعايا لها بالسودان (٤) • كما رأت إنجلترا أيضا أن تكون لها قنصلية على ساحل البحر الأحمر

(١) دفتر رقم ٥٣٧ — معية سنوية — ونبته رقم ٩ بتاريخ ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٨٠ هـ • الى حكمدار السودان •

(٢) دفتر رقم ٥٣٧ — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ ص ٧ بتاريخ ٢٦ صفر سنة ١٢٨٢ هـ • ارادة سنبة الى جعفر هـظهر باشا حكمدار عموم السودان دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(٣) الارشيف الأمريكى بدار الوثائق القومية بالقاهرة — محفوظ رقم ١٢ •

Desp. No. 36. Agency and Consulate General of the U. S. in Egypt. Cairo, July 31, 1876. to Hon. Hamilton Fish. Secy. of State, Washington. أنظر أيضا : نفس الارشيف — محفوظة رقم ٦ ، مكتبة رقم ٩٠ ، محفوظة رقم ١٣ مكتبة رقم ١١٧ •

(٤) دفتر (بدون رقم) معية وثيقة رقم ٩٥٧ بتاريخ ٢٢ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ • الى ناظر الجهادية •

المواجه للسودان ، وفضلت أن تختار مصوع مكانا لها ، نظرا للتطور
الحاصل للعلاقات التجارية مع الحبشة ، بالإضافة الى قربها من الإتصال
بـ (١) •

وفي يولييه عام ١٨٦٤ بعث وكيل القنصل العام الفرنسي بالاسكندرية
رسالة الى الخارجية الفرنسية ، وهي رساله تلقاها بدوره من الوكيل
الفرنسي بالخرطوم تتعلق بإحتجاج مقدم من مواطن فرنسي يدعى
(Bisson) (بيسون) ضد الحكماء موسى حمدي الذي قام بطرده من أرض
كان قد استراها — كما تقول الوثيقة — بمبلغ ٢٠٠٠٠ فرنك • ويفهم
من هذه الوثيقة أيضا أن هذا المواطن الفرنسي كان على رأس جماعة
من الناس حطت رحالها في إحدى الجهات بالسودان (لم تشر إليها
الوثيقة ، ونرجح أنها في شرقي السودان) واستطاعت أن تستعمرها بعد
أن تلقت معونة من رجال الادارة في السودان ، إلا أنه فجأة — كما
تذكر الوثيقة — تغير الحال بسبب ورود معلومات من باريس تفيد بأن
هذا المواطن الفرنسي لم يكن مكلفا بأي مهمة من قبل الامبراطور • (٢) •

ثم بدأت ايطاليا تزحف نحو ساحل البحر الأحمر وخاصة نحو
مصوع ، بشكل أثار الخوف لدى المسؤولين بمصر حين توجهه الايطالي
(سوبكي) الى مصوع عام ١٨٦٥ بصحبة عائلته وأتباعه ومعداته بغرض
الاقامة في تلك الجهات • وتصف إحدى الوثائق هذا الرجل بالفساد
خاصة عندما كان يعمل بالدائرة السنية في مصر (٣) •

F. O. 78-2632, Cairo, Map, 12, 1877. G Vivian to the Earl of (١)
Derby.

(٢) الأرشيف الفرنسي — محظية رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية والقلمة
رسالة من :

M. Drouyn De L Huys, Ministre des Affairss Etrangères. Alexandrie.
Le 24 Juillet. 1864, p. 257.

(٣) دفتر رقم ٥٦٠ — معية تركي — ترجمة المكاتب التركية (غير رسمية
ودون نمرة) ص ١٠٦ بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٨٤ هـ . من المعية الى
محافظ مصوع .

هكذا بدأ هذا النشاط المحموم لهؤلاء المعامرين الأوروبيين شراء
أكانوا تجارا أو رحالة أو غيرهم ، والذي كان يواكب الموجة الاستعمارية
التي بدأت - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - تحتاح القارة
الآفريقية • لقد مهد أولئك التجار والمغامرون الطريق لدولهم
الاستعمارية عن طريق شراء الأراضي على ساحل البحر الأحمر الغربى •
ففى أوائل عام ١٨٦٥ بدأت إحدى الشركات الفرنسية بالإشتراك مع
أحد التجار الفرنسيين ويدعى « بستره » شراء قطعة أرض بجهة مصوع
من أحد متساخ العربان • ويبدو أن الانجليز كانوا هم أيضا يفكرون
فى السيطرة على تلك الجهة مما أدى الى مجىء فرقاطة انجليزية « الى
تلك الجهات • وقد انتهت تلك الحادثة بشراء هذه الأرض من ذلك
التاجر الفرنسى وقفاً للنزاع والتسابق (١) • وفى عام ١٨٧٠ أتت باخرة
إيطالية الى عصب - تلك المنطقة الهامة التى تقع على رأس الحدود
قرب باب المندب - وأقامت بها منزلين خشبيين ، ثم راحت تشتري أراضي
تلك الجهة من المتساخ والعربان بمبلغ سبعمائة ريال ، ولم تلتفت هذه
الجماعة الإيطالية الى أن هذه الجهات تابعة لمصر (٢) • ثم عادت فرنسا
من جديد لتتشارك فى هذه اللعبة ••• لعبة شراء الأراضي حيث راح
أحد أتباعها ويدعى « قسطندى » بمنطقة مصوع يشتري قطعة أرض
من أحد الأفراد • وللأسف الشديد وافق المسئولون - فى هذه المرة -
على بيعها واستخرجت لها حجج شرعية ، بل وزيادة فى توسيع هذه
المسألة ، طلب المسئولون ، ألا يمنع الأجانب فى تلك الجهات من شراء
الأرض طالما « ••• كانت خالية من المحذور ••• » وأنه « ••• لا بأس
من أن تطبق بمصوع وسواكن الأصول المتبعة فى مصر واسكندرية

(١) دفتر رقم ٢٢ عابدين - ترجمة الوثيقة (بدون رقم) ص ١٠٧
بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٨٢ هـ • من أفندينا الى معتمده فى الاستانة
دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) صورة المكتبة الواردة من محافظة سواحل البحر الأحمر الى
المعية السنية بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ (سبتمبر ١٨٧٠) دار الوثائق
القومية بالقلعة .

والبنادر الأخرى بشأن بيع مثل هذه الأملاك للأجانب ٠٠٠ » (١) هكذا بدأ هؤلاء التجار الأجانب تساندهم دولهم في السيطرة على أملاك الخديوية المصرية على سواحل البحر الأحمر الغربى غير قائمين بالانتجار فى السلع والمنتجات • ومن المؤسف حقا أن حكومة الخديوى استسلمت لمشيئة هؤلاء المخامرين ومكنتهم « رسميا » من السيطرة ، وكان هذا نتيجة طبيعية للإنفتاح الأجنبى المحموم على السودان وسواحله الشرقية الذى بدأ على شكل تجارة فتسلك وظيفى ثم إستيلاء على الأراضى فاحتلال دائم وأخيرا تقلص للنفوذ المصرى •

التجارة مع مصر :

طرقها : سلكت التجارة بين مصر والسودان طرقا عدة يمكننا أن نقسمها الى ما يلى : أولا : النوبة السفلى والعليا : فالنوبة السفلى بحكم موقعها كانت أقرب الى صعيد مصر وبمشابة حلقة وصل بين البلدين • وكانت أسواق إسنا ودراو وأسوان أماكن لتصريف سلع ومنتجات النوبة السفلى كالتمر والتب والسنامكى فى مقابل الذرة والمنسوجات القطنية • أما النوبة العليا أو الجنوبية فكانت مراكزها التجارية مثل بربر وشندي تتصل بمراكز التجارة فى صعيد مصر عن طريق القوافل الشرقى الذى يخرق الصحراء الشرقية ثم ينقسم الى ذريعتين متوازيين : الأول : يخرق صحراء العتمور (طريق أبو حمد - كرسكو) والتالى الى الشرق قليلا ويخرق صحراء العتبى (طريق بربر - دراو) • فعلى سبيل المثال يمكن لقافلة شندي المتجهة الى مصر أن تمر ببربر ثم عليها أن تختار السير إما فى محازاة النيل حتى (أبو حمد) ، ومنها تخرق صحراء العتمور الى كرسكو ثم دراو الواقعة شمالي أسوان ، أو أن تسير بعد أن تغادر بربر الى الشرق

(١) سجل رقم ٥٨٣ ص ٩٨ نبرة ٢٤ - ترجمة الادارة الصادرة الى ناظر الداخلية بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٨ هـ (ابريل ١٨٧١) (محافظ احاث السودان مخفظة رقم ١) دار الوثائق القومية بالقاهرة .

قليلاً مخترقه صحراء العتباى شمالاً حتى تصل الى دراو • وكان التجار فى الغالب يفضلون السير فى طريق العتباى تاركين طريق العتمور رغم أن الأخير قصير وذلك لأن القوافل كانت تعاني فى طريق العتمور من شح المياه وقلة العشب الضرورية للابل ، ناهيك عن تعرض القوافل فى هذا الطريق لأعمال السلب ودفع المكوس • وتقطع القافلة طريق العتباى من دراو الى بربر فى مدة من سسته عشر الى سبعة عشر يوماً ، ومن بربر الى دراو فى مدة اثنى عشر يوماً ، وذلك لأن القافلة عقب مئادرتها لبربر تكون مزودة بعدد وافر من الابل فيمكنها بذلك اراحة الابل المحملة ، بالتناوب ، بالإضافة الى جديه رجالها فى السير ليلاً بحيث إنهم كانوا لا ينامون إلا قليلاً ، وأخيراً فإن نفقات القافلة المتجهة الى مصر تقل لتوفر الابل (١) • ويقال أن راكب الهجين السريع من رجال البريد فى إمكانه أن يقطع المسافة ما بين بربر ودراو فى ثمانية أيام (٢) • ولم يأل المسؤولون ، سواء فى مصر أو السودان ، جهداً فى سبيل تاديب هذه الطرق خاصة طريق العتمور ، الذى كانت تكتنفه المخاطر • ففى عهد محمد على لوحظ كثرة تعرض التجار والمسافرين لأعمال السلب والنهب على هذا الطريق فعهد بحراسته الى الشيخ حسين خليفة العبادى مقابل « عشر » ما يمر فيه من بضائع و سلع (٣) •

وفى عهد عباس الأول ظهرت الى السطح مشكلة هذا الطريق من جديد إذ بدأ عربان البادية بنسب اعتداءات على المسافرين والتجار لدرجة أن مدير بربر طلب بعدم إرسال « ••• أدوات مبرى ولا تجارى بالعتمور ما لم يرسل خبير ••• » (٤) •

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣١٤ .

(٢) Douin; Histoire du Soudan Egyptien - Tome. I. p. 61.

(٣) دفتر رقم ٣٧٨ معية بركى : وثيقة رقم ٥٩٣ بتاريخ ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . انظر أيضاً : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٤) دفتر رقم ٤٩ صادر معية عربى — صورة المكتبة العربية نمره ٢٩ ص ٢٨ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٦٧ هـ . من المعية الى مدير عموم قتلى .

ويبدو أن مشكلة هذا الطريق قد استمرت الى عهد الخديوى اسماعيل حيث تنسیر الوثائق الى وقوع حوادث عبر الطريق من جانب بعض الأتسقياء من العربان الذين يعترضون طرق التجارة والتجار ، ووصل بهم الأمر الى قتل بعض العساكر أيضا (١) .

وفي رسالة من نائب القنصل الفرنسى بالخرطوم بتاريخ ١٨ أكتوبر عام ١٨٦٤ نفراً نكوى مريرة من سوء طريق العتمور (أبو حمد — كرسكو) وطريق العتباى (بربر — دراو) ، حيث كانا دائما « مزدحمين باحتياجات الحكومة من السلاح والمؤن الحربية الخاصة بالجيش ، وكأن هذين الطريقين مسخران لخدمة الجيش وحسب » . ويضيف قائلاً : ان كل ذلك يترك قلباً من الأمل للتجارة التى تعاني كثيراً من المواصلات والخسائر الجسيمة الناجمة عن ذلك . فهناك على سبيل المثال بضائع فرنسية مهمة ومعطلة بكورسكو نتيجة الأزمة المستحكمة لمدة شهور مسبب قلة الابل ، ، ناهيك عما يلحقه التجار من تسح فى الاحتياجات الضرورية ووهج الشمس المحرقة والجبال الجرانيتية المطبقة عليهم من كل جانب (٢) .

وراح نائب القنصل الفرنسى فى السودان يردد فى رسائله تلك المخاطر التى لخصها فى عبارة واحدة قائلاً « ... وللتجار اليوم فى السودان عدوان : الحكومة بما تقوم به من تفتيش مستمر للتجار دونما معايير ثابتة ، والعدو الآخر : يتمثل فى جماعة الأعراب التى تغير على

(١) دفتر رقم ٥٥٨ — ترجمة الارادة الصادره الى حكامدار السودان بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٣ ص ١٦٢ ارادة رقم ٢٣ . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) الأرشيف الفرنسى — محفظة رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة . رساله من :

M. C. Thibaut, Vice-consul de France à Khartoum à M. TASTU, Agent et consul General de France a Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre, 1864. pp. 404-409.

القوافل ... « (١) » •

ولم تتقف الحكومة إزاء هذه المخاطر مكتوفة الأيدي بل راحت تبذل الكير لراحته التجار والمسافرين • ففي يولية عام ١٨٦٥ طلب من حاكم السودان تأمين هذه الطرق ، والقيام بإعدام الأشخاص الذين تم القبض عليهم بنهمه إرتكاب حوادث السلب ، وإرسال البعض الآخر الى جهات جنوب السودان لإستخدامهم في الأعمال الشاقة ، كما طلب الى الحاكم أيضا أن يطبق هذه العقوبات سائلة الذكر على من يرتكب مثل هذه الأفعال مستقبلا (٢) • كما بعب المسئولون بمصر رسالة الى الشيخ حسين خليفة متعدد طريق العتوم يحتونه على أداء مهمته في يقظة قائدين له « ... إن من أهم الأمور المرغوبة اليينا وأعظم المواد الملتزمة لدينا التي لم نزل نلجأ على رعايتها والحض على مزيد ملاحظتها هو تأمين الطرق والمعابر وتسهيل السبل لكل وارد وصادر وصيانة كل تاجر ومساهم حتى لا يضيع لأحد عقل بغير ولا يصاب أحد في نفسه ولا في ماله بقبل ولا كسر ... » (٣) وبعد ذلك يوجزون اليه اللوم الشديد على ذلك الإهمال الذي أدى الى وقوع حوادث النهب والقتل محذرين ومندرين من وقوع مثل ذلك في المستقبل (٤) •

والى جانب تلك الأعمال حرص المسئولون على حفر الكثير من الآبار على طول تلك الطرق رعايه وراحة للتجار والمسافرين (٥) • فوجود

(١) الأرشيف الفرنسي ، محفظة رقم ٥٩ . ايظر :

Annexe No 1. à la lettre de M; OUTREY, du 19 Novembre, 1865. M. Munzinger General du vice - Consul general de France a Alexandrie. Cassala (Taka) 12 aout 1865. p. 1169.

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر رقم ١٩٢١ أوامر كرام ص ١٨٩ — صورة الأمر الكريم رقم ٢٣ بتاريخ ٩ ربيع ثاني سنة ١٢٨٣ أمر كريم الى الشيخ حسين خليفة بمسند طريق العتوم . دار الوثائق بالقلعة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

(٥) دفتر رقم ١٩ عابدين — وارد التليفغرافات — صور التليفغراف العربى — رقم ٥٩١ بتاريخ ٣ ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ هـ . من مدير دنقلة وبربر الى المحية السنينة — ورد في تاريخ ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

إلياه عبر تلك الصحراوات ، لا شك إنه يساعد على استمرار سير القوافل التجارية •

ثانياً : طريق منطقته حوض النيلين الأزرق والأبيض وروافدهما وكردفان الترقية ، حيث تتدفق تجارة هذا الاقليم عبر هذين النيلين نحو الخرطوم ومنها الى بربر ثم شمالا الى مصر عبر صحراء العتباى أو طريق العتوم السابق ذكرهما (١) •

ثالثاً : الطريق الغربى أو ما عرف باسم درب الأربعين : ويبدأ هذا الطريق من كوى دارفور حتى أسيوط • ويبدو أن استخدام هذا الطريق في عهد محمد على لم يكن بالصورة السابقة ، وذلك بسبب سوء العلاقات التى كانت بين سلطان دارفور ومحمد على وإن كان الأخير قد بذل محاولات مضمية لتبديد المسحات التى تكونت فى سماء العلاقات بينهما • وليس معنى ذلك أن هذا الطريق قد إنتهى استخدامه ، بل إستمرت عليه التجارة بين مصر ودارفور فى العقود التالية لمحمد على ، خصوصا فى عهد اسماعيل حين أصبحت دارفور تابعة للإدارة المصرية فى السودان • غفى عام ١٢٨١ هـ - (١٨٦٤ م) يحدثنا صاحب الخط التوفيقية عن ورود احدى القوافل الضخمة من دارفور والمحملة بالبضائع المتفرقة مثل سن الفيل وريش النعام والخرتيت والتمر هدى والنطرون وجراب الجاد وغير ذلك (٢) •

ولم يكن طريق الأربعين يقتصر على حمل بضائع دارفور وحسب ،

(١) مكي شبكية : السودان فى قرن • ص ١٣٦ • انظر أيضا : شوقى الجمل تاريخ السودان وادى النيل ، ج ٢ • ص ١٣١ ، ١٣٢ •
(٢) على مبارك : الخط التوفيقية الجديدة • ج ١٧ • ص ٣١ - ٣٣ •
وحول هذا الطريق وأهميته فى التجارة • انظر : التونسى : المصدر السابق • ص ٤١ - ٥٥ ، السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا • ص ٥ ، مكي شبكية : المرجع السابق ص ١٣٦ ، الجمل ، المرجع السابق ص ١٣١ •

بل كان أيضا يقوم بحمل بضائع كردفان والمناطق المجاورة لدارفور مثل واداي وباجرمي وبورنو *

رابعاً : طريق سواكن - السوييس : وهذا الطريق برزت أهميته عقب الحاق ميناءى سواكن ومصوع للإدارة المصرية ، ولسوف تزداد أهمية هذا الطريق كمعبر للتجارة الخارجية السودانية بمرور الوقت كما سيوضحه فيما بعد حين نتعرض لطرق المواصلات البحرية بين مصر والسودان * وعلى الرغم من سهولة وقصر هذا الطريق ، فإن التجار قد عزفوا عن إستخدامه بسبب تحصيل جمارك عالية على البضائع الصادرة والواردة من والى سواكن والبالغة ثمانية بالمائة بالإضافة الى إرتفاع نفقات وابورات النقل بين سواكن والسوييس ، لذلك فإننا نجد حكمدار السودان يقترح فى عام ١٨٧٦ - حلا لهذه المشكلة - تخفيض الجمارك فى سواكن الى واحد بالمائة ، كما كان الجارى بالاسكندرية ، وإحتسا بأجرة القنطار الواحد الذى يتم نقله على الوابورات بواقع ثمانية قروش فقط (١) *

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن هناك طرقا عدة إستخدمت لنقل السلع والبضائع بين مصر والسودان منها ما كان برياً ومنها ما كان بحرياً * ولعل من الملفت للنظر حقاً أن نهر النيل لم يكن يلعب دوراً هاماً فى نقل السلع بين البلدين نظراً لما تكتنفه من « جنسادل » كانت تعوق مرور السفن فيه ولذلك فضلت عنه الطرق الأخرى *

السلع المحتكرة :

قبل أن نخوض فى أنواع السلع المصدرة أو المستوردة بين مصر والسودان نود أن نشير الى مسألة هامة شغلت أذهان المسئولين والتجار فى مصر والسودان بل وأوروبا طوال عهد محمد على ، وهى مسألة

(١) دئير رقم ١٧ (معية عربى) قيد وارد الانادات من جهات الأقاليم والمحافظات والسائرة ص ٩٥ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

إحتكار التجارة في بعض المنتجات السودانية كالصمغ وسن الفيل والسنامكى • فقد دارت مساجلات ومحادثات عنيفة وحادة بين محمد على من ناحية والتجار الأوربيين من ناحية أخرى وراح كل طرف يدلى بدلوه في هذه المسألة • ولنبدأ القضية من أولها • فمنذ عام ١٨٢١ تمت لمحمد على السيطرة على سنار وبدأ يضع يده على الصمغ وسن الفيل والسنامكى ويحرم التجار الأجانب من هذه المنتجات • ويبدو أن هذا الأمر لم يرق للقنصل الانجليزي العام بالاسكندرية (تشارلس مري) ولم يستطع أن يكظم غيظه من جراء هذا الاحكام فراح يتهم الباشا « بالغباء » لأن محمد على — في رأى القنصل — قد حرم مصر من تجارة سنار التي بحثت لها عن منافذ أخرى (١) وفي ظننا أن القنصل البريطاني لم يكن موفقا الى حد كبير في تحليله هذا إن كان في نيته الخوف على « حرمان » مصر من مثل هذا المورد ، وربما يكون موفقا فقط إذا كان يعنى حرمان التجارة الانجليزية • فلقد كان الباشا يشتري هذه السلع برضاء الأهالى ولم تكن تجارة السودان قد أخذت منافذ أخرى ، اللهم إلا بعض حالات قليلة كان يتم تهريبها بواسطة السفن الانجليزية في البحر الأحمر •

ولم تكن شكوى التجار الأجانب في سنار فقط بل إمتدت الى كردفان حيث نجد الرحاله « بالم » يشكو بمرارة من أساليب إحتكار الصمغ التي لم تكن تقتصر على شراء الحكومة له ، بل كانت تمنع التجار من بيعه في السوق ، ناهيك عن الضرائب الباهظة التي كانت تؤخذ على البضائع المصدرة الى مصر ، الأمر الذي كان يضطر معه كل فرد أن يبيع للحكومة (٢) •

وفي سواكن ومصوع نسمع صرخات التجار الانجليز من جراء

F. O. 78-708. Alexandria 15th. July. Ch. A. Murray to Lord (١)
Cowley No. 14.

(٢) نسيم مقار : الرحالة بالم • ص ٤٤ •

الإحتكار * فقيـد بعث أحد المسئولين الانجليز. في مصر عام ١٨٤٧ برسالة — نيابة عن أحد التجار الخاضعين لرعاية حكومة بريطانيا والمقيم بجدة وله بعض المندوبين في كل من سواكن ومصوع يعملون بتجارة الصمغ — يقول فيها : ان مندوبيه يتعرضون لعراقيل كثيرة منذ تم الحاق هذين المينائين الى الادارة المصرية بالسودان * ويضيف هذا التاجر أن الصمغ المصدر عبر المينائين يبتاعه مندوبوه من الحبشة وليس من السودان ، ومع ذلك فإن الباشا يريد فرض الإحتكار عليه (١) *

ويبدو أن محمد على لم يكن يتشدد — أحيانا — في مسألة الإحتكار أمام بعض التجار الفرنسيين حيث نرى أحدهم يعمل في تجارة الصمغ بكردفان على عهد الباشا على نطاق واسع ، ولكن بعد أن لاحظ محمد على إزدياد وتضخم تجارة هذا الرجل والتي بلغت في العام الواحد من ٤٥٠ — ٥٠٠ جمل من الصمغ أظهر قلقه وغيـرته (٢) *

ولجأ التجار الأجانب ، والانجليز منهم — على وجه الخصوص — الى وسيلة ناجعة لإلغاء الإحتكار التجارى فراحوا يحتكمون الى معاهدة عام ١٨٣٨ (بلطه ليـمان) والى المادة الثانية منها والتي تنص على إنه « ... مسموح للرعايا البريطانيين أو وكلائهم أن يشتروا من سائر الأماكن الخاضعة لأملاك الدولة العثمانية (Ottoman Dominion) سواء أكان ذلك بغرض التجارة الداخلية أو الخارجية » (٣) * وراح القنصل بارنت Barnett يردد هذه المقولة ، ويطلب أن ينصاع الباشا لقوة هذه المسادة ويوافق على حرية التجارة في سنار وسائر جهات السودان التي هي — طبقا لهذه المادة — جزء من أملاك الدولة العثمانية (٤) *

F. O. 78-708. Cairo 2nd. July, 1847. Thomas Mirialacch' to (١)
Alfréd Sloalne.

Deherain; Le Soudan Egyptien. p. 117. (٢)

F. O. 78-502, September 30, 1842, to L. t Col. Barnette. (٣)

F. O. 78-582, No. 25, Cairo, November, 16th 1844. C. J. Barnette (٤)
to Earl of Aberdeen.

وفي أغسطس ١٨٤٧ يخاطب « مري » بالمرستون قائلاً « .. إننى سوف أكتب الى ارتين بك — الذى خلف بوغوص عام ١٨٤٤ — طالبا منه أن يخبر نائب السلطان إننى لا أستطيع قبول ترعية الإدعاء الذى حال دون تنفيذ شروط المعاهدة التجارية بالقوة ... » ، ثم يضيف بعد أن تزداد حدة مخاطبته « ... » ولسوف أعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن الأضرار التى تلحق بأى تاجر بريطانى من جراء سياسة الإحتكار لمنتجات السودان (١) . وتفيض وثائق الخارجية الانجليزية بالمراسلات المتبادلة بينها وبين قنصلها بالاسكندرية فى وصف الأحوال السيئة للتجارة البريطانية فى السودان والناجمه عن الإحتكار التجارى . وتذكر احدى هذه الوثائق ان محمد على إمعانا منه فى إحكام سيطرته على مقدرات التجارة السودانية طلب من الباب العالى ضم ثغرى سواكن ومصروع الى السودان . وقد عد هذا الطاب فى نظر تشارلس « ... عملا غير مشروع ، وان محمد على بهذا قد أدى الى إغلاق المنافذ أمام المنتجات السنارية ، وجعل التجار الأوربيين فى جدة والمناطق الأخرى المرتبطتين بتجارة الصمغ تحت رحمته .. » (٢) وهكذا بدأ التجار الأوربيون يجأرون بالشكوى من جراء هذا العمل ، فتقدم نفر منهم الى القنصل النمساوى والى القنصل الانجليزى لشرح هذه المسألة مما دعا قنصل النمسا الى مقابلة الباشا نفسه فى هذا الصدد ، ولكن محمد على لم يعره أذانا صاغية وتمسك بسياسته الاحتكارية (٣) .

هذا فيما يتعلق بالجانب الأوربى ، ولكن فى الجانب الآخر ألا يحق لنا أن نتساءل عن مبررات محمد على فى فرض سياسة الاحتكار على بعض المنتجات السودانية . والى أى مدى كان محقا فيها ؟ وما درجة

F. O. 78-708, 10th. August, 1887. Ch. A. Murray to Viscount (١)
Palmerston No. 99.

F. O. 78-708, Alexandria, 15th July, 1847. Ch. A. Murray (٢)
to Lord Cowley. No. 14.

F. O. 78-708. Ibid. (٣)

إقتناع الباشا نفسه بها ؟ ففى رساله من محمد على الى القنصل الانجليزى العام بالاسكندرية راح يشرح مبررات سياسته قائلا : « ... إئننى أعلم جيدا إن الغاء نظام الاحتكار والأخذ بنظام التجارة الحرة يوجبان رخاء كل أمة ... وإئننى كنت أتوق الى تحقيق هذه الأمنيه غير أنها تعد أمرا حادثا فى هذا البلد كما يعلمه الجميع فلا يمكن حصولها دفعة واحدة ، وإنما يجب أن تراعى سنة التدريج مع العناية بحاله الأهلىين وتوفير الأمن لهم كما يفعل فى البلاد الأخرى المتمدنه ، وكنت قلت : لا يشددوا على وليتركونى وشأى بعض مدة فإننى أدقق لحل مسألة التجارة الحرة حلا يرضاه الجميع وإئننى مازلت على كلامى هذا ، فأعمل ليل نهار لتحقيقه ، وصديقنا (يقصد القنصل العام الانجليزى) وان كان يقدر مزايا ذلك ، غير أن بعضا من التجار الواقفين على سير الأمور يجب أن يقرروا هكذا ... » (١) . ولا يحتاج منا هذا الرأى الى جدل كثير للاقتناع بوجهة نظر الرجل ، فهو لا ينفى مزايا حرية التجارة ، والإفتتاح على العالم ، ولكن هذه المسألة قد تكون ضارة بالنسبة لبلد كالسودان كان يعيش منذ عهد قريب على إقتصاد قبلى بسيط وأمامه مراحل طويلة حتى يتطور ويقف على قدميه ، فلا بد لهذا الإقتصاد من مرحلة حضانه ورعاية مباشرة من جانب الباشا فى بادئ الأمر حتى يستوى عوده ويبلغ أشده . ولم يكن الباشا - فى تقديرنا - يتمسك بهذه السياسة عن عنت وجهل ويصر على رأيه دون الاستماع الى آراء غيره حول هذه السياسة ، بدليل أنه وافق - دون تردد عند زيارته لاسودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) - على الغاء احتكار النيلة حين شكها اليه فلاحو السودان أمرهم فى هذا الصدد (٢) . كذلك فقد كان محمد على يبرر حق إحتكاره للصمغ والسنامكى بأن هذين المحصولين ينبئان من

(١) دفتر رقم ٩ عابدين - ترجمة الارادة رقم ٣٤٤ بتاريخ شوال سنة ١٢٥٧ هـ من الجناح العالى الى البك الترجمان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) انظر فصل الزراعة .

• تلقاء نفسيهما ، وبذلك يصبحان من حق الحكومة (١) •

ونلمح من بين سطور احدى الرسائل — المرسلة من القنصل العام الانجليزى بالاسكندرية الى الخارجية الانجليزية فى ديسمبر عام ١٨٤٧ — اتهامات الى فرنسا بأنها كانت من وراء تمسك الباشا بهذه السياسة الاحتكارية (٢) •

ويبدو أن هذا الاتهام كان يستند الى التأييد الذى كان يلاقيه الباشا فى سياسته الخارجية والداخلية ، بالإضافة الى خريف العلاقة بين انجلترا وفرنسا والتنافس الدائر بينهما — آنذاك — فى المجال الاستعماري • وبالرغم من حدة المناقشات التى دارت بين المسؤولين الانجليز وبين الباشا حول مسألة الاحتكار ، فانهم كانوا — على حد تدبير احدى الوثائق — « • • يحسبون حساباتهم على أن الضغط الشديد من جانب انجلترا على الباشا معناه فقدان النفوذ القليل الذى كان لديهم عند الوالى ، فى مقابل زيادة النفوذ الفرنسى • • » (٣) •

وهكذا كانت الدبلوماسية الانجليزية حريصة كل الحرص على عدم توسيع هوة الخلاف مع الباشا ، حتى لا تنتج لفرنسا أن تجد طريقاً ممهداً على حساب انجلترا • وغاية ما كانت تطمح اليه هذه الدبلوماسية هو تنفيذ الحقوق الواردة بالمعاهدة التجارية الموقعة مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ (٤) •

وقد كثر الجدل بين انجلترا والباشا حول هذا الموضوع مما جعل الأخير يلجأ الى استشارة رجال القانون الدوليين فى باريس ولندن

(١) دفتر رقم ٩ عابدين — ترجمه الخطاب السادس رقم ٦١ بناريح ١٦ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

F. O. 78-708, Cairo, December 25th, 1847. Ch. A. Murray, to (٢) Vice Count Palmerston. No. 69.

F. O. 78-756, No. 2, February 4, 1848. to M. - Murray. (٣)

F. O. 78-756. Ibid. (٤)

وترئيسنا وتسكانيا وفلورنسا . وقد أقروا جميعا وجهة نظر
محمد على (١) .

وإزاء اصرار الانجليز على إلغاء الاحتكار ، وبخاصة مساعي
سفيرهم في القسطنطينية « ستراتفورد كاننج Stratford Canning » ، أصدر
الباب العالي أمرا الى محمد على في ٦ يونية عام ١٨٤٨ بإلغاء احتكار
تجارة سنار ، ومع ذلك ظل هذا الأمر حبرا على ورق ولم ينفذه
أحد (٢) . وفي مستهل سبتمبر عام ١٨٤٨ رفع الانجليز مذكرة الى
ابراهيم باشا ، أعادوا فيها مطالبهم بتطبيق معاهدة عام ١٨٣٨ المبرمة مع
السلطان وحق الرعايا الانجليز « ... في تصدير منتجات سنار بعد
دفع الرسوم ... » (٣) ولكنهم ووجهوا أيضا بآبواب موصدة حيال هذا
المطلب .

ومن الغريب حقا أن أولئك الانجليز الذين هاجموا سياسة محمد على
الاحتكارية ، أشاروا — فيما بعد — على رياض بانسا رئيس مجلس
النظام في عام ١٨٨١ على عهد توفيق باشا أن يطبق سياسة الاحتكار في
جنوب السودان ، والذي أشار بهذا هو « جيجلر » باشا الذي كان
وكيلا لحكمادارية عموم السودان آنذاك (٤) .

وهكذا ظل الاحتكار مستمرا حتى جاء عباس الأول الى الحكم فقام

(١) محافظ السودان — محفظة بدون رقم — مجلس الوزراء —
١٢٦٣ هـ ، انظر أيضا : شكرى : بناء دولة ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع . ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) F. O. 78-735, Memorandum for Ibrahim Pasha sent in September.
8, 1848.

(٤) دغدر رقم ٩ عابدين — ترجمة الخطاب رقم ٦١ بتاريخ ١٦ رمضان
السودان — ترجمة الخطاب الوارد لحضرة دولتو أفندم رياض باشا رئيس
مجلس النظار وناظر الداخلية والمالية من جيجلر باشا وكيل حكمادارية عموم
السودان بتاريخ ١٨ يونية ١٨٨١ ص ٥١٠ .

بالغائه في عام ١٨٤٩ (١) •

وفي الخامس من يناير عام ١٨٥٠ كتب تشارلس مري قنصل إنجلترا في الاسكندرية الى الخارجية البريطانية يزف اليهم نبأ نتائج الغاء احتكار الصمغ والسنامكي ومنتجات سنار الأخرى حيث تمكن كثير من التجار الأوروبيين — ومنهم رعايا إنجلترا — من العمل في هذه التجارة ، ثم نصح المسئولون بضرورة البحث عن وسيلة لحماية هؤلاء التجار ، وأخيرا طلب من حكومته أن تحذر هذه الحكومة النمساوية بتعيين وكيل لها في الخرطوم (٢) •

وقد يكون من المفيد بعد أن ناقشنا مسألة الاحتكار التجاري في السودان أن نعرض بشيء من التفصيل لأهم أنواع الصادرات السودانية الى مصر والتي نملها الاحتكار ، وفي مقدمتها الصمغ العربي الذي إحتل المكانة الأولى في تجارة السودان مع مصر • فقد احتلت أشجار « السنط » التي يستخرج منها الصمغ مساحات كبيرة من مديريات كردفان والناكدة ولسنار ، كما عرفت منه أنواع كثيرة أهمها ما كان يؤخذ من سنط « الهائساب » وسنط « الطلح » والنوع الأول أكثر جودة من الثاني ، ولذلك كان الاقبال عليه كثيرا (٣) •

ويكثر وجود أشجار الصمغ بصفة عامة في المناطق المدارية التي تمتاز بأن فصل المطر فيها محدود ، وتعرض للجفاف فترة طويلة من السنة • فخلال أشهر المطر القليلة تظل شجرة السنط المنتجة للصمغ

F. O. 78-804 Cairo, Mard 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford (١)
Canning, No. 6.

وأنار أيضا : نسكري : الحكم المصري في السودان ص ٧٤ ، وزاهر
رياس • السودان المصري ص ٧٤ •

F. O. 78-840. Cairo January. 5, 1850. Murray to Viscount (٢)
Palmerston, No. 2.

(٣) محمد محمود الصياد : السودان . دراسة في التوسيع الطبيعي
والكباب البشري والبناء الاقتصادي . ص ٢٨٢ •

تستمد الماء وتتسكل بحيت تحتفظ بالرطوبة فيها طوال أشهر الجفاف ، ويكُون ذلك بتحويل الماء الى مادة صمغية داخل لحاء الشجرة • وتمتاز هذه المادة بتحملها للحرارة الشديدة وقلة تأثرها بجفاف الجو وعدم قابليتها لتبخر الرطوبة بسرعة • وهكذا تستمر الرطوبة في لحاء الشجرة خلال فصل الصيف • ويساعد التفاوت بين درجات الحرارة على تشقق لحاء الشجرة فتخرج من خلال تلك الشقوق المادة الصمغية التي تتجمع فيها يعرف باسم « الكعكول » • ولكن هذه الشقوق الطبيعية لا تكفى فيقومون بعمل نسقوق صناعية أو « طقوق » كما يسميها البعض فيزداد الإخراز (١) •

ويتميز الصمغ السوداني بانه يذوب تماما في الماء على عكس صمغ « بوشير » في ايران الذى لا يذوب في الماء ، أو صمغ عدن الأقص دوياب (٢) • وكانت الحكومة تدفع مائة وخمسين مليما عن كل (مائة وعشرة أرطال) ، ثم تحسنت تدريجيا سنة ١٨٥٠ الى (مائتين وسبعمين مليما للفنطار (٣) • وكان يتم تصدير الصمغ الى أوروبا وتركيا عن طريق ميناء الاسكندرية •

هذا ، وقد بلغ محصول الصمغ عن سنتي ١٢٥٨هـ — ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ — ١٨٤٤ م) بمديرية كردفان ١٨٣٥٧ قنطارا وكسور (٤) • وهناك وثيقة تشير الى أن ما وصل منه الى مصر من كافة مديريات السودان في عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢) قد بلغ ٧١٣٨ قنطارا و٧٧ رطلا (٥) •

(١) محمد محمود الصناد : المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع . ص ٢٨١ .

(٣) نفس المرجع . ص ٢٨٦ .

(٤) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركي — ترجمته الاراده التركية رقم ٨٣٠ باريخ ٢ صفر سنة ١٢٦١ هـ . اراده الى مدير كردفان .

(٥) محفظه رقم واحد — موضوع النجارة (١٢٤٢ هـ — ١٢٦١ هـ) من محفظه رقم ٣ محفوظات ديوان التجارة والمبيعات بتاريخ ١٢ الحجة سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناح العالى الى بوغوص بك مدير التجارة والمبيعات . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وقد كان البأسا يولى هذا المحصول اهتماما سديدا لأنه كان يلعب دورا كبيرا في التجارة الخارجية لمصر ، فكان ينتدب الكثير من معاونين للإشراف على سرعة سحنه وإرساله الى جمرک أسوان . كما كان يتم توزيع أولئك المعاونين على طول الطريق من مقر إنتاجه حتى وصوله الى جمرک أسوان ، فيكون مقام الأول بكردفان والثاني بدنقلة والمالث بوادي حلفا والرابع بأسوان (١) .

وقد لاحظ محمد على تلاعب بعض القائمين على نقل الصمغ من جمرک أسوان الى القاهرة فقام بوضع حراسة من الجنود على كل مركب ، إلا أن رؤساء المراكب استطاعوا اكتساب هؤلاء الحراس الى جانبهم ، فابتكر محمد على طريقة جديدة تكتسف هذا التلاعب ومؤداها انه كلما ورد صمغ الى جمرک أسوان يوزن وتؤخذ منه « عينه » وتوضع في زجاجة وتختتم من أمين الجمرک حتى إذا وصلت هذه العينة الى جمرک مصر توزن الإرساليات مرة أخرى وترسل رأسا مع تلك العينة الى الاسكندرية (٢) . هذا وقد كانت تشرف على عملية الحصول عليه ونقله مصلحة خاصة (٣) .

سنن الفيل :

وبالإضافة الى احتكار الصمغ فقد تم احتكار سنن الفيل أو ما كان يسمى بالعاج . وكان يرد الى مصر في عهد محمد على من جهات سننار وكردفان ثم من دارفور وجنوب السودان فيما بعد .

(١) دفتر رقم ٢٠٩ — معاونة اقاليم — وثيقة رقم ٦٥٣ بتاريخ ٢١ جمادى الثاني سنة ١٢٥٩ هـ خطاب الى سليمان أغندى أمين جمرک أسوان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٢) دفتر رقم ٣٩٣ ، صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ١٠٠٧ بتاريخ غاية رمضان سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى عباس باشا .
 (٣) الوقائع المصرية . العدد رقم ٣١١ بتاريخ ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ .

ويشير أحد الباحثين اعتمادا على الرحالة بالم الذي زار كردفان الى أن محمد على كان يلجأ الى وسيلة غريبة في الحصول على سن الفيل بحيث يترك باب التجارة في هذه السلعة مفتوحا فلا يتعرض للقوافل أو التجار الذين يحملونه الى مصر حتى إذا وصلوا الى القاهرة — وقد تكبدوا المشاق — تقدم هو بترائه بالسعر الذي يحدده والذي كان ضئيلا للغاية كما يقرر هذا الرحالة (١) . وهذا القول فيه شيء من المبالغه إذا نظرنا الى هذه المسألة من عدة جوانب : الجانب الأول — كما توضحه الوثائق بجلاء — أن محمد على كان يحتكر شراء السن في أماكن إنتاجه ويدفع لتجار أسعارا لا بخس فيها (٢) ، والجانب الثاني والذي يجب ان نعيه تماما ان بالم نفسه كان واحدا من التجار المغامرين الذين جاءوا الى أفريقيا بحثا عن الثراء السريع ، فكان طبيعيا أن يردد ما كان يقوله بنو جلدته حول سياسة محمد على الاحتكارية ولا بأس عنده أن يرتدى مسوح القديسين المدافعين عن التجار وحرية التجارة . والجانب الثالث والأخير وهو الأهم في رأينا ، انه إذا جاز لنا أن نصدق هذه العبارة عن قيام الباشا بشراء العاج بثمن بخس فما الذي كان يجبر هؤلاء التجار على نقله وتكبد المشاق كل عام عبر صحراوات السودان حتى يصلوا به الى مصر ؟ !

ويبدو أن شكاوى التجار الأوروبيين قد استمرت في عهد خلفاء محمد على ، ففي عام ١٨٥٠ على عهد عباس الأول قدم التجار الأوروبيون في السودان شكوى تبناها قناصل كل من سردينيا والنمسا وفرنسا ، ووكيل القنصل الانجليزي ، حيث ضيق لطيف باشا حكمдар السودان الخناق عليهم فيما يتعلق بالتجارة في هذه السلعة على الطريقة التي يفضلونها هم لا التي تقوم بتنظيمها الحكومة عن طريق إجراء مزاد عام

(١) نسيم منار : المرجع السابق ص ٣٤٥ نقلا عن الرحالة بالم : المرجع السابق ص ٢٨٦ .

(٢) دفتار رقم ٢٦١ مساوئه ايرادات وثيقة رقم ٢ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٥٨ هـ اضافة الى محمود بك الايرادات . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

لهذه السلعة بحيث يمكن لهؤلاء التجار الأوربيين أن يتساركوا فيه كغيرهم ، إلا أنهم — كما يبدو من رساله الحكماء — كانوا لا يفضلون هذا الأسلوب (١) .

وفي عهد محمد سعيد باشا استغل هؤلاء التجار حرية التجارة في هذه السلعة ولم يؤدوا الضريبة المقررة عليها للحكومة عقب بيعهم لها في الخرطوم وترتب على ذلك أن تكسبت عليهم أموال طائلة للحكومة (٢) . وتجدر الإشارة هنا الى أنه في عهد الخديوى اسماعيل تم إحتكار سن الفيل في جنوب السودان . ففي مايو عام ١٨٧١ أصدر صمويل بيكر أمرا بمنع تجارة العاج بين الأهالى واحتكار الحكومة له (٣) .

وفي عام ١٨٧٤ أصدر غوردون باشا قرارا باحتكار الحكومة لتجارة العاج في البحيرات الاستوائية (٤) . وهكذا أصبح العاج في المناطق الجنوبية على عهد اسماعيل من ممتلكات الحكومة وكان على الأهالى جميعهم دون استثناء توريده الى مستودعات الحكومة عقب صيد الفيلة ودون مقابل إذ كانوا يصطادونها إبتغاء الحصول على لحومها وشحومها أكثر مما كانوا يبيعون أنيابها ، وقد كانوا من قبل يبادلون عليها بالخرز وبزجاجه من الخمر المعسوسة التى يحملها التجار (٥) . وقد كان يجرى

(١) محفظة ١٩ بحر برا — ملف ١٦ — وثيقة رقم ١٣٧ بتاريخ ٨ صفر ١٢٦٧ هـ . من وكيل الأمور الخارجيه اصطفان رسمى الى الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس الأول ومحمد سعيد — المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٣٦ .
(٣) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الأول ، ص ٣٨ .

(٤) دفتر رقم ١٨٧١ — عابدين — معية عربى — وثيقة رقم ٦ ص ٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٩١ من المعية السنية الى حكماء السودان .
انظر أيضا : شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص ٣١٠ .
انظر أيضا :
(٥) عمر طوسون : المرجع السابق . ج ٢ . ص ٣٧ .

• بيع المعاج المجلوب من هذه المناطق بالخرطوم ولكافة التجار (١) •

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان التجار يقومون بتهريب المعاج مع الرقيق على ظهور المراكب ، وإذا ما تم ضبطه على هذا النحو ، عقد له مزاو يتقدم له جميع التجار (٢) وقد كانت للمعاج أنواع عدة ، ولكل نوع سعر محدد ، فمن أنواعه « العال » و « الظهر » و « البـار » و « الكلنج » (٣) •

السنامكى :

كذلك فقد احتكرت الحكومة فى عهد محمد على تجارة السنامكى ، وقد إعتبرت دنقلة الجديدة بمثابة المستودع الرئيسى الذى يمد الحكومة بحاجتها من هذه السلعة التجارية نظرا لوفرتها فى هذه المنطقة (٤) • كذلك فقد تفرشت فى جهات أخرى مثل كردفان إلا أن جمعها بغرض بيعها كان محدودا • ويبدو أن الاقبال على تجارة السنامكى فى مصر لم تكن بصورة مشجعة مما جعل المسئولين فيها ينصحون مدير دنقلة وبربر عدم إرسال هذه السلعة إلا حين يطلب منه ذلك (٥) •

(١) دفتر رقم ١٦ عابدين — صادر تـلـغـرافات — صورـه التـلـغـراف السـرى الشـفـرة رقم ٣٩٦ ص ٦١ بتاريخ ليلة ١٥ شـوال سنة ١٢٩٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ١٨٧٥ صورة المكاتبه رقم ٣٦ ص ١٠١ بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ . من حكومارية السودان الى المعية السنية أنظر أيضا : دفتر رقم ٢٧ عابدين — وارد تـلـغـرافات صورة التـلـغـراف العربى رقم ٦٦٠ ص ٩٧ بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ . (٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

(٤) سجل رقم ٣٧٧ معية بركى — وثيقة رقم ١٢٦٩ بتاريخ ١٠ ربيع الأولى سنة ١٢٦٠ هـ . اراده الى مدير دنقلة .

(٥) سجل رقم ٣٧٧ معية — وثيقة رقم ١٤٨٨ بتاريخ ١٧ جمادى النانية ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . وايضا : دفتر رقم ٤٣٨ معية بركى — وثيقة رقم ٤٥١٦ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٦٤ هـ . الى مدير دنقلة وبربر . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ريش النعام :

وهو أيضا من المنتجات التي إحتكرها محمد على ، ومع ذلك ، فقد ظل يتداول بين الأهالى وخاصة في غرب السودان . فقد كانوا يقبلون على صيده وأكل لحمه بشراهة ويجدون له مذاقا لا يقل عن اللحم البقري . وفي أعقاب ضم منطقة خط الاستواء تم إحتكار هذه السلعة هناك حيث كان يتم تسليم الريش في مستودعات الحكومة بعد دفع نصف النمن وحجز النصف الآخر لسداد الضريبة (١) .

الجلود :

وأخيرا تم احتكار الجلود في عهد محمد على ، فقد إحتلت القرب والأكياس التي تم صنعها من جلود الحيوانات مكانة هامة في السلع المستوردة من السودان ، خاصة إذا علمنا أن المدن المصرية آنذاك وبخاصة القاهرة كانت في حاجة ماسة لهذه القرب لنقل المياه من نهر النيل الى السكان داخل المدينة . ويقدر ما كانت تحمله قافلة دارفور في المرة الواحدة بحوالى ٨٠٠٠ قربة سواء أكانت مصنوعة من جلود التيران أو جلود الابل (٣) . ومما هو جدير بالملاحظة أن الجلود الخام لم تكن تلقى مكانا أكبر بين صادرات السودان الى مصر على الرغم من وفرتها ويرجع ذلك الى جهل المواطنين بالسودان بوسائل حفظها سليمة ، وهو ما أدركته حكومة محمد على حيث أرسلت خبراء من مصر

(١) عمر طوسون : المرجع السابق . ج ٢ ص ٣٨ ، وكانت أسعاره كالنالى :

— ١٨ ريالا ثمن رطل الريش الأبيض بضاعة عالية ويسمى (عوام) .

— ١١ ريالا ثمن رطل الريش الاسود بضاعة متوسطة ويسمى

(الاسود) .

— ٣ ربالا ثمن رطل الريش الأشهب بضاعة عادية ويسمى (Rebeda)

وكانت هذه الأثمان لا تدفع نقدا بل غلة (عمر طوسون : المرجع

السابق . ص ٣٨) .

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥١ .

لإعداد الجلود ودبغها وتدريب السودانين على ذلك وطلبت من الأهالي تسليم جلود الحيوانات التي يقومون بذبحها مقابل ثلاثة قروش للجلد الواحد من جلود الماشية وعشرين باره لجلد الضأن * وبهذا أصبحت السودان على رأس الأقطار التابعة لها التي تمدها بالجلود كما يتبين من الجدول التالي : (١) *

البلد	عدد الجلود
السودان	٩٥٠٠٠
الحجاز	٨٥٠٠٠
الشم	٢٥٠٠٠
كريت	٢٠٠٠

السلع والمنتجات غير المنكورة :

(أ) المواشى : هناك نوع آخر من التجارة لم تكن الحكومة قد بسطت إحتكارها عليه اطلاقا ، وأهم تلك السلع التجارية المواشى التي إزداد الطلب عليها في عهد محمد على * ويرجع ذلك الى تلك النهضة الزراعية التي كان الباشا يقوم بها في مصر والتي كانت تلزمها تلك المواشى سواء في أعمال الحرث أو ادارة السواقي (٢) *

ويذكر أحد الباحثين أن الباشا قد حصل على تلك المواشى من السودان بوسائل ثلاث ، أولها الغزوات التي أرسلت لصيد العبيد في

(١) نسيم مختار : المرجع السابق . ص ٣٥١ .
 (٢) دفتر رقم ٣٧٦ صادر ديوان المعية — وثيقة رقم ٢٧٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٠ هـ ارادة الى أحمد باشا المنكلى .
 أنشأ أيضا : سجل رقم ٣٣٧ مسمية تركى — وثيقة رقم ١٢٩٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة ومدير سنار ومدير تাকে ومدير الخرطوم . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

فازوغلى وجبال النوبا • ونانيها عن طريق الشراء من أصحابها وأخيرا حصل عليها على شكل صرائب اذا ما عجز الأهالى عن دفعها نقدا (١) • وفى ظلنا أن الوسيلة الثانية هى التى كان غالبا ما يتبعها البانسا ويحرص عليها أسد الحرص ، ولم يكن يجبر الأهالى على تقديم مواشيهم أو يهاجمهم فى ثورتهم التى تلعب دورا كبيرا فى تنمية الزراعة السودانية التى كان حريصا على إزدهارها • ولو كان فى نيته اللجوء الى غير وسيلة الشراء للجأ فورا الى وضع هذه التجارة تحت الاحتكار وقد كان فى امكانه ذلك •

ويبدو أن الباحث قد تأثر بما ذكره فى الوسيلة الأولى والثالثة ببعض الأوربيين من الرحالة * وغيرهم ممن كانوا يمارسون أعمال التجارة آنذاك وكانوا شديدي الحنق على نشاط البانسا التجارى • وليس معنى ذلك أنه لم تحدث بعض تجاوزات من المسؤولين فى السودان ، ولكنها لم تكن بشكل رسمى أو دائم • بل كانت التعليمات اليهم صريحة كى يقوموا بشرائها (٢) •

وقد عنى البانسا بإرسال هذه الحيوانات من السودان الى مصر فعين لها رجالا مخصصين لها بل وناظرا يئترف عليهم ، كما أنشأ المحطات اللازمة على طول الطريق الذى تسلكه ما بين السودان ومصر وأمد هذه المحطات بكل ما يلزمها من أعلاف ومياه وغير ذلك •

وكان محمد على يتوعد الكسالى والمهملين ممن يقومون على ارسال

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) اعني هذا الباحث فى هاتين النقطتين على ما ذكره كل من :

— Pallme; Travels in Kordofan. p. 37.

— Hill; Egypt in the Sudan. p. 55.

(٢) دفتر رقم ٣٦٩ معبة نركى — وثيقة رقم ٣٤٧٨ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٩ هـ اراده الى مدير الوجه القبلى ، انظر أيضا سجل ٣٧٧ — معبة نركى — وثيقة رقم ١٢١٦ بتاريخ ٣ جمادى الثانية سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

المواشى بأقصى أنواع العقاب (١) فقد صدرت الأوامر لحاكم بربر أن يقوم بصرف العليق اللازم للأبقار الواردة من كردفان الى حاكم دنقلة لضمان وصولها سليمة ، كما طلب محمد على أن ترسل في فصل الخريف لضمان وجود الأعلاف الكافية لها (٢) . وزيادة في ضمان سلامتها وعدم هلاكها في الطريق أمر بأن تسير لمدة ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر في اليوم الواحد ، وأن يتم ارسالها على دفعات متعددة كل دفعة منها تتكون من حوالى مائتين وخمسين رأسا فقط ، وتبعث كل واحدة منها قبل الأخرى بيومين حتى لا يتسبب إزدحامها في حدوث أذى وتعيب لها . وزيادة في الحرص عليها ، أوصى بأن تكسى أظلاف المواشى التى تعرضت للأذى بكسوة خاصة من « الليف » (٣) .

ولم تكن تلك الرعاية تقتصر على مسافة الطريق عبر مديريات السودان وحسب ، بل كانت تمتد الى أماكن دخولها أرض مصر حيث كلف بعض المأمورين والمديرين في الوجه القبلى بترتيب العلف الكافى لهذه المواشى وعزل الضعيف منها وتسليمه لنسيخ المنطقة التى هى بها حتى تسترد نشاطها (٤) . وقد بلغت المسافة التى كانت تقطعها المواشى أربعاً وتسعين محطة ، كانت المواشى تقطع خلالها أربعمائة واثنين وثمانين ساعة ، وكانت أول محطة بالسودان تسمى « الترة »

(١) دفر رقم ١٩٩ معاونة اقاليم — صوره ترجمة المكاتبه رقم ١٥١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونة الى عيسى افندى .
 انظر ايضا : دفر رقم ٣٧٨ معبة تركى — وثيقة رقم ٣٦٤ بتاريخ ٢٠ ثوال سنة ١٢٦٠ . اراده الى معبود الصوالح ، انظر ايضا : ٣٦٩ معبة تركى . وثيقة رقم ٣٦٤ ١٧٨٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى مدير الخرطوم ، انظر ايضا : دفر رقم ٣٧٨ معبة تركى — ترجمه الارادة النركة رقم ٩٠٤ بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير الجزيرة والوجه القبلى والاقاليم الوسطى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٢) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤١ — ١٤٢ .
 (٣) دفر رقم ٨٤ معبة تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٠٩ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١١٥٣ هـ . وأيضاً : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٢ .
 (٤) دفر رقم ٨٥ معبة تركى — ترجمة الأمر رقم ١١٠ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ .

وآخر محطة هي « غرب أسوان » (١) •

من ذلك كله يتبين لنا عظم الدور الذي كانت تلعبه هذه المواشي في النشاط الاقتصادي بمصر وخاصة في عهد محمد علي ، ومقدار الجهود التي بذلت لوصول هذه الأداة الانتاجية • ويبدو أنه في أواخر القرن التاسع عشر بدأ يقل ورود هذه المواشي كما تشير بذلك الوثائق بتشكل واضح حيث لا نقرأ أية خطابات حول ارسالها لمصر ، بل نقرأ وتبين: تعلن صراحة انتهاء هذه المهمة (٢) • والتفسير المقبول لانتهاء هذه المهمة آنذاك هو اكتفاء مصر بما أرسل من هذه الحيوانات ، خاصة إذا علمنا أن الآلاف منها كان يصل سنويا منذ عام ١٨٢١ وبشكل منظم كما لاحظنا • بل ان هناك وثيقة تشير الى أن عدد المواشي السودانية التي تساق يوميا من « •• أصوان الى الجهات السفلى يتراوح عددها بين مائة وستين ومائتين رأس من المواشي ••• » (٣) فلذلك نحن نميل الى هذا التفسير سالف الذكر •• وربما يذهب البعض في تفسير ذلك الى نضوب المعين أو العقبات التي كان يصادفها القائمون على ارسالها الى مصر وغير ذلك • ولكن محمد علي بما عرف عنه من همّة وعزيمة لم تكن لتتفأ أمامه مثل هذه الأسباب • وليس معنى ذلك كله انقطاع ارسال هذه المواشي كلية ، فقد وصلت أعداد منها الى مصر خلال عهد خلفاء محمد علي ولكن بشكل غير منظم وقليل جدا وليس كما كان الحال في عهد محمد علي •

ولم يقتصر ارسال الحيوانات على الأبقار فقط ، بل استوردت مصر

(١) محطة ١٩ بحر برا — ملف رقم ١١ • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(٢) دفتر رقم ٤١٢ — معية سنة — مكتبة رقم ١٧٥٣ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦٣ هـ • من المعية الى مدير الجفالك • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(٣) دفتر رقم ٣٩٢ — معية بركي — وثيقة رقم ١١٤٨ بتاريخ ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٦٢ هـ • خطاب الى مدير الوجه القبلي •

الجمال من السودان • فقد لعبت الابل دورا هاما في حملة السودان عام ١٨٣٠ حيث قامت بنقل المعدات والأمتعة ، كما استخدمت كدواب للركوب • واستمرت الابل تؤدي دورها سواء في نقل البضائع عبر مفاظات السودان ، أو في الدوريات الصحراوية على حدود البلاد • بالإضافة الى أعمال الزراعة ، فقد كان محمد على يطلب امداده بعدد منها للعمل في « الجفالك » وخاصة في نقل المحاصيل (١) • كذلك فقد كانت مصر تشتري بعضا من أنواع الخيول السودانية وخاصة ما اشتهرت به بعض المناطق في النوبة كدنفلة مثلا • ولكن هذا النوع من الحيوانات كان استعماله الرئيسي قاصرا على الجيش (٢) •

وبالإضافة الى ذلك كله فقد كانت مصر تستورد بعضا من الحيوانات البرية كالزراعة والخرتيت والفيل والغزال والمطيور البرية (٣) • ويبدو

(١) دمنر رقم ١٨٨ — معاوية أقاليم — مكاتبه رقم ١٣١٨٣ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ هـ • من ثورى المعاونة الى حكمدار السودان •

انظر أيضا : دمنر رقم ٣٦٩ معبه نركى — وثيقة ٤٣٨٨ بتاريخ ١٩ نيسان سنة ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دمنر رقم ٢٦٢ صادر ديوان الكخدا — وثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٦٧ هـ . الى البك المهردار • انظر أيضا : دمنر رقم ٦٧ معيه عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ٣١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٦٧ هـ • من المعية السنبة الى ديوان الجهادية ، أيضا : دمنر رقم ١٣ صادر معيه عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٣١٢ ص ٨٦٢ بتاريخ ١١ شعبان سنة ١٢٦٧ هـ • من المعية الى الجهادية وانظر كذلك محفظة رقم ٧ معيه نركى — وثيقته رقم ٢١٨ ص ١٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٧١ هـ — من حكمدار السودان الى كاتب ديوان الخديوى •

(٣) انظر الوثائق الآتية : — دمنر رقم ٨ وارد دلفرافات عابدين — صورة التلغراف العربى رقم ٥٩ ص ٦٧ • بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٨٥ هـ • من حكمدار السودان الى مدير دار الخديوى ، نفس الدمنر • تليفراف عربى رقم ٥٩٦ ص ٧٤ بتاريخ لسنة شعبان سنة ١٢٨٥ هـ • من محافظ السوويس الى سعادته رياض باشا • نفس الدمنر تليفراف رقم ١٠١٠ ص ١٢٩ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٨٥ هـ • من مدير المنيا الى سعادته خرى بك • دمنر رقم ٩ عابدين وارد تليفرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤١٢ ص ٦٦ بتاريخ ليلة غرة محرم ١٢٨٦ هـ • من مدير اسنا الى سعادته رياض باشا • أيضا : دمنر رقم ١١ عابدين — وارد تليفرافات — صورة التلغراف العربى رقم ١٥٠٨ من الخاصة الى سعادته زكى باشا بتاريخ ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ • دار الوثائق بالقاهرة •

أن الاهتمام بارسال مثل هذه الحيوانات والطيور كان يلقى اهتماما في عهود خلفاء محمد على أما محمد على فلم يكن يحفل بها ، بل كان همه الكبير يتجه نحو حيوانات الانتاج •

تجسار الرقيق :

كان الرقيق القادم من الأراضي السودانية واحدا من السلع الهامة التي وجدت طريقها الى مصر حيث استخدمت أعداد لا بأس بها في رراعة « الجفالك » المنتشرة في الوجه البحري على وجه الخصوص (١) •

وبالرغم من تعدد مصادر الرقيق السودانى الى مصر ، فان الجهات الغربية للسودان كدارفور وكردفان كانت هى المصدر الرئيسى لهذه السلعة الآدمية • وكانت القافلة القادمة من دارفور حتى أسبوت تستغرق نحو من أربعين الى خمسين يوما في سفرها بالطريق البرى (٢) وأما قوافل سنار فكانت تصل الى بربر في نحو ستة أيام ثم تأخذ طريق النيل حتى تبلغ دراو بأسوان في أربعين يوما • ويمكن لهذه القافلة أن تجتاز الصحراء في زمن أقل بادية من بربر • وأما قوافل دنقلة فتسير عادة في نهر النيل ، ويلاحظ على هذا الطريق الأخير قلة الأعداد التي كانت تحملها السفن (٣) •

ويقدر البعض أعداد الرقيق التي كانت تصل الى مصر سنويا

(١) دفتر رقم ١١٩ معية تركى — ونبة رقم ٥٨٨٩ بتاريخ ٣ جمادى الثانية عام ١٢٦٣ هـ . من حكماد السودان الى المعية . أنظر أيضا : دفتر رقم ٦٩ وارد معية ، صورة المكتبة العربية رقم ٣ بتاريخ ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٦٧ هـ . من ظلم الجفالك بالمالبة الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) تقرير بورنج اعتمادا على تقرير هولرويد عن الدكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٧٥٤ ، أنظر أيضا دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليفرافات صورة التليفراف العربى رقم ٣٤٨ بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ . من غور دون باشا الى سعادة خبرى باشا بالاسكندرية .

(٣) نفس التقرير السابق ص ٥٥٤ .

(م ١٤ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

بين عشرة آلاف الى اثنتى عشر ألفا حتى عهد محمد على (١) • وقد عدت
أسيوط — آنذاك — أعظم سوق لتجارة الرقيق القادم الى مصر حيث
وفدت اليها أعداد كبيرة من دارفور وسنار كما كانت هذه السوق تمتد
القاهرة وسوريا وتركيا مما تحتاجه من هذه السلعة (٢) •

وكانت هذه السلعة وهى فى طريقها الى مصر تلقى الكثير من
المناسق • ففى واحد من التقارير التى بعثت بها القنصلية العامة للولايات
المتحدة عام ١٨٧٨ بمصر نقراً وصفاً لاحدى قوافل الرقيق انتى سلكت
طريق الأربعين الى أسيوط ، من حيث الأخطار التى تتعرض له فى
الطريق . بالإضافة الى سوء المعاملة التى لقيها هؤلاء الرقيق • فقد
بيع أحدهم — خلال الطريق — ثلاث مرات ، كما تعرض آخر للموت
لخذه سقطه من على الجمل وثالث ربط الى جرزع نجرة لأنه طلب
سربه ماء أثناء سير القافلة ، ورابع كان مصيره الرمى بالرصاص (٣) •

وربما يكون فى هذا الوصف شىء من المبالغة ، خاصة اذا علمنا
أن التاجر الذى كان يجلب هذه السلعة كان يعنيه تماماً أن يحافظ عليها
سليمة حتى تصل الى السوق ، أما اذا تعرضت خلال الطريق للمرض
أو الوفاة فهذا يعنى الخسران المبين للتاجر •

وتجدر الاشارة الى أن هذه التجارة لم تكن ذات فائدة كبيرة
بالنسبة لمصر ، خاصة ابان عهد محمد على ، إذ كانت دائماً عرضة
للكساد سواء من ناحية الأمراض أو الموت عبر الطريق ، بدليل أن
محمد على لم يحتكر هذه السلعة بل تركها حرة اسائر التجار (٤) •

(١) نفس التقرير . ص ٥٥٦ •

(٢) نفس التقرير . ص ٥٥٤ •

(٣) الأرشيف الأمريكى بدار الوثائق بالقلمسة — محفوظة رقم ١٤ ،
رسالة من القنصل غارمان .

Desp. No. 235, Agency and consulate General of U. S. in Egypt. Cairo,
June, 1878. Hon. W. M. Ekarts, Secy. of State, Washington
Shukry; Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan. p. 76. (٤)

وقد اكتظت أسواق القاهرة بالرقيق السودانى وهبطت أسعارهم فى ذلك الوقت * فقد ورد بتقرير بورنج على لسان أحد تجار الرقيق بكردفان ان الرقيق الواحد كان يكلف التاجر حتى وصوله القاهرة حوالى ستة جنيهات استرلينية ، بينما يباع بعد هذه المساق بأقل من هذا المبلغ (١) * ومع ذلك كله ، ورغم كل اللوائح والقوانين والنداءات الأوروبية فى وقف هذا التجارة ، فقد ظلت مستمرة بين مصر والسودان على المستوى الفردى بعيدا عن أعين الحكومة (٢) *

أما أهم السلع التى كانت تصدرها مصر الى السودان فكانت الأقمشة المختلفة وأهمها المعروف باسم القطنى و « الأجا » والأقمشة الكتانية من أسيوط ، واللباد الذى يوضع تحت سروج الخيل والقمصان التى تستخدم كدروع واقية والملح والأرز والسكر * كذلك فقد دخلت السلع الأوروبية الى السودان عن طريق مصر مثل الكهرمان والآلات المقاطعة كالأمواس والسيوف وبعض الصناعات كأسلاك الحديد والنداس وبعض أدوات الزينة والورق ، بالإضافة الى بعض السلع من بلاد الشام كالصابون والمصنوعات الحريرية (٣) *

وتنسجيعا للتجارة بين مصر والسودان حقق محمد سعيد خط-وات

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٦٢ .

(٢) دفتر رقم ٧٢١ قيد الأوامر واللوائح بديوان خدىوى . صورة المكنده رقم ١٠٦ ص ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ ، وأبضا : دفتر رقم ١٠٥٤ ، صادر نظارة المالية الى الدواوين ، وثقه رقم ٢٦٨ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ . الى جبرك أسوان ، وانظر أيضا : محافظ السودان ، مجلس الوزراء - رقيق - صورة ما نحرر من نظارة الداخلية الى حاكم دار السودان فى ٨ ج سنة ١٢٩٧ هـ رقم ٣١ . وانظر أيضا : نص معاهدة منع نجارة الرقيق المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ م ، وكذلك لائحة تنفيذ قرار الفاء الرقيق فى السودان الموجودتين بكل من : محفظة اللوائح ، ومحفظة ١٦٢ عابدين ، محفظة رقم ٦ من الوثائق الافريقية بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، والوثائق المصرية العدد رقم ٧٣١ بتاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ (١١ أكتوبر ١٨٧٧ م) ص ٣ ، ٤ .

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

راسعة في هذا المضمار حيث ألغى الضرائب الجمركية داخل السودان تماماً وخفض الرسوم المتحصلة على المتاجر المصدرة من السودان الى خارجة فأتاح ، بذلك ، حرية التجارة وسهولة حركتها بين البلدين مما حدا بقنصل النمسا في مصر ويدعى هوبر Huber الى القول : « ٠٠٠ إن البضائع الواردة من النوبة ودنقلة والخرطوم وسنار وكردفان وفازو على أصبحت تعتبر بضائع مصرية فلا يدفع عنها رسوما على الإطلاق ، ولا يفرض عليها أى شئ طالما كانت تستهلك في داخل البلاد » (١) . وبالإضافة الى ذلك فقد أمر محمد سعيد بجباية « رسوم امرارية » طفيفه على البضائع الآتية عن دائرة النفوذ المصرى — اذا كانت في طريقها الى خارج البلاد (٢) . كما أرسل محمد سعيد الى السودان نسخة من قوانين مجلس التجار الجارى العمل بها في مصر للعمل بمقتضاها أثناء الفصل في الدعاوى التجارية التى تنشأ بين التجار وبعضهم أو بينهم وبين الحكومة (٣) ويبدو أنه قد جرت في عام ١٨٦٢ محاولة لتأسيس بنك يقوم بتمويل العمليات التجارية في السودان وتم تسجيله بالقاهرة إلا أنه فشل في عام ١٨٧٣ نظرا لسوء الادارة (٤) .

وإبان زيارة محمد سعيد للسودان عمل على الاتصال بسلطان دارفور عن طريق الكتابة اليه وابداء رغبته الأكيدة في « تواصل التجارة ، سواء مع مصر أو مع بقية المديريات السودانية » (٥) .

(١) محفظه رقم ١ (موضوع البجاره) ١٢٤٢ — ١١٦٢ من محفظه رقم ٦ محفوظات ديوان النجاره والمبيعات بتاريخ ٢٤ شوال سنه ١٢٥٧ هـ . من الجنباب العالى الى الباشاعاون . دار الوثائق القومية بالقلمه وأنظر ايضا : سكرى : الحكم المصرى في السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . ص ٥٤ .

(٢) نفس المرجع . ص ٥٤ .

Hill; op. cit. pp. 97-98.

(٣)

Ibid, p. 99.

(٤)

(٥) محفظه رقم ١٠٢ — قسم الوثائق الافريقيه — ملف بتاريخ سنه ١٢٧٤ هـ صوره الوسيقة العربيه رقم ١٣ ص ٥٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنه ١٢٧٤ هـ من دفتر رقم ١٨٨٩ دواوين . أمر كريم الى سلطان دارفور .

لذلك فقد كان سلطان دارفور حريصا على وجود مندوب تجارى دائم يقيم بأسيوط نقطة وصول قافلته دارفور عبر درب الأربعين (١) •

واستمرت تلك الجهود فى عهد اسماعيل للارتقاء بالتجارة بين مصر والسودان ، فعقب توليه راح يبعث خطابات الود الى سلطان دارفور لزيادة حجم التجارة بين البلدين (٢) كذلك فقد عمل اسماعيل على تأسيس شركة تجارية فى يونية ١٨٦٣ سميت « شركة السودان » وبلغ رأسمالها خمسين مليوناً من الفرنكات ، وكانت تهدف الى تنمية موارد السودان وادخال التجارة المستروعة فى الأقاليم التى لم تكشف بعد • وقد أسهمت فى تأسيسها خمسة بيوت تجارية مصرية من الاسكندرية بمبلغ ثمانية وثلاثين مليوناً من الفرنكات واكتتب بالباقي مصرف (الكريدى انترناسيونال) واتخذت الشركة اسما آخر هو (الشركة المصرية التجارية) •

The Egyptian Commercial Trading Co.

ولقد فتحت أبوابها للممولين من لندن وباريس وفرانكفورت • ومن شركة اوبنهايم وبيت « درفيو » بالاسكندرية • وأصبح لها برنامج واسع ، فقد كان اسماعيل يريد أن يصدر الى مصر سلعا تجارية كالحبوب والبن والسكر والأخشاب الى جانب السلع القديمة كالعاج ورينس النعام (٣) • ومن مظاهر اتساع الحركة التجارية بين مصر والسودان انشاء البيوت التجارية العديدة أمثال بيت السيد أحمد العقاد ،

(١) محفظة رقم ٣ مديريات قبلى — ترجمة الويفنة التركيه رقم ٤٧٥ بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ • من محمد سعيد والى مصر الى صاحب العزه مدبر أسيوط •

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل • مجلد ٢ جزء ٣ • ص ٥٥٩ •

(٣) شكرى : المرجع السابق • ص ١٥ • شوفى الجبل : تاريخ السودان ج ٢ • ص ١٣٠ •

و « أبو عموري » ، وفرج الله الموصلی ، وغطاس وغيرهم والتي وصل
عددتها في عصر اسماعيل الى نحو ثلاثة آلاف بيت مقابل ألف بيت
للاوربيين (١) .

(١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة
المصرية . الجزء الأول ص ١٥٥ ، انظر أيضا : الرافعي : عصر اسماعيل .
الجزء الأول . ص ١٦٤ .

القسم الثانى التجارة الخارجية

طريقها :

لم تقتصر التجارة السودانية على النطاق المحلى فقط ، ولكنها تعدت هذا النطاق الى العالم الخارجى وخاصة مع الحبشة ، وبلاد العرب وما جاورها ، وشمال أفريقيا •

وقد سلكت التجارة السودانية الى الخارج دروبا عدة قسمت الى ثلاثة أقسام على أساس المنفذ الذى يأخذه كل اقليم لتصدير تجارته عن طريقه الى العالم الخارجى •

فالاقليم الأول يضم النيلين الأبيض والأزرق وفروعهما ، والجزء الشرقى من كردفان ويرتبط هذا الاقليم بمصر عن طريق وادى النيل ، والبحر الأحمر بطريق بربر سواكن (١) •

وهذا الاقليم أو الطريق توجد به أغنى منطقة لانتاج الحبوب فى السودان ، والتي تقع جنوبى سنار وترتبط بسواكن بطريق القوافل الذى يمر بالقضارف • وتعتبر الخرطوم المركز الرئيسى لهذا الاقليم • وأهم متاجره العبيد والذرة والصمغ والعاج وريش النعام وجلود أفراس النهر وقرون الخرنيت والشمع والعسل والملح والتمر هندى والسنامكى ، والمسك والنيله (٢) •

(١) دفتر رقم ٥٥٨٢ معبى تركى — ترجمة الوبيقة التركبة (بدون نمرة)
س ٢٦ بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى وكيل حكمدارية السودان . وانظر أيضا : محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٧ ، دفتر رقم ١٧ ، دفتر رقم ٢ ، وبقية من جعفر مظهر باشا وكيل السودان الى مبردار الحضرة الخديوية بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) أحمد أحمد سبد : تاريخ مدينة الخرطوم . ص ١٢٢ ، وانظر أيضا : التناظر بصيلى : تاريخ المواصلات . ص ٨ ، وأيضا مكي شبكه : السودان فى قرن . ص ١٣٥ •

والاقلليم الذنى يضم دارفور وغربى كردفان • وهذا الطريق يتصله بمصر بطريق درب الأربعين الذى يعد أيضا طريقا لخروج متاجر واداي وباجرمى وبرنو وغيرها من الجهات الواقعة غرب دارفور الى العالم الخارجى • ومن أهم ما حملته القوافل عبر هذا الطريق العبيد والصمغ وریش النعام والعاج والأبنوس والجلود • وتقدر هذه المتاجر بمائة ألف قنطار سنويا ، إلا أن حجم هذه التجارة قد هبط فى أواخر الحكم المصرى حين سد طريق الأربعين فى وجهه تجارة الرقيق الى مصر • ويتسير البعض الى تحول الكثير من تجارة واداي وباجرمى عن هذا الطريق الى طريق آخر يمتد من بحيرة تشاد الى مرزوق عاصمة فزان ثم طرابلس ، وذلك من جراء الهلع الذى أصاب سلاطين تلك الجهات من امتداد الحكم المصرى اليهم عقب ضم دارفور الى السودان عام ١٨٧٤ (١) • وقد يكون هذا التفسير صحيحا الى حد بعيد ، ولكننا نريد أن يؤكد من ناحية أخرى ، ان محمد على وخلفاءه كانوا حريصين على الاتصال التجارى بتلك الجهات القريبة للسودان ، من خلال الرسائل التى كانوا يبعثون بها الى أولئك السلاطين مؤكدين من خلالها على احترامهم لحرية التجارة وانتقالها بين الطرفين • فازورار التجارة هنا عن درب الأربعين ليس مبعثة محمد على أو خلفاءه بقدر ما كان نتيجة لحركة مناهضة تجارة الرقيق وضغط انجلترا الشديد لتنفيذ بنودها •

أما الاقلليم الثالث فكان يضم الحبشة والمناطق المحيطة بها • ويرتبط هذا الاقلليم بالبحر الأحمر عن طريق ميناء مصوع • وكانت تجارة الرقيق والبن والشمع والعسل من السلع والمنتجات التى سارت عبر هذا الطريق • وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين حجم التجارة التى تمر عبر كل طريق من هذه الطرق الثلاثة لتبين لنا أن الطريق الأول كان يفوقها جميعا من حيث عدد القوافل والرجال الذين يعملون فى تلك المتاجر •

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق • ص ١٢٣ •

التجارة مع الحبشة :

من الطبيعي أن ينتسب نوع من التبادل التجاري بين السودان والحبشة بسبب الجوار وتداخل الحدود والسكان • وكان اقليم سنار ، الواقع على النيل الأزرق الذى ينبع من الحبشة ، من أكثر أقاليم السودان ارتباطا بالحبشة حيث يعد المنفذ الرئيسى لتجارة هذه الدولة الإفريقية مع جهات السودان الأخرى مثل دارفور وكردفان بل ومصر أيضا • ولقد أكد الرحالة الذين زاروا هذه البلاد على استمرار مثل هذه العلاقات التجارية بين السودان والحبشة • فالرحالة فالنتيا Valintia الذى زار الحبشة فى أوائل القرن التاسع عشر يؤكد استمرار حركة القوافل التجارية بين الحبشة ودارفور (١) • وكذلك الرحالة بوركهـارت الذى أسار الى أن طريق القوافل بين سنار وجوندار بالحبشة — أبان رحلته بين عامى ١٨١٢ — ١٨١٤ — كان يؤمه الكثير من تجار سنار وتجار الحبشة الذين أسماهم « بالجبرت » • وكان هؤلاء النجار يعملون بتجارة الرقيق والذهب ويلتقون فى مكان على منتصف الطريق بين البلدين على مسيرة أربعة أيام تقريبا من سنار ويسمى « رأس الفيل » حيث يتم تبادل السلع بين تجار سنار وتجار الحبشة (٢) • كذلك فقد كانت مدينة « شلقا » Chlga على الحدود المشتركة بين سنار وجوندار من أهم المراكز التجارية التى التقى فيها تجار البلدين لبيع الرقيق والذهب والماشية وغيرها • وكان تجار سنار يصدرون الى الأحباش الملح الذى يحصلون عليه من شندى بالاضافة الى الأقمشة القطنية « الدمور » (٣) •

وفى عهد محمد على وعقب ضم السودان الى مصر تأثرت التجارة

-
- (١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٦٣ •
 (٢) بوركهـارت : المصدر السابق • ص ٢٤٠ •
 (٣) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٦٤ •

بين الحبشة والسودان بالظروف والنظم الجديدة التى وضعها الباشا وخاصة نظام الاحتكار التجارى ، بالاضافة الى العلاقات السياسية بين « رؤوس الأحباش » وبين محمد على التى اتسمت بالحدز والترقب حيث يذكر بورنج فى تقريره أن نزاعا شديدا كان قد نشأ بين الطرفين بسبب امتلاك محمد على لمنافذ الحبشة (١) * فمن المعروف أن السلطان العثمانى كان قد منح لابراهيم باشا ايلالة جدة وملحقاتها التى هى سواكن ومصوع منفذ الحبشة الرئيسى الى البحر الأحمر ، والجزء الممتد على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر بما فيه الأراضى الحبشية التى تطل عليه وذلك فى يولية عام ١٨٢٠ مكافأة له على انتصاره على الوهابيين فى الجزيرة العربية ، ومعروف أيضا ان انجلترا قد وقفت بالمرصاد لمحمد على فى نزاعه مع الحبشة ، وهددت بأن دول أوروبا لن تسمح بأى اعتداء على الحبشة البلد المسيحى * وفى ظننا أن وقوف انجلترا فى جانب الحبشة لم يكن إلا مسألة ظاهرية وتكأة لحماية مصالحها الحيوية فى البحر الأحمر التى بدأ محمد على يهددها ، ومنها أيضا ما يتصل بالحبشة نفسها التى بدأت انجلترا تسعى لاقامه علاقات تجارية معها بارسالها فالتيا فى أوائل القرن التاسع عشر لأجل هذا الغرض *

كذلك فقد استطاع محمد على فى عام ١٨٤٦ أن يضم ميناء مصوع — منفذ الحبشة — الى ادارته فى السودان ، ومن قبل كان قد ضم « القلابات » و « عطيس » عام ١٨٣٧ أيام خورشيد باشا حاكم السودان ، وهى مناطق تقع على حدود الحبشة ، الأمر الذى جر الطرفين الى سلسلة من المنازعات فيما بينهما حيث لم يسلم الأحباش بضم هذه المناطق للسودان * وبناء على ذلك فقد ردوا بأن لهم الحق فى جمع الضرائب من أهلها ، إلا أن الادارة المصرية عارضت ذلك تماما * ونضيف

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٩ ، وانظر أيضا :

F. O. 78-589. Aden, 18th. March, 1844. Copts Bttains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Chief Secretary to Gov. t Bomby.

الى هذا العوامل التى أدت الى توتر العلاقات بين الطرفين زمن محمد على ، ما حدث عقب مقتل اسماعيل كامل نجل محمد على وما تلاه من فرار « الملك » نمر وجماعة من أنصاره الجعليين الى حدود الحبشة وأصبحوا بذلك حجر عثره أمام طريق التجارة الرئيسى من السودان والحبشة والمذى يمر عبر القلابات (طريق جوندادار - سنار) * وهكذا كانت تلك العقبات ذات تأثير سىء فى العلاقات التجارية بين البلدين *

ومع ذلك كله فقد حاول أحد التجار الفرنسيين « فزير » Vizire — بعد موافقة محمد على — أن يجلب عدة مقادير من البن الحبشى عن طريق السودان قدرت بحوالى ٢٠.٠٠٠ رطل سنويا ، وجنى من ورائها أرباحا طائلة ، الأمر الذى جعل محمد على لا يجد موافقته له فى هذه التجارة وفضل أن يحتكرها لنفسه ، ولكن النتيجة كانت نقصا بينا فى واردات هذه السلعة وارتفاعا باهظا فى أسعارها بالسودان * وربما أراد الأحباش ألا يفيد محمد على من تجارتهم بسبب العداوة بينهما (١) *

ويبدو أن الطرفين رغبا فى ازالة ما حدث بينهما حتى تستأنف التجارة بين البلدين ، فتوسط شيوخ السودان فى هذا الأمر ، وتبدلت المكاتبات والهدايا (٢) * ويمكن اعتبار زيارة محمد على للسودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) محاولة لعودة العلاقات التجارية بين السودان والحبشة * فقد أسفرت هذه الجهود عن فتح سوق عام فى اقليم القلابات

(١) Deherain, H; Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali pp. 177-78.

(٢) انظر الوثائق الآتية : محفظه رقم ٢٦٨ عابدين — ملف السودان — وثيقه رقم ١٩ أصلية نمره ٦١ حبراء بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . من أحمد بانسا حكامدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . ، محفظه رقم ١٢٣ عابدين — ملف مشرقا — دوسيه بدون تاريخ — السودان سنة ١٢٥٤ — رحلة ساكن الجذاب ، وأيضا محفظه رقم ١٩ بحر برا صورة الوثيقة رقم ٤٣ بتاريخ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

للاشراف على حركة التجاره وأصبح يقيم فيه وكيل مشترك لكل من الحكومة المصرية والزعيم الحبشى الذى كان يحكم مقاطعة (مكادى) المتاخمة لاقليم القلابات * وانحصرت مهمة هذا الوكيل فى تحصيل الرسوم والبراءات الجمركية فى هذه المنطقة ، والتي رغب الطرفان فى أن تكون رسوما رمزية تشجيعا للتبادل التجارى بين الطرفين . شريطة أن يتم تقسيم الأيرادات الناتجة عن هذه الرسوم مناصفة بين الطرفين (١) *

وقد اشتهر سوق القلابات منذ ذلك الوقت وأصبح له شأن كبير فى تاريخ العلاقات التجارية بين السودان والحبشة (٢) *

وطبقا لهذه السياسة الجديدة بدأت الحركة التجارية تنمو بين البلدين فتم فتح طريق للتجارة بين فيزوغلى والحبشة فى عهد الحكماء أحمد باشا ، وبدأت القوافل تسير فيه (٣) *

وفى عهد محمد سعيد باشا جرت محاولات من لدنه لدفع العلاقات التجارية بينهما الى الأمام ، فأرسل أثناء زيارته للسودان برسالة الى ملك الحبشة يعبر له فيها عن المودة وحسن الجوار و « ... صلة المصالح التجارية التى هى أقوى صلة بين أعضاء العائلة البشرية ... » (٤) *

وفى مستهل عهد الخديوى اسماعيل استمرت محاولات مد الجسور وتدعيمها بين البلدين خاصة فى المجال التجارى ، ولكن يبدو أن حدوث

(١) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ مسلسل ٣١١ أصلى بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . وأيضا : دفتر رقم ١٨٩ معاونه أقاليم — مكانية رقم ٧٥١ بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٢٥٧ هـ . من الجنب العالى الى حكماء السودان .

(٢) نعوم شكير : المرجع السابق . ج ٣ . ص ٢١ .

(٣) مخفظة رقم ٢٦٨ عابدين — ملف السودان . الوثيقة السابقة .

(٤) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة الوثيقة العربية رقم ١٣ ص ١٠ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى سلطان الحبشة .

بعض المنازعات بين الطرفين قد عكر صفو العلاقات . ففى عهد الحكمدار موسى حمـدى (١٨٦٣ / ١٨٦٥) اعتدى الأقباط على حدود السودان واستطاعوا أن يستميلوا بعضا من العربان اليهم ولكن هذا الحكمدار استطاع أن يعيدهم الى سيرتهم الأولى . وزيادة على ذلك قام بتحصيل المقاتلات وفرض جزية سنوية عليها بلغت ٢٤٠٠٠ ريال . ولما كان بعض مشايخ الحدود يدفعون الجزية لملك الحبشة من قبل . منهم من ذلك وأصبحوا يدفعونها لحكومة السودان . ومع ذلك كله استمرت التجارة تزد من الجانبين الى سوق المقاتلات . فمن الحبشة كان يرد الرقيق وبعض الحيوانات كالبعال بالإضافة الى البن والذهب (١) .

وفى المقابل كانت الحبشة تتلقى الأنسجة والأردية والسروج والخيول الدنقلوية . ولكن ينبغى أن نشير هنا الى أن شيخ عربان رفاعة الشرق فى تلك المنطقة قد فرض جزية على واردات السودان فى سوق « وهناى » (٢) .

وفى أغسطس عام ١٨٧٥ حاول ملك الحبشة منع دخول البضائع الحبشية الآتية من « عدوة » الى مصوع فثار التجار غضبا ، وأمام ذلك وافق الملك على فرض رسوم مضاعفة على البضائع المتجهة الى مصوع ، فمنهم من قبل ومنهم من رفض . ونتيجة لهذا كله طلب محافظ مصوع من المسؤولين بمصر سرعة التدخل لرفع الضرر الذى أصاب التجار بسبب تصرفات ملك الحبشة ، واقترح هؤلاء التجار على الحكومة المصرية ارسال قوة عسكرية لعلاج هذا الموقف (٣) .

(١) الأرشيف الفرنسى بدار الوثائق القومية بالقاهرة — محفظة رقم ٥٩ : Annex No. I. à la lettre de M. Outrey, du 19 November; 1865. M. Munzinger Grant du Vice - Consulate de France à Mussaoue à M. Outerey. Agent et consul general de France a Alexandrie. p. 1169.

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ٣ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) دفتر رقم ٣٣ عابدين — واردات تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٩٧ ص ١٦ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٩٢ هـ . من محافظ مصوع الى سعادة خرى بك .

وقد جرت في أواخر شهر مارس عام ١٨٧٧ محاولة من جانب اسماعيل لعقد اتفاقية مع ملك الحبشة (١) * وقد ركزت هذه الاتفاقية على موضوع التجارة وضرورة تسهيل مرورها بين السودان والحبشة * وقد انتهز الخديوي فرصة طلب ملك الحبشة لبعض القوات المصرية - التي لم تفصح الوثيقة عن الغرض من إرسالها - فعرض بعض الشروط لاستمرار العلاقات الطيبة بين البلدين (السودان - الحبشة) ومن أهم شروط هذه الاتفاقية : أولا : منع التجارة في الرقيق * نانبا : إطلاق حرية المعاملات التجارية وعدم وضع قيود تحد من حرية حركتها ، واقتراح في هذا البند عدم تحصيل أية جمارك أو ضرائب على البضائع التي تصدر الى الحبشة من لدن السودان ، في مقابل عدم أخذ أية مبالغ عن نفقات الجنود المرسلة للحبشة * ثالثا : زيادة حجم التبادل بين الطرفين والترخيص لكل من يرغب من التجار المصريين أو السودانيين بالتوطن في الحبشة والقيام بالتجارة والسياحة والمحافظة على أرواحهم ، مع ضرورة بذل الجهود للمحافظة على سلامة التجارة في الطريق بين البلدين (٢) *

وهناك بنود أخرى لا تتعلق بأمور التجارة تناولها مشروع هذه الاتفاقية * ويبدو من سلسلة الأحداث العسكرية المعروفة التي جرت في عهد اسماعيل بين الحبشة ومصر ان هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ *

(١) دفتر رقم ٤٦ عابدين - وارد تليفرافات - صورته التليفراف العربي الشفرة رقم ٣٤ ص ٨٠ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ . (٣١ مارس ١٨٧٧) ارادة سنية الى غوردون باشا حكمدار عموم الأقاليم السودانية بسنيته . دار الوثائق بالقلعة .
(٢) محفظة رقم ١٠٩ - قسم الوثائق الافريقية - الفترة التاريخية (١٢٨٦ - ١٣٠١) (١٨٦٩ - ١٢٨٤) حوادث بلاد الحبشة - رسالة الخديوي اسماعيل الى الأباش . وللاسف الشديد فإنه لم يرد تاريخ محدد لهذه الوثيقة . ولكن بمقارنتها بالوثيقة السابقة رجحنا أن تكون في عام ١٨٧٧ .

التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب غرب آسيا : أهمية ميناءى سواكن ومصوع فى التجارة الخارجية :

لعبت سواكن باعتبارها منفذا تجاريا هاما على الساحل الغربى للبحر الأحمر دورا رئيسيا فى تجارة السودان الخارجية مع بلاد شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها بل والبعيدة عنها مثل الهند والصين .

فمن المعلوم انه منذ القرن السادس عشر قد خضعت سواكن للنفوذ العثمانى حين استولى سنان باشا على هذا الميناء بالاضافه الى مصوع . وقد استمرت هذه السيادة على سواكن وان تذبذبت بين القسوة والضعف (١) فقد كان هذا الميناء مع مصوع تابعين لولاية جدة ، وكان يطلق على هذه الجهات (ولاية الحبش العثمانية) ربما لانها كانت تشرف على بلاد الحبشة باعتبارها منافذ رئيسية لها على البحر الأحمر كما سبق القول . وعقب تدخل مصر عام ١٨١١ فى الجزيرة العربية الحقت ولاية الحبش بالادارة المصرية . وبعد تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ بين مصر والدولة العثمانية عادت الى ما كانت عليه سابقا . وفى عام ١٨٤٦ احيلت ادارة جمركى سواكن ومصوع الى مصر مرة أخرى فألحقت إدارتهما بمديرية التكا . إلا أنه فى عام ١٨٤٨ عاد الميناءان مرة أخرى الى جدة (٢) . وقد طلب الخديو اسماعيل إعادة ضمهما للادارة المصرية فقدم مبررات قوية لذلك الى كل من الدول الأوروبية والدولة العثمانية . فبالنسبة للدول الاوربية راح يذكرها إنها إذا ما أرادت القضاء على تجارة الرقيق فان الحل الوحيد هو وضع هذين الثغرين تحت ادارة يمكنها معالجة هذه المسألة بحزم وثدة ، أما تبعية هذه المناطق (لجده)

(١) بريكهارت : المصدر السابق . ص ٣٤٢ وما بعدها .

(٢) تسمى الجملى : تاريخ السودان . ج ٢ ص ١٩٦ .
انظر ايضا :

وهى بعيدة عنها فلا يحقق الاشراف عليها * أما المبررات التى ساقها للدولة العثمانية فكانت تتسیر الى مطامع ومقروعات الدول الأوربية فى تلك السواحل التى كانت تبدو جلية فى محاولات القناصل ونوابهم الاتفاق مع المشايخ المحليين ووضعهم تحت نفوذهم ، ولتفادى مثل هذه الأمور ينبغى ضم هذين الشغرين للإدارة المصرية وتصبح مصر بالتالى أقدر على توطيد الأمن فى هذه الجهات ، بالإضافة الى أن الدولة العثمانية لن تخسر شيئاً ، فمصر مستعدة لأن تدفع للخزانة العامة ما كانت تجبيه من جمارك سواكن ومصوع (١) * وبالفعل اعيدا للإدارة المصرية فى مايو ١٨٦٥ (٢) . وفى مايو ١٨٦٦ جعلت الاحالة وراثية وغير مقصورة على وال بعينه ، طبقا لفرمان تغيير الوراثة الصادر فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ (٣) *

وعقب تسلم الإدارة المصرية لسواكن ومصوع عين (مختار بك) محافظا لسواكن و (حسن بك رفعت) محافظا لمصوع * وفى عام ١٨٧١ تم نحل الأقاليم المطلة على البحر الأحمر — ومنها سواكن ومصوع — وتكوين محافظة مستقلة تعرف باسم (محافظة سواحل البحر الأحمر) وعين لإدارتها ممتاز باشا بلقب (مدير عام شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر) (٤) *

ومما لا شك فيه ان الحاق هذين الشغرين بإدارة مصر كانت له آثار اقتصادية هامة ، كما أوضح أحد المسئولين بالسودان . من حيث « .. تقدم التجارة والمصالح الأميرية وعمار البلاد .. » بالإضافة

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
 (٢) أنظر مجموعة فرمانات الشاهانية . فرمان ١٩٣ . دار الوثائق بالقلعة . أنظر أيضا : محفظة ١٤٢ عابدين — سودان — نرجية المكتبة التركية رقم ٦ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٨١ من القبو كتحدا الى الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقلعة .
 (٣) مجموعة فرمانات الشاهانية . فرمان رقم ٩٢٥ و ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ . أنظر : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٩٧ .
 (٤) نفس المرجع . ص ١٩٩ .

إلى « ٠٠٠ فتح واستكشف الطرق والمعابر المتصلة بسواكن من كل الجهات والحصول على التعهدات القوية واللوازم اللازمة لنقل التجارة وسير القوافل ٠٠٠ والتجارة العمومية بالأمن التام مرة كل خمسة عشر يوما من حدود الحبشة الى تاكة ، ومنها الى سواكن ومن الخرطوم والبحر (النيل) الأبيض وكردفان الى بربر ومنها الى سواكن ٠٠ » (١) •

ويبدو أن تركيز المسؤولين في السودان كان ينصب بصفة رئيسية على ميناء سواكن أكثر من مصوع ، لأن الأخيرة لم تكن لها نفس أهمية سواكن ، فأكثر إيرادات مصوع كانت تنحصر في الجمر الذي يتقاضى عن الرقيق ، ثم تقلص هذا الإيراد عقب الاتفاقيات التي وضعت بين الدول ، بالإضافة الى أن نفقاتها كانت أكثر من إيراداتها ، وأخيرا فإنها كانت مسرح نزاع دائم لتأخمتها حدود الحبشة (٢) • أما سواكن فقد كانت في موقع متوسط بين جهات مصر والسودان الممتدة على ساحل البحر الأحمر ، كما أنه يمكن عن طريقها نقل كل واردات وصادرات السودان (٣) •

التجار الحدارية : *

أما معظم نشاط سواكن التجاري فقد كان بأيدي الحدارية الذين كانوا حلقات وصل بين أسواق السودان المحلية مثل بربر وشندي وسنار والتاكة والأبيض وبين موانئ بلاد العرب على البحر الأحمر

-
- (١) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٤ ، ورقة رقم ١٤٥ من جعفر باشا مظهر الى الاعتبار الخديوية الكريمة بتاريخ ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) محافظ أبحاث السودان : نفس الوثيقة .
(٣) دفاتر محافظة سواكن — دفتر (عربي) صادر ٤/٢/٥/٤ مكاتبة رقم ٥ بتاريخ ١٩ ل سنة ١٢٨٨ هـ (ديسمبر ١٢٧١ هـ) .
أنظر أيضا : صلاح الشامي : الموانئ السودانية ص ١٤٠ .
(*) أو الحضارمة نسبة لحضرموت موطنهم الأصلي في جنوب بلاد العرب .

بوجه خاص ، إذ كانوا يحصلون من أسواق هذه المناطق على السلع والمنتجات التي اشتهرت بها ويقومون بتصديرها الى الحجاز واليمن • وكان لهم في جدة حى خاص بهم ، بالإضافة الى وكلاء تجاريين منتشرين في أكثر مدن الحجاز ، كما كانت لهم السفن التجارية التي تقوم بنقل التجارة بين سواكن وجدة ومخا والحديدة •

ومن أهم السلع التي صدرها السودان عن طريق سواكن الرقيق ، فقد كان هذا الميناء أحد الأسواق الرئيسية لتصديره حيث كان يأتيها من سنار وشندى وغرب السودان والحبشة • وقد تضاعلت هذه التجارة بمرور الأيام خاصة عقب أحكام منافذ خروجها في عهد اسماعيل وبالذات منفذ البحر الأحمر • كذلك فقد صدرت السودان الى بلاد العرب الذرة التي كانت تأتيها من اقليم التاكة الذي اشتهر بوفرة انتاجه منها مع جودة نوعها • كما اشتهد الطلب في الحجاز واليمن على الحصر السودانية وذلك لجودة نوعها ، فكان البدو يقبلون عليها ، كما كان أهل الحضر في المدن يقبلون عليها أيضا وخاصة في مكة والمدينة حيث كانت المساجد تفرش بالحصر •

كذلك فقد استوردت بلاد الحجاز من السودان القرب والأكياس الجلدية التي غدت من منتجات السودان الرئيسية وكانت تستخدم في حفظ ونقل الماء والزاد • كما تم تصدير الزبدة الى بلاد الحجاز حيث كانت مكة والمدينة تعتمد ، في حاجتها الى هذه المادة الغذائية ، وخاصة في موسم الحج ، على ما كان يورد من السودان عن طريق سواكن ومصوع (١) •

ولقد لقي الذهب السنارى — وخاصة زمن محمد على — طريقه الى بلاد العرب حتى ان البعض يقدر متوسط ما كان يدخل بلاد اليمن منه

(١) نسبم مقار : المرجع السابق . ص ٣٨٢ .

بين عشرة آلاف واثنى عشرة أقة سنويا ، وكان هذا الذهب ينقل — غالبا — عن طريق ميناء مصوع الى اليمن (١) • وقد يكون في هذا الرقم مبالغه إذا علمنا أن محمد علي — بجهوده الكبيرة التي سبق الحديد عنها — لم يستطع الوصول الى نتائج مرضية بالنسبة للذهب •

وفي عهد الخديوى اسماعيل نلاحظ تصدير الصوف والصمغ العربى والجلود بأنواعها والتمر هندى والسنامكى والسيوف الى بلاد الجزيرة العربية وما جاورها عن طريق ميناء مصوع (٢) •

أما السلع التي كانت ترد الى السودان عن طريق البحر الأحمر فكانت الأقمشة على اختلاف أنواعها والبن والخرز الزجاجى المعروف باسم ريش Reich والمصنوعات المعدنية البسيطة مثل الأجراس والمسابع والصابون والسكر وخشب الصندل والتوابل • ولم تكن جميع هذه السلع تأتى مباشرة من بلاد العرب ، بل كان بعضها يأتى من بلاد الهند والبعض الآخر من أوروبا عن طريق موانئ البحر الأحمر الشرقية والخليج العربى الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب وتربطها بسواكن علاقات تجارية أهمها جدة والحديدة ومخا ومسقط والبصرة (٣) •

وتجدر الإشارة هنا الى الأطماع الانجليزية التي بدأت في منطقة البحر الأحمر خاصة بعد انفتاح المجال أمامها للسيطرة على الهند • ومن هذه الأطماع سيطرتها على عدن لتصبح قاعدة لنشاطها التجارى والسياسى في المنطقة • حيث قامت بتحسينها عسكريا وجعلها محطة للسفن ومستودعا للتجارة مع بلاد العرب والساحل الافريقى المقابل •

Hamnt; L' Egypte Sous Mehemet Ali, Tome. II, p. 588. (١)

أنظر أيضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٨٣ •

(٢) محفظة رقم ٥٣ معية — مرفق (د) — محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ٣٦ دفتر رقم ٢ (بيان بالاصناف الصادرة من كمرك مصوع الى كمرك السويس باسم الخواجة كرستو غرانساوى من ابتدى ١٠ رجب سنة ١٢٨٩ هـ — ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ) دار الوثائق القومية بالقاهرة •

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٨٤ •

كما حاولت الاحتفاظ بعملاء تجاريين لها في موانئ سواكن ومصوع وزيلع وبربره سواء من بين السكان أو من الفرس أو الهنود أو من الانجليز في بعض الأحيان • ولم يقبل محمد على هذا النفوذ الانجليزى وسعى الى وقفه إلا أن انجلترا عارضته بشدة واضطرته الى التنازل عن مشروعاته التوسعية في الساحل الافريقى (١) • بل واضطر أيضا الى الانسحاب من بلاد العرب عقب اتفاقية لندن ١٨٤١ وان كان قد سعى في ضم سواكن ومصوع بعد ذلك كما مر بنا •

وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الادارة المصرية في السودان للاهتمام بسواكن لتلعب دورها في التجارة الخارجية والداخلية إلا أن البعض يشير الى تذبذب سواكن تجاريا في عهد الحكم المصرى بصفة عامة • ويفسر هذا التذبذب بأن مصر كانت لا تحرص على بذل تلك الرعاية أو خدمة التوجيه البحرى إلا في أضيق الحدود وفي الحالات التى يتعارض فيها ذلك مع أغراضها الاقتصادية والعسكرية (٢) • كما يذهب نفس القائل الى أن رحله محمد على السودان كانت تهدف — من بين ما تهدفه اليه — الى جذب تجارة السودان الى موانئ البحر المتوسط ، بدلا من موانئ البحر الأحمر ، لتأخذ طريقها الى أوروبا (٣) • ويمضى نفس الباحث قائلا : لقد بقيت لسواكن نفس الصورة المهزوزة في التجارة السودانية حتى حدث الانقلاب الخطير الذى قفز بها الى الازدهار والشهرة ونعنى به تسق قناة السويس وافتتاحها للملاحة الدولية عام ١٨٦٩ وترتب على ذلك شدة الصراع بين انجلترا وفرنسا للانتفاع بالطريق وظهور أطماعهما السياسية والاقتصادية في تلك الجهات • لذلك فقد كان طبيعيا أن تعطى مصر اهتمامات لممتلكاتها في سواحل البحر الأحمر — ومنها سواكن ومصوع وغيرهما — حيث شهدت هذه الفترة رغبة مصر الحقيقية في عودة

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٥ .

(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٣٥ .

(٣) نفس المرجع . ص ١٣٥ .

سواكن الى النشاط والازدهار من خلال اهتمامها بالطرق البرية الموصلة اليها وإرساء قواعد الأمن على طول هذه الطرق وتوفير المياه العذبة (١) .
والجدول التالي * يبين السفن التى زارت سواكن فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٦٩ — ١٨٧٧ .

السنة	السفن	عدد السفن	السفن المصرية		السفن الأجنبية	بالطن الحمولة
			تجارية	حربية		
١٨٦٩	٤٦	٣٠	—	—	١١٦	—
١٨٧١	٢٠١	٦٩	—	—	١٣٣	—
١٨٧٣	٣٤١	٣٣٠	١٤	٧	٥٨٤٣٢	٧
١٨٧٤	٢٦٤	١٩٦	٣٩	٩	٤٤٩٠١	٩
١٨٧٥	٣١٩	٢٩٥	٢١	٣	٦٠٣٣٦	٣
١٨٧٦	٢٢٥	١٧٨	١٢	٣٥	٧٦٠٥٨	٣٥
١٨٧٧	٢٣٠	١١١	١٣	١٠٦	٨٠٥٢٣	١٠٦

ومن هذا الجدول يمكن أن نستخلص ما يلى :

أولا : زيادة عدد السفن وحمولتها بشكل مضطرد من سنة الى أخرى . وتتفق هذه الزيادة مع زيادة حركة ورود السفن الى البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية من ناحية والنشاط الانتاجى والتطور الاقتصادى المترتب على توجيه الحكومة واستقرار النظام فى الأقاليم السودانية من ناحية أخرى .

(١) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٣٨ .
Douin; op. cit., Tome. II. 3^{eme} Partie. p. 1245. (*)
وانظر أيضا : صلاح الدين الشامى : المرجع السابق ص ١٤٨ .

ثانيا : التناقص الواضح في عدد السفن الأجنبية خلال السنوات الخمس منذ عام ١٨٧٢ • وواضح أن مجموع تلك السفن قبل عامي ١٨٦٩ ، ١٨٧١ كان يمثل نسبة تبلغ من ٦٠ ٪ الى ٨٠ ٪ من عدد السفن التي تزور سواكن ، وانها هبطت بعد ذلك الى نسب مثوية ضئيلة للغاية • ويمكن ربط الزيادة فيها قبل عام ١٨٧٢ باقبال السوق الأوروبية على استيراد الفطن السوداني بسبب تعذر الحصول عليه من الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية وتفسير هذا التناقص في عدد السفن الواردة الى هذا الميناء يزداد صعوبة إذا علمنا أن حركة السفن الأجنبية في ميناء مصوع لم تتأثر خلال تلك الفترة (١) وربما كان للجهود المبذولة في وقف تجارة الرقيق وإحكام الرقابة على سواكن أثر في قلة ورود هذه السفن الى سواكن • وقد تساعدنا إحدى الوثائق في تفسير ذلك ، حيث تشير الى ظهور الأمراض « ببر الغرب » (ساحل البحر الأحمر الغربي) ، الأمر الذي أدى الى عمل « كورنثينة » على المراكب الواردة الى سواكن ، مما دعا الى إلحاق الضرر البالغ بالتجار وتعطلت حركة التجارة ، بالإضافة الى انتشار الأمراض التي أثرت بشكل وبائي على الجمال والأبقار حيث نفقت الآلاف منها • وقد أدى ذلك بشكل مباشر الى نيل حركة القوافل الموجهة الى سواكن والتي تعتمد اعتمادا كبيرا على الجمال (٢) • ويمكن أن نضيف الى هذه الأسباب جميعا الظروف العسكرية التي حدثت بين مصر والحبشة في تلك الآونة •

زبلع والتجارة الخارجية : *

ترجع أهمية هذا الميناء الى أنه يقع في خليج عدن قرب مدخل البحر الأحمر من الجنوب ، وكان تابعا من قبل لولاية اليمن قبل أن

(١) صلاح الدين الشامي : المرجع السابق • ص ١٤٩ •
 (٢) دفتر رقم ٣١ عابدين - وارد تليفونات - صورة التليفون العربى الشفرة رقم ١ ص ١ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٢ هـ •
 (٣) الحقت جهات زبلع وبربره وهرر بحكمداية عموم السودان عام ١٨٧٧ • وكانت زبلع وبربره من قبل تابعتين لحكمداية هرر • (الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٩ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٩٤ هـ) •

يدخل الى حوزة الادارة المصرية ، ولم يكن هذا الميناء صالحا للملاحة فعملت الادارة المصرية على اقامة مرسى له بطول ٣٥٠ مترا وعرض سبعة أمتار حتى يمكنه استقبال التجارة الخارجية وتصدير بعض منتجات السودان والجهات المجاورة له ، وكانت تجارة زيلع مع جهتين رئيسيتين : الأولى عدن وكانت تستورد منها الأرز والذرة والأقمشة البيضاء والصمغ والسكر والدخان والخرز • أما الثانية فكانت مع القبائل المجاورة لها حيث تبعت اليها بالأغنام والأبقار والمسلى والتمر هندي • وهذه البضائع تستبدل بالعاج وريش النعام والصمغ والبن والرقيق قبل الغاء تجارته رسميا — حيث كانت زيلع من أكبر الأسواق الافريقية لبيع الرقيق (١) •

ولتوسيع نطاق التجارة وتنظيمها في زيلع عملت الادارة المصرية على ادخال واستعمال النقد والموازين والمكاييل ، ونشر الأمن والطمأنينة بين الأهالي مما أدى الى اتساع نطاق التجارة الخارجية بين زيلع والجهات المجاورة • كما قامت أيضا بتوسيع الطريق الموصل بين زيلع وهرر الأمر الذى كان له الأثر الفعال في رواج التجارة ، بالإضافة الى تسهيل انشاء محال تجارية لمن يرغب من الأهالي والأجانب وذلك عن طريق منحهم أراضى للبناء من أجل هذا الغرض (٢) •

بربره والتجارة الخارجية :

كانت بربره بطبيعتها ميناءً تجاريا صالحا لرسو السفن • ولم تكتف الادارة المصرية بذلك بل أولته عنايتها • فقد زار (ميكلوب باشا) رئيس عموم الفنارات والموانى فى عهد اسماعيل وعين الأماكن الملائمة لانشاء

(١) دسر رقم ١٤٨ صادر معية • ص ١٦ — وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ١٢٩٦ • امر الى أبو بكر أفندى شحيم وكيل محافظ زيلع وملحقاتها • أنظر أيضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر • ص ١٧٥ وما بعدها • وأيضا : عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل • الجزء الاول • ص ١٣١ — ١٣٢ •
(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٧٦ •

فنار لارتداد السفن ومرسى لتسهيل عملية الشحن والتفريغ (١) • كما حرصت الادارة المصرية على تنظيم عملية البيع والشراء في بربره ، فأرسلت الموازين والمكاييل من مصر لتوحيد الوزن والكيل وأيضا العملة التي كانت تجلب من عدن (٢) • وقد أدت هذه الاصلاحات الى اتساع نطاق التجارة واستقرار القبائل بالمدينة بعد أن كانت لا تبقى بها إلا زمن الموسم الذي يمتد من اكتوبر الى مارس من كل عام (٣) • وهذا يذكرنا بسياسة ابراهيم باشا في سوريا إذ كان أكبر همه توطئ البدو الرحل وتحضرهم حتى تتبدل طباعهم الجافة من خلال المشاريع الزراعية والعمرانية • ومن الغريب حقا ان الحكومة المصرية — رغم تحملها تلك الجهود في بربرة — بالاضافة الى أعباء الأمن والادارة — اضطرت تحت ضغط الحكومة الانجليزية الى عدم تحصيل جمارك بحجة أن أغلب علاقاتها التجارية كانت مع عدن ، كما اضطرت أيضا الى فتح واعداد ميناء (بلهار) للتجارة — وهو ميناء صغير لا يبعد عن بربره سوى مسافة قليلة — الأمر الذي كبدها نفقات باهظة (٤) •

Douin, op. cit., Tome III, 3 eme Partie p. 578. (١)

أنظر أيضا : شوقي الجبل : المرجع السابق ص ٢٩ ، نفس المؤلف : سياسة مصر في البحر الأحمر ص ١٤٥ .

(٢) أنظر محنظة تحت عنوان (السودان) (جمادى الثانية — آخر ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) دفتر رقم ١١ معبة صادر صورة المكاتبة الصادرة رقم ١٠٢ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٩٣ هـ . ص ٨١ من المعبة الى المالية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ٣٧١٤ وارد معبة عربى . ص ١٤٦ رقم ٢ (فى ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) ، أنظر أيضا : شوقي الجبل : تاريخ السودان ، جزء ثان ، ص ١٠٩ ، أنظر أيضا : محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية هرر — رباع — بربره . ص ٤٦ . (كانت قبيلة « عيال » الصومالية على سبيل المثال لا تقيم فى بربرة الا فى فصل الشتاء فبدات تبني بيوتا ودكاكين نقضى فيها العام كله : (نفس المرجع . ص ٤٦) .

(٤) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليفرافات — صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ١٨٧ ، ص ٣٣ بتاريخ ٩ رجب ١٢٩٥ هـ (٩ بولبة ١٨٧٨) من غوردون باشا بالخرطوم الى خرى باشا .

أنظر أيضا : شوقي الجبل : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

وقد اعتاد التجار الذين يأتون الى بربره في زمن الخريف من عدن أو مخا أو الحديد أن ينزلوا في بيوت من الخشب ويدفعوا « أرضية » عن كل بيت « للإبانة » الصوماليين نظير المحافظة على هذه البيوت في غير أوقات الموسم . وقد رأت الادارة المصرية بعد انتظام الأمور في بربره تحصيل هذه المبالغ للحكومة فقط ، لأنها أصبحت هي المسئولة عن الأمن في بربره ، ولكن اتفق أخيرا على أن تقتسم هذه الضريبة بين الحكومة وبين « الابانة » الصوماليين (١) .

ولتنظيم عملية التجارة ببربره جمع المحافظ تجار وأعيان البلد وطلب منهم أن يختاروا رئيسا لهم « سر تجار » لتنظيم أمور الأخذ والعطاء ولتقديم الضمانات من التجار والأشراف على شئونهم . كما أرسلت نسخة من القوانين التجارية المعمول بها في مصر للعمل بموجبها في بربره (٢) . ونتيجة لتلك الجهود ساد الأمن جهات بربره وأصبح « ... بمقدور سيده واحدة المسير منفردة ببيعها ، دون التعرض لها من جانب القبائل الصومالية ... » (٣) .

ولقد كانت تصدر بربره الى عدن الأبقار التي كان يصل عددها سنويا الى ما يقرب من عشرة آلاف بقرة ، بالإضافة الى الخراف التي بلغت ما يقرب من ستين ألف خروف سنويا . بالإضافة الى الزبدة (٤) . وتجدر الإشارة الى أن عدن كانت تعاني كثيرا طوال أشهر الخريف قبل امتداد الادارة المصرية الى بربره لتعذر شحن الأبقار والخراف على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العاصفة ، حتى جاءت هذه

(١) شوقي الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر . ص ١٤٧ .
 (٢) دفتر رقم ٣٧١٥ صادر محافظة بربره — وثيقة رقم ٤٤ في ١٤ شوال سنة ١٢٩٣ هـ .
 (٣) دفتر رقم ٣٧١٤ — معية عربى — وثيقة رقم ٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، أنظر أيضا : شوقي الجمل : المرجع السابق ص ١٤٨ .
 (٤) محمد صبرى : المرجع السابق . ص ٤٦ .

الادارة المصرية فأمكن حل هذه المشكلة واستمر التبادل التجارى مع عدن طوال العام (١) .

تجارة هرر الخارجية :

كانت هرر متصلة ببربره تجاريا ، فقد اعتادت تجارتها أن تصدر وترد عن طريق ميناء ببربره ، لذلك فقد قيل « ان الذى يهيمن على ببربره يمسك بيده ذقن هرر » (٢) . وقد أصبحت هرر — بموقعها الذى يميل الى الداخل بعيدا عن الساحل — تحتل مكانه تجارية لا بأس بها إذ مكنها هذا الموقع من تجميع البضائع الآتية من داخل القارة ومن الحبشة لتصدر بعد ذلك عن طريق ميناء ببربره وأحيانا عن طريق زيلع ، وكذلك الحال بالنسبة للبضائع الواردة من بلاد العرب واليمن وعدن (٣) .

وينبغى أن نفرق بين مرحلتين من مراحل تطوّر هرر التجارى . ففى المرحلة الأولى ، وهى التى سبقت امتداد الادارة المصرية اليها ، عاشت فى تخبط تجارى حيث سادتها الفوضى وانعدام الأمن فقد كان المسافرين لا يأمن على حياتهم وبضائعهم إلا اذا أضفت عليه كل القبائل التى يمر بها حمايتها ، فلا يخطو خطوة إلا برفقة رجل من رجال القبيلة المسمى بالابان مقابل أجر فاحش . وقد ذكر مستر بروكمان ان الرحالة برتون كان لا ينتقل خطوة إلا بصحبة الابان يسلمه الواحد منهم لزميله حتى تنتقضى الرحلة (٤) .

وأما المرحلة الثانية والتى أصبحت فيها هرر تحت الحكم المصرى

(١) محمد صبرى : الامبراطوريه السودانيه فى القرن التاسع عشر ص ٣٧ .

(٢) محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقيه . ص ٣٢ .

(٣) جريده أركان حرب الجيش المصرى . العدد رقم ٦ غرة شعبان سنه ١٢٩٤ هـ . الجزء السادس — المجلد الأول . ص ٦٥ .

(٤) Brockman; British Somali land. p. 217.

وأنظر ايضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢٢٢ ، وكذلك جريده أركان حرب . العدد السابق ص ٦٥ .

فقد عمل خلالها رعوف باشا بمجرد ضمها على تأمين الدروب والقضاء على قطاع الطرق ، وعانى كثيرا في هذا الصدد من قبائل « الجالا » . وقد نصح رؤوف بضرورة استمالة هذه القبائل عن طريق « ٠٠٠ » صرف مؤونة « لهم وترتيب « ماهية » لشايخهم والحقاق بعض أفرادها بحفه عساكر بمرتبات دون حمل السلاح ، بل يكتفى بأسلحتهم المعتادين عليها حتى يمكن اصلاح أخلاقهم وتهذيب طباعهم وفي النهاية يستتب الأمن وتزوج التجارة ٠٠٠ » (١) .

لقد كانت التجارة — تقريبا — هي المرتزق الوحيد لأهل هرر وأغلب المناطق المجاورة وكانت قاصرة — من قبل — على فصل الشتاء . وذلك لأن أغلب قبائل السومال والجالا كانت تقيم في الصيف على الهضبات لاعتدال مناخها وتعمل على رعى قطعانها الضخمة . وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية على اجتياز البحر والوصول للموانئ (٢) .

وقد أصبح من الضروري للتجار القادمين من بلاد العرب والمتوجهين الى الأجزاء التابعة لهرر والى بلاد الحبشة أن يَمروا بهذه المدينة . صحيح أن هناك طريقا من « تجره » والحبشة لكنه غير آمن من قبائل الدناكل وباقي العربان المقيمين حوله (٣) .

أما أهم واردات بلاد الجزيرة العربية الى هذه الجهات فكانت تتمثل في الأقمشة « البفت » وبعض الحرير الخاص بالأمراء ، والخرز وبرادة النحاس (٤) ، كذلك فقد حملت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن الأرز الهندي والتمر والأقمشة القطنية والدخان والحديد والسكر والشاي والنبيد (٥) .

-
- (١) شوقي الجمل : المرجع السابق ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٣٩ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ .
 (٢) محمد صبرى : المرجع السابق . ص ٣٢ .
 (٣) حريدة أركان حرب ، العدد السابق . ص ٤٦٥ .
 (٤) الوثائق الأفريقية — محفظة ١٠٣ — بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٥) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٣٢ .

وكان التجار العرب يسترون من هرر البن الجيد والجلود المدبوغة وغير المدبوغة وما يرد الى المدينة من البضائع الأخرى كجلود النمر ورئيس النعام وسن الفيل ، وكان أمير هرر من قبل له حق احتكار الصنفين الأخيرين (١) •

وقد إقترح محمد رءوف أن تتولى الحكومة المصرية تجارة هرر بنفسها حتى يمكن الحصول على ثلاث فوائد : الأولى الحصول على جملة المكاسب الناشئة عن التبادل التجارى مع بلاد الجزيرة العربية ، والثانية زيادة تداول العملة • وأما الفائدة الثالثة فكانت زيادة إيرادات جمارك مصر والسويس وزيلع وهرر ، بالإضافة الى المكاسب التى سوف تعود على الأهالى (٢) • ويبدو أن الحكومة فى مصر لم توافق على مثل هذا الاقتراح لأنها آثرت ألا تعود القهقرى لسياسة الاحتكار التجارى •

وفى ختام عرضنا للأوضاع التجارية بالنسبة للمناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر نخرج بحقيقة هامة مؤداها أن تلك المناطق كانت حلقة وصل بين تجار الجزيرة العربية واليمن وعدن وحضرموت وبلاد الهند والصين وغيرها من المناطق المجاورة وبين مديريات السودان وما جاورها من البلدان الافريقية • فقد هيا لها موقعها الجغرافى أن تشرف على التجارة الخارجية السودانية هناك وأن تلعب هذا الدور الخطير الذى ازدادت خطورته وأهميته بامتداد الادارة المصرية اليها •

التجارة مع شمال وغرب أفريقيا :

كذلك فقد كان للسودان اتصالات تجارية بشمال وغرب افريقيا ترجع الى زمن بعيد وان كانت هذه الاتصالات لم تصل الى درجة تماثل

(١) الوثائق الافريقية — الوثيقة السابقة •

(٢) نفس الوثيقة •

تجارته مع الحبشة أو بلاد العرب • وبطبيعة الحال كانت هذه الاتصالات مع الأقاليم السودانية المتاخمة مثل كردفان ودارفور ، فقد حفلت الأبيض عاصمة كردفان بالتجار المغاربة ، لدرجة أننا نسمع عن حي خاص بهم في هذه المدينة ، وفي هذا الحي كان يتم عرض السلع والمنتجات التي يجلبونها من بلادهم بالإضافة إلى السلع التي ترد إليهم من أوروبا (١) • وبالمثل نسمع عن نشاط المغاربة بالفاشر عاصمة دارفور أمثال الشيخ عبد الغنى التازي وكيل دولة المغرب الأقصى بمصر • ممن رغبوا في تأسيس شركات تجارية في دارفور ، بالإضافة إلى الشريف العمراني والحاج الحبابي المغربي (٢) • وفي الجانب المقابل نرى التجار السودانيون من كردفان ودارفور يبعثون بتجارتهم إلى طرابلس وغيرها محملين بمنتجات بلادهم حيث يلتقون بالتجار المغاربة ويعقدون معهم الصفقات التجارية •

وقد لعبت امبراطورية البرنو (٣) في وسط افريقيا دورا هاما في تجارة السودان مع شمال وغرب افريقية ، فهي بحكم هذا الموقع كانت ملتقى للقوافل التجارية • وقد تعرضت هذه الامبراطورية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لفترة من الفوضى واجهت فيها التجارة نوعا من السلب والنهب من جانب السكان وغارات البدو • ولما تولى محمد الكانمي زمام الأمور استطاع القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، كما وضع حدا للحروب والفتن الداخلية مما كان له الأثر في انتظام حركة القوافل التجارية • وقد اشتهرت دارفور بقافلها التجارية مع شمال وغرب افريقيا سيما خلال السنوات الأولى من حكم محمد على حين دب الخلاف مع سلطان دارفور • ولست مع القائلين ان هذا الخلاف كان مرده إلى تعرض محمد على لرجال قافلة دارفور المتجهة لمصر

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٨٣ .
(٢) ابراهيم عبده : مصر وأفريقية في العصر الحديث • ص ٢٨ .
(٣) حول هذه الامبراطورية انظر : ابراهيم طرخان : امبراطورية البرنو الاسلامية • الهيئة المصرية العامة للكتاب .

واستيلائه عليها بثمان بخس ، وانما العامل الأول وراء هذا الخلاف هو تخوف سلطان دارفور من محمد على وسياسته في ضم الأقاليم السودانية خصوصا وان الحدود قد أصبحت متاخمة والجولة القادمة كانت تنتظر دارفور ، فكان طبيعيا أن يخشى السلطان على عرشه من التهاوى الأمر الذى نشأ عنه تخوف سياسى تلاء فتور تجارى ، وان كان الباشا قد عمل حثيثا لتنشيط التبادل التجارى بين الطرفين كما سبق القول * * إذن ليس هنالك ما يدعو لترديد مثل هذه الأقاويل عن علاقة محمد على به آنذاك * والمسؤولون عن ترديد هذه النغمات هم أولئك الأوروبيون الذين كانوا في إستياء شديد من سياسة محمد على الاحتكارية (١) .

ومن أهم السلع والمنتجات السودانية التى وجدت طريقها الى شمال وغرب افريقية الرقيق (قبل الغائه) حيث كان يمثل السلعة الأولى في التجارة مع بلاد المغرب * ويليه الذهب وريش النعام وشن الفيل والوسائد الجلدية ذات الألوان الزاهية والأوانى الخشبية التى يتم صنعها بكردفان * أما أهم واردات بلاد المغرب فكانت الأقمشة المصبوغة والمنسوجات الحريرية والبسط وأوراق الكتابة والطرابيش المغربية والقفاطين وأقداح القهوة .

قوانين ونظم التجارة السودانية :

وفي ختام هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير الى النظم والقوانين التى كانت تحكم التجارة السودانية بشكل عام ومدى تطورها خلال فترة الدراسة * ففي عهد محمد على سبق أن أشرنا الى نظام الاحتكار الذى كان يطبقه الباشا فيما يتعلق ببعض السلع والمنتجات السودانية حتى استطاع الأوروبيون بعد كثير من الضغوط وبعد وفاة

(*) انظر فيما سبق ص ١٦١ ، ١٦٢ .
(١) من امثلة هؤلاء :

— Driault : La Formation de L'empire de Moh. Ali p. 82.
— Jomard : Observation Sur : le voyage au Darfur. p. 7.

البائسا أن يصلوا الى مأربهم بالغاء الاحتكار ، وبدأت التجارة السودانية تخضع لمعاهدة بلطة ليمان الموقعة بين إنجلترا والدولة العثمانية في ١٩ أغسطس ١٨٣٨ والتي تم العمل بها في مارس عام ١٨٣٩ * وقد كان لهذه المعاهدة آثار عميقة في المجال الاقتصادي ، فموجبها ألغى الاحتكار ومن خلالها أيضا تسلك الأجانب الى السودان * فقد نص في بندها الثانى على ضرورة أن يكون لرعايا دولة بريطانيا العظمى أو لمن ناب عنهم في كل الممالك العثمانية أن يشتروا كل الأصناف — بدون أدنى استثناء — من حاصلات تلك الممالك زراعية كانت أم صناعية ، ويتعهد الباب العالى بإبطال احتكار الحاصلات الزراعية وغيرها من الأصناف ، والغاء الرخص التي كانت تعطيها الحكومة المحلية بترائها ونقلها من مكان لآخر بعد شرائها *

أما فيما يتعلق بالنظام الجمركى الذى كان يسود السودان — آنذاك — فانه كان يسير وفقا لنظام الدولة العثمانية والذى يتم تنفيذه في سائر أملاكه ومنها مصر ولكن بشئ من التحويل أو التطوير الذى كان يدخله عليه حكام مصر *

وينبغى أن نشير هنا الى أن مصر والسودان كانتا — آنذاك — تعتبران حكومة واحدة ، ولذلك فقد اقترح في عام ١٨٤١ التخلص من متاعب إنشاء جمارك متعددة في جهات السودان والاكتفاء بإنشاء جمرك واحد في أسوان التى « * * * هى باب السودان » * واستيفاء رسوم البضائع الصادرة من مصر الى السودان والواردة من السودان الى مصر في هذا الجمرك ، على أن يقيم أمين الجمرك في كرسكو (١) *

وتشجيعا للتجارة الخارجية في عهد محمد على بين كل من دارفور

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان

والحبشة كان يكتفى بتحصيل رسوم جمركية خفيفة (١) وكانت القيمة الجمركية التي تؤخذ على البضائع الآتية من السودان مارة بأسوان وليس معها « رفتية » (شهادة) تبلغ ١٢ ٪ وذلك اعتبارا من ذى الحجة سنة ١٢٥٧ (أول يناير سنة ١٨٤٢) (٢) *

وفي عام ١٨٦٥ أبلغ مأمور ادارة بندر مصوع المسئولين بمصر انه سوف يأخذ رسما جمركيا يبلغ ١٢ ٪ على السنامكي والصمغ المصدر عبر هذا الميناء (٣) * وتسهيلا لدفع الرسوم بجمرك أسوان طلب اليه أن يقبل دفعها عينا من أصناف السلع اذا لم يدفعها التجار نقدا (٤) *

ورغبة في تشجيع التجار المسلمين على العمل بالتجارة أمر محمد على في أغسطس عام ١٨٤٢ أن يكتفى بتحصيل ٥ ٪ منهم فقط كرسوم جمرك على البضائع الواردة الى مصر بمعرفتهم (٥) * وقد أعفى محمد على البضائع التي كانت ترد باسم القناصل من الرسوم ، كما أعفى أيضا الحيوانات التي ترد من السودان الى مصر من هذه الرسوم (٦) *

وفي عام ١٨٤٥ أصدر محمد مادة تقضى بتوقييع العقاب الشديد على من يتعامل مع بعض التجار الذين وضعوا « بالقائمة السوداء » وألحق

(١) رئاسة مجلس الوزراء . ص ١٩ .

(٢) دفتر رقم ٢٦١ معاونة أقاليم — صورته برجوة الوثيقة رقم ٧ بتاريخ ٨ محرم سنة ١٢٥٨ هـ . الى محمود بك مدير الإيرادات .

(٣) دفتر رقم ٤٦٦ — معية تركي — مكاتبه رقم ٤٧٨ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ من خليل بك مأمور ادارة بندر مصوع الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) محفظة رقم واحد بعنوان (موضوع التجارة) (١٢٤٢ — ١٢٦١ هـ) وثيقة بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ . من الجنب العالى الى الباشمعاون . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٥٨ هـ . من الجنب العالى الى الباشمعاون .

(٦) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ ، وأبضا : نفس المحفظة ، وثيقة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

هذه المادة بفانن الحقانية * ويرجع السبب في اصداره تلك المادة الى ذلك التلاعب الذي حدث في احدى صفقات الأختساب التي عقدها مجموعة من التجار وكانت مخالفة للمواصفات التجارية * وقد تم ابلاغ هذه المادة القانونية لكافة الجهات ومن بينها الخرطوم (١) *

وفي عهد محمد سعيد صدرت الأوامر بأخذ رسم جمرك مقداره ٥ ٪ على البضائع الواردة من دارفور وجهات النيل الأبيض ان كان المرض منها التوزيع داخل الحكومة ، وتحصيل ٣ ٪ ان كانت بضائع امراية (ترانزيت) بغرض تصديرها الى الخارج ، على أن يوضع على الأخير خاتم يبين أنها بضاعة ترانزيت (٢) *

ويبدو أن الرسوم الجمركية في عهد اسماعيل قد وصلت الى ٨ ٪ الأمر الذي أدى الى شكوى التجار الأجانب وتذمرهم من هذه الرسوم ومطالبتهم بتخفيضها الى ١ ٪ فقط ، وبالفعل صدرت أوامر بذلك ، ريعت في جمرك سواكن (٣) * ويبدو أن هذه الاستجابة السريعة جاءت حين علم المسئولون ان جمرك طرابلس الغرب يحاول منافسة الجمارك المصرية عن طريق تخفيض نسبة رسومه الجمركية الى ٢ ٪ فقط بدلا من ٨ ٪ حتى تتحول تجارة السودان وافريقية عن طريق مصر الى

(١) دفتر رقم ١٩٨٣ صادر جمعية الحقانية — ترجمة المادة التركية
رسم ٢٧٤ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦١ هـ . الى مدير الخرطوم . مادة .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أمين سامي : تقويم النيل وعصر عباس ومحمد سعيد . مجلد ١
ج ٢ . ص ١٣٦ .

(٣) أنظر الوثائق المالية : — محفظة رقم ٥١ معية تركي — وتيقنه
رسم ١٨٣ بتاريخ ٢٥ جادى الأولى سنة ١٢٦١ هـ مرة ٢ من يوسف فهمي
أمين الجمارك المصرية العامة الى مهردار الخديوى وأيضا : نفس المحفظة ،
وسيد رقم ٤١٦ (باللجنة المصرية) بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ . من
اسماعيل صدوق نازل المانية الى مهردار خديوى وأيضا : دفتر رقم ١١ صادر
معية — صورته المكتوبة رقم ٩ ص ١٢١ بتاريخ ٢٢ رمضان ١٢٩٣ هـ .
من المعية السنية الى ديوان الزراعة والنجارة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذا الميناء • ولكن المسئولين بمصر فطنوا لذلك وأصدروا أوامره
بتخفيض هذه الرسوم كما ذكرنا (١) •

وفي ٣١ مارس عام ١٨٧٧ طلب غوردون باننا حاكم السودان
استخدام موظفين أوروبيين في جمارك السودان خصوصا بجهات بربر
وسواكن ومصوع وزيلع وتيجره بالإضافة الى أسوان • وقد وعد
المسئولون ببحث هذا المطلب ، ولكن لم نقرأ في الوثائق — اننى اطلعنا
عليها — ما يفيد تحقيق هذا المطلب (٢) • ويمكن تفسير هذا المطلب
برغبة غوردون في السيطرة على منافذ التجارة الداخلية والخارجية
للسودان ووضعها تحت رحمة الأوروبيين تمهيدا للسيطره الأوربية على
هذه المناطق الحيوية ، على الرغم من عمله في خدمة الاداره المصرية •
ولا ننسى ان غوردون كان مرتسحا للعمل في السودان من قبل أمير
بريطانيا ، ولذلك فان مثل هذه المطالب ليست مئار دهشة ولا حتى
جديدة في مظهرها على رجال الادارة في السودان في ذلك الوقت • فقد
طالبت انجلترا مرات عديدة بتعيين موظفين أوروبيين في السودان تحت
ادعاءات صورتها للعالم أنها جد خطيرة كتجارة الرقيق مثلا التى
لا يمكن وقفها — من وجهة نظرها — إلا بتعيين مثل هؤلاء الأوروبيين
الأوفياء ذوى القلوب الرحيمة !

وفي عام ١٨٧٧ أجبر الانجليز الخديوى اسماعيل على توقيع معاهدة
أصبح بمقتضاها ثغرا بربره وبلهار حرين أمام التجارة وأعفيت صادراتهما
من الرسوم والعوائد الجمركية الأمر الذى جعلهما يمثلان عبئا ثقيلا
على خزانة الحكومة المصرية (٣) •

(١) دفتر ٥٣٠ ص ١٨ سنة ١٢٧٦ هـ — ترجمة كتاب المعية لامين جمر
اسكندرية رقم ١٠٢ فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٧٦ هـ . ص ١٥٠ .
(٢) دفتر رقم ٣٤ عابدين — صادر — صورة التليفراف العربى الشفرة
رقم ١٩ ص ١٦٤ بتاريخ الثلاثاء غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ .
ارادة الى سعادة غوردون باشا حاكم الاقاليم السودانية . دار
الوثائق القومية بالقلعة .
(٣) محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقية . ص ٤٥ .

القسم الثالث

(المواصلات) *

(أ) السكة الحديد :

قبيل منتصف القرن التاسع عشر بسنوات قليلة بدأت المديريات السودانية تأخذ طريقها نحو الحياة المستقرة ، حيث عاد الفارون من الجبال والصحراوات ، كما بدأ تثبيت الملكية الفردية وازداد النشاط الزراعى فانتعشت بذلك الحياة الاقتصادية وبدأ المستوى المعيشى للسكان فى الارتفاع النسبى * وكان من الطبيعى والحالة هكذا أن تكون الخطوة التالية القيام بتحسين وسائل النقل والمواصلات داخل المديريات السودانية وربط أجزائها ببعضها البعض ، نم محاولة ربط السودان كله بمصر من خلال شبكة مواصلات *

ولقد بدأ التفكير فى انشاء سكة حديدية لربط السودان بمصر فى عهد محمد سعيد باشا حيث جرت محاولة لاقامة خط حديدى يدور حول الجنادل والحواجز النهرية تسير عليه السفن ، ولكن يبدو أن هذا المشروع لم يجد قبولا وبالتالى لم ير النور (١) * كذلك فقد حاول هذا الوالى مرة أخرى انشاء خط حديدى حيث كلف المهندس الفرنسى (موجيل) الذى كان يعمل فى خدمة الحكومة بتقديم تقرير حول هذا

(*) سوف لا نتعرض للطرق البرية وسنكتفى بما نحدثنا عنه من الطرق البرية التى سلكتها التجارة الداخلية والخارجية فى السودان .
انظر فيما سبق ص ١٣٧ وما بعدها .

(١) الشاطر بصلى عبد الجليل : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل - القسم الأول حتى عام ١٩١٦ . ص ٢٨ .

الموضوع . ولكن فداحة النفقات التي تطلبها هذا المشروع جعلته يعدل عنه (١) .

وفي عهد الحديوى اسماعيل احتل موضوع المواصلات في السودان ، وخاصة السكة الحديد حيزا كبيرا من تفكير هذا الرجل . وقد أبدى اهتمامه بها في حديث له مع المسيو جارنييه Garnier أحد رجال القنصلية الفرنسية وذلك في أكتوبر عام ١٨٦٤ . وفي هذا العام أرسل بعثة برئاسة المهندس حسن بك الدمياطى لبحث انشاء خط حديدى بين سواكن وكسلا مخترقا التلال عن طريق خور النقيب (٢) . وفي نفس الوقت أرسلت بعثة ثانية برئاسة المهندسين الانجليزى « براى ووكر » (Bray & Walker) لدراسة الطريق بين كرسكو الى « أبو حمد » والخرطوم لانشاء سكة حديدية . وفي مارس عام ١٨٦٥ قدما تقريرهما الى الحديوى ثم سافرا من أسوان الى كرسكو حتى وصلا الى شندى مخترقين الصحراء النوبية ثم عادا بطريق صحراء « بيوضة » ودنقلة بم وادى حلفا . وقد بلغ طول هذا الخط ٧٦٥ ميلا ، وكانت نفقات المدل الواحد ١٢٦٦٧ جنيهها (٣) . وأمام ضخامة هذه النفقات تعطل العمل في هذا المشروع . وقد بعث الحديوى في عام ١٨٦٦ الى حاكم السودان يقول « ... انه لو انشئت في السودان السكك الحديدية التي أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران لأفادت البلاد الفوائد الجمة في قليل من الوقت — والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنا لحظة واحدة — ولو كان في الامكان لأمرنا بمباشرة العمل في هذا المشروع منذ

(١) صلاح الدين الشامى : المواصلات والتطور الاقتصادى في السودان . ص ٩ . انظر أيضا : الشاطر بصيلى : المرجع السابق ص ٢٨ ، نعوم شقيرة المرجع السابق ج ٣ . ص ٣٢ ، الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٤ .
 (٢) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ٢٨ .
 (٣) نفس المرجع ص ٢٨ ، انظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ السودان . ج ٢ ص ١٣٤ ، وأيضا :

الآن ، ولكن ما الحيلة وانسواء السكك الحديدية في تلك الجهة يصطدم بصعوبات كبيرة ويحتاج الى نفقات طائلة ، والحالة تقتضى بارجاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التى تتطلب هذه النفقات الى بعد فترة ، ريثما تتخلص المالية من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقت الحاضر .» (١) •

وفى أوائل يناير عام ١٨٦٧ أرسل « اسماعيل الفلكى » على رأس بعثة لبحث مسألة السكة الحديد بين (سواكن وبربر) أو من (سواكن الى شندي) وأتمت البعثة مهمتها وعادت الى مصر بتقريرها الذى يقترح ترجيح طريق شندي ، الذى قدرت مسافته بحوالى ٥٨٤ كيلو مترا ، عن طريق بربر الذى تعترضه الجبال (٢) • ويتضح من ذلك كـ ان مشروعات السكك الحديدية لربط السودان بمصر شمالا أو البحر الأحمر شرقا كانت تسير جنبا الى جنب •

وبعد مرور أربع سنوات لآخر محاولة فى انشاء سكة حديدية بالسودان عاد التفكير من جديد عام ١٨٧١ فاستدعى الخديوى اسماعيل مهندسا انجليزيا يدعى جون فاوولر Fowler ، وأبرم معه عقدا لمدة خمس سنوات لوضع التصميمات الخاصة بانشاء السكة الحديد وتحسين الملاحة النهرية فاقترح هذا المهندس فى تقريره ما يلى (٣) : ضرورة قيام خط حديدى من وادى حلفا ينتهى عند بلدة شندي ، كما اقترح أن

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٧ بتاريخ ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٥٩ . الى حكامدار السودان . وانظر أيضا شوقى الجبل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٨٢ . (٢) سجل رقم ٥٦٠ — معية تركى ، دفتر معية تركى (بدون لمره) ص ٨٩ قسم نان . بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . انظر أيضا : شوقى الجبل : المرجع السابق ص ١٣٤ ، وأبضا اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ص ٣١٥ .

(٣) تقرير مستر غولر عن السكة الحديدية السودانية لنوصيل السودان بمصر ، بناء على أمر سمو الخديوى سنة ١٨٧١ (١٢٩٠ هـ) . وهذا التقرير مودع بمحفظة اللوائح — دار الوثائق القومية بالقاهرة .

تكون « المتمة » * آخر محطة لهذا الخط ، وفضلت المتمة بالدات كمحطة نهائية نظرا لموقعها المتوسط بين بربر والخرطوم ، بالاضافه الى مركزها التجارى الهام للغال والأقطان والسكر الذى يحتمل وروده من تلك الجهات والأراضى المتسعة جنوبى سندی ، لاسيما وانها ملتقى لطرق القوافل التى ترد من الخرطوم ومن النيل الأبيض وسواكن والنيل الأزرق (١) . وفى حالة عدم امكان تحقيق هذا المشروع اقترح انشاء أحد الطريقين الآتين : الأول يبدأ من كرسكو مخترقا صحراء النوبة « صحراء العتمور » الى (أبو حمد) ، يسير بعدها فى اتجاه النيل حتى سندی والغانى يبدأ من وادى حلفا ويسير فى اتجاه النيل حتى بلدة (امبقول) مخترقا صحراء بيوضة حتى المتمة أمام سندی . ولقد فضل الطريق الثانى الذى يبدأ من حلفا لأنه يمكن فى هذه الحالة استفادة السكان بين كرسكو ووادى حلفا من المواصلات كما أن هناك سببا هاما وهو ان مرور الخط عبر صحراء بيوضة أفضل من صحراء النوبة نظرا لمتنع صحراء بيوضة بالمياه الكثيرة والعذبة والأشجار وارتساب الصالحة لطعام الابل والموانى مدة عملية السكة الحديد (٢) .

وبعد اختيار المحطتين الابتدائية والنهائية والاتجاه العمودى للاخط الحديدى تم بحث موضوع مرور السكة من وادى حلفا الى الجنوب وهل تكون على الشاطئ الغربى أو الشرقى للنيل . وأخيرا تم تفصيل الشاطئ الشرقى (الأيمن) نظرا لقلة النفقات ، بالاضافة الى أن الشاطئ الأيسر به رمال متحركة يخشى من خطورتها على المشروع .

ويبلغ طول الخط الحديدى ٨٨٩ كيلو مترا ، قسم الى أربع مراحل :

١ - من وادى حلفا الى بلدة « كوهة » (على الضفة

٢٥٩ كم

اليمنى للنهر)

(*) بلدة تقع على الشاطئ الأيسر للنيل أمام سندی .

(١) نفس التقرير السابق .

(٢) نفس التقرير .

٣ — مرحلة اجتياز النهر وذلك بعمل قنطرة فوق النهر —

٣ — من كوهه الى امبقول (الضفة اليسرى للنهر) ٣٤٩ كم

٤ — من امبقول الى تسندى (عبر صحراء بيوضة) ٢٨١ كم

وبذلك يكون مجموع المراحل الأربع ٨٨٩ كيلو مترا (١) *

وقد ردت نفقات هذا المشروع بحوالى أربعة ملايين من الجنيهات أو ٤٥٠٠ جنيه لكل كيلو متر تقريبا * وقد جرى حوار بين الخديوى اسماعيل وبين المستر سوزول مراسل جريدة النيويورك هيرالد حول نفقات هذا المشروع حيث سأل هذا المراسل الخديوى قائلا ان هذا المشروع يكلفكم كثيرا فأجابه : « ٠٠٠ لا يكلفنا أكثر من أربعة أو خمسة ملايين من الجنيهات وهذا مبلغ يسير ، فما قيمة ستة أو ثمانية أو عشرة ملايين اذا حصلنا على الفائدة المرجوة ؟ انه من الجنون صرف مليون من الجنيهات فى عمل غير مجد ، ولكن لا تنس موارد السودان * انى سأنشئ الخط مهما كلفنى ذلك * ألا تمتدقون ان السودان يساوى أكثر من عشرة ملايين ٠٠٠ » (٢) ؟ وعلى العكس من رأى هذا المراسل كان القنصل الأمريكى فى مصر فى ذلك الوقت يرى ضرورة انشاء هذا الخط حتى يمكن وقف تجارة الرقيق فى السودان (٣) *

وبالفعل تعاقدت مصر مع شركة انجليزية لانشاء المائة ميل الأولى

(١) نفس التقرير السابق . وقد اختلفت تفاصيل الأرقام التى أوردها المرحوم الشاطر بصبلى قبلها فجاءت بالنسبة للرحلة الأولى ٢٥٧ كم ، والثالثة ٢٤٩ ، والرابعة ٢٨٣ كم ، وان كان يلاحظ ان المجموع الكلى لا يختلف . (انظر : بصبلى : المرجع السابق . ص ٢٧٣) .

(٢) عن جريدة النيل — ترجمة — بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٨٧٢ . انظر : جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق . ص ٢٧١ .

(٣) رسالة بيروسلى قنصل الولايات المتحدة الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٣ عن جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من وادى حلفا الى « كرمه » ، وعين شاهين بانبا مترفا على العمل بالانابه عن الحكومة المصريه • وبدأ العمل فى ١٥ فبراير ١٨٧٥ ، ووصل الى بلدة « سرس » (بعد حلفا) فى عام ١٨٧٧ • وقد بلغت نفقات الحكومة المصريه لانشاء الثلاثة والثلاثين ميلا حوالى نصف مليون جنيهه (١) •

وفى عام ١٨٧٨ توقف العمل فى هذا المشروع بسبب تدهور الأوضاع المالية فى مصر ، بالاضافة الى عدم اقتناع غوردون بهذا المشروع ، فقد كان يميل الى مد خط حديدى من سواكن الى بربر لا عن طريق النيل (٢) •

وفى ٣ نوفمبر عام ١٨٨١ قرر مجلس النظار (الوزراء) تشكيل لجنة لبحث مسألة استئناف العمل فى سكة حديد السودان حتى دنقلة الجديدة • وقد ناقشت اللجنة مشروعات ، الأول مقدم من شخص يدعى (جورنج) كان يهدف الى مد السكة الحديدية الى جهة (فركه) أمام سلالات (دال) • والثانى يرمى الى مد خط سكة حديد حتى (حنك) أى الى دنقلة الجديدة • وقد فضل المشروع الثانى لقيمتيه

(١) الشاطر بصلى : المرجع السابق • ص ١٣٤ • وقدر د • شوقي الجمل المسافة التى تمت فعلاً بحوالى ٥٧ كم (السودان وادى النيل ج ٢ ص ١٣ - ١٤) • صلاح الشامى بحوالى ٥٣ كم (المرجع السابق ص ١٣) وحول العمل فى المشروع انظر على سبيل المثال الوثائق الآتية : دفتر رقم ١١ صادر معية - صورة المكاتبه الصادرة رقم ٢٠ ص ١٣٠ بتاريخ ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ • دفتر رقم ١٥ معية وارد - افادات عربى ص ١٦٨ وثيقة رقم ٤٧ بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، دفتر رقم ١٧ معية عربى - قيد وارد الافادات من جهات الاقاليم والمحافظات السابرة ص ١ - مكتبة رقم ٦ (١٤٣ سابة) بناربخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ •

(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق • ص ١٣ - ١٤ ، انظر ايضا : شقير : المرجع السابق ج ٣ • ص ١٠ •

الاقتصادية (١) • وناث اللجنة مملوءة بالحماس في اتمام خط السكة الحديد وقدمت براهين على ذلك منها ان ايرادات القسم الأول من الخط الذى تم انشاؤه (من وادى حلفا وسرس) كانت في عامى ١٨٧٩ / ١٨٨٠ أكثر من مصر وفاته وأن الوضع سوف يزداد في التحسين لأسباب الآتية :

أولاً : ان التجارة المصرية السودانية في تقدم حيث بلغت ايرادات السكة الحديد في عام ١٨٧٨ مبلغ ٣٦٢٠ ليرة مصرية ، وفي عام ١٨٧٩ بلغت ٥٠٨٣ ليرة مصرية ، وفي عام ١٨٨٠ وصلت الى ٧٣٦٠ ليرة آى أنها تضاعفت في مدة سنتين •

ثانياً : ان مد سكة حديدية طولها ٤٠٠ كيلو مترا يجلب التجارة أكثر مما تجلبه سكة طولها ٥٠ كيلو مترا •

ثالثاً : انه متى تيسر نقل البضائع عن طريق السكة الحديد من دنقله الى وادى حلفا قلت نفقات النقل فضلاً عن عدم تعرضها للتلف ، كما هو الحال بالنسبة للقوافل التى تقطع مسافة طويلة وسط أخطار جسيمة •

وفي النهاية رأت اللجنة ضرورة استئناف العمل ومد الخط من « سرس » الى دنقلة الجديدة (٢) • وتطالعنا مذكرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١ حول هذا الموضوع مقدمة من أحد الأفراد الى الحكومة

(١) أنظر نص هذا التقرير بمحافظ السودان — سكة حديد — نظاره الأشغال — تقرير القومسيون الذى تعهد للبحث في انشاء السكة الحديدية السودانية « محظلة بدون رقم » بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨١ • دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) هكذا وردت كلمة لره وان كنا نعتقد أن واضع التقرير يعنى حنيها .
(٢) محافظ السودان — سكة حديد — التقرير السابق •

المصرية للتصريح له باتتمام الخط المذكور — الذى توقف عام ١٨٧٨ الى النشطة التى تعينها الحكومه وانه سيتكفل الانفاق على المشروع نظرا للمضائق المالية التى تمر بها البلاد سريطة أن تتنازل الحكومة له عن الخط الذى سبق انشاؤه ، حيث يقوم هو بتشغيله عن طريق شركة مساهمة * أما اذا ازداد دخل العملية عن ضمان الحكومة فيكون لها حق الانتفاع ببعض الزيادة ومضلا عن ذلك يحق لها الحصول على الخط المذكور عن طريق الشراء فى أى وقت تشاء (١) *

ولم نقرأ فى الوثائق عن نتائج هذه الاقتراحات ، ويبدو أن الأمور طلبت على ما هى عليه حتى عام ١٨٨٤ حين وصلت مجموعة من المهندسين الانجليز وتسلمت الخط الحديدى بين حلفا وسرس (٢) *

البريد والتلغراف :

(أ) البريد :

لقد كانت مسألة البريد من التطورات الملحوسة فى حياة المواطن السودانى . وذلك منذ أن ضم هذا البلد الى مصر * فقد أولى محمد على هذه المسألة عنايته حتى جاء خلفاؤه فأكملوا المسيرة *

وقد كانت الخرطوم هى المركز الرئيسى للبريد حيث ينقل فى السفن ثم يحمل على ظهور الابل فى مرحلة تالية من الطريق حتى يصل الى مصر * كذلك فقد كان لتوزيع هذا البريد فى داخل المديرية السودانية نفس الاهتمام *

(١) مذكرة بشأن الموافقة على انشاء شركة مساهمة لد خطوط السكك الحديدية بالسودان . السودان — سكة حديد — محفظة (بدون رقم) ٢٠ ديسمبر ١٨٨١ — ١٤ ابريل سنة ١٨٨٣ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) الشاطر بصلى : المرجع السابق . ص ٣٧ .

ولقد أصبحت مأمورية دنقله في عهد محمد على مركزا للاتصال بين مأموريات سنار وكردفان في بداية ضم السودان حيث أمر حاكمها بأن يتلقى أخبار سنار وكردفان وأن يبعث « بهجانه » في الجبال عند وصول أخبار جديدة عن تلك المأموريات • وفي عهد الحكمدار حورتميد باتسا جرت تعديلات في مسألة البريد حيث صدرت اليه الأوامر بتنظيم البريد وذلك بتحديد موعد ذهاب وعودة الهجانه باليوم والساعة وان ينذر من يقوم بالتأخير ، ويقطع مرتب من لا جمل له ، ويقوم كذلك باعداد دفتر للتعيين والرفق • وبالفعل فقد تم انشاء محطات عديدة على طول الطريق من الخرطوم إلى مصر تستريح فيها الابل وتبدل • وكانت الرسائل تصل الى الخرطوم مرتين كل شهر ، وتقطع المسافة بينهما في خمسة وعشرين يوما أو ثمانية عشر يوما • وقد عقب المسيو « جومار » على انتظام البريد في عهد محمد على بقوله « ... من ذا الذي كان يصدق قبل أربعين عاما بل خمسة عشر عاما فقط أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض الى ضفاف السين في انين وثلاثين يوما • وتصلنا من (قزوين) (جنوب فازرغلي) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء في خمسين يوما » (١) •

وزيادة في الحرص على انتظام وصول البريد عين معاون لخب مديرية للطواف على محطات البريد في جميع أنحاء المديرية والتفتيش على الجمال ومعرفة مدى قدرتها على القيام بعملها • وتوقيع عقوبة الجاد على كل من يهمل في أداء هذه المهمة من نسيوخ المحطات (٢) •

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٢٧٦ عن :

Jomard ; M, Observation Sur Le Voyage au Darfur, et le Nile Blanc Supérieur. Paris, 1845.

(٢) سجل مديرية بربر وجاعلين رقم ٣٤٥٧ • الى محمد أفندي مأمور اشغال سر عسكر بناربخ (٧ رمضان ١٢١٦ هـ — ١٩ جمادى آخر ١٢٦٢ هـ) دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وكانت الخطابات والأوامر التي تصل الى المديريات السودانية تلف « بمسمع » وتوضع في داخل أكياس تسمى « جربان » لوقايتها من الأمطار . كما كانت ترفق بهذه الخطابات « حافظه » من كرسكو توضح فيها المحتويات وأسماء أصحاب الخطابات ثم تختتم هذه الخطابات بالمسمع الأحمر زبادة في النرخس عليها من العيب (١) .

وقد صدرت أوامر الى مختلف الجهات لاجراء المزيد من التنظيمات التي تكفل وصول البريد في الموعد المحدد له ، وأن يدون الوقت — الذي يقوم فيه البريد — على الظروف حتى يتسنى معرفة الموعد المحدد له . وبذلك يمكن معرفة الموعد الذي يصل فيه الى المحطات . وبهذه الوسيلة يمكن تحديد المسؤولية ويتفادى التأخير (٢) .

وفي عهد محمد سعيد باشا تم تنظيم البريد بين الخرطوم ومصر فسيه على الهجين بطريق كرسكو وأنشأ محطات في هذا الطريق (٣) . ويقول فردريك بنولا ان الجمهور في أيام محمد على لم يكن له الحق في استخدام السعاة لنقل مراسلاته العادية وحمل النقود من جهة الى أخرى إلا في عهد محمد سعيد ، فكان مقدار الرسم الذي يؤخذ على الخطاب المرسل من مصر الى الخرطوم سبعة قروش ونصف . وكان يصل الى الخرطوم في حوالي خمسين يوما من تاريخ ارساله (٤) .

ومنذ عام ١٨٦٤ اتسع نطاق المراسلات وأصبح عبئا ثقيلا على

(١) سجل مديرية بربر وحاعلين رقم ٣٤٥٥ . الى معتمد الريد بتاريخ ١٤ ربيع ثا ١٢٦٢ هـ — ٢ رجب ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتر رقم ٣٩٢ صادر ونشئة ١٢٢٥ الى حاكم دار السودان بتاريخ ٤ جمادى أول ١٢٦٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٣) فردريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا . ص ٣٦ ، انظر أيضا : نعوم شنير : المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ ، أيضا : عبد الرحمن الراغبي : اسماعيل . الجزء الاول . ص ٤٠ .
(٤) بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ .

الحكومة فرأت اسناد هذه المهمة الى احدى الشركات الأجنبية . وفي أول يناير عام ١٨٦٥ عادت الحكومة الى الاشراف على هذه المصلحة وعهدت بإدارتها الى « مونتري بك » ولم تلجأ على عهده ان ازدهرت ادهارا ملحوظا إذ انشئت مكاتب جديدة للبريد في مصر والسودان .

وبالإضافة الى ذلك ، فقد عيّنت الإدارة المصرية في السودان — على عهد الخديوى اسماعيل — بتنظيم بريد برى بين سواكن والقصر حتى يتم تنظيم الخط الملاحي البحرى بين سواكن ومصوع وبينها وبين السويس . وبالفعل تم انشاء مكتبين للبريد بكل من مصوع وسواكن ، وتم تخصيص باخرة لنقل بريد السودان كافة من سواكن الى مصر مرة كل أسبوع . فقد كان البريد السودانى ينقل من الخرطوم الى سواكن برا بواسطة رجال الهجانة ، ثم من سواكن الى السويس بحرا . وبالإضافة الى ذلك تم ربط مصوع وسواكن بخط بحر ، فخصص وابلور للإقامة بكل منهما ، وجرى تنظيم مواعيد تحركهما بدقة تامة (١) .

وفي عام ١٨٦٧ تم افتتاح مكتب للبريد بسواكن ، وفي عام ١٨٦٩ افتتح مكتب بمصوع (٢) ، وما ان حل عام ١٨٧٣ حتى عمت مكاتب البريد أرجاء السودان ، في وادى حلفا وكركسو ودنقلة وبربر والخرطوم ثم امتدت فيما بعد الى سنار وفازوغلى والقضارف والأبيض والفائر (٣) . وفي نفس العام تم انشاء ادارة خاصة للبريد في

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٦٥٣ . أنظر أيضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٩٩ ، وأيضا : محفظة رقم ٣٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٩٣ بتاريخ ١٩ محرم ١٢٨٣ هـ . من جعفر مظهر الى السكرتير الخاص للجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ٣٣ عابدين وارد تليفرافات . تليفراف رقم ٤٦ بتاريخ ١٤ شعبان سنة ١٢٩١ هـ . من حكيدار السودان بالفائر الى خديوى باشا .

(٣) دفتر رقم ٣٣ — الوثيقة السابقة . وأيضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٣٣ — ١٣٤ وأيضا بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ — ١٠١ .

الخرطوم (١) • وفي عام ١٨٧٥ تم افتتاح خط جديد للبريد بين بربره
وعدن وزيلع (٢) • ولقد انضم البريد السودانى الى اتحاد البريد العالمى
فى عام ١٨٧٨ (٣) • كذلك فقد رتب أمين باشا بريدا أسبوعيا يربط
محطات خط الاستواء بعضها ببعض الآخر ، مما حدا بالبشر فيلكن
Felkin الى القول بأن المراسلات كانت تسافر وهى أكثر
أمنًا (٤) •

وظلت مكاتب بريد السودان تؤدي مهمتها بانتظام الى أن تعطلت
عقب اندلاع الثورة المهدية • أما مكتب الخرطوم فقد ظل حتى سقوط
المدينة فى أيدي الثوار عام ١٨٨٥ (٥) •

والجدير بالذكر ان هناك احصائية فى عام ١٨٧٨ تذكر بأن مصاريف
« بوسنة » السودان تبلغ ستة عشر ألف جنيه سنويا • أما الجارى
تحصيله من إيراداتها فهو مبلغ سبعة آلاف جنيه فقط (٦) •

التلغراف :

وفيما يتعلق بخطوط التلغراف فقد بدأت الادارة المصريه فى مدها
بين مصر والسودان منذ عام ١٨٦٤ • وفى عام ١٨٦٦ وصلت هذه الخطوط
الى وادى حلفا • وفى عام ١٨٧٠ الى قرب الخرطوم • كذلك فقد تم

-
- (١) عبد الرحمن الراعى : عصر اسماعيل — الجزء الأول . ص ١٦٥ .
(٢) دفتر رقم ١٥ معية وارد الاغادات (عربى) ص ١٦ . مكاتبه رقم
٦ بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ .
(٣) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٣٤ .
(٤) عمر طرسون : تاريخ مديريه خط الاستواء . الجزء الاول . ص
٣٨٥ .
(٥) عبد الرحمن الراعى : المرجع السابق . ص ١٦٥ .
(٦) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليفرافات — صورة التلغراف العربى
الشفره رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ هـ (٢٠ يولية ١٨٧٨) من
غوردون باشا بالخرطوم الى سعادته صبرى باشا .

تمهيد طريق (سواكن — بربر) لمد خطوط التليغراف به وجـرى تفضيل هذا الطريق على طريق (سواكن — كسلا) لقربه وسهولته • كما مدت أيضا خطوط التليغراف بين سواكن ومـصـوع وموانئ البحر الأحمر وبينها جميعا وبين الخرطوم (١) •

ولقد اختصر التليغراف — بين زيلع وبين سواكن — زهاء نصف البحر الأحمر الجنوبي ، وأصبح من السهل الاتصال بهذا الميناء الأخير من أى جهة على الساحل (٢) ، كذلك فقد وصلت الخطوط التليغرافية فى غربى السودان الى (فوجه) شرقى الفاشر (٣) •

وكانت الحكومة تولى عناية تامة لحسن سير أمور التليغراف ، ومن ذلك أنها قررت ترتيب (خفر) على طول هذه الخطوط وخصـوصا فى المسافة من حلفا الى دنقلة وذلك لحفظ وصيانة هذه الخطوط (٤) • وكان (سلامة بك) كبير مهندسى عمـوم التليغراف فى عهد اسماعيل حريصا على تفقد سير هذه الخطوط بانتظام (٥) • وقد بلغت مسافات الخطوط التليغرافية التى انشئت فى السودان عام ١٨٧٠ حوالى ٢١١ كيلو مترا • كما بلغ عدد مكاتب التليغراف فى مدن السودان عام

(١) دفتر رقم ٢ عابدين — وارد تليغراف ص ٨٨ — ترجمة التليغراف التركى نمرة ٥٩٦ فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ • انظر شوقى الجمل : الوثائق التاريخية • ص ٧٠ •

(٢) محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقية • ص ٢٠ •

(٣) دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى نمرة ٢ ص ٣٨ وثيقة بتاريخ ٨ دى الحجة ١٢٨٩ هـ •

(٤) دفتر رقم ٢٨ صادر تليغرافات عابدين — وثيقة رقم ٨١ بتاريخ ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٣ هـ • من خيرى باشا الى وكيل أشغال السكة الحدود السودانية •

(٥) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٣٦ •

١٨٧٧ واحدًا وعشرين مكتبًا (١) • وتجدر الإشارة الى انه في عام ١٨٧٨
تم ادماج مصلحة البوستة بالتليغراف (٢) •

المواصلات النهرية :

كانت الملاحة في نهر النيل بصفة عامة قبل ضم السودان عام
١٨٢١ لا تملك أهمية كبيرة بالنسبة لخطوط النقل والمواصلات السودانية
وذلك بسبب جهل السودانيين في ذلك الوقت بصناعة السفن • كما أن
التجارة التي كانت تنقل عن طريق النيل عرضه للرسوم والضرائب
والسبب والنهب ، لدرجة ان الرحلات الطويلة عبر النيل قد أوقفت
تماما في أواخر عهد السلطنة السنارية نتيجة للقوضى وغياب الأمن (٣) •
وما ان خضع السودان للإدارة المصرية حتى بدأت تظهر نهضة
واحدة في صناعة السفن ، إذ انشئت — كما سبق أن ذكرنا — لأول
مرة في تاريخ السودان الحديث ترسانات الخرطوم وسنار وبربر ودنقلة
لتمد الحكومة بالسفن الشراعية لنقل السلع والمنتجات السودانية كالصمغ
وسن الفيل وريش النعام المصدر الى مصر (٤) •

وفي محاولة للتغلب على المشاكل التي كانت تترسب التجارة عبر
النيل بين مصر والسودان قامت الحكومة بإزالة العقبات التي تعترض
الملاحة في مجرى نهر النيل الجنوبي فأرسلت الحملات المكونة من
المهندسين والعمال الفنيين الى تلك الجهات لكسر الصخور وشفق القنرات
بينها حتى يمكن للسفن المرور خلالها (٥) •

-
- (١) عبد الرحمن الراغبي : المرجع السابق ص ١٦٥ •
(٢) دفتر رقم ٣٦ صادرات تليغرافات — صورة التليغراف العربي
الشفرة رقم ٥٨٣ بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٧٨ • إرادة سنة الى سعادة
حكمدار الأقاليم السودانية •
(٣) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق • ص ١٤٩ •
(٤) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى — ترجمة المكتبة التركية رقم ٢١٢
ساربخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٧ هـ • دار الوثائق القيمة بالقاهرة •
(٥) دفتر رقم ٣٠١ — معاونة جهادية — ترجمة الأمر رقم ١٠٣٣ بتاريخ
٢٠ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ • الى مختار بك • دار الوثائق بالقاهرة •

كذلك فقد عملت الحكومة على تنظيم وتسهيل الملاحة في الجنادل (أر ما يعرف باسم السلاطات) حيث عيّنت في كل منها لجنة من منصرف عام و «ريس» مع بعض البحارة وأهالي المنطقة. بالإضافة إلى تعيين شخص في كل المدن الهامة الواقعة على النهر للإشراف على سلامته الواردات السودانية إلى مصر عبر النيل (١) .

وفد أكد الرحالة الدين زاروا السودان أيام حكم محمد علي أن حركة النقل بطريق النيل قد اتسعت بين مصر والسودان في ذلك الوقت حتى أصبح كثير من التجار والجلابة في دنقلة وسنار يفضلون شحن بضائعهم وبخاصة الرقيق إلى أسنا على سفن وقوارب كبيرة أعدت لهذا الغرض بدلا من نقلها بواسطة الابل عبر الصحراء (٢) .

وينبغي ألا نعول كثيرا على أهميته نهر النيل كطريق للتجارة — في ذلك الوقت — فرغم تلك الجهود التي بذلها المسؤولون. وإشادة بعض الرحالة فإن هذا الطريق كان لا يزال محفوا بالمخاطر الطبيعية أو العقبات التي ينيرها السكان المقيمون حول ضفتيه . أما ما يقال عن تفضيل تجار الرقيق لهذا الطريق المائي فهو نوع من الاستثناء — فآثر التجار في ذلك الوقت كانوا يفضلون دروب الصحراء — لأن الرقيق لم يكن يتحمل متسقة الصحراء الأمر الذي يجعله عرضة للموت . وهذا يعني كارثة للتجار بعكس بعض السلع الأخرى التي لم تكن عرضة للتلف . ولهذا كله اختار تجار الرقيق أخف الضررين وفضلوا طريق النيل .

واستمرت جهود الباشا في الاهتمام بالملاحة عبر نهر النيل

(١) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق . ص ١٥١ .

Deherain: Op. Cit. pp. 128-340 - 1 & Muskau; Op. Cit., Vol. (٢) II, p. 104.

وخصوصا داخل الأقاليم السودانية ، ومن ذلك فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة عقب الحملات الثلاث التي قام بها سليم قبطان في النيل الأبيض . ففى أعقابها نشطت حركة الملاحة في النيل الأبيض ومناطق النيل العليا (١) .

وقد تركت الحكومة للتجار الأجانب حرية الملاحة وامتلاك السفن واستئجارها من ترسانات الحكومة من أجل القيام برحلات تجارية الى الجنوب (٢) . ولكن في عهد الحكمдар عبد اللطيف باشا (١٨٤٩ - ١٨٥٢) - كما سبق القول - جأر التجار بالشكوى لأنه أراد احتكار الملاحة في النيل الأبيض وانتهى الأمر باستدعائه واعلان حرية الملاحة . وكان من نتائج ذلك ازدياد نشاط حركة الملاحة والتجارة في حوض النيل الأبيض ، وحوض بحر الغزال وبحر الجبل وأصبحت (غندكرو) بين عامى ١٨٥٠ / ١٨٦٠ مركزا رئيسيا لتجارة العاج في تلك المناطق .

ولقد بدأت معرفة السودانين بالسفن التجارية في نهر النيل على فترات عدة . والبداية كانت على عهد سعيد باشا خلال زيارته للسودان عام ١٨٥٧ ثم خلال حملة صمويل بيكر عام ١٨٦٩ ، ثم في عهد حكمدارية غوردون باشا منذ عام ١٨٧٧ . وقد نقلت أجزاء أكثر هذه السفن على ظهور الابل عبر صحراء العتمـور من كرسكو وعبر الصحراء الشرقية وجبال البحر الأحمر من ميناء سواكن الى ترسانة الخرطوم حيث أعيد تركيبها من جديد . وكانت أول سفينة وصلت الى السودان في عهد سعيد باشا هى تلك السفينة التى استقلها الأمير عبد الحليم باشا نجل محمد على عند تعيينه حكمدار للسودان (٢٤ نوفمبر ١٨٥٥ - ٢٨ ديسمبر ١٨٥٦) (٣) .

(١) ساماركو : رحلة محمد على الى السودان . ص ١٢ - ١٣ .
 (٢) نسيم مختار : المرجع السابق . ص ٣٣٥ .
 (٣) الشاطر بصلى : المرجع السابق . ص ١٩ .

وفي عهد الخديوى اسماعيل جرى بحث عدة مشروعات للنقل المائى عبر نهر النيل وهى :

- ١ — انشاء ترعة ملاحية شرقى أسوان لتجنب مناطق الجنادل •
- ٢ — أو انشاء هذه الترعة فى الغرب •
- ٣ — انشاء مجرى ملاحى فى منطقة الجنادل نفسها وذلك بتحطيم الصخور • ولكن الأزيمة المالية — آنذاك — حالت دون تنفيذها (١) •

وإبان حملة صمويل بيكر تم ارسال ست سفن * الى الخرطوم ، كما أرسلت ثلاث سفن أخرى مفككة عبر صحراء العثمور (كرسكو — الخرطوم) للتركيب فى ترسانة الخرطوم (***) •

وقد حاول غوردون ايجاد مواصلات بطريق النيل فى الجهات العليا لمجرى النهر لتحل محل وسائل النقل البرية المتهاكمة هناك والتي كانت تكلفه نفقات باهظة • وهذه الوسائل كان لابد منها بين معسكره العام والنقط المنتشرة فى الجنوب • وقد انشأ غوردون (بالدفلای) شمال بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة فى تلك المناطق • وكان مشروعه — فى استخدام النيل فى النقل جنوب غندكرو — ضربا من المجازفة إذ كان يمسود الناس آنذاك اعتقاد — لا أساس له — بأن النيل ابتداء من جنوب الرجاف وحتى دوفيليه غير صالح للملاحة وبالتالي لا يمكن استخدامه (٢) •

(١) شوقى الجمل : تاريخ السودان — ج ٢ • ص ١٣٧ •
 (**) « الطلحابة — البوردين — صافية — المنصورة — شبين — امبابية » •
 (**) « الاسماعيليه — الخديو — نيانزا » •
 (٢) عمر طوسون : المرجع السابق • ص ١٣٥ •

ومن العقبات الخطيرة التي كانت تواجه الملاحة في نهر النيل وحسباً في الجهات الواقعة جنوب الخرطوم تلك السدود التي الخبيثة التي اعترضت مجرى النهر • وقد كانت هذه السدود في فم الأمطار — على حد قول البعض — تشمل مساحة تعادل مساحة البحر (١) • فقد كانت تتخللها ثلاثة مسالك مائية رئيسية كانت عرصة لمن تسد كلها أو أي منها في أي وقت (٢) لهذا كله بذلت جهوداً من قبل الحكومة لفتح منطقة السدود • وذلك بتجنيد الأعداد لاجبار هذه المهمة (٣) •

وقد أستاذ غوردون بانسا بجهود اسماعيل بانسا أيوب (١٨٧٣ في إزالة العوائق التي كانت تعترض الملاحة في مناطق السدود النباتية لدرجته أنه أصبح في الامكان الانتقال من الخرطوم عندكرو في غضون ثلاثة أسابيع بعد أن كانت الرحلة تستغرق من ١٠ من عام ونصف إلى عامين •

المواصلات البحرية :

احتل السودان جزءاً طويلاً من ساحل البحر الأحمر الغربي موقعه وكانت كل من سواكن ومصوع بالإضافة إلى جدة على البحر الأحمر قبل عام ١٨٤٦ تحت إدارة عثمانية ، وضعفت هذا التاريخ الرابطة السياسية والإدارية بين الأقاليم السودانية وس

(١) ألان مورهد : النيل الأبيض • ص ٩٢ •

(٢) نفس المرجع • ص ٩٣ وحول هذه السدود النباتية أنظر ما دمر رقم ١٧ عابدين — صور التليفات العربي رقم ٦٠٦ بتار هانور سنة ١٢٨٩ هـ • ورد في ١٧ رمضان ١٢٨٩ هـ • من مدير عموه السودان إلى صبري بانسا ، وأيضاً الوقائع المصرية • العدد ٢ ١٧ أبريل ١٨٧٤ • ص ١ وأيضاً : جورج جندي وحاك باجر : الم السابق • ص ٢٦٨ — ٢٦٩ •

(٣) جميل عبيد : المديرية الاستوائية • ص ٤٠٨ ، ص ٤٤١ •

البحر الأحمر وبالتالي انعكس ذلك على عدم اهتمام السودانين بالبحر وتركوا هذه المهمة للحداثة من سكان سواكن .

ولكن عقب عام ١٨٤٦ نسطت حركة الملاحة بين موانئ السودان وموانئ الساحل الشرقى للبحر الأحمر وبينها جميعا وبين السويس . وقد كانت هناك عدة عوامل أدت الى ذلك من أهمها استخدام البحار في تسيير السفن وما أدى اليه من تطور سريع ، والتنافس الدولى بين إنجلترا وفرنسا وتفكير الأخيرة في ضرب إنجلترا في مستعمراتها في الشرق والهند ، بالإضافة الى ادراك مصر لطامع الدول الاستعمارية ومحاولة سبق هذه الدولة في الاهتمام بهذه الموانئ (١) .

وفى عهد محمد على تم فتح طريق مبانر للملاحة بين سواكن والسويس حتى يتييسر نقل السلع السودانية القريبة من الساحل والننى يصعب نقلها بطريق النيل أو الصحراء وأهمها المانسية من التاكة (٢) .

وفى عام ١٨٥٦ على عهد سعيد باشا تم الحصول على فرمان بمنحه حق تكوين شركة ملاحية بين موانئ البحر المتوسط وموانئ البحر الأحمر . وبالفعل تم تأسيسها فى عام ١٨٥٧ وسميت بالشركة المجيدية . وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وموانئ الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصر . وكانت لهذه الشركة أربعة مراكب هى (الحجاز ونجد والقبارى وجدة) (٣) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل حلت الشركة العزيزية محل الشركة

(١) شوقى الجمل : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . مقال بكتاب : البحر الأحمر فى التاريخ ص ٤١٠ .

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٣٩ .

(٣) أنظر مجموعة الفرمانات الشاهانية ، فرمان رقم ٨٥١ : أنظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل . ج ٢ . ص ٧٥ .

المجيدية وكانت تقوم بنقل المتاجر والمسافرين الى ثغور البحر الأحمر والبحر المتوسط وقد خصص لها الخديوى سبع بواخر كانت موجوده من قبل ، وأوصى بانتساء باخر جديدة فى انجلترا * وأصبح يقود هذه البواخر ضباط البحرية القدامى الذين تركوا خدمه *

ولبواخر الشركة العزيزية فضل كبير فى نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، بل انها ناهست تركات الملاحة الأجنبية فى هذا المجال الأمر الذى أدى الى نمو إيراداتها ، فلبأ الخديوى لشراء أسهمها حتى يحتكر أرباحها ، وجعلها احدى ادارات الحكومة فعرفت بمصلحة (وابورات البوسنة الخديوية) . وأصبح لها ست وعشرون باخرة تقوم بالتجارة ونقل البريد فى ثغور البحر المتوسط وثغور البحر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة ثم تجتاز باب المندب الى زيلع وبربره (١) *

وكانت هناك مواقف منتظمة لمرور البواخر فيما بين موانئ السويس وجدة وبربره وبين السويس وبربره ، وبين بربره وزيلع وعدن بحيث يمكن ربط جميع موانئ البحر الأحمر بخطوط مواصلات منتظمة وبذلك أمكن للمتاجر وللمسافرين أن ينتقلوا فى سهولة ويسر ، بالاضافة الى الدور الذى كانت تلعبه فى نقل البريد (٢) *

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، الجزء الأول ص ١٨٨ — ١٨٩ . وأنظر أيضا الوثائق الآتية : دفتر رقم ٣ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٠٦ بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ من وكيل القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وأنظر أيضا نفس الدفتر صور تلغرافات تحت أرقام ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ بنفس التاريخ ، أيضا نفس الدفتر . صورة تلغراف رقم ١٤٩ بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ من القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وأنظر أيضا دفتر رقم ٤ عابدين وارد تلغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٥٨ بتاريخ ليلة ٥ جماد أول سنة ١٢٨٣ هـ . من وكيل القومبانية بالسويس الى رياض باشا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) محافظ أبحاث السودان . محفظة رقم ٣٦ ، دفتر رقم ١ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

٢٦٣

ولقد كانت الشركة العزيزية تحتكر ملاحه السفن التجارية في كل من نهر النيل والبحر الأحمر والبحر المتوسط * والجدول التالى يبين إيرادات ونفقات الشركة ثم أرباحها خلال ثلاثة أعوام (يونيه ١٨٦٣ — ٩ مايو ١٨٦٦) * *

المكان	لايراد بالجنيه الاسترلينى	النفقات	الأرباح
البحر المتوسط	٢٩٦٠٢٣٢١١	١٦٢٢٩٠١٧٠	١٣٣٥٢٢١٥١١
البحر الأحمر	٣٤٢٦٤٥٥٦	١٥١٢٧٥١٦١	١٩١٣٤٩٩٥
نهر النيل	٢٤٤٦٠٣٠١٠	١٢٩٥٨٠١٨٩	١١٥٠٢٢٢١٠

ويمكننا أن نستنتج من هذا الجدول ما يلى :

أولاً : حققت جميع البواخر سواء فى البحرين المتوسط والأحمر أو نهر النيل أرباحاً *

ثانياً : ان بواخر النقل فى البحر الأحمر قد حققت أكثر الأرباح ، وربما يرجع ذلك الى كثرة الرحلات والبضائع التى كانت تمر بها على الشاطئين الشرقى والغربى للبحر الأحمر وحتى باب المندب ، بالإضافة الى الرعاية الكبيرة التى كانت تلقاها فى هذه الموانئ التى كانت تحت سيطرة الادارة المصرية *

(*) الارشيف الأمريكى ، محفظة رقم ٤ ، ملف رقم ٤ بدار الوثائق بالقلعة .

Despatch No. 93, Agency and Consular General of the United States of America. Alexandria, Egypt, June 17, 1867. Hon. William H. Seward. Secretary of State.

وبافتتاح قناة السويس للملاحة البحرية في عام ١٨٦٩ ازدادت أهمية البحر الأحمر كطريق للمواصلات فازدادت حركة السفن العالمية به الأمر الذي أدى الى فتح آفاق أرحب للتجارة المصرية السودانية ، وانتعاشه اقتصادية لموانئ البحر الأحمر • بل ان افتتاح القناة قد أدى أيضا الى زيادة عدد البواخر الراسية في ميناء البصرة العراقي بسبب كثرة ورود السفن الأوروبية عبر القناة ، وان كان ذلك قد أدى الى فقدان العراق — نسبيا — لعملية نقل منتجات اليمن مثل البن ومنتجات الهند الى دمشق وحلب ، حيث أصبح من الأرخص نقلها مباشرة عبر القناة الى الموانئ الشامية (١) •

هكذا يتبين لنا من خلال تتبعنا لتطور طرق المواصلات السودانية من برية ونهرية وبحرية أنها جميعا قد لعبت دورا في التجارة السودانية وان تفاوت هذا الدور بينها بحيث يمكننا القول ان الطرق البرية ، وخصوصا طرق القوافل ، كانت على رأسها جميعا • كذلك يمكن أن نخلص الى أن نهر النيل لم يلعب دورا رئيسيا في التجارة الداخلية للسودان على عكس ما كان يتوقع منه على اعتبار انه ممر طويل ينق البلاد من جنوبها الى شمالها وتتصل به فروع عدة كان يمكن به ومعها أن تزدهر التجارة السودانية •

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث والمعاصر — الجزء الأول . العراق ص ١٧٢ •

الفصل الرابع

الضرائب وثئون المال

- أنواع الضرائب
- تحصيل الضرائب وأساليبه
- الاصلاحات الضريبية :
 - (أ) في عهد محمد على
 - (ب) في عهد محمد سعيد
 - (ج) في عهد اسماعيل
 - (د) اصلاحات رؤوف باشا
- النظام المالى فى السودان على عهد محمد على •
- انعكاسات مصر السياسية عام ١٨٤١ على أوضاع مصر والسودان ماليا •
- خلفاء محمد على ومالية السودان •
- التدهور المالى فى عهد اسماعيل وعلاقة السودان بذلك •
- ميزانية السودان عام ١٨٨١ وملاحظات حولها •
- * * *
- نظام الاقتصاد السودانى فى القرن التاسع عشر •

— أنواع الضرائب :

لم تكن أنواع الضرائب التي فرضتها الادارة المصريه في السودان جديدة على مواطنى هذا البلد ، بل انهم الفوها من قبل ، زمن السلطنة السنارية ، وان كانت بصورة تختلف عن تلك التي فرضتها الادارة المصريه ، إذ كانت الأولى أقرب الى الالتزامات منها الى الضرائب ، وذلك لعدم وجود عملة رسمية متداولة بين الناس في ذلك الوقت * ومن أهم هذه الضرائب كانت ضريبة الأسواق ، حيث كان يتم تحصيل ضريبة عن كل رأس من الرقيق يتم بيعه بلغت « قيراطا واحدا » * من الذهب * كذلك كانت تجبى ضريبة عن كل رأس يتم بيعه من الجمال والبقر تبلغ عشرين « مهلك » (١) *

وقد جرى أيضا تحصيل خمسة « مهلك » عن كل خروف * و « مهلك » واحد عن كل رأس مباع من الماعز * أما الحمير والخيول فلم تحصل عنها ضرائب (٢) * كذلك فقد كانت هناك ضريبة « العشر » على منتجات الأرض المروية بالسواقي أو المطر * وكانت هذه الضرائب تتردد في سننى الانتاج الكثير ، فيضاف ٢ « بورما » * من الدخن عن كل جمل (٣) *

وبالإضافة الى هذه الضرائب نلاحظ أشكالا أخرى منها ما سمي

(١) المهلك : عملة أنيوبية نساوى — من التالير ، والتالير هو

١٦

أيضا عملة أنيوبية . وكان يعرف باسم ريال مارى نربزا ، كما كان يسمى « أبو طبره » لوجود رسم على وجهه على شكل نسر .

Douin; Op. Cit., Tome, I. p. 272-73.

(٢)

Hill; Op. Cit., p. 13.

(٣)

* قيراط الذهب بساوى تاليرا واحدا . أو دولارا ، أو ريالا ، وكان سعره آنذاك ما يوازي ١٥ قرشاً .
* البورما مكال مالا زنبه خمسة أرطال .

« بالسخرة » ، وهى ضريبة عامة تقدر طبقا لحالة السكان المالية .
وهذه الضريبة كانت توزع بنسب معينة على خزانة السلطان وعلى
الوزراء . وكان الوزراء يقومون بتوزيع جزء منها على « المكوك »
و « الارابيب » والمسايخ ثم الأشخاص القائمين بخدمة السلطان .
ومن الضرائب أيضا كانت « المترة » وهى ضريبة خاصة لجيب السلطان ،
و « المخلاية » وهى ضريبة غلال تدفع لخيل فرسان السلطان .
وضريبة « النزل » وكانت تخصص للأمور ضيافة السلطان ومساعدته فى
تنقلاته . و « العادة » وكانت تحصل للسلطان لتغطية نفقات
الظروف الخاصة به من زواج و طهور وغير ذلك و « النار »
وهى ضريبة كانت تحصل من القرى التى تعتمد الى حرق الحشائش
حيث كانت هذه الحشائش المحروقة تعد كنوع من السماد للأرض .
و « العنة » ، وهى ضريبة محلية تحصل على المنسوجات التى تصنع فى
داخل البلاد (١) .

وكانت معظم هذه الضرائب أو الالتزامات يتم جبايتها بواسطة
الفقهاء سواء أكانت نقدا أو عينا فى صورة منسوجات من الدمور
أو فى صورة حبوب كالذرة مثلا ، أو حتى فى صورة حيوانات .

وأما الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية فى السودان منذ عهد
محمد على فقد كانت متنوعة بتنوع النشاط الاقتصادى ، فمنها الضريبة
الزراعية التى فرضت على الجماعات المستقرة التى تمارس الزراعة (٢) ،

(١) الشاطر بصلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى
والأوسط . ص ٢٦٦ - ٢٦٧ أنظر أيضا : مخفظة رقم ٩ معية عربى
مستخرج من المعية السنوية رقم ٤١ - ٤٢ بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ .
من القائمتام محمد نادى الى الخديو ، أنظر أيضا السيد يوسف نصر : جهود
مصر الكشفية فى أفريقيا ص ٩٥ .

Hill; Op. Cit., p. 14.

(٢)

ومنها ضريبه الانتاج الحيوانى على البدو الذين احترفوا الرعى وتربيته الحيوان ، ومنها الرسوم الجمركية على التجار والجلابة فى المدن ومراكز النشاط التجارى ، ولا سيما الضرائب التى كانت تؤخذ عن العبيد •

كذلك فقد حصلت أنواع أخرى من الضرائب كضريبة الرأس ، وضريبة النخيل فى بعض المديرىات التى كثر فيها النخيل ، وضريبة العقارات فى المدن الكبيرة ، وضريبة عن قوارب النيل و « الفلايك » ، وبالإضافة الى ذلك فقد تم تحصيل رسوم على التقاضى وعقود البيع والشراء والتسجيل والزواج والطلاق والمنازعات الخاصة بالميراث •

ولقد اختلفت قيمة الضريبة التى كانت تؤخذ على الأراضى باختلاف نوع الأرض وأسلوب ربيها . فالأراضى التى كانت تزرع على الأمطار أو ما كانت تسمى بـ « السلوكا » Selouka لم تفرض عليها ضرائب مباشرة ، بل فرض على كل قرية تقديم بعض الالتزامات للجيش من القمح والخأن والزبد وكانت تؤخذ حسب المساحة المزروعة (١) •

كذلك فقد اختلفت تقديرات الضرائب من مديريةية الى أخرى فى السودان وذلك حسب ظروفها وامكاناتها ، فالضرائب التى كانت تحصل من سنار — أحيانا — كانت تقل عن مثيلتها فى مديريةية أخرى ، وخصوصا الضريبة التى حصلت عن العبيد (٢) •

وفيما يتعلق بسواكن كان المعتاد من قبل أن تؤخذ ضرائب عرفت باسم (عوائد الدخول) على البضائع المصدرة من سواكن الى جهات السودان الأخرى والواردة لها من هذه الجهات ، فقامت الادارة المصرية عام ١٨٦٦ بالغائها واكتفت بالجمرك القائم بتحصيل الرسوم

Hill; Op. Cit., p. 14.

(١)

Douin; Op. Cit., p. 272.

(٢)

على البضائع الواردة والمصدرة (١) . ثم منحت عوائد القصابية (الجزارة) الى أحد الأفراد بسواكن على شكل التزام نظير مبلغ بلغ أربعمائه ريال سنويا . وذلك عن المواشى التى تذبج بالبلدة أو ترسل الى جده (٢) . وفى جنوب السودان صدرت الأوامر بعدم اضافة أعباء جديدة عليهم تزيد عما ألفوه من قبل . نظرا لحدائهم دخولهم بسالك المدينة (٣) .

وفى عام ١٨٧٥ سرع اسماعيل أيوب فى فرض ضرائب على أهاليها جعل على كل مرد خمسين قرسا فى السنه ، وأكرر من ذلك قليلا على الأغنياء . وقد طالب من الحكماء تخفيفها وجعلها من قرتين الى عسرة فروس حتى لا ينفر الأهالى منها . كما اقترح آخرون — أمنال سلاطين باننا — أن يقدم أهل دارفور ضريبتهم على هيئة عبيد (٤) .

هكذا تنوعت الأنسكال الضرائبيه فى السودان من مكان لآخر وطبقا للنشاط الاقتصادى الذى مارسه السكان ، ولم تكن هذه الضرائب مشاكلها المختلفه والتى فرضتها الاداره المصريه جديده على المواطن السودانى وان اختلفت مسمياتها فقد تدرجت من « طلبيات » الى « فردد » نم الى « فردة منظمة » وأخيرا وصلت الى ما يعرف باسم الضرائب بالمعنى المستخدم حاليا .

(١) محافظ أبحاث السودان — محفوظه رقم ٢٤ . دفتر رقم ١ . منقول عن دفتر رقم ٢١١ ص ١٥١ بتاريخ ٢٦ ربيع الثانى عام ١٢٨٩ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٠٦ .

(٣) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . مجلد ٢ ص ٥٦٤ .

(٤) نعوم شمقى : المرجع السابق . ص ٨٣ ، وانظر أيضا : سلاطين

باننا : السيف والنار فى السودان . ص ٢٦ .

تحصيل الضرائب وأساليبه :

لقد تسرعت الادارة المصرية منذ أن دخل اسماعيل كامل سنار في تنظيم تحصيل الضرائب ، حيث أمر بتشكيل لجنة ثلاثية ضمت كلا من المعلم حنا الطويل وسعيد أفندى سكرتير الباشا ، والارباب دفع الله و د أحمد * ولعلنا نلاحظ أن هذه اللجنة كانت تضم عضوا من أهل البلاد السودانيين * وقد أمر اسماعيل بتسجيل المنازل وتقسيمها الى « عال » و « متوسط » و « دون » بالاضافة الى تسجيل الرقيق والقطعان التي كانت في حوزة الأهالي (١) *

وقد شارك الشايقية في تحصيل هذه الضرائب ، بالاضافة الى منايخ البلاد ، وربما كانت مسألة اشراكهم في هذه المهمة فكرة صائبة حتى لا ينفر السودانيون من أدائها لرجال الادارة المصرية بشكل مباشر * وفي بعض المديریات كان يطلب من المدير تعيين أفراد للإقيام بهذه المهمة ، حتى يتم انجازها بصورة طيبة (٢) *

ويبدو أن ثمة مصاعب كانت تواجهه القائمين على تحصيل هذه الضرائب وخاصة الضريبة الزراعية ، فقد كانت الضرائب التي تحصل عن السواقي في بعض أجزاء السودان غير مطابقة للواقع ، وبمعنى آخر أن هناك مبالغة في عدد السواقي التي كانت مسجلة بالدفاتر ، فبينما كانت هناك ٧٠٦ سواقي في بلاد الجعليين كان المقيد منها في سجلات الضرائب ٢٤٣٧ ساقية (٣) *

Holt, P. M., A Modern History of the Sudan p. 43.

(١)

(٢) دفسر رعم ٣٧٨ معية نركى ، ترجمة الافادة التركية رقم ٣٠٨١ بتاريخ ٢ رجب سنة ١٢٦٢ هـ ، افاده الى مدر دنقلة . دار الوثائق بالقلعة .

Hill, Op. Cit., p. 14.

(٣)

ولقد أولى محمد على مسألة جمع الضرائب أهمية بالغة فكان يصدر أحكاما قاسية على أولئك المتهاونين في تحصيلها . فقد أصدر أوامره ذات مرة « بوقف ترقية » أحد الضباط الكبار الذي كان يشغل وظيفه مدير بربر وجاعلين لأن الكشف الوارد من لدنه لا يدل على أنه أصبح أكثر نشاطا من سلفه في تحصيل الضرائب . كذلك فقد أصدر في ذات الوقت أمرا « برفت » أميرالاي المشاء الأول لاهماله في تحصيلها أيضا (١) .

وفي المقابل كان يكافئ المجدين ، فقد بعث ذات مرة يشكر حكمدار السودان على نشاطه ومساعدته في « تحصيل الأموال المتأخرة » ويطلب منه مكافأة أحد مديري السودان لجهوده في هذا الصدد (٢) .

ولا يفهم من ذلك أن القائمين على تحصيل الضرائب كانوا سوطا مسلطا على ظهور السودانيين ، فقد كان اسماعيل كامل يراعى الانسانية في جمعها ، ويعمل على التخفيف منها تارة وتعديلها تارة أخرى ، كما كان محمد على يندهش أحيانا لأن العدالة لم تراعى في تحصيل الضرائب ، ويطلب بالألا يتحمل الفقراء والأهالي سوى الضريبة التي تتفق وقدراتهم (٣) . وفي واحدة من رسائل محمد على الى الباشا سر عسكر السودان في عام ١٨٢٢ طلب منه تحصيل الضريبة « ٠٠٠ على البيوت بحسب الأنفس ، لا على البلاد والحال (القرى) ، مع ضرورة تعيين مأمورين من ذوى العفة والاستقامة والدراية ومعاملة الأهالي

(١) دفتر رقم ١٨٩ معاونة أقاليم — مكتبة رقم ٨٨١ بتاريخ ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ . من الجناح العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨ معاونة أقاليم — مكتبة رقم ١١٦١ بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧ هـ . من الجناح العالى الى حكمدار السودان أنظر أيضا : دفتر رقم ٢٥٧ معاونة اسرادات — ترجمة الاغادة رقم ٥٧ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٧ هـ . الى مدبر الايرادات . دار الوثائق بالقلعة .

Douin; Op. Cit., pp. 280-82-83.

(٣)

بالرفق واللين ويذكره بأن كل أمر جديد لابد أن تكون له (مرارة بادية في النفوس) (١) •

وفي رسالة أخرى الى حاكم دنقلة طلب محمد على اعفاء السواقي في كل من قسمي « سكوت » و « محس » من الضريبة المفروضة عليهما لأن الجراد قد أكل المزروعات في ٥٥٠ ساقية ، بل انه يوافق على أن يقترض أصحاب السواقي في هاتين المنطقتين الحبوب اللازمة لطعامهم وزراعتهم السنوية من الشونة (٢) • وتسهيلا لأخذ الضرائب من بعض المناطق وافق الباشا أن يؤخذ الصمغ بدلا من الأموال النقدية ، وأحيانا الرقيق ، لأنه على حد قول الرحالة « بالم » الذي زار كردفان « أيسر على المرء أن يجد في هذا الاقليم عبدا من أن يجد دولارا » (٣) •

وهكذا تنصافر الجميع في تحصيل الضرائب سواء من أهل البلاد كالمساخيخ والشايقية ، أو من رجال الادارة كالحكمدار والمديرين وغيرهم ، وصدرت الأوامر لهم جميعا تدعوهم الى الرفق بالأهالي في تحصيلها ومراعاة الظروف المحيطة بكل جهة من جهات السودان •

-
- (١) أمين سامي : تقويم النيل وعصر محمد على . ج ٢ ص ٢٩٦ •
 (٢) دفتر رقم ٧٤٣ — حدبوى تركى — سودان دنقلة — وثيقة رقم ١١٩ بتاريخ ٨ رجب سنة ١٢٤٣ هـ • من الجنا ب العسالى الى قاسم اغا حاكم دنقلة • دار الوثائق القومية بالقلعة •
 (٣) نسيم مقار : الرحالة جون بريك • ص ٣٨ • وأنظر أيضا : دفتر رقم ٤٣٨ معية تركى — وثيقة رقم ١١٢ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٦٣ هـ الى حكمدار السودان ، وأيضاً دفتر رقم ٤٥ صادر معية عربى — صورة المكاتبه العربيه رقم ٧٦ • ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٦٦ هـ الى حكمدار السودان ، وأيضاً دفتر رقم ٤٥ صادر معية عربى — صورة المكاتبه العربيه رقم ٧٦ • ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٦٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

موقف الشعب السوداني من الضرائب :

وعلى الرغم من تلك المحاولات التي بذلت لتيسير جباية الضرائب ، فقد كانت هذه المسألة الضرائب من بين العوامل الرئيسية في تفاقم الأحداث في سنار عام ١٨٢٢ والتي تمثلت في حركة تمرد هجر فيها السكان قراهم ، وانتهم بعض المتورين من الحكم المصري أمثال « حسن ود رجب » الذي أركى نيران الفتنة . وبدأ بعض السودانين يفكرون في الانقضاء على الحكومة ، بل انهم بدأوا بالفعل فهاجموا بعض الفصائل المصرية المعزولة وقتلوا كثيرا من أفرادها ، وكان ذلك في مارس ١٨٢٢ . ولكي يبيثوا الذعر والخوف في نفوس الجنود أشاعوا بأن اسماعيل كامل قد قتل في الجبال الموجودة بصعيد السودان ، وأن معظم جيشه قد أريد ، وأن هناك هجوما مضادا ضد القنرات المصرية . وانتقلت هذه الفوضى الى نندى وبعض القرى المجاورة لها ، وراحوا يقتلون كل من يقابلهم وحيدا من الجنود المصريين ، وهرب سكان حوالى خمسمائة قرية بين حلفاية وبين فازوغلى (١) .

ولما علم اسماعيل الخبر أسرع الى سنار ، وبدأ في معالجة الأمور بحكمة بالغلة فعامل الأهالى برفق ، ولم يقتل أحدا منهم سوى « ود عجىلاوى » وبدأ يفتش عن السبب المباشر لهذه الأحداث فعرف أنها الضرائب التي فرضها ديوان أفندى والمباشر حنا الطويل ، فلم يقبل تلك الأوضاع الجديدة التي اشتط في وضعها وتنفيذها ، وطلب موافاته بالدفاقر ليقوم بتعديلها فوجد أن المباشر قد أرسلها الى مصر فأوفد رسولا ليعود بها فلم يدركها . وأخيرا لامهم على ذلك وطلب منهم

(١) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب ١٢٣٧ من اسماعيل باشا الى ولى النعم . دار الوثائق القومية بالقلعة .

انظر أيضا : حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

(م ١٨ — النطور الاقتصادي الاجتماعى)

تحصيلها برفق من الأهالى . ومن العجيب حقا أن اسماعيل حين عاد من جبال فيزوغلى الى سنار ، وكانت نيران الفتنة مشتعلة وأفراد جيشه يواجهون المقتل ، لم يلجأ الى استخدام القوة وهو الشاب الذى لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، وكان معه الايان من الجنود يمكنهما بأمر منه أن يعملا القتل والتخريب ، إلا أنه فضل اللجوء الى الأسلوب الهادىء لأنه على حد قوله « لو أخذناهم بالعقاب لأدى ذلك الى تشتت الآخرين والى خراب جديد ففضلنا أن نؤمن ونطمئن كل واحد منهم » (١) .

وقد كان موقف محمد على من هذه الأحداث فى جانب الشعب السودانى وضد القائمين على جمع الضريبة ، ففى رسالة له راح يخاطب ابنه اسماعيل قائلا « يا ولدى العزيز ان هؤلاء قد بالغوا وأفرطوا فى مسألة « الفردة » حتى نفروا الناس عنهم ، والصراط السوى هو مراعاة خطة الاعتدال فى كل شئ » . ثم مضى يلقي باللائمة على المباشر حنا الطويل ومساعديه قائلا : « ان حنا الطويل لا يفتن لهذه الدقائق وان ما تفعله هذه الطائفة فى سبيل كسب المنافع ليأتى فى الغالب مخالفا لقانون الحكومة » . وأخيرا طالب بضرورة البت فى أمر هذه « الفردة » وإغراقها فى قالب موافق (٢) .

وهكذا نخلص الى أن تلك الأحداث الدموية التى جرت فى مستهل الادارة المصرية بالسودان كانت ترجع أساسا الى سوء تطبيق نظام الضرائب الجديدة على تلك البلاد .

ومن الأحداث المتعلقة بالضرائب فى عهد محمد على ما جرى فى

(١) محفظة ١٩ بحر برا ، نفس الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ١٠ وثيقة رقم ٢٢٩ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٣٧ هـ . من الجنب العالى الى ابراهيم باشا . وانظر أيضا : مخطوطة تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور مكى شبيكه . ص ١٧ .

عام ١٨٣٦ حين قام عربان البشارية في الصحراء النوبية بالامتناع عن دفع الضرائب المستحقة عليهم ، وقيام الكاشف محمد خربوطلى بمحاربتهم والاستيلاء على بعض الابل منهم بعد أن أوقع الهزيمة بهم ، ولكن المتمردين لم يقبلوا هذا الأمر الذى انتهى اليه حالهم فدبروا كميناً للكاشف حتى قتلوه بالإضافة الى قتل ثلاثة وعشرين من رجاله (١) .

وفي مارس عام ١٨٤٤ تمرد أهل التاكة بسبب الضرائب التى فرضت عليهم عقب ضم الاقليم ، الأمر الذى أدى الى أن يقوم أحمد باشا المنكلى حاكم السودان بمحاربتهم . ويبدو أنه كان من الصعب على عربان البشارية أو سكان التاكة فهم هذه الضرائب والأعباء التى بدأت الحكومة تطالبهم بها بشكل منظم وهم الذين اعتادوا على التنقل وحرية الحركة ولا سلطان عليهم سوى سلطان شيخ القبيلة الذى يحكم فيما بينهم وفقاً لأعراف حفظوها ، أما أن يأتى محمد على بقوانين جديدة فذلك نىء غريب ودخيل على حياتهم ، ومن ثم — من وجهة نظرهم — لا بد وأن يقفوا فى وجهه وهو ما حدث بالفعل ففهم المصلحة العامة فى ذلك الوقت لم يكن قد تبلور لدى سكان المدن فما بالناس ببسود الصحراء وفى أوائل القرن التاسع عشر !

وقد انتقلت مقاومة الأهالى للضرائب الى طور آخر من أطوار المقاومة ، طارحة شكل المقاومة المسلحة ، وهذا الطور الجديد تمثل فى عمليات الهروب وهجر السواقى ، ففي أوائل عام ١٨٤٧ ، مثلاً ، بلغ عدد السواقى الخربة فى مديرية دنقلة بعد أن هجرها أصحابها حوالى ١٢٦٣ ساقية . وكان ينبغى أن تدفع عنها ضرائب الى الحكومة ، فتقدم المدير بشكوى الى المسؤولين بمصر يشرح فيها هذه المسألة ويسألهم

Hill, Op. Cit., p. 36.

(١)

وأنظر أيضاً : دفتر رقم ٧٨ معية نركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٣٥ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ من الجناح العالى الى خورشيد باشا حاكم السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

المسورة تجاه ذلك (١) • ويبدو أن الاجراءات التى كانت تتبع فى جمع الضرائب والتى لم يألّفها السودانيون ، وخاصة قطاعات البدو منهم ، قد أدت الى هروبهم • فقد رفض العربان المقيمون بمديرية التاكة « دفع العوايد المقررة عليهم » والتجأوا الى مينائى سواكن ومصوع • وقد كان هذا الأمر واحدا من الأسباب التى أدت الى ضم هذين المينائين الى الادارة المصرية (٢) •

ولا ينبغي أن نقف طويلا عند مسأله هروب الفلاحين والعربان السودانين على اعتبار أنها ظاهرة انفرد بها السودان تحت الادارة المصرية ، فنفس الظاهرة قد تكررت فى ذلك الوقت فى مصر • ومن أمثلة ذلك ما حدث بقرية « منية السرج » التى كانت تقع قرب القاهرة آنذاك ، حيث قام بعض الفلاحين بالهروب منها من جراء بعض الاجراءات الادارية القاسية ، وقد تلى عمليات الهروب هذه أحكام قاسية على أولئك الفلاحين (٣) • ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة حتى على فترات التاريخ الحديث فى مصر بل كانت تضرب بجذورها فى أعماق

(١) دفتر رقم ٥٨٦ صادر ديوان الكتخدا — وديقة رقم ٢٣٤٣ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر . ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير المديرية • دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ١٠٠١ وارد نظارة المالية من مختلف الجهات — وثيقة رقم ١٩٦ ، بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٣ هـ . بند المعبة ، وانظر أيضا : دفتر رقم ٤١٩ — معية تركى . بتاريخ ٢ صفر ١٢٦٢ هـ . من حكام السودان الى المعبة .

انظر ايضا : محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف أحمد بانما حكام السودان — مكاتبه بتاريخ ٩ جمادى الاولى ١٢٥٦ هـ .

وانظر ايضا : دفتر رقم ٤١٣ صادر المعبة السنية — وثيقة رقم ١٢٦٩ بتاريخ ١٧ جمادى الآخر ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير الساكة .

انظر أيضا : دفتر رقم ٨ عابدين — ترجمة الخطاب رقم ٤٢٩ بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٢٦٢ هـ . من الجناح العالى الى الساب العالى دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) F. O. 78-582. No. 4. Alexandria, 24th. 1844, J. L. Slodart the Earl of Abearden.

التاريخ المصرى قديمة ووسيطه ، وكانت تمثل لونا من ألوان المقاومة السلبية لتلك الحكومات (١) .

واستمر ضجر الأهالى من العبء الضرائب الى عهد الخديوى اسماعيل ، وقد عبروا عن هذا الضجر - أحيانا - فى شكل سكاوى ، ففى أكتوبر عام ١٨٧٠ وردت شكوى من بعض الأهالى ببربر بسبب زيادة ضرائب السواقى والأطيان والنخيل عليهم ، فطلب المدير كشف بيان ذلك فعلم أن الزمام الذى كان مربوطا فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣ م) بواقع الساقية الواحدة ٢٣٥ قرشا فى العام ، والفدان من الجزائر ٢٥ قرشا ، والفدان من الجروف والعتامير عشرين قرشا ، والنخيل كل واحدة ١٢٠ قرشا . وفى عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ / ١٨٦٤) أضيف على كل ساقية ٧٥ قرشا وعلى فدان الجزائر ١٥ قرشا ، وعلى فدان الجروف ١٣٢٠ قرشا . وفى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ / ١٨٦٧) أضيف على كل ساقية ١٥٠ قرشا وعلى فدان الجزائر ٢٠ قرشا والجروف ١٦٣٠ قرشا والعتامير عشرة قروش ، وكل نخلة قرشا واحدا . وكان مجموع ما على العربان من ضرائب ٤٠٣٤٨٧٣ قرشا وبذلك تكون قد وصلت الى ٦٧٢٤٧٨١٨ قرشا عدا أجور المستخدمين التى اضيفت الى الضرائب . ونتيجة لكل هذه الزيادات ، بالاضافة الى الأعباء المضافة اليها كأجور لجامعيها أصبحت ضريبة الساقية من ٢٧٥ قرشا الى ٥٣٤١٠ قرشا ، وفدان الجزائر ٣٢٢٢ قرشا (٢) ، كما أشارت الشكوى

(١) أنظر المقالات الآتية بكتاب « الأرض والفلاح » الصادر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : د . عبد العزيز صالح : الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية . ص ٦٢ . د . مصطفى كمال عبد العظيم : الأرض والفلاح فى عصر البطالة . ص ١٠١ . د . مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية . ص ١٣٥ ، د . سيدة كاشف : الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية . ص ١٩٦ .

(٢) دفنر رقم ١٨٤٩ وارد المعية ، ص ١٣ ، صورة المكاتب الواردة من مديرية ببربر الى المعية السنية رقم ٤ بتاريخ ٢٠ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ (أكتوبر ١٨٧٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة .

أيضاً إلى أن مساحة الأراضي التي تؤخذ عنها ضرائب لم تعد ثابتة طوال العام نتيجة ما يطرأ عليها من « أكل البحر وطرحه » • كذلك فقد أدت هذه الأحوال السيئة إلى « تسحب » (هروب) الأهالي نتيجة تراكم هذه الضرائب وعجزهم عن سدادها (١) •

وهكذا يبدو جلياً أن حجم الضرائب قد بدأ يزداد تدريجياً عن دى قبل سواء في عهد محمد على أو محمد سعيد حين كانت الزيادات تدريجية بينما أصبحت الآن على عهد اسماعيل حادة • ورغم كل الجهود التي بذلها محمد سعيد من قبل وحدود بعض الاستقرار في هذه الناحية ، فقد بدأت المشكلة تطل برأسها في عهد اسماعيل وبشكل حاد ، واستمرت في التدهور وازدادت معها الشكوى من لدن الأهالي • ففي عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥) أرسل عمدة « الشباك » بقسم حلفا بكرسكو إلى المسؤولين بمصر يعرض لمسألة الضرائب المتحصلة عن النخيل فيقول ان الضرائب التي كانت تحصل على النخيل في عهد محمد على باشا كانت على النحو التالي : النوع العالي (الممتاز) كان يحصل عنه قرش وعشر قضات • والمتوسط خمسة قروش وثلاثون فضة وعن « السدون » وهو أراضاً أنواع النخيل ثلاثون فضة ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) • وفي عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣) صدر أمر بتعيين محصول النخيل بالعشور واستمر ذلك حتى عام ١٢٨١ هـ ، ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) ثم فرضت بعد ذلك ضريبة تتراوح ما بين ثلاثة قروش إلى أربعة قروش • ثم يضيف قائلاً وبذلك حدث لنا الضرر والتعب ، ثم حدث نتيجة تقديم عدة « عرضاحالات » للمديرية والمفتش والخديوى ان صدر الأمر باجراء التعداد وربط ضرائب النخيل بالعشور وذلك في عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ / ١٨٧٠ م) (٢) •

(١) نفس الدخر والوثيقة السابقة •

(٢) دفتر رقم ٣١ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٢ هـ • من حمزة سليمان عمدة الشباك بقسم حلفا بكرسكو إلى مهردار خديوى • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

واستمرت الحالة الضريبية في تلك المنطقة تتذبذب بين مد وجزر الى أن أصبحت الضريبة كالتالى : سبعة قروتس وعشرون فضة على النوع العالى (الممتاز) ، وخمسة قروتس عن المتوسط ، وثلاثة قروتس وعشر محسات على الدون * وفى عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) سددت الضريبة كالتالى : ستة قروتس عن النوع العالى ، وأربعة قروتس عن المتوسط ، وثمانون وناثون فضة عن الدون * ويختم صاحب هذه التكوى قائلا : انه لا قدرة لديهم على دفع مثل هذه الضرائب نظرا لضيق « معاشهم » فى تلك البلاد وتشتت أهاليهم للعمل فى خارج القرى سواء فى السودان أو خارجه بمصر * ولم يعد يوجد بتلك المناطق سوى النساء والضعفاء والفقراء من غير القادرين على دفع الضرائب ، بالإضافة الى أن النقد كان يعوزهم وكل ما كان بيدهم منه يستبد لونه بالغالل التى يجلبها التجار اليهم من بلاد أخرى * وقد التمس صاحب التكوى ، بالانابة عن هؤلاء جسيميا ، التخفيف من الضرائب أو معاملتهم بحسب العشور كما كان سابقا (١) * من ذلك يتبين لنا أن الوضع الضرائبى كان عبئا ثقيلا على المواطن السودانى وكان لابد أن تجرى بعض الاصلاحات فى هذا السبيل .

الاصلاحات الضرائبية :

(أ) فى عهد محمد على :

لقد جرت محاولات فردية وعلى فترات متفاوتة فى عهد محمد على لاصلاح الوضع الضرائبى فى السودان ولكنها لم تثمر نجاحا كبيرا ، ومن هذه المحاولات ما تم فى عهد خورشيد حين اقترح تعديل ضريبة السواقى طالبا من المجلس الخصوصى تطبيق النظام الضرائبى السائد فى مصر ، وذلك بمسح الأراضى وربط الضريبة عليها وذلك بدءا من عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) (٢) *

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محفظة ١٩ بحر برآ - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٣٧ هـ من اسماعيل باشا الى ولى النعم . دار الوثائق القومية بالطنجة .

كذلك فقد جمع هذا الحكماء مشايخ البلاد وطلب منهم اخذ
شيخ من بينهم ينوب عنهم في تعديل نظام الضريبة فاختروا الش
عبد القادر الذي أشار عليه بضرورة اعفاء الفقهاء والأعيان منها
يتسنى لرجال الادارة الاستعانة بهم في تسكين روع الأهالى وعو
الى أوطانهم التى هجروها ، وبالفعل فقد استجاب خورش
لنصيحته (١) *

(ب) فى عهد سعيد : ويبدو أن مثل هذه الحاول لم تكن ذات ذ
الى أن قرر سعيد باشا فى عام ١٨٥٧ القيام بزيارة الى السودان
فى وضع علاج جذرى لمسألة الضرائب وخاصة تلك المتعلقة بالأوض
الزراعية التى كثرت الشكوى حيالها * ويبدو أن سعيد قد آل على
أن ينصف الفلاح السودانى كما حاول انصاف الفلاح المصرى من
اللوائح والقوانين الزراعية التى أصدرها * فلما وصل الى الس
لاحظ مدى الحالة السيئة التى يعيشها الأهالى بسبب كثرة الض
المربوطة على السواقي والأطيان فضلا عن الأعباء الأخرى الم
منهم (٢) *

وقد طلب أن تجمع الأموال من الأهالى حسب طاقتهم حتى يب
روعهم ويعمروا أوطانهم بدلا من الهروب منها * وازاء ذلك كله قد
بسؤال المشايخ والأهالى الذين حضروا اليه وهو قادم من حدود
عن الاسلوب الأمثل الذى يؤدى الى راحتهم ويمكنهم من خلاله دذ
الضرائب دون أدنى مشقة ، فطلبوا منه أن يحصل مال كل ساقية بو
مائتين وخمسين قرشا ولكن محمد سعيد أمر بانزال هذا المبلغ الى ما
فقط عن كل ساقية رغبة فى كسب حب الأهالى وجذب قلوبهم و

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ٣ . ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى .

صورة الأمر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى هـ
١٢٧٣ هـ أمر كريم الى أحمد على بشير شيخ ناحية أحمد على بشير
المتمة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

أولئك الذين هربوا من البلاد (١) • وأما الأَطَيَّان الأَخَرى كأَطَيَّان
الجزائر فقد قرر أن تؤخذ على الفدان الواحد خمسة وعشرون قرشا ،
وعلى الفدان الواحد من أراضى الجروف عشرون قرشا (٢) • وهكذا
استطاع سعيد أن يدخل السعادة الى قلوب الأهالى الذين عاهدوه ببذل
قصارى جهدهم ، واستجلاب قلوب من هربوا من البلاد حتى يعودوا
الى عمار الأراضى • ثم طلب أيضا من الأهالى والعمد أن يرشحوا هم
أنفسهم مديرا عليهم من بين المشايخ والمكوك حتى يؤدوا عن طريقه
الضرائب المستحقة عليهم ، فاذا رفض البعض أن يكون هناك واسطة
بينهم وبين الحكومة فيمكنهم في هذه الحالة سداد ضرائبهم مباشرة الى
الديوان • كما اقر بأن لا تحصل أية مبالغ اضافية عن المقرر ، وأن
يكون التوريد في « موسم الزواج » أى وقت ظهور المحصول • ولما
كان محمد سعيد باشا يعلم أن المشايخ في تلك البلاد يقومون بأعباء
كبيرة في جمع الضرائب بالاضافة الى خوفه من أن يقوم هؤلاء المشايخ
بجمع أموال تزيد عن المطلوب ، فقد قرر لكل شيخ « مسموحا »
مقداره ساقية واحدة عن كل خمسة وعشرين ساقية من أراضيهم
لا تؤخذ عليها ضرائب ، وطلب كذلك أن لا تؤخذ أموال عن الأراضى
« المشرقية » التى تنشأ عن عدم فيضان النيل أو عدم نزول
الأمطار (٣) •

وازاء تلك الاصلاحات الضرائبية كان من الطبيعى أن يعود أولئك
الفارون من الضرائب الى أراضيهم القديمة ، وهنا نشأت مشكلة جديدة
بسبب عودتهم • حيث أن الأراضى التى هجروها أصبحت تحت أيدى
آخرين • وقد أوجد لها سعيد حلا فقرر ان كان أصحاب الأراضى
الفارون قد مضى على هروبهم خمسة عشر عاما وأصبحت أراضيهم تحت أيدى

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة .

(٢) نفس الدفتر والوثيقة .

وأنظر أيضا : Abbate; op. cit., p. 30

(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة .

آخرين تعطى لهم أراض جديدة من أراضى « الناحية » وان لم تكرر مد مضت هذه المدة يستردوا أطيانهم القديمة ويمنح واضح اليه .
أطيان غيرها (١) .

كذلك فقد تجاوز محمد سعيد عن الضرائب المتأخره التى كانت على الاهالى وطلب من المسئولين فى السودان أن ينفذوا هذه الأوامر ، والوصايا وخاطبهم قائلاً : « ... واعلموا انه اذا لم تحفظوا هذه الوصايا وتجروا العمل بموجبها ، بل تركتم كل ذلك وعدلتم عن الحق ، وحصلت منكم ظلم أو غدر لأى إنسان نعاقبكم بأشد العقاب .. كونوا على حذر من ذلك ... » (٢) وهكذا استطاع محمد سعيد بتلك الاصلاحات الخرائطية أن يصحح كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه واستطاع — على سبيل المثال — أن يعيد كثيرين ممن هاجروا من مديريه بربر الى كردفان والنيلين الأبيض والأزرق ، وكذلك المهاجرين من اقليد التاكة والسودان الشرقى عموما . ومعروف أنه بهجرتهم هذه من بلادهم الأصلية قد أضافوا أعباء ثقيلة على كاهل الذين بقوا ولم يهاجروا معه فحملوا نصيبهم من الضرائب . وزاد الحال سوءا ان رؤساء القبائل والزعماء والشيوخ المحليين ، وهم المكلفون بتحصيل الضرائب وتوريده للحكومة انتهزوا الفرصة واستغلوا هذا النظام الضرائبى لمصلحتهم الشخصية . وقد هب لهم كبارهم وصغارهم الفرصة لمثل هذه الأفعال . فقد بلغت الضرائب عن الساقية الواحدة فى اقليم النوبة ما قيمته ثلاث جنيهات انجليزية سنويا ، وان كانت مديرية بربر وحدها تدفع سنويا ستة آلاف كيس كسرية أى حوالى ثلاثين ألف جنيه سنويا (٣) .

(١) نفس الدفتر والوثيقة السابقة . انظر أيضا امين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد — المجلد الأول ص ١١٢ .
أيضا زاهر رياض . السودان المعاصر ص ٧٨ . وأيضا : محمد احمد الجابرى : فى شأن الله . ص ٢٤ .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل
الاسياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ — ص ٧٠ .

واستمرارا في سياسة محمد سعيد الضرائبية في التخفيف عن المواطن السوداني قام في مايو ١٨٥٧ بإصدار أمر له بإعفاء بعض رجال العلم بمديرية كردفان من الأموال المقررة عليهم ، بناء على طلب منهم حيث أنهم كانوا يقومون بمهمة التعليم وانه ، على حد تعبيره ، كان من سيمته اكرام أهل العلم وضرورة تحبيب المواطنين في نشر العلوم (١) . كذلك فقد طلب في نفس العام من مدير التاكة أن يعيد النظر في مقدار الزمام المربوط على كل قبيلة من العربان المقيمين بهذه المديرية وأن يرفع منه الثلثين ويقيّد الثلث الباقي عليهم (٢) .

وعلى الرغم من تلك الجهود المضيئة التي بذلتها الادارة المصرية في السودان على عهد محمد سعيد لحل المسألة الضرائبية فقد استمر بعض العربان والمتساخ في الهروب واللجوء الى أماكن بعيدة عن أعين السلطة الحكومية حتى لا يدفعوا نصيبهم في الضرائب . وقد أرسل محمد سعيد باشا في أغسطس عام ١٨٥٨ الى سلطان الحبسة يتروح له مسألة أولئك الهاربين الى تخوم بلاده هربا من الضرائب ، ويطلب اليه معاونته في اعادتهم الى السودان (٣) . وللأسف الشديد — كما هو واضح تماما — فان قطاعات كبيرة من الأهالي لم تنزل عند أفكارها البالية حول مفهوم الضريبة وارتباطها بالمصلحة العامة التي سوف تعود بالنفع على جميع الأهالي . وتبدو الأصابع الأجنبية سافرة تعبث وتثير الشكوك

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ١٦ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ٣٧ بتاريخ ٥ رجب سنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى مدير التاكة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ١٨٩٠ أوامر عربى — صورة فرمان العربى رقم ٨٩ ص ٤١ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٧٥ هـ فرمان من محمد سعيد باشا الى سلطان البلاد الحبشية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

حول الجهود التى يحاول بذلها محمد سعيد فى السودان ، من خلال الحوار الذى دار بين الباشا وبين أحد المسئولين الانجليز بمصر آنذاك حول أهمية رحلة محمد سعيد الى السودان والآمال المرجوة من ورائها . فقد أشار الباشا لهذا المسئول عن ضرورة إعادة تنظيم الادارة فى السودان على أسس جديدة وافساح المجال للعناصر السودانية بدلا من أولئك الحكام الذين لا هم لهم سوى الابتزاز . وقد وافقه المسئول الانجليزى على ضرورة اجراء مثل هذه الاصلاحات ، ولكنه أبدى تحفظا غريبا ، حول الآمال المرجوة من تلك الاصلاحات التى يرمى اليها الوالى ، مؤداه أنه لا يستطيع أن يرسم صورة للنتائج المستقبلية لتلك التدابير التى تبناها محمد سعيد (١) وهكذا يبدو التشكيك واضحا من جانب كبار المسئولين الانجليز بمصر فى قيمة الأفكار الاصلاحية التى كان الباشا ينوى اجراءها فى السودان . ولكن محمد سعيد لم يستمع الى مثل تلك الأفكار المثبطة للهمم فى جدوى اصلاح السودان ، والتى بلغت قممتها فى اطلاق اشاعة تقول بأن الباشا كان ينوى ترك السودان ، بل مضى فى تنفيذ برامجه الاصلاحية فى السودان وعلى رأسها الاصلاح الضرائبى وسط تلك المتاعب .

(ج) فى عهد اسماعيل:

وفى عهد الخديوى اسماعيل كان لابد من اجراء تعديلات وتنظيمات جديدة فى مسألة الضرائب تتواءم والظروف الجديدة . وبالفعل قام حكامدار السودان موسى حمدى (١٨٦٣ - ١٨٦٥) بعقد مجلس مع المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها لمناقشة الضرائب ، وأسفر هذا الاجتماع عن ايجاد نظام جديد مؤداه ان كل فلاح لابد أن يحصل على « سركى » ويكون بحوزته ليدفع بمقتضاه الضرائب المستحقة عليه على

F. O. 78 - 1200, No. 52, November 4 th. 1858. Fredrick A. Bruce (١) to the Earl of Clordon.

ثلاثة أقساط معينة في السنة ، وكلما دفع قسطا منها قيد له في المركب الذي بيده ، مثلما يقيد في يومية المصارف (١) .

وفيما يتعلق بمسألة الضرائب في أجزاء البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع في ذلك الوقت ، يطالعنا أحد التقارير المقدمة من محافظ مصوع وقت تسلم الادارة المصرية لها في عام (١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م) حيث يشير الى تلك الفوضى التي كانت متبعة في تحصيلها من قبل ذلك التاريخ ، مما جعله يضطر الى طلب حضور مشايخ العربان الذين يدفعون أموالا في مصوع واجراء تحقيقات في المتأخرات عليهم وجهها لوجه ، كما أرسل مكاتبات الى باقى الأهالى ممن يدفعون الضرائب للحضور . وخلال هذا الاجتماع تبين أن شخصين من عائلة واحدة ادعى أن جديهما منذ عصر السلطان سليم كانا يقومان بتحصيل « العشور » ولهم دراية بحالة هذه البلاد وقبائل « الحباب » التي تقطنها وبدافعى الضرائب والعشور ، فقام باستدعائهما . ومن المعلومات التي استقاها منهما وضع نظاما تقريبا عن أماكن القبائل المقيمة بها ، وأوضاعها المختلفة ، كذلك فقد علم ان الطريقة التي كانت تتبع من قبل في تحصيل العشور تتم عن طريق أحد ابنى العم سالفى الذكر والذي كان يلقب بلقب (نائب) ويقوم بتحصيل العوائد من القبائل والرسوم على البضائع والأشياء الواردة من الحبشة الى مصوع نظير ألف (فرانسة) من ايراد الجمر ، وكان هذا الأمر مدعاة للنزاع بين ابنى العم . ولكن حسن رفعت رأى أن يخصص مرتبا منتظما قدره ٧٥٠ قرشاً شهريا لكل من

(١) الساس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . المجلد الثانى ص ٢٨ ، انظر أيضا : نعموم شقير : المرجع السابق . ج ٣ ص ٣٣ ، انظر أيضا : محمد صبرى الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر . ص ١٨ ، انظر أيضا : ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجزء الثانى ص ٦٧ .

هذين الشخصين مع تخصيص مرتبات مناسبة ببعض أقاربهما (١) .

وفي جهات طوكر كان المسئولون عن الضرائب فيها يمهلون بعض المزارعين عدة شهور في أدائها ، نظرا لانشغالهم في أمور الزراعة كما حدث بالنسبة لعربان « أرتيقي » عام ١٨٧٠ (٢) . فقد كانت أمور الزراعة لا تقل فائدة عن غيرها خاصة وأن تلك الجهات كانت تتميز بزراعة القطن . وكان المسئولون يبعثون برسائل عديدة الى جهات سواكن وما حولها كي يكف الجنود عن طلب أموال الميرى المقررة على الزراعة وأن يترك هذا الأمر « لملاحظ » العربان ، حتى لا ينفرونهم منها (٣) .

(د) اصلاحات رؤوف باشا :

وفي أواخر عهد الخديوى اسماعيل بدأ تفاقم الوضع الضرائبى في السودان فكثر الشكوى من لدن الأهالى ، لدرجة أن بعضهم كان يفضل موتا جماعيا على أن يدفع ريالاً واحداً حيث ذاع المثل القائل : « عشرة في التربة ولا ريال في الطلبة » (٤) .

وهناك من يفسر ضجر الأهالى منها في هذه الآونة ، فيذهب الى أنها لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً إذ كانت شديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء (٥) . وليس المقصود بأنها كانت خفيفة على الأغنياء ان

(١) محفظة رقم ٣٨ معنة بركى — ترجمه المكنبة رقم ٢٢ بتاريخ ٦ المحرم ١٢٨٣ هـ انظر أيضاً : شوقى الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر . ص ٦ .

(٢) محافظة سواكن — عربى صادر ، ج ٦ . دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ / ٣٢ (رقم قدم ٣٥٨٥) مكنبة رقم ٣٧٦ فى ٧ ح سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محافظة سواكن — عربى صادر . دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ ، مكنبة رقم ٨١ بتاريخ ١٦ ل سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩) دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) Mekki Abbas; The Sudan Question p. 30.

(٥) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ٣ . ص ١١٠ .

الحكومة هي التي سرعت ذلك في قوانينها ، ولكن المقصود بذلك أن الأغنياء كان بمقدورهم استمالة المأمورين لقربهم منهم ومن بقية الحكام ، بالإضافة الى أن جانبا كبيرا من أملاك الأغنياء والمأمورين في السودان كانت معفاة من الضرائب * كذلك فقد تولى عملية تحصيل الضريبة جماعات « البانسوزق » التسايقية والأكراد والمغاربة الذين تم على أيديهم ضم السودان عام ١٨٢١ فاستعملوا القسوة في تحصيلها * وأكثر من ذلك أن المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل راحوا يفرضون على الأهالي « فرضا » غير رسمية يقومون بتحصيلها مع الضرائب (١) * ويتفق مع هذا التفسير سلاطين باشا الذي عمل مفتشا ماليا في السودان عام ١٨٧٩ وطلب اليه — حينذاك — أن يقوم بجولات في أرجاء السودان ويفحص تسكيات السودانيين المعارضين لدفع الضرائب (٢) * فقد لاحظ هذا الرجل من خلال جولاته كثيرا من الأراضى التي كان يمتلكها الموظفون الحكوميون والتي لا تؤخذ عنها ضرائب البتة ، ولما سأل عن سر ذلك أجيب بأن هذا امتياز للموظفين نظير خدمتهم للحكومة ، وكانوا يستأوون تماما إذا ما قيل لهم أنهم يتناولون أجرا لقاء خدمتهم (٣) *

وفي مايو عام ١٨٨٠ قام رؤوف باشا حاكم دار السودان بوضع تقرير مطول عن أوضاع السودان عامة والاقتصادية منها على وجه الخصوص ، حاول فيه أن يقدم صورة حقيقية للأوضاع التي كانت سائدة آنذاك ، وخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب * فمن بين ما لاحظته بمنطقة (وادى الحجر) التابعة لديرية دنقلة أن الأهالي عقب سقوط الأمطار يقومون بنقل الطمي والأتربة من النيل الى الأراضى الحجرية ازراعتها رغم وجود أراضى صالحة للزراعة فسألهم عن سر ذلك فأجيب « ... بأن ذلك ناشئ عن ضعف حالهم وعدم تحملهم لدفع مالىة

(١) نعوم تنقير : المرجع السابق ج ٣ . ص ١١٠ .

(٢) سلاطين باشا : المصدر السابق . ص ٣ .

(٣) نفس المصدر . ص ٣ .

سواقى الأراضى الصالحة للزراعة إذ أنها بلغت خمسمائة قرش سنويا ، وما يتحصل منها لا يكفى مصروفاتها وسداد مالياتها ٠٠٠ » (١) واقترح الحكمدار لحل هذه المسألة بواذى الحجر أن تخفف الضرائب عن كاهل الأهالى .

وفى كرسكو لاحظ الحكمدار أيضا » ٠٠٠ أن الميرى مربوط له عوايد على كل « حمل » يدخل منها لبربر ٠٠ » (٢) ، وأن هناك « قبانيا » وناظر شونة اتحدا فيما بينهما وبين ناظر شونة (أبو حمد) فى أخذ مال الحكومة لأنفسهم . واقترح الحكمدار حلا لذلك بأن يحال تحصيل العوائد الى متعهد خاص عن طريق « ٠٠ اشهارها فى صورة مزاد ، ويقوم الشخص الذى يرسى عليه العطاء بدفع مبلغ معلوم للحكومة » ، شريطة أن تقوم الحكومة بتحديد ما يأخذه هذا المتعهد على كل حمل وأن يقوم بدفع مرتبات سائر الموظفين بتلك الجهة (٣) . وفى كرسكو أيضا تذمر الأهالى من ارتفاع الضريبة المقررة على سواقىهم والتي تراوحت بين ٦٢٠ قرشا الى ٦٤٠ قرشا على الرغم من أن السواقى بمديرية دنقلة القريبة منها كانت ضريبتها ٥٠٠ قرش وكان من نتيجة ذلك كله هروب الأهالى وترك السواقى خرابا ، فاقترح الحكمدار أيضا تخفيض الضريبة (٤) . وقد تكررت نفس الشكوى من قسوة الضرائب على الأهالى فى كل من بربر والخرطوم حيث شاهد الحكمدار بنفسه آثار شدتها عليهم ومدى تفاقمها الى صورة سيئة عن ذى قبل حين زار أراضى الخرطوم — كما أشار بالتقرير — منذ اثنى عشر سنة حين كانت سواقى الأهالى عامرة وأصبحت الآن خرابا (٥) .

(١) تقرير حكمدار السودان محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ٢٨ مايو عام ١٨٨٠ مودع بمحافظ السودان ، تحت عنوان : موضوعات (محفظة بدون رقم) بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نفس التقرير .
(٣) نفس التقرير .
(٤) نفس التقرير .
(٥) نفس التقرير .

وقد طلب الحكماء الكثوف المقيده بها حسابات تلك المناطق منذ عشر سنوات فتبين له ان أصل أموال تلك الجهات المذكورة في تلك السنوات قد بلغت ٣١٤٨١٧٥ جنيها ، وأن ما تم دفعه منها بلغ ٢٩٦٢٧١١ جنيها والباقي مبلغ ٨٧٧٤٦٤ جنيها ، ومن ذلك وضح له أن ليس في مقدور الأهالي تحمل دفع هذه الأموال * ويفسر الحكماء سر هذا التأخر في سداد الأموال (الضرائب) بأن الحكماء السابق جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ - ١٨٧١) كان « قد أجرى علاوة ثلثي المال » على جهات السودان عموما ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأهالي في تأخير السداد (١) *

وعقب هذه الجولات الطويلة التي قام بها رءوف باشا في جهات السودان لتلمس جذور المشاكل التي كانت تعاني منها البلاد ، ومن بينها الضرائب على وجه الخصوص ، ومناقشة هذه المشاكل جميعا على الطبيعة ، اقترح حلا جذريا لهذه المشكلة يتلخص في رفع « ربع » الضريبة المقررة على الأهالي في السودان وبعدها يمكن أن تزدهر الزراعة بعد أن تعود السواقي الخربة الى العمل وبالتالي يمكن زيادة إيرادات السودان (٢) *

ويبدو أن هذا العلاج الذي وضعه رءوف باشا عام ١٨٨٠ لم يأت بنتيجة فعالة ، أو بمعنى أدق لم تتح له الفرصة الطويلة كي يأتى أكله حيث داهمته أحداث الثورة المهدية *

وتعليقا على هذه النتائج السيئة راح البعض يفتش عن تلك العوامل التي أدت الى تفاقم الوضع الضرائبي في السودان وأرجعها الى تلك القوانين الضرائبية التي فرضتها الإدارة المصرية بالسودان ذات العيوب

(١) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .

(٢) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .

أو النفقات . فقد ظلت تلك القوانين لفترة طويلة دون تعديل جذري
اليهم إلا فيما أجراه محمد سعيد باسا خلال زيارته للسودان ، فظل
المقانون الضرائبي هناك في مجمله وجوهه ولم يتطور والظروف الجديدة
حتى قيام المهديه . وكان ينبغي ان يفتن المسئولون الى ذلك التطور
الذي حدث في حياة السودان الاقتصادية نتيجة للمشروعات العمرانية
التي جاء بها الحكم المصري حيث تعدل معها توزيع الثروة على السكان ،
الامر الذي كان لابد أن يصحبه تطور جديد في أنظمة الضرائب يتم من
خلالها توزيع هذه الأعباء توزيعا عادلا . وبالتالي يمكن رفع عبء الضريبة
عن فئة لم تعد هي الفئة الممولة في المجتمع السوداني . لقد ظلت
فئات المزارعين والبدو وبعض التوائح الفقيرة من السكان هي التي
تدفع الضريبة ، بينما الفئات الأخرى ممن يمكن أن نطلق عليهم كبار
التجار ، وكبار الموظفين والمتساخ في الدولة من الذين نالوا مراكز كبيرة
في سلك الإدارة يتهربون من الدفع ، كذلك فقد وجدت طبقة أخرى
من السكان وهي طبقة كبار تجار العاج والرقيق ممن أثروا ثراء فاهشا ،
وأصبحوا — دون مبالغة — يشكلون دولة أو دولا داخل السودان
وأصبح لهم جينس ضخم وزرائب عديدة ووقفوا في وجه الحكومة التي
راحت تارة تهددهم وتارة أخرى تستميلهم أو تستأنسهم الى جانبها ،
كما حدث مع الزبير رحمت الذي ضم دارفور والذي كان أصلا أحد
كبار تجار الرقيق .

وهكذا ظلت هذه الفئات تزداد ثراء على ثراء بينما كانت فئات
المزارعين والبدو تدفع الضرائب ، وكان لابد أن يحدث ذلك الخلل الكبير
والهوة العظيمة بين هذه الفئات جميعا ، وكان حتميا ، نتيجة لتلك
الأسباب أو المقدمات ولأسباب أخرى ، أن ينفجر بركان المهديه عام

١٨٨١ .



الشئون المالية :

كان النظام المتبع في شئون المال في السودان على عهد محمد علي

أن يقوم كل « خط » * من مأموريات السودان بتقديم حساباته الى ديوان المديرية في أوقاتها المحددة (١) * ، كما كانت حسابات السودان آنذاك مرتبطة بمثيلتها في مصر حيث كانتا تتبعان معا « ديوان الإيرادات » (٢) * وصار المسئولون بمصر يطلبون كسوف خزانه حكمداريه السودان كل خمسة عشر يوما . الأمر الذى تسبب على الحكمدارية تنفيذه بانتظام نتيجة النقص الذى كان متفشيا فى هذه الناحية . ونعنى بها عملية تنظيم الحسابات . وهذا النقص كان مرده الى قلة الكتبة والسيارفة القائمين على هذه العملية . وحداته عهد البلاد السودانيه بمثل هذه الأمور التنظيمية الجديدة والدقيقة فى حين واحد . وتبدو هذه المشاكل جلية فى الرسائل التى تبودلت بين مصر والسودان آنذاك (٣) * بل ان أحد المبشرين الذين عينوا لمهمة الحسابات فى سنار عام (١٢٤٥ هـ - ١٨٣٠ م) كان من المحال أن ينجز هذه المهمة كل ستة أشهر (٤) * .

ويبدو أن ذمم الكتبة والسيارفة فى ذلك الوقت كانت خربة الأمر الذى دعا الباشا الى مجابهة ذلك بأسلوب جديد حين لاحظ تعاوننا

(١) دفتر رقم ٧٨ معبة نركى - ترجمة الافادة النركية رقم ٢٤٤ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٥٢ هـ . من الجناح العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان .

(٢) دفتر رقم ٩٣٠ . الخزينه . ترجمة الاماده رقم ٨٢ بتاريخ ٢٢ جمادى الاولى ١٢٥٦ هـ من الخزينه الى مجلس شورى المعاونة . انظر ايضا : دفتر رقم ٣٧٦ صادر المعبة السنه بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٦٠ هـ .

مكانية رقم ٦٥٣ من المعبة السنبة الى مدير دسوان الابرادات . دار الوثائق القومية بالقلعه .

(٣) دفتر رقم ٢٦١ معاونة ابرادات . وبقة رقم ٨٧٥ بتاريخ ٢ محرم ١٢٥٧ هـ افادة الى يوفيق محرم . انظر ايضا : الوثائق المصرية العدد ٢٢٤ فى ٤ رمضان ١٢٤٦ هـ . العدد رقم ١٠٤ فى مسلخ رجب ١٢٤٥ هـ .

(٤) الوثائق المصره : العدد رقم ١٥٣ بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(*) الخط : مصطلح ادارى يعنى قسما من أقسام المديرية .

خفيا بين الحيارفه فى نهب الأموال ، فأبعد كل من له صلة قرابة بالآخر وأودع بعضهم السجن والخدمه بترسانة دنقلة لغترات طويله (١) . فكان الباشا لا يرى سببا يحول دون تولى بعض السودانين أمور الحسابات فتم تعيين أحدهم « أمين خزنة » لاحدى مديريات السودان (٢) . وبعد أن كانت ميزانيات المأموريات ترسل رأسا الى مصر تغير الوضع عقب انشاء ديوان الحسابات فأصبحت كل مأمورية أو مديرية ترسل ميزانياتها الى الخرطوم ومنها الى مصر . واستمر ذلك حتى نهاية عهد محمد على (٣) .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حقا فى المديريات السودانية آنذاك ، نلك الأعداد الرهيبة من الكتب الذين كانوا يقومون بتسجيل كل شاردة وواردة فما من صغيرة أو كبيرة إلا أحصوها ، ولم يكن يتم صرف أى سىء من المخازن إلا ويسجل فى بيانات دقيقة وبخط واضح وأرقام أكثر وضوحا ودقة (٤) .

ومنذ بداية أربعينيات القرن التاسع عشر — وبالتحديد بدءا من ١٨٤٠ / ١٨٤١ — شهدنا تطورا فى الأوضاع المالية لمصر والسودان . فقبيل هذا التاريخ جرت أحداث خارجية هامة تأثرت بها مصر اقتصاديا ، ونعنى بها الحروب التى خاضتها مصر فى الشام ، وما تحملاته من نفقات طائلة بسبب هذه الحروب الأمر الذى أدى الى ضرورة البحث عن

(١) الوقائع المصرية . العدد رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٤٧ هـ .

(٢) دفتر رقم ٢٧٢ معاونة إيرادات — مكتبة رقم ١١١ ، بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٠ هـ . من تسورى المعاونة الى مدير الإيرادات .

(٣) دفتر حسابات اعبادة كردفان رقم ٥٥٧٨ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٦٢ هـ — ٢٩ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ . (٩ سبتمبر ١٨٤٦ — ١٠ سبتمبر ١٨٤٧) .

(٤) سجل ٤٦٢٣ — مخزن رقم ٢١ قلعة — عين ٩١ — بيان شطب المنصرف من الخزينة العامرة لجهة بلاد السودان سنة ١٢٤٦ هـ . دار المحفوظات العمومية بالقلمة .

موارد جديدة سواء في مصر أو السودان • وقد حاول حكام السودان (أحمد باسما أبو ودان) في عام ١٨٤٠ أن يجعل من ضم منطقة التاكة الى الادارة السودانية اضافة جديدة لموارد السودان كما كان حريصا في نفس الوقت أن يبلغ ذلك مسامع الباسا الذي كان يتحرق سقوا وأملا في البحث عن موارد جديدة للبلاد (١) • وفي سبتمبر عام ١٨٤١ راح الباشا يطلب من حكام السودان بحجارة صريحة « • أن يجمع ما يمكن جمعه من النقود الذهبية والذهب الخام وارسله الى مصر بخاية السرعة • • » (٢) • كما كان الباسا يستحب حكام السودان على ارسال النقود الى مصر وخاصة في مستهل عام ١٨٤٢ مما جعل الحكمدار يخاطب المسؤولين بمصر أنه قد أرسل « • • • كافة النقود الموجودة في خزائن السودان • • » وأنه « • • • سوف يرسل كل خمسة عشر يوما كشوفا ببيان حسابات الخزائن المذكورة • • • » (٣) •

ويحاول محمد على في تلك السنوات أن يضرب مثلا لكيفية زياده الايرادات سواء في السودان أو مصر من خلال خطاب مرسل الى حكام السودان في ابريل عام ١٨٤٣ ومن واقع الحالة التي كانت تعيشها مصر والسودان فيقول للحكماد « • • • انكم تقولون في جوابكم اننى جاد ومجتهد في تكثير الواردات ، ولكن تكثير الموارد انما يكون بتقليل المنصرف ولكن أنتم على عكس ذلك آخذون بتزويد المصروفات وهذا غلط منك • • » ثم يضيف قائلا : « • • • وها أنا أبين لك ما هو الواقع وهو أنه لما عاد الجيش من بر الشام اجتمع حضرة ولدنا الباشا صاحب الدولة وكبراء

(١) دفتر رقم ٢٢٥ عابدين — ترجمه الافاده التركيه رقم ١٠ اصل •
 ١٧ مسلسل بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ • من شورى المعاونه الى الباشا حكام السودان •
 (٢) دفتر رقم ١٨٩ معاونه اقاليم • مكانية رقم ٣٥٤ بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٢٠٧ هـ • من الجنا ب العالي الى حكام السودان •
 (٣) دفتر رقم ١٩٧ معاونه اقاليم — مكانية رقم ١٦ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونه الى حكام السودان • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

دمر وتباعدوا الرأى لتقليل المصروفات . وذلك ان الرجال الذين ربيتهم من سجين صيره وأدخلتهم في حظيرة الانسانية والذين جمعتهم من هنا وهناك قرروا تفريضهم . وفي ذلك الوقت كنت في القرى فقدموا لى ذلك القرار الذى ضرره لتقليل المصروفات . فلما اطلعت عليه لم آر تفريق أولئك الأشخاص الذين جمعتهم من مدة مديدة وأخذت فى تثقيفهم شيئا فشيئا . « (١) وكان من رأى محمد على أن يعطوا نصف مرتبهم ويمكنوا من بيوتهم الى أن تأتى الساعة التى يطلبون فيها للعمل ، وبالفعل تم ما أراد ، الى أن بدأت الصالة فى التحسن وازداد الدخل عادوا الى الحكومة بمرتباتهم كاملة . وبعد أن ضرب هذا المثل لحكماء السودان نبهه الى أن المتأخر على السودان من الديون قد بلغ مبلغا ضخما وأن المخرج من هذا لا يكمن فى تقليل المستخدمين والمصروفات بحسب ، ولكن الحل يكمن فى زيادة دخل موارد البلاد باتباع أساليب أخرى . يوصف له طريقة مثلى لجمع المتأخرات وهى القيام بصرف بضعة آلاف لأولئك الرجال القائمين على جمع الأموال فى السودان الأمر الذى يحفزهم الى أداء مهمتهم بنفس راضية وسهولة ويسر وتكون النتيجة الطبيعية زيادة كبيرة فى الإيرادات (٢) .

من ذلك يتبين لنا عدة حقائق أولها : ان مصر كانت عقب حروب السام قد عانت مشكلة مالية حاولت التصدى لها عن طريق تسريح أفراد الجيش ولكن محمد على رفض هذا الحل وأصر على أن هؤلاء المسرحين يمكن أن يكونوا قوة انتاج لا بأس بها . وثانيها : أنه لابد من البحث عن أساليب أخرى جديدة وبديلة لزيادة الدخل والبحث عن علاج لأسباب القصور فى الإيرادات . وثالثها : ان محمد على لم يكن يخشى الزيادة الرهيبة فى العاملين بالدولة ولا يلق عليهم وحدهم تبعه القصور

(١) دفتن رقم ٢٠٨ صادر ديوان المعاونة الى الأقاليم . وثيقة رقم ٥٠٥ بتاريخ ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٥٩ هـ ارادة الى حكماء السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتن رقم ٢٠٨ ، نفس لوسبقة السابقة .

في الانتاج وضعف الاقتصاد . ولم يكن في نفس الوقت نجاة الى الحلول السطحية والسريعة بل كان يبحث عن العلاج الناجع للمسكنه . وهكذا فان المرء ليدمئس حقاً وهو يقرأ تلك الرسائل أو « الروسفات » المالية التي كان يبعث بها محمد على في القرن التاسع عشر الى رؤسائه في أقصى السودان مناقبنا ومطالاً لأدق وأخطر المشكلات الاقتصادية، وكأنه واحد من رجالات الاقتصاد المتحمسين . بل كان بفوتيم في أن اجتهاداته كانت تؤتي نماراً مؤكدة كما تراءى لنا .

وكانت بعض إيرادات المديرية السودانية في عهده — أحياناً — لا تف بمصروفاتها كما حدث للتاكة عام ١٨٤٤ . حين حذب نوع من الاختلال في ميزانها التجاري الذي تأخر بسببه تسليم العسكر الموجوده فيها لمرتباتهم (١) * وليس معنى ذلك أن كل المديرية السودانية في تلك الفترة كانت على نساكة التاكة من حيث اختلال حساباتها ولكن ذلك ربما يكون « حالة خاصة » بهذه المديرية لحدادة ضمها للإدارة الحربية في السودان وعدم ترتيب حساباتها الخاصة كسائر المديرية الأخرى أو ربما لاتساعها الشديد الذي يؤدي الى زيادة مصروفاتها على وارداتها ، وربما تكون كل هذه العوامل معا .

خلفاء محمد على ومالية السودان :

لم يكن اهتمام حلفاء محمد على يقل عن اهتمامه بالسودان من حيث النهوض اقتصادياً ومالياً ، مع تحفظ جوهرى وهو أن الجميع كانوا يصدرون القرارات النظرية السليمة ولكن محمد على كان يختلف عنهم جميعاً بمتابعته المباشرة والدقيقة لدى تطبيقها وتهيئة الظروف الملائمة لكي تؤدي مهمتها * لقد طلب عباس الأول في عام ١٨٤٩ أن تستمر

(١) دفتر رقم ٣٧٦ — صادر ديوان المصية — وثيقة رقم ٢٨٧٥ تاريخ ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى أحمد باشا المنكلى .

نفس الجهود السابقة وألا تقل رتبة الحكام الذين يتولون الوظائف بالسودان عن رتبة لواء (١) .

والجدول * التالي يبين ميزانية مديريات السودان في عهدى محمد على وعباس الأول :

المديرية	بالجنيه الايراد	المصروفات	ملاحظات
سنار وفيزوغلى	٣٢٧١٥٨	٧٠٨٦٧	بها زيادة فى الايراد
التاكا	١٣٠٧٠٤	٢٤٢٣٠	بها زيادة فى الايراد
دنقلة وبربر	٥٥٧٢١١	١٢٤٤٢٥	بها زيادة فى الايراد
الخرطوم	٤٠٥٩٦٧	١٥٩٤٣٥	بها زيادة فى الايراد
كردفان	٣٤٤٠٤٤	٩٥٣٥٣	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبل			
فيزوغلى	٣٥٥٩	٣٤٢٧	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبل قيسان	٥٥١٥	١١٧٢٩	به نقص فى الايراد

ومن هذا الجدول الذى يوضح لنا ايرادات ومصروفات مديريات السودان بين عامى ١٢٦٠ هـ - ١٢٦٨ هـ (ديسمبر ١٨٤٣ / ١٨٤٤ - ١٨٥٠ / ١٨٥١ / ١٨٥٢ م) نستخلص أن ميزانية السودان فى عهدى محمد على وعباس الأول كانت طيبة ولم يحدث بها عجز كما لاحظنا اللهم ألا فيما يتعلق بخام الذهب بجبل قيسان ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع من حيث ثبوت عدم جدواه الاقتصادية * * ، وها هى

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس الاول ومحمد سعيد .
المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص ٢٤ .
(*) الوثائق الافريقية - محفظة ١٠٣ ، ملف رقم ٦ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(*) أنظر فصل النروة المعدنية والصناعة .

الأرقام مرة أخرى تثبت ما سبق ذكره * كذلك نلاحظ مسألة هامة بهذه الميزانية وهى أنها لا تعد انعكاسا لجهود عباس الأول فى السودان بل اننا نعدّها نتائج لجهود محمد على ولكن عباس استطاع أن يقطف الثمار وحسب *

وإذا مضينا ننتبع الأحوال المالية فى السودان بعد ذلك سوف نلاحظ انعكاس الأزمات المالية عليه منذ عهد محمد سعيد * ففى عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) كان لمستخدمى السودان استحقاقات متأخرة على الدولة (١) ، ولم يكن بالسودان نقد يكفى لاعطائهم هذه الاستحقاقات المتراكمة رغم محاولاته المتميزة فى اصلاح الجهاز الضرائبى بالسودان كما مر بنا * وفى عهد اسماعيل بدأت بوادر هذه الأزمات تطل برأسها ، ففى أوائل عهد الحكمدار موسى حمدي (١٨٦٢ - ١٨٦٥) وفى عام ١٨٦٤ على وجه التحديد طلب ارسال ثلاثة أو أربعة آلاف كيس نقدا الى مديرية التاكة بسبب ما أصابها من ضائقة مالية نتيجة القحط الذى أصاب حاصلاتها (٢) * وفى عهد الحكمدار جعفر صادق باشا (١٨٦٥ - ١٨٦٦) استمرت مشكلة التاكة المالية وطلب منه إذا ما وصل الى مقر الحكمدارية « أن يبحث ايرادها ومصروفاتها بحثا دقيقا ، وأن ينظم ميزانيتها نظاما موافقا * » وأن يعرف ما إذا كان السودان فى حاجة الى نقود اضافية عن الايراد السنوى (٣) * ووصل الأمر بمصر الى صرف النظر عن شراء بعض السفن من انجلترا واحضار هذا المبلغ ، المخصص لها ، من انجلترا حتى يمكن المساهمة

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد باشا . المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص ٢١٢ .
 (٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ص ١١١ .
 (٣) دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ ص ٦٦ . بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى صاحب السعادة

به في حل الأزمة المالية بالسودان (١) *

ومن هنا يلاحظ أن أعباء السودان في تلك السنوات الحرجة من عهد اسماعيل قد ساعدت في تفاقم الأزمة المالية في مصر ، بما كان يقدم لها من أموال * وفضلا عن ذلك فقد تم ارسال كميات كبيرة من الغلال الى السودان لتباع بأسعارها الأصلية للأهالي وموظفي الحكومة بكل من سواكن وكسلا وبربر والخرطوم (٢) *

وتشير الوثائق الى الحجم النقدي الكبير الذي كانت تبعث به مصر الى السودان ، ففي أكتوبر عام ١٨٦٥ تم ارسال ستة وعشرين كيسا ، ووعده المسئولون أن يرسلوا على الفور عشرة آلاف كيس آخر (٣) *

ولما وصل حكمдар السودان الى الخرطوم عام ١٨٦٥ وجد الخزانة خالية من النقود ، كما تبين له تأخر كثير من الاستحقاقات ، وأن الخمسة آلاف كيس التي أحضرها معه لم تكف حتى لصرف عدة شهور من استحقاقات العساكر المتأخرة ، ولم تجر تسوية ايراد ومصروف حكمدارية السودان حتى تاريخ رسالته * وفي ختام رسالته

(١) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٧ — ترجمة افادة من محمد شريف باشا الى صاحب السعادة (رياض باشا) بتاريخ ١٧ صفر سنة ١١٨٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١ ص ٢٨ بتاريخ ٢٩ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة الى حكمдар السودان وبين هذه النقود التي أرسلت كالتالى :

٥٠٠٠ كيس أرسلت في ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ مع جعفر باشا وكيل الحكمدارية .

١٥٠٠٠ كيس أرسلت في آخر ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة الباشا حكمдар السودان .

١٠٠٠ كيس أرسلت في ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية . ٥٠٠٠ كيس أرسلت في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية (محفظة رقم ١٧ — نفس الوثيقة السابقة) .

طلب الحكمدار « إسعافه » ومساعدته بخمسة عشر ألف كيس ترسل
على الفور (١) •

وفي عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) تبين وجود عجز بميزانية السودان
مقداره سبعة آلاف وثلثمائة كيس (٢) • ولم تقتصر مساعدات مصر فقط
على النقود بل أرسلت أيضا كميات من الدقيق في عام ١٢٨٦ هـ
(١٨٦٩ م) مقدارها أربعة وعشرون ألف أقة « على ذمة مأمورية
النيل الأبيض » وطلب أن يرسل الفائض الى مصوع بالاضافة الى
تخصيص جزء لبربره (٣) •

وفي اكتوبر عام ١٨٧٠ بلغت مصروفات محافظة مصوع في خلال
عام واحد ٦٦٣٦ كيسا ، بينما بلغت ايراداتها ٣٦٩٣ كيسا الأمر الذي
يشير الى عجز واضح في ميزانها التجارى • وفي مديرية التاكة ازدادت
مصروفاتها عن ايراداتها بحوالى ألف ومائة كيس ، أما محافظة سواكن
فقد كان ايرادها يزيد قليلا عن مصروفاتها • وقد اقترح الأحداث توازن
في هذا العجز ، وخاصة بجهة سواحل البحر الأحمر ، الاستغناء عن
« أوجاق القواصة » الذى كان استحقاقه السنوى ٣٧٢٣ كيسا (٤) •

وفي عام ١٨٧٠ نقرأ في احدى الوثائق بعض أوجه المصروفات التى
تمت في السودان وكلفت الميزانية الشئ الكثير ، الأمر الذى يلقى
بعض الأضواء في تفسير الأزمة المالية التى عاشها السودان في تلك

(١) دفتر رقم ١ عابدين ، وارد تليفرافات ، ترجمة التليفراف التركى
رقم ١٢٥٠ وارد بتاريخ ليلة ١١ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ • من حكمدار
السودان الى رياض باشا •

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ ، أوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٣٣ ص
٩٦ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ • امر كريم الى المالية •

(٣) محافظة سواكن (عربى) صادر ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ (تابع محافظة
مصوع عموم (هكذا) • مكاتبة رقم ٢٠ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٨٦ هـ •
دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية • وثيقة رقم ٣ ، صورة المكاتبة
الواردة من محافظة سواحل البحر الأحمر الى المعية السنوية • ص ٣٩ بتاريخ
٨ رجب سنة ١٢٨٧ هـ •

الفترة ، وخاصة السنوات السابقة لعام ١٨٧٠ مباشرة إذ « ٠٠٠ كان جارى بها عمارات ميرية وطوايى ومساكن عسكرية ، حتى من الجملة لم يكن يوجد بها أشوان وقشلاق وجبة خانات ودواوين وإسبانتاليات إلا « شىء قليل » * مبنى بالطين والطوب الأخضر ، وفى كل سنة يهد من الأمطار ويصير تجديده « سنوى » ** بمصاريف زائدة ومشقة بدون غايده « (١) » *

ويذكر حكمدار السودان جعفر مظهر باشا ان جهات السودان حتى لحظة قدومه السودان لم تكن تعرف الطوب الأحمر ولا الجير ولم يكن يوجد بها أية « بنايين وحجارة ونجارين وحدادين » (٢) فمن ذلك يتضح لنا أن المصاريف التى انفقت فى تلك الآونة على البلاد كانت جسيمة جدا ، إذ كان عليهم أن يبدأوا فى تعمير البلاد حتى تواكب ما يحدث فى مصر . وكانت النتيجة ان اجراء مثل هذه الاصلاحات كان يتطلب نفقات باهظة وفى ظروف حرجة كانت تمر بها مصر . ومن الغريب حقا أنه رغم هذه الظروف المالية الصعبة التى عاشها السودان قبيل عام ١٨٧٠ والتى أشرفنا اليها حالا فان ميزانية البلاد تسجل فى هذا العام بالذات فائضا بلغ نحو عشرين ألف كيس (٣) . ولا ينبغي أن نسارع بالحكم على أن البلاد السودانية قد أصبحت فى بحبوحة من العيش ولكنها زيادة طارئة وغير مستقرة *

ومنذ عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) تم إحالة حسابات جهات السودان وسواحل البحر الأحمر الى نظارة (وزارة) الجهادية بدلا من تبعيتها لعدة دواوين ، على أن يتم تعيين وكيل للمالية بديوان الجهادية ليقوم

(*) شيئا قليلا .

(**) سنويا .

(١) دفتر رقم ١٨٣٦ معية تركى — صورة المكاتب الواردة من حكمدارية السودان الى المعية السنية رقم ٦ بتاريخ ٤ محرم سنة ١٢٨٧ هـ . (١٨٧٠) ص ٢٧ .

(٢) نفس الدفتر والوثيقة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

بعرض الميزانية بديوان المالية (١) * ولكن في عام ١٨٧٧ صدر أمر بناء على طلب حكمدار عموم السودان بتشكيل ديوان خاص بالحكمديرية ليقوم « * * بقبول وتسوية حسابات جهات فروع وعموم السودان وإنماطته بأمور ماليتها من إيرادات ومصروفات » ، ثم عين مأمور خاص لهذه المصلحة (٢) * ولم تسلم دارفور من آثار الضائقة المالية التي عمت البلاد إبان عصر اسماعيل فقد كان المتحصل منها كإيراد سنوى — كما ورد في يونيو عام ١٨٧٨ — خمسين ألف جنيه تقريبا ، بينما كان مطلوبا لها من الحكمديرية مائة ألف جنيه سنويا حتى يمكنها تصريف أمورها ، وكانت الحكمديرية لا تستطيع أن تسهم بأكثر من خمسة عشر ألف جنيه سنويا ، نظرا لما كانت تتحمله من أعباء أخرى تجاء باقى مديريات السودان ، بالإضافة الى الدين المطلوب منها سداده لمصر ، حيث كان من المفروض أن ترسل خمسة عشر ألف كيس سنويا (٣) *

ولقد كانت انعكاسات الأوضاع المالية التي كانت تمر بها مصر في عام ١٨٧٨ واضحة على السودان ، فمن المعروف ان الخديوى اسماعيل في هذا العام وجد نفسه مرغما تحت ضغط كل من فرنسا وانجلترا على قبول تشكيل « لجنة تحقيق عليا » حين صدر أمر عال في ٢٧ يناير عام ١٨٧٨ بتأليفها وآخر في ٣٠ مارس عام ١٨٧٨ لتنظيم هذه اللجنة وتحديد اختصاصاتها * وقد سيطرت لجنة التحقيق بفضل هذين المرسومين على كل شئون مصر المالية * وكان يرأس هذه اللجنة « فردناند دلسبس » إلا أن الرئاسة الفعلية كانت لوكيلها الانجليزى

(١) دفتر رقم ٢ أوامر ص ١٥ ، صورة الأمر الكريم الصادر الى محافظ زيلع وملحقاتها رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٩٢ هـ .
 (٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث ، الجزء الثالث .
 (٣) دفتر رقم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٧ يونية ١٨٧٨ (٢٦ جمادى الثانية ١٢٩٥ هـ) . من غوردون الى خيرى باشا . أنظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل . ج ٢ . ص ١٠٥ .

« ريفرز ويلسون » نظرا لغياب دلسبس في الاسماعيلية * وأما الوكيل الثايفى فكان « دى بليينير » الفرنسى بالاضافة الى الوكيل المصرى رياض باشا وأعضاء آخرين لصندوق الدين *

وقد رأت هذه اللجنة ضرورة الحد من سلطة الخديوى المطلقة كشرط أساسى للإصلاح المالى ، وتوالت الأحداث لتفضى الى تشكيل وزارة عرفت بالوزارة المختلطة أو المسئولة فى أغسطس عام ١٨٧٨ وكانت تضم الانجليزى « ريفرز ويلسون » للمالية والفرنسى « دى بليينير » للأشغال العمومية * وكانت مهمة هذه الوزارة فى المقام الأول دفع الأقساط المستحقة للدائنين الأجانب * وهكذا تم تقييد سلطة الخديوى واخضاعها « للموصاية الدولية » وأمكن عن طريق هذه الاجراءات التى اتخذت تحت ستار السهر على مصالح الدائنين فرض الرقابة الفعالة على مالية مصر *

ولا يعنينا هنا الدخول فى تفاصيل ما قامت به هذه الوزارة فى مصر ، ولكن ما نود أن نشير اليه هنا هو آثار تلك الاجراءات على السودان * فقد أرسلت « ارادة سنبة » الى غوردون باشا حكمدار السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩) فى يونية عام ١٨٧٨ بخصوص ميزانية الأقاليم السودانية التى تحت ادارته ترجهوه أن يرسل الى « رئيس قوميسیون الانكيت الأعلى » ، ويعنى به رئيس لجنة التحقيق ، كل ما يحتاجه من إيضاحات حول الشئون المالية للسودان * كما تشير هذه الارادة أيضا الى أن ولسون - وكيل اللجنة - قد بدأ يباشر اختصاصه للوقوف على حالة المالية المصرية ، ولما كانت ميزانية حكمدارية السودان لم ترد الى مصر منذ يناير ١٨٧٧ ، فإنه يرجو إرسال كشوف ميزانية السودان عن عامى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ على وجه السرعة (١) *

(١) دفتر رقم ٣٥ عابدين - صادر تليفرافات - صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٤٦٨ بتاريخ ٢٨ يونية سنة ١٨٧٨ ، انظر أيضا : مع نفس الوثيقة ترجمة مكتبة فرنساوى من ولسون وكيل رئيس قوميسیون الانكيت * دار الوثائق القومية بالقلعة .

وهكذا بدأت احوال مصر المالية السيئة تنتقل اثارها الى السودان واصبحت مساله الاشراف الاجنبى لا تقتصر على مالية مصر فقط بل وعلى السودان أيضا *

وفى عام ١٨٧٨ بدأت مصر تطالب السودان بدفع متأخرات بلغت ثلاثة وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه ، وقسمت على قسطين ، أحدهما يدفع فى ١٥ أغسطس عام ١٨٧٨ والآخر فى ٣٠ سبتمبر عام ١٨٧٨ ، مع ملاحظة ان ميزانية السودان قد حل بها عجز فى عامى ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ (١) *

ومن المدهش حقا أن ميزانية السودان منذ عام ١٨٧٧ بدأت تتدهور بشكل سريع ، مع ملاحظة أن التهم السابقة التى كان يرمى بها الحكمداريون والموظفون من حيث الجشع وفساد الذمم وغيرها من الاتهامات التى كانت تكال لهؤلاء الحكام أصبحت الآن غير واردة — من جانب الأوربيين — بعد أن تولى حكم السودان حكمدار أجنبى ونعنى به غوردون باشا ، ولعل فى مطالعة أرقام ميزانية عام ١٨٧٨ ما يقوم دليلا على صحة ما نقول * ففى هذا العام بلغ الايراد ٧ بارة ، ١٢ قرشا ، ٥٧٩٧٢٥ جنيها ، والمصروفات ٢٤ بارة ، ٦٧ قرشا ، ٦٧٦٨٤٩ جنيها ، أى أن هناك عجزا واضحا فى الميزانية السودانية ، بالاضافة الى أن هناك متأخرات على السودان فى نفس العام بلغ مقداره ٢٩ بارة ، ٦٩ قرشا ، ٣٢٧١٦٨ جنيها مطلوبة لجهات عدة على شكل استحقاقات وتركات متأخرة لاربابها أو « مطلوبات تجار » وغيرها (٢) *

وراح حكمدار السودان — غوردون — يلجأ الى حلول وتبريرات

(١) دفتر رقم ٥٠ عابدين — وارد تليفراغات — صورة التليفراف العربى رقم ٢٤٨ بتاريخ ٢١ يولية ١٨٧٨ . ورد فى ٢٣ يولية ١٨٧٨ .
(٢) دفتر رقم ٣١ — وارد معبة عربى — ص ٦٤ ، مكتبة رقم ١٩ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٣٩٥ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٧٨ م) من حكمدارية السودان الى المعية .

يلقى بها في وجه المسؤولين بمصر كقوله : ان السودان يتحمل نفقات الصرف على المسجونين القادمين من مصر (١) * غير انه من المعلوم ان هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يصبحوا أداة طيعة يمكن للحكمدارية أن تستغلها في العمران وكافة الأشغال كما كان يحدث بالفعل بالترسانات السودانية * وقوله أيضا ان هذه الأزمة والخلل الذي أصاب الميزانية السودانية انما هو ناشئ من كثرة مصروفات بعض الجهات كالتكا التي لا تنتج شيئا ، وضرورة رقت أحد كبار الموظفين لها نظرا لارتفاع راتبه (٢) ، وكأن هذا الراتب الذي كان يتناوله هذا الموظف هو السبب الرئيسي لحدوث عجز بميزانية السودان ، وكان الأجدي به ان يبدأ بنفسه أولا ، فقد كان الموظفون الأوروبيون والأجانب عموما في السودان يتناولون أضعاف مرتبات غيرهم من الموظفين المصريين * أمثال بيكر وغوردون نفسه *

وعلى هذا المنوال سار المسؤولون في مصر والسودان في حل الأزمة المالية في السودان * وقد صدر منشور في تلك الآونة « * باستقطاع يوم واحد » من شهرية كل فرد من مستخدمي الحكومة في السودان ، واستثنى المنشور من ذلك كافة الموظفين الذين لهم عقود مع الحكومة أمثال غوردون !! (٣) وقد ضج الموظفون في السودان من هذا الاجراء ، الأمر الذي جعل غوردون نفسه يرسل الى المسؤولين بمصر ، مبينا الآثار التي نجمت عن تطبيق مثل هذا القرار وحاول أن يجعل الاستثناء يشمل جهات السودان كلها (٤) *

(١) دفتر رقم ٣١ السابق ، نفس الوثيقة السابقة . ص ٦٤ .
 (٢) دفتر رقم ٥٠ عابدين - وارد تليفرافات - صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٦٤١ ص ٩٢ بتاريخ ٨ نوفمبر ١٨٧٨ . من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا .
 (٣) دفتر رقم ٥٠ عابدين - وارد تليفرافات - صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٦٦٠ ص ٩٤ بتاريخ ١٨٧٨ . من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا .
 (٤) نفس الدفتر والتليفراف السابقين ص ٩٤ .

هكذا مضت الأحوال المالية في السودان على عهد غوردون ووصلت إلى نقطة خطيرة كان ينبغي عندها أن يسارع المسئولون في مصر إلى دراسة هذه الأوضاع على وجه السرعة وإيجاد الحلول المناسبة للخروج منها * وعلى ذلك فقد صدر أمر عال لحكمदार السودان رؤوف باشا (١٨٧٩ - ١٨٨١) في عام ١٨٨٠ ورد به وصف لأحوال السودان من كلفه الجوانب واقتراحات لحل الأزمات والمشاكل التي تعاني منها البلاد * وقد جاءت على رأسها جميعا المشكلة المالية حيث طلب منه « * أن يقوم بتحصيل الأموال والعوائد بطريقة لا يتأتى منها الأضرار بحالة الأهالي ولا الإجحاف بحقوق الخزينة » (١) *

ومضى هذا الأمر يبين للحكمدار طرائق جمع الضرائب والأموال الأخرى وأسلوب إرسالها إلى نظارة المالية مما يفهم منه أن موضوع الحالة المالية كان يشغل أذهان المسئولين بصورة رئيسية (٢) *

ولقد جرت محاولات كبيرة من رؤوف باشا لدراسة أوضاع السودان بصفة عامة ، والمالية على وجه الخصوص ، وذلك من خلال زيارات ميدانية لديرديات السودان ، تعرف من خلالها على كافة المشاكل وحاول وضع حلول جذرية لها * كما أنه أرسل ميزانية تفصيلية عن كل مديرية ومصلحة حكومية في السودان من حيث الإيراد والمنصرف وقيمة العجز بكل واحدة منها * ولحسن الحظ أن هذه الميزانية كانت لعام ١٨٨١ الذي يعتبر آخر سننى هذه الدراسة حيث تتوقف عندها لمعرفة حصاد السنوات السابقة لها ، ولذلك فإن الوثائق والأرقام المالية تسعفنا تماما في معرفة تطور الوضع المالى للسودان قبيل عام ١٨٨١

(١) محافظ السودان - محفظة بدون رقم - الرقيق - صورة الأمر الصادر لسعادة حكمدار السودان في ٣ ر سنة ١٢٩٧ هـ . رقم ٢ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) السودان - محفظة بدون رقم - نفس الوثيقة السابقة .

(م ٢٠ - التطور الاقتصادي الإجماعي)

وفي عام ١٨٨١ على وجه الخصوص (١) .

وإذا ألقينا نظرة فاحصة لميزانية السودان عام ١٨٨١ * فسوف نلاحظ ما يلي : أولا : ان هناك مديريات ومصالح حكومية بالسودان كانت إيراداتها تزيد عن مصروفاتها كمديرية الخرطوم ومديرية كردفان ومطبعة السودان * ثانيا : أن هناك مديريات ومصالح أخرى بها عجز مثل مديرية التاكة ومديرية خط الاستواء ومصالحتي التليغراف والسكة الحديد * ثالثا : بلغ إيراد السودان في هذا العام ٣٥ بارة ، ٣٨ ترشا ، ٤٥٩١٥ جنيها ، كما بلغت مصروفاته ١٢ بارة ، ٩ قروش ، ٥١١٦٨٤ جنيها ، وبلغ العجز في هذه الميزانية ١٧ بارة ، ٧٠ قرشا ، ٥٢٥٢٧ جنيها .

ولنا ملاحظة على هذه الميزانية التي أوردتها رؤوف باشا وتتعلق بمديرية خط الاستواء حيث أورد أن بها عجزا ، وأكد مرة أخرى في موضع آخر هذا العجز (٢) . إلا أننا نستبعد حدوث مثل هذا العجز بالنسبة لهذه المديرية في ذلك الحين لأننا لم نجد - من خلال

(١) أنظر حول ذلك الوثائق التالية :

— السودان — ديوان السودان — حسابات — محفظة بدون رقم — تليغراف رقم ٢ بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٨٨١ من حاكم السودان إلى سعادة وكيل مالية مصر .

أيضا : السودان — اعتمادات ميزانية إيرادات ومصروفات مديرية عموم هرر عام ١٨٨١ .

أيضا محافظ السودان — ديوان السودان — حسابات — محفظة بدون رقم — صورة التليغراف المحرر لحكمدارية السودان بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٨١ نسخة ٢٩ .

كذلك الوثائق الأفريقية — محفظة رقم ١٣ ، ملف رقم ٦ ، وبه تفصيلات دقيقة عن كل مديرية من حيث الإيراد والمنصرف والعجز أو الزيادة . كذلك — السودان — محافظ مجلس الوزراء : تقرير محمد رؤوف بتاريخ ١٨ جمادى الآخر سنة ٢٩٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) أنظر الملحق الخاص بالميزانية .

(٢) السودان — مجلس الوزراء — تقرير محمد رؤوف باشا بتاريخ ٢٨ جمادى الآخر عام ١٢٩٧ هـ . (١٨٨٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ما أطلعنا عليه من وثائق وما أكدده الدارسون — أية شكوى من لدن المسؤولين بها منذ ضمها للإدارة المصرية بالسودان وحتى عام ١٨٨١ رغم الجهود التي أنفقت لتنظيمها * ويورد لنا الأمير عمر طوسون أرقاما تفصيلية حول إيرادات ومصروفات هذه المديرية عام ١٨٨١ (١) يتبين لنا منها أن إيراداتها كانت تغطي مصروفاتها تماما بل تزيد عنها حيث شهدت هذه المديرية نشاطا اقتصاديا ملموسا وخاصة على يد أمين بك الذى لو وجد الوقت الكافى لاستطاع بهذه المنطقة أن يغذى أسواق السودان وغيرها بكافة الحاصلات والمنتجات * ومما يدعم قولنا هذا أن رؤوف باشا قد ذكر فى موضع آخر بعيد عن التقرير ، حين وضع ميزانية خط الاستواء ، انه لم يجد لها كشوفات ، فلجأ الى مصادر أخرى غير مباشرة (٢) *

وفى موضع آخر نقرأ بأن ميزانية هرر وزيلع وبربرة فى عام ١٨٨١ قد حوت عجزا واضحا ، فبلغت جملة الإيرادات ٣٧ قرشا ، ٥٣٠٣٤ جنيها ، والمصروفات ٧٢ قرشا ، ٨٦٢٧٠ جنيها (٣) *

كذلك فاننا نلاحظ عجزا آخر فى ميزانية عموم سواحل البحر الأحمر مثل مصوع وسواكن حيث بلغت الإيرادات فى عام ١٨٨١ ٥٥ قرشا ، ٥٤٤٣٠ جنيها والمصروفات ٦٢ قرشا ، ١٣١٦٦٩ جنيها ، وبلغ العجز ٧ قروش ، ٧٧٢٣٩ جنيها (٤) *

(١) انظر تاريخ مديرية خط الاستواء . ج ٢ . س ٧٢ وما بعدها .
(٢) قسم الوثائق الأفريقية — محفظة رقم ١٠٣ — ملف رقم ٦ . ويلاحظ أن حسابات المديرية الاستوائية كانت منفصلة عن حسابات السودان ، كما كانت منفصلة اداريا أيضا عنه ، (انظر الاخطار الذى ارسل لغوردون كمأمور للمديرية الاستوائية بدفتر رقم ١٩٤٨ — أوامر عربى ١٩ فبراير ١٨٧٤) أمر كريم الى حاكم السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٣) السودان — اعتمادات ميزانية — ميزانية إيرادات ومصروفات مديرية عموم هرر سنة ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٤) السودان — اعتمادات ميزانية — ميزانية عن إيرادات ومصروفات محافظتى مصوع وسواكن وعموم سواكن وعموم سواحل البحر الأحمر عام ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ومن الملاحظات الجوهرية التي تؤخذ على الميزانية التي قدمها رؤوف باشا عام ١٨٨١ أنها لم تشر لا من قريب أو بعيد الى حجم الديون المتأخرة على السودان ، وذكر الوسيلة أو الوسائل المؤدية الى سدادها . كما أنها أيضا لم تشرح لنا أسباب العجز أو الزيادة الذين لحقا ببعض المديرية والمصالح الحكومية بالسودان . فلا شك أن مثل هذه التساؤلات كان ينبغي أن تجيب عليها ميزانية عام ١٨٨١ ، خاصة إذا علمنا أنها وضعت في ظروف اقتصادية دقيقة وصعبة كانت تمر بها البلاد سواء في السودان أو في مصر .

هكذا مضت الحالة المالية في السودان منذ محمد علي وحتى أوائل عهد توفيق ، بين منحنيات ومنعطفات حادة كانت تتعثر حيناً وتقوى حيناً آخر حتى وصلت عام ١٨٨١ الى نقطة اللاعودة ولتتبدد كل المحاولات مع رياح الثورة المهدية .

نظام الاقتصاد السوداني في القرن التاسع عشر :

قد يكون من المناسب بعد هذا العرض لفصول الاقتصاد السوداني ، أن نرسم صورة أو نقوم « بتوصيف » لهذا الاقتصاد في الفترة الزمنية التي قمنا بدراستها ، أو بمعنى شامل النظام الاقتصادي للسودان في القرن التاسع عشر .

وبداية نود أن نشير الى حقيقة هامة وهي ان الاقتصاد السوداني في هذه الفترة كان يستمد أسسه وأركانه الرئيسية من الاقتصاد المصري في شيء من « التحوير » أو الاختلاف نتيجة لظروف السودان الخاصة ، كما أن هناك حقيقة أخرى مؤداها أن النظام الاقتصادي في السودان في تلك الفترة لم يسر على وتيرة واحدة من حاكم الى آخر بل كانت هناك تغيرات جذرية أحيانا وبصمات قليلة في بعض الأحيان .

ففي عهد محمد علي كانت مصر تسير وفقا لنظام « الاقتصاد

الموجه « حتى عام ١٨٣٨ . وهذا النظام يعتمد على مبدئين : الأول الاستقلال الاقتصادي والثاني الاحتكار والتوجيه في بعض السلع (١) . فقد كان يطبق سياسته الاحتكارية في مصر والسودان والتي سبق أن تحدثنا عنها ، والاختلاف الوحيد بين تطبيق هذه السياسة في البلدين ان الاحتكار في السودان كان أقل وطأة ، فقد كان محمد علي متسامحا جدا مع المزارع السوداني في رفع الاحتكار عنه .

وبعد معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) بين الدولة العثمانية وانجلترا ، جرت محاولات لتطبيق سياسة اقتصادية جديدة تتجه نحو الحرية الاقتصادية ، ونقول « جرت محاولات » ، لأن هذه المعاهدة لم يطبقها محمد علي تماما في بادئ الأمر في كل من مصر والسودان ، فقد ظل ينفذ سياسته القائمة على الاحتكار ، حتى بدأت الدول الأجنبية وخاصة انجلترا ، تضغط عليه لإلغاء هذه السياسة . ومنذ عام ١٨٤١ م يمكن القول أن الباشا بدأ يتنازل قليلا عن سياسته ليفسح لسياسة الحرية الاقتصادية مجالا أرحب حتى تم إلغاء الاحتكار في مصر والسودان تماما وبدأ تدفق التجار الأجانب الى السودان بصورة واضحة ولم يجدوا أدنى مقاومة من عباس الأول الذي اشتهر بكرهه للأجانب في مصر ، بل راح يحميهم ، ويقصى — في سبيلهم — كبار الموظفين كما سبق القول . وتؤكد مبدأ الحرية الاقتصادية في عهد محمد سعيد الذي ترك للزراع حرية اختيار نوع المحاصيل التي يزرعونها سواء في مصر أو السودان ، وحرية بيعها ونقلها وقام بإلغاء الجمارك الداخلية (٢) . وزيادة على ذلك قام في السودان ، بتنظيم المسألة الضرائبية بما يتمشى وحالة السكان فخفف من وطأتها عليهم . وبدأت رؤوس الأموال والتجارة الدولية تدخل الى السودان . ومعروف أن سعيد بادر منذ أوائل حكمه في مصر الى إلغاء ضرائب « الدخولية » التي كانت تتقف عائقا في وجه التجارة

(١) أحمد أحمد الحثه : تاريخ مصر الاقتصادي . ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .
(٢) حسين خلاف : التجديد في الاقتصاد المصري الحديث . ص ٤٢٢ .

الداخلية • وقد صاحب انتهاج سعيد هذا النهج بدء ظهور الرأسمالية الحديثة سواء في مصر أو السودان في شكل مشروعات مالية وتجارية وزراعية تمثلت في قيام بعض الشركات المساهمة ، أو في شكل مشروعات فردية كما حدث في السودان من قيام شركات من كبار التجار لبيع العاج ثم الرقيق وأشهرها شركات العقاد وبصيلي والزبير وغيرهم •

وقد تأكدت الرأسمالية في عهد اسماعيل على وجه الخصوص ، فظهر ما يمكن تسميته — تجاوزا — بالشركات في جنوب السودان وأثرى التجار ثراء فاحشا لدرجة أن أحدهم وهو الزبير رحمت كان يشكل دولة داخل دولة ، واستطاعت الحكومة المصرية أن تستغل قوته الاقتصادية ومكانته الاجتماعية والحربية فعهدت اليه بفتح دارفور عام ١٨٧٤ • وقد استمرت هذه السياسة الاقتصادية حتى قيام الثورة المؤدية عام ١٨٨١ •

الفصل الخامس

التركيب الاجتماعى وتطوره

- مميزات تقسيم المجتمع السودانى
- البجاه (البجاهه)
- النوبيين—ون
- القبائل العربيه
- قبائل ساحل البحر الأحمر
- سكان الجبال (قبائل النوبا)
- سكان الجنوب (الزنوج والمتزنجون)
- مجتمع القبيلة السودانى
- الوضع الاجتماعى للرقائق السودانى *
- الأجانب

معييار تقسيم المجتمع السودانى :

لعلماء الاجتماع عدة معايير فى دراسة المجتمعات الانسانية من حيث بنائها الاجتماعى ، فمنهم من يقسمها الى طبقات وفقا لمعايير عدة منها حجم الثروة والى تتدرج من الغنى الى الفقر • وربما يصلح هذا المعيار للمجتمعات التى قطعت شوطا كبيرا فى تطورها الاقتصادية بحيث تكون الفوارق الطبقيّة قد ظهرت جلية بين طبقة وأخرى • ولما كان هذا التقسيم ، من ناحية أخرى ، نابعا أساسا من المجتمعات الأوروبية التى مرت بمراحل اقتصادية متدرجة من الاقطاع الى الرأسمالية ، كما أن لها ظروفها طبيعة خاصة تختلف تماما عما حدث فى مجتمعاتنا الشرقية وفى السودان بشكل خاص ، لذا فقد طرحنا هذا المعيار جانبا •

وهناك معيار آخر درج الكثيرون على استخدامه ، والذى يقسم فيه المجتمع الى حكام ومحكومين • وهذا المعيار ، فى تقديرنا ، يحمل بين جنباته سمات المجتمعات الشرقية التى تحظى فيها الفئات الحاكمة بجاه السلطة والثروة بينما فئة المحكومين تعيش على هامش الحياة • وقد أفسى على هذه الفئة الأخيرة صفات تتنافى تماما مع آدمية البشر فهى أشبه بالقطيع الذى لا يملك أية مقومات للإرادة الانسانية • كما أن تقسيم المجتمع الى حكام ومحكومين يتنافى مع طبيعة المجتمع السودانى الذى يتمتع تماما بتعاليم الدين الاسلامى التى لا تنظر الى المجتمع على أنه يتألف من حكام ومحكومين ، بحيث تجعل بينهم فواصل حادة ، ولكل شريحة سماتها المتنوعة ، بل نظرت اليهم جميعا على أنهم متساوون • لذلك فقد كان السودانيون شديدي النفور من هذه النظرة الأخيرة للمجتمع وخصوصا فى القرن التاسع عشر الذى شهد تطورات دينية خطيرة تمثلت فى الطرق الصوفية ، التى سوف نتحدث عنها ، والتى جعلت من المجتمع السودانى — الذى حوى بين جنباته سلالات شتى — مجموعة شبه متقاربة ، فأكثرهم كان منصوبا تحت طريقة صوفية

أو أخرى •• الغنى المتختم بالثروة والفقير حافى القدمين •• كلاهما جلسا جنباً الى جنب مع شيخ الطريقة • وهكذا فان تلك المعايير النظرية الواردة من مجتمعات أوربية لا يصلح تطبيقها في السودان ، ومن ثم وجب علينا أن نبحث عن معيار يتلاءم وأوضاع هذا البلد الذى له « خصوصية متميزة » تصلح كمعيار له • فالسودان قد ضم قبائل عربية ، بعضها عاش حول شريط نهر النيل ، والبعض الآخر منها انتشر في أجزاء متفرقة من البلاد • كذلك فقد سكنته مجموعات أخرى في شرق البلاد تختلف عرقياً عن سابقتها وتدعى (بالبحاء) ، بالإضافة الى النوبيين في شمالي البلاد ، والزنوج في جنوبها ، وقبائل أخرى على ساحل البحر الأحمر الغربى وجماعات من الأجانب وفدت إليه من كل أنحاء العالم • كل هذه المجموع أو المجموعات السكانية كانت جد متباينة ، فلكل واحدة منها صفات وخصائص تختلف عن الأخرى ، بحيث بات من الصعب أن ندرسها تحت تلك المعايير التى طرحناها جانباً ، وأصبح من الأفضل علمياً ، وكما درج أكثر المهتمين بدراسة سكان السودان — أن ندرس كل جماعة على حده متخذين معياراً خاصاً بطبيعة المجتمع الذى ينقسم الى عدد من التكوينات السكانية ذات الطبيعة القبلية والتى تتمثل في المجموعات التالية :

١ - البجاه (البجه) * :

سكن البجاه الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ونهر عطبرة ثم النيل الأكبر غرباً ، ومن المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية جنوباً الى نهاية حدود محافظة أسوان في الوقت الحاضر شمالاً •

وينقسم البجه الى أربعة أقسام رئيسية ، ويمكن أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة وهى : البشاريون في الشمال ، في تلك البيئة الجبلية

(بجر) بكسر الباء • وهو النطق المتداول اليوم وان كان البعض قد نطق الاسم بضم الباء •

الصخرية حيث تقل المياه ويندر الكأ ، كما أنهم أيضا يقطنون الاقليم المسمى بصحراء العتباى * ويليهم من الجنوب « الأمرار » الذين يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسار على الخط الحديدى الى الشمال الشرقى فى اتجاه ميناء بور سودان * * والى الجنوب منهم « الهندوة » ويمتازون بكثرتهم العددية فى السودان عن بقية الأقسام الأخرى * وتمتد ديارهم من سواكن الى سنار ، وفى الأراضى المجاورة للخط الحديدى الذى يمتد بين البلدين * وهكذا فانهم احتلوا « دلتا القاش » وعاشوا على شواطئ العظيرة المجاورة لهم على خط عرض ١٥ *

وأخيرا نجد القسم الرابع منهم ويسمى « بنى عامر » فى الجنوب الشرقى حيث تمتد أوطانهم من طوكر فى الشمال الى داخل حدود أرتريا جنوبا (١) *

وتوجد جماعات أخرى من البجة ذات كيانات صغيرة وأهمها « الأشراف » و « الارتيقا » و « الكمىلاب » و « الحالنقا » وغيرهم ، البعض منها تابع للجماعات الكبيرة والبعض الآخر يفضل أن يعيش مستقلا محاولا إثبات أهميته من خلال أحاديثهم عن أبطالهم القدامى فى العصور الغابرة * ويعلق الدكتور محمد عوض على هذه الظاهرة قائلاً : « ... وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة لأن نظام القبائل من طبعه

(*) نظرا لعدم حدوث تغيير جغرافى كبير فى توزيع هذه القبائل فقد استخدمنا هذا الوصف الحديث .

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وتبائله . ص ١٦ ، وانظر أيضا محافظ ابحاث السودان ، محفظة رقم ١٨ - دفتر رقم ٤ بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١١٨٢ هـ دار الوثائق التومبة بالقلعة وانظر أيضا : محمد محمود السمان : الناس فى افريقية ، ص ٧٦ . وكذلك : سيجمان : انسلالات البشرية فى افريقية . ص ٩١ - ٩٢ . وابضا :

Hamilton, J. A. de. C.: The Anglo Egyptian Sudan from within p. 140.

عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حيناً من الزمن بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة ، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض أو سوء القيادة فيضعف أمرها ويقل عددها * * » (١)

وللبجة لغة حامية خاصة بهم وتسمى « التبداوى » أو « بداويت » ولكن العشائر الجنوبية من البجة من أمثال بنى عامر وجيرانهم من الجماعات القليلة تتكلم لغة « تجره » وهى لغة سامية (٢) * وليس معنى ذلك أن البجة لا يعرفون اللغة العربية ، بل انهم يتحدثونها بالإضافة الى لغة التبداوى أو لغة تجره * ولكن العربية ليست اللغة الأصلية عندهم على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بنسب مكتوب فى ورقة يعود بهم الى « قريش » * وتعد اللغة العربية والدين الاسلامى من آثار النفوذ العربى الذى دخل أوطانهم فى عهد متأخر نسبياً من الشرق أو الشمال (٣) *

ويحاول مكمايكل أن يتلمس فوارق بين جماعة البنى عامر وسائر الجماعات الأخرى البجاوية ، فبالإضافة الى التباين اللغوى بين هاتين الجماعتين هناك تباين آخر فى الناحية الجسمانية ، بالإضافة الى قلة التجانس فى هذا الفرع إذا ما قورن بالهندوة وسائر الجماعات الأخرى البجاوية (٤) *

وفى محاولة لتتبع المراحل التاريخية للبجة يحاول سليجمان أن يجد صلات بينهم وبين المصريين القدماء على أساس أنهما من سلالة واحدة أو من سلالات متقاربة ، وعلى وجه الخصوص سكان مصر الجنوبية

(١) السودان الشمالى : ص ٢٧ .

MacMichael, D. S. O.; A History of the Arabs in the Sudan, Vol. (٢) I. p. 35.

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٥٠ .
(٤) MacMichael; Op. Cit., p. 35.

الذين لم تمتاز دماؤهم كثيرا بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس * وقد اعتمد سليجمان في إثبات رأيه هذا على مقارنة جماجم المصريين القدماء — ومنهم بعض الملوك — مع أشكال البجة الحاليين * ويؤكد الدكتور عوض على هذا الرأي القائل بأن النعبيين من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقا وأسلوبا في الحياة ، وسلكت بالبجة طريقا آخر . فانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات بحكم الجوار (١) *

ولندع أقسامهم وأصولهم العرقية لننتحدث عن أوضاعهم تحت الإدارة المصرية فعلى الرغم من أن الإدارة المصرية بصفة عامة كانت سهلة لينة — لم تحاول أن تخضع البجة لحكم صارم دقيق يتنافى مع ما ألفوه من الحرية — فقد واجهت منهم في بعض الأحيان عنقا ساعة كان رجال الإدارة — في بعض الأحيان — يطلبون منهم المساهمة في تقديم الأبل ، كما حدث بالنسبة للبشارية الذين باغتوا جنود خورشيد باشا — حكمدار السودان — عام ١٨٣٦ وقتلوا منهم الكثير (٢) *

وفي عام ١٨٤٢ على عهد أحمد باشا أبو ودان قام بشاريو العمراب بحركة عصيانية منتهزين اذشغال الحكمدار في حرب التاكة ضد الهدندوة ، وقام أحمد باشا بتكليف الشيخ سليمان نمر العبادي بالقضاء على حركة البشاريين حيث خرج سليمان من بربر على رأس قوة من جماعته العبادية تقدر بنحو ألفي جندي استطاعوا بها هزيمتهم ، لكن البشاريين تمكنوا من قتل سليمان وجنوده (٣) * ولا تعنى هذه الأحداث — في تقديرنا — أكثر من سوء فهم للإدارة المصرية ونواياها الحسنة حيال هؤلاء ، وكان لابد لهذه الإدارة أن تدرس أحوالهم لتأخذ بأيديهم ، وقد

(١) المرجع السابق . ص ٢٥٦ .

(٢) دفتر رقم ٧٨ معبة تركي — ترجمة الأمير الكريم رقم ٣٥٠ بتاريخ

Hill; Egypt in the Sudan, pp. 72-73.

(٣)

١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ . من الجناح العالي إلى خورشيد باشا حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

جاء ذلك متأخرا بعض الشيء • ففى سبتمبر عام ١٨٦٥ ورد تقرير طويل من السودان يشرح حالة البجة فى مديرية التاكة من جميع النواحي • ففى مستهل التقرير اسارة الى اختلال المديرية حيث لا مدن ولا بنادر ولا قرى يمكن أن يعين فيها ناظر قسم أو مأمور أو معاون • أما القبائل فعبارة عن بدو رحل فى حالة من التوحش ، ينتقلون فى كل موسم وفصل الى مساكن الغيث لرعى مواشيهم • فلا يقيمون فى مكان واحد شهرا أو شهرين • كما أن المسافة بين حدود قبيلة وأخرى تتراوح بين ٣ ، ٧ الى ٨ أيام على الأقل • وإذا ظهرت أية مطالب أو حاجة للمديرية لدى هذه القبائل تنتضى مدة لا تقل عن عشرة أيام فى البحث عن الوادى أو الجبل أو المحطة التى تقيم فيها القبيلة • وبعد معرفة محل إقامتها يخاطب تسيخ مشايخ أبدانها ، حتى أن مشايخ الأبدان لا يواجهون الحكام ولا يعرفونهم ، وكذلك الحال بالنسبة لحكام المديرية الذين لا يعرفون مشايخ الأبدان (١) •

وربما لأول وهلة يسارع قارئ مثل هذا التقرير باتهام الادارة المصرية بالتقصير تجاه سكان هذه المديرية ، ولكنه قد يجد لها بعض العذر إذا علم أن هذه المديرية قد ضمت فى عام ١٨٤٠ ، بالإضافة الى المشاكل المحيطة بها من حيث اتساع مساحتها ومجاورتها للحبشة واختلاط السكان ببعضهما البعض الأمر الذى يثير كثيرا من المشاكل أمام هذه الادارة التى كانت تحاول أن توطد أركانها بعد سلسلة الأحداث التى مرت بها عقب ضم السودان • وهكذا كان هناك « مشوار » اجتماعى طويل أمام هذه الادارة لتهدب من طباع هؤلاء البدو والبجة منهم على وجه الخصوص •

وقد عاش البجاوى حياة بسيطة من حيث المسكن الذى سوف

(١) محافظ أبحاث السودان — تقرير طويل عن أحوال مديرية التاكة بتاريخ ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ ، والمودع بالمحفظة رقم ١٧ بالدفتري رقم ١٧ بالدفتري رقم ٢ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

نتحدث عنه في موضوع لاحق والمأكّل الذي كان أيضا غاية في البساطة ، فلم يكونوا يزرعون شيئا سوى الذرة العويجة في مساقط الأمطار ويجمعون المحصول ويبللونه بقليل من الماء ثم يضعونه على حجر كبير يشبه الرخام ويدقونه بحجر آخر صغير ثم يرفعون الدقيق عن الحجر ويقومون بعجنه ووضعه على صاج أو « قصعة » ساخنة وينزلوه قبل أن ينضج * وجميع سكان مديرية التاكة - والبجاة منهم - يأكلون طعامهم بهذه الكيفية كما أن أكثرهم كان يتغذى على السمّن والجبن واللحم واللبن ، والأخير يكثر عندهم لتوفر الأغنام والجمال (١) .

ولم يكن البجاة يميلون الى الاختلاط كثيرا ، الأمر الذي دعا البعض الى وصفهم بجفاف الطبع ، وشدة النفور من الناس ، بل والتوحش أحيانا . فميله للعزلة لم يكن في الواقع وليد الخوف أو الاحساس بالخربة عن الناس بل يعود الى طبيعة البيئة الجبلية التي نشأ بها والتي لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضا للغرباء والأجانب * بل انه ألف العيش وحيدا فلا يجد لهم مكانا في دائرة حياته (٢) .

ويبدو أن البجاوى لم يكن يبادر بالتعارف بل ينتظر ذلك من الآخرين * ولم تكن تجربة رجال الادارة المصرية - في بادىء الأمر - مع بعضهم طيبة * ففي أحد التقارير نقراً وصفا لأوضاعهم ولوماً لحكام الادارة المصرية الذين تركوا العساكر يعيثون فسادا في بلادهم ، وكأن الادارة بذلك هي المسئولة عن مثل هذه التجاوزات * فقد بسط كاتب هذا التقرير مثالا لذلك قائلا : انه إذا ما طلبت الحكومة من شيخ احدى القبائل بعض المطالب وأهمل في تقديمها وتيقن من أن الحكومة ستلومه وتعاقبه على هذا الفعل ، يعتمد ظلما الى التحرش برجال احدى البدنات الصغيرة فيعتدى عليهم مستغلا بعض الحزازات الشخصية ، ثم يدعى أن شيخ هذه البدنة هو المتسبب في تأخير طلبات الحكومة وان

(١) محافظ أبحاث السودان : التقرير السابق .

(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٧ - ٢٨ .

سائر القبائل قد حذت حذوه ، ويطلب من الحكومة عددا من العساكر لتأديب هذه البدنات (١) . وهكذا بدت الحكومة أمام الجميع إنها المسئولة عن تلك المشاكل ، ظاهريا ، بينما الواقع غير ذلك تماما .

ويبدو أن النزاع الدائم كان من طبيعة تلك القبائل حتى أصبح من المستحيل أن يمر رجال القبائل المتنازعة بديار بعضهم البعض ، الأمر الذى أدى الى تعطل التجارة ومرور القوافل ، ناهيك عن وقوع الكثير من القتلى نتيجة هذه النزاعات القبلية (٢) .

وقد حاول رجال الادارة وقف هذه التبعديت والقبط على مرتكبيها ومحاكمتهم — فى محاولة لبسط السلام الاجتماعى — ولكن يبدو أنه أمام كثرة مثل هذه الجرائم وطول الاجراءات التى تقتضيها أمور المحاكمة طلب المسئولون فى شرقى السودان الترخيص لهم بمجازاة الفعلة بالقصاص وذلك بإعدام القاتل فى حينه حتى يتم وقف هذه المذابح ، ولما كانت مثل هذه القوانين لا تطبق إلا على العسكريين تطلب الأمر دراستها بمصر . وبالفعل اقتنع المسئولون بهذا الطلب ووافقوا على تنفيذ القانون العسكرى (٣) .

ومن بين الأمور السيئة التى كانت منتشرة بين القبائل مسألة الاغارات المتبادلة ونهب الحيوانات — وخصوصا الجمال — ولم يكن رجال الادارة المصرية فى تلك الجهات ليقبلوا مثل هذه الأعمال ، فأرسلوا فى عام ١٨٧٦ الى مشايخ هذه القبائل ، الذين تعهدوا بوقف الاغارات

(١) محافظ ابحاث السودان — التقرير السابق .

(٢) محافظ ابحاث السودان — نفس التقرير .

(٣) دفتر رقم ٢٥ عابدين — وارد تليفراغات — صورته التليفراغ العربى رقم ٢٧٨ بتاريخ ٢٠ جمادى الآخر سنة ١٢٩١ هـ . من مدير عموم شرقى السودان الى المنية السنية ، أنظر أيضا : دفتر رقم ١٩٤٨ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم الصادر الى مدير شرقى السودان . محافظ سرحل البحر الأحمر بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ نمرة ١٨ ص ٩٢ .

وتأديب الخارجين عن حدود القانون (١) *

وكان رجال الادارة بالسودان يحاولون بشتى الطرق ان يؤلفوا بين قلوبهم وأن يأتلفوا هم أنفسهم معهم ، فعمدوا الى تكريم مشايخهم والإنعام عليهم بالرتب كما حدث في فبراير عام ١٨٦٨ حين تم منح كل من شيخ بنى عامر الرتبة الرابعة ، كما تم من قبل منح شيخ قبائل الجندوة نفس الرتبة السابقة (٢) *

وبالاضافه الى ذلك كان رجال الادارة في السودان يقومون بالمرور على البدو « ... ويخبرونهم ان كان في أنفسهم شيء بسبب سوء الادارة التي كانوا يعاملون بها ، فانه مرخص لكل كبير وصغير منهم ومسموح له بأن يعرض تظلمه دون خوف أو خشية معتمدا بذلك على بساط العدل والرحمة ... » (٣) ويبدو أن هؤلاء البدو في زمن الخديوى اسماعيل قد بدأوا يشعرون بالاطمئنان من قبل بعض العساكر التي كانت تنهب أموالهم ، فقد أصبحوا الآن « ... يتعجبون جدا لعدم اعتداء العساكر المصرية ، وتعرضهم لأموالهم وأعراضهم وشرفهم في الطريق كما في السابق ولدفع أثمان صنف اللحوم من الغنم والبقر مقدما وزيادة عن الثمن الذى يطلبوه عند ابتياعهما ، وكانوا يسرعون في تبشير بعضهم ان الله تعالى قد أمدهم بعساكر منظمة جديدة مشفقة ... » (٤) *

وكان رجال الادارة المصرية كلما اقتربوا من منازل هؤلاء العربان

(١) دفتر رقم ٤٠ عابدين — وارد تليفراغات . ص ٩٨ . صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٥٨٥ بتاريخ ١٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٣ هـ من وكيل عموم شرقى السودان وسواحل البحر الأحمر بسنهيت الى سعادة خرى باشا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) دفتر رقم ٥٧٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٨٤ هـ . ص ١٩ من الجناح العسالى الى حكامدار السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) محفلة رقم ٣٦ معية تركى — صورة ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . من جعفر باشا الى مهر دار خديوى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

عمد الأخيرون — خلافا للمعتاد — الى سوق أغنامهم ومواشيهم الى الطرق التي يمر منها العساكر قائلين « •• ان أموالنا فداء للعساكر العادلين المؤدبين •• » وزيادة على ذلك فان نساءهم كن يزغردن لحظة مرور العساكر (١) •

وكانت الحكومة لا تأل جهدا في دفع ومقاومة الأمراض التي تواجه عربان البجة ، كما حدث في مايو عام ١٨٦٦ حين تفشيت بين عربان قبيلة بنى عامر « بخور بركة » نوع من الحمى المسهلة التي تشبه مرض الكوليرا ، فعمدت الادارة الى اتخاذ كافة الاجراءات الصحية المناسبة حتى تم إزالتها تماما في أيام معدودات (٢) •

وفي يونية عام ١٨٧٠ إشتكى ناظر قسم بنى عامر من كثرة الوحوش التي تهاجم مواشى العربان ليلا ونهارا الأمر الذي يسبب لهم ضرا بالغا • وقد خصصت الادارة مكافآت مالية سخية لكل من يقتل أحد هذه الحيوانات وكانت هذه المكافأة تزداد حسب خطورة الحيوان (٣) •

ومن العلامات المشرقة التي تذكر للادارة المصرية بالسودان تجاه عربان البجة تلك المحاولات التي جرت لتوطين وإستقرار هذه القبائل البدوية عن طريق العمل بالزراعة ، وهذا الاجراء يعد تطورا خطيرا في حياة أولئك البدو الذين لم يعتادوا على البقاء طويلا في بقعة واحدة ، بل جبلوا على حياة التشتت في شعاب الجبال وراء قطعانهم حيث يوجد الكلا • ولقد كان أكثر المنتفعين بمشروعات الرى في طوكر وكسلا من البجة • ومع التسليم بأن مستواهم في الانتاج الزراعى لم يكن

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٨ — دفتر رقم ٤ من جعفر باشا مظهر حكمдар السودان بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٥ — معية سنوية — صورة المكتبة الواردة من محافظ سواحل البحر الأحمر الى المعية السنوية بتاريخ ٢٢ ربيع الاول سنة ١٢٨٧ مرة ٢ . ص ٣٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(م ٢١ — التطور الاقتصادى والاجتماعى)

عالياً إلا إنه مع ذلك لم يكن منحطاً * ففى شرقى السودان سارع عربان الكميالاب وارتيقا الى زراعة الذرة بجهة طوكر (١) * وقد شجعت عملية الزراعة هذه على جلب الكثير من البدو الفارين — أمثال عربان أرتيقا — الى المجيء الى جهة طوكر والإستقرار بها وإحداث لون من العمران (٢) *

وتشجيعاً لعربان الكميالاب — وهم فرع صغير من البجة — على الزراعة والإستقرار قام رجال الادارة بمحافظة سواكن بصرف التقاوى لملاحظ طوكر لتوزيعها على هؤلاء العربان على أن يسددوا أثمانها عقب جمع المحصول (٣) *

كذلك قام المسئولون فى تلك الجهات بتقديم نصائحهم ومشوراتهم لهؤلاء العربان فيما يتعلق بأمور الزراعة * فقد لوحظ أن أكثر العربان يعيشون فى مسغبة من العيش وأنهم يعجزون عن سداد الضرائب المطاوعة منهم فأثارت عليهم بزراعة القطن والاكثار منه حتى يزداد دخلهم ويمكن انقاذهم من الفقر * وبالفعل أرسلت اليهم أنواع جديدة من القطن ذات رتب عالية من أمثال القطن الهندى والسيلانى (٤) *

ولقد كانت منطقة دلتا نهر الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر تؤمها السباع ، فطهرت أراضيتها وزرعت بمختلف المزروعات فيما بين عامى ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ، وأصبح محصول القطن من أهم

-
- (١) دفاتر محافظة سواكن — دفتر صادر ٤ / ٥ / ٢٧ سواكن . بتاريخ ٩ ج سنة ١٢٨٦ هـ — مديرية التاكا عموم — مكتبة رقم ٣ ص ٣ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) الدفتر السابق — مكتبة رقم ١١ بتاريخ ٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ ص ٥٩ .
(٣) الدفتر السابق — مكتبة رقم ٨٦ بتاريخ ١٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ .
(٤) الدفتر السابق . مكتبة رقم ١٣٤ بتاريخ ١٧ ج سنة ١٢٨٦ هـ .
ص ١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مزروعاتها (١) *

هكذا تأثرت حياة القبائل البجاوية بالمشاريع الزراعية والعمرانية التي تمت في طوكر ودلتا القاش ، وفي نمو مدينة كسلا والقضارف . وقد صحب هذا التطور تشابك المصالح واحتشاد العناصر المختلفة * واستجاب البجة الى هذه التطورات وبدأوا يتخذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض المدن وأخذ كثير منهم يعمل بالزراعة كما أسلفنا بالإضافة الى مختلف الحرف * ولم يترتب على هذا التطور تفكك في النظام القبلي أو العصبية القبلية عندهم * فالقاضي الذي يفصل في خصوماتهم سيان ان عقد مجلسه في داره بالقرية الجديدة ، أو في خيمته وسط مسالك عتباى الوعة (٢) *

ومن الأمور الملفتة للنظر حقا في حياة البجة — على اختلاف قبائلهم وأوطانهم — انقطاع الصلة تماما بالبحر ، فليست لهم سفن أو قوارب ولا يعرفون حرفة الصيد البحري ، وأهملوا بذلك —موردا هاما في غذائهم * وعلى الرغم من أنهم يرعون ابلهم على ساحل طوله أربعمئة ميل ، بل قد تشرب ابلهم قليلا من ماء البحر أحيانا ، فانهم لم يلقوا بالا الى هذا البحر * وعلى الرغم من طواف جماعات عربية بالسواحل — واشتغال بعضها بصيد اللؤلؤ في « دنجو ناب » وغيرها من الجهات — فان البجة لم يتعلموا شيئا من ذلك لدرجة ان الموانئ التي نشأت على البحر لم يكن البجة قد شاركوا في انشائها (٣) *

النوبيون :

سكن النوبيون الأراضي الملاصقة لنهر النيل من شمالي أسوان حاليا الى بلدتي الدبة وكورتى * ويعتبرهم الجغرافيون من الشعوب

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالي . ص ٣٧ .

(٢) نفس المرجع . ص ٢٩ .

(٣) نفس المرجع . ص ٤١ .

النهرية التي تلتزم وادى النيل التزاما شديدا وذلك بسبب اشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الصحراء المتاخمة للنهر شرقا وغربا قد أرغمت هؤلاء النوبيين منذ زمن طويل أن يظلوا ملتزمين للنهر وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة والتي تحف بنهر النيل (١) *

ويتميز هذا الاقليم الضيق بقدره كبيرة على امتصاص العناصر الغربية التي تدخله من حين لآخر ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج في سائر السكان *

وقد شهد النوبيون على مدى آلاف السنين ألوانا من السلالات والجماعات سواء أكانت غازية أو مهاجرة ما لبثت أن استولت عليها البلاد وأدمجتها فيها ، وهذه الخاصية معروفة في مصر ولكنها أكثر وضوحا في بلاد النوبة *

وإذا حاولنا أن نتتبع أصول النوبيين منذ القدم ، فإن ذلك قد يحتاج منا الى صفحات كثيرة ❀ ، ولكن يكفي أن نقول ان النوبيين شعب قديم ، سكن أوطانه الحالية منذ آلاف السنين ، وقد جاء العرب الى بلادهم واختلطوا بهم وأصهروا اليهم وبذلك أضيف النسب العربى الجديد الى النسب النوبى القديم إلا أن هذه الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث تهضم الثقافة النوبية ، ومن ثم بقيت اللغة النوبية

-
- (١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٨٤ .
 (❀) من أهم الدراسات التي تناولت أصل النوبة ما يلي :
 — The Archeological Survey of Nubia.

- Seligman; Nubian Origins S.N.R. Vol. XIII. pp. 137-48.
 — Kirwan; A Survey of Nubian origins. S.N.R. Vol. XX. p. 47.
 — G. W. Murray; English - Nubian Dictionary (1423).
 — Junker and Shafer; Nubisch Textete.

بالإضافة الى الكتب المتعلقة بالسودان وأهمها : كتابات ماكمايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بوركهات ، والمراجع العربية مثل كتابات المقرئى والمسعودى وابن خلدون وغيرها .

بلهجاتها المتنوعة حتى يومنا هذا جنبا الى جنب مع اللغة العربية ، بينما
أخذ النوبيون الاسلام (١) .

وقد لا يكون من قبيل الترف التاريخي إذا أشرنا الى الخط — الذى
نشأ بسبب البحوث اللغوية المتعلقة بالدراسات النوبية — بين الشعب
النوبى وبين سكان الجبال أو الجماعات التى أطلق عليها اسم « النوبا »
فى الجبال الواقعة جنوبى كردفان (٢) . فشعب النوبة كما ذكرنا قديماً
أما « النوبا » أو « النوباويون » ، كإسم لسكان جبال كردفان الجنوبية
فلا يعرفه السكان أنفسهم ! ، وهم يدعون أنفسهم أحياناً سكان
الجبال أو إن كل شعبة منهم تسمى بإسمها .

ويخلص الدكتور محمد عوض الى أن أصول النوبيين فى السلالات
القوقازية عريقة وقديمة ، وان الصفات الزنجية التى نراها أحياناً بينهم
هى العنصر الطارىء الدخيل (٣) .

وقد اختلف العلماء فى أصل تسمية النوبة كما اختلفوا فى تاريخهم
ونشأ لغتهم . فقد عرفهم المصريون القدماء بإسم « نوب » أو « نوبو »
بمعنى الذهب أى انها بلاد الذهب ، حيث أن أوطان النوبيين مجاورة
لمناجم الذهب (٤) . كما أطلقوا على بلاد السودان اسم « تا — نحسو »

(١) محمد محمود الصياد : الناس فى أفريقية . ص ٧٤ — ٧٥
ويذهب على مبارك الى أن النوبة بطن من لواته ، وهى قبيلة من البربر
سكنت تلك الجهات (الخطط التوفيقية الجديدة . جزء ١٧ . ص ٣٨ — ٣٩)
ولسنا ممن يميلون الى هذا رأى الذى لا يستند الا على مجرد تشابه بين
كلمتى « البربر » و « البرابرة » رغم أن التسمية الأخيرة غير دقيقة ويطلقها
العامة من غير النوبيين . فالبربر والنوباويون كلاهما بعيد جداً فى الموطن ،
بالإضافة الى الاختلافات الواضحة بينهما من حيث الملامح الشكلية ،
والجوانب الثقافية .

(٢) السعيد إبراهيم البدوى : النوباويون ، دراسة تاريخية
انثروبولوجية بمجلة الجمعية الجغرافية . العدد ٦ لعام ١٩٧٣ ص ١١٥
وما بعدها .

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٣٠١ .

(٤) نفس المرجع . ص ٣٠١ .

Ta - Nehesu ، تاء = أرض ، نحسو = السودان • وعلى هذا فربما تكون هناك صلة لغوية بين نحسو وكلمة (النحاس) العربية إذ أن سكان النوبة يميل لونهم من اللون النحاسي (١) •

ويتحدث النوبيون لغة تختلف قليلا من اقليم الى اقليم • فالأهل المحس وسكوت لهجة ، ولأهل دنقلة في جنوبهم والكنوز في شمالهم لهجة أخرى • وقد فسر ذلك بأن الجهات الوعرة في اقليم الجنادل الوسطى حالت دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب فتشابهت لغة سكان الجنادل • غير أن هذا التفسير لا يساعد على إيضاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسافة بينهما • ويفسر الدكتور عوض هذه المسألة بافتراضه أن الاتصال بين اقليم الكنوز والدناقلة كان كثيرا بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب والشمال ، وكان لابد لسرعة الاتصال من تجنب الاقليم النهري الكثير الجنادل والذي لا يلعب دورا هاما في التجارة ، من المعروف أن الدناقلة والكنوز بحكم موقعهم يقومون بدور كبير في تلك التجارة وبالتالي كان لابد أن يحدث هذا الاتصال والتشابه اللغوي (٢) •

وينقسم النوبيون عموما الى خمس مجموعات رئيسية : الكنوز في الجزء الممتد من أسوان الى كرسكو ، والفديجة ما بين وادي حلفا وكرسكو ومعروف أن هاتين المجموعتين تشكلان النوبة المصرية في الوقت الحاضر وقد تم تهجيرهم الى منطقة كوم أمبو بأسوان خلال بناء السد العالي •

وأما المجموعات الثلاث الباقية فهي التي تشكل النوبة السودانية في الوقت الحاضر وهي على النحو التالي : الدناقلة في الجنوب ما بين

Budge; The Egyptian Sudan, Its History and Monuments Vol. (١)
I. p. 505.

وانظر أيضا شوقي الجمل : معالم السودان وادي النيل ج ١ • ص ٧ •
(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالي • ص ٣٠٤ •

الدبة وأبى فاطمة ثم المحس والسكوت في اقليم الشلالات والجنادل * *

وقد يكون من المفيد ونحن ننتبع تطوّر المجتمع النوبى السودانى في ظل الادارة المصرية حتى عام ١٨٨١ أن نميز بين فئتين من السكان : الأولى وتشمل فئة الزراع المستقرين + ففى اقليم دنقلة يعتدل جريان النهر وتخلو الجنادل وتتيسر الملاحة ويتسع السهل الفيضى في مواضع عدة ، الأمر الذى يتيح للسكان نشاطا زراعى يقوم على الرى الحوضى والسواقى + وفى المحس لا يتسع النهر للزراعة إلا بمقدار ضئيل ولكن رغم ذلك توجد جهات يتسع فيها الوادى وتتم عمليات الزراعة * * *

أما الفئة الثانية فهى فئة التجار + فالدناقلة — على وجه الخصوص — اشتهروا بعملياتهم التجارية في كافة أرجاء السودان ، في وسطه وغربه وجنوبه ، وظهر من بينهم تجار ذوو ثروات ضخمة وكونوا تجمعات كبيرة في البلاد التى سكنوها لدرجة أن بعض الأحياء — في كردفان مثلا — عرفت باسمهم * * *

ولقد تجمع الدناقلة في عهد خورشيد باشا « بحلة المراكبية » بالخرطوم حيث مارسوا مهنة التجارة ، وشاركوا في رحلات الجنوب التجارية كحراس وخصوصا بين عامى ١٨٤٢ ، ١٨٥٢ حين احتكر حكمدارو السودان التجارة في الجنوب + ومنذ عام ١٨٦٠ عظم عددهم في الخرطوم وجنوبها حيث رافقوا تاجر الرقيق محمد خير الدنقلاوى الذى كان يهاجم الشلك + وقد قدر عددهم في تلك السنة بثمانية عشر ألفا (١) + وعقب اعلان الحكومة الحرب على تجارة الرقيق في عهد اسماعيل لم يتناقص عددهم في الخرطوم بل تولوا حملات الحكومة

(*) انظر الخريطة .

(**) انظر فصل تطور الأوضاع الزراعية فيما سبق .

(***) انظر القسم الاول من فصل التجارة والمواصلات .

(١) احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم . ص ١٦٠ — ١٦٢ ، ١٥١

في القضاء على تجارة الرقيق في بحر الغزال تحت قيادة البلالى عام ١٨٦٩ ، كما مارسوا نفس المهمة مع صمويل بيكر في خط الاستواء في نفس العام ، وأيضا مع غوردون بين عامى ١٨٧٤ - ١٨٧٦ (١) .

ولقد كانت الهجرة من أهم سمات الجماعات النوبية فقد ضاق اقليم المحس والسكوت بسكانه ، نظرا لقلة موارده فهاجروا الى أماكن جديدة داخل السودان مثل جزيرة « توتى » و اقليم « عيلفون » . وهنا في هذا الوطن الجديد نود أن نشير الى أن المحس قد استعربوا وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب وأصبحت لغتهم الوحيدة هى اللغة العربية كذلك تجدر الإشارة الى أن أغلب الهجرات التى اتجهت الى جبل « ميدوب » وشمال كردفان ودارفور ومصر كانت من المحس (٢) .

ولا تزال الهجرة حتى الآن سمة مميزة للرجل النوبى سواء في السودان أو مصر ، وقلما تجد الرجال مقيمين في تلك الأوطان بل إن النساء هن اللاتى يقمن بالنصيب الأكبر في العمل الزراعى ، على عكس المرأة عند القبائل العربية السودانية .

٣ - القبائل العربية :

لعل من المفيد أن نشير بادىء ذى بدىء الى أن النظام القبلى في المجتمع السودانى يمثل ركنا أساسيا في بنائه . وسوف نلاحظ أن القبائل العربية التى وفدت الى السودان جاءت بكثير من نظمها المختلفة ، والاجتماعية منها بوجه خاص . وبالرغم من التطورات الجديدة التى حدثت في الوطن الجديد إلا أن مسألة الانتماء الى قبيلة ظل يمثل شيئا من الواجهة الاجتماعية وله احترامه الشديد سواء في المدينة أو في

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق . ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٣٠٤ .

الحلة (القرية) • ويصعب تماما ، وخصوصا في القرن التاسع عشر ، اجراء تقسيمات حادة لمجتمع القبيلة في السودان بمعنى أن نقول ان هناك فروقا واضحة بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية • فالرجل سواء في المدينة أو في الحلة لأبد وأن يكون منصوبا تحت اسم قبيلة وهذه مسألة يحرص عليها الفرد السوداني تماما فلم يكن لمعيار الثروة كبير وزن بينهم بقدر ما كان ضروريا أن ينتمى الى قبيلة عربية •

ويشير البعض الى جملة أمور حول تاريخ العروبة في السودان ، منها هجرة عرب اليمن الى الحبشة قبل القرن العاشر الميلادي وتأثر أطراف السودان الشرقية بذلك ثم تلتها هجرات أخرى من الحجاز منذ ظهور الاسلام ، ومعروف أن نشأة السلطنة السنارية قد أرجعها البعض الى جماعة من القبائل العربية من بنى أمية (١) • ويشير مستر « ريد » الى وصول العرب الى شرقي السودان منذ زمن طويل حين اخترقت مجموعات منهم البحر الأحمر الى السودان الشرقي واتخذوا لهم زوجات من السكان الحاميين ويقصد بهم البجة ، وعن طريق ذلك أمكنهم أن يربثوا مناصب خطيرة (٢) •

وبالرغم من تعدد المسالك التي سلكها العرب نحو السودان سواء من الشرق عبر البحر الأحمر أو من الشمال خصوصا عبر مصر ، فإن ماكمايكل يرى أن طريق مصر كان أهم منفذ للعرب الى السودان ويفضله عن المنفذ الشرقي ، ويعلل الأسباب التي دعت العرب الى الهجرة من مصر الى السودان بأعداد غفيرة الى أن الحكم في مصر قد انتقل من أيدي ولاية عرب الى اسرات تركية غير عربية منذ الحكم الطولوني مما

(١) يوسف فضل : مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي ص ٤٥ ، وأنظر أيضا : الشاطر بصيلي : تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط . ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) أنظر مقالته في S.N.R ، الجزء الثاني - مجلد ١٣ . سنة ١٩٣٠ . ص ١٥٠ .

جعل العرب يشعرون بضيق أدى الى هجرتهم للجنوب كما يشير أيضا الى أن العرب الذين أتوا الى مصر كانوا من بيئة شبه الجزيرة العربية الرعوية فوجدوا في البيئة الجديدة (مصر) أنهم قد حرموا مما ألفوه في بيئتهم الأصلية من ارتحال وتنقل فتركوا مصر ميممين شطر بيئة تشابه شبه الجزيرة العربية (١) *

بعد ذلك كله يجدر بنا أن نعرض لتوزيع القبائل العربية في السودان ، وهنا نذكر بأن العرب في بلادهم الأصلية كانوا ينقسمون الى قسمين كبيرين : القسم الأول يعرف بالجنوبيين من سكان اليمن وما يليها ، والقسم الثاني ويعرف بالشماليين من سكان الحجاز ونجد * وقد عرفا أحيانا باسم العرب العاربة والعرب المستعربة أو القحطانيين والعدنانيين *

وإذا كنا نلاحظ أن العرب في أي بقعة هاجروا اليها ينقسمون الى مجموعات ينتمي بعضها الى العدنانيين والبعض الآخر الى القحطانيين ، فإن شبيها بهذا قد حدث في السودان * فقد مثل الجعليون أو العباسيون الشعبة العدنانية ، كما مثلت القبائل الجهنية الشعبة القحطانية *

(أ) الجعليون *

تمتد أوطان هذه المجموعة الكبيرة من القبائل العربية من دنقلة في الشمال الى بلاد الدنكا في الجنوب * وللجعليين أوطان أخرى بعيدة عن

Mac Michael; op. cit., vol. I.

(١)

أنظر شوقي الجمل : تاريخ السودان وادى النسل الجزء الأول . ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(*) علينا أن نفرق بين قبيلة الجعليين وبين مجموعة الجعليين أو العباسيين ، فقبيلة الجعليين تعيش على ضفاف النيل بين مصب عطبرة شمالا وخنق سبلوطة جنوبا . (محمد عوض : السودان ووادي النيل ، دراسات في تكوين وادى النيل ومكان السودان وسكانه من حوض هذا النهر ص ٤٤) .

النهر في سهل البطانة وكردفان وهى فروع للأوطان النهرية التى تشغل من نهر النيل مسافة تبلغ زهاء الألف كيلو متر .

ويلاحظ الدكتور محمد عوض على توزيع الجعليين عدة أمور أهمها :

١ - انتشار بعض قبائل هذه المجموعة من أوطانها النهرية إلى أوطان أخرى في كردفان مثل الجوامعة والبديرية والبطاحين في سهل البطانة ، وبعضها استوطن في جزء من جبال النوبا حيث أسس مملكة تقلى .

٢ - لم يكن هذا الانتشار الذى اتخذته المجموعة الجعلية على ضفاف النيل من دنقلة شمالا إلى خط عرض ١٥° مضطرباً بل حدث فيه انقطاع في إحدى أجزائه من وادى النيل الأبيض احتلته بعض قبائل الكواهلة .

٣ - باستثناء ما سبق ، فإن المجموعة الجعلية قد احتلت الوادى كله لا ينازعها فيه منازع اللهم إلا في أطرافه الشمالية حيث يقاسمها الدناقلة ، وفي الجنوب حيث جماعات البقارة ، وفيما عدا ذلك ساد الجعليون المساحات المتاخمة لنهر النيل (١) .

وينتسب الجعليون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، وهو طبقاً للروايات ابن سعد بن فضال بن عبد الله بن عباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى هذا فالجعليون ينتسبون إلى الأصل الهاشمى ولذلك فإنهم يسمون أحياناً بالمجموعة العباسية . ويرفض الدكتور محمد عوض المزراية بهذا النسب أو التشكيك في حقيقته ، كما فعل ماكمايكل ، نظراً لأن أدلة الأخير غير قوية . فقد سبق أن شكك البعض في انتساب البشاريين وغيرهم إلى بنى كاهل ثم أظهرت الأدلة صدق هذا الانتساب (٢) .

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية . ص ٣٢٠ .

(٢) السودان الشمالى . ص ١٦٤ .

ويقول ماكمايكل حول هذا الانتساب انه اختراع خالص ، وان لم يكن كذلك ، فأقصى ما يدل عليه هو تجمع خليط من القبائل المتباينة الصفات تحت قيادة رجل يدعى الانتساب الى بنى العباس (١) .

وتشمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، إلا أن بعضها صغير جدا ومن أشهرها :

أولا : القبائل النهرية :

الجعليون : وهم الذين أخذوا اسم المجموعة ، وهم دون شك أكبر جزء من هذه المجموعة ، ويمتد موطنهم من خانق سبلوقة الى العظيرة * وتعد شندى عاصمة الجعليين ، وان كانت المنمة على الضفة اليسرى للنهر تمثل مركزا ثانيا لهم أيضا ، والميرفاب ويسكنون في الشمال من عظيرة حول بربر ، والرباطاب ويقطنون في المنطقة من بربر الى (أبو حمد) * والناصر من أبو حمد الى آخر الشلال الرابع * والشايقية من الشلال الرابع الى اقليم الدبة * والجوابرة في داخل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس والركابية وموطنهم وسط بلاد المحس ، والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان حاليا الى حدود الكواهلة ، والجمع في غرب النيل الأبيض جنوب بلاد الكواهلة *

ثانيا : القبائل المقسمة بين النهر وكردفان :

وتتضم هذه القبائل البديرية الذين يقطن جزء منهم بلاد النوبة والجزء الآخر كردفان *

ثالثا : القبائل التي ابتعدت عن النهر :

وتتضم الجوامعة في أواسط كردفان وشمال وشرق الأبيض ،

والغدييات جنوبى الأبيض ثم البطاحين فى النصف الشمالى من
البطانة (١) .

وقد لا يكون المجال متسعا لتتبع كل قبيلة من هذه القبائل على
حده . وإنما قد يكون فى الحديث عن أشهرها ما يغنينا عن ذلك خصوصا
وأن هناك عوامل مشتركة تجمع بين قبائل هذه المجموعة الكبيرة . وتعد
الشايقية * واحدة من أهم قبائل هذه المجموعة ، وقد وصفهم بوركهات
فى أوائل القرن التاسع عشر بأنهم كانوا يهتمون بالاستقلال التام ،
ولهم ثروة ضخمة من الماشية والحبوب وانهم اشتروا بالكرم ويمجدون
رجال العلم (٢) .

ومنذ عام ١٨٢١ ارتبط الشايقية برجال الادارة المصرية فى السودان ،
ففى خلال مسيرة الحملة التى قادها اسماعيل كامل عام ١٨٢٠ لم
يستسلم الشايقية له إلا بعد قتال مرير فى معركة كورتى حيث انه لم تجد
محاولات اسماعيل لاثنائهم عن القتال . وأسفرت المعركة عن هزيمتهم .
ومع ذلك ينبغى أن نشير الى أنهم كانوا محاربين أشداء لم يلقوا السلاح
إلا بعد قتال شديد (٣) . وقد أكرم اسماعيل باشا ابنة أحد ملوكهم
ويدعى (صبير) بعد أن وقعت فى الأسر مما جعله يقبل الانضواء تحت
الادارة المصرية ، وأصبح كثير من الشايقية منذ ذلك التاريخ جزءا من
الجيش المصرى غير النظامى ، كى يمارسوا مهنتهم الحربية التى أولعوا
بها فاشتركوا فى غزو الفنج وفتح الجزيرة (٤) . وقد منحهم الادارة

(١) محمد عوض : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(*) الشايقية هم أبناء شايق بن حميدان بن صبح أبو مريخة وهو
الذى تزعم رواياتهم أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان
(عبد المجيد عابدين : قبائل من السودان الأوسط والغربى . ص ١١) .

(٢) أنظر : رحلات بوركهات فى بلاد النوبة والسودان . ص ١٧٢ .

(٣) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٤٧ .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٥ صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٨٣
ص ١٨ . أمر كريم الى نظارة الجهادية فى ٢٠ محرم سنة ١٢٨٧ هـ .

المصرية مساحات من الأراضى قرب مصب النيل الأزرق وحول خانق سبلوكة ، وأصبح لهم وطن جديد في حلفاية الملوك والجهات التى تليها في الشمال * وظل الشايقية طوال عصر محمد على واسماعيل مخلصين تماما للإدارة المصرية في السودان وكانوا عنصرا هاما اعتمدت عليه هذه الإدارة في المحافظة على الأمن وجمع الضرائب ، وان كانت المسألة الأخيرة قد أضفت عليهم سمعة غير طيبة * وظلوا على هذا الولاء حتى في عنفوان الثورة المهدية الى أن سقطت الخرطوم في يناير عام ١٨٨٥ في أيدي رجال المهدي * ولذلك فإن أمر العفو الذى صدر عن جميع القبائل لم يكن يشمل الشايقية (١) *

وأما الفرع الآخر من المجموعة العباسية والذى يعد أيضا من الفروع الهامة لهذه المجموعة فهو فرع الجعليين بشندى والمتمة * وقصة هذه المجموعة أو بالأحرى زعيمهم الملك نمر مع الحكم المصرى معروفة تماما لإدارى التاريخ السودانى الحديث * فهو الذى أجمع المؤرخون على أنه المدبر لمقتل اسماعيل كامل الأمر الذى جعل الدفتردار يحطم شندى ويفر أهلوا الى أجزاء السودان وتخوم الحبشة * وقد استقرت جماعة منهم حول منطقة مقرن النيلين حيث عمل معظمهم تجارا ، أو بالأحرى باعة متجولين ، يشترون بضاعتهم بالأجل ويتجولون بها الى أماكن بعيدة تاركين أهليهم بالخرطوم ومتجهين الى قرى النيل الأزرق وكردفان ، وكانت تجارتهم تتركز في الأقمشة القطنية والتوابل والعطور والخضاب وغيرها * وكان من المعتاد أن يغيب التاجر منهم عن موطنه عاما كاملا ، كما كان يقنع بالربح القليل * واشتهروا بالصبر والشرف والأمانة ونادرا ما كانوا يغتنون * وكان لهذا الخلق التجارى أثره الطيب في العلاقة بينهم وبين بقية سكان الخرطوم (٢) *

(١) نكولز : الشايقية * ص ٦٠ وأنظر أيضا : محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٢) أحمد احمد سيد : المرجع السابق * ص ١٦٤ .

ثانيا : الجهنيون :

وهم المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية في السودان والتي يذكر البعض انها تنتمي الى « جهينه » أى الى القحطانيين باليمن * .

وترجع القبائل الجهنية في السودان تسبها الى عبد الله الجهنى الصحابى ، وهو وان لم يكن من جهينة مباشرة فانه من قضاة التي تنسب اليها جهينة * ويبدو انه قد حدثت بعض الفروق بين العدنانيين ، والقحطانيين في شبه الجزيرة العربية ، وفيما بينهم في السودان ، ففى المنطقة الأولى كان الناس يفخرون بأنسابهم اليمنية دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى * أما في السودان فانه قد حدث تصاهر بين العباسيين والجهنيين ونشأت بينهم صلات وروابط * وثمة فرق آخر ، وهو ان مجموعة القبائل اليمنية تنتمي الى قبيلة معروفة ومشهورة * أما الجعلية فيسمون بإسم شخص يدعى ابراهيم جعل أو يتصلون بنسب العباس أى الى شخص أيضا * وتفسير ذلك عند ماكمايكل ان الجهنيين ظلوا على بداوتهم وهم في السودان ولم يحدث بينهم وبين باقى السكان إمتزاج شديد فاحتفظوا بوحدتهم تبعثهم للقبيلة * أما الجعليون فعلى العكس منهم اختلطوا اختلاطا شديدا بالسكان السابقين * ومعنى هذا أن الجعليين كانت لهم قبيلة عربية واحدة ينتمون اليها وضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط (١) * .

ويلقى الدكتور محمد عوض على هذا الرأى قائلا : « لعل الأوفق أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة بل جماعات عديدة من قبائل متقاربة الأنساب ، هاجرت على دفعات وفي أزمان متفرقة واستقرت

(١) انقسمت قحطان الى شعبتين كبيرتين هما : كهلان وحميز وتفرعت عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جزام ولخم وكندة والأوس والخزرج وغيرها . ومن حمير تفرعت قبائل مشهورة أيضا مثل قضاة وبلى ومنها جهينة الى نحن بصدها (محمد عوض . المرجع السابق ص ٢٠٨) .
(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢١٠ نقلا عن ماكمايكل .

في الأوطان التي تعيش فيها الى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة فكان لهذه الأسرة الفضل في توحيد المجموعة وإدماج السكان الأصليين في المجموعة العربية (١) .

والمجموعة الجهنية في السودان لا تتركز في منطقة واحدة مثل العباسيين الذين تركزوا في الاقليم النهري من السودان ، بل انتشرت في الشرق والغرب ، وقلما تدعى قبائل جهنية في السودان بهذا الاسم بل تدعى كل قبيلة فيها باسمها الخاص . وربما يعود ذلك الى أن هجراتهم كانت متفرقة زمانا ومكانا . ويتوزع الجهنيون في السودان بين ثلاث مجموعات رئيسية : المجموعة الأولى هي مجموعة رفاعة ومعها القواسمة والعبد لاب والعركيين وغيرهم ، وهناك اللحيويون والحلويون والعوامرة والخوالدة وغيرهم . ثم أخيرا الشكرية . وتسكن هذه المجموعة النصف الشرقي في أقاليم النيل الأزرق والبطانة .

والمجموعة الثانية هي مجموعة فزارة * ، وتضم دار حامد وبنى جرار والزيادية والبزغة والشنابلة والمعاليا . وتعيش هذه المجموعة في الجهات الشرقية والوسطى من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتضم الدويحية والمسلمية والبقارة والحاميد والمهريّة والكبابيش والمغاربة . وتنتشر هذه المجموعة في كردفان ودارفور ، وإن كان بعضهم مثل المسلمية والدويحية لهم أوطان أخرى في الجزيرة والنيل الأزرق (٢) .

ويتركز الجهنيون الغربيون في كردفان بكثرة بعكس دارفور التي يقل عددهم فيها ، وهم ينقسمون الى قسمين : رعاة ابل في الشمال مثل

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ٢١٠ - ٢١١ .

(*) بنو فزاره بهذا الاسم لم يعد لهم وجود في السودان ولكن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الابل في كردفان ودارفور ثم تمزقت هذه المجموعة ومن أهم أجزائها دار حامد (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٢) .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

الكبابيش والحر (١) * وبالرغم من أن حرفتهم الرئيسية كانت الرعى ، إلا أنهم عملوا أيضا في نقل البضائع من كردفان الى النيل كما كانوا ينقلون الصمغ من الأبيض الى الدبة وهو ما يزال رطباً ، وكثيرا ما كانوا يجدون متاعب بسبب ذلك حيث يجف أثناء المسير فيقل وزنه ، وربما يكون ذلك مدعاة لحدوث تلاعب في الوزن ، الأمر الذي خلق نوعا من سوء الفهم بين الطرفين * ويبدو أنهم كرهوا الحساب الدقيق فاتجهوا في بعض الأحيان الى العمل مع الجلابية رغم قلة ما يبدولونه من عطاء (٢) * أما القسم الآخر فرعاة بقر ويسمون بالبقارة ، وهذا الاسم لا يطلق إلا عليهم على الرغم من وجود بعض القبائل الأخرى التي ترعى البقر ، أى أن هذا الاسم خاص بالقبائل الجهنية في كردفان ودارفور التي تعنى برعى الأبقار ومن أشهر قبائل البقارة في كردفان بنو سليم على النيل الأبيض وأولاد حميد وفرع من الهبانية والحوازمة ثم المسيرية وأخيرا الحر في الركن الجنوبي الغربي من كردفان * وأما الجزء الذي يعيش في دارفور فتمثل في الرزيقات والهبانية والتعايشة ، وبنى هلبة وبنى خزام (٣) *

ويمتاز البقارة بصفات حربية وهم يشبهون الشايكية من هذه الناحية ، بالإضافة الى أنهم صيادون مهرة * وهذه الصفات الحربية مكنتهم من إنشاء أوطانهم في بلاد جديدة وجعلتهم يدافعون عنها * وكثيرا ما حدث تصادم بينهم وبين سلطنة دارفور الأمر الذي أضعف شوكتهم فيما عدا قبيلة الرزيقات ويبدو أن الحياة التي تعيشها قبيلة البقارة جعلت هذا التصادم أمرا حتميا لأنهم أثناء فصل الجفاف في أواخر الشتاء ينزحون بماشييتهم نحو الجنوب حيث يصطادون الفيلة

(١) جريدة أركان حرب . العدد رقم ٨ غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ
 تقرير أحمد أفندي حمدي . ص ٥٧٨ .
 (٢) عوض عبد الهادي العطا . تاريخ كردفان السياسي في المهدية ١٨٨١ - ١٨٨٩ . ص ١٢ .
 (٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٢٩ .
 (م ٢٢ - التطور الاقتصادي الاجتماعي)

ويهاجمون الزنوج ويخطفون ماشيتهم • وفي فصل المطر يتجهون نحو الشمال هربا بقطعانهم من الذباب والمستنقعات الى المرتفعات الشمالية الجافة والتي يدعى الدارفوريون أنها ملك لهم ومن ثم كان لابد من حسم هذا الأمر عن طريق القتال •

الكواهلة :

وهي من المجموعات الصغيرة في السودان إذا ما قورنت بالمجموعة العباسية أو الجهنية • وهذه المجموعة تنتسب في أصولها الى كاهل بين أسد بن خزيمة فهم بذلك يعدون من عرب الشمال إلا أنهم منفصلون عن المجموعة الجعلية في النسب • وقد نزلوا في وقت متقدم على السواحل السودانية للبحر الأحمر ما بين عيذاب وسواكن ، واختلطوا مع البجة بل وتعلموا لغتهم وصاهروهم واندمجوا فيهم بحيث لم يعد لهم وجود في أقاليم البجة كوحدة قبلية مستقلة ، وهم بذلك قد حملوا النسب العربى للبجة • وهناك بطون أخرى من بنى كاهل انتقلت من شرقي السودان الى أقاليم عطبرة والنيل الأزرق ، وأخرى الى النيل الأبيض تسمى بالكواهلة وأحيانا بإسم الحسانية والحسينات • كذلك فإن هناك قبيلة في كردفان تحمل اسم الكواهلة (١) •

وتجدر الإشارة الى أن هناك بعض القبائل اختلف النسابة حول أصولهم مثل الشكرية المجاورة للبجة • فالبعض يضعهم تحت مجموعة جهينة • ومع تسليمهم بأنهم من جهينة إلا أنهم يفضلون الانتساب الى قريش • وهم يعيشون في إقليم البطانة ويجاورون بشارى ام ناجى في سهل البطانة • ومن القبائل الأخرى التي جاورت البجة « الرشيدة » أو الزبيدية والحرمان •

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية • ص ٢١٤ •

قبائل ساحل البحر الأحمر :

ويقصد بهذه القبائل على وجه التحديد جماعات السومال والدناكل والجالا . فمن المعروف أن بعضا من هذه الجماعات القبلية قد شملتها الادارة المصرية في عهد اسماعيل باشا .

وقد اصطلح علماء الأجناس على تقسيم القوقازيين في أفريقيا الى قسمين حاميين وساميين ، كما انهم يميزون بين الحاميين الشرقيين والحاميين الشماليين . وعلى هذا فان هذه القبائل تندرج تحت طائفة الحاميين الشرقيين (١) .

وتبدأ أوطان السومال من المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثامنة من درجات العرض الجنوبي وتنتجه نحو خليج عدن . وأكثر هذه الأوطان يقع في الوقت الحاضر داخل جمهورية الصومال ، كما أن بعضا منهم يعيش في الجزء الجنوبي الشرقي من أثيوبيا أى منطقة أوجادين . ويعبر عن السومال في بعض الأحيان بأولاد عيسى الذين يتكونون من ثلاث قبائل كبيرة ، وكل منها ينقسم الى أفخاذ عديدة (٢) .

وتعد قبيلة الدناكل جزءا من القبائل الواقعة جنوبى هرر ، وهناك مئات الأقسام الصغيرة لتلك القبائل المنتشرة في هذه المناطق (٣) . وأما الجالا فتسمى أحيانا باسم « النولى » أو « الجالانولى » وتنقسم الى

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى . السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ - العدد رقم ٥ بتاريخ غره رجب سنة ١٢٩٤ هـ . والمقال بعنوان : نبذة تتعلق باستكشاف أراضى العيسى وقبائل الجالا وهرر (تأليف عبد الله أفندى فوزى صاغقول أغاسى أركان حرب . ص ٣٨٦) .

(٣) جريدة أركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ص ٤٧١ وانظر أيضا : الأرشيف الأمريكى ، محفظة رقم ١٨ مكتبة رقم ٣٧٨ بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٧٥ .

أربع قبائل وأراضيها محصورة بين (جلديسة) ومدينة هرر (١) .

وأكثر هذه القبائل كانت تعيش على ما تكتسبه من حمل البضائع على إبلها ، ولم يكونوا زراعا أو صناعا . وكان البدوى الواحد منهم يكتفى بتأجير جمل أو اثنين مرة واحدة في السنة أو مرتين ، ومتى أخذ الأجرة كسا نفسه وأسرته ومكث في قريته يرعى إبله وغنمه ، يشرب ألبانها ويأكل لحومها . وأما مشاكلهم العامة فكانت تناقش مع مشايخهم وتخضع لأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم ومتى استقر رأى مشايخهم على حكم تم تنفيذه فورا (٢) .

قبائل النوبا (سكان الجبال) :

يستخدم لفظ نوبا للدلالة على السكان المتزجن في المنطقة التي تعرف باسم جبال النوبا أو تلال النوبا (دار نوبا) وهي تقع في الجنوب الشرقي من كردفان (٣) .

ولسنا في حاجة الى تكرار ما سبق أن ذكرناه عند تعرضنا بالحديث عن سكان النوبة السودانية حين خلصنا الى أنه من الصعب أن تكون هناك صلة قوية بين الأصول النوبية والنوباويين .*

ويذكر الدكتور محمد عوض ان سكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التي تحيط بها ، وهي تعد مجموعة وطنية قديمة سكنت هذا الاقليم منذ زمن بعيد ، وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعا من

(١) محفظة رقم ٣ عابدين وارد معية . في ٣ محرم سنة ١٢٩٣ هـ .
تقرير مقدم من أركان حرب مأمورية هرر . انظر أيضا : شوقي الجمل :
الوثائق السياسية لسياسة مصر في البحر الأحمر . ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٤ .

(٣) السعيد ابراهيم البدوى : المرجع السابق . ص ١١٥ .

(*) انظر فيما سبق ص ٣٢٣ .

الحماية (١) * والبعض الآخر يرجعهم الى الجنس الزنجى ، وان كانوا قد تأثروا بالدماء الحامية والسامية في بعض المناطق مثل منطقة تقلى والجزء الشمالى من الجبال (٢) *

ويذكر تقرير أحمد أفندى حمدي الصادر في ابريل عام ١٨٧٨ الى أن أصل هذه المجموعة السكانية يرجع الى شخص يدعى الشيخ عبد الهادي الشهير بمعاركه مع الدارفوريين ، والذي قدم من « الدابة » مع جم غفير من عائلته وسكنوا تلك الجهة * ثم تزوج بأمرأة من النوبا القاطنين منذ زمن طويل ، فتناسلت ذريته واختلطوا بالنوبا وصار للجميع « * عزوة واحدة » (٣) *

وواضح أن هذا الرأي يحاول أن يوفق بين الآراء المختلفة التي تقربهم تارة من النوبة ومن الزنوج تارة أخرى وتبعدهم عن كليهما تارات أخرى *

وللنوباويين لغات ولهجات عدة حتى قيل ان عدد اللغات بين النوبا يعادل عدد الجبال * وهذا القول وان كان فيه شيء من المبالغة فانه لا يخلو أيضا من الصواب * وقد أرجع البعض لغات النوباويين الى ثلاثة اصول رئيسية أطلقوا عليها الأسماء الآتية :

١ - السودانية *

٢ - النبتوية *

٣ - النوبية * فكل قبيلة تدخل لغتها ضمن نوع من هذه

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٣٠٢ *

(٢) السعيد ابراهيم البدوي : المرجع السابق ص ١٣٥ *

(٣) جريدة أركان حرب : تقرير أحمد أفندى حمدي السابق ص ٥٨١ *

الأنواع الرئيسية (١) * وقد قسم آخرون اللغات النوباوية الى عشر وحدات (٢) *

وقد بنى النظام الاجتماعى لدى النوباويين على وحدة « العشيرة » التى تتألف من مجموعة أشخاص تربطهم صلات القرابة *

ومن مجموعة العشائر تتألف وحدات أكبر * وأكثر العشائر عندهم أبوية تنحدر من آباء منذ قديم الزمان * إلا أنه توجد فى الجزء الجنوبى عشائر تنحدر عن طريق الأم * وقد يحدث أن تنقسم العشيرة الى قسمين إذا حدث الزواج داخل العشيرة الواحدة لأن الزواج محرم على الأفراد المنتمين الى عشيرة واحدة (٣) *

ويعمل النوباويون بالرعى والزراعة ، وهنا نشير الى أن النوباويين لا يوجد عندهم « عمال زراعيون » أى اجراء يشتغلون بصفة دائمة فى أرض غيرهم ، كما أنه ليس لديهم طبقة عبيد تعمل لطبقة السادة * فقد كان لقبائل النوبا نظام خاص مع الرقيق وهو نظام التبنى بحيث يصبح الرقيق جزءا من الأسرة ويعمل فى خدمتها كفرد منها ، وله عليها حق دفع المهر ، إذا تزوج ، ومنحه قطعة أرض * ولذلك فقد قيل انه عندما حرمت تجارة الرقيق فى السودان لم ينتج عن هذا التحريم أية مشقة بالنسبة للقبائل النوباوية (٤) *

سكان الجنوب (الزنج) :

هناك ملاحظة هامة نود أن نستهل بها حديثنا عن سكان الجنوب السودانى تتمثل فى ذلك الخطأ الفاحش فى اطلاق وصف « العبيد » عليهم

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٣٠٤ .

(٢) عوض عبد الهادى العطا : المرجع السابق . ص ١٨ ، انظر أيضا :

Stevenson. R. C.; The Nuba People of Kordofan Province, p. 13 - 14.

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٢ .

بدلاً من الزنوج أو المترنجين ، فالعبودية ليست سلالة من السلالات بل شئ من صنع الإنسان ، الذى مارسها سواء فى أفريقيا — بالنسبة لذوى البشرة السوداء — أو فى أوربا بالنسبة لذوى البشرة البيضاء على مر التاريخ (١) .

ويتمثل هؤلاء السكان فى عدة مجموعات قبلية من أهمها :

(٢) الدنكا : تندرج المجموعة الدنكاوية تحت ما أسماه البعض بالنيليين Nilotes ، الذين تتوزع أوطانهم فى كينيا وأوغندا وأطراف أثيوبيا الغربية والسودان وسوف نركز — بطبيعة الحال — على الأقسام التى تدخل ضمن السودان .

وتعتبر الدنكا من أكثر المجموعات النيلية عددا وانتشارا ، إلا أنهم لا يحتلون أراضى متصلة ، بل تفصل بينهم قبائل النوير ، وتشكل أوطانهم موقعا وسطا يمتد من السوبات الأدنى الى بحر الجبل ثم الى بحر الغزال . والمساحة التى يحتلها هذا الشعب الدنكاوى من حيث الطول تعد طويلة جدا حيث تبدأ من العرض السادس الى الخط الثانى عشر الشمالى ، باستثناء الجزء الذى يحتله النوير . وأما من حيث العرض فان مواطن الدنكا ضيقة فى الشمال وتلتزم الجانب الشرقى للنيل الأبيض ومواقع قليلة من الجانب الغربى . وهذا الجزء من أوطان الدنكا لا يزيد اتساعه من الشرق الى الغرب على ثلاثين كيلو مترا . ويسمى سكان هذا الجزء الشمالى من الدنكا — فى بعض الأحيان — بدنكا النيل الأبيض (٣) . وأما الجزء الجنوبى من مواطن الدنكا فهو أكثر اتساعا ويشتمل على أقطار يتصل بعضها ببعض تبدأ بالسهول

(١) يونان لبيب وآخرون : مشكلة جنوب السودان . ص ٣٤ .

(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٥٠ .

الشرقية في حوض بحر الجبل ثم تمتد في شكل مروحة الى الشمال الغربى حتى تصل الى بحر العرب * ولهذا جرت العادة بتقسيم الدنكا الى ثلاث شعب : شعبة النيل الأبيض وشعبة بحر الجبل وشعبة بحر الخزال (١) *

وتطلق هذه الجماعات الدنكاوية على نفسها اسم (جنج) Djing (مفردا جانج) ثم حرفها جيرانهم العرب الى دنكا ومفردها دنكاوى * وهذا الاسم يعنى مجموعة كبيرة من القبائل تبدو لأول وهلة ان كلا منها مستقل بحياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، وربما يكون هذا صحيحا الى حد كبير ، إلا أن هناك عناصر أساسية تتحد فيها كاللغة والدين والعادات والنظم السياسية والاجتماعية * ولكل قبيلة من هذه القبائل اسمها الخاص *

ويرى أحد الباحثين ان الدنكا قدموا من منطقة البحيرات العظمى بشرق أفريقيا ، ويضيف قائلا : ليس لهذه القبائل أو غيرها من قبائل الجنوب السودانى أن تزعم بأن أبناءها هم سكان الجنوب الأصليين إلا بقدر ما يحق ذلك للقبائل العربية التى هاجرت للشمال (٢) *

وتتنوع المهن التى مارسها أهل الدنكا طبقا للظروف المحلية الطبيعية كانت أم بشرية * وعموما تشكل مهنة الرعى أساسا عند معظم قبائل الدنكا ، إلا أنه بالإضافة الى ذلك وفي الجزء الأوسط من أوطان الدنكا نلاحظ جماعات تعيش على مهنة صيد الأسماك ، والسر في ذلك هو انتشار المستنقعات في هذه المنطقة وتعذر الوصول الى المراعى حيث تغمر المياه مساحات كبيرة من الأراضى * وتسمى القبائل التى تعيش في هذه الأجزاء

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٥١

(*) من أمثلة هذه القبائل : بود - علياب - سيك - أجار - توى

(٢) محمد عمر بشير . جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع

باسم (مون ثان) Mon-than أو جماعة الثان وتعنى بلغتهم الأرض الجافة وسط المستنقعات • ومرة ثالثة نلحظ تنوعا فى المهن حيث تصادفنا قبيلة « سىك » التى تقطن السهول الواقعة غربى بحر الجبل والتى تشتهر بمهنة استخراج وصهر الحديد • ويبدو أن هذه المهنة منتشرة بشكل واسع بين قطاعات كبيرة من الدنكا حيث نلحظ « عشائر الحدادين » فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال • وربما يكون لهذا الاسم الذى حملوه صلة بعملية استخراج وتصنيع الحديد • وهناك احتمال أيضا بوجود عشائر أخرى من الدنكا تشتغل بصهر الحديد فى حوض الغزال (١) •

ولقد نتج من عملية صهر الحديد لدى هذه القبائل كتل مستديرة من الحديد قطرها حوالى ٢٠ سنتيمترا كانت بمثابة وحدة للمبادلة والتعامل حيث أمكنهم عن طريقها شراء الثيران من القبائل الأخرى التى اشتهرت بتربية الماشية ، بالإضافة الى استخدامها فى دفع المهور للزوجات وان كان ذلك خارجا عن المؤلف لدى هذه القبائل التى اعتادت دفع مهورها ماشية • وهنا نشير الى أن العشائر التى تعتمد على الحديد تتزاوج فيما بينها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها منغلقة على نفسها فى هذه الناحية بل يمكنها أيضا أن تصاهر القبائل ذات الماشية التى تعد فى مرتبة أعلى منها ، إلا أن قلة ما تملكه قبائل الحديد يجعل من العسير حدوث مثل هذا التصاهر (٢) •

وعموما فالماشية هى قوام الاقتصاد الدنكاوى وخاصة البقر ، فهى مقياس ثروتهم وفخرهم وعزهم ومصدر سعادتهم وعماد مركزهم الاجتماعى ، وبها تدفع المهور والديات فالفردي الذى لا يملك ماشية فى

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٥٣ •

(٢) نفس المرجع ص ١٥٤ عن سليجمان : Pagan Tribes. p. 138.

هذا المجتمع — عليه أن يحصل عليها فوراً حتى وإن اضطر إلى الهجرة إلى خارج وطنه للعمل ثم يعود لشراء واقتناء الماشية * والغريب حقاً ، حتى أنه إذا عاد هذا الفرد من الخارج فإن ثروته التي جمعها لا تمكنه بسهولة من شراء الماشية من قبائل الدنكا * فالنقود عندهم أحقر من أن تقبل ثمناً للبقر ، وهذا يضطر الفرد إلى شرائها من قبائل البقارة في الأسواق الشمالية * فالماشية عندهم ليست مجرد مادة للحياة الاقتصادية ، على الرغم من خطورة ذلك ، بل هي أهم من ذلك كله من الناحية الروحية * فكل شيء عندهم لا يعمل على الماشية !! * فالأكواخ العظيمة لا تكون للادميين بل للماشية ومن أجلها توقد النيران ويحرق روثها لطرد البعوض عنها ، والرجل الدنكاوى يدافع ببسالة عن ماشيته إذا ما حدث اعتداء عليها وكأنما يزود عن عرضة أو دينة (١) !

وقد جرت محاولة جادة — من جانب أحد الآباء الفيرونيين « ويدعى » نادل « بالاشتراك مع زميل له لتصنيف أجروميه دنكاوية * وقد توجت هذه الجهود في عام ١٩٣٦ باخراج قاموس « دنكاوى » (٢) *

(ب) الشلك : يتميز الشلك بأنهم جماعة متميزة قائمة بذاتها لا تنقسم إلى قبائل ، مندمجة الأوطان ومثلاصقة ، أى أنها تكون وحدة سياسية واجتماعية وثقافية وتقع هذه الأوطان على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل الأبيض وتمتد من شمال قرية (كاك) عند نهاية خط العرض الحادى عشر الشمالى إلى قرب بحيرة (نو) * أما على الضفة اليمنى (الشرقية) فقد انكمشت أوطانهم بحيث أصبحت عبارة عن مساحة صغيرة تبدأ من شمال (ملكال حالياً) بقليل وحتى الشرق من حله (دوليب) قليلاً (٣) *

(١) محمد عوض : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) Santandrea, S.; Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal.

S. N. R. Vol. XXIX, 1948. Part I. p. 78-87.

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٧٧ — ١٧٨ ،

أنظر أيضاً مصطفى غهمى وآخر : في جنوب السودان . دراسات اجتماعية ونفسية وتربوية . ص ١٦ .

ويرجع سليجمان أصل جماعة الشلك الى رجل يدعى « نياكنج » Nyakang ، هاجر هو وأتباعه من وطن آبائه شرقي بحر الغزال ثم أخذ يتجول ، قاهرا الأعداء في طريقه ، حتى أصبح ذا قوة فتمكن من تكوين أسرة حاكمة وأمة • ويرجح أن نياكنج قد عاش في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (١) •

وتتكون جماعة الشلك من الوحدات الاجتماعية التالية :

أولا : عشيرة الملك : وتسمى كوارث Kwareth ، وهي التي تنحدر من نسل الجد الأكبر الملك نياكنج ، وهذه العشيرة موزعة في أرجاء البلاد ، ومنها يختار ملك البلاد شريطة أن يكون والده قد سبق له أن تولى الملك • وهذه العشيرة تنقسم الى أربعة أقسام :

١ — الملك نفسه أو الرث •

٢ — أبناء وبنات الملك الحالي أو الراحل ويسمون باسم « نيرث » •

٣ — أبناء أبناء الملك ويسمون « نيارث » •

٤ — حفداء أبناء الملك •

ويلاحظ في القسمين الأخيرين انه لا ذكر للبنات ، وذلك لأن بنات الملك لا يتزوجن حتى لا ينجبن من يزاحم الملك في ملكه • وقد تولى أفراد هذه الطبقة (الرث) الكثير من المراكز في أنحاء بلاد الشلك وكانوا يتزوجون بكثير من الزوجات حتى تتسع عصبتهم •

ثانيا : عشيرة أورورو Ororo : وتأتي في الطبقة الثانية بعد عشيرة الملك ، وهي أصلا من العشيرة المالكة إلا أنها حرمت من حقوقها

(١) سليجمان : السبلالات البشرية في إفريقيا ص ١٥٨ •

في بعض العهود إذ أنه يحق للث أن يحرم أى أسرة أو فرع من عشيرته •
وجرى العرف أن يتخذ منها الملك بعض زوجاته • والميزة الوحيدة التي
تميز الأرورو عن العشائر الأخرى دورهم الخاص في بعض الطقوس
الضرورية التي لا بد من اجرائها عند تنصيب الرث الجديد و عند وفاته •

ثالثا : حاشية الملك وأتباعه المقربين ويسمون باسم (بانج رث)
Bang Reth وهم عبارة عن متطوعين للخدمة ، أو أسرى في الحروب
أو من نسل اقترف آباؤهم جريمة القتل فضم الأبناء الى الحاشية •
وتتخصص مهامهم في الخدمات الزراعية والمباني وخدمة الملك • وعند وفاة
الملك يتولى فريق منهم خدمة مقبرته •

رابعا : الشعب ويسمى (كولو) Kolo ، وتبلغ عشائره نحو
المائة ، وتحصر كل عشيرة منها على وصل نسبها بأتباع الملك نياكنج (١) •

ومن الجماعات الأخرى التي سكنت جنوب السودان جماعة النوير
في منطقة السدود وما حولها ، أى بحر الجبل الأدنى حتى بحيرة (نو) •
ويعملون برعى الماشية والزراعة • ويرتبط النويريون بالدنكا من حيث
الزواج ، وعموما فهم قرييون في نظمهم الاجتماعية من الدنكا والشلك
المجاورين لهم (٢) •

كذلك فقد ضم الجنوب السودانى جماعة الآزاندى والتي تمتد حتى
الكونغو ويمكن حصرها على وجه التحديد بين خط العرض الثانى جنوب
خط الاستواء الى خط العرض السادس الشمالى في حوض بحر الغزال •
وهناك عدد من الآزاندى أصبح يسمى بأفريقية الوسطى • ويعرف
الآزاندى في السودان باسم (الافنجره) Avangara ويقابله اسم
المانجبيتو Mangebetu في الكونغو • وتجدر الإشارة الى أن اسم

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٨٣ - ١٨٥ ،

(٢) زاهر رياض : السودان المعاصر . ص ٥١ •

الأزاندى يختلط كثيرا باسم تلك العشائر المندمجة في الأزاندى مثل (الماكركا) Macarca • كذلك ينبغي أن نشير أيضا إلى الاسم الذى أطلقه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على سكان أواسط افريقية وهو (نيام نيام) ، وكانوا يقصدون به مجموعة سكان الاقليم الأوسط الذى يشمل الكونغو وأعلى النيل • وعلى هذا يكون تعميم هذا الاسم على الأزاندى دون غيرهم خطأ • والصحيح أن نسمى الشعوب بأسمائها (١) •

ولقد كان أساس السكان في أعلى الكونغو والغزالي عبارة عن جماعات متفرقة من الأقزام وقليل من الزنوج منتشرين في هذه البيئة الواسعة حتى تعرض هذا الاقليم لضغط من الجنوب والشرق من بعض سلالات البانتو • ولم يلبث هذا الضغط أن تلاشى أيام الموجات المتتالية من الغرب من عناصر سودانية غربية ، وترتب على هذه الموجات الزاندية ظهور سلالات جديدة واندماج القديم في الجديد وتوحيد الثقافة وتكوين ممالك منظمة في هذه المساحات الواسعة • وقد كان أكثر هذه الموجات تقودها عشائر ذات صفات حربية عالية وكان آخرها بقيادة الأفنجرية حتى استتبّت الأمور في أواخر القرن الثامن عشر • وفي أوائل القرن التاسع عشر أصبح الأفنجرية يسيطرون تماما على الأجزاء الشمالية في مقابل المانجيتو في الجنوب (٢) •

ومن الجماعات الأخرى في جنوب السودان جماعة « البارى » وهى من الشعوب النيلية الحامية التى احتلت الباب الجنوبى لنهر النيل • وتنتشر أوطان البارى على الضفتين الشرقية والغربية لبحر الجبيل • أما إذا أدخلنا البارى في الجماعات التى تتكلم اللغة البارية فان هذه الأوطان تمتد شمالا في خط العرض السادس ، وهنا يحتل البارى الجزء

(١) محمد عوض : المرجع السابق • ص ١٩٠ •

(٢) نفس المرجع • ص ١٩٥ عن :

الأوسط • ويروى الباري أن أجدادهم جاءوا من الشرق أو الجنوب الشرقي وأخذوا يتنقلون حتى احتلوا الاقليم الواسع شرقي بحر الجبل وأخذوا يتعرضون لإغارات من جماعات أقوى منهم حيث أرغموا على الجلاء عن معظم أوطانهم شرقي النيل واللجوء الى الأراضي الواقعة الى الغرب (١) •

وينقسم الباري الى عشائر منفصلة وإغترابية أى لا يتزوج امراء من عشيرته ، حيث انهم يعتقدون ان ذلك ضار بالنسل • ولهم رواية حول ذلك مؤداها ان الزواج فيما مضى كان منتشرا بين أفراد العشيرة فترتب على ذلك انتشار الأمراض فتدخل الزعماء فى الأمر وقسموا القبيلة الى أقسام وحرّموا الزواج داخل كل قسم وبالتالي داخل كل عشيرة • وهناك تقسيم اجتماعى آخر — الى جانب تقسيم الباري الى عشائر — وفيه يقسم المجتمع الى قسمين فى كل مكان • الأول يدعى (لوى) Lwi والثانى يدعى (دوى) Dupi أى طبقة الخاصة والعامة أو الأحرار والخدم • كما وجد تقسيم آخر لتمييز الأفراد سواء أكانوا من الخاصة أو العامة ويتناول جماعات قليلة تسمى (كور) أى طبقة العارفين بشئون الماء مثل جالبي المطر ومساعدتهم • وقد يكون فى طبقة الكور — الكثير من (الدوى) ولكن زعيم المطر لا يكون إلا من طبقة (لوى) • وهناك طبقات أخرى خلاف الدوى ينظر اليهم الأحرار نظرة احتقار مثل طبقة الصيادين أو اليارى Yari وطبقة الحدادين وطبقة صيادى النهر (٢) •

مجتمع القبيلة السودانى :

من ذلك التطور السكانى الذى تعرضنا له على أرض السودان لاحظنا بوضوح أن القبيلة كانت تشكل ركنا أساسيا فى هذا البناء السكانى

(١) محمد عوض : المرجع السابق • ص ١٩٠ •

(٢) نفس المرجع • ص ١٢٠ وما بعدها •

في القرن التاسع عشر + وقد لا يكون من قبيل الاسراف الفكرى أن نقف أمام هذه الظاهرة التاريخية لنحدد معالمها وسماتها +

وأولى هذه السمات هي وضوح ولاء الفرد الشديد لقبيلته الذي يبلغ درجة القداسة للقبيلة ، وهذا الولاء كان يفرض عليه مجموعة التزامات غير مكتوبة ، بل هي أعراف اتفق أفراد قبيلته في السير على منوالها + فهناك فائدة مؤكدة في انتساب المرء الى قبيلة يجلبها ويفخر بها ، لأن هذا خليف أن يرتفع به عن كل سلوك يشين سمعة القبيلة ويلحق الضرر بها + والغريب ان هذا الولاء القبلى في السودان وان كان يفوق أحياناً الولاء للحكومة فإنه لم يتناقض أو يصطدم معها أو حتى يضر بوحدة البلاد القومية + ولا عجب فقد تركت الإدارة المصرية القبائل السودانية تعيش وفق « سبرها » دون التدخل في كل كبيرة وصغيرة على عكس ما يبدو أحياناً + وفي نفس الوقت استفادت من نظام القبيلة السودانية الذي يحتم الولاء للقبيلة فحاولت كسب القبائل حتى تحول هذا الولاء اليها + ولعل أروع صورة في كسب هذا الولاء ما حدث بالنسبة لقبيلة الشايقية تلك القبيلة الوحيدة التي وقفت في شمالى السودان أمام الحملة التي قادها اسماعيل كامل عام ١٨٢٠ والتي قاتلت بشراسة — فقد استطاع اسماعيل كامل أن يكسب ولاءها بعد ذلك وأصبح رجالها مقاتلين في صفوف الجيش المصرى بعد أن وقفوا في وجهه ، وكانوا بحق من أشد مؤيدى ومعضدى الإدارة المصرية في السودان حتى اندلاع الثورة المهدية كما سبق الإشارة +

ومن السمات الأخرى التي تميز مجتمع القبيلة السودانى وجود زعيم لها أو شيخ ، وهذا الشيخ غالباً ما يكون في مسغبة من العيش ، كامتلاك القطعان الكثيرة من الابل أو الماشية أو الأغنام أو غيرها + وبالإضافة الى ذلك كان لابد أن يتمتع هذا الشيخ برجاحة العقل ، ولذلك فإنه غالباً ما يكون من الطاعنين في السن ، الذين زادتهم الحياة

تجربة • وهذا الشيخ كان يمثل جسر اتصال بين الادارة وبين أفراد القبيلة ، فهو المتحدث باسمها وكلمته مسموعة وطلباته مجابة •

وقد استعانت الادارة المصرية في السودان بنوعين من المشايخ : مشايخ المدن والقرى النهرية كما كان الحال في دنقلة وبربر وحلفاية والروصيرص وفازوغلى وغيرها • وهذا النوع من المشايخ ثبتوا في مناصبهم واحتفظوا بشارات وظائفهم « كالطاقية ذات القرون » والقلنسوة الحريرية وحمالة السيف وما شابه ذلك • وفى مقابل ذلك كان عليهم القيام بواجباتهم الادارية من حيث جباية الضرائب وحل النزاعات الصغيرة •

أما النوع الثانى من المشايخ فهم مشايخ البدو وهو ما نريد أن نركز عليه فمن خلالهم تبدو سمات القبيلة جلية واضحة • وقد أقرتهم الادارة المصرية أيضا على قبائلهم والتي من أهمها الشكرية والحسانية والكبابيش وغيرها (١) • ومن هؤلاء المشايخ الذين ارتفعت مكانتهم لدى رجال الادارة المصرية في السودان الشيخ عبد القادر ود الزين الذى أصبح بمثابة مستشار للحكماء في المسائل الأهلية وخصوصا فيما يتعلق بأمور القبائل ، فكان لرأيه القدر الملقى في هذه الشؤون الأمر الذى أضفى نوعا من الاستقرار الاجتماعى وبخاصة في الأمور الأمنية في الفترة التالية مباشرة لضم السودان • وكان محو بك حكماء السودان يأخذ دائما بآرائه • ولذلك فقد كان حريصا قبل أن يغادر السودان أن يوصى خليفته خورشيد بأن يأخذ بآراء هذا الشيخ • وقد أخذ خورشيد — بالفعل — برأيه وانتخبه رئيسا لمجلس المشايخ الذى عقد في الخرطوم بناءً على أمره (٢) • وظل هذا الرجل يؤدي خدماته للادارة المصرية في ظل أحمد باشا أبو ودان •

(١) Deherain; Le Soudan Egyptien sous Mehemet 'Ali. pp. 151?52.

(٢) دفتر رقم ٧٧٩ صادر ديوان الخديوى — وثيقة رقم ٣٢٣ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٤٨ هـ . انظر أيضا : تاريخ ملوك السودان • تحقيق مكى شبكيه ص ٢٨ •

ومن بين مشايخ القبائل الذين لعبوا دورا كبيرا في السودان الشيخ (ادريس عدلان) في عهد الحكماء خالد باشا * فقد تعهد هذا الرجل وجميع القبائل التي كانت تحت نظارته بتقديم كافة التسهيلات للقائمين على عملية البحث عن الذهب في جهة قماميل وجبل قسان وفازو على وغيرها من الجهات التابعة له والقريبة منه (١) *

كذلك تجدر الإشارة الى مشايخ قبيلة الشكرية (الشيخ أحمد أبو سن) وخلفائه أمثال الشيخ عوض الكريم أبو سن الذي كان شيخا لعموم مشايخ الشكرية في عهد الخديوى اسماعيل * هذا ، وقد كان يحق لشيخ عموم القبيلة أن يعزل أو ينصب من يشاء من شيوخ البدنات في قبيلته كما حدث في عام ١٨٧١ عندما حاول حكماء السودان التدخل في شئون قبيلة الشكرية فأجابه المسئولون بمصر بقولهم « ... ان مشايخ عموم العربان ونظارهم مسئولون عن جميع مصالح قبائلهم وبدناتهم ، ولذا مصرح لهم بالعزل والتنصيب في حق مشايخ الفرق والبدنات بحسب صالح المصلحة ... » (٢) *

وكانت الادارة المصرية تعمل على تكريم هؤلاء المشايخ تشجيعا لهم في أداء مهامهم على أحسن وجه ، ومن أمثلة هذا التكريم الكسارى والسيوف والنياشين المتنوعة * فقد كانت هذه الخلع والنياشين تضى على شيخ القبيلة مكانة سامية بين رجاله وترضى فيه نزعات السيادة والزعامة التي تؤكد مكانته الاجتماعية وسط القبيلة ؛ بالإضافة الى أن

(١) محطة ١٩ بحر برا . سودان ١٩ / ٤٢ من خالد خسرو الى الجناح العالى - دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٩ معية سنية - صورة المكاتب الواردة من حكمادارية السودان الى المعية السنية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ . وثيقة رقم ١٣ ص ٣٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(م ٢٣ - التطور الاقتصادى الاجتماعى)

مثل هذه الانعامات دليل على رضا الحكومة عن خدماته لها (١) .

ومن السمات التي تميز مجتمع القبيلة السودانية وجود (مجلس الأجاويد) الذي كان يتم اختياره من بين كبار السن من رجال القبيلة المعروفين برجاحة العقل . وكانت مهام هذا المجلس تنحصر في المسألة القضائية التي تكون نتيجة للنزاعات التي تنشأ بين أبناء القبيلة . وهذا المجلس كان ينجح كثيرا في أداء مهامه ، كما كانت أحكامه لا تستأنف . وهذه الأحكام غالبا ما تكون عبارة عن دفع أعداد كبيرة من الابل لمن وقع عليه الضرر . وفي أغلب الأحيان كان يتنازل صاحب الحق عن تناول هذه الغرامة . وتستند قرارات هذا المجلس أساسا من الشريعة الإسلامية ومن مجموعة الأعراف السائدة بين أفراد القبائل .

ويلاحظ أن مجتمع القبيلة السودانية — على وجه الخصوص — كان يسوده الوئام والسلام الاجتماعي وان المشاكل التي كانت تحدث ترجع في الغالب الى الاختلاف حول أماكن المرمى . أما المشاكل الأخرى فتكاد تكون غائبة تماما عن هذا المجتمع . ومرد ذلك يكمن في أن المصالح في داخله لم تتشابك كثيرا أو تتعقد . فالأرض رحبة ، والمسكان قليلون وفرصة اللقاء قليلة جدا إلا في مواسم معلومة . فأيقاع الحياة كان بطيئا جدا .

وقد يكون من الضروري أن نعرض لعلاقة الحكومة بهذا المجتمع ومدى ما أصابه من تطور في ظل الإصلاحات التي أدخلتها الإدارة المصرية . ففي عهد محمد علي قامت الحكومة جاهدة بتشجيع الزراعة

(١) دفتر رقم ٢٨٩ صادر ديوان المعاونة الملكية — وثيقة رقم ٢٠٩٥ بتاريخ ٢ ربيع أول سنة ١٢٥٩ هـ . إفادة الى كامل بك . دار الوثائق بالقلعة أنظر أيضا : دفتر رقم ٣٢ عابدين — صادر تليفرافات — صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٥٧٠ بتاريخ ٩ جمادى أول سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٩٤ أنظر أيضا : دفتر رقم ٤٨ عابدين — وارد تليفرافات — صورة التليفراف العربى رقم ١٠ بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٧٧ من غوردون باشا الى سعادة خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

لاستقرار البدو ، واستمرت هذه السياسة في عهد خلفائه كما سبق أن ذكرنا ، وخصوصا في عهد اسماعيل حيث كثرت مشاريع الزراعة وبخاصة زراعة القطن في شرقي السودان الأمر الذي أغرى البدو هناك بالانخراط في سلك الزراعة وتحولهم من بدو رحل الى زراع مستقرين * *

كذلك فان الحكومة قد شجعت على اقامة القرى الصغيرة أو ما يشبه المحطات على الطريق بين كسلا وسواكن وتوطين البدو فيها حتى يثبىع الأمن عبر هذه الطرق التي يمر فيها المسافرين (١) * كما كان رجال الادارة في مصر والسودان يصرون على ضرورة الاستفادة من أراضي السودان الواسعة في احداث عملية استقرار للبدو والرحل وبالتالي حدوث عملية تطور نحو التمدن ، وقدمت في هذا الصدد الكثير من الاقتراحات * ففي ديسمبر عام ١٨٧١ اقترح مدير عموم قبلى السودان تشكيل مديرية قائمة بذاتها يكون مركزها القصارف وتسمى مديرية القصارف ورائسد * وشرح النتائج التي سوف تترتب على ذلك والمتمثلة في زيادة الرقعة الزراعية التي ستؤدى الى جذب الأهالى واستقرارهم * * وتحويلهم من حالة التوحش الى المدنية * * (٢)

ولم تكن هذه السياسة الاصلاحية تقتصر على قبائل شمالي وشرقي السودان بل شملت أيضا قبائل الجنوب التي كانت في حالة شديدة من التأخر * ففي احدى رسائل اسماعيل الى بيكر يوصيه هو ومن معه بأن يكونوا عادلين مع قبائل الباري حتى يطمئنوا اليهم * ويضيف قائلا :

(١) انظر فيما سبق فصل تطور الأوضاع الزراعية .
(٢) دفتر رقم ٥٥٨ - معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ ، بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان .
(٣) دفتر رقم ١٨٥٩ معية سنية - صورة المكاتبه رقم ٢٤ الواردة من مديرية عموم قبلى السودان الى المعية السنية تاريخ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٨ هـ . ص ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« ... ان العمل الخلقى والمادى سوف يستغرق زمنا طويلا لا أعلم مداه .. » كما يوصيهم بمتابعة السير فى هذا الطريق * وأخيرا يلخص وصيته اليهم فى ثلاث كلمات « .. علموا واستعمروا واستجلبوا الأهالى اليكم .. » (١) *

ولقد كانت الحكومة — أحيانا — تتدخل فى بعض النزاعات القبلية فى هذا المجتمع اذا بلغت حدا خطيرا ولم يستطع رجال القبائل أن يتوصلوا الى حل لها ، فكانت تطلب اليهم — حين تفتش أعرافهم فى حسم النزاع — أن يمثلوا لقوانين الحكومة « .. وأن يقسموا على ذلك حسب طريقتهم فى القسم » * وكانت الأوامر تطلب من رجال الادارة فى مثل هذه النزاعات الشديدة أن يظهروا لهم بمظهر القوة ولكنها مع ذلك تطلب منهم أن يعاملوا « ... كلا منهم بحسب حالته ومركزه واعتباره ... وأن يلاطفوا بعضهم ، ويخيفوا الآخرين حتى تسير الأمور حسب المرغوب » (٢) *

ويبدو أن بعض القبائل العربية فى كردفان كانت لا تزال تعيش على عاداتها القديمة التى تتمثل فى النزاع لأوى الأسباب * ففى عهد الخديوى اسماعيل وفى زمن الحكمدار موسى حمدى نشب قتال بين عربان الحمر وبين عربان الكبابيش اشتهرت بحرب « العقال » حيث جمعت القبيلتان رجالها الى ساحة الحرب وقامتا بعقال الابل وثقاتلتا طويلا حتى انتصر الحمر (٣) * كذلك فقد كان النزاع يمتد أحيانا الى نطاق أوسع ليشمل عربان كردفان ودارفور المتجاورين على الحدود ،

(١) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٣٧ .

(٢) محفظة رقم ٥٥٨ معية تركى ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان . ص ١٥ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا — المجلد الثانى . ص ١٠ .

وكان هذا النزاع يوقع المسئولين في حيرة شديدة . وخصوصا قبل ضم دارفور للسودان . ولذلك فقد قيل ان مثل هذه النزاعات القبلية كانت من بين العوامل التي دعت الى ضم دارفور لحوزة الادارة المصرية في السودان (١) .

كذلك فقد دأبت بعض القبائل في شرقي السودان وساحل البحر الأحمر على الاقتتال فيما بينها ، الأمر الذي كان يدعو رجال الادارة للتدخل . ففي نوفمبر عام ١٨٧٥ اجتمع على ظهر الباخرة (محمد على) شيوخ وعقال قبائل (توتيه) و (كبالله) و (براوه) وغيرها وأقسموا على المصحف والسيف أن يظلوا متحدين وألا يهاجم بعضهم بعضا (٢) .

ومن الأمثلة الأخرى التي دعت الادارة المصرية للتدخل ما حدث في عام ١٨٨٠ بين قبائل الحباب والرشايدة . فقد وفد بعض عربان الرشايدة منذ خمسة عشر عاما من هذا التاريخ بعائلاتهم ومواشيهم وأقاموا بأراضي عربان الحباب التابعة لمصر . ونتيجة هذا الجوار احتدم النزاع بينهما ونتج عنه كثير من القتل والجرحى وخسائر في الحيوانات الأمر الذي دعا الحكومة الى دفع ثمانية آلاف وخمسمائة ريال للرشايدة بالاضافة الى دفع أثمان الابل في مقابل ترك أراضي الحباب وتوطينهم في أماكن أخرى متفرقة ، أو عودتهم للحجاز . وأخيرا توجهوا الى سواكن . ولكن يبدو أن الخطر من وجودهم لم يكن قد زال لذلك نلاحظ أن اقتراحات رجال الادارة كانت ترى ضرورة عودة

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية سنية — قسم نان — ارادة غير رسمية الى حاكم دار السودان بتاريخ ٢٣ جمادى أولى سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٨ .
(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ٣١ .

الرشايدة الى الحجاز ولو كان ذلك بالقوة اذا لم يتوقف خطرهم في تلك الجهات (١) *

هكذا كان مجتمع القبيلة السودانية في ذلك الوقت يعيش وفق نظمه الخاصة التي حرص عليها تماما ، وتلك كانت سياسة الادارة المصرية تجاهه ، فلم تتدخل إلا بقدر حين تتأزم الأمور ، ولهذا كله فان معظم القبائل السودانية ظلت محافظة على ولائها للادارة المصرية حتى قيام المهدي وسقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥ *

الوضع الاجتماعي للرقيق السوداني :

قد يكون من الضروري ونحن نعرض لأوضاع المجتمع السوداني أن نتناول شريحة من بنائه قدر لها أن تشغل حيزا كبيرا من الاهتمام ، ولا زالت - في تقديرنا - تتسع لوجهات نظر جديدة * ونعني بهذه الشريحة جماعات الرقيق التي جلبت من جنوب السودان وأطرافه * ولا بد من تحفظ قبل الاسترسال في الحديث * فلسنا بحاجة لتكرار ما سبق ذكره في الجانب الاقتصادي ، بالإضافة الى أننا سوف لا نخرج في معالجتنا لهذه القضية الاجتماعية عن نطاق السودان *

بداية ، لسنا مع من ذهبوا الى وضع الرقيق السوداني في نهاية السلم الاجتماعي للسودان تحت تسمية « العبيد » وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التي دعتنا الى ذلك * ❊

واذا ما انتقلنا مع الرقيق داخل البيت السوداني وخارجه وجب علينا أن نشير الى مبدأ هام كان يحكم العلاقة بين هؤلاء الرقيق وبين مالكيهم وخصوصا المسلمين منهم ، وهو ان الاسلام يدعو الى تحرير

(١) محافظ السودان - مجلس الوزراء - محافظة اعانات قبائل
وعربان * صورة ما تحرر من الداخلية لمحافظة سواحل البحر الأحمر في ٢٠
رجب سنة ١٢٩٧ هـ . نمرة ٣ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(❊) انظر فيما سبق .

رقابهم ومساواتهم مع غيرهم من بنى الاسلام . كذلك نشير الى حقيقة هامة وهى وجود فروق واضحة بين الاستعباد الأمريكى والإسترقاق الشرقى . فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة التى تحط من قدر الانسان . فلم يكونوا يرون فى الرقيق متاعا كثيرا أو شيئا ماديا كما كان الرومان فى القديم ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الآلات « بالأحصنة » ولذلك لا ندهش أن وصف البعض حالة الرقيق فى الشرق الاسلامى بأنه « ... لم يكن إلا تنبيا » ، وأن الرقيق سرعان ما يندرج فى سلك الأسرة التى شرته بمالها (١) .

لقد راح الأوروبيون ينعون على الشرق ، وبلاد السودان خصوصا ، استحوازهم الرقيق ونسوا أن كثيرين منهم عندما ساحوا فى السودان وفى أفريقيا ارتكبوا الكثير من الخزى ، فمنهم من كان يزور أسواق الرقيق لمجرد الاطلاع على شئ سمع به فاذا أعجبته سودانية أو حبشية ابتاعوها بثمن بخس ارضاء لغرائزهم حتى اذا اطفأوا جمره شهواتهم أطلقوا سراحيها بالاعتاق ، وهللوأ أمام العالم أنهم دعاة تحرير الرقيق فى افريقيا ، غافلين عن حقيقة هامة وهى ان تحرير الرقيق فى بلاد لا تستطيع فيها المرأة أن تعيش إلا فى ظل رجل يقوم على شؤونها وإلا فالفقر والفاقة والدعارة هى النهاية الطبيعية لها حتى تكسب قوت يرمها . لم نرد بهذا القول أن نرسم صورة وردية لمعاملة السودانيين والشرقيين بصفة عامة للرقيق ، ولكن كثيرا ما خرج البعض عن هذه القواعد العامة والمثل والاعراف .

لقد كانت الجوارى مرغوبات لدى أهل المسدن أكثر من الرقيق الذكور ، وبخاصة الشيوخ منهم ، ولذلك فقد كان لهؤلاء الشيوخ عائلات كبيرة ، ولا تصبح الزوجية فى عرفهم حرة إلا اذا ولدت من سيدها . إلا أن بعضهن يصبحن حرائر غداة زواجها والسبب فى ذلك عدم توفر

(١) كوت بك : لمحة عامة الى مصر ، الجزء الأول ص ٥٢٦ .

البنات لدى هؤلاء الشيوخ لتتقدمهن « كبدل » للعائلات التى يصهرون اليها ، لأن العرف لديهم فى هذه الحالة يقضى بأن يحمل الأطفال - ثمرة الزواج - أسماء عائلات وقبائل امهاتهم • وما كان السودانى ليرضى ذلك ، الأمر الذى يضطره الى الزواج من الرقيق (١) •

وكان المصريون والأتراك يميلون كثيرا الى بنات « الجالا » الحبشيات ويعاملوهن باحترام قد لا يقل عن احترام الحرائر • وعند شرائهم للرقيق يقومون بختانه واختيار اسم جديد له (٢) •

ويرتدى الرقيق فى بيت سيده قطعة صغيرة من قماش القطن يغطى بها وسطه حتى ركبتيه اذا كان فى العمل ، إما اذا كان خاليا أو كان الحظس يميل الى البرودة فيغطى جسمه بأكمله • وكان شديد الولع بتزوين رقبته بالتمائم • كما كانت الجوارى تتحلى بأساور كثيرة • ولزوجة الرقيق تأثير عليه ، الأمر الذى يجعله فى أغلب الأحيان يرضى بزوجة واحدة • ولذلك فكثيرا ما نلاحظ أن جنود الحكومة من الرقيق يصلحون زوجاتهم أثناء التحرك خارج الخرطوم وتقام لهن أكواخ خلف معسكرات الجند • وقد جرت العادة أن يعامل السيد رقيقه بالرحمة مما يحمل الرقيق دائما الى حبه أكثر من موطنه الأول ، ونادرا ما كان يسيء المصريون أو الأتراك معاملة رقيقهم بعكس الأوروبيين الذين يقسون عليهم مما دعا الحكومة الى إصدار قانون يمنع أى أجنبى من ضرب رقيقة ، فإذا عصا سيده أرسله إلى القاضى حتى يتولى تقويمه (٣) • وغالبا ما كان السيد هو الذى يقضى بين رقيقه فى منزله فإذا حدث أن قتل أحدهم زميله فى منزل واحد فيمكن لسيده أن يعاقبه أو يبيعه • أما اذا كان القتل ملكا لسيد آخر جاز تعويضه أو رفع الأمر للقضاء

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٣ .

(٢) Cailliaud; Op. Cit. Tome III, p. 117.

(٣) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٥ .

على أساس أنها « قضية تبديد » • ولكن في حالة قتل السيد تنتظر على أساس أنها « قضية قتل » (١) •

ومن الأمور التي كانت تقلق السادة هروب العبيد من بيوتهم ولذلك كان الرقيق من الاناث يتمتع بقدر كبير من الحرية عن الذكور ، بل كان الاقبال كثيرا أيضا على شراء الأطفال لقلّة فرصة هروبهم • وكانت الحكومة تستمع لهؤلاء الرقيق اذا ما أبدوا شكاوى تجاه مالكيهم • واذا ثبت معاملتهم معاملة سيئة ووقوع ضرر عليهم كانت الحكومة تجازى أصحاب الرقيق باعتاقه مجانا وتسليمه أوامر عتقه من المديرية • وليس معنى ذلك أن يطلب هؤلاء الرقيق ذلك دون وقوع ضرر ، ففي مثل هذه الأحوال تلقى عليهم النصائح ويعادوا الى أصحابهم (٢) •

ويلقى البعض باللائمة على نظام استخدام الرقيق في البيوت باعتبار أن ذلك مناقض تماما للتحفظ الشديد الذي يسود المنازل والذي تقتضيه العلاقة الأسرية في الشرق (٣) • ولا نعتقد ان في ذلك تناقضا ، فالرقيق لا يختلطون عن قرب بالنساء خصوصا اذا علمنا أن منازل السودانيين متسعة جدا وتتوفر فيها أماكن لإقامتهم مع زوجاتهم • وقد يصدق هذا القول على سكان المدن المزدحمة ، وان لم تكن المدن السودانية — آنذاك — تشكو من أي زحام • ومع ذلك كله فقد جرت — أحيانا — عمليات « تطويع » للرقيق حتى يمكنهم الاختلاط وان لم تنتشر هذه العادة في السودان بشكل واسع •

Pallme; Op. Cit. p. 114.

(١)

(٢) دفتر رقم ١٦ صادر تليفرافات — صورة التليفراف العربى رقم ٤٢ بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٩٠ هـ من خبرى باشا الى مديرى السودان • دار الوثائق بالقلعة ، أنظر أيضا دفتر رقم ٤٦ عابدين — وارد تليفرافات — صورة التليفراف العربى الشفرة رقم ٢٤٨ ص ٦٢ • ورد بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) الأرشييف الأمريكى : محفوظة ١٩ :

ولم يقتصر عمل الرقيق السودانى على الخدمة البيتية ، بل كانوا يكلفون بالأعمال الزراعية ، والانخراط فى سلك الجهادية (١) .

وعموما فقد كان الرقيق السودانى يلقى معاملة طيبة فى كافة الجوانب التى عمل بها ، حتى ليكننا القول — دون تردد — بأن الفرد منهم كاد أن يصبح واحدا من أفراد البيت إذ كان يستمتع بحقوق كثيرة . فكانت تخصص له — أحيانا — قطعة أرض يقوم بزراعتها واستغلالها لحسابه الخاص . وكان يمنح يوما كل أسبوع لمزاولة أموره الخاصة دون فرض رقابة مشددة عليه (٢) .

هكذا تغلغل الرق فى المجتمع السودانى وأصبح ركنا أساسيا من أركانه وألف الناس آنذاك العلاقات الاجتماعية التى سادت بين الرقيق وأسيادهم كما ألفها الطرفان وزادها الزمن رسوخا بحيث أصبح من الصعب بل من الخطورة أن تجتث مثل هذه العلاقات بقرارات رسمية أو مقاومة منظمة وأحيانا مسلحة . فقد كان من العسير على بيكر وغردون وغيرهما من المسؤولين فى عهد الخديوى اسماعيل أن يعيدوا بناء المجتمع السودانى باصدار لوائح وقرارات سريعة اصطدمت بشدة بهذا البناء الراسخ منذ مئات السنين ، وراحت تدمره كريح صرصر عاتية تهلك الزرع والنسل . . إنها الثورة المهدية .

الأجانب :

قد يكون من المفيد بعد أن تحدثنا عن الجماعات السكانية بأشكالها ونظمها الاجتماعية المتنوعة أن نشير الى مجموعة أخرى سكنت السودان

(١) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ١١٤٩ بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى أحمد باشا المنكلى وأنظر أيضا دفتر (بدون رقم) حـ ٢٣ وثيقة بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ . افادة الى حاكم السودان — دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الشاطر بصلى : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط

لفترة طارئة فصرت أو طالت ونعنى بها الأجانب ، وهنا أيضا لابد أن نتحفظ القول حول فئتين من السكان لا يمكن أن ندرجهما تحت بند الأجانب ، الفئة الأولى تضم الأتراك الذين لم يكونوا في القرن التاسع عشر في عداد الأجانب سواء في مصر أو السودان + فالعلاقة بين مصر والدولة العثمانية معروفة تماما وخصوصا نظمها التي لم تكن تفرق سكان البلدين بل تعتبر كلاهما مجموعة واحدة تخضع للسلطان العثماني . أما ادراجهم في عداد الأجانب في السودان التي كانت تابعة للإدارة المصرية في ذلك الوقت — كما يذهب أحد الدارسين — (١) فهو لون من الخطأ التاريخي . حقيقة ان السودانيين كانوا يعدونهم « مجازا » من الغرباء رغم أنهم مسلمون مثلهم ، وربما يرجع ذلك الى أن أغلب الحكام في الوظائف العليا كانوا يتحدثون اللغة التركية ومن ذوى اصول تركية ، إلا أن ذلك لا يعد مبررا لادراجهم ضمن الأجانب .

ويبدو أن كلمة « تركى » في السودان قد تناولتها الألسنة والأقلام — وخاصة في السودان — بشكل غير دقيق . فعند الأهالي كل من كان يتولى وظيفة عليا وله بشرة بيضاء ويرتدى الطربوش الأحمر ويتحدث التركية ويراعى الآداب العثمانية فهو تركى ، بل اتسع مدلول هذا اللفظ عند السودانيين ليشمل الموظفين المصريين والسوريين وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية وبدأ تعميمها على كل مسلم أبيض تركيا كان أم مصرية أو من أية جنسية أخرى ، حتى وصل الأمر مداه بوصف فترة الإدارة المصرية في السودان « بالتركية » .

أما الفئة الثانية التي لا نعتبرها من الأجانب هي فئة « القبط » المصريين أو ما أسماهم السودانيون بالنصارى فقد كانوا يطلقون كلمة (النصارى) على كل من يدين بالمسيحية ، ولما كان الأوروبيون الأجانب مسيحيين فقد جمعوا الطرفين معا تحت كلمة النصارى . ولهذا كله بدأت بهذا التحفظ وأنا أتحدث عن الأجانب .

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٦ .

أما الأجانب بالمعنى الدقيق — لذلك العصر — فقد كانوا يتمثلون في،
التجار الأوروبيين والرحالة والمكتشفين ورجال البعثات السياسية
والدينية ، وأخيرا في بعض الحكام في عهد الخديوى اسماعيل ، وهؤلاء
الأوروبيون من جنسيات متعددة ، أكثرهم من اليونانيين ثم الايطاليين
فالفرنسيين فالنمساويين فالألمان وأخيرا الانجليز (١) *

وقد ازداد عدد الأوروبيين بعد سنة ١٨٥٢ حين تم فتح النيل
الأبيض للتجارة الحرة حيث صدرت لائحة يناير في هذا العام والتي
تقضى بما يلى :

١ — معاملة التجار الأوروبيين في السودان بمقتضى الامتيازات
الأجنبية والمعاهدة التجارية التى عقدت مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ *

٢ — بناءً على التصريح الممنوح للتجار الأوروبيين باحضار وبيع
بضائعهم للدولة العثمانية وشراء محاصيل الدولة العثمانية ومنتجاتها
الصناعية وبيعها في داخل البلاد واخراجها ، فيجب ألا يمنعوا من التجارة
بتلك الكيفية ، وألا تؤخذ منهم فوائد أكثر من الذى تقرر في المعاهدة *

٣ — منع أى ظلم أو تعد على التجار الأجانب وعدم تعطيل الحكام
لأشغال هؤلاء التجار *

٤ — عدم إرغام الحكام للتجار الأجانب على أخذ رخصة بنقل
أموالهم وبضائعهم ، لأن معاهدة ١٨٣٨ ألغت ذلك *

٥ — عدم إحتكار النقل وإرغام الحكام للتجار الأوروبيين على دفع
أجرة تزيد عما اتفقوا عليه مع أصحاب المراكب والجمال وغيرها * وعدم
تعرض الحكام لوسائل النقل التى استأجرها هؤلاء التجار *

Jomard; Etude Geographique et Hist. pp. 486 - 502. (١)

انظر أيضا : أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ، ص ١٨٧ — ١٨٨ *

٦ - تؤخذ الفوائد الجمركية على بضائع التجار الأوروبيين في جمرک أسوان فقط *

٧ - عدم تكليف التجار الأجانب الذين يتوجهون للنيل الأبيض بالمرآكب على أخذ حراس لهم من الحكومة * وإذا طلب أحدهم حرسا يعطى له شريطة دفع مصاريف الجنود والمهمات * وإذا توجه بدون حرس وحدث له ضرر فليست الحكومة مسئولة عنه *

٨ - منع حكمدار السودان من احتكار المحصولات وإياحة الاحتكار وتحديد الأسعار وعدم وضع قوانين تخل بأعمال التجار وتلزمهم البيع جبرا *

٩ - يجب على حكمدار السودان حين الفصل في المنازعات بين الأجانب والأهالى أو بين الأجانب والحكام مراعاة العقود والمعاهدة التجارية المعقودة عام ١٨٣٨ م *

١٠ - حكمدار السودان وحكامه ممنوعون من جلب سن الفيل ومن التجارة فيه وفي الأصناف الأخرى (١) *

من ذلك يتبين لنا مدى الامتيازات التى اعطيت لهم من قبل المسؤولين ، فراحوا - كتجار - يشكلون قوة ضغط رهيبية على السودان يستغلون ثراوتها - كما سبق أن بينا فى فصل التجارة - الأمر الذى أضفى عليهم مكانة اجتماعية رفيعة بين أفراد المجتمع السودانى *

والى جانب عملهم بالتجارة اشتهر الأوروبيون عامة بالعمل كأطباء حكوميين وفى مقدمتهم الايطاليون * فقد كان على عهد خورشيد باشا طبيب وصيدلى منهم ، كما أننا نلاحظ الدكتور فرن (J. werne)

(١) أحمد أحمد الحقة : الأجانب فى مصر والسودان ١٨٤٩ - ١٨٦٢
دس ١٨٦ *

مديرا للقسم الطبى بالسودان وجراح المستشفى العسكرى بالخرطوم *
ومن الأطباء الفرنسيين دكتور برون (Perron) العالم والباحث الذى
ترجم رحلة التونسى فى دارفور الى الفرنسية * وفى عام ١٨٧٩ نشهد
طبيبا سويسريا كمدير للقسم الطبى فى السودان *

وقد عمل الأوروبيون فى مجالات أخرى ، فمنهم المهندس دارنو
D'arnaud وشيلوبك Chelu Bey الفرنسيين وسبادا الايطالى الذى عمل
مديرا للترسانة ، ولبروزو Lamproso الذى كان مديرا للبريد (١) *

ومن الأمور الجلية فى عهد الخديوى اسماعيل مسألة توظيف
الأجانب فى السودان وعلى وجه الخصوص فى جنوبه أمثال صمويل بيكر
وغوردون الانجليزيين والدكتور « شنيتزر » (أمين باشا) ، وجسى
Gessi وغيرهم *

ويعزو البعض ظاهرة توظيف الأوروبيين فى السودان بوجه خاص
ومصر عامة الى أكثر من سبب ، منها أولا : ايمان اسماعيل الشديد
بالحضارة الأوروبية ورغبته فى جعل بلاده قطعة من أوربا * وفى هذا
لم يأت اسماعيل بجديد فقد سبقه فى ذلك جده محمد على ، إلا أن
النتيجة اختلفت بالنسبة للرجلين ، فمحمد على استطاع أن يتحكم دائما
فى هؤلاء ويجعلهم أدوات لتنفيذ سياسته فى بناء مصر الحديثة ، بينما
حدث العكس بالنسبة لاسماعيل فتحكموا هم فيه وتحولوا الى أدوات
 لتنفيذ سياسة بلادهم ، والسبب الثانى يعود الى أن اسماعيل أراد أن
يكسب الثقة الأوروبية لحاجته للقروض ولدفع التهمة التى ألصقتها به
الغرب من أنه وراء انتشار تجارة الرقيق * وقد أفرز هذا التوظيف نتائج
عكسية فبدلا من قيام هؤلاء الموظفين بالدور الذى كلفوا به راحوا
يشنون حملة تشهير عنيفة ضد تجارة الرقيق فى المناطق التى حكموها ،
ثم بدأوا يدخلون فى نزاعات عقيمة مع حكام السودان * وأخيرا فإن

(١) أحمد أحمد سبد : المرجع السابق ص ١٩١ .

هؤلاء الموظفين غلبوا المصالح الأوربية على مصالح الحكومة وكانوا مخلصين
قط لنهش الوجود المصرى فى تلك الأصقاع لصالح دولهم ولصالح بعض
الشركات الاستعمارية (١) .

ومن العناصر الأجنبية التى أقامت فى السودان ، رجال البعثة
الكاثوليكية ففى عام ١٨٤٨ وصلت الى الخرطوم البعثة الكاثوليكية
الأولى ، وكانت الخرطوم القاعدة التى يخرج منها رجال هذه البعثة
لتحقيق أهدافهم . وفى عام ١٨٥٥ استطاعت هذه البعثة أن تبنى لها
محطة فى جنوب السودان بين شامبى وبور . وقد بلغ أفراد هذه البعثة
ثلاثين فردا منذ مجيئها . ويبدو ان هذا العدد ظل على هذا النحو
نتيجة للخسائر التى منوا بها فى الأرواح ، فلم تأت منهم أعداد كثيرة
إلا لتعويض النقص فقط . وقد عادت البعثة الى بلادها عام ١٨٦١ بسبب
تلك الخسائر أو عدم الوصول الى تحقيق أهداف تتناسب والجهود
المبذولة . وفى عام ١٨٧٢ عادت الى الخرطوم برئاسة الأب (كومبونى)
Componi, D. وقامت بافتتاح محطات لها فى بربر والأبيض والدلنج
بجبال النوبا . واستمرت مزدهرة حتى عام ١٨٧٨ حين خسرت حوالى
سبعة عشر فردا من جراء الملاريا فأقفلت محطاتها فى بربر . ولما وصل
خبر هزيمة هكس فى ديسمبر عام ١٨٨٣ — انسحبت البعثة الى القاهرة .

ومن العناصر الأجنبية التى نشير اليها فى السودان الرحالة
والمكتشفون ، فقد كانت رحلاتهم فى الغالب تبدأ وتنتهى بالخرطوم
ومكث أكثرهم سنوات طويلة بالسودان وانغمسوا فى مجتمعاتها ، ومن
أشهرهم برون روليت — وهجلين وبترك ، وشوينفرت ويونكر وكازاتى ،
وسبيك وجرائت وصمويل بيكر وغردون وغيرهم . وقد لعبت الإدارة
المصرية فى السودان دورا كبيرا فى تسهيل رحلاتهم من حيث منحهم

(١) يونان لبيب رزق : تفكك الامبراطورية المصرية فى أفريقيا . دراسة
كتاب : العلاقات العربية الافريقية . دراسة تاريخية للآثار السلبية
للاستعمار . ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

تذاكر المرور التى تطلب من رجال الادارة لمساعدتهم طوال الرحلة *
وقد شاركت هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى عهد الخديوى اسماعيل
بالانستراك مع هؤلاء الأجانب بدور كبير فى اكتشاف الطرق والأماكن
المجهولة من السودان وافريقيا (١) *

ومع تعاظم أعداد الأوربيين فى السودان ، كان لابد من رعاية
مصالحهم ولذلك بدأت دولهم تبعث بممثلين سياسيين لها حماية لهؤلاء
الرعايا ، وبخاصة التجار منهم ، ولذلك لا نعجب أن أصبح بتريك التاجر
الانجليزى المشهور ممثلا سياسيا لبلاده فى السودان * وكان الممثل
السياسى فى الخرطوم بدرجة نائب قنصل ، إذ كان القنصل يقيم
بمصر ، ونلاحظ أن بعض نواب القناصل لم تكن لهم صلة قـربى بالدولة
التي يمثلونها إذ لم يكونوا أصلا منها ولا يتحدثون حتى لغتها ، ولذلك
لا نعجب أيضا اذا وجدنا بعض نواب القناصل كانوا ممثلين لأكثر من
دولة فى السودان *

وكانت القنصلية الفرنسية هي أول قنصلية أجنبية افتتحت فى
الخرطوم عام ١٨٣٠ * وكان التاجر الفرنسى (ثيبو) هو أول ممثل لها
حتى عام ١٨٦٩ * وأما القنصلية البريطانية فقد تأخر افتتاحها حتى
عام ١٨٤٩ * وربما يعود هذا التأخير الى العقلية الانجليزية العملية ،
فلم يكن آنذاك إلا انجليزيا واحدا هو بتريك الذى كان يعمل تاجرا ،
بالإضافة الى أن مصالح بريطانيا التجارية لم تكن تستدعى قيام تمثيل
سياسى لها إذ كانت هذه المصالح تسير فى سهولة ويسر * ومعروف أيضا
أن محمد على كان يحتكر بعض المنتجات السودانية ومنها العاج ، ولما
تحررت هذه التجارة رأت بريطانيا أن تستفيد منها ، فكان لابد
بالتالى من ممثل يرعى هذه المصالح المتزايدة والتي امتدت الى الاهتمام
بمعرفة أحوال السكان من جميع النواحي من حيث عددهم وأماكن

(١) انظر حول ذلك : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى عهد
الخديوى اسماعيل . ص ١٦٨ وما بعدها .

اقامتهم وخصوصا التجمعات القبلية (١) * وأول نائب قنصل لبريطانيا هو بلودن (Plowden, W) وخلفه جون بتريك عام ١٨٥٩ الذى استمر حتى عام ١٨٦٤ حين أغلقت القنصلية بسبب الشبهات التى حامت حول نائب القنصل ومدى مشاركته فى تجارة الرقيق ولم تفتح مرة أخرى إلا فى سنة ١٨٨٢ حين احتلت مصر (٢) *

أما القنصلية النمساوية فقد افتتحت عام ١٨٥١ حيث عين دكتور « رتسز » Reitz ممثلا لها * وافتتحت القنصلية الألمانية عام ١٨٦٥ * كما كان لسردينا نائب قنصل يسمى فودى Voudy اشتهر بتجارة الرقيق ولقى حتفه على يد جماعة البارى عام ١٨٥٤ * وخلفه التاجر المشهور (برون روليت) عام ١٨٥٥ * وأما الولايات المتحدة الأمريكية فكان لها ممثل سياسى منذ حوالى عام ١٨٦٠ وهو تاجر قبطى * كما كان لايران ممثل منذ أواخر سنة ١٨٦٢ (٣) *

وبعد استعراضنا للفئات والعناصر الأجنبية فى السودان قد يكون من اللازم أن نعرض لأحوالهم الاجتماعية * وبداية نلفت النظر الى أن معظمهم كان من المغامرين والمفلسين والمجرمين الذين جاءوا ليجربوا حظهم فى جمع الثروة * ولم يكونوا يملكون شيئا الأمر الذى أدى الى انغماسهم فى الرزائل كتجارة الرقيق مثلا وغيرها * وبالرغم من أن معظم هذه النوعية من المهاجرين قد باعت زرائبها واختفت من مجتمع الخرطوم حوالى عام ١٨٦٠ فان الأوروبيين فى السودان وبخاصة الخرطوم كانوا لا يزالون يضمون بينهم جماعات سيئة السمعة تكثر من تسرى الجوارى * ويفسر البعض ذلك بقلّة النساء الأوربيات بينهم ، وحتى أولئك الذين تزوجوا زواجا شرعيا من الجوارى لم يستطيعوا إذابة

F. O. 78 - 841, No. 20 6, 1850.

(١)

(٢) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق . ص ٢٠٣ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٠٣ وما بعدها .

(م ٢٤ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

التفاوت الاجتماعي الكبير بينهم وبين نساءهم الأمر الذي نتج عنه
مفارقات صارخة (١) •

وقد استغل هؤلاء الأوروبيون ما كان يسود المجتمع السوداني في
حق المالك فيما يملك من رقيق فأفرطوا في التسري لدرجة ان الواحد منهم
كان يتقلب بين أربعين جارية وله من بعضهن أطفال يعجز عن اعالتهم
والطامة الكبرى كانت تحدث حين يغادر هذا الرجل الأوربي السودان
الى بلاده تاركا الأم مع أطفالها فتضطر الى بيع جسدها مشبعة الفاحشة
في المجتمع (٢) •

وكان الأوروبيون يجمعون المال بثمن الطرق مستغلين وظائفهم في
ذلك • فقد ثبت أن الطبيب الايطالى مدير الخدمة الطبية في السودان
كان وراء تدبير كثير من حالات التسمم الأمر الذى أدى الى أن يقوم
الحكمдар أحمد باشا أبو ودان الى فصله من وظيفته (٣) وكان كثيرهم
يثير الشبهات في الغرض الذى أتى من أجله الى السودان ، فالتجارة
كانت الواجهة التى تواروا من خلفها ، أما الذى مارسوه فكان « كل
شئ » كما ذهب احدى الوثائق المعاصرة (٤) • فكان أكثرهم لا يعمل
فيما تخصص فيه ففرد ريك فرن الذى عمل مهندسا على عهد أحمد باشا

Legan, G; Voyaeg aux Deux Niles (Nubia-Kordofan Soudan (١)
Oriental execute de 1860 - 1864, pp. 28-29

• وانظر أيضا : أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٠٦ •

Werne, F.; African Wanderings or an expedition from (٣)
Sennar to Taka, Basa, Beni Amer, with particular glauce at races of
Bellad Sudan. tr. by J.R. Johnston. p. 113.

انظر أيضا : أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ •
(٤) محفظة ١٩ بحر برا • ملف رقم ١٢ — دار الوثائق بالقلعة •

أبو ودان لم يكن إلا محاميا ، وكان يردد أن على الأوربي في الخرطوم أن يعرف كل شيء ليعمل أى شيء ، ومنهم من كان واسع الحيلة ، فأمين باشا الألماني ومدير خط الاستواء اخبر « جيجلر » وكيل الحكماء في عام ١٨٧٩ عند قدومه الى الخرطوم انه تركى وكان يداوم على حضور صلاة الجمعة ، بل بلغت الحيلة بالأوربيين انهم كانوا يغشون التجار ببيع جواريههم من النساء على اعتبار انهن عذارى — بعد تحويلهن صناعيا الى هذا الوضع — لأخذ الفرق بين سعر العذراء والمرأة (١) .

كذلك فقد كانوا لا يتورعون عن اثاره الفتن بين السكان . فقد حدث في عام ١٨٦٨ ان وردت رسالة عن وجود تاجر بمصوغ مرسل من قبل الانجليز لحث السكان على الانضواء تحت تبعية انجلترا المجاورة لهم في عدن ورفع العلم الانجليزى بدلا من علم السلطان (٢) .

وعلى الرغم من تلك الأعمال المشينة التى كان يقترفها الأوربيون في السودان كانت الادارة المصرية هناك تعمل جاهدة على أن يسود العدل بين جميع طوائف السكان — ومن بينهم الأجانب — فقد حدث أن رفع أحد رعايا فرنسا قضية ضد الحكومة وصدر حكم المحكمة لصالح هذا الرجل فوافقت المالية بمصر على أن تدفع الحكمادارية استحقاقاته فورا حتى قبل إتاحة الفرصة للاستئناف (٣) .

وقد بلغ الأجانب شأننا عظيما في عهد الخديوى اسماعيل حيث

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) محافظ أبحاث السودان . وثيقة عن بيان الحوادث التى وقعت في شهر محرم سنة ١٢٨٥ هـ وتوجد بالمحفظة رقم ١٧ ص ٧٩٢ .
دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفنر رقم ٥٢ عابدين — وارد تليغرافات — تليغراف رقم ٤٧٨ بتاريخ ١٨ جماد أول سنة ١٢٩٦ هـ (١٩ مايو ١٨٧٩) من حكام السودان والسواحل بداره الى المعية السنية بمصر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

تسلطوا على أعنى الوظائف الادارية بالسودان المتمثلة فى وظائف مديرى المديرىات والمكمدارية ولعل غردون وغيره ، ليقيم الدليل على صدق هذا القول . فقد أدى هذا التسلط الى اثاره المشاكل الاجتماعيه بين السكان السودانين حيث عم السخط بينهم تجاه هؤلاء الأجانب + وقد لا نبالغ ان قلنا ان هذا التخلخل الأجنبى كان من بين العوامل التى حركت الثوره المؤديه .

الفصل السادس

العادات والتقاليد

- المسكن
- عادات متعلقة بحياة الأسرة :
 - (أ) عادات الميلاد
 - (ب) عادات الختان
 - (ج) عادات الصبا والمراهقة والشباب
 - (د) عادات الزواج
 - (هـ) عادات الطلاق
 - (و) مركز المرأة
 - (ز) عادات وتقاليد أئشاء الوفاة
- عادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية •
- عادات متصلة بالخرافات والسحر •
- الأزياء السودانية •
- عادات الدلّة والشلوخ •

كان من الطبيعي بعد أن عرضنا للجماعات السكانية والقبلية التي التي شكلت المجتمع السوداني ، أن نعرض لعاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نرسم صورة حقيقية أو قريبة منها ، للأوضاع الاجتماعية التي كان يحياها أبناء المجتمع السوداني في القرن التاسع عشر ، فالحديث عن هذه العادات والتقاليد هو اقتراب من قلب هذا المجتمع في محاولة لسماع نبضاته وتطوراتها عبر سنى هذا القرن وحتى عام ١٨٨١ •

وقبيل الخوض في هذا الموضوع نود أن نشير الى أننا بصدد عادات وتقاليد متباينة من منطقة الى أخرى ومن جماعة الى جماعة • وبمعنى آخر فعادات الزواج في شمالي السودان — على سبيل المثال — جد متباينة عن مثيلتها في الجنوب ، وكذلك الحال في شرقه وغربه • ذلك لأن السودان كما سبق أن أشرنا يعد أنموذجا مصغرا لقارة أفريقيا من حيث التنوع الشديد للمجموعات السكانية التي تعيش في جنباته ، الأمر الذي كان طبيعيا أن تتنوع معه عادات أهل البلاد وتقاليدهم اللهم إلا ما كان يستمد خيوطه الرئيسية من الدين الاسلامي ، والعوامل الطبيعية التي تشترك فيها قطاعات كبيرة من سكان البلاد •

ولسوف تكون مسيرتنا داخل المجتمع من خلال عاداته وتقاليده بدءاً بالمكان الذي يقطنه الفرد ومرورا بمولده ثم نشأته وزواجه وألوان التسلية التي يمارسها ومعتقداته وانتهاءً بوفاته •

١ — المسكن:

هناك سمة عامة مشتركة لمنزل الفرد السوداني سواء كان في البادية أم في الريف أو الحضر وهي البساطة الشديدة والاتساق مع البيئة • وإذا ما تناولنا نمط البيت البجاوي فيمكن أن نقول بأن حياة البدوة التي عاشها الرجل البجاوي اقتضت أن يكون هذا البيت أو المسكن خفيفا بحيث يسهل نقله وبناءؤه في زمن قصير • ويعتبر البيت « البديجاوي » Bidjau أو البرش المصنوع من الحصير هو السائد بين هذه

الجماعات (١) * وانشاء أو اقامة هذا المسكن وتقويضه يقع على كاهل المرأة فقط إذ يعد من غير اللائق أن يقوم الرجل به إلا اذا كان المسكن لرجل مريض أو ضيف حيث تقتضى العادة أن تحتجب المرأة عن الظهور . ويتألف هذا المسكن فى مجمله من الحصير أما السقف المصنوع من هذه المادة أيضا فيتألف من طبقة واحدة أو طبقتين : طبقة داخلية من الحصير الغليظ والسميك * ويحمل هذا المسكن أعواد منحنية فى الطرفين ، ولهذا المسكن فتحة أو باب يقع غالبا فى الجانب الشرقى * وقد تغطى جوانب المنزل بأكسية من الصوف الذى يؤخذ من الغنم أو من الشعر الذى توفره قطعان الماعز * ويتميز الأثاث الداخلى لمسكن الرجل البجاوى بالبساطة الشديدة ، فالفرش قوامه الحصير الدقيق ومن تحته الحصير الغليظ * ويحوى هذا المنزل أدوات القهوة ، وبعض القدور والأوعية المصنوعة من الجلد أو الخوص أو القرع لحفظ الماء واللبن (٢) *

وإذا ما تركنا مواطن البجة الى منطقة النقاء النيلين الأبيض والأزرق فسوف نشهد نشاطا فى بناء المساكن * فقد كانت هذه المباني وخاصة التى كان يقطنها سكان الموضع الذى انشئت به الخرطوم عبارة عن « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (٣) ، فأمر خورشيد بازالتها وامداد الأهالى بالألواح والأخشاب *

وقد وصلت اعداد المنازل فى الخرطوم عام ١٨٥٠ الى نحو الى ثلاثة آلاف بيت ، وكان يمكن الحصول من أسواق هذه المدينة على كثير من الكماليات الأوروبية (٤) *

ويبدو أن بناء المساكن فى سائر أنحاء السودان لم يكن يخضع

Clark, W.T.: Manners, Customs and beliefs of the Northern (١) Bega, Vol. XXI, part I, 1938, p. 6.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله . ص ٤١ .
(٣) مخطوطه كاتب الشونة — تحقيق د . مكى شبكية . ص ٢٨ — ٢٩ .
(٤) الان مورهد : النيل الأزرق . ص ٢٥٦ .

لشروط معينة حتى عام ١٨٦٧ ، حيث نقرأ في احدى الوثائق أن أى موقع يختار لبناء المساكن بعد هذا التاريخ ينبغي أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

- ١ — أن يكون معتدل المناخ *
- ٢ — أن تتوفر فيه المياه *
- ٣ — أن يكون موافقا للاستحكامات والقواعد الحربية (١) *

كذلك صدرت الأوامر في نفس العام فيما يتعلق بمباني مدينة الخرطوم حيث جرى تجديد مبانيها ، والحكومية منها على وجه الخصوص . وأما فيما يتعلق بمساكن الأهالي فقد طلب أن « تنشأ بطريقة تتفق وقواعد الصحة وفن الهندسة » (٢) *

وفي جهات ساحل البحر الأحمر السودانى بسواكن ومصوع جرت محاولة لإنشاء مساكن على طراز حديث حين صدرت الأوامر في عام ١٨٦٧ صريحة ومحدرة للمسؤولين هناك بالألا يأخذوا « أى ربح على ثمن الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب ... » بل يعطوه « ... للأهالي بثمانى الأساسى ترغيبا للناس فى البناء وتسهيلا لهم » (٣) وربما ندرك قيمة مثل هذه التسهيلات اذا علمنا أن المواد اللازمة للبناء كالحجارة والجير لم تكن متوفرة بمصوع ، بل كانت الحكومة تقوم بجلبها للأهالي (٤) * ويتبين من ذلك تماما ان المساكن التى كانت مقامة سواء فى الخرطوم أو فى سواكن ومصوع قبل عام ١٨٦٧ كانت متواضعة وغير

(١) دفتر رقم ٥٥٨ قسم نانئ ، ص ٢٩ نمرة ١٠ — ترجمة الارادة الصادرة الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ . ص ١٩ ترجمة الارادة رقم ٩ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ ، نفس الوثيقة السابقة .

(٤) محفظة رقم ٣٨ معبة تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

صحية . كما يبدو أيضا أن الاهتمام لم يكن قاصرا على المباني الحكومية بل إمتد ليشمل مساكن الأهالى فى نفس الوقت ، حيث بدأ ممتاز باشا منذ عام ١٨٦٩ بتشييد مساكن للأهالى فى سواكن ، بالإضافة الى اصلاح البعض الآخر (١) .

وفى مدينة هرر كانت البيوت تبنى من الحجارة الصخرية المستخرجة من الجبال المجاورة لهذه المدينة ، وكانت تسقف بالخشب والبوص على نسق البيوت المصرية آنذاك ، إلا أنها كانت خلوا من النوافذ وكان بعض المسئولين المصريين يلومونهم على ذلك ، إلا أنهم اكتشفوا أن الأهالى مصيبون فى هذه الناحية نظرا لانخفاض درجة الحرارة عندهم الأمر الذى لا تصبح فيه ضرورة قصوى لعمل مثل تلك النوافذ . وقد وردت احصائية فى عام ١٨٧٧ لعدد المنازل المقامة بهرر فبلغت تسعة آلاف وخمسمائة وستين منزلا ، وكانت المدينة مقسمة الى شوارع وحارات ، إلا أن هذه الحارات كانت غير منظمة ، وربما يعود ذلك الى أن أراضيها — هى الأخرى — كانت غير مستوية (٢) .

وإذا اتجهنا نحو غربى السودان وخاصة فى جبال النوبا حيث نطالع تقرير أحمد أفندى حمدى الذى جاء فيه وصف لمساكن الأهالى هناك والتي كانت عبارة عن « •• تكولات مصنوعة بشكل الخيام من القش ••• مستديرة الشكل •• » (٣) ويبدو من هذا الوصف انها كانت بسيطة جدا فى شكلها العام تتناسب وظروف سكانها الذين يعتمدون بشكل رئيسى على الزراعة ، لذا غاننا نلاحظ أن كثيرا من تلك المساكن بجوار المزارع .

Bloss, J.F.; The History of Suakin. S.N.R. vol. XX, 1937, Part (١)
II, P. 246.

(٢) جريدة أركان حرب — السنة الثالثة ، العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٩١ ، ٣٩٤ .
(٣) جريدة أركان حرب — العدد رقم ٨ بتاريخ غرة جمادى أول سنة ١٢٩٥ هـ . ص ٥٨١ .

وفي جنوب السودان وخاصة عند الدينكا تطلعوننا « الوقائع المصرية » عام ١٨٧٦ م بوصف مسهب لمساكنهم التي كانت عبارة عن حجرات متفرقة بين المزارع ، غير مجتمعة في مكان واحد * ومن الغريب أن أوسع الحجرات عندهم وأفضلها كانت للحيوانات حيث كانوا يؤثرون دوابهم على أنفسهم * وكانت هذه الحجرات التي يقطنونها تفرش بالطين المزوج بالثبن حتى يتحجر . وأما الأسقف فمن الأخشاب الصلبة التي يعالجونها بالطين حتى تتماسك وتمنع تسرب المياه منها * ولا تبقى هذه المساكن أكثر من ثمانى سنوات أو عشر حيث تبلى ولا تصلح للسكنى (١) *

وعند الشلك يسمى المنزل بلختهم جول (Gol) وهو أصغر الوحدات السكنية والملائمة للحياة الريفية ، ويتكون من كوخين أو ثلاثة يحيط بها سياج وبجواره قطعة أرض * ومن جملة هذه المنازل تتألف القرية أو الحلة * وتوزع المنازل حول فضاء أو ساحة تتوسطها « زريبة » أشبه بكوخ كبير تأوى إليه مواشى القرية أثناء الأمطار (٢) * وهنا أيضا نلاحظ مرة ثانية مدى كلف الرجل الشلكاوى ، كما هو الحال عند الدنكاوى ، بالماتية *

ويبدو بصورة عامة مدى حرص الادارة المصرية في السودان على توفير مياه الشرب للسكان في بعض أنحاء البلاد ، فكما حرصت من قبل على توفير بعض مواد البناء لاقامة مساكنهم — بالإضافة الى ادراكها أن البيت الصحى مع المياه النقية مؤشر طيب نحو تقدم البلاد اجتماعيا والانتقال من مرحلة متخلفة الى مرحلة أرقى نسبيا — بدأت تعمل على ادخال المياه النقية الى تلك المساكن الحديثة التى نشأت فى كنفها * فقد لاحظ المسئولون بسواكن فى أوائل عام ١٨٦٦ امكانية توصيل المياه الى هذه البلدة بواسطة « البرابخ » من نبع ماء عذب على بعد أربع أو خمس

(١) الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٢ بتاريخ ٢٦ جادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨ يونية ١٨٧٦ م) .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٨٠ .

ساعات منها ، وطلبوا من المهندس الموجود أن يقوم مع زميل له بهذه المهمة (١) * وقد كان مشروع مياه الشرب هذا يخدم ثلاثين ألف نفس بسواكن (٢) *

وفي شمالي السودان في المناطق الكائنة بين كروسكو وأبو حمد تم توفير هذه المياه عن طريق حفر آبار تركب عليها طلمبات يدوية لأن في ذلك — على حد قول أحد المسؤولين — « * رحمة كبيرة للناس * » (٣) * هذا هو شكل وحالة المسكن الذي كان يعيش بداخله المواطن السوداني في القرن التاسع عشر ويبدو فيه التنوع الشديد والاتساق الشديد أيضا مع البيئة المحيطة به ، بالإضافة الى أن بعضها كان انعكاسا لمعتقداتهم السائدة بينهم * ، وأخيرا نلمح آثار — ولا نقول بصمات — الادارة المصرية واضحة تماما عليها *

٣ — العادات المتعلقة بحياة الأسرة :

(أ) الميلاد :

من المعروف أن كثرة الأطفال وخاصة الذكور منهم في المجتمعات البدائية تلعب دورا هاما في حياة الأسرة ، ولذلك فاننا نجد حرصا شديدا على الاكثار منهم * فعند قبائل البجة توقد النار أربعين يوما أمام المنزل حين يولد طفل ، وقد تكون المدة أقل من ذلك أو ربما يكتفى أحيانا بايقاد مصباح أمام الدار ، ولعل هذا الايقاد — كما يقول البعض — للاعتناس

(١) دفتر رقم ٥٦٠ معية تركي — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ ص ١٨ بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . من المعية الى محافظ سواكن . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ — أوامر كريمة — صورة الأمر الكريم رقم ٣٨ ص ٥٦ . بتاريخ ٥ ربيع أول سنة ١١٨٣ هـ . أمر كريم الى أفلاطون بك . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٣ ، وثيقة بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٢٨٢ هـ . من شاهين باشا كنج محافظ القلاع وغريق العسكرية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

أو كما يزعمون لطرد الجن عن الأم النفساء التي تكون عرضة للأذى من هذه الكائنات طوال مدة النفاس (١) •

وعقب ولادة الطفل تخرج بعض النسوة ومعها المشيمة (الخلاص) والخرق الملوثة حتى تصل الى شجرة فتلقى في وسط فروعها هذه الأشياء وفي خلال ذلك يقمن بتزديد أغنية خاصة بهذه المناسبة ان كان المولود ذكراً ، أما إن كان المولود انثى فيذهبن ويعدن صامتات ، وبهذا الأسلوب يصبح من السهل الإعلان عن نوع المولود دونما أى إعلان آخر ، وبعد ذلك يقوم الوالد بعمل وليمة للجميع • وعقب الولادة بأسبوع يحتفل بتسمية الطفل حيث يؤتى بشاة وتذبح وفي خلال عملية الذبح ينطق باسم الطفل • وقد جرت العادة عندهم ألا يرى الأب طفله إلا بعد مرور ثلاثين يوماً من مولده (٢) •

وامتلاك الأطفال لدى الدنكاوى مقدس • ويبدو هذا الاهتمام عندهم أثناء ولادة توأمين ، فعندها يجمع الوالد جميع أقاربه من الذكور بحضور أحد الكهنة ويمكن أن يشهد هذا الاحتفال أقارب الأم من الذكور • وتقام الصلوات لالهم الأكبر (نهيلك) فيذبح عجل ويمسح ببوله الأبوان والرضيعان ، وبعدها تنتم تلاوة دعاء معين للاله حيث يشكرونه على ما وهبهما ويطلبون منه أن يقبل الذبيح وأن يمنح الطفلين الحياة • وهذه الطقوس تبين لنا حرص الدنكاويين على الأطفال وتدينهم الشديد ، كما انها تبين أيضاً الفرق بينهم وبين بعض النيليين الحاميين الذين يتخلصون من أحد التوأمين وذلك بقتل أحدهما ظناً منهم أن ذلك يمنح الحياة للطفل الآخر (٣) •

والطفل الدنكاوى عادة لا يحمل اسماً واحداً طوال حياته ، بل

Clark; Op. Cit. p.7.

(١)

(٢) محمد عوض محمد : السردان الشمالى .

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٤ -

تتعدد هذه الأسماء طبقاً لمراحل عمره ، فمنها ما يحمله أثناء ولادته ، ومنها ما يختاره لنفسه حين يكبر وينتقل الى طبقة السن التي يتبعها * ومن الأمور العجيبة أنه قد يحمل في إحدى المراحل السنية « اسم ماشية » ، فكل طفل يبلغ سن الفتوة يكون له عجل خاص به ويطابق اسمه الجديد لاسم العجل ، وهذه العجول ليست كغيرها بل لها ميزة تسكية خاصة من حيث قرونها ، ومكانتها الممتازة بين أقرانها التي تجعلها تسير في مقدمة القطيع (١) .

وأما عادة الولادة عند عرب السودان فتبدأ قبل مجيء الطفل حيث يولم الأب وليمة للأهل والخلان لنجاة العروس والجنين من الخطر بعد مضي سبعة أشهر ، ويسمون الولد في الأسبوع الأول من ولادته ، وغالباً ما يختارون الأسماء الإسلامية مثل محمد وأحمد وعلى وبكر وعثمان وعمر ومصطفى وعبد الله * وللجعليين أسماء خاصة بهم مثل : الريح والزبير والعاقب ومدثر ومزمل ومساعد ، وكذلك فللشايقية أسماء خاصة مثل : طنبل وخشم الموس وعقود * وعند البقارة : حلة وبايلة وكنتوش وشطة وجماع * ولعبيدهم أسماء خاصة نحو : عبد الأسد وعجب سيده ومفتاح الخير وعبد الرجال وبخيت وهلال والمأظ وفيروز ، وللنساء تاج الملوك وبحر النيل ويمامه وبخيته وكعب الغزال * كما كان الأب والأم يكتبا باسم ابنهما البكر أو بنتهما البكر (٢) .

(ب) عادة الختان :

وما أن يبلغ الطفل الحول الأول أو الثاني حتى تجرى له عملية ختان . وتتشابه هذه العملية عند البجة والنوبة والعرب ، وتجري للأولاد والبنات على السواء ، ولا تختلف عند الأولاد عما يحدث في مصر . أما ختان البنات فعملية قاسية * وقد وجد نوعان منها ، الأول

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ . ص ٢٢٥ .

يسمى بالختان السننى الذى يشبه ما يحدث فى مصر والثانى : الختان الفرعونى الذى يوشك أن يكون عملية جراحية ، وتجرى فى الحول السادس الى الثامن (١) •

والختان الفرعونى ينتشر بين القبائل العربية على طول النيل من دنقلة الى سنار ، وأما الختان السننى فينتشر بين بادية أهل الغرب • ولقد حاول حكمدار السودان عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١ م) أن يقضى على عادة الختان الفرعونية حيث قاص كثيرا من النساء اللاتى كن يتولين أمرها إلا انه فشل فى القضاء عليها (٢) •

(ج) عادات الصبا والمراهقة والشباب :

وعندما يكبر الغلام عند قبائل البجة ويمكنه أن يرعى الغنم يعطى خنجرا واذا بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أعطى سيفا ودرقة • ويبدو أنه لا توجد ثمة فوارق أو نظام معين لتصنيف المجتمع حسب طبقات السن لدى هذه القبائل البجاوية عند بلوغهم مرحلة المراهقة كما هو الحال عند بعض القبائل الجنوبية •

ومن عادة الأطفال عند الدنكا أن يتبعوا الشباب أثناء رعى الماشية للتدريب على هذه الحرفة ، كما يتم تعليمهم تدريجيا ، فيبدأون بجمع فضلات الماشية للوقود ، فاذا كبروا قليلا تعلموا كيف يحلبون البقر ، وفى نحو التاسعة من عمرهم يذهبون بمصاحبة أبيهم الى النهر أو بركة ماء للتدريب على صيد الأسماك ، وبعد بضعة أعوام أخرى يتعلمون أو يشاركون فى صيد فرس النهر • وأما البنات فيتعلمن من أمهاتهن أعمال الزراعة ، ولا يختلط بهن أثناء تلك الأعمال إلا الأحداث من الأولاد والبنات •

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٣ •
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . الجزء الأول . ص ٢٢٦ •

وفي نحو العاترة تخلع قواطع الطفل السفلى ، وهى مظهر لتنشئة المصبي وانتقاله الى مرحلة الفتوة + والدلالة على بلوغ مرحلة الفتوة عند شباب الدنكا تجرى له عملية « وشم » فى الجبهة عبارة عن سطرين أو ثلاثة من الندوب ، ويتم عملها بواسطة الرمح ولا يسمح لها أن تلتئم بسرعة حتى يظل أثرها على الجبهة واضحا + ويصحب هذه العملية امتحان خاص للشباب المراد تنشئته فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة الى منطقة المستنقعات حيث يعيشون نحو شهر فى العراء أو فى حفر يحفرونها ولا يزود هؤلاء الشباب بالقوت أبدا ، بل يتكون ليحصل كل منهم على قوته بنفسه متكبدا المشاق ، مذلا الصعوبات التى تصادفه بنفسه ، وما أن ينقضى الشهر حتى يعودون الى القرية لتحلق رؤوسهم ، وتنهال على كل واحد منهم التبرعات من آبائهم من ثيران وزوارق ورماح وحراب للصيد وغيرها + وأثناء عودتهم الى القرية يختار هؤلاء الشباب واحدا منهم لقيادتهم ويقوم والد هذا الشاب المختار باحياء حفلة عودتهم للقرية ، وبعدها ينتقلون من قرية الى أخرى فى طابور وراء قائدهم ويمكنهم من الآن فصاعدا محادثة الفتيات وتدريبها يسمح لهم بالاشتراك فى بعض المعارك + وبهذا يدخل الأولاد أولى مراتب السن التى تختلف مراتبها من مكان لآخر وهى فى الغالب حوالى ست :

١ - من ١٥ - ٢٠

٢ - من ٢١ - ٢٦

٣ - ثم الى الثانية والثلاثين +

٤ - ثم الى الأربعين +

٥ - ثم الى السابعة والأربعين +

٦ - ثم الى ما يتجاوز تلك السن ويدخل فى مرحلة الكهولة والشيخوخة +

ويقصر الاشتراك في المعارك على المراتب الثلاث الأولى (١) *

وربما لا نتجاوز الصواب ان قلنا ان هناك لونا من التشابه في تنشئة الشباب الدنكاوى بما كان يحدث عند شباب اسبرطة ببلاد اليونان قديما حيث كان يربى الفتى هناك على الحياة القاسية الأمر الذى يخلق منه رجلا شديد المراس في القتال وفي أمور الحياة *

ومن العادات المنتشرة بين الشباب الشيلكاوى عدم السماح له بالجلوس في اجتماع الرجال المسائي في ساحة القرية ، كما أنه لا يسمح له أيضا بالاشتراك في القتال أو الزواج إلا بعد الاشتراك في رقصة خاصة تعتبر بمثابة اختبار للشبان لاجتياز مرحلة الطفولة والدخول في زمرة الرجال * ويختلط الشباب المراهقون مع الفتيات في خلال هذه الرقصة متبعين نظاما دقيقا في أدائها (٢) *

ومن العادات المنتشرة بين قبائل عرب السودان والمرتبطة أساسا بالفتوة والشباب عادة « البطان » فاذا تنافر شابان لأي سبب من الأسباب طلب أحدهما الآخر للبطان فان رفض عد جباناً وامتنعت البنات عن الزواج منه ، واذا قبل أخذ كل منهما سوطاً ووقفوا تجاه بعضهما يفصلهما سرير (عنقريب) وخلع كل واحد منها ثوبه وتجرد من ملابسه حتى وسطه ، ومن حولهما الناس للشهادة * ويبدأ أحدهما بجاد الآخر سوطاً على ظهره ثم ينتظر حتى يجلده زميله سوطاً وهكذا يتبادلان الضرب بالسياط ولا يتحركان بل لا يحركان كتفا أو حتى جفنا الى أن يقع أحدهما من شدة الضرب فيحمل الى بيته ويزوره مصارعه ويصالحه ، وهذه العادة كانت تنتشر بين العامة ولا يشارك فيها الخاصة * وأما أسبابها فهي النساء ، فاذا أحب شاب فتاة وزاحمه آخر طلبه

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٦ .

(٢) مصطفى فهمي وآخر : دراسات اجتماعية ، نفسية تربوية

« للبطان » وفاز بها الغالب ، وأحيانا أخرى يكون « البطان » لمجرد المباهاة وإظهار القوة . وقد يشترك فيه أكثر من اثنين من الشباب ويكون على إيقاع « الدلوكة » . فمن أراد البطان يمسك سوطه ويهزه فوق النساء اللاتي يضربن « الدلوكة » قائلا « ابشرن بالخير أنا أخو البنات عشرة » ويصطف الجميع صفا واحدا ثم يبرز أحدهم فيضرب كل من في الصف سوطا ويلقى السوط ويعود الى الصف ويأتى شاب آخر ويأخذ السوط ويفعل فعل الأول وهكذا حتى يأخذ كل واحد منهم نصيبه ضاربا ومضروبا . وقد تعجب إحدى الفتيات بشاب من الحضور فتتزعج سوارا من معصمها وتلبسه إياه فيأخذ الشاب سوطه ويهزه فوق رأسها قائلا : « ابشري بالخير أنا أخو البنات عشرة » وأن وجد له منافس من الحضور في حب الفتاة قام له وتبارزا الى أن يكل أحدهما من الألم أو يهتز كتفه فيفوز الآخر بقلب الفتاة (١) .

عادات الزواج :

(أ) عند البجة :

تكاد تتشابه عادات الزواج في أمورها الرئيسية عند البجة والقبائل العربية ، فأبناء العمومة أو الخؤولة مفضلون دائما ، ولا يعطى الرجل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها ممن يصلوا للزواج ، ويحدد المصداق وفقا للعرف السائد .

وتبدأ الخطوبة عند البجة بتقديم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز ، وهذه الهدية ترد اليه ان رفض طلبه ، وعند الموافقة يقدم المصداق الذي يقضى به العرف . وتهدي للزوج والزوجة ناقة عشراء في مستهل حياته الزوجية . ومن العادات التي تعبر عن التكافل الاجتماعي لدى البجة أثناء الزواج قيام نسوة الحى ببناء

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(م ٢٥ - التطور الاقتصادي الاجتماعي)

منزل الزوجية الجديد ، ومن العادات المرتبطة بهذا البناء وجود طبق بجوارهن وبه كمية من التمر ، تقدم لكل رجل يمر بهن فاذا تناول بعضا منه اضطر لأن يقدم هدية ، وتجمع الهدايا التي تحصل بهذه الوسيلة وينتفع بها في عمل وليمة العرس . ومعظم رجال الحى يعرفون هذه العادة فيحذرون من الاقتراب من المكان الذى يشاد فيه بيت الزوجية الجديد (١) !

(ب) عند القبائل العربية :

ومن الأمور المشهورة عندهم فى الزواج صغر سن المتزوجين سواء من الذكور أو الاناث . ولابد للخاطب أولا أن يرى خطيبته ولو بالحيلة ، فاذا أعجبهته عمل على استرضاء أهلها وخصوصا والدتها التى تلعب الدور الرئيسى فى قبول الخاطب ورفضه . وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٦٧ بأن شخصا أراد الزواج باحدى الفتيات وبعث الى والدتها برسول لطلب يدها ولكن الأم رفضت ذلك متعلقة بغياب زوجها الأمر الذى دعا الخاطب الى أن يسارع الى بيت من أراد خطبتها لقتلها بسبب رفض الأم قبوله خطيبا (٢) .

وكانت المهور فى السودان ابان القرن التاسع عشر مرتفعة جدا لدرجة أنها بلغت أحيانا خمسمائة ريال وعشر أبقار وعشرة جمال وأربعين رأسا من الغنم . وهذه المسألة دعت بعض الحكمداريين الى التدخل فورا لوضع حد لهذه المسألة فنادى أحمد باشا أبو ودان وغيره بتخفيض المهور والحض على الزواج سعيا وراء زيادة عدد السكان فى البلاد وبالفعل أتت هذه الدعوة ثمارها ، وأصبحت المهور ما بين خمسة وسبعين قرشا ومائة وخمسين قرشا (٣) .

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٦ .
(٢) دفتر رقم ١٩٢٣ - أوامر عربى - صورة الأمر الكريم رقم ٩ ص ٦٧ بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٨٤ هـ . أمر كريم الى حكمدارية السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٣) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاة الطهطاوى . ص ١٢٩ .

وتجدر الإشارة الى أن القبائل العربية السودانية تحترم النسب جدا وتنزله المنزلة الأولى في زواج بناتهم ، فهم يفضلون زوجا ذا نسب لا يملك شيئا ، ولا يزوجون رجلا ثريا لا نسب له ، ويتضح ذلك بجلاء اذا حل بأرضهم رجل ذو نسب يرجع الى النبي (ﷺ) أو الصحابة زوجوه بناتهم بلا مهر • وهم أيضا يجلون رجال العلم ويزوجونهم بلا مهر أيضا (١) •

وعند الاتفاق على المهر يكتبون وثيقة الزواج ويعينون موعدا لحفل الزفاف وقبل حلول هذا الموعد بأسبوع يعد العريس الذبائح وشيئا من الذرة والروائح العطرية والأكسية للعروس وماشطتها « ووزيرتها » وأقاربها ، وتحمل هذه الأشياء في أطباق مغطاة الى بيت العروس مصحوبة بالطبول والزغاريد •

وأما استعداد أهل العروس فيتمثل في عزل العروسة بمكان منفرد حيث تسلم للماشطة لتمشط شعرها وتطيبه وتلبسها أفخر الثياب • وأما العريس أيضا فيلبس أفخر الثياب الجديدة المعدة لهذه المناسبة • وفي الليلة المعينة للدخول يجتمع أهل العريس وأصدقائه وأهله بمنزله ويؤف على فرس الى بيت العروس مصحوبا بالطبول والرقص • وهناك تفاصيل كثيرة حول هذه المناسبة يحرص السودانيون عليها تماما فالعروس « وزيران » أيضا ، كما أن العريس يقيم بمنزل العروس مدة تطول أو تقصر حتى تنجب له (٢) •

(ج) عند النوبيين :

والنوبيين عادات في الزواج تتفق مع ما سبق ذكره في الخطوط الرئيسية وتختلف في التفاصيل ، فعندهم اذا وصل العريس الى بيت

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٢١٣

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٤ •

العروس تقام وليمة ويعقد القران ، ثم يأتون بالعريس الى غرفة العروس فيجد الباب موصدا وأمامه رجل يمنعه الدخول حتى يعطيه شيئا من المال وعند الدخول مع رفاقه ترشهم امرأة من أهل العروسة بالماء ويصلى العريس ركعتين ثم يتقدم الى العروس ملامسا جبهتها بيده ثم يقبل يده ويجلس بجوارها نحو ربع ساعة ، ثم تؤخذ العروس الى غرفة أخرى ويبين العروس بمفرده حتى الفجر ، ثم ينزل الى النيل مبكراً ويعود ومعه غصن أخضر ويدخل الى غرفة العروس ويضربها به ويعود الى غرفته حيث يجتمع مع بعض أقاربه . وبعد سبعة أيام على هذا الحال يؤتى بالعروس رسميا الى غرفة العريس . وتختلف قليلا بعض هذه التفاصيل في هذه المناسبة من مكان لآخر في بلاد النوبة . وعموما يبقى العريس في منزل عروسته شهرا أو أكثر حسب الاتفاق ثم يذهب بعد ذلك معها الى منزله . ولا تنطبق الزوجة باسم زوجها الى أن تموت (١) .

وفي جهات بربره وهرر حدث نوع من التزاوج بين المصريين وسكان تلك الجهات ، وكان معظمهم من الضباط والجنود (٢) . ويرجع السبب في ذلك الى حسن المعاملة التي كان يلقاها الأهالي من هؤلاء الجنود والضباط ، والتحول الخطير الذي بدأ في أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية منذ أن امتدت الادارة المصرية الى تلك الجهات فأنس هؤلاء الأهالي اليهم ووجدوا ان الاصهار اليهم فيه مكانة اجتماعية رفيعة لهم خاصة وأن الجميع يدينون بالاسلام .

(١) نعم شقير : المرجع السابق . ص ١٩٧ .
 (٢) أنظر : الوثائق الافريقية — محفظة رقم ١٠٣ وثيقة بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٩٣ هـ .
 أنظر أيضا : محافظ بربره — قيد الشهادات — محفظة رقم ٣٨١٥ (قديم) ١٢٠ (مؤقت) — الفترة من « ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ — ٢ صفر سنة ١٢٩٨ هـ » . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(د) عند أهل دارفسور :

كان من الأمور المعتادة في دارفور خلال القرن التاسع عشر ان الشبان إناثا وذكرانا ينشئون جميعا في صغرهم فيقومون برعى الأغنام ومن ثم يجتمعون معا ولا حجاب بينهم الأمر الذي يؤدي الى حدود تنىء من المسودة بين الفتى والفتاة ، حتى يبعث بأبيه أو أمه أو أحد أقاربه لخطبتها فاذا تمت الموافقة حضر الناس والشهود لاتمام العقد ووضع الشروط الكثيرة التى تتضمن أموالا باهظة تذهب كلها الى بيت العروسة ، بينما لا يعقدون لها إلا على شىء رمزى من هذه الأموال . وبعد اتمام العقد يتركون الأمر لفترة طويلة جدا حتى يتشاوروا ويتفقوا على تحديد ميقات معلوم لاتمام الزفاف .

ويتوافد الناس من كل جهة أفواجا وتجرى لكل فوج مقابلة خاصة بالطبول ثم تقدم لهم الأطعمة والمشروبات كل حسب مقامه وتجرى بعد ذلك بعض الرقصات المتنوعة يشترك فيها الرجال والنساء . فهناك رقصة « الدلوكة » حيث ترقص النساء الجميلات من بنات الأكابر . وهناك رقصة « الجبل » لأواسط النساء وأمثالهن من الشبان وهناك أيضا رقصة « اللنقى » لمن دونهن . وحتى العبيد لهم رقصات خاصة بهم (١) .

هكذا يبدو التمايز الاجتماعى واضحا بين القوم خلال حفلات الزواج ، ولا يمكننا أن ننفى تماما حدوث مثل هذا في مجتمع كانت تنتشر فيه تجارة الرقيق ويتنوع سكانه تنوعا شديدا ، كما أننا في نفس الوقت لا نستبعد المبالغة النسبية في وصف مثل هذه الحفلات ، فمن الطبيعى أن يختلف أسلوب المقابلة من شخص لآخر ، كما انه من الطبيعى أيضا أثناء الرقصات أن يميل كل شخص الى من يجد فيه صفات مماثلة لصفاته . وهذه الأمور لازالت حتى الآن وان كانت تأخذ شكلا آخر .

(١) محمد بن عمر التونسى : المرجع السابق : ص . ٢٢٩ — ٢٣٤ .

وعقب هذا الحفل الذى يتخلله الأكل والشرب تترف العروس بالدلوكة ويطوفون بها حول البلد ثم يأتون بها الى بيت الزوجية . وكذلك الحال بالنسبة للعريس الذى يزف من جانب رفاقه الشبان حتى يأتون به الى المنزل الذى وصلته العروس من قبل . ويوجد فى عادة الزواج عند الفور ما يسمى أيضا بالوزير بالنسبة للعريس و « الميرم » بالنسبة للعروس وهى تقابل كلمة الوزير .

وهناك تفاصيل كثيرة لطقوس الزواج عندهم ، إلا أن أهم ما يجب الإشارة اليه فى مسألة الزواج أن أهل الزوجة محترمون بصورة كبيرة لدى العريس فأمها كأمة وأبوها كأبيه وأخواتها كاخوته (١) .

ويبدو التكافل الاجتماعى واضحا فى عادات الزواج عندهم ، فكل جماعة من الجماعات المدعوة لهذا الحفل تأتى اما ببقرتين أو ثورين أو بشياه اعانة لصاحب الوليمة (٢) ومن عاداتهم أن العريس لا يفتض عروسه إلا بعد سبعة أيام كرامة لها ولأبويها . كذلك فقد رسخت لديهم عادة أن الرجل لا ينفق على زوجته بعد الزفاف إلا بعد مرور سنة ، فان جاء بشيء قبل السنة فهو على سبيل الهدية (٣) .

وعلى وجه العموم فساكن دارفور يفضلون الزواج الباكر كسائر السودانيين ويمكن أن تصل زوجاتهم الى أربع نساء . ومن عادة بعض القبائل فى الأطراف بغرب دارفور « كالقمر » و « المساليط » الذين لم يدخلوا الاسلام أن يلتقى أبناؤهم وبناتهم فى الخلاء أثناء رعى مواشيهم ويقيمون قرى صغيرة ويعيشون فيها عيشة الأزواج ما يقرب من سنة حتى اذا حملت منه زوجته كتبوا عليها وإلا فصلوها عنه (٤) .

(١) التونسى : المصدر السابق . ص ٢٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٤) نعم شقير : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٩٤ .

(هـ) الزواج عند الجنوبيين :

أول ما يلفت انتباهنا في عادات الزواج لدى الدنكا أن الرجل لا يسمح له أن يلتمس زوجته في العشيرة المنتمى إليها ، ولا يجوز له أيضا أن يقترب من امرأة تمت بصلة القرابة الى والدته فهذا الزواج في تقديرهم من المحرمات بل من الكبائر التي تجلب غضب أرواح السلف (جوك Jok) والتي ينتج عنها موت الأطفال أو عقم الزوجات بالإضافة الى الوبال والدمار ، وبطبيعة الحال فان مثل هذه المخاوف لا يمكن أن تحدث وهذا يرجع الى تمسك هذه الجماعات البدائية بالعادات والأعراف المقدسة التي لا يمكن أن يحيد عنها أحد * ولو فرض وحدث خروج عن تلك العادة فالعرف يقضى على الرجل أن يقدم فدية من أربعة رؤوس من الماشية ويمسح جسده الآثمين ببعض السوائل المستخرجة من بطن الذبيحة (١) *

ولا نريد أن نسارع لنقول إن العلم الحديث قد توصل أخيرا الى ما عرفته جماعة الدنكا من خطورة الزواج بالأقارب والذي تنتج عنه ذراري ضعيفة من كل النواحي ، ، ولكن تفسير هذه الظاهرة لا يعدو أن يكون مجرد عادة تناقلها الخلف عن السلف وأصبحت جزءا من تكربنهم الديني حافظوا عليها على مر الأيام *

ومن العادات التي تسبق الخطوبة عندهم أن يذهب العريس بنفسه بصحبة جماعة الى بيت العروس ويلتمسون بعض التبغ ليدخنوه ، فتذهب العروس وتطلب هذا التبغ من أبيها فان أعطاها اياه فهذا علامة الرضا ثم يأتي دور الأبوين للاتفاق على المهر الذي يختلف من قبيلة الى أخرى ، فالقبيلة الثرية بماشييتها قد يصل المهر عندها الى خمسين رأسا من الماشية معظمها من البقر ، بالإضافة الى بعض الغنم والماعز ، وعند سكان

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ١٦٠ —

المستنقعات لا يزيد المهر على خمسة رؤوس من الماشية حيث المراسى محدودة عندهم ، وقد يقدم الخطيب زواجا من الأسنة التى تستخدم فى صيد فرس البحر ، وبعضا من السمك ودهان فرس البحر * وفى بعض الحالات يجوز تأخير دفع جزء من المهر ولا يكون سببا لتأخير الزواج * وعند جماعة « الحدادين » يتألف المهر فى معظمه من أقراص الحديد * ولا يحتفظ والد العروس بالمهر بل يوزعه على أقارب الفتاة من الذكور ويستبقى منه فقط بقرة أو بقرتين ، وقد يدهش البعض لذلك ولكن قد تزول الدهشة إذا علمنا أن هؤلاء الأقارب يتعاونون فى دفع مهر الشاب عند زواجه ، فلذا كان من الضرورى أن يتقاسموا مهر الفتاة * لذلك فقد كان رد المهر عملا شاقا الأمر الذى ترتب عليه ندرة شديدة فى حالات الطلاق عند الدنكا * وفى ليلة الزفاف يذبح ثور وتقام حفلة رقص يشهدها شباب القرية ولا يشارك فيها العريس ، أما العروس فتشارك فيها وفى نهايتها ترف الى عريسها (١) *

ومن عادات الزواج الغربية عند الدنكا أنه اذا توفى شاب دون أن يتزوج فلا بد لأخيه أن يتزوج بالانابة عنه ، قبل أن يتخذ لنفسه زوجة ، فالزواج عندهم أمر لا يحرم منه المرء حيا أو ميتا ، وهذه الزوجة فى عرف المجتمع زوجة الأخ المتوفى وأولادها أولاده ، وقد تفسر هذه العادة بما عرف عند الدنكا بتمجيد أرواح السلف (Jok) وتقديسهم إذ لا بد للرجل — عندهم — أن يكون له نسل يمجّدوا روحه حتى لا تظل الروح — فى اعتقادهم — ثائرة وناقمة عليهم (٢) *

ولا تختلف عادات الزواج كثيرا عند الشلك فى جنوب السودان عن جماعة الدنكا ، فالزواج عندهم يرتبط بعملية « شراء الفتاة من أبويها » * وعادة ما يذهب والد العريس الى والد العروس ليسأله عن عدد الثيران

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) نفس المرجع . ص ١٦٣ — ١٦٤ .

والأغنام التي يرتضيها في عملية مبادلة ابنته وإذا ما إتفقا على الثمن يحضر العريس الثيران (١) *

ولابد للعروس أن تخبر زوجها ان كانت عذراء ، وإذا حدث أن زنا بها أحد ، فإنها تأتي في اليوم التالي لزواجها وقد وضعت على رأسها كتلة من الأعشاب ، ثم تركع أمام زوجها معترفة له بذنبها ، فيأخذها الى الزعيم لمعرفة الزانى ومحاكمته طبقا لوسائله التي تقضى غالبا بأن تدفع الآثمة عددا معيناً من الثيران (٢) *

وقد عرف الشلك نظام تعدد الزوجات ، طالما أن الرجل قادر على متطلبات الزواج من البقر المطلوب ، وليس لديهم تقيد بعدد معين من الزوجات ، ولا تعترض الزوجة على هذا الأمر . ففي اعتقادهم أنه كلما كثرت زوجات الرجل فان ذلك يساعد على أن تكون له أسرة كبيرة يعاون بعضها بعضا (٣) *

ولا تختلف مراسم الزواج عند قبائل الباري كثيرا عن الدنكا والشلك إذ يتألف المهر عندهم من الماشية أيضا ، ولكن ثمة أشياء عندهم في هذه الناحية نود أن نشير اليها ، فرجال الباري العاديون لا يتزوجون إلا بأمرأة واحدة بعكس ثراتهم الذين يتزوجون بأكثر من واحدة . وعندهم أن الفتاة أفضل من الفتى ، لأن البنت عند زواجها تجلب لأهلها مغانم كثيرا من الماشية ، أما الولد فعلى العكس من ذلك تماما ، فزواجه يكون مدعاة لنقص ثروتهم من الأبقار والثيران (٤) *

وفي ختام حديثنا عن مسألة الزواج في السودان نود أن نشير

Gessi; Op. Cit. pp. 32 - 33.

(١)

Ibid. p. 33.

(٢)

(٣) مصطلحى فهمى وآخر : دراسات اجتماعية . ص ٧٣ .

(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الثانى

ص ٥٦ .

الى ظاهرة جديدة أوجدتها الادارة المصرية فى تلك البلاد ، وخاصة فى ترقى السودان وجنوب ساحل البحر الأحمر ونعنى بها قيد الاشهارات الزوجية ، وايداع صورة من كل وثيقة زواج بالمحكمة التابع لها الفرد (١) *

الطلاق :

من الأمور التى تقتزن عادة بالزواج مسألة الطلاق * وينبغى أن نشير الى ملاحظة عامة تتعلق بالطلاق فى المجتمع السودانى ، وهى قلة أو ندرة حدوث حالات طلاق بين سكانه ، ومرد ذلك — فى تقديرنا — الى أن معظم الزوجات التى تتم تكون من داخل القبيلة الواحدة التى تجمع بينها أوامر القربى والجوار ، بالاضافة الى « الاصهارات المتبادلة » — ان جاز هذا التعبير — فيما بين أبناء القبيلة ، والتى يستحيل فيها الطلاق ، فلو فرض أن طلق زوج زوجته ، ففى الحال سوف تلقى أخته نفس المصير * ويمكن أن نضيف سببا أخيرا لندرة حالات الطلاق وهو شدة تمسك هذا المجتمع بتعاليم الاسلام وفهمهم إياه فهما صحيحا ، فعلى الرغم من « ترخيجه » للطلاق بشروط ، فهو يعتبر أبغض الحلال عند الله *

ومع ذلك كله فقد تتعذر الحياة بين الزوجين ، ويعالج البجاه هذه الحالة طبقا للعرف السائد بينهم حيث عرفوا عادة خاصة تسمى « التعليق » أى يطلق زوجته بشرط يفرض عليها ، ولا يجوز لها أن تتزوج برجل آخر حتى تستوفى هذا الشرط ، فان لم تستطع الوفاء تظل معلقة ،

(١) محافظ بربره « عربى » — قيد الاشهارات بمحافظة بربره . دغفر رقم ٣٨١٥ (قديم) ١٢٠ (مؤقت) — ص ١ « ١٢ ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ — ٢ صفر ١٢٩٨ هـ » دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ومن أمثلة الشروط عدم الزواج من رجل يشك في أنه عشيقتها وأنه كان سببا في فساد الزيجة الأولى (١) .

ويجوز الطلاق عند سكان الجنوب والنيليين بوجه عام ، ويرجع سبب الطلاق عند الدنكا الى العقم ، فاذا مضت سنتان أو ثلاث ، ولم تنجب الزوجة جاز الطلاق ، وهنا ينبغي أن ترد الى الزوج الماشية التي قدمها مهرا لها بالاضافة الى « العجول » التي أنجبته في تلك الفترة . وأحيانا ان كان الزوج في سعة من العيش احتفظ بزوجته الأولى وتزوج بأخرى ، فتعدد الزوجات — كما ذكرنا — ليس ممنوعا عندهم وان كان نادرا لعدم استطاعة الكثيرين امتلاك أعداد وفيرة من الماشية . وفكرة الطلاق عند الدنكا واردة عندهم منذ بداية الزواج ، والدليل على ذلك ان الزوجة تبقى في منزل أبيها حتى تنجب أطفالا ويثبت لزوجها بصورة لا تدعو للشك مقدرتها على الانجاب . والطلاق عند الدنكاليين من حق الزوج فقط ولكن يجوز أن يكون من جانب الزوجة أيضا ، حيث تمتنع عن معاشرة زوجها أو تترك منزله عائدة الى أبيها ، وفي كلا الحالتين يرد المهر للزوج . كما يحدث الطلاق أيضا اذا هربت الزوجة الى رجل آخر (٢) .

وفي عام ١٨٧٣ وردت الى « مجلس الاحكام » بمصر شكوى من السودان تتعلق بطلب بعض النسوة للطلاق من أزواجهن الذين تركوا السودان منذ سبع سنوات وعشر سنوات ، ولما كان يخشى عليهن من « الأمور غير المرضية » ، وعدم استطاعتهن الانفاق فقد طلبن الطلاق والفتوى شرعيا في هذا الأمر حيث ان مذهب المالكية يقر بجواز هذا الطلاق (٣) . وهكذا يتبين لنا من هذه الشكوى أن هذا الطلاق كان

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالي . ص ٤٧ .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات . ص ١٦٣ .

(٣) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى — صورة المكاتبة رقم ٨ الصادرة من المعية السنية الى مجلس الاحكام بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩٠ هـ — ص ٨٥ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ضروريا حتى لا تشيع الفاحشة في المجتمع ، وحتى يمكن لمثل هؤلاء النسوة أن يجدن من ينفق عليهن ، خصوصا وأنه قد مضت على غياب أزواجهن سنوات طويلة ، وربما يكون في مثل هذه الحالة رد على أولئك الذين يرمون المجتمعات الاسلامية — من خلال مسألة الطلاق — بالتأخر فأيهما أفضل أن تترك هذه النساء طوال حياتهن يعيشن على أمل عودة أزواجهن أم يجدن حلا كريما يصون عفتن ويحفظ للمجتمع تماسكه ، وهو ما فعله الاسلام حيال هذه القضية ؟ كما يتبين لنا كذلك من خلال هذه الوثيقة ان الادارة المصرية كان لادبيها الاتجاه الى رعاية أبنائها السودانيين وتماسكهم الاجتماعي رغم ما يشاع لدى كثير من الدارسين ان الحكم المصرى فى السودان كان هدفه الرئيسى استغلال السودان اقتصاديا وحسب •

مركز المرأة :

وما دمنّا قد تحدثنا عن مسألتى الزواج والطلاق فينبغى أن نشير الى مركز المرأة فى المجتمع السودانى • والمرأة فى المجتمع البجاوى تلعب دورا هاما فهى التى تقوم بعمل المسكن وتقويه كما سبق أن ذكرنا ، كما أنها تقوم ببعض الصناعات كنسج الشملات من صوف الغنم أو وبر الابل ، وفى موسم الأمطار فى الخريف تقوم بصنع السمن من الألبان المتوفرة فى هذا الوقت من السنة • وقد كان للمرأة فيما مضى فى الميراث مكانة واضحة إذ كان الولد يرث خاله وهذه العادة كانت منتشرة بين كثير من القبائل الحامية • وقد غير الاسلام هذه العادة عند البجاه فأصبح الأبناء يرثون آباءهم ، وقد صلب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماما لأن المرأة — فى نظرهم — اذا ورثت انتقل ما تحصل عليه من الإرث الى قبيلة أخرى • وهذه العادة تنقص من حقوق المرأة

عند البجة . وقد ظهرت لدى الأمرار دعوة تنادى بأن هذا الاجراء مخالف للشريعة (١) .

ومع ذلك كله فتجدر الاشارة الى أن الزوج البجاوى يكن لحماه وحماته احتراماً شديداً لدرجة أنه لا يستطيع أن يجلس فى حضرة الحم أو الحماة (٢) .

وأما نسوة القبائل العربية على وجه العموم فمر فهاث ومدلات الى حد كبير ، فقلما تقوم المرأة عندهم بأعمال المنزل المعتادة فى بيتها من طحن وخبز وطبخ وغسل ، فكل هذا منوط بالجوارى ، وخصوصاً مسألة الغسل فانه من أكبر المصائب على المرأة أن تضطر الى غسل ثياب زوجها . ويبدو أن عزوف المرأة عند هذه القبائل عن أداء مثل هذه الأعمال يعود الى كثرة الجوارى فى ذلك الوقت وسهولة تداولهم بحيث ان خلو أى منزل منهم للقيام بهذه الأعمال يعد من الأمور المعيبة فى المجتمع السودانى آنذاك خاصة وأن هذه الأعمال قد ارتبطت الى حد كبير بهؤلاء العبيد ، بالاضافة الى شعور المرأة فى هذه القبائل العربية بأنها من سلالة أرقى الأمر الذى يتطلب أن يقوم آخرون بخدمتها فى بيتها وأن دورها الأساسى ينحصر فى عملية التربية فقط . وقد وصل تدليل المرأة عندهم الى حد أنه اذا دخل زوجها المنزل وكانت جالسة أو مضطجعة فانها لا تتحرك من مكانها ، وإذا طلب حاجة أمر بها الخدم أو قضائها بنفسه (٣) .

وليس معنى ذلك الانتقاص من مكانة الرجل بل هو شئ من الدلال والاحترام لهذه المرأة ولعل هذه الأمور أقرب الى ما نشاهده فى سلوك المجتمعات الأوروبية المعاصرة التى تدعو الى تقديم المرأة على الرجل فى

(١) محمود عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٤٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(٣) نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

الحفلات والمناسبات ، وتحتم أن ينهض الرجل واقفاً اذا صافح امرأة ولا تنهض المرأة اذا صافحت الرجل .

وكما كانت الحماء في المجتمع البجاوى تلقى احتراماً شديداً من لدن زوج ابنتها ، فقد حظيت أيضاً في مجتمع القبيلة العربية بنفس الاحترام ، وأعظم قسم عند بعض الرجال ما كان مقروناً « بنسييته » (حماته) ، فان قيل للرجل « ونسييتك تقضى لى حاجتى » وجب عليه بذل كل جهده لقضائها (١) .

والنساء السودانيات من هذه القبائل العربية لا يجلسن مع الرجال إلا اذا كانوا من أقاربهن المقربين ، واذا طلبت احداهن الى مجلس رجال تلتصت بثوبها ولا يظهر من وجهها إلا عيناها وتجلس ناظرة الى الأرض متحدثة بصوت منخفض ، واذا زارها رجل في منزلها كلمته من وراء جدار ، وان مرت بمجلس رجال خلعت نعلها وغطت وجهها ، أما الجارية فتخلع نعلها وتكشف رأسها ، واذا حدث ان كان الرجال جالسين في صفين على جانبي الطريق فلا يمكنها أن تمر في الوسط حتى يقوم فريق منهم الى الجانب الآخر أو تعود ، وان كانت راكبة ترجلت (٢) .

وهناك اتهام للنجليين وبعض سكان منطقة الجزيرة باقتناء الجوارى للفحشاء والانتفاع بكسبهن من هذا السبيل ، ولكن التفسير الأقرب للصواب هو ان بعض الأغنياء في تلك المناطق ممن زاد عدد عبيدهم وجواريه عن خدمتهم بعثوا بهم في طلب الرزق من أى عمل مشروع ، وفرضوا على كل واحد منهم مبلغاً محدداً في اليوم وهذه الأعمال كانت تتمثل في الطحن والخبز والطبخ في الأسواق ، ولكن الكثير من الجوارى قد يغلب عليهن الكسل وحسب الرزيلة فيرتكبن الفحشاء ويدفعن لأسيادهن المبالغ المطلوبة مفضلات أقصر الطرق وأسهلها .

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٣١ .

ولم تكن الادارة المصرية بالسودان لتقبل تسبوع الفاحشة في البلاد وكانت تضرب بشدة على مرتكبيها من النساء والرجال ، وقد وصل حد العقوبة في احدى قضايا « الزنا » الى القتل والجلد والنفي لخارج البلاد في محاولة لاجتثاث جذور تلك المسائل التي تهدد كيان المجتمع ولم تكن بمعاينة أطراف الواقعة بل امتدت العقوبة الى المسؤولين الذين كان تراخيهم سبيلا الى وقوع مثل هذا (١) .

ولقد تبوأ النساء في دارفور مركزاً مرموقاً — فيما عدا الحروب — وكن يتدخلن في سائر الأمور ، الأمر الذي حدا بالبعض الى القول « ان عرسا لا يتم إلا بهن أو حزننا كذلك » (٢) . ولقد شارك بعضهن ولا سيما غير العربيات في حلقات الأذكار . ويفرح أهل دارفور كثيراً بولادة الاناث أكثر من فرحهم لمقدم الذكور نظرا لما تجلبه الانثى من ماشية كثيرة عند زواجها ولذا شاع فيهم قول مشهور « ان الانثى تملأ الزريبة خيرا والذكر يخربها » (٣) .

والمرأة في جنوب السودان وخاصة عند الشلك متقلبة بالأعمال فهي تساعد الرجل في بعض أمور الزراعة ، كما تقوم بجلب الماء لمسكنها وذلك بحملة من أماكن بعيدة ، بالإضافة الى القيام برعاية أطفالها واعداد الطعام ، كما تسهم الشلكاوية في بناء المنزل واصلاحه (٤) .

ولنساء الدينكا ولح شديد بأمور الزينة ، فالموسرة منهن من تتحلى في جديدها ويديدها ووسطها بالكثير من الحلى التي كان أكثرها من معدن

(١) محفوظة رقم ٥ أوامر للجهادية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٤ أعلى ورقم ٢٥٧ مسلسل ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ .
دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) التونسي : المصدر السابق . ص ٢٤٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٥ .

(٤) مصطفى فهمي وآخر : المرجع السابق . ص ٥٥ .

الحديد بالإضافة الى أساور من سن الفيل • وكلما كثرت زينتها دل على عظم مكانها الاجتماعى بين أهلها (١) •

وفى الأجزاء التى ضمت أخيرا للإدارة المصرية وخاصة فى هرر كان للمرأة مكانة مرموقة وكلمة نافذة على الرجال لدرجة أن البعض يشبههن بالنساء الأوربيات من حيث الحرية الكبيرة التى تتمتع بها لدرجة أن الواحدة منهن — كما يقال — اذا أمرت زوجها بشئ لا يمكن أن يخالفها • ومع ذلك كله فهن متعاونات مع أزواجهن فى الحياة المعيشية ، فالواحدة منهن تخرج الى السوق لتبيع وتشتري خاصة أوراق البن أو القات الذى يرسله اليها زوجها من البستان ولذلك فقد شاع عندهم أن الرجال زراع والنساء تجار (٢) •

وهكذا يتبين لنا من تتبع مركز المرأة فى السودان أن وضعها الاجتماعى كان محكوما بعادات وتقاليد مجتمعتها الصغير الذى كانت تحيا فيه ، فهى عند البجة مشاركة له فى اقامة مسكنه وعند القبائل العربية نراها تتمتع بمركز كبير داخل أسوار بيتها وقد سخرها لها الجوارى لخدمتها ، وهى عند الجنوبيين تعيش حياة الرجل الخشن فى المزارع بالإضافة الى أعمال البيت التقليدية ثم هى فى هرر تتمتع بحقوق واسعة ، ولكننا أحيانا نرى خروجاً عن القاعدة العامة التى كانت تتحرك فى خلالها المرأة السودانية والتى كانت تمنعها من الاختلاط بالغرباء ، ففى عام ١٨٥٢ نلاحظ احدى كبار السيدات فى الخرطوم السلطانة (نصره) ابنة آخر ملوك سنار تحتفى بالرحالة الأمريكى « تايلور » خلال مقدمة

(١) الوقائع المصرية — سياحة شوينفورت فى أفريقيا • العدد رقم ٦٦٠ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ • (الموافق أول يونية ١٨٧٦) •
 (٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ ع • ص ٣٩٧ •

الى المدينة وتقيم له حفل عشاء ، وتدعو اليه نائب القنصل النمساوى
وليفيا من صحبة وتقدم لهم الهدايا (١) .

عادات وتقاليد أثناء الوفاة :

كان من الطبيعى ، بعد أن تحدثنا عن العادات والتقاليد المرتبطة
بالولادة ومراحل العمر المختلفة وما ارتبط بها أيضا من عادات وتقاليد
مرورا بمرحلة الزواج وانتقالا منها الى مركز المرأة في المجتمع
السودانى ، أن نصل الى مرحلة وفاة الشخص لنطالع عادات وتقاليد
مرتبطة بها ، فعند البجة يدفن المتوفى في حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى
الحفرة ، أحيانا ، ببعض الحصى الأبيض والأسود عقب قراءة بعض
الآيات والتسبيحات . ويحتفل بذكرى المتوفى ثلاث مرات ، الأولى بعد
أسبوع من وفاته والثانية بعد أربعين يوما والثالثة بعد حول كامل وبه
ينتهى الحداد . وفي حالة وفاة شخص عظيم يستمر العزاء لمدة
أطول قد تصل الى سنة كاملة حتى تحضر كافة القبائل الموزعة في
الصحارى حيث أنه من المتعسر أن تعلم كافة القبائل في وقت واحد ،
وغالبا ما يأتى هؤلاء ومعهم الهدايا من الابل والنقود لأهل المتوفى .

ومن عادات الأمرار أن أقرب الناس الى الفقيد يحرم على نفسه
أن يجلس على فروة اذا ركب بعيره . ويرتبط بالوفاة عادة دق الطبول
« النحاس » ، ولا يدق الطبل إلا في ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة
فقيد عظيم ، والثانية للدعوة للحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة
كلها ، ولا يمكن أن يدق النحاس لسبب تافه ، ذلك لأن له تأثيرا
شديدا في النفوس ، حيث تنثور الحماسة في القلوب وتجرد السيوف ،
ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة في دق طبولها (٢) .

(١) Taylor, B; A Journy to Central Africa. pp. 293 - 96.

وانظر أيضا : أحمد أحمد سيد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٦٩ .

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى : ص ٤٧ — ٤٨ .

(م ٢٦ — التطور الاقتصادى الاجتماعى)

ولمآتم أهل النوبة جلية عظيمة ، فعند وفاة أحدهم ينادون أهل بلدته والبلاد المجاورة ويقيمون المآتم بالعويل والرقص المحزن حتى يواروه التراب ثم يعودون لتجديد النذب والبكاء مستمرين في ذلك مدة أربعين يوما يتقبلون فيها العزاء من القادمين من بلاد بعيدة ، ويقوم أهل البلدة التي توفي فيها الشخص بتقديم الطعام لأهل المتوفى والمعزين حتى ينتهى المآتم ، ويظل أقارب المتوفى مدة سنة ممتنعين عن الأفراح والتطيب وارتداء الثياب الفاخرة والحلى (١) .

وأما مآتم القبائل العربية فكانت هي الأخرى فصلا من فصول الحزن الشديد ، فالنساء يصحن ويضعن التراب على رؤوسهن ويلطخن وجوههن « بالسجم » والرماد ويدخلن غرفة الميت للبكاء حوله ، وحين يأتى الجيران تخرج النساء بالمتوفى الى فناء المنزل لعمل المناحة وتقوم النادبات بالضرب على النحاس ، وترقص النساء الحزاني بالسيف ، والعصى .

أما الرجال فيقومون بالتهليل قائلين « لا اله إلا الله محمد رسول الله » مرات معدودة حتى تصل أعدادها الى سبعين ألف مرة . وبعد غسل المتوفى وحمله تتبعه النساء كاشفات الرؤوس ومعهن قريباته ، واحدة متقلدة سيفه وأخرى ثوبه أو جبته أو عمامته حتى يصلن التربة فيجتمعن حلقة كما حدث في فناء المنزل ويجددن البكاء والنذب والرقص على أصوات التصفيق بدل النحاس . وعقب الدفن يعود أهل المآتم الى منزل المتوفى فيجلس الرجال لاستقبال المقربين القادمين من جهات بعيدة رجالا ونساء وعند وصولهم يضربون النحاس وترغرد النساء زغاريد الحزن فيخرج أهل الميت جميعا لاستقبالهم فيصطف الفريقان صفين خارج البلدة ، الرجال في مواجهة الرجال والنساء في مواجهة النساء ثم يشروعون في البكاء حتى يلتقى الصفان فيشتد العويل

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ١٩٩ .

حتى يقوم أهل الميت مقام العزين في تعزيتهم وتهوين الحساب ،
وللجعليين عادة تعرف « بالشوقار » ذلك أنه عند النقاء الصفين خارج
البلدة يتسابق الفرسان على خيولهم أو ابلهم ويتصارع المشاء بالسيف
و « الدرق » وترقص النساء بالسيوف حتى يصيبهم النصب فيذهبون الى
منزل المتوفى .

ويشارك أهل البلدة أهل المتوفى في النوم على الأرض مدة سبعة
أيام ، وأما أقارب المتوفى فانهم يشاركون المقربين للمتوفى في النوم على
الأرض مدة أربعين يوما . حتى يتم عمل صدقة تسمى صدقة الأربعين
وهي اشارة الى ختام المآتم ثم يعود بعدها أهل الفقيد الى النوم على
الأسرة وتغسل النساء ثيابهن لازالة ما علق بها من رماد ويستمر حدادهم
لمدة سنة كاملة ، وتعبيرا عن هذا الحداد تقوم زوجة المتوفى واخواته
بقص شعورهن ، ويركب الرجال دوابهم بفراء مقلوبة ، وأما رجال
الشايقية فيرتدون طرابيشهم بلا ازرار اشارة للحداد (١) .

وبالرغم من شدة تمسك عرب السودان بالدين الاسلامي فاننا نلاحظ
اختلاط بعض العادات والتقاليد بهذه التعاليم الدينية ، التي لا تقر مثل
هذه الأفعال عند دفن الميت .

وفي جنوب السودان وخاصة عند الشلك نلاحظ عادات غريبة تماما
عن تلك التي شهدناها في السودان الشمالي ، فعند هذه الجماعة يدفن
الميت في مواجهة منزله وهو جالس القرفصاء ، وتشيد على قبره كومة
من الطين . وتلطخ الأرملة وجهها وشعرها بالطين وتظل « تولول » وتئن
لعدة أيام ، يقوم في خلالها المقربون منها بالعناية بها ويمدون بها بكافة
متطلباتها ، فيقودون قطيعها الى المرعى ، ويقومون بزراعة أرضها (٢) .

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٣٤ - ص ٢٣٧ .

(٢) Gessi: Op. Cit. p. 32.

وعند وفاة والد ملك « أونيو رو » في الجنوب اقيمت بعض الاحتفالات ذات الطابع الغريب والوحشي في آن واحد ، حيث وضعت جثة هذا المتوفى في حفرة على طبقة من الأحياء وكانت هذه الطبقة نساءه . ومن الأمور الغريبة حقا أن النسوة في هذه البلدة وما حولها كن يستسلمن للدفن أحياء حبا في أزواجهن ، ربما يفوق ما كانت تفعله قديما أرامل الهنود لأزواجهن حيث كن يلقين بأنفسهن في المواقد التي كانت تعد لحرق جثث هؤلاء الأزواج (١) .

عادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية :

ولعرب السودان عادات وتقاليد دينية يولونها اهتماما شديدا مثل « التعزيم » وكتابة الأحجية وقلما تجد واحدا منهم ولا سيما النساء إلا ويحمل حجابا . ومن بين الأمور التي يعالجون بها المرضى كتابة بعض سور القرآن الكريم على لوح ثم يغسلون الكتابة بماء ويشربون الماء للاستشفاء .

وإذا حدث نوع من الوباء أو المرض يقومون بنحر الذبائح وتوزيعها على الفقراء والمساكين حتى يرفع الله عنهم هذه الأوبئة والأمراض .

ومن العادات المرتبطة بظهور الهلال قولهم « اللهم أعطنا خيريه وأكفنا شره » ثم يوقدون النار أمام منازلهم ويقدم كل واحد منهم التهنئة للآخر . ومن عاداتهم ان أراد شخصان المعاهدة على أمر هام وضعوا المصحف الشريف بينهما مفتوحا على سورة « براءة » ﴿ وأقسما على صدق الوفاء بالعهد ، كذلك فأنهم اذا فقدوا شيئا طافوا الجهات منادين

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الأول . ص ٢٨٥ .

(﴿ التوبة : السورة رقم ٩ من القرآن الكريم .

« كتاب الله جاكم من رأى التىء الفلانى يرجعه لصاحبه (١) * ويبدو واضحا ان مثل هذه العادات والتقاليد نابعة من الدين الاسلامى فمن آيات القرآن الكريم يتخذون علاجا ، وهذه الآيات ربما تأخذ شكل الكتابة فى أوراق صغيرة على شكل أحجبه ، أو تكتب على ألواح ثم تغسل . بصرف النظر عما يصاحب هذه العادات من طقوس يحاول بعض العامة اضافتها لمثل تلك العادات * وأى شىء أفضل من كتاب الله خلال معاهداتهم ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا فى آيات الله قولا وعملا ، ايمانا منهم أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله سبحانه وتعالى ما فرط فى الكتاب من شىء * ففيه العلاج لمن أراد وفيه شروط المعاهدات وفيه قوانين البيع والشراء * فلا عجب إذن ان وجدنا عادات عرب السودان الدينية انعكاسا واضحا لاييمانهم الشديد بالكتاب والسنة ، ولا غرابة كذلك ان وجدنا فى آخر المطاف ان مثل هذا الايمان الشديد — مع غيره من العوامل — يفجر ثورة غضب فى عام ١٨٨١ *

ولسكان الجنوب من الدنكا والشلك ومن جاورهم عادات غريبة فى هذه الناحية فلا يكاد يحدث حادث خارق للعادة أو مخالف للمألوف إلا كان مدعاة لاقامة الشعائر وتقديم القرابين ، والإله الأكبر عند الدنكا هو نهياك كما سبق أن ذكرنا ، وهو — فى نظرهم — الذى يرسل السحاب من السماء وهو المهيمن على كل الأمور العظيمة * كما أن لديهم اعتقادا فى قوة أخرى ذات اتصال شديد بالحياة العادية وهذه القوة تدعى (جوك) أو روح الأجداد مجتمعة * وهناك اله آخر يدعى « دنج ديت » Deng - Dit ومعناه المطر العظيم * *

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٣٣٣ وايضا ص ٢٢١ .
 (*) جرى حوار بين أحد الضباط الذين زاروا مناطق الدنكا . وأحد زعمائهم فسأله الضابط : هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبره ؟ قال :

ولكل قبيلة دنكاوية هيكل تقدم فيه القرابين في حفلات الحصاد والمطر وغير ذلك . وغالبا ما يتألف الهيكل من ثلاثة أكواخ متلاصقة أحدها مقفل على الدوام ولا يدخله إلا السدنة وهو خاص (بدنج ديت) ، وفي حالات ربما يسمح للشخص الذي جاء ليقدم قربانا — طمعا في النسل — أن يدخل لينال البركة ويدعو لتحقيق أمنيته وفي هذه الحالة يدخل وعن يمينه ويساره واحد من السدنة * ومن العادات المتبعة أن يسمح جسم صاحب الطلب بمزيج من الزيت والتراب المقدس ، ويعطى أحيانا حربة أو شيئا من هذا القبيل علامة للرضا ، وربما يقدم صاحب الحاجة بعض التبغ الذي يلقي على كومة الرماد المتراكمة أمام الهيكل بسبب الطبخ المستمر للقرابين ويصبح هذا الركام كوما مقدسا تلقى عليه محتويات المعدة والأحشاء عقب ذبح الماشية (١) .

وهناك طائفة خاصة من الناس توصف — عند الدنكا — بأن لها قدرة الاتصال بالأرواح أو يحل بجسم الواحد منها بعض الأرواح سواء أكانت روح من توفى حديثا (Tiep) أم روح السلف (جوك) ، ويسمى الواحد من هؤلاء باسم (Tiet) ، وتكاد تكون الوظيفة وراثية . ولا ينظر الى بعض هؤلاء الأفراد نظرة تقدير ، ويبدو أن مركزهم الاجتماعي وقوة شخصيتهم كان لهما بعض الأثر والاعتقاد الشديدين في

لا . فسأله ثانية : بماذا تؤمنون إذن ؟ قال نؤمن بمن نسميه (بدنج ديت) اله المطر . فسأله هل تدعونه أو تصلون اليه ؟ قال لا . فسأله أين هو ؟ قال : لا ندري . فقال له وأين مصيركم بعد الموت ؟ قال نضمحل نحن ونسائر المخلوقات وكلنا في ذلك سواء ثم أشار الى كلب هناك وقال نموت كما يموت هذا الكلب .

(انظر مقال تحت عنوان : احتلال بحر الغزال لليوزباشي الطبيب امين الملووف . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية موسم عام ١٩٥٣ ، ص ١٩٦) .

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات . ص ١٦٨ — ١٦٩ ، انظر أيضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٢٦ .

نفوس بعض الدنكاويين (١) * ويلجأ الناس الى هؤلاء الأشخاص عند التداينات والملمات ، ويبدو كذلك أن بعض المصادفات قد لعبت دورا هاما في علو شأنهم ، فقد لاحظ الناس ان كل من يخالفهم تحل به كارثة بعد زمن وجيز ، وهكذا اجتمعت عدة أمور مختلفة لتجعل من هؤلاء الأشخاص رموزا روحية تحظى بشهرة واسعة .

ويعتقد الدنكا في البركة واللعنة : بركة الوالد لأبنائه أو بركة الكاهن أو أى شخص من ذوى النفوذ المعترف به ، واللعنة قد يوجهها الشخص الى بعض أقاربه أو غيرهم اذا أخطأوا في حقه ، فان أصابتهم اللعنة ينسر التمسوا الصفح من اللاعن عن طريق تقديم قربان ، كذلك فانهم يعتقدون في شئ يشبه الحسد Kwan اذا تعرض أحدهم لسوء فسرعان ما يرجعه الى حسد صادر من شخص ما (٢) .

وعلى وجه العموم فالفرد الدنكاوى شخص متدين وقيم وزنا كبيرا للاعتبارات الروحية في كل لحظة وفي جميع أمور حياته ويلتمس لكل ظاهرة تفسيراً روحياً .

وأما ديانة الشلك فتتألف عناصرها الرئيسية من الايمان بالإله الواحد ، وتمجيد السلف * والإله الواحد يسمى عندهم جوك وهو شبيه بما أطلقه الدنكا على السلف * واذا كان الاسم واحداً عند الشلك والدنكا فان له مدلولاً خاصاً عند كليهما فهو عند الشلك الإله الذى خلق العالم وببده كل القوى والخصائص الربانية * والشلك يقدرسون جددهم الأكبر « نياكنج » Nyakang الذى يقودنا الى الحديث عما أسماه البعض « عقيدة الملك المقدس » عند الشلك (٣) حيث لم يكن يسمح للكهنة أن

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧٤ .

(٣) سيلجمان : المرجع السابق . ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

يخوض المعارك • ولفهم طبيعة هذه العقيدة لابد من الإشارة الى كيفية تكوين أمة التسلك التي يرجعون أصلها الى « نياكنج » الذى خرج مع أتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ يتجول قاهرا للأعداء حتى عظمت شوكته فكون أسرة حاكمة وأمة • فنياكنج عند الشلك بطل الحضارة ، وهو كسائر العظماء عندهم لم يمت بل اختفى فى عاصفة شديدة ومنذ أن اختفى وأهله يقربون له القرايين ، معتقدين أن روحه مستقرة فى كل ملك من ملوكهم وهذا الاستقرار هو أصل وسبب الحق الملكى المقدس • وإذا بدت على ملك الشلك أعراض الشيخوخة أو العجز قتلوه ، وعقيدتهم فى ذلك أن روح (نياكنج) ينبغي أن تكون فى جسد غاية فى القوة حتى لا تسكن الروح المقدسة هذا الجسد الهزيل فيسرى الضعف الى الروح ذاتها فتمرض الماشية ولا تلد ، وكلما ضعفت حيوية الملك ظهر أثرها على فساد المحاصيل فى الحقول ومرض الرجال وانتشربينهم الموت (١) •

عادات متصلة بالخرافات والسحر :

كانت العادات الخرافية المنتشرة بين أهالى مديريات السودان كثيرة جدا ، وهى فى تقديرنا انعكاس للوضع الثقافى الذى كان يعيشه الشرق بصفة عامة والسودان بصفة خاصة وهى تتشابه كثيرا مع ما كان يسود المنطقة وغيرها من بلدان العالم أيضا فى ذلك الوقت ، فقد عرف الجميع الدجالين والمشعوذين والسحرة ، كذلك فقد عرفوا الزار والمنسدل والرملة وضرب الودع والعقدة وتفسير الأحلام •

ويقال ان « الزار » قد دخل السودان من مصر وشاع استعماله فى سواكن وبربر والخرطوم (٢) • ويحاول البعض أن يفرق بين نوعين

(١) سيلجمان : المرجع السابق . ص ١٥٨ ، ١٥٩ •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٣٧ •

من الزار : الأول ويعرف باسم (زار بوري) ، والآخر ويعرف باسم (الطمبورا) * أما الأول فخاص بالنساء ويجرى في منزل الشیخة أو في منزل الشخص المريض « الممسوس » ، والآخر خاص بالرجال . ولا يمكن « للطمبورا » أن تنتقل الى منزل المريض ولكن المريض هو الذي يأتي الى المنزل (١) . وحفلات الزار تكون عادة صاخبة وتصاحبها حركات هزيان وعبارات مبهمه .

وربما قد لا نتجاوز الحقيقة ان قلنا ان مثل هذه الحفلات الراقصة التي يحاول فيها المريض الخروج من همومه ومشاكله هي أشبه بما يحدث في المجتمعات الأوروبية الحديثة التي يحرص أكثرهم سواء من الرجال أو السيدات على المشاركة فيها مصحوبة بالموسيقى والرقصات والخمر ، فالفرد — سواء في حفلة الزار في تلك المجتمعات المتخلفة أو في حفلات الرقص « الديسكو » في المجتمعات الأوروبية الحديثة — يريد الخروج من همومه وواقعه . والاختلاف الوحيد ان حفلات الزار تتم وفق طقوس غيبية وعبارات غريبة . وكلاهما في تقديرنا لـون من ألوان العلاج النفسي .

وأكثر المشتغلين بضرب الودع والرمل والمندل وكشف الدفائن وعلم التنجيم من « التكارنة » . وأما العقدة فيشتغل بها فرع من بشاري العظيرة . وأما السحرة السودانيون فيدعون القدرة على مسخ الأجسام الى حيوان أو غير ذلك . وقد وقع واحد من هؤلاء السحرة التعايشية ** وهو يعمل على وقف مفعول أسلحة الزبير في ساحة الحرب . وكاد الزبير أن يقتله ، وقد اشتهر أمره حيث كانت أسرته تعمل بضرب الرمل

(*) نسبة الى آلة الطمبورا الموسيقية وهي أشبه بالقيثارة .
S. N. R., Vol. XXXI, Part I, 1950, June 1950, Zar and (١)
Tumbura by Zenkovsky.

(Paper read before the Philosophical Society of the Sudan) p. 65.

(**) عبد الله التعايشي .

والسحر حتى نالت حظوة كبيرة عند التعايشة ، وكاد عبد الله هذا أن يلتف حول الزبير حين قال له « رأيت في الحلم أنك أنت المهدي المنتظر واني أحد أتباعك فأخبرني ان كنت مهدي الزمان لأتبعك » * ولكن الزبير كتب له قائلاً : « استنقم كما أمرتك وإلا أعملت السيف في رقبتك * * * اني لست بالمهدي انما أنا واحد من جنود الله يحارب به من طغي وتمرد » * ولم يكف عبد الله عن الشعوذة حتى ضاق به الرزق في دارفور فرحل عنها ، حتى ظهر أمر المهدي محمد أحمد فقصده وتقرّب اليه بشكل درامي حين أخبره ان علامات المهدي وصفاته تنطبق عليه تماما وارتمى أمامه على الأرض مغشيا عليه ! ، وأصبحت لعبد الله التعايشي شهرة واسعة عقب وفاة المهدي حيث بايعه الناس اماما وحاكما (١) * .

وفي عام ١٨٧٨ تم القبض على أحد أولئك السحرة والمشعوذين بمديرية التاكة وعثر في حوزته على بعض الكتب والأوراق وعروق الأشجار وبعض قطع النحاس وغير ذلك ، ثم أودع السجن جزاء على ممارسته لمثل هذه الأمور بين عامة الناس (٢) * وهناك كثير من الخرافات المنتشرة بين عرب السودان لا يتسع المقام لذكرها ، ومنها أنهم يتشاءمون من الأعور والأعرج وكل ذي عاهة ومن تناول الصابون بباطن الكف لأنه — في نظرهم — يورث البغض بل يجب أن يتناولها الفرد بظاهر كفه * كذلك فانهم يتشاءمون من مسح اليد بثوب آخر ، أو شرب اثنين من فنجسان واحد ، ومن عواء الكلب من صدره فانه دليل على موت واحد من الأهل ، ومن لبس الرجل اللباس واقفا لأنه دليل على الفقر .

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٦٨ — ٧٠ *
 (٢) دثتر رقم ٣١ وارد معية عربي — ص ٥١ — مكاتبه رقم ٣٦ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٩٥ هـ * من مدبر عموم التاكا الى المعية دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ومن الصغير لئلا لأنه مجلب للكافات والحيات ومن كنس البيت يوم
الخميس لأنه يطرد الخير وغير ذلك من الخرافات الكثيرة (١) *

أما دارفور فكانت ملأى بهذه الخرافات لدرجة ان التونسي
يقول انه لا يريد أن يحدثنا عن الكثير منها حتى لا يتهم بالكذب * فقد
عرف سكان دارفور جماعة من الناس يسمون « بالمعرايين » أى الذين
يستخدمون عروق (جذور) الأشجار فى أمور السحر والدجل ، فمن
أراد أن تقضى حاجته عند الحكم أخذ أحد الجذور ويسمى (نارة)
ودلك بها بين كفيه ومسح على وجهه ، ويفعل نفس الشيء اذا أراد أن
تعشقه احدى الفتيات *

وكانت قبيلة « الفلان » هى المشهورة بتلك الأعمال السحرية (٢) *

أما أهل جنوب السودان فلهم ولع أيضا بمسائل السحر ، فالشك
— على سبيل المثال — يعالجون سحر العين بادخال مسمار محمى فى عين
« عنزة » سعيا وراء أبطاله ، فاذا لم تطمس عينا الحاسد فى نفس
الوقت الذى تطمس فيه عين « العنزة » ، فهذا يعنى ان السحر لازال
قائما ، الأمر الذى يتطلب تقديم الكثير من القرابين لاسترضاء
الآلهة (٣) *

وبالرغم من ذلك فالبعض ينفى تماما حدوث مثل هذه المسائل
السحرية ، وغيرها من الصفات السيئة التى ارتبطت بهذه الأمور (٤) *

ومن العادات المرتبطة بهؤلاء الجنوبيين وخاصة بلاد النمام

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٢) التونسي : المصدر السابق . ص ٣١١ وما بعدها .
(٣) عبد القادر محمد : الفكر الصوفي فى السودان . ص ٢١ .
(٤) الوقائع المصرية ، العدد رقم ٦٦٤ بتاريخ ١٠ جمادى الثانية
سنة ١٢٩٣ هـ . (٢ يولية ١٨٧٦) ص ١ .

(بلاد نميم) المتصلة ببجر الغزال ، أكل لحوم الكلاب والآدميين ، فالكلاب عندهم أفخر ما يأكلون أو يقدمون ، وهو طعام أمرائهم ولذا فانها كانت قليلة عندهم ، ولا يعنى هذا ندرة الطيور أو الحيوانات الأخرى فعلى العكس فهي كثيرة وخاصة الدجاج منها (١) .

أما مسألة أكل اللحوم الآدمية عند هذه الجماعة فقد ذكر لنا ابراهيم فوزى (٢) انه سأل عن الذين يأكلون هذه اللحوم فعلم انهم ينحسرون في قبيلتين فقط وليس من عادة القبائل كلها أن تفعل ذلك ، كما أن أكل لحوم البشر عند هاتين القبيلتين غير دائم بل اذا مرض أحدهم وغلب عليهم اليأس من شفائه ، فعندئذ تقوم قبيلته بتسليمه الى القبيلة الأخرى لتأكله ، وأيضا تفعل القبيلة الأخرى نفس الشيء حيث تسلم مريضها اليها ، أى ان المسألة تتم بالتبادل فيما بينهما . وتجدر الإشارة أيضا الى ان هذا اللون من الطعام الآدمي ليس عادة عندهم كما يتوهم البعض بل هي طريقة ساروا عليها لتبيان معزة الفرد لديهم عند الموت ، ويرونها أسمى شأنًا من دفن الانسان في القبر أو حرقه بالنار ، كما انهم — كما يقال — يرون في ذلك راحة لهم من عناء انشاء مقابر واجراء احتياطات صحية (٣) .

ومن العادات الغريبة في مديرية خط الاستواء عادة تعرف باسم (تبادل الدم) حيث توثق ذراعا الشخصين اللذين يتبادلان الدم ومن جرح صغير يحدثانه في القسم الأسفل من الزراع يمتص كل منهما بعضا

(١) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ٢ ص ٣٢ .
« قيل ان أحد الأفراد في تلك البلاد أو لم وليمة ودعا اليها رؤساء مملكتها فقال له بعض اخوته أتعرو مثل هؤلاء الملوك ولا تذبح لهم كلبا سميئا فأرسل من يحضر كلبا ودفع فيه عشر بقرات سمان » انظر الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ، ص ٤٠١ .

(٢) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) نفس المصدر . ص ٣٣ .

من دم الآخر : وهذه العادة في تقديرهم دليل على الصداقة والمحبة بين الشخصين (١) *

الأزياء :

وهي من الأمور التي تنوعت من مكان الى آخر في السودان ، فهي عند البجة عبارة عن شقة من « الدبلان » أو الدمور ، ويتميزون بالرشاقة في لبسها حيث يكثرون من تشميرها ، أما الذين كانوا على الفطرة منهم فيرتدون الفراء حول أصلابهم ويمشون حفاة أو يلبسون نعالا على الأكثر ، وكلهم عراة الرأس ، ويتركون في أعلاه « كشة » ويدهنونها بالشحم أو زيت الخروج ويمشطونها بمسواك من السن أو الخشب ويكون مغروزا دائما في الكشة * ويضع البجة في معظمهم خواتم في أيديهم وتكون في العادة من الفضة أو الذهب بفصوص من العقيق أو الفيروز ، أما نساؤهم فيرتدين « الشقة » وحدها أو مع « القرباب » أو يرتدين الفراء في أصلابهن * ويقمن بجدل شعورهن جدائل دقيقة جدا * ويتحلىن بالأسورة والحجول والخلال (٢) *

وأما أزياء النوبيين فكانت غالبا من الدمور الذي يتخذون منه « سراويل » و « نسقة » ، ويسيطرون حفاة مكشوفى الرأس عدا كبارهم فيلبسون طواقى من الدمور وأحذية من جلد البقر ويحلقون شعور رؤوسهم ويرخون لحاهم وترتدى نساؤهم شقة من الدمور ويجدلن شعورهن على هيئة صفائر دقيقة جدا (٣) *

وأما ملابس القبائل العربية فكانت عبارة عن سراويل ومن فوقها ثوب من الدمور أو الدبلان ، أو يرتدون قميصا طويل الأكمام * وفى

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الأول .
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٠٠ .
(٣) نفس المرجع .

الأفراح يرتدى كبارهم القفاطين و « الجبب » ، وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويدورون لحاهم ، ويتعممون بعمامة بيضاء فوق طاقية من الدبلان أو ربما يرتدون الطاقية بلا عمامة ، وكان كبارهم أحيانا يلفون عمامة على طربوش مغربى ، ويلبسون أحذية من جلد أسود أو أحمر . وعادة ما يخرج الواحد منهم وفي يده عصا وسكين . وهذا الزى غالبا ما يكون فى المدن أو الحضر . وأما فى البادية وخاصة بادية الشرق فيلبسون الثوب سراويل من تحته أو بدون سراويل ويلبسون نعالا فى أرجلهم أو يسيرون حفاة عراة الرأس ولا يحلقون شعور رؤوسهم ، وباختصار فهم يشبهون البجة فى هذه الناحية .

وأما بادية الغرب فيلبس البقارة قمصان واسعة الاكمام جدا ومقفلة الصدر بلا سراويل ويتخزمون بسيور من الجلد ، ويمشون عراة الرأس ، ويلبسون نعالا فى أرجلهم ويجدلون شعور رؤوسهم صفائر كسائر النساء ، ولا يتركون كثه كبادية الشرق لكنهم يدهنون شعور رؤوسهم بالشحم والزيت . وعادة ما يخرج الواحد منهم وفي يده حربة كبيرة تسمى « كبسا » أو « أم كريشه » وأما الابالة فيلبسون الثوب سراويل أو بلا سراويل ، ويلبس مشايخهم القمصان الواسعة ولكنها أقل اتساعا من مثيلتها عند البقارة وأنظف ، كما أنهم يجدلون شعور رؤوسهم صفيرتين فقط دون كثة . أما مشايخ البادية فيحلقون شعور رؤوسهم ويلبسون القفاطين والجبب والعمائم ويتختمون بخواتم من الفضة ذات فصوص من العقيق أو الفيروز .

وأما الأطفال ذكورا وإناثا فيظلون عرايا حتى نحو سن الخامسة فتستر البنات أنفسها « بالرهط » وهو سير من الجلد يعقد حول خصرها تتدلى منه قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين وقد تلبس فوقه شقة من الدمور ، أو تظل بالرهط حتى الزواج حيث تخلعه وترتدى بدلا منه فوطة أشبه بفوطة الحمام تسمى « القرباب » وفوقها شقة أكبر منها قليلا

تسمى « القرن » وفوقهما « ثوب » من الدمور أو الدبلان أو الشاش •
تتضمن به وتستر رأسها ولا يظهر منها إلا عيناها (١) •

وأما الأزياء التي كان يرتديها أهل هرر وما جاورها من البلدان التي دخلت في حوزة الادارة المصرية فهي قريبة الشبه من ملابس أهل السودان حيث أن أغلبهم يلبس ثوبا من نسيج هرر الخشن يرتدونه كسائر العربان المجاورين ، وأما الأمراء والقضاة فيلبسون ثوبا من القماش الأبيض على شكل قميص ، وكلما كان كبيرا كان أكثر اعتبارا •
بالإضافة الى حزام من الجلد يحمل سكينه وربما يعلق به حجاب •
وأما عن الحذاء فالرجال يلبسون النعال ، وأما النساء فمهما بلغت أوضاعهن الاجتماعية فهن غالبا حافيات الأقدام فيما عدا نساء الأمراء (٢) • ولم يكن أهالي تلك الجهة يلبسون شيئا على رؤوسهم ، وعند امتداد الادارة المصرية الى هرر طلب الى الأهالي أن يضعوا العمامة على رؤوسهم إذ كان أمراؤهم يأبون عليهم ذلك ، فتغطيت الرأس كانت قاصرة عليهم فقط ولم يكونوا يسمحوا لهؤلاء السكان حتى أن يغطوا رؤوسهم بجزء من الثوب الذي يرتدونه وقاية لهم من وهج الشمس أو زمير البرد • وبالإضافة الى ذلك فقد طلبت منهم الادارة المصرية أن يرتدوا كافة الملابس التي يريدونها والتي حرموا منها مثل « الجيب » و « القفاطين » (٣) • ولا شك أن مثل هذه الدعوة من لدن رجال الادارة برهان مساطح على حرصها الشديد في نشر المساواة بين كافة الأهالي لا فرق عندها بين أمير أو فرد عادي •

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ •
(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصري ، العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ •
(٣) الوثائق الافريقية — محفظة رقم ١٠٣ — التقرير السابق •

وأما ملبوسات سكان قبائل العيسى فرجالهم عراة الرأس حفاة الأرجل يلتف الواحد منهم بثوب قماش من عرضين طوله حوالى ثمانية أذرع ، أما نساؤهم فتلبس الواحدة منهن فستانا من القماش المتواضع ولا يشترط أن يكون قذرا أو نظيفا * والجزء الأعلى من أجسامهن — ما عدا الزراع الأيمن — مستور بفوطة من القماش ويعطين رؤوسهن بزراع من قماش شديد السواد (١) *

وأما فيما يتعلق بملابس أهل الجنوب السودانى فالسكان بصفة عامة كانوا عراة الأبدان يسترون عوراتهم بمئزر من ورق الشجر أو جلد الحيوان ولهم ولح شديد بالعقود المصنوعة من الخرز الملون ، بالإضافة الى الأساور والحجول النحاسية والعاج والحديد الذى يتخذون منه زينة لهم * ويقوم بعضهم مثل الشلك بضفر الشعر على أشكال تستى ، ويضعون فيه الخرز والريش ، كما انهم يقومون بدهان أجسادهم بالشمع والزيت * وتتشح بعض النسوة المتزوجات بجلد مدبوغ من جلود الأغنام ليوارين سواتنهن * أما قبل الزواج فتعيش الفتاة عارية (٢) *

وعقب امتداد الادارة المصرية بدأ الجنوبيون وخاصة الزعماء منهم يأخذون بالزى العربى (٣) *

الدلة والشلوخ :

ومن العادات المشهورة لدى أهل السودان وخاصة القبائل العربية عادة « الدلة » وهى عبارة عن عدة مواد مكونة من عجينة الذرة ودقيق القرنفل والمليب وخشب الصندل والظفر ويعرف « المربوع » واذا أضيف

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٨٩ .

(٢) عمر طوسون : المرجع السابق . ص ٦٣ .

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٣٦ .

اليه اللبان سمي بالمخموس ، ويضيف اليه الخاصة المسك ويعرف « بمعجون الخاصة » * والدلكة للنوعين من الرجال والنساء حيث يمشون كثيرا من أوقاتهم ممددين على الجلود ، بينما يقوم العبيد بتدليكهم ، ويقول « جسي » ان هذه العملية تجعلهم في حالة استنزاف شديد لا يفيقون منه إلا عند شعورهم بالحاجة للطعام (١) * .

وأما الشلوخ * فهي من العادات القديمة والأكثر شيوعا بين سكان السودان وهي عبارة عن خطوط على الخدود ناتجة من أثر « الفصد » بالموسى ، ولا يحوى هذا المفهوم تلك العلاقات الموسومة على الجباه لدى القبائل النيلية في جنوب السودان أو تلك العلامات الناتجة عن الكى بالنار أو المواد المحرقة على الوجه كما هو الحال عند النوباويين بكردفان . ويقال ان الجزء الشمالى من السودان وخاصة بلاد النوبة قد عرف الشلوخ منذ العهد المروى (٧٥٠ ق م - ٣٥٠ ق م) حيث وجدت بعض تماثيل ونقوش لأشخاص « مثلخين » ترجع الى ذلك العصر * .

ويميز الدكتور يوسف فضل بين ثلاث وظائف للشلوخ في السودان : قبلية ودينية وجمالية * فأما الوظيفة القبلية فقد ظهرت بظهور القبائل في السودان والننى وجدت شيوع عادة الشلوخ فعملوا على تطويعها أو توخيفها قبليا ، ذلك أن هذه القبائل العربية لما بدأت تستقر وتقتصر بالسكان الآخرين بالسودان نتيجة عمليات الزواج والاختلاط الأمر الذى أدى الى ظهور نتائج جديدة من السكان أشبه شكلا وأقرب لونا الى

Gessi: Op. Cit. p. 32.

(١)

(*) الشلخ في اللغة هو الأصل والعرق ، والشلخ عند العامة لحاء النخس والشجرة * وهناك مترادفات للشلخ وهي : الفصد ومعناه قطع العرق ، والوسم وهو أثر الكى ، والوشم وهي العلامات التى ترسم بالإبرة وتحشى ببعض المواد ، والالعاط وهي الكى فى عرض العنق ، كما أن اللعطة أو اللعطة تعنى الخط الأسود أو الأصفر الذى تخطه المرأة فى خدها للترزين . (أنظر : يوسف فضل حسن : الشلوخ أصلها ووظيفتها فى سوداى وادى النيل الأوسط . ص ٩ - ١٥) * .

(م ٢٧ - التطور الاقتصادى الاجتماعى)

النسجوب التي عاشوا بينها فختسوا أن يذوب كيانهم وتنمحي خصائصهم
فرأوا الاستفادة من هذه العادة واتخذوها سمة لهم تميزهم عن حولهم
شكلا وموضوعا *

وقد شجعهم على المضي في تنفيذ هذه العادة أن بعض أحفادهم
من ذوى البشرة المائلة للسواد بدأوا يتعرضون للرق من جانب تجار
الرقيق وغيرهم دون التميز بين المسلم وسواه (١) *

وتعتبر الجماعة الجعلية العباسية ، وهى أكثر القبائل السودانية
عروبة ، أو استعرابا وغيرهم من المجموعات المستعربة ، من أكثر سكان
السودان تمسكا بعادة الشلوخ دون غيرهم من النوبيين والبجة والبدو *
وتصل أهمية هذه العادة الى درجة اجتماعية خطيرة حين كان ينظر عامة
الناس ، وخاصة سكان المنطقة الوسطى من حوض النيل الى الشخص
غير المشلخ (أو الأمرء) نظرة استخفاف لأنه أهمل سمة القبيلة وعادة
الآباء ، كما أن تركها كان فى نظرهم من عادة العبيد لا الأحرار *

ومن أمثلة الشلوخ القبلية التى سادت عند الجعليين الشلوخ
العمودية الثلاثة ، وشلخ السلم * ذى الدرجة الواحدة ، وشلخ
« الواسوق » وهى كحرف T ويسمى أيضا (درب الطير) *

وبمرور الزمن ونتيجة لهجرة الجعليين الى أجزاء السودان وازدياد
نفوذهم الاقتصادي والثقافى انتشرت « تسلوخهم » فى تلك المناطق كما هو
الحال عند الدناقلة الذين استخدموا شلخ السلم وان كان ماكمايكل يرى
ان هذا السلم أصبح سمة لرقيق على دينار فى أقصى الغرب (٢) *

أما الشايقية وان كانوا من الجعليين فقد انفردوا بشلخ خاص بهم

(١) يوسف فضل : المرجع السابق * ص ٤٥ ، ٤٦ .

H (*)

Mach Michael; Op. Cit. Vol. I. p. 214.

(٢)

أنظر أيضا : يوسف فضل : المرجع السابق * ص ٥٤ .

وهو عبارة عن ثلاثة خطوط افقية متوازية * وتعد الشايقية من أكثر القبائل حرصا على هذه الشارات التي تميزهم عن غيرهم ، ويرجع هذا الحرص الى عاملين : أولا : لكونهم أقوى قبيلة في الجزء الشمالي من السودان ، وكانوا كثيرى المنازعات والحروب مع جيرانهم الأمر الذى بات يستدعى أن تكون لهم علامات مميزة أثناء القتال ، وثانيا : أنهم كانوا يعدون الشلوخ نوعا من الجمال *

وكان للعبد لاب شلخ خاص بهم عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية متوازية ينتصفها خط أفقى ** ، وتعرف عندهم « بالثلاثة مطارف وعارض » ولنسائهم شلخ خاص عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية تستند على خط أفقى ويسمى العارض *** * ويبدو أنه بانتهاء النفوذ السياسى للعبد لاب فى عام ١٨٢١ وازدياد الوعى فى منطقة ماتقى النيلين ، بالاضافة الى انتشار الطرق الصوفية * التى صهرت أكثر القبائل فى بوتقتها قد أدى الى اهمال الشلوخ ذات المدلول القبلى (١) *

وأما الوظيفة الدينية للشلوخ فكانت تتمثل فى أن هذه التشارات أصبحت تميزا لمريدى بعض الطرق الصوفية ، وخاصة القادرية * وأول من تمثل « الشلوخ » فى مضمونها الدينى هم أتباع الشيخ حسن ود حسونه بن الحاج موسى (١٥٦٠ - ١٦٦٤) فقد كان يزين وجوه أتباعه « شلخ » خاص على هيئة رقم (١٧١) ويعرف « بشلخ الشيخ حسن » أو « الشبور » (٢) *

وتبرز الوظيفة الدينية للشلوخ واضحة لدى مريدى الطريقة السمانية حيث ميزوا أنفسهم بشلخ خاص يسمى (سلم الشيخ الطيب)

≡ (*)

||| (***)

||| (***)

(١) يوسف فضل : المرجع السابق . ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٤ - ٦٥ .

صاحب الطريقة بالسودان ، ولهذا السلم ثلاثة أشكال ، أشهرها السلم ذو الدرجتين ❖ أو ما يسمى (بسلم العقيدة) ، وثانيهما هو السلم ذو الدرجة الواحدة ❖❖ الذى كان منتشرا بين الجعليين ، وثالثهما وهو عبارة عن أربع « فصدات » على هيئة مستطيل أو مربع ❖❖❖ ❖

وهناك ملاحظتان هامتان حول الوظيفة الدينية للشلوخ الأولى : أن هذه الشلوخ تقتصر على الرجال دون النساء ، وتفسير ذلك أن النساء كن أكثر شغفا بالشلوخ ذات المدلول الجمالى ، والملاحظة الثانية أن الشلوخ بعد أن ازدهرت فى المنطقة الوسطى من حوض وادى النيل الأوسط واكتسبت مضمونا قريبا انتقلت الى الاقليم الواقع جنوب ديار الجعليين أو فى أطرافه لتأخذ مضمونا دينيا صوفيا ❖

أما الوظيفة الثالثة للشلوخ فكانت وظيفة جمالية ، فعلى الرغم من أن هذه الشارات تحدث تشويها لخلقة الخالق ، فقد ساد الناس اعتقاد ، وخاصة بين أوساط العامة ، بأنها تضى حسنا وسحرا وجمالا على وجه المرأة ❖ ويبدو أن السودانين قد تأثروا بهذا المفهوم الجمالى من عملية الوشم المنتشرة بين كثير من نساء الشرق الأوسط ، إلا أن سواد بشرة المرأة السودانية لم يكن ليساعدها فى اظهار هذا الوشم الأمر الذى يقلل من قيمته الزخرفية ، فاكتفت باجرائه على الشفتين واللثة ، ولذلك كله استعاضت عن الوشم بالشلوخ زينة لها ❖

وخلال زيارة صمويل بيكر لعرب الحمران فى منطقة القصارف عام ١٨٦١ لاحظ هذه الشلوخ ، وعدها نوعا من الجمال رغم ما تحدثه من تشويه (١) ❖

❖ |

H ❖❖

❖❖❖ |

Baker; Samuel N; The Nile Tributaries of Abyssinia and the Sword Hunters of the Hamran. p. 273.

أنظر أيضا : يوسف فضل حسن : المرجع السابق ص ٧٦ .

وقد امتدح بعض الشعراء هذه الشلوخ التي كانت تزين خدود النساء بقولهم :

يرف عليه شباب الفنون وتبرق في وجنتيه الفصد
كما امتدح البعض هذه الشلوخ على وجه الرجال أيضا فقال قائلهم :

وذو شرط اذا لف العمامة تعالى الله ما أبهى قوامه
رضيت بشرطه في طول عمرى لأن الشرط آخره السلامة (١)

تلكم هي أغلب عادات السودانيين في القرن التاسع عشر منعا من استمر ولا زال ، لأن العادة من سمتها طول البقاء وان دخلها شيء من التحوير ، ومنها من اندثر وخاصة ما كان يتصل بالخرافات ، وهذا الاندثار يرجع الى التطورات العلمية الحديثة وازدياد الوعي بين المواطنين، كذلك فقد شهدنا أن المرأة في هذا المجتمع بصفة عامة قد تمتعت بمرکز لا بأس به ، فقد كانت تلعب دورا أساسيا بجوار الرجل فهي بجواره في الحقل ، وهي تاجرة بالأسواق وهي أيضا تتحمل قسما كبيرا في أعمال البيت وإنشاء المساكن .

ولا شك أن الإدارة المصرية قد حاولت — على استحياء — ان تنقضى على بعض العادات السيئة وخاصة ما يتصل بأنواع السحر ، وادخال عادات وتقاليد جديدة كما شهدنا في هرر حيث دعت الجميع الى ارتداء الملابس وأغطية الرأس التي كان بعضها قاصرا على الأمراء فقط ، كما أن بعض سكان الجنوب وخاصة الزعماء منهم بدأوا يرتدون الملابس ذات الطابع العربي بعد أن كانوا عراة حفاة ، الأمر الذي يعد نقله لا بأس بها في تطور الحياة الاجتماعية السودانية .

(١) يوسف فضل : المرجع السابق ص ٨٠ ، ص ٣٥ .

الفصل السابع

الطرق الصوفية والمجتمع السوداني

- عوامل انتشار الطرق الصوفية في السودان *
- أهم الطرق التي دخلت السودان *
- البناء الديني والاجتماعي للطرق الصوفية *
- الصوفية والفكر الديني *
- آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية *
- الطرق الصوفية والحكم *

ان الباحث في الحركات الثورية التي عمت الشرق في القرن التاسع عشر ليلاحظ بوضوح مدى ارتباطها بالتيار الديني ، والاسلامى منه على وجه الخصوص *

ويبدو أن هناك تلاحما حميما بين الايديولوجية والرؤى الدينية ، ولم يكن هذا التلاحم قاصرا على الشرق وحسب ، بل برز بشكل جلى في أوروبا العصور الوسطى التي أدمجت علم اللاهوت بكافة الأشكال المعبرة عن الأيديولوجية كالفلسفة والسياسة والقانون وجعلت منها جميعا أقساما تابعة لهذا العلم — علم اللاهوت — ، ولهذا اضطرت كل حركة اجتماعية وسياسية أن تتخذ لنفسها شكلا دينيا حتى تحدث أثرها في الجماهير المتخمة بالغذاء الديني وحده ، مضطرة أن تقدم لهذه الجماهير مصلحتها الخاصة في اطار ديني *

وهذا القول — ربما — يصدق على ما جرى في السودان عام ١٨٨١ حين برزت الدعوة المهدية في اطار ديني * لهذا كله لا بد أن نتساءل عن الخلفية الدينية التي نما في رحمها هذا الفكر الديني ، وهو سؤال — في تقديرنا — جد خطير ويطرح نفسه عند عام ١٨٨١ في محاولة للبحث عن أصول أو مقدمات لهذا الانفجار ، تقتضى منا بالضرورة أن نعرض لدراسة الطرق الصوفية قبل عام ١٨٨١ والتي تربي في كنفها قطاع ضخم من الشعب السودانى في القرن التاسع عشر بحيث استطاعت أن تشكل تلك الطرق كثيرا من فكره ، الأمر الذى جعل القيادات التي توجه هذا الفكر — في نهاية المطاف — ذات أصول دينية أيضا *

لقد شهدت منطقة حوض وادى النيل في مصر والسودان في مستهل القرن التاسع عشر حدثين هامين في المجال السياسى والدينى (١) ، الأول كان يتمثل في حركة البعث أو اليقظة لقوة مصر السياسية تحت زعامة محمد على وامتدادها بطول وادى النيل والبحر الأحمر * أما الحدث

الثانى فقد أخذ شكل يقيظة دينية بين جموع السكان فى شرقى السودان ، بدأت على استحياء فى بادىء الأمر ثم أخذت تنمو لتأخذ فى النهاية شكل الثورة المهدية * وهذه اليقيظة الدينية السودانية لبست رداء الطرق الصوفية حيث راحت تتعمق فى تعاليم روحية *

ويمكن أن نميز - فى العالم العربى ابان القرن للتاسع عشر - بين نوعين من التيارات الدينية كلاهما كان يدعو للإصلاح : الأول بدأ فى مقاومة البدع الدينية التى أدخلت على المجتمع الإسلامى بالسلم تارة وبالصدام المسلح تارات أخرى ، حتى وصل الى أزمة الحكم ، أى ان هذا التيار لم يكن يفرق بين الدين والدولة * أما التيار الثانى فقد أخذ شكلا صوفيا هادئا ، وهو ما يعيننا هنا ، حيث زخر السودان بصور وألوان شتى له تمثلت فى الطرق الصوفية *

ويبدو أن هذا النشاط الدينى بشقيه الظاهر والمستتر كان بمثابة رد فعل لضعف السلطة المركزية فى الخلافة العثمانية ، حيث تفتت وحدة المسلمين وبدأت أوطانهم تخضع للاستعمار الأوروبى ، فراح هؤلاء الصوفية يعملون فى الحفاظ على تلك الوحدة التى عزت فى الميدان السياسى (١) *

وحين نرصد أو نتلمس تطور الظواهر الصوفية فى السودان فسوف نعتبر عصر سلطنة الفونج هو بداية التطور الحقيقى للزهد ، وتمذهبه نحو التصوف (٢) *

عوامل انتشار الطرق الصوفية فى السودان :

هناك جملة عوامل أدت الى انتشار الصوفية فى السودان ، سواء فى عصر الفونج أو فى خلال الادارة المصرية للسودان ، ومنها ان هذه

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية . الجزء

الأول . ص ٦٢ .

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان . ص ١٠ .

الطرق كانت تلقى رواجاً في البلدان المجاورة له أو التي كانت على صلة بها كالحجاز والعراق ومصر والمغرب ، فمن هذه البلاد جاء دعاة الطرق وقاموا بنشر دعوتهم أو أوكلوها الى مواطنين سودانيين • كما أن السودان — فيما يبدو — له ميل الى الاعتزاز بالانتساب الى جماعة معينة • الى قبيلة أو حزب أو جمعية أو نقابة أو طريقة ، وهذا الميل يبدو جلياً لمن يتتبع تاريخ السودان •

كذلك فقد أظهر بعض المشايخ الكثير من الصفات الطيبة مما جعل الناس البسطاء يلجأون اليهم في ساعات العسر والضيق لقضاء مصالحهم ، فكانوا يلقون عندهم الانقاذ المادى والروحى • وربما ساعد على انتشار الطرق الصوفية أيضاً أن السودان لم يكن — آنذاك — به مؤسسة علمية كبرى كما كان الحال بمصر إذ وجد الأزهر الشريف الذى التمس الناس في أروقته العلوم الدينية التى أعطتهم شيئاً من الثقافة بينما راح السودانيون وهجرانهم الأفارقة يلتمسون في الطرق الصوفية بديلاً للأزهر •

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على انتشار التصوف في السودان أن أحوال البلاد قبيل عهد الفونج كانت ممهدة لتقبل هذه الطرق والانضواء فى سلكها ، فقد هاجر كثير من العرب الى السودان تحت ضغوط سياسية سواء فى الحجاز أو مصر أو افريقية الشمالية حين آلت كلها للحكم الفاطمى ، فأصبح السودان ملاذاً ولتقى لهذه الجموع المنازحة • وقد مل هؤلاء العرب التقلبات السياسية ، وكرهوا الحكم الفاطمى خاصة ، الى أن جاء بنو أيوب فكانوا أقرب الى قلوبهم من الفاطميين ، ثم لم يلبثوا أن شهدوا نهاية الأيوبيين على أيدي المماليك البحرية عام ١٢٥٠ م وبعدها بنصف قرن راح بيبرس يبعث حملات الى السودان ويعمل السيف والنار فى بلاد النوبة ، وترداد الحالة سوءاً بالانقسامات الداخلية بين مسيحي النوبة وتدهور الأوضاع السياسية الى درجة خطيرة ، بالإضافة الى الغارات والحروب المستمرة والعصبيات

القبيلية التي كانت تمزق البلاد في كل حين . كل ذلك أورث في نفوس السودانيين رغبة وشوقا الى حياة هادئة بعيدة عن السياسة والعصبية ، الى أن وجدوا في عهد الفونج هؤلاء المشايخ المتصوفة الذين يدعون الى الانتظام في سلك العبادة حتى دخلوا أفواجا وفي حماس شديد (١) .

وللمرحوم عباس العقاد رأى قريب من ذلك حيث يقول : « ويخطر لنا أن شيوع الطرق الصوفية في السودان قد نجم عن هذا الشقاق بين أشياع الدول الاسلامية المتعاقبة ، فانتشرت فيه الجماعات الصوفية التي تدين بالألفة بين أعضائها وتعرض في سبيل ذلك عن التشيع لهذه الدولة أو لغيرها » (٢) .

وهكذا بدأ السودانيون يتحلقون حول هذه الطرق الصوفية ، وبمرور الوقت ازداد مريدوها ومؤيدوها ، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة . وقد ذهب البعض للتعبير عن شدة ولاء السودانيين لهذه الطرق الى قوله بأن للسودانيين ولاء أقوى من العاطفة القبلية ، وأكثر حيوية من تبعيته لخديوى مصر ، وهذا الولاء الثالث للإسلام ، والذي انبثقت من تعاليمه الطرق الصوفية (٣) . كما ذهب آخر الى أنه يسكاد كل مسلم سودانى ينضوى تحت طريقة صوفية (٤) .

ويعرف البعض الطرق الصوفية بأنها نظام يجمع عددا كبيرا من الناس في سلك واحد ، ولهذا السلك رئيس يسمى شيخ الطريقة ، وهو

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) الأسماء العربية في السودان ، مجلة الكتاب ، يوليو ١٩٥٢ ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

(٣) هولت . ب . م . : المهدي في السودان . ترجمة جمال عبيد ص ٣٤ .

انظر أيضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، الجزء الثانى . ص ١٥٢ .

(٤) Hamilton; The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 209. (٤)

القائد والمرشد لاتباعه ، ولا يتبادر الى الذهن أبدا أن هذه الطرق عبارة عن مذاهب أو فرق دينية مثل فرقة الشيعة أو السنة (١) .

أهم الطرق التي دخلت السودان :

القادرية :

وكانت من أكبر الطرق انتشارا في العالم الاسلامي ، وقامت على يد عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر الميلادي ثم دخلت افريقيا الغربية في القرن الخامس عشر . وفي حوالي عام ١٥٤٥ قدم شخص الى السودان يدعى « تاج الدين البهاري » وأدخل القادرية في ربوعه . وقد التقى هذا الرجل بأربعة رجال التفوا حوله وهم : محمد الأمين ابن عبد الصادق جد الصادق ، و « بان النقا الضير » جد اليعقوباب وكان يكنى بأبى يعقوب ، والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاب . و « عبد الله دفع الله العركي » جد العركيين (٢) ، وهؤلاء الأربعة كانت بيدهم السلطان الزمنية والروحية زمن الفونج (٣) .

ولقد انتشرت هذه الطريقة في ارتريا ومصوع واعتقد أهل مصوع ان عبد القادر الجيلاني نفسه قد توفي في شبه الجزيرة حيث وجد مسجد يحمل اسمه ، ولعبد القادر الجيلاني مزار عندهم يحمل اسمه حيث يحتفلون به في الحادي عشر من ربيع الأول من كل عام * . كذلك فقد ذاع انتشارها في هرر على يد الشريف أبو بكر بن عبد الله العيدروسي المتوفى عام ١٥٠٣ ، وبين مسلمي الجالا . وكان للأمير

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالي . ص ١٨ .

(٢) Wailis, OB. Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.) Vol. IV, 1921, No. 4. p. 180.

(٣) عبد الجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٦ ، أنظر أيضا عبد القادر محمود : الفكر الصوفي في السودان . ص ٥٢ وأيضا : Wailis; Op. Cit. p. 180.

(*) المعروف أن عبد القادر الجيلاني مدفون بالعراق .

عبد الشكور أمير هرر (١٨٧٣ - ١٨٨٤) مسجد أوقف لصاحب الطريقة
عبد القادر الجيلاني (١) *

ومع ان هذه الطريقة قد أخذت طريقها على الساحل الصومالي
في وقت مبكر إلا أنها لم تغزو الداخل إلا في عام ١٨١٩ حيث حصل
الشيخ إبراهيم حسن جبرو على أراضى وأسس مركزا بدأ ينمو في
المدينة التي تسمى بارديرا Bardera على جوبا . وتجدر الإشارة الى
أن هذه الطريقة حظيت بتأييد قوى بارتريا ومصوع وأسمره ومعظم
المدن الكبرى . كما أنها تمتعت بنفوذ قوى أيضا بين القبائل الساحلية *
وكثير من بدو أرتريا يعدون عبد القادر الجيلاني من الأولياء الصالحين
ذوى المكانة الروحية الكبيرة (٢) *

ولقد اتسم نشاط القادرية في الدعوة الإسلامية بالطابع السلمى
الذى كان يعتمد كل الاعتماد على الارشاد والقدوة الحسنة ، كما كان
يعتمد على مبلغ تأثير المعلم في تلاميذه وعلى انتشار العلم ، وبهذا
السلوك برهن دعاة القادرية في السودان على انهم أوفياء لمبادئ
مؤسس الطريقة ولتقاليدها العامة التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر
الجيلاني والمتمثلة في حب الجار والتسامح * وفي ذلك يقول
« سير توماس أرنولد » « ولم نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على
سوء نية أو عداوة نحو المسيحية » (٣) *

الطريقة الخلوتية :

يرجع تاريخ هذه الطريقة الى بضعة مئات من السنين عقب ظهور
القادرية * ومؤسسها هو شخص يدعى محمد الخلوتى ، والرأس المعروفة

Trimingham; Op. Cit. pp. 239 - 240.

(١)

Ibid. pp. 240 - 241.

(٢)

(٣) انظر : الدعوة الى الاسلام . بحث في نشر العقيدة . ترجمة حسن

إبراهيم حسن وآخر . ص ٢٧٨ .

لهذه الطريقة هو تلميذه عمر الذى توفى فى قيصرية * عام ١٣٩٦ م * ولقد ظلت هذه الطريقة لسنوات طويلة فى آسيا الصغرى وتركيا والحجاز والهند * وفى القرن الثامن عشر دخلت الطريقة فى طور جديد على يد السيد مصطفى كامل الدين البكرى الذى كان استاذاً بالأزهر الشريف والمولود بدمشق عام ١٧٣٣ * أما تاريخ دخولها الى السودان فقد كان على يد السيد أحمد الطيب ولد البشير المتوفى عام ١٨٢٣ * وقوبلت هذه الطريقة بترحاب شديد فى السودان وأصبح لها أتباع كثيرون * ولقد كانت أسرة محمد شريف باشا نور الدايم على رأس الطريقة فى ظل الادارة المصرية (١) *

الطريقة السمانية :

وأصل هذه الطريقة فرع من الطريقة الخلوتية والكل ينتمى الى القادرية * وتنسب السمانية الى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمانى (١١٣٠ هـ - ١١٨٩ هـ) ، ثم استقرت على يد الشيخ أحمد الطيب فى مطلع القرن التاسع عشر ، وكان أنتشارها فى بادىء الأمر بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة (٢) * وقد اشتغل الشيخ أحمد الطيب بدراسة الحديث والتفسير والتصوف ، ثم بدأ ينتقل هنا وهناك فى رحاب السودان ملتقياً بأعلام التصوف فى زمانه أمثال الشيخ حمد المجذوب شيخ المجذوبية فى « الدامر » وسافر الى الحجاز ونزل بأرض مصر فى أسيوط ومدن الصعيد ومكث فترة طويلة بالقاهرة حيث صاهره تلميذه قاضى القضاة أحمد السلاوى * ومن أحفاد الشيخ أحمد الطيب الشيخ محمد شريف نور الدايم استاذ المهدي ، والذى أعطاه الطريقة السمانية (٣) *

(*) تقع فى تركيا *

Wailis, Op. Cit., p. 182.

(١)

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٢ .

ولقد انتشرت الطريقة السمانية بين جموع الجبرتية في الهضبة الارترية على يد شيخ مغربي يدعى آدم الكنانى * وكان هذا الشيخ من السودان فقام بنشرها بين قبائل الجالا ، إلا أنه لم يحرز نجاحا كبيرا بين عرب الحبشة (١) *

الطريقة الجذوبية :

وهذه الطريقة مأخوذة من الطريقة الشاذلية التى أسسها الامام أبو الحسن الشاذلى (١١٩٦ - ١٢٥٨ م) المولود بشاذلة بتونس (٢) * وقد انتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر على يد أبى عبد الله محمد سليمان الجزولى ، ويقولون ان احدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح الى السودان وبصحبه ابنه السيد ابن الحسن وأقاما في المكان المسمى الآن (المحمية) وذلك في عام ١٤٤٥ م قبل قيام السلطنة الفونجية وراحا يشرعان للناس الطريقة الشاذلية الى أن رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى عام ١٧٤٣ * ويقال أيضا أن هذا الشيخ كان في أول الأمر قادريا ثم أصبح شاذليا أى أن طريقته شاذلية ذات

(*) لم يذكر المؤلف تاريخا لدخولها ونرجح انها دخلت في منتصف القرن ١٩ .

وقد تفرعت عن السمانية طريقة أخرى تسمى الهندية تحت رئاسة الشريف يوسف الهندى * (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٠) .
(٢) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن الشاذلى ص ٢٤٩ . ولكن أحد الباحثين يرجع تأسيس هذه الطريقة الى شخص يدعى أبو مدين الأندلس المولود بسييفيل Seville عام ١١٢٦ م . وكان تلميذا للشيخ عبد القادر الجيلانى . وانتشرت تعاليمه في شمال أفريقيا على يد عبد السلام بن مأسيس Mashish وفي الشرق عن طريق أبى الحسن الشاذلى .

أنظر : (Wailis; Op. Cit, p. 183.)

والاختلاف يدور هنا فقط حول المؤسس الرئيسى لها ولكن لا خلاف على أن الشاذلى قام بنشر هذه الطريقة .

أثر قادري (١) * وفي القرن الثامن عشر انتقلت الطريقة من بعده الى حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ - ١٧٧٦ م) الذى أنشأ بعد عودته من مكة فرعا للشاذلية فى الدامر وسميت طريقته بالمجذوبية ويطلق على من يسلكونها اسم « المجاذيب » (٢) *

ويبدو أن أسرة المجاذيب فى ذلك الوقت كانت تحظى بمكانة دينية رفيعة بين سكان الدامر الأمر الذى جعلها تأخذ زعامة الطريقة وتتوارثها (٣) *

وقد يكون من المفيد ونحن ننتبع تطور هذه الطريقة أن نعرض لأوضاع بلدة الدامر ، موطن المجاذيب وطريقتهم ، من الناحية العلمية والدينية فى مطلع القرن التاسع عشر حتى يمكننا فهم هذه الطريقة واسلوب انتشارها بين سكان السودان * وفى هذا الوصف يتجلى لنا مدى السلطة الدينية التى كانت تحظى بها الطريقة المجذوبية * فقد كانت عشيرة آل المجذوب فى معظمهم من رجال الدين وليس لهم شيخ يتولى زعامتهم ، بل فقيه يسمى « الفقى الكبير » فهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يتولى الفصل فى خصوماتهم ، وأصبح هذا المنصب وقفا عليهم منذ مدة طويلة وأشتهروا بين الناس — كما يذكر بوركهارت — « بالسحر والعرافة » * ❀

(١) عبد المجيد عابدين . المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٢) نفس المرجع ص ٦٨ . ويبدو أن هناك اختلافات كثيرة حول النسب المجذوبى وقد نشأ هذا الاختلاف نتيجة التشابه الشديد بين الأسماء مما سبب خلطا كثيرا لدى المؤرخين قدامى ومحدثين فى الشرق والغرب . فهم يخلطون بين الفقيه حمد بن المجذوب ووجه الكبير حمد عبد الله . وبين محمد المجذوب بن قمر الدين وبين جدابية محمد المجذوب ابن على أبى دافع .

(عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٨٥) .

(2) Wailis; Op. Cit. p. 183.

(❀) لا يسمى رجال الدين من الفقهاء والمتصوفة ذلك سحرا أو عرافة بل يعدونه كرامات ظاهرة « منحها الله إياهم » .

أنظر : مخطوطة كاتب الشونة : تحقيق الشاطر بصلى ص ١١١ ،

ص ١١٢ .

وكانت بالبلدة مدارس كثيرة يؤمها الطلاب من كافة أنحاء السودان من دارفور وسنار وكردفان وغيرها لدراسة الفقه دراسة تؤهلهم ليكونوا في بلادهم فقهاء كبارا * كذلك فقد زحرت بيوت فقهاء الدامر بالحب ذات الطابع الديني ، وهذه الكتب كانت تجلب من القاهرة إذ كان كثير من الفقهاء مجاورا بالأزهر أو في المسجد الحرام بمكة ، وكانوا إذا عادوا من تلك الرحلات العلمية التي تمكث سنوات عدة نقلوا ما حصلوه من علم الى أبناء البلدة (١) * وكان بالبلدة جامع كبير ملحق به مكن مكتشف محاط بحجرات للدرس ، وبالإضافة الى ذلك كان لكثير من فقهاء البلدة زوايا صغيرة بجوار بيوتهم ، كما كان كبار الفقهاء محاطين بمظاهر الورع والتقوى ، ويعيش « الفقي » الكبير عيشة العابد المتقشف المنقطع للعبادة والدرس ، وقد أطلق بوركهارت على كل ذلك وصف « الدولة الدينية الصغيرة » التي كانت تصرف شؤونها بمنتهى الحكمة والتعقل ، واستطاعت أن تجعل جيرانها يكونون لفقهاء أعظم الاحترام والاجلال (٢) *

في وسط هذا المناخ الديني والعلمي نمت المجذوبية ، فكان زعماء المدينة الدينيون وأهلها مؤهلين لتقبل تعاليم الطريقة المجذوبية فهذه الرياح الجديدة ليست غريبة عليهم *

ومعروف أن أسرة المجاذيب من الجعليين لذلك فانه عقب مقتل اسماعيل كامل في شندي ، ومحاولات أخذ الثأر من الجعليين هرب المجذوب الى سواكن ، ثم سافر الى مكة حيث درس لسنوات عدة على يد السيد أحمد ادريس ، وفي خلال عودته الى السودان في حوالى عام ١٨٣٠ قام بنشر الطريقة في سواكن وبين القبائل الشرقية المنتشرة

(١) بوركهارت المصدر السابق : ص ١٠٥ ، ص ٢٠٦ *

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ *

(م ٢٨ - التطور الاقتصادي والاجتماعي)

حول سواكن من البجاة وخاصة الهدندوة والبشاريين • وقد عاد
المجذوب الى بلده عام ١٨٣٢ حيث مات ودفن هناك •

وكان من بين خلفائه الشيخ ياسين السواكيني والشيخ على دقنه
عم عثمان دقنه الشهير (١) •

ويبدو أن أتباع هذه الطريقة كانوا يتمتعون بصفات طيبة واخلاص
واضح لتعاليم طريقتهم ، من ملازمة للأذكار والرواتب عقب الصلوات
واتباع للأمر والنهي والاقتداء بشيخ الطريقة والسير على نهجه
وامتناعهم عن الأكل مع تارك الصلاة ، كذلك فانهم كانوا يحرصون
على صلاة الجماعة ، فاستطاعوا بذلك كله ترسيخ قواعد هذه
الطريقة (٢) •

ويشير البعض الى طريقة أخرى ذات صلة بالشاذلية وان كانوا
لا يقطعون بصحة هذه الصلة تلك هي المسماة بطريقة (أبو جريدة)
حيث يقولون ان عبد الله دفع الله العركي عاد من إحدى رحلاته الى
مكة ومعه سبعة أشرف استوطنوا السودان واشتهروا بالصلاح وكان
لأحدهم ولد يدعى « الشريف أبكر » انقطع للعبادة دون أخذ الطريقة
على شيخ وتعلم أموراً في السحر والغيبات ، ثم استطاع أن يعلن مع
زميل له يدعى (أبو جريد) قيام هذه الطريقة (٣) •

وتتهم هذه الطريقة بالخزعات ، وشيوع طقوس سرية غير مألوفة
لدى كافة الطرق الصوفية في السودان (٤) • ولما كانت تعاليم الطريقة
الشاذلية — كما ذكرنا — بعيدة عن مثل هذه الطقوس ، فاننا نستبعد

Wailis, Op. Cit. p. 184.

(١)

(٢) يحيى محمد إبراهيم : التعليم الدينى فى السودان ص ٣٤ •

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ •

Wailis; Op. Cit. p. 184.

(٤)

أن تكون طريقة أبو جريدة ذات صلة بالشاذلية التي كانت البسطة
سمتها الأساسية (١) *

الطريقة الادريسية (الأحمدية) :

مؤسس هذه الطريقة هو السيد أحمد بن ادريس القاسمي
(١٧٦٠ - ١٨٣٧) ، المولود ببلدة Arkish بمراكش * وقد تلقى
تربيته ونشأته بفاس ، وتلقى الطريقة الشاذلية من الشيخ عبد الوهاب
التازي * وقد سافر الى القاهرة في عام ١٧٨٨ واتجه منها الى مكة في
عام ١٧٩٧ حيث تلقى مزيدا من العلم (٢) *

وقد لعب هذا الرجل دورا هاما في حركة النهضة الاسلامية في أوائل
القرن التاسع عشر ، ويقدر ما كان مصلحا فهو صوفي يهدف الى وحدة
المسلمين * وكانت له ميوله المتعاطفة مع الوهابيين ، ويقال انه حاول
أن يخفف من التطرف الشديد لدى تعاليم بعض الطرق الصوفية ،
وطلب بالتركيز على المعرفة الشرعية للقرآن الكريم والشريعة كأساس
ضروري لكل من ينشد الدخول في سلك الصوفية (٣) *

ولم تقتصر مهمة أحمد بن ادريس على كونه مؤسسا وشيخا
للطريقة الادريسية بل كان معلما لشخصيات بارزة كما سبق القول *
ويتركز مريدو هذه الطريقة في السودان ببلدة دنقلة وان كان مركزها
الأساسي - حاليا - بدراو بالاضافة الى القاهرة ، كما وأن لها فرعا
بالعسير ينتمي الى هذه الطريقة (٤) *

ولم يقتصر وصول الطريقة الى هذه الأجزاء بل انتقلت الى شرق
افريقيا في عام ١٨٧٠ على يد شيخ صومالي يدعى (على ماي دوروقبا)

Wailis; Op. Cit. p. 183.

(١)

Ibid. p. 184.

(٢)

Trimingham; Op. Cit. p. 292.

(٣)

(٤) محمد عوض منجد : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

Ali Maye Durogba وقد تلقى هذا الشيخ تعاليم الطريقة الادريسية حين كان يؤدى فريضة الحج وبعد عودته وطد نفسه لنشر تعاليمها فتشكلت من حوله جماعة كبيرة ارتضت الادريسية طريقة لها * وقد حصل هذا الرجل على شهرة عظيمة بين الصوماليين وكثر أتباعه بين القبائل ، ويعزو البعض هذه الشهرة الى الأعمال الاعجازية التى قام بها بالإضافة الى ملازمة الدعاية التى قام بها مع أفكار الصوماليين فى ذلك الوقت (١) *

الطريقة الرشيدية :

تفرعت هذه الطريقة عن الادريسية وقد أسسها الشيخ ابراهيم الرشيد من بلدة الدبة بدنقلة ، وكان مريدا للسيد أحمد بن ادريس سائرا على تعاليم الادريسية * وتركز اتباع هذه الطريقة فى دنقلة وأم درمان وجزيرة توتى والنيل الأبيض خاصة فى « كوا » * ولهذه الطريقة أتباع فى الصومال وسوريا (٢) *

الطريقة الميرغنية (الختمية) :

أسس هذه الطريقة فى السودان محمد عثمان الميرغنى الكبير (١٧٩٣ - ١٨٥٢) الذى ولد ونشأ بالحجاز ، وتنسب الطريقة الى الجد الأكبر السيد على الميرغنى * ويقال أن أحمد بن ادريس هو الذى أرسله من مكة لنشر تعاليمه فى مصر والسودان وما جاورهما * ويذكر البعض أن هذه الطريقة قد بنيت على أصول طرق خمس رمز لها بكلمة

Trimingham; Op. Cit. p. 242.

(١)

Wailis; Op. Cit. p. 187-188.

(٢)

(*) يقول البعض ان اسم الميرغنية يشترك أحيانا من « أميرغنى » أى الأمير الثرى . (انظر : Wailis; Op. Cit. p. 185.) .

« نقش جم » فالتون للنقشبندية ، والقاف للقادرية والشين للشاذلية ،
والجيم للجنيديّة وأخيرا الميم للميرغنية (١) .

وقد دعيت هذه الطريقة أيضا بالختمية لأن شيخها — كما يقال —
وصل في سلوكه الى رتبة الختم وهي مرتبة عند الصوفية لا يصل اليها
إلا عارف « ولى » في كل قرن (٢) ، أو ربما باعتبارها خاتم الطرق (٣) .
أو ربما أيضا نسبة الى خاتم الأنبياء (٤) .

ولقد بدأ محمد عثمان الميرغنى رحلته من الحجاز فوصل الى أسيوط
مارا ببلاد الصعيد حتى أسوان ومنها الى دنقلة التى استطاع أن يجمع
فيها أنصارا عديدين من النوبيين ، الأمر الذى شجعه على مواصلة
المسيرة الى كردفان حيث تزوج من « بارا » ومن الأبيض (٥) . ثم
امتدت دعوته الى سنار وما حولها حتى اتجه نحو الشمال ومر بشندى
والمتمة وعرج نحو الشرق الى قوز رجب وكسلا ، واستطاع من خلال
جولاته تلك أن يضم الى طريقته مريدين جددًا من قبائل بنى عامر
والحلائقة والحباب والبشارية وغيرهم ، وفي كسلا قام بتأسيس قرية
(الختمية) التى كانت المقر الرسمى والرئيسى (٦) .

ولقد تولى السيد محمد الحسن نجل محمد عثمان أمور الطريقة بعد
وفاة والده عام ١٨٥٢ ، وكان قد أرسله والده فى حياته الى سواكن

(١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة
المصرية ، الجزء الثانى . ص ١٥٣ .
أنظر أيضا :
Wailis; Op. Cit. p. 180.

(٢) نفس المرجع ص ١٥٣ .

(٣) Trizningham; Op. Cit. p. 244.

(٤) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٥) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٢٥ .

Wailis; Op. Cit. p. 186.

أنظر أيضا :

Trimingham; Op. Cit. p. 244.

(٦)

Wailis; Op. Cit. p. 186.

وكذلك عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٥ .

وارتريا لنشر الطريقة هناك * وهكذا بعد تأسيس الختمية في شرقي السودان بدأ محمد الحسن يواصل العمل الذي بدأه والده حتى عمت الطريقة مصوع وأرتريا وجنوب غربي الحبشة عند نهاية القرن التاسع عشر (١) * ويعد محمد الحسن كما يقول ترمنجهام هو المسئول الرئيسي عن النفوذ الكبير الذي حصلت عليه الطريقة الختمية بين قبائل السودان في الشرق والقبائل الأرترية * وقد انتقلت الطريقة الى مصوع عن طريق هاشم الميرغنى الذي وصل اليها عام ١٨٦٠ حيث كانت تحت الادارة العثمانية (٢) *

وعقب وفاة محمد الحسن في عام ١٨٦٩ خلفه في رئاسة الطريقة ابنه محمد الميرغنى ، (١٨١٩ - ١٨٨٦) ، الذي حاول الارتقاء بالطريقة بما عرف عنه من الذكاء والنشاط ، كما أنه تمتع بمكانة خاصة في تاريخ تلك الفترة ، واستطاع أن يلعب دورا هاما خلال الطور العلني للثورة المهديّة في محاولة منه لاحلال السلام على أرض السودان * وقد ظل بالختمية حتى بعد سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥ (٣) *

وتعتبر الطريقة الختمية من أوسع الطرق الصوفية انتشارا في السودان وتحظى بمكانة رفيعة ، كما أنها تمتاز في إظهارها وأورادها وسائر مظاهرها بخلوها من البدع والأمور الطارئة على الطرق الصوفية كالطبل والزمر وغير ذلك ، فجميع اذكارها وأورادها ترجع الى الكتاب والسنة بناء على أسانيد صحيحة (٤) * وكما سبق القول فقد ارتبطت الطريقة الختمية بعدة طرق إلا أن ارتباطها بالشاذلية كان شديدا ، وخصوصا من خلال مزج أحزابهم بفقرات ورسائل كاملة من أحزاب « البر » و « البحر » للامام الشاذلي (٥) *

-
- (١) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية ص ١٢٨
 (٢) Islam in Ethiopia. pp. 225, 244.
 (٣) Hill; A biographical Dictionary of the Sudan p. 279.
 أنظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.
 (٤) عبد الله حسين : المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ *
 (٥) عبد القادر محمود : المرجع السابق ١٣٣ *

وللسيد محمد عثمان الكبير مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن المسمى « تاج التفاسير » ، بالاضافة الى مؤلفاته في الحديث وعلم المصطلح والتوحيد والتصوف والصلوات والأوراد والمدايح النبوية وغير ذلك من العلوم الدينية (١) .

الطريقة الاسماعيلية :

وهي من الطرق الصوفية التي انبثقت عن الختمية في أوائل القرن التاسع عشر ، إلا أنها تعد سودانية النشأة بعكس كثير من الطرق التي انتشرت في السودان ، بمعنى أن أفكارها ومؤسسيها الأول كانوا من أهل البلاد ولم يكونوا وافدين من خارجها . ويعد الشيخ اسماعيل ابن عبد الله الملقب باسماعيل المولى هو المؤسس لها في الأبيض بکردفان . وترجع أصول والده الى دنقلة بشمال السودان الذي قدم الى مدينة الأبيض ليعمل بالتجارة كسائر الدناقلة الذين اشتهروا بأعمال التجارة في أنحاء السودان كافة وفي الأبيض خاصة لدرجة أن لهم حيا خاصا عرف بحى الدناقلة . وفي هذا الحى ولد اسماعيل المولى ونشأ وحفظ القرآن الكريم وأظهر نبوغا مبكرا ، كما عمل بالتدريس قبل أن يلتقى بشيخه السيد المكى الختم محمد عثمان الميرغنى . وفي عام ١٨١٣ التقى اسماعيل المولى بشيخه محمد عثمان الميرغنى في مدينة الأبيض وتلقى عنه بعض العلوم الدينية واللغوية ، وسارع بالانضمام الى الختمية وانخرط في القيام بواجباتها حتى جاء عام ١٨٢٣ فاستأذن استاذة محمد عثمان الميرغنى في تأسيس طريقة جديدة فأذن له على أساس أنها فرع للختمية (٢) . وقد انتشرت هذه الطريقة في جميع أرجاء السودان ولاسيما في كردفان وأم درمان ودنقلة بالاضافة الى دارفور (٣) .

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٤٢ .

Wailis; Op. Cit. p. 186.

(٣)

ويشير البعض الى أن مؤسس هذه الطريقة قد جمع في مؤلفاته بين علمي الشريعة والحقيقة في فترة كانت تنسم بالركود العلمي ، فقد نيفت مؤلفات الشيخ اسماعيل على الخمسين كتابا في المجالين المشار اليهما ، وتمتاز هذه المؤلفات بالأحكام الفنية وبلاغة الأسلوب على خلاف ما يلاحظ في اشعار المتصوفين في السودان آنذاك ، ومن أشهرها « مشارق الأنوار » (١) . وبمعنى آخر أن شيخ هذه الطريقة ومريديه لم يقتصروا على مجرد الأمور الشكلية المعروفة عن الطرق الصوفية ولا حتى العلوم المرتبطة بهذه الطرق أو ما يعرف لديهم بالعلم الحقيقي ، بل تعدوا ذلك الى علوم الشرع حيث عكفوا على دراساتها وشرحها للمريدين ، بل والتأليف فيها كما سبق القول .

ومن الطرق المتصلة بالختمية الطريقة النقشبندية التي أسسها عبد الدين بن محمد بهاء الدين البخاري النقشبندی . وهذه الطريقة ليست موجودة في السودان في شكلها الأصلي ولكن كواحدة من أسس الطريقة الختمية .

الطريقة التجانية * :

وهي من أشهر الطرق في أفريقيا بصفة عامة ، فقد عرفت هذه الطريقة بأسلوبها المتميز في نشر الاسلام في غرب افريقيا والذي ينحو نحو الحزم الشديد المزوج باستخدام القوة كما كان يغلب عليها النزعة الصوفية العميقة (٢) .

ولقد أسس هذه الطريقة السيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجاني (١٧٣٧ - ١٨١٥) المواد بعين ماضي

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٢ .
 (٢) يقال لها : تجانية بتشديد الجيم ودون ياء ، ولا يقال لها التجانية (عبد القادر محمود : المرجع السابق . ص ٥٨) .
 (٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٠ ، ٢١ .

بالجزائر ، ومن بين المناطق التى زارها فى السودان مدينة الأبيض حيث أقام فيها خمس سنوات (١) •

وقد كان انتشارها فى السودان فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث سارت على نفس أساليب الطريقة القادرية فى الدعوة مع فارق جوهري وهو أن التجانية لم تكن تتورع عن اللجوء الى السيف (٢) • وربما يكون مرد هذه النزعة القتالية الى الحماسة الشديدة لديهم فى نشر العقيدة بالاضافة الى البيئة المحيطة بهم بكل مشاق الطبيعة وسط قبائل لا تنزع الى النظام ، بالاضافة الى المناخ الوثنى الذى كانت تعيش فيه هذه القبائل ، ويشبه البعض (٣) الطريقة التجانية فى هذه الناحية بالمهدية التى لجأت الى القوة فى تنفيذ مخططاتها الدينية • إلا أننا نرى أن هناك فارقا جوهريا بينهما وهو أن التجانية كان مسرحها فى أغلب الأحيان وثنيا وفى مواجهة الأوربيين بعكس المهدية •

وميدان انتشار هذه الطريقة فى السودان اقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، ويقال ان جميع الفلاتا المقيمين حول سنار تابعين لها ، كما أن لها نفوذا واسعا فى دارفور (٤) •

السنوسية :

أسس هذه الطريقة الفقيه الجزائرى محمد بن على السنوسى بهدف اصلاح شأن الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية •

ولقد اختار مؤسس الطريقة مدينة برقة مركزا لدعوته نظرا لاتصال منطقة الجبل الأخضر بالعالم الخارجى عن طريق ثغرى درنه وبنغازى

-
- (١) عبد القادر محمود : الطوائف الدينية ص ٥٨ .
 - (٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام . ص ٢٧٨ .
 - (٣) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٥٤ .
 - (٤) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

بالإضافة الى مرور جميع القوافل القادمة الى طرابلس وفزان وبرنو ووادى أو تلك الآتية منها بهذا الجبل ، ولهذا كله وجدت الدعوة السنوية سبلا عدة للاتصالات وبسط النفوذ . وفى عام ١٨٤٢ أنشأ السنوسى الكبير زاوية البيضاء ، ثم انتقل بعدها الى زاوية الجغبوب نظرا لأن زاوية البيضاء كانت على مقربة من الساحل الأمر الذى يجعلها قريبة من سلطان الحكومة العثمانية فى بنغازى والتي راعها أن الزاوية البيضاء أصبحت بعد فترة وجيزة من انشائها مدينة كبيرة . فذلك فضل أن يكون المقر الجديد لزاويته فى الجنوب البعيد عن الساحل والذى تكثر فيه القبائل العربية التى قبلت السنوسية وأصبح فى الامكان أن يعتمد عليها فى نشر دعوته داخل الصحراء (١) . وكان من الطبيعى والزوايا السنوسية تنتشر فى الصحراء الكبرى وعلى حدود السودان ان تمتد هذه الطريقة اليه ، بل انها وصلت أيضا الى الصومال (٢) .

طرق أخرى :

وهناك بعض الطرق والطوائف الأخرى التى انتشرت فى السودان ولكنها لم تبلغ من الضخامة والتنظيم كما بلغته الطرق السابقة ، كما أنها لم تلعب دورا يذكر فى المجتمع السودانى بل ظلت تدور فى فلك أصحابها الذين قاموا على تأسيسها ولم تجتذب مريدين كثيرين بحيث يشكلون ثقلا جماهيرا ، لذلك آثرنا الوقوف على أهم تلك الطرق الصوفية الرئيسية التى دخلت السودان أو التى نشأت به فى القرن التاسع عشر .

البناء الدينى والاجتماعى للطرق الصوفية :

لا يكفى اطلاقا أن نعرض لنشأة الطرق الصوفية فى السودان ، بل انه من اللازم أن نغوص فى داخل هذا التركيب الدينى الاجتماعى الذى يعد ركنا أساسيا من أركان المجتمع السودانى بجانب البناء القبلى .

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ٥٥ .

فكثيرا ما يصعب على الباحث في تاريخ السودان ابان القرن التاسع عشر أن يميز بين الجماعة الصوفية وأهل الحلة أو العشيرة الواحدة في السودان ، فقد لاحظنا على سبيل المثال أن سكان الدامر أهل بلدة واحدة وفي ذات الوقت هم أهل طريقة صوفية واحدة هي الطريقة المجذوبية ومثل هذا يمكن أن يصدق على جماعات كثيرة في السودان كاليقوباب والصادق ، وهما جماعتان صوفيتان صغيرتان تستقران في مقر معاوم . وقد يصعب أحيانا التمييز بين القبيلة الصغيرة (العشيرة) وبين الطريقة الصوفية من ناحية مؤسسى كل منهما ، فالرجال الذين حملت أسماءهم بعض القبائل كانوا هم أيضا قادة الرأي وأيضا مؤسسى بعض الطرق ، فالعلاقة بين نظام القبيلة ونظام الطرق قوية وتقف على أرضية مشتركة .

وثمة ملاحظة مشتركة أيضا تتمثل في أن نظام الطريقة مشابه في جوهره لنظام القبيلة من حيث أن لكل منهما شيخا هو رئيسها الأعلى ، وهذا الشيخ يكاد يقبع في الرئاسة طوال حياته ، حتى يرثه واحد من أبنائه ، ويلاحظ كذلك ان الطريقة الصوفية يمكن أن تتفرع الى عدة فروع وقد يندمج بعضها في البعض الآخر وكذلك الحال بالنسبة للقبيلة . وفي تتبعنا التالي لبناء الطريقة الصوفية ربما تتضح الصورة أكثر .

١ - شيخ الطريقة :

يعتبر شيخ الطريقة أحد الأركان الأساسية عند كل طريقة ، فقد لاحظنا ان كل الطرق سواء الرئيسية منها أو المنبثقة قد تحلقت حول شيخ لها راح يجوب الاصقاع داعيا الى طريقته كسبا للمريدين والاتباع . ولم يكن من السهل لأى فرد أن يكون طريقة خاصة لأن ذلك يقتضى شروطا تؤهله لقيادة مسيرة الطريقة . وأولها في اعتقادنا أن يكون ذا نسب شريف أى أن له صلة ببيت الرسول (عليه الصلاة والسلام) أو حتى على الأقل أن يكون من أهل مكة . ولا نسوق هذا القول جزافا ، ولكن اذا لاحظنا مسيرة معظم زعماء الطرق فسوف يتضح ذلك بجلاء ،

حتى أولئك الذين ولدوا خارج مكة والمدينة كانوا حريصين على سلسلة النسب الشريف هذه . وهذا النسب وحده لا يكفي لكى يخلق من الفرد شيخا لطريقة ما ولكن لابد وأن يقتنر بعلم وذكاء ، وهذا العلم لا يقتصر على ما يسمى عند المتصوفة بعلم الباطن ، بل أيضا العلوم الشرعية التى تعين المسلم العادى البسيط على العبادة والمعاملات الدنيوية . ويصدق هذا على شيخى الميرغنية والمجذوبية فكلاهما كان عالما متفقا ولكل منهما مؤلفات فى علوم الدين الاسلامى . وكان لابد أيضا أن تقتنر هذه الصفات بالورع والتقوى والقُدوة الحسنة ، لأن أولئك الرجال من الصوفية فى القرن التاسع عشر كانوا لا يقتصرون على مجرد كسب أتباع مسلمين يرددون أوراذا لهذه الطرق بل كانوا أيضا يقومون بنشر الدعوة الاسلامية كما لاحظنا بالنسبة للتجانية والسنوسية . فكان من الطبيعى أن يسبق خلق وسلوك هذا الداعية دعوته الى الاسلام وهذا ما شهدناه بالنسبة للسنوسيين الذين كانوا يشترون العبيد ويعلمونهم فى جغوب مبادئ الاسلام ثم يتركونهم يعودون الى ديارهم بعد عتقهم حتى اذا ما رجعوا الى أوطانهم كانوا دعاة للاسلام والطريقة معا (١) . وهذه الصفة الأخيرة شهدناها بوضوح لدى شيوخ المجذوبية فى الدامر الذين كانوا مثالا حيا للورع والتقوى والقُدوة الطيبة ولذلك استحقوا ائادة الرحالة السويسرى بوركهارت عند زيارته لهذه البلدة فى أوائل القرن التاسع عشر .

والى مقر الشيخ ، الذى كان فى الغالب مقرا للطريقة ، يفد الناس والمريدون حيث يمتلىء بهم ، وهنا لابد من وقفة للإشارة الى أن هذا المكان بالاضافة الى كونه مقرا لشيخ الطريقة فهو أيضا للعبادة والمأوى ففيه تتم قراءة الأوراد والأذكار وقراءة القرآن الكريم ، وفيه يجتمع الكل من شتى القبائل تحت لواء الشيخ .

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام . ص ٢٨٢ .

ولسنا مع القائلين بأن أساس الطرق الصوفية في الاسلام هو ذلك الاعتقاد بأن المريد الذي يرغب في الاتصال بالله في حاجة الى قيادة شخص أو « واسطة » من أولئك المتمرسين في الطريق الى هذا المكان . وهذه الواسطة في رأيهم — تكمن في شيخ الطريقة الذي يمنح البركة ويقوم بدور الوسيط بين المريد وبين الله (١) * وهذه الرؤية أو هذا التفسير فيه تجاوز وخطأ جسيم لفهم أساس الشريعة الاسلامية ، فليس هناك البتة واسطة بين المسلم وربه ، وقد نفت آيات كثيرة من القرآن الكريم اتخاذ أى لون من ألوان الواسطة لتقرب الانسان زلفى الى الله * واذا كان القرآن الكريم وهو الكتاب المنزل من عند الله لم يعتبر الرسول محمد عليه السلام واسطة بين المسلم وربه فهل يعقل أن يقوم شيخ بهذه المهمة ؟ ثم ان رجال الطرق الصوفية أنفسهم لا يمكن أن يكون قد ورد في أذهانهم مثل هذا التفكير الخاطيء * وقد يكون مرد هذه الأقاويل غير الدقيقة الى مسألة ما يسمى « بالعهد » في الطرق الصوفية حيث كان لكل طريقة صوفية عبارات معينة يتعهد فيها المريد بالسير على نهج الطريقة وهذه النهج لا يخرج عن تعاليم الاسلام * فكان المتلقى لهذا العهد عادة ما يبدأ حياة جديدة يتوب فيها عن المعاصي التي ارتكبها ويتعهد أن يبدأ صفحة جديدة ، وكثير من أولئك المريدين ما يصبح — بعد أن يصل الى درجة معينة من الحب للشيخ — أداة طيعة في يد الشيخ لصالح الطريقة * فكل هذه الأفعال وما يرتبط بها ومقارنتها ببعض العقائد السماوية الأخرى جعلت البعض يتصور أن هناك واسطة بين الله وبين الانسان ، فسارعوا الى الحكم بأن هذه الواسطة هو الشيخ *

١ — الخليفة :

وهذه الوظيفة كانت تالية لمنصب شيخ الطريقة وكان الخلفاء يعملون وفق تعليمات الشيخ ، كما أنهم كانوا يحلون محله في التعليم ،

Trimingham; Op. Cit. p. 233.

(١)

انظر أيضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٢٦ .

وضم مريدين جدد الى الطريقة • ونظرا لما كانت تضيفه هذه السلطة من اجلال لصاحبها فقد اكتسب هؤلاء الخلفاء مكانة رفيعة الى الدرجة التى جعلتهم - فى بعض الأحيان - يحجبون الشيخ الحقيقى للطريقة عن أعين أتباعهم المحليين (١) وحتى يطمئن شيوخ الطرق الصوفية الى استمرار طرقهم فى أداء مهامها بعد مماتهم فقد حرصوا على تعيين أو تسمية من يخلفهم • وقد يتعدد خلفاء الطريقة الواحدة تبعا لتعدد الأماكن التى تنتشر فيها الدعوة لهذه الطريقة • وقد بنيت سلطة كل خليفة محلى على سلسلة من التقاليد الصوفية التى انقسمت فى جملتها الى شقين : الأول ويتمثل فى سلسلة العهد الذى يربط الخليفة بمؤسس الطريقة ، والثانى ويتمثل فى سلسلة « الورد » * الذى يربط المؤسس بالرسول (٢) • هذا ، وقد كان لكل طريقة عهودها الخاصة كما كان لكل واحدة منها أورادها وأحزابها التى تتلوها فى أوقات معينة من اليوم • والفرق بين الورد والحزب أن الورد يقرأ فى وقفات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس لقراءته وقت معلوم (٣) •

٣ - المريدون :

وهم تباع الطريقة من الجماهير العريضة المنتشرة فى جميع الأصقاع والذين ارتضوا السير على منهاج الطريقة فى سلوكهم الدينى والدنيوى ، ولابد للمرء الذى يريد أن ينخرط فى سلك طريقة ما ليصبح مريدا لها أن يأخذ العهد بذلك كما سبق القول سواء من الشيخ الأصلى للطريقة أو من خليفته • وكان هؤلاء الأتباع يسمون - أحيانا - بالدراويش بالإضافة الى المريدين • وما أن يأخذ المريد « العهد » حتى يبدأ فى الممارسة الفعلية لطقوس وتعاليم طريقته من أوراد وأحزاب

Trimingham; Op. Cit. p. 236.

(١)

(*) بكسر الواو وتسكين الراء •

Ibid. p. 236.

(٢)

(٣) عبد العزيز امين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الاول

ص ١٤٧ •

وأذكار وآداب • ولا بد للمريد من معرفة كل هذه الأمور حتى يتبعها في تعبدته واتصالاته بشيخه وزملائه • وعلى غير عادة المتصوفة كان رجال الصوفية في السودان أكثر امعانا في قراءة الأحزاب والأوراد والتوسلات ، وكان المريد حريصا كل الحرص على أدائها كما تلقاها تماما من شيخه (١) • ولم يكن معظم شيوخ ومريدي الطرق الصوفية في السودان ينتقيدون بأوراد طريقتهم وأحزابها فقط بل كانوا مداومين على العبادة الشرعية والتنفل وصيام بعض الأيام وذكر اسم الله والاعتكاف في الخلوات • وقد كان المظهر الأخير - وهو الاعتكاف في الخلوات - من الأمور التي تميز المريد الصوفي ، وهذه الخلوة كانت تستمر أحيانا شهورا طويلة يخلوا فيها المتعبد الى ربه مكتفيا ببعض لقيمات يقمن أوده (٢) • ومن تقاليد الطريقة السمانية صيام الاثنين والخميس ويوم عرفة ويوم عاشوراء والمقدم عليه والتالي له ويوم نصف شعبان والأيام البيض والسود من كل شهر • ومن أورادهم أوراد محاسبة النفس في الشهوات والزلات ، وأقل مراتها في اليوم مرة بعد الظهر أو العصر ومرة أخرى ليلا • (٣)

وبالإضافة الى تلك الأركان الثلاثة التي بنى عليها نظام الطرق ، وأسلوب تلقى العهد وممارسة الأوراد والأحزاب فقد كانت هناك مظاهر ملازمة للمتصوفة كإطلاق شعر الرأس وتمشيطة أو من غير تمشيطة ، كما كانت تلازمهم بعض « الشطحات » والانجذاب وعدم الاكتراث بمتاع الدنيا • كما كانت لكل طريقة بعض الأدوات (أو الآلات كما سميت) وكانت في حوزة شيخ الطريقة ، وتتمثل في رايات ذات لون خاص يمثل لونها الطريقة وكرسی « ككارة » « أو ككر » خاص بجلوس الشيخ

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٧ .
 (٢) أنظر طبقات ود ضيف الله ص ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٨ من طبعة منديل .
 (٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية في السودان ص ٥٣ .

بالإضافة الى جبة الشيخ أو طاقيته أو حزامه • وهذه الأدوات كانت تنتقل الى من يخلفه بعد مماته (١) •

ولقد كان كل فرد من هذا البناء الدينى الاجتماعى يحرص على أداء دوره كما رسم له تماما ويتفانى فيه ، ولا نعتقد أن ثمة مبالغة ان قلنا ان هذا البناء الصوفى كان يفوق فى أساسه وقوته البناء القبلى فى المجتمع السودانى لأن قاعدة هذا البناء الصوفى كانت متسعة جدا لضم جماهير كثيرة ، فليست لها شروط عرقية اطلاقا سوى أخذ العهد •

وتجدر الإشارة الى أن نظام الطرق الصوفية كما أوردناه كان وليد العهد المصرى فى السودان (٢) ، وكان نتيجة لاحتكاك شيوخ الطرق فى السودان بصوفى مصر ، سواء كان ذلك فى السودان أم فى مصر ، فراح السودانيون ينظمون بناء طرقهم على نهج أمثالهم المصريين (٣) •

الصوفية والفكر الدينى :

لا شك أن رجال الطرق الصوفية كانت لهم أفكارهم الخاصة التى مارسوها ودافعوا عنها والتى أيضا اصطدمت بأفكار بعض الفقهاء ولكن ما هى حقيقة هذا الفكر الصوفى وهل يمكن لأى فرد أن يفهم كنهه ؟

يجيب على هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم محمود قائلا : « ان التصوف ليس عملا علميا ولا بحثا نظريا ••• انه لا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية ، بل ان ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والانسان لا يصير بمجرد

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٨ •

(٢) Hamilton; The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 211.

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ٢٤٥ •

قراءته متصوفا ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه » • ثم يضيف « ولأجل أن يسير الانسان في طريق التصوف لا بد له من استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب ، ثم الانتساب الى « سلسلة » صحيحة إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الانسان بدونه الى أى درجة من درجات التصوف حتى البداية منها ، ثم بعد ذلك يأخذ المتصوف فى الجهاد الأكبر ، فى التأمل الروحى وفى الذكر أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقا من درجة الى درجة حتى يصل الى أعلى الدرجات وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ، والذى يمر بهذه المراحل — فى نظره — يصير صوفيا حقيقيا (١) •

وفى داخل هذا الاطار الفكرى أنيرت وما تزال تثار قضايا شغلت بها الجماهير سواء فى السودان أو خارجه اينما وجد التصوف وأصبح كثير من الناس يشغلون أنفسهم بها ، ومن بين هذه القضايا « كرامات الصوفية » • وتفيض طبقات ود ضيف الله بذكر الأولياء من رجال الصوفية فى السودان وتعدد مناقبهم الطيبة من ورع وتقوى وأحداث للخوارق كشفاء المرضى والحديث الى الطير وفهم لغات الآخرين من غير الناطقين باللغة العربية (٢) •

ويقسم ود ضيف الله درجات الصوفيين أو الأولياء كما أسماهم الى ثلاث درجات : كبرى ووسطى وصغرى • فالصغرى أنه يطير فى الهواء ويمشى على وجه الماء وينطق بالغيب ، والوسطى أن يعطى درجة الكونية (اذا قال للشيء كن فيكون) وأما الكبرى فدرجة القطبانية (٣) •

(١) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن السادى ص ٣١٨ — ص ٣٤٠ •
(٢) مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعر فى السودان ص ١٤١ •
(٣) أنظر كتاب الطبقات ص ٤٧ — ٤٨ •
(م ٢٩ — التطور الاقتصادى والاجتماعى)

وهناك ذكر لكثير من الكرامات لا يكاد العقل يصدقها ، ولست أدري كيف تتسق — على سبيل المثال اعلامهم بالغيب — مع قوله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » (١) * وقد شاع ذكر هذه الكرامات في السودان الأمر الذي أدى الى هيمنة الصوفية وازدياد مكانتها الاجتماعية حتى غدت دولة لها مراسيمها وطقوسها وأعلامها وجماهيرها (٢) *

ورغم تلك الهيمنة التي فرضها بعض المتصوفة على عقول العامة وبعض الخاصة وادعاءاتهم بالاتصال بالعرش والأخبار بالغيب انهم كانوا هم أنفسهم يعانون من مشاكل خاصة بهم ، الأمر الذي يعنى أنهم كانوا ضعيفي الخبرة بمشاكل الحياة اليومية التي ابتعدوا عن فهمها انشغالا بالزهد والكشف عن الأمور الباطنية بينما هم عاجزين عن فهم ظواهر مشاكلهم الحياتية (٣) *

ولكن مع ذلك فان المتصوفة لم يقفوا عاجزين أمام هذه الأقوال فحاولوا ايجاد مبررات لتلك الكرامات والنبوءات على أساس أن هناك فئة منهم اذا نظرت في اللوح المحفوظ فانه لا يتغير ولا يتبدل ، وأخرى تنظر في ألواح الحو والاثبات التي تتغير وتتبدل فان أخبر الولي بكلام ولم يقع فلا ينكر عليه بأن يقال كذب بل يفسر بأنه نظر في ألواح الحو والاثبات (٤) *

ويبدو أن العامة لم يشغلوا أنفسهم في قليل أو كثير في التحقق من صحة هذه الكرامات أو زيفها وسواء أكانت منسوبة لولى وصل الى درجة القطبية أم لدع لها لا يتردد في ايهام الناس بأن ما لم يقع في

(١) القرآن الكريم ، سورة القصص . الآية رقم ٦٥ .
 (٢) يحيى محمد إبراهيم : المرجع السابق ص ٣٧ .
 (٣) نفس المرجع . ص ٣٩ .
 (٤) ود ضيف الله : مقدمة الطبقات . ص ١٣ .

سبيله الى الوقوع • وكان العامة أنفسهم هم مصدر الكرامات ونسبتهما للأولياء في كثير من الأحيان (١) • ولقد أصبحت هذه الكرامات حديث العامة والمريدين فقدسوا مثل هذه الأمور ، فكان ذلك مدعاة لتدعيم الخرافة في السودان ، تلك الخرافة التي دعمتها أساطير الوثنيات لدى قبائل الجنوب وفي دارفور وكردفان بغربي السودان حتى وصلت الى قمته عند قيام المهديّة حيث تردد أن اسم المهدي نفسه كان منقوشاً على بيض الدجاج وورق الأتسجار (٢) • وهكذا ساهم العامة في ترسيخ الأفكار التي أثرت حول الكرامات ، ويبدو أن قوة شخصية الولي أو الزعيم مع انتشار الجهل تساعد على ثبات هذه الأقاويل فلم يكن أولياء السودان وحدهم ولا زعيمهم المهدي قد أثاروا حولهم هذه الخرافات * ❖

وتقترن بالكرامات مسألة أخرى تتمثل في جماعة (الملامتية) وهم أولئك القوم من المتصوفة الذين لاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب وأبانوا للمخلوق قبائح ما هم فيه ، وكنتموا محاسنهم (٣) • فمنهم من لم يصلح بدا ، ومنهم من كان يجلس على كراسي المساجد يوم الجمعة ويقرأ سوراً غير السور التي في القرآن فلا ينكر عليه أحد • وكان ملامتية السودان كغيرهم من ملامتية البلاد الأخرى يفعلون ما يخالف الشرع ، فأحدهم تزوج نحواً من سبعين امرأة ، وآخر جمع بين الأختين وغير ذلك (٤) •

-
- (١) بحى محمد إبراهيم : المرجع السابق ص ٤٠ .
 (٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ •
 (❖) ردد العامة في أوائل القرن العشرين في مصر أن اسم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ كان مكتوباً على بعض النباتات ، وأن الحيوانات نطقت باسمه •
 (٣) ود ضيف الله : المصدر السابق • ص ٢٩ وانظر أيضاً :
 عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ •
 (٤) طبقات الشعراى ، الجزء الثانى ص ٢٦٧ •
 عن : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ •

وهناك رأى حول مسائل الكرامات وما يرتبط بها ، وفحواه أن هذه الأفعال لما كانت لا تدخل تحت النظرة العلمية حتى يمكن الحكم عليها حكما صحيحا ، فعلى ذلك ، فإنه لا يمكن أن نصدقها أو نكذبها لأنها تمس أصحابها وتعبر فقط عن ذاتيتهم ووجداناتهم الخاصة ، والاهتمام بها هو الخطأ ، وكان الصوفية القدامى يوصون دائما بعدم الالتفات إليها ، أو الخوض في حديث عنها خوفا من الفتنة وحتى لا يشعر الولي أنه صنع شيئا ، إذ كل شيء بيد الله (١) *

وحديث الكرامات هذا يقودنا الى معركة حامية الوطيس نشبت بين المتصوفة وبين الفقهاء وأهل العلم ، ظهر فيها الخلاف بينا بين الطرفين * وأصل هذا الخلاف يعود الى أن رجال العلم والفقهاء اعتقدوا أن لتحصيل العلم طرقا واضحة معلومة وهى دراسة القرآن والحديث وما ورد عن الصحابة وأهل السنة وهو ما يطلقون عليه علم الظاهر ، أما أهل التصوف فراحوا يبحثون عن العلم بطريقة الاتصال المباشر بالله وهو طريق الكشف والالهام ، وهو ما يطلقون عليه علم الباطن حيث أباح بعضهم لنفسه من الأعمال ما اعتبر في حكم الشريعة محرما كما انسرنا الى ذلك *

وكان معظم صوفى السودان من غير العلماء ، وخاصة فى أوائل القرن التاسع عشر ، نظرا لحالة البلاد الثقافية المتخلفة التى لم يتوفر فيها استخدام العقل وفهم حقيقة التعاليم الإسلامية والتمييز بين ما هو أصل الدين وما هو بدعة ، فكان الناس متعطشين الى حديث الغيب لاسيما ان جاء عن طريق الدين خاصة وأن ملوك السودان وأمراءه كانوا فى ذلك الوقت ينشرون الإسلام بين الوثنيين الذين رحبوا بالصوفيين أكثر من العلماء فقد كانت حالة الشطح التى تعترى المتصوفة

(١) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ .

وأخبارهم بالغيب وقيامهم بالكرامات تغنيهم عن اللجوء الى العلماء
والفقهاء ، ومن هنا نفهم لماذا كان السودان — في أواخر القرن
الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر — مغريا لكثير من الجهاد والأمينين
بإدعاء الصوفية (١) *

وليس معنى ذلك أن هذا القول ينسحب على كل متصوفة
السودان ، فقد سبق أن ذكرنا أن بعض مشايخ الطرق كانوا علماء
للشريعة مع كونهم زعماء طرق صوفية ، كما كانت لبعضهم مؤلفات في
الفقه ، فليسيد محمد عثمان الميرغني (تاج التفاسير) بالإضافة الى مؤلفات
في الحديث وعلم المصطلح والتوحيد وغير ذلك (٢) * وهذا القول ينطبق
تماما على شيخ الطريقة المجذوبية التي نشأت بالدامر *

وكان النزاع بين العلماء والمتصوفة — سيما في بداية نشأته —
يدور أحيانا حول قضايا عامة مثل تحريم شرب الدخان أو عدم تحريمه
وعبرها من القضايا * وتجدد الاشارة الى أن النزاع بين الفئتين في
السودان كان يمر هادئا دون أن يترك وراءه عداوة موروثة ، فاذا انتصر
الصوفي في قضيته ، عمد الآخرون الى خلق حادثة مناسبة لرد اعتبار
فقيههم وهكذا حتى ينتصر طرف أو يتراخى الطرفان ، إلا أن الغلبة
كانت دائما للمتصوفة الذين يقف من رآئهم جمهور غفير من العامة الأمر
الذي كان يجعل صوت الفقهاء ورجال العلم خافتا لا يقوى على الصمود
أمام المتصوفة (٣) *

ويبدو أن المعركة بين الفئتين استمرت وقتا طويلا ولم تكن قاصرة
على القرن التاسع عشر ، فالبعض لا يزال يرى أن التصوف فكر وافد

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٤ : ٢٣٥ .
(٢) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٣) يحيى محمد إبراهيم : المرجع السابق ص ٤١ :

وهو وليد الديانات الوثنية وغريب عن الاسلام وعن البيئة التي ظهر فيها (١) . وحاول البعض أن يهدم ما أسماه « ببدعة ذكر الصوفية » بقوله ان ذلك بدعة يهودية حيث جاء في المذمور التاسع والأربعين بعد المائة « ليتتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص بدف وعرد ليرنموا *** هلولوا يا ، سبحوا لله في قدسه ، سبحوه برباب وعود *** سبحوه بدف ورقص *** سبحوه بأوتار ومزمار **** سبحوه بصنوج الهتاف *** » (٢) .

وفي الجانب المقابل ورد في كتاب عمر الفتوى أحد شيوخ التجانية تحليل لنفوس من ينكروا عقول وأذواق الصوفية ، الى أن يصل بقوله ان هؤلاء المنكرين قوم تكشف نفوسهم في غرائزهم وأجسادهم ، وعميت بصائرهم وأبصارهم . وفي الوقت نفسه يؤكد على عدم ترك الدنيا والانقطاع للخلوة بقوله : ان زهد الخواص الكاملين ليس هو بخلو الميدين من الدنيا ، وانما بخلو القلب ، ثم ينعى على من لا يتكسبون من كد أيديهم وعقولهم فيرميهم بالبعد عن الطريق الصحيح . ويضيف عمر الفتوى بأن الأكابر من الأولياء قد سارعوا الى الكسب من الزراعة والتجارة والحركة ، ثم انهم في الوقت ذاته « رجال » لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة » (٣) .

ويبدو أن الخديوى اسماعيل قد دخل المعركة مع الصوفية بأسلوب خفى ، حيث يذكر « هل Hill » ان الخديوى قد شجع أبناء السودان على المجئ الى الأزهر مغدقا عليهم الرواتب والمنح حتى اذا ما عادوا الى السودان استطاعوا أن يقفوا في وجه هؤلاء المتصوفة وخصوصا الجهلاء منهم ، بل يحلوا محلهم (٤) .

(١) عبد الرحمن الوكيل : هذه هي الصوفية ط ٤ . ص ١٢ .

(٢) العهد القديم ، المزامير ص ٦٤١ .

انظر عبد الرحمن الوكيل : المرجع السابق ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ .

(٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية في السودان ص ٧٣ .

Egypt in the Sudan, p. 126.

(٤)

وهكذا نخلص من هذا النزاع الى أن رجال الصوفية وأن إنغمسوا في المسائل الغيبية أو ما أسموه بعلم الباطن فإن هناك مستويات أخرى من الصوفية وخاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر بالسودان قد ارتقت بنفسها وأعملت العقل ، حتى وجدنا منهم وخصوصا مشايخ الطارق من له مؤلفات في علوم الشرع تبرهن على سعة العقل ورجحان الأفق + ومع ذلك كله فقد ظل النزاع بينهما دفينا يخبو تارة ثم يظهر تارة أخرى +

آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية :

لا يمكن للمرء أن ينكر الأثر الثقافي الديني الذي تركته الطرق الصوفية على تفكير الرجل السوداني حيث وجدت عقليته مرتعا خصبا لنشر أفكارها وتقاليدها + لقد جاءت الصوفية الى السودان ولم يكن السودانيون في ذلك الوقت كسائر سكان المنطقة المجاورة يهتمون بمسألة التفكير العلمي أو المنطق الفلسفي وانما كان عهد تقليد لما قرره السابقون ، وفي نفس الوقت كانوا تواقين الى معرفة نبي عن دينهم لذلك كانت كلمات الفقهاء والصوفية — وهم الفئة المتنورة — تلقى أذنا صاخبة ، وكان على الناس أن يتقبلوا تعاليم الصوفية الثقافية والتي كانت ممزوجة بالخرافات اعتقادا منهم أنهم فئة مخلصه وصالحة لا يأتون منكرا + يصدق هذا القول على السودان في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وربما استمرت مثل هذه التعاليم الثقافية ذات الخزعبلات تنتشر في الفترة التالية ولكن على استحياء نظرا لبدء بعض الصوفية بتأليف بعض الكتب الدينية الخالية من تلك الخرافات +

وقد يظن البعض أن ليس للصوفية أى جانب مضيء في المجال الثقافي ، ولكن ينبغي أن نعلم الأسلوب الثقافي الذي تميز به الصوفيون والمزوج بالكرامات والغيب كان ملائما للقبائل الزنجية في جنوب السودان وأفريقيا حينما تم نشر الدعوة الاسلامية في تلك المناطق + فهذه القبائل المتوحشة التي عاشت على الفطرة كانت في حاجة الى

أسلوب يتلاءم وعاداتهم الاجتماعية حتى يمكنهم فهم الاسلام وتقبله ولم يكونوا في حاجة الى المنطق أو الى العلماء ذوى الثقافة والفكر الرفيع . ولذلك كان رجال الصوفية هم الملائمين لآداء هذه المهمة ، لأن علماء النفس يرون « ان معتقدات الجماعات البدائية ليست ناتجة عن ادراك خاطيء أو غامض وانما هو أثر من آثار حاجاتهم ورغباتهم وأثر لما ييساور خيالهم من قلق » (١) .

ولقد لعب محمد عثمان الميرغنى الكبير دورا بارزا في نشر تعاليم الاسلام بكردفان حيث يوجد بعض الوثنيين بجبال النوبا ، وحول سنار أيضا (٢) .

وحين أراد أحد الملوك الوثنيين بجنوب السودان أن يدخل في دين الاسلام مع كثير من الأهالى هناك ، وأرادوا في بادىء الأمر أن يتعلموا شيئا عن مبادئ الاسلام ، طلب المسئولون بمصر من حكمدار السودان أن يبعث بفقيهاء لهم القدرة على « تأليف قلوب الأهالى وتعليمهم بغاية اللطف » (٣) . فالمطلوب اذن لآداء هذه المهمة نوعية خاصة ذات مقدرة على توصيل المعلومات آخذة في الاعتبار الأفكار السائدة بين هذه الجماعات الزنجية .

وليس من شك في أن الطريقة السنوسية قد لعبت من خلال زواياها المنتشرة في الصحراء الكبرى دورا هاما في نشر الاسلام في غرب السودان والصحراء الكبرى وأفريقيا الاستوائية الغربية . فقد نجح السنوسيون في ايصال دعوتهم الى كل من وادى والباجرمى

Carveth lead; The Origin of Man. p. 86.

(١)

أنظر عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٥١ .

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية في السودان . ص ١٢٨ .

(٣) دفتر رقم ١٨ عابدين - صادر تليفرافات - صورة التليفراف

العربى الشفرة رقم ١٦ ص ٣ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ هـ . من خرى باشا الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

و « البورك-روه » و « تيو » حتى بلغوا النيجر الأوسط • عن طريق السنوسية ودعاتها وزواياها وأصبحت جهات بحيرة تشاد مركزا للإسلام في أواسط أفريقيا (١) • وكذلك الحال بالنسبة للطريقة التجانية التي أدت دورا بارزا في نشر الإسلام في افريقيا وان كان لها أسلوب مغاير عن سائر الطرق الصوفية كما سبق القول •

أما الانتاج الدينى والأدبى للمتصوفة فقد كان في مستهل القرن التاسع عشر باهتا بل يكاد يكون منعدما لقلّة المتعلمين منهم ، وبمرور الوقت بدأنا نستشعر آثارهم العلمية التي بدأها أصحاب الطريقة المجذوبية بشكل واضح في المجال الثقافى • فقد كان دورهم واضحا وجليا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان ، حيث كان يرسل أبناءهم من بلدة الدامر الى الأزهر الشريف بمصر والى مكة المكرمة طلبا للمعرفة ، ثم يعودون بعد أن يمكثوا في رحلاتهم العلمية سنوات طوال لمتابعة رسالتهم الدينية والثقافية • ويمكن القول انهم هم الذين خلقوا من الدامر عاصمة روحية ومصباحا يشع بنور الثقافة العربية والإسلامية (٢) •

وفي الجانب الاجتماعى برز دور الصوفية جليا ، فمن المعلوم أن هذه الفئة معروفة لدى الرجل البسيط بكراماتها وصفاتها الدينية الأمر الذى جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا في ساعة الضيق والعسرة • والمتصفح لطبقات ود ضيف الله يقرأ الكثير من هذه الأمثلة التى توضح الانقاذ الروحى والمادى الذى كان يلقيه هؤلاء الناس على أيدي الصوفية •

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٢٢٣ •
 وأنظر : أحمد صدقى الدجاني : الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر • ص ١١٣ — ١١٤ •
 (٢) عبد القادر محمود : الطوائف الإسلامية ص ٨٥ •

وكان لمشايخ الصوفية في السودان القدرة على تسكين الخواطر وبت الطمأنينة في نفوس الناس وقضاء مصالحهم وزجرهم عما يلحق الضرر بالفرد والجماعة * ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الشيخ الحسن نجل محمد عثمان الميرغني في عام ١٨٦٥ على عهد موسى حمدي باشا حاكم السودان حين تمرد الجهادية السود في كسلا تمردا أدى الى سفك الدماء وظل متأججا لعدة شهور * وكان هذا التمرد بسبب سوء ادارة القادة وتأخر دفع مرتبات الجنود * ولما كان الشيخ الحسن بكسلا إذ ذاك تدخل في الأمر وسلمت له المرتبات المتأخرة ليقوم بتسليمها للجنود * وبالفعل قام بهذه الوساطة وسلمها إليهم ببلدة « سبدرات » وعنفهم على هذا المسلك الذي يتنافى ونظام الجندية في أسلوب عرض المشاكل ، وطلب منهم أن يعودوا الى كسلا فقبلوا ذلك * ولكن الأمور تفاقمت ثانية بين الطرفين وقتل منهما الكثير فأرسل مدير التاكة الى الحسن يدعو فحضر الى « حلة الحلائقة » ورفعته على قسبة ودخل به عليهم قائلا : « جاءكم كتاب السيد الحسن ! » ، فما كان من الجنود العصاة إلا أن كفوا عن القتال وهرعوا اليه يقبلون يديه شاكين أمرهم فوعدهم بحل مشاكلهم (١) *

ومن الأمور الهامة التي نجحت فيها الطرق الصوفية في السودان التقريب بين القبائل والأجناس ولو في نطاق محدود * فقد جاء الناس من كل جنابات السودان الى زوايا الطرق الصوفية للاتصال بالشيخ والاستماع اليهم وتلقى الطرق عنهم * وقد لعبت تلك الطرق هذه المهمة منذ عصر الفونج ، فهذا أحد الذين دخلوا على الشيخ عمار الصوفي يصف ما رآه فيقول أنه وجد زاوية الشيخ محاطة بالدواب التي حملت الناس

(١) الياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ — المجلد الثاني ص ١٠ — ص ١٣ ، وأنظر ايضا محفوظة رقم ٤٦ وثيقة رقم ٣٦١ — ترجمة مكاتبة من حاكم السودان في ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

من جهات بعيدة ووجد عند مدخل الزاوية « نعال الفونج والعرب متراصة » ، ولما دخل الزاوية وجد الناس حلقات ، فمنهم من يتحدث بتجارة الغرب ومنهم من يتحدث بتجارة الصعيد (١) . ومن تلك الرواية يتبين لنا ان الزاوية كانت تتسع لكل القبائل والأجناس حين يلتقون سويا تحت لواء الطريقة التي تجمع شملهم وتوحد بين أذواقهم ومشاربهم بالرغم من الاختلاف القبلي والعرقى بل والاختلاف في اللهجات . (٢) كما انها أيضا أصبحت ملتقى للتجار من كافة أنحاء السودان وما جاورها .

وكانت أغلب الطرق الصوفية ذات طابع سلمى للغاية وتعتمد في دعوتها الإصلاحية على الارشاد والقُدوة الحسنة والتأثير في المريدين . ويتجلى ذلك واضحا في دعاة القادرية ومن أخذوا تعاليمهم عنهم ، إذ أن المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر الجيلاني هي حب الجار والتسامح ، ولم يعثر في كتبه أو في مواعظه — كما ذكرنا — ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين (٣) .

ولا يمكن أن ننكر على السنوسية الدور العام الذي قامت به وسط الصحراء الكبرى حيث أقدم بفضلهم المسافرين والتجار على اجتياز الصحارى وأمكن عن طريق نظامهم الاخواني ايجاد ادارة محلية ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل (٤) . وكانت الزاوية الواحدة لهذه الطريقة عبارة عن ثلاث غرف احداها للقاء الدروس ، والثانية أشبه بدار للضيافة ينزل فيها المسافرون للراحة ، والغرفة الثالثة لاقامة الاخوان (٥) .

(١) ود ضيف الله : المصدر السابق ص ١٨ .

(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٦١ .

(٣) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٨ .

(٤) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ٣٢٠ — ٣٢١ .

وانظر ايضا : Prachard; Sanusi of Cyreneica. p. 15.

(٥) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣٢٢ .

الطرق الصوفية والحكم :

كانت السياسة التي اتبعتها الادارة المصرية منذ امتدادها الى السودان تجاه رجال الدين بصفة عامة هي سياسة تسامح حيث تركت كل شيء على ما هو ولم تتدخل في أمورهم ، بل انها أمدتهم بالمعونة التي تعينهم على أداء رسالتهم التعليمية والدينية * وهذه السياسة كانت جلية في خلال عهود محمد علي وخلفائه ، فخلاوى الفقهاء وزوايا الصوفية كانت تؤدي مهامها في يسر وسهولة ، وزاد هذا الاندفاع في عهد اسماعيل كما سبق أن بينا * وليس معنى ذلك أن العلاقة بين الطرفين : الصوفية والحكومة قد سارت بما يهوى كل طرف ، فقد حدثت ثمة أمور تأرجحت فيها العلاقة بين الولاء المطلق — كما حدث بالنسبة للميرغنية الختمية — وبين التأييد مع الحذر كما كان الحال بالنسبة للاسماعيلية *

ويبدو أن قضية العلاقة بأجهزة الحكم قد شغلت الصوفية في السودان منذ دولة الفونج ، فها هو ذا أحدهم ، ويدعى (فرح ولد تكتوك) يرفض أن ينصاع الفقهاء لرجال الحكم حتى لا يقع في ملذات الدنيا ويقول :

يا واقفا عند أبواب السلاطين
أرفق بنفسك من هم وتحزين
تأتى بنفسك في ذل ومسكنة
وكسر نفس وتخفيض وتهوين
ان كنت تطلب عزا لا فناء له
فلا تقف عند أبواب السلاطين

ثم يقول :

خل الملوك بدنياهم وما جمعوا
وقم بدنياك من فرض وسنون
استغن بالله عن دنيا الملوك كما
استغنى الملوك بدنياهم عن الدين (١)

وإذا تتبعنا العلاقة بين الإدارة المصرية ومتصوفة السودان فسوف نجد أنها بدأت عكس ما كانت ترجو هذه الإدارة ، فالطريقة المجذوبية انتى نسات فى الدامر وما حولها واجهت متاعب عقب مقتل اسماعيل كامل وقيام محمد بك الدفتر دار بانزال الدمار بهم ، ذلك لأن ملك شندى المدعو نمر — وهو من الجعليين — كان من وراء حادث القتل (٢) .

ومهما يكن الأمر من ناحية استخدام أساليب البطش ضد السكان ، فإن الحقيقة التى لا يمكن اغفالها ان المقصود بهذه العقوبات لم يكن المتصوفة أو باقى السكان ، بل كان المك نمر وأعوانه الذين دبروا هذا الحادث . إلا أن الفزع قد أصاب الجميع فهرب المك نمر وكثير من الجعليين الى أطراف الحبشة وتبعه أيضا كثير من شيوخ وأنصار الطريقة المجذوبية . وقد يتساءل البعض اذا كان الدفتر دار قد أراد الانتقام من المك نمر فقط فلماذا هرب الصوفية وراءه الى أطراف

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ١٠٩ .
(٢) حول ذلك انظر :

F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's death.

(أ) دفتر رقم ١٤ معية تركى . وثيقة رقم ١٩٤ بتاريخ ١٦ محرم ١٢٣٩ من الجناح العالى الى حضرة قائد عساكر السودان وكردفان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(ب) انظر أيضا :

والمودع بالمحفظة : رقم ١٧ من محافظ الأرشيف الأوربى (الانجليزى)
بدار الوثائق .

السودان ؟ الواقع أن العلاقة بين سكان هذه المنطقة في شندى والدامر لم تكن علاقة جوار وحسب بل هى علاقة صهر ونسب وصلات قبلية متشابكة وزادها تماسكا أنهم جميعا أصحاب طريقة واحدة فما يصيب الفرد يصيب الجماعة لذلك شهدنا هروب رجال الطريقة المجذوبية أيضا * والدليل على ان رجال الادارة لم يكن فى أذهانهم إيقاع الضرر بالصوفية هو السماح لهم بعد ذلك بالعودة الى ديارهم وممارسة شعائرهم الصوفية فى أمان وسلام بل ومزاولة مهام القضاء المحلى بالدامر *

وقد كان المسئولون فى مصر يوصون خيرا ببعض فقهاء الصوفية ، من ذلك ما حدث بالنسبة للشيخ محمد السنوسى عام ١٨٥٢ الذى درس بالأزهر الشريف ثم طلب العودة الى بلاده كردفان ، فأرسلت الى الحكمدار رسالة طلب فيها منه أن يعتنى به « * لأنه أحد أتباع الطريقة النقشبندية » العائد لنشر التعليم فى بلاده (١) * كذلك نجد فى عام ١٨٦٢ أمراً يقضى بترتيب معاش لأحد مشايخ هذه الطريقة لقيامه بوظيفة التعليم بمديرية دنقلة وبربر (٢) *

وأما الطريقة الميرغنية الختمية فقد كانت علاقتها طيبة بالحكومة فى السودان على عهد الادارة المصرية كما سبق القول * وقد كان هذا الود المتبادل بين الطرفين مدعاة لقول الكثيرين ان الحكومة فى التاكة كانت

(١) دفتر رقم ٨٤ - صادر معية - صورة المكاتبه رقم ٥ ص ٨٣ بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة *

(٢) دفتر رقم ١٨٩٩ - أوامر عربى - صورة المكاتبه العربيه رقم ١٦٠ ص ٥٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ . أمر كريم الى حضرة سلطان دارفور . دار الوثائق القومية بالقاهرة *

صورة أخرى من المكاتبه الى مديرية دنقلة وبربر بالدفتر رقم ١٨٩٨ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة *

تحابى هذه الطريقة وان رجال هذه الطريقة كان لهم ميل للسلطة (١) والحقيقة انهم كانوا بعيدين تماما عن المسائل السياسية آنذاك وليس لهم ميل لهذه السلطة ، ولو كان في نيتهم ذلك لاستطاعوا - ربما - تحقيقه قبل ظهور المهدي بزمان خاصة وأنهم كانوا قد أسسوا قاعدة جماهيرية صلبة من المريدين في أنحاء السودان وشرقه على وجه الخصوص * اذن ليس هناك مجال للقول بمحاباة الحكومة لهذه الطريقة بل الأفضل ان نقول انهم كانوا محل احترام لدى الحكومة من خلال مسلكهم الهادئ ودورهم الدينى والاجتماعى فى المجتمع السودانى * ولسنا فى حاجة الى تكرار ما سبق أن قلناه من ناحية الدور الهام الذى لعبه الحسن ابن محمد عثمان الميرغنى فى تسكين الفتنة التى حدثت بين الجنود السود بكسلا ، فلولا هذا التدخل من جانبه لما أمكن السيطرة عليها بهذه الصورة ، إذ كان رجال هذه الطريقة فى هذه المنطقة التى اتخذوها مقرا لطريقتهم محل تبجيل واحترام السكان والأهلين *

وفى اكتوبر عام ١٨٦٥ ورد تقرير مطول من حاكم دار السودان جعفر مظهر باشا عن الطريقة الختمية ويبدو أنه كان أشبه بتقرير سرى شرح فيه الحاكم السر الذى دعاه الى التعرف على هذه الطريقة قائلا : « أردت أن أثبت أسباب الشهرة التى حصل عليها الشيخ حسن (المعروف) * الذى أصبح ذا نفوذ فى مديرية التاكة ، فتحققت من بعض المشايخ وكبراء الأهالى والتجار المقيمين فى سواكن من الواقفين على أحواله ومن غير الواقفين ، فى بعض المناسبات (الغير مقصودة) * * ان هذا الشيخ سالك سبيل التوسط بالخير سواء أكان

(١) الناصر عبد الله أبو كروق : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ - ١٨٩٧ رسالة ماجستير غير منشورة * ص ٤٨ .
 (*) يعنى بالمعروف المشهور وهو السيد الحسن نجل الشيخ محمد عثمان .
 (*) غير المقصودة .

ذلك للحكومة أم للأهالي والعربان ، وقد سمعت بالتواتر بمدحه والثناء عليه من أكثر الناس وأنه في حد ذاته رجل صالح وورع فملت بمجرد السماع اليه وأحبيته غيابا ، واني أومل أن آخذ منه عهدا بعد أن أقف بنفسى على صلاحه وتقواه وأحصل على دعائه » (١) فمن هذه العبارات السابقة يمكننا أن نستخلص أن نفوذ الختمية قد بلغ شأوا عظيما في زمن هذا الحكمدار على عهد اسماعيل باشا ، وأن هذا النفوذ قد شمل الجانبين : أجهزة الحكم والأهالي ، إذ لعبت هذه الطريقة دور الوسيط بينهما دونما انتظار لكلمة شكر ، الى الدرجة التي جعلت هذا الحكمدار يعترف بأنه قد أحب شيخهم سماعيا ومال اليه بل وبلغ حبه له أنه يريد أن ينخرط في طريقته بعد أن يأخذ العهد منه ! • وفي ذات التقرير أيضا يحاول الحكمدار أن يشرح سر التعظيم الشديد الذي آثره به الناس في تلك الجهات ، فيروى أن مدير التاكة قد استقبله شيخ الطريقة ذات مرة واقفا ولثم يده ، فأستغل الشيخ هذا الاكبار ، واقتفى موظفو المديرية أثر المدير وأكبروه وعظموه لأنه أصبح من المقربين لدى المدير والوكيل ، ويضيف الحكمدار سببا ثانيا لهذا الاكبار وهو أن الأهالي في تلك الجهة كان أكثرهم من العربان الموصوفين « بقلّة العقل » وفقدان الادراك (٢) •

والحقيقة اننا لا نميل الى هذا التفسير الذي ذهب اليه الحكمدار خاصة الشق الأول منه ، فهذا الاجلال الذي وصل اليه لا يعقل أن يكون بسبب تقبيل يده من جانب المدير ، فقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لموظف في دواوين الحكومة تربطه مصالح برؤسائه ، أما في هذه الحالة فلم يكن هذا الشيخ في حاجة لمثل ذلك وأكثر السكان من حوله يجالونه •

(١) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ عريضة غير رسمية مرفوعة للأعتاب الكريمة من جعفر مظهر باشا بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٧ ، نفس الوثيقة السابقة .

ثم اننا نتساءل هل أجبر المدير على أن يقبل يد الشيخ ؟ كما نتساءل أيضا أليس هذا التفسير من جانب الحكمدار نفسه مناقضا لما ذكره في مستهل تقريره من أنه أحب هذا الرجل غيبا دون أن يراه ؟ إذن التفسير الصحيح لذلك هو أن أسلوب هذا الشيخ الصوفي وعلاقاته الطيبة مع الناس كانت أسبق في الدعاية له بين رجال الحكومة وأيضا بين الأهالي *

ويبدو واضحا أن رجال الادارة في شرقى السودان قد استفادوا تماما من مشايخ هذه الطريقة ، كما استفاد هو أيضا من ذلك * فقد ورد في هذا التقرير أيضا « ... ان الشيخ (متفق) * مع (خدم) * * المديرية ، وانه يتخذهم عضدا قويا ، ويستند عليهم * ويتخذ من ذلك وسيلة لبسط الرجاء وتقديم الشفاعة لحل أمور الناس ، وأماله قلوب العربان والأهالي » (١) *

وقد عاد الحكمدار مرة أخرى في نفس التقرير ليعترف بأهمية هذا الرجل ودوره كحلقة وصل بين رجال الادارة وبين الأهالي ، ويقول : « .. ويغلب على الظن أن المديرين الذين تعاقبوا كانوا يتناوبون التوصية على هذا الشيخ ويبدو أن السبب في ذلك راجع الى ظنهم أن الشيخ المذكور (ذا) * * * شهرة ونفوذ بين العربان ويعتقدون صلاحه وتقواه وان العربان يستمعون الى كلامه ويطيعونه ويستجيبون نداءه وانهم كانوا يحترمونه ابتغاء لتوسطه بالصلح فيما لو وقعت فتنة أو نزاع بين العربان * » (٢) *

(*) على وفاق *

(**) رجال الادارة الذين يقومون على خدمة المديرية .

(١) محافظ الأبحاث محطة رقم ١٧ — نفس الوثيقة السابقة .

(**) ذو *

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

(٣) م ٣٠ — التطور الاقتصادي والاجتماعي)

وسواء أكان ذلك النفوذ والاحترام اللذان حظى بهما رجال الطريقة الميرغنية الختمية في السودان ناشئا عن مصلحة للعربان حاوئ هؤلاء المشايخ قضاءها مقابل الانخراط في طوققتهم ، أو كان ناشئا عن حاجة الحكومة لرجال هذه الطريقة في الاتصال بالعربان واستخدامهم عند الشدائد ، فإن هؤلاء المشايخ قد أدوا هذه المهام بنفس راضية كان نتيجتها ان فرضوا احترامهم من خلال سلوكهم هذا على كل الأطراف ، رجال الادارة وأفراد الشعب السوداني * ويبدو أن الحكومة كانت قد خصصت مبلغا من المال للشيخ حسن الميرغني بلغ مائتين وخمسين قرشا بالاضافة الى أربعة أرباب من الأذرة * ولما توفي هذا الشيخ ترك وراءه ولدين بالغين وفتاتين بالاضافة الى زوجاته ، فقررت الحكمدارية في عهد جعفر باشا مظهر أن تستمر هذه المعونة المالية مع زيادتها لهذين الولدين لأنهما كانا يصرفان أوقاتهما في تعليم الشريعة والطريقة ، وتعليم الطلاب وعظة العامة الأمر الذي يترتب عليه نفقات كثيرة ، كما اقترح الحكمدار أيضا استمرار الأربعة أرباب من الأذرة لهما ولا ختيهما وامهاتهم اكراما لهم (١) *

وفي ديسمبر عام ١٨٧٢ كاد يحدث ما يعكر صفو العلاقة بين مشايخ الطريقة الختمية وبين رجال الادارة في السودان حيث وردت اشارة في احدى الوثائق بأن الأوامر صدرت لمدير التاكة « بضبط أولاد شيخ الطريقة » ، ولكن مدير دنقلة وبربر سارع بالكتابة الى المسؤولين بمصر لايقاف مثل هذا الأمر قبل حدوثه (٢) * أما السبب في صيدور

(١) محفظة رقم ٤٦ وثيقته رقم ٣٦١ — ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ هـ . الى صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) دفتر رقم ١٧ عابدين وارد تلغرافات ، صورة التلغراف العربي الشفرة رقم ٨١٨ ، ورد بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٨٩ هـ من مدير دنقلة وبربر الى سعادة خمى باشا . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

مثل هذا الاجراء الذى لم يتم ، فيرجع الى عملية الحصر التى بدأت لخلفاء الطريقة بمديرية دنقلة وبربر ، تمهيداً لارسالهم الى مدير التاكاة للتحقيق معهم حسب الأوامر التى ترد من الارادة العلية « ، فقد جرت عملية تحرى عن هؤلاء الخلفاء ووجد أنهم يقومون بتحصيل بعض الأموال وارسالها للأولاد الميرغنى (١) » .

وعقب بحث هذا الموضوع بنساءً على افادة من مدير التاكاة تبين « ... أن أولاد الشيخ محمد عثمان شيخ طريقة الختمية ... ثم يظهر منهم تعرض للحكومة ، وأن الأهالى لهم فيهم حسن اعتقاد ، وانهم ساعدوا الحكومة في وقعة العساكر الأشقياء بالتاكاة » (٢) . وأما الخلفاء الذين تم ضبطهم فقد تبين أيضا أنه لم تحدث منهم أمور مخلة ولا معارضة وتظلموا مما حدث لهم وقالوا « ... انهم أصحاب زوايا وجوامع وعليهم أموال للميرى ونحو ذلك ... » (٣) . وبناءً على ذلك كله صدر النطق بالعفو والافراج واعادتهم الى بلادهم والتأكيد عليهم بالألا يحاولوا تكليف الأهالى بأى أعباء سواء أكانت أموالاً أو غيرها من الأعباء (٤) .

من ذلك يتضح لنا أن العلاقة كانت تسير بسلام بين الفريقين ولم يحدث ما من شأنه أن يعكر صفو هذه العلاقة ، أما ما جرى من ناحية ضبط بعض الخلفاء فهذا اجراء عادى يخضع له كافة الأهالى فى السودان ، خاصة وقد كانت البلاد سواء فى مصر أو السودان تمر بحالة كساد

(١) دفتر رقم ١٧ عابدين : وارد تلغرافات . نفس التلغراف السابق .
 (٢) دفتر رقم ١٥ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى — الشفرة رقم ٤٤٧ ص ٦٦ بتاريخ ٢٠ ربيع ثانى سنة ١٢٩٠ هـ .
 من خيرى باشا الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .
 (٣) دفتر رقم ١٥ عابدين — نفس الوثيقة . ص ٦٦ .
 (٤) نفس الدفتر والوثيقة ص ٦٦ .

مالى - والأهالى لا يطبقون أعباء جديدة تفرض عليهم ، وحتى مجرد التأكد من حدوث مثل هذه الأمور قد جرى مع خلفاء الطريقة الختمية فى شىء من الحذر نظرا لما أسداه مشايخها من خدمات طيبة للحكمдарية •

أما زعماء الطريقة الاسماعيلية فقد جمعوا بين علمى الشريعة والحقيقة ، ولذلك فقد لقيت اسرة الشيخ اسماعيل الولى مؤسس هذه الطريقة كل احترام من محمد أحمد المهدي ولم يصبها بسوء ، ولكن أحد علمائها ويدعى السيد أحمد الشيخ اسماعيل ، وقد سافر الى مصر ودرس بالأزهر ثم عاد الى السودان وكان له أثره الكبير فى نشر العلوم بين تلاميذه ، أنكر على المهدي دعوته وحارب مع جيوش الحكومة المصرية حتى قتل مع ابنه خلال احداث المهديّة (١) •

وهكذا يبدو من العلاقة بين الحكومة والطرق الصوفية أنها كانت فى مجملها تتسم بالوفاق والتفاهم وأما ما حدث بالنسبة للطريقة المجذوبية فى مستهل الحكم المصرى فقد كان نتيجة لاحداث فردية لا عن سياسة عامة تجاه الطرق • كما يتضح أيضا من هذه العلاقة مدى الاخلاص الذى كانت تبديه الطريقة الختمية للإدارة المصرية ، وهذا الاخلاص لم يكن على حساب الأهالى ، بل استطاع زعماء هذه الطريقة أيضا أن يكونوا جسر اتصال بين الطرفين •

وفى النهاية يمكن أن نخلص الى أن الطرق الصوفية كانت تمثل ركنا أساسيا فى بناء المجتمع السودانى خلال القرن التاسع عشر ، ففى خلواتها انصهر سكان السودان من عرب وزنوج وغيرهم ، وفى صفوف اذكارها وقف الجميع فقيرهم بجانب غنيهم يذكرون اسما واحدا • وإذا كان البعض يعطى اهتماما خاصا لمجتمع القبيلة السودانى حيث التكتاف على

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق • ج ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
أنظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.

أسده فان مجتمع الصوفية في السودان في تقديرنا أشد تماسكا منه وأقوى عودا • وفي عبارة موجزة يمكن أن نقول ان الصوفي السوداني قد عبد الله في صومعته ، وعلم تلاميذه ومريديه في خلوته ، ونشر الاسلام من حوله ، وكان أيضا رسول سلام بين حكامه وعشيرته •

وبهذا استطاعت جموع الصوفية في السودان ابان القرن التاسع عشر ان تسيطر على أفئدة الجماهير السودانية ، بل وتحركها أحيانا ، وكان على أية حركة اصلاحية في ذيك الوقت ان أرادت لنفسها النجاح أن تركب موجة الصوفية • وعلى هذا يمكننا أن نفسر كثيرا من النجاح الذي لقيه المهدي في بداية حركته الى انه استطاع أن ينضوي — في بادئ الأمر — الى احد الطرق الصوفية التي سادت السودان في القرن التاسع عشر (السمانية) ومن ثم راح يتحدث لغة العصر في محاولة لكسب الجماهير التي سرعان ما التفتت حوله وعضدته • لقد كانت هذه الطرق الصوفية المدرسة الأولى التي تربى فيها زعيم المهدي وشحذ فيها أسلحته ، كما انها أيضا كانت المناخ السائد في ربوع السودان حيث تنفست جماهير السودان تعاليمها الصوفية ، ومن ثم كان طبيعيا أن تأخذ المهدي في عام ١٨٨١ مسوحا دينية ، كما كان طبيعيا أيضا أن تلتف معظم الجماهير من حولها ، كما كانت تلتف من قبل حول شيوخ طرائقها •

الفصل الثامن

التعليم والثقافة

- • التعليم الأهلى (الدينى) وتطوره •
- • التعليم الحكومى (المدنى) وتطوره •
- • الارسالية الكاثوليكية ودورها التعليمى •
- • الآثار الثقافية •

قبل أن نعرض تفصيلا للتطورات التعليمية والثقافية في السودان يجدر بنا أن نشير الى جملة أمور ، منها انه لا ينبغي أن نعقد مقارنة بين التطورات التعليمية الحديثة التي جرت في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر وبين الوضع التعليمي والثقافي في السودان في ذات الوقت . فبينما كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا ومكثفا — منذ تولى محمد علي الحكم — في مجال التعليم وارسال البعثات العلمية الى أوروبا كان السودان لا يزال يعيش على أفكار المتصوفة المزوجة بكثير من الأمور الغيبية كما سبق أن وضحنا حين عرضنا للطرق الصوفية . كما أنه في ذات الوقت أيضا كانت تلك التطورات التعليمية والثقافية التي حدثت في مصر تنطلق من أرضية ثابتة وميراث ثقافي بحيث أن محمد علي لم يجد صعوبة في أحداث تطورات سريعة استطاع من خلالها الوصول الى نتائج ملموسة . كذلك فانه ينبغي أن نشير الى أن التطورات التعليمية على عهد الادارة المصرية في السودان لم تكن في بادئ الأمر بصورة مكثفة ، كما كان الحال في الجانب الاقتصادي ، وربما يكون السبب في ذلك ان محمد علي كان ينتظر أولا استقرار الأحوال في السودان وعودة المياه الى مجاريها وانتظام شئون البلاد المادية قبل الشروع في شئونها الثقافية ، لأن العلوم — على حد قول بن خلدون — انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة . ولسنا في حاجة الى اثبات ذلك فقد سبق أن تحدثنا عن جهود محمد علي وخلفائه في الجانب الاقتصادي . كل ذلك قد جعل المسيرة التعليمية والثقافية في السودان تسير ببطء ، خاصة وان مصر منذ عام ١٨٤١ قد بدأت تعيد ترتيب سياساتها المختلفة وفقا للأوضاع الجديدة ، وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك كله على البرامج والخطط التعليمية سواء في مصر أو السودان . ولعل في تتبع المسيرة التعليمية والثقافية في السودان ما يميّط اللثام عن كثير من سياسات وجهود مصر في هذا الصدد .

ومن خلال دراستنا للتطور التعليمي في السودان سوف نعرض

لنوعين من التعليم وهما : التعليم الأهلى الدينى ، والتعليم الحكومى
أو المدنى .

أولا : التعليم الأهلى (الدينى) :

قد يكون من المفيد أولا أن نشير الى أن سياسة محمد على التعليمية فى السودان كانت ترمى الى تغليب المنفعة على النظريات ، حيث أبقى على التعليم الدينى المنتشر فى أنحاء السودان والذى كان يتمثل فى « الخلاوى » ، فلم يحاول أن يخلق ثنائية فى التعليم ، احتراماً لعادات وتقاليد الناس وما ألفوه ، ولم يمل عليهم ما يتعارض ورغباتهم . كما كان يؤثر أن يتعلموا أولا فنون الزراعة والصناعة بدلا من العلوم الثقافية الحديثة (١) . وفى عام ١٨٤١ كانت مصر تمر بمرحلة جديدة أو دور جديد من أدوار التعليم ، فقد استقر السلام وتمت التسوية المصرية العثمانية وبدأ عهد من الاستقرار السياسى ، فلم تعد مصر فى حاجة الى جيش كبير فظهرت الحاجة الماسة الى إعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء حاجات البلاد الجديدة . وهذه المرحلة الجديدة كانت تقوم على أسس ثلاثة : (١) الاقتصار (٢) مراعاة الحاجات الجديدة (٣) التمكن لمراحل التعليم المختلفة فى أسباب القوة والاتساق (٢) .

وليس معنى ذلك أن محمد على لم يكن يلقى اهتماما لتعليم السودانيين فى ظل الظروف الجديدة ، بل انه كان يمد يد العون لكل مشروع تعليمى يتفق وسياسته المشار اليها . ففى مجال التعليم الدينى راح يساند القائمين عليه ، من ذلك أن قاضى الشرع والعلماء بدنبلة طلبوا منه انشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية ، بالإضافة الى مدرسة

(١) عبد العزيز أمين التريية فى السودان . الجزء الثانى . ص ١٣ .

(٢) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . ص

لتعليم القرآن الكريم للأطفال ، فكتب الى مأمور دنقلة قائلاً :
« ... نطلب منكم أن تعملوا على انشاء الجامع واقامة المدرسة الى
جانبيه » (١) .

وفي أثناء زيارته للسودان اجتمع بالقضاة والمفتين والعلماء وأنعم
عليهم بالخلع الفاخرة تقديراً لهم وتشجيعاً للدور التعليمي الذي يضطلعون
به . كذلك فإنه وافق ذات مرة وبناءً على اقتراح من الحكماء بتجديد
أحد الجوامع وبناء عشر حجرات لسكنى (الفقرا) * ، وعمل سور
للجامع من الطوب الأحمر حيث بلغت نفقات هذا كله ثمانية آلاف
قرش (٢) .

ولم يقف الباشا في سبيل من يريدون المزيد من التعليم الديني بل
أفسح أمامهم المجال للذهاب الى مصر والالتحاق بالأزهر الشريف . ومن
بين تلك الجهود موافقته على تخصيص رواق للسنارية عام ١٨٤٦ ، حيث
حضر الى الأزهر طالب سوداني يدعى « محمد على وداعه » منذ عام
١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) فوجد ستة من أبناء سنار قد سبقوه اليه ،
فنتقدم هؤلاء الى الباشا يطلبون ترتيب خبز لهم فوافق على ذلك عام
١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) . ثم قدم محمد على وداعه وزملاؤه السناريون
المجاورون طلباً يلتمسون فيه انشاء رواق خاص . ولما كان عدد الأروقة
الموجودة بالأزهر عبارة عن اثنين وعشرين رواقاً ، وكل رواق منها
مخصص لجنس من المجاورين ، لم يعد في الامكان — كما قال وكيل
ديوان المالية في رسالة لمحمد على — انشاء رواق جديد خاص بالسناريين ،
وان انشاء رواق جديد خاص بهم يتوقف على ارادة الجنب العالي ،

(٢) عبد العزيز أمين : المرجع السابق . ص ١٤ .

(*) المشايخ الذين يقومون بالتعليم الديني داخل الخلاوى .

(٢) دفتر رقم ١٨٠ ، شورى المعاونة ملكية — ترجمة الوثيقة رقم
٢١ بتاريخ ١١ المحرم ١٢٥٥ هـ . انظر أيضاً عبد العزيز أمين عبد المجيد
المرجع السابق ص ١٥ .

فكان رد الباشا على الرسالة « ... قد اقتضت ارادتي شراء محل جديد وتخصيصه رواقا للمجاورين » (١) . وهكذا فإن محمد على لم يلق يالا الى العقبات المالية التي كانت تقف حيال اقامة هذا الرواق الخاص بالسنايين وتفق على هذه المشكلة الاقتصادية فى سبيل الأهداف التعليمية لأبناء السودان .

من ذلك يتبين لنا أن محمد على قد حاول — ما وسعه — أن ينشر التعليم الدينى فى داخل البلاد ويرسل أبناء السودان الى الأزهر بمصر لاستكمال علومهم الدينية .

وبالرغم من ذلك كله فلم تسلم سياسة محمد على التعليمية — وخصوصا فى الجانب الدينى — من النقد الشديد . فقد فسر أحد الباحثين اهتمامه بهذا التعليم الى « أنه كان يقتاسب — من وجهة نظر محمد على — وحالة البلاد ولا يتعارض مع سياسته ، وأن حذبه ورعايته للتعليم الدينى فى السودان ما كان إلا ليزيد من نفوذ العلماء والفقهاء الذين يساهمون فى استتباب الأمن باعادة الجماعات الهاربة ، وجمع الضرائب ، فترك لهم مراكزهم التقليدية التى يبايرون فيها نشر علوم اللغة والدين خاصة وانهم قد شعروا فى عهده باستقرار ماضى ومورد ثابت بعد أن كانت الهبات والهدايا من قبل عرضة للظروف ، الأمر الذى كان حريا بهذه الفئة أن تبارك الحكم وتسبح بحمد الباشا » (٢) .

واذا كنا نتفق مع الباحث فى الشق الأول من هذا التفسير والذى يذهب الى أن هذا اللون من التعليم كان مناسبا للبلاد ، إلا أننا نختلف معه فى بقية ما ذهب اليه . فلست أدري هل كان الباشا فى حاجة ماسة

(١) دفتر رقم ٤١١ ، معية سنية — ترجمة للمكاتبة رقم ٣٤٨ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٦٣ هـ . ارادة الى مدير المالية . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) يحيى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان والصراع بينه وبين التعليم الحديث . ص ١٨٩ .

الى مباركة حكمه وتوطيد أركانه في السودان وقد توطد بالفعل ؟ ثم ان هؤلاء الفقهاء لم يكونوا منوطين بجمع الضرائب حتى يخطب الباشا ودهم اللهم إلا اذا كان صاحب الرأي لا يفرق بين المتساخ الذين يقومون بمهام ادارية والمشايخ الذين يقومون بأمور التعليم الدينى والذين يطلق عليهم دائما (فقرا) * والحقيقة أن هذه التفسيرات نابغة من نظرة اقليمية ضيقة لم تكن أبدا تدور في مخيلة محمد على في القرن التاسع عشر ، فلم يكن يفرق بين رعاياه في مصر والسودان *

ولم يتدخل محمد على — رغم اغداقه الأموال على المساجد والمشايخ القائمين على التعليم الدينى — ولم يفرض علوما دون أخرى أو برامج دراسية معينة وانما اكتفى بما يمكن تسميته بالاشراف الفنى والادارى من تحريات عن عدد التلاميذ وأعمارهم وأهلية القائمين بأمر التدريس ، وكان الحكمداريون هم الذين يقومون بأجراء مثل هذه التحريات الضرورية عن عدد الطلاب وعمليات البناء والأدوات اللازمة لهذه المدارس * أما كفاءة الفقهاء وسلوكهم فقد ترك أمرها لشهادة العلماء والقضاة *

وحتى هذا الاشراف غير الجوهرى في هذه المدارس كان سبيلا الى توجيه اللوم لسياسة محمد على التعليمية من جانب القائمين بوجود تعارض بين النظام القديم الذى كان يتيح زيادة أعداد الطلاب وبين النظام الجديد الذى ينظم عملية زيادة الطلاب واستبعاد غير اللائقين (١) *

ولست أدري ما هو التعارض في هذا الأمر * لقد روعت صاحب رأى السالف مسألة استبعاد بعض كبار السن من التلاميذ فراح يصدر حكمه دون أن يوضح لنا الحثثيات حول ما اذا كان استبعاد هؤلاء الكبار

(١) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق ١٠ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

لمجرد أنهم كبار السن أم لأسباب أخرى • وهل كان في وجودهم بين صغار السن والناشئة حافظا لباقي التلاميذ على التقدم في الدراسة ؟ تم أخيرا هل كانت قدرات هؤلاء الكبار على التحصيل ضعيفة ومن ثم رأت الادارة المسئولة استبعادهم والحاقهم بأعمال يدوية كما تشير الدراسات التربوية الحديثة ؟ • كان لابد اذن من طرح مثل هذه التساؤلات قبل أن نحكم بوجود هذا التعارض خاصة وأن الباحث قد أشار الى أن محمد على لم يتدخل بشكل جوهري في التعليم الدينى •

وفى عهد عباس الأول نلاحظ استمراراً لسياسة محمد على تجاه التعليم الدينى على الرغم مما قيل عن عدائه في تشجيع التعليم بصفة عامة • فليست لدينا أدلة تشير الى أن التعليم الدينى في السودان — على عهده — قد وهن ، بل ظل يلقى دعما وتشجيعا من لدن رجال ادارته في السودان • وكان الحكمداريون في معظمهم من الأتراك المعروفين بحرصهم على تساعثر الدين فشجعوا ما وجدوه قائما من الخلوات ومساجد العلم والعبادة (١) • وبالرغم من قصر المدة التى قضاها عباس فى الحكم والتى بلغت ست سنوات (نوفمبر ١٨٤٨ — يولية ١٨٥٤) فقد وجدت بعض الأعمال التعليمية فى هذا المجال وتتمثل فى احتفائه وتقديره لرجال العلم ، من ذلك أن أحد السودانيين كان يثلقى العلم بالأزهر الشريف ، ولما أنجز مهمته العلمية وهم بالعودة الى بلاده كتب عباس الى حكمدار السودان أن يحسن ملاقاته ويعامله بما يليق برجال العلم ، كما تم التنبيه على سائر الحكام الذين يلقاهم فى طريقه الى بلاده بضرورة المعاملة الطيبة له • كذلك فان عباس باشا قد أوصى بأحد علماء الأزهر خيرا حين طلب أن يؤذن له بالسفر الى السودان لينشر العلم بين أهله ، كما وافق

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٢٣٠

أيضا أن يبنى مسجدا ويقوم بالخطبة فيه (١) *

وبالرغم ما قيل عن حرصه على الانفاق فانه لم يضمن على مساجد العلم بالاصلاح ، فقد رفعت اليه عريضة تفيد بوجود مسجد قديم للصلاة وتلاوة القرآن ودراسة العلم بناحية الخندق وأنه في حاجة الى ترميم وتخصيص راتب شهري أو سنوي ، فما كان منه إلا أن وافق على ذلك وطلب الى حكام السودان أن يقوم باللازم (٢) *

ومن الجوانب الأخرى المتعلقة بهذا النوع من التعليم الاهتمام بشراء المراجع المتخصصة في علوم الفقه واللغة ليفيد منها الدارسون بمساجد العلم ، كما نقرأ أيضا أن الحكام قد عقدوا اتفاقا مع المطبعة في مصر لطبع الكتب الدينية تباعا ثم ارسالها الى السودان وتوزيعها على علمائه (٣) *

ومن أهم تلك الكتب التي أرسلت أو طلب ارسالها « حاشية الطحاوي على الدر المختار » ، و « حاشية الصاوي على الجلالين » ، و « شرح الخطيب الشربيني » وكتاب « شرح الدردير على أقرب المسالك » * والكتاب الأخير طلب من مصر بناءً على أمر من الجنب العالي حتى يقرأ في المسجد الشريف الذي انشئ في قرية الخندق بدنقلة (٤) *

من ذلك يتبين لنا أن عباس الأول قد سار على منوال سلفه محمد على في مجال التعليم الديني قدر طاقته ، ولم يطالعنا ما يشير الى أنه

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ ، انظر أيضا : دفتر رقم ٨٤ صادر معية في ٦ ذي القعدة سنة ١٢٦٨ هـ . مكاتبة عربية رقم ٥٠ ، وأيضا دفتر رقم ١٠٦ صادر معية بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقم ٩٨ - وارد معية عربي - وثيقة رقم ٨٠ بتاريخ ٧ ربيع الأول سنة ١٢٦٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) دفتر رقم ٦٥٥ ، صادر ديوان الكتخدا - وثيقة رقم ١١٩٤ بتاريخ آخر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

حارب هذا النوع من التعليم أو امتنع عن تقديم المعونة الى من طلبها ، ومن ثم فلا مجال هنا للمدح في أعمال هذا الرجل وترديد أفكار معينة تناقلها الكثيرون من الكتاب والمؤرخين وأصبحت بمضى الزمن وكأنها كلمات مقدسة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها * فالحكم على أعماله التعليمية كانت أو غيرها ينبغي أن تكون في نطاق الظروف التي كان يحياها والتي كانت تمر بها البلاد اقتصادية كانت أم سياسية ، مع الأخذ في الاعتبار حقيقة هامة وهي ان مدة حكمه كانت قصيرة جدا اذا ما قورنت بمدة حكم محمد علي بحيث تتاح له فرصة القيام بنهضة كبرى *

ومن عهد عباس الى عهد سعيد ننقل في رصد التطورات والجهود التي تمت في مجال التعليم الديني أو الأهلى حيث نشهد استمرارا لسياسة السلف في الاغداق على المدارس الأهلية المرتبطة بالمساجد * ففي مكتبة من مدير كردفان نقراً بأن أحد المشايخ ويدعى الشيخ اسماعيل الولي له أولاد وتلاميذ « * * سالكين في سبيل الرشاد بتعليم الصبيان القرآن العظيم ومواظبين على تحصيل العلوم والتدريس ومجدين في اقامة شعائر الدين » ، وليس لهم ايراد يعيشون منه سوى أطيانهم وسواقيهم التي كانت معفاة من الضرائب ، ولكن طبقا للنظام الجديد أصبحت هذه الأراضى والسواقي خاضعة للضرائب ، وبما أن هذا الشيخ وتلاميذه من أولى العلم ، فقد التمس مدير كردفان اعفاء منها ، فما كان من سعيد إلا أن وافق على طلبه بالاضافة الى اعفاء أبنائه أيضا من هذه الضرائب « طالما كانوا يقومون بمهمة التدريس واقامة الشعائر » (١) *

وفى دنقلة تقدم أحد الأهالى بالتماس يرجو فيه مساعدته بترتيب شيء من الاعانة على نفقات الخلوة المفتوحة لقراءة القرآن الكريم وتدريس العلوم ، فأرسل سعيد الى مدير دنقلة وبربر موافقا على منح

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكتبة العربية رقم ٨ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

هذا الفقيه المصاريف الضرورية بالاضافة الى منحه عدة أفدنة —
« بدون مال » — حتى ينفق منها على هذا المشروع التعليمي (١) *

وفي دنقلة الجديدة تقدم خدام « الجامع الشريف » بشكوى من
ضالة المرتب المقرر لهم ، فأمر سعيد بزيادته وبناء عشرة « دكاكين » على
نفقة الحكومة وتأجيرهما مع تحرير وقفية من لدن ولي النعم (٢) *

ويبدو أن رجال الطرق الصوفية كانوا أيضا يلقون رعاية نظرا
لما كانوا يقومون به من تعليم للأطفال كما كان الحال بالنسبة للشيخ
محمد على قراني المقيم بمديرية دنقلة وبربر ، حيث تم ترتيب معاش له
للقيام بهذه المهمة (٣) *

ويبدو أن تكريم العلماء والقائمين على تحفيظ القرآن الكريم كان
سنة بدأها محمد على وسار عليها خلفه ، ولكننا نرى سعيد باشا يعمل
على تنظيم هذه المسألة ، فقد أبصر بعضا من ورثة العلماء يتسلمون
مرتبات حتى وان كانوا لا يقومون بمهمة التدريس ، بالاضافة الى وجود
الكثيرين من أدعياء العلم أو المتظاهرين بالاستغال به طمعا في الثراء .
فعلى سبيل المثال نلاحظ كثرة أولئك الأدعياء حين تقرر اعفاء العلماء
من ضرائب الأطنان ، وراحوا يظهرود الود للحكام للحصول على مثل
هذه الاعفاءات (٤) ، فما كان من سعيد إلا أن نظم قواعد الانفاق على

(١) سجل رقم ١٨٨٩ — جزء أول — الأوامر العالية الصادرة للدواوين
والمجالس — معية عربى — وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١١٧٤ هـ ص ١٣
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩٦١ ، صادر قرارات المجلس الخصوصى . صورة
الوثيقة رقم ١٥ ص ١٢ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق
القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ — أوامر عربى — صورة المكتبة العربية رقم ١٦٠
ص ٢٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ . أمر كريم الى حضرة سلطان
دارفور . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٣ — صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٤
ص ٢٣٠ بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذه المساجد والعلماء ، وقرر ألا تصرف المرتبات إلا لمن كان يقوم فعلا
— من الورثة — بالتدريس (١) •

وقد استمرت نفس الأساليب السابقة في التدريس بالنسبة لهذه
المدارس الأهلية • فقد وصف بتريك في عام ١٨٦٠ إحدى هذه المدارس
التي كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ببلدة « الحصاصيا » على النيل
الأزرق حيث كان التلاميذ يذهبون مبكرين الى هذه الخطوة منذ الرابعة
وحتى السادسة ، ومن السابعة حتى التاسعة في المساء حتى لا يتعارض
ذلك مع حياتهم المعيشية • وكان « الفقير » يقرأ الآية من القرآن غيبا
وبعد ذلك يحاكيه التلاميذ بأصوات مرتفعة جدا ، ويستمر في هذه المحاكاة
الى أن يحفظها التلاميذ فينتقل الى آية أخرى • ولكل تلميذ لوح يكتب
فيه الآيات ، وكان القليل منهم من يستطيع حفظ جميع القرآن أو الكتابة ،
وحتى اذا حفظه فانه غالبا ما ينساه في زمن أقل من الوقت الذى أنفقه
في حفظه ، فيما عدا آيات قليلة كانت تظل عالقة بذهنه (٢) •

وقد أولى حكمدار السودان موسى حمدى — فى عهد سعيد — بعضا
من العناية التعليمية لقبيلتى الدنكا والشلك حين لاحظ أن دولة النمسا
قد أنشأت لها كنيسة فى جهة النيل الأبيض لادخال هاتين القبيلتين فى
ملتها • ثم ألغتها عندما لم تستطع اقناعهما بذلك • وقد أوصى حكمدار
السودان بأن يرسل لهاتين القبيلتين معلمون من فقهاء السودان
يتميزون بحسن السلوك والأخلاق وترتيب « ماهيات » لهم حتى يقوموا
بتعليمهم قواعد الدين الاسلامى مع انشاء « مدرسة عربية » (٣) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل بدأنا نستشعر روحا جديدة تدب فى

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد • المرجع السابق ص ٤٢ •

(٢) Egypt, The Sudan & Central Africa. p. 217.

(٣) محفظة رقم ٥٠٨ — وثيقة رقم ٢٩ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ .
دار الوثائق القومية بالقاهرة .

أوصال المديريات السودانية مصحوبة بنشاطات متنوعة في كافة جوانب الحياة ، ومنها الجانب التعليمي * ففى مجال التعليم الأهلى الدينى تطالعنا الكثير من الوثائق التى تؤكد مدى اهتمامه بهذا النوع من التعليم بشكل فاق سابقه ولاحقه * ففى أوائل عام ١٨٦٣ وردت رسالة الى المعية السنية تفيد بأن مسجدين بكردفان يقع أولهما بالأبيض وهو « الجامع العتيق » والثانى بحلة « أبو صفية » ، وأنهما فى حاجة الى الإصلاح نتيجة الخلل الذى أصابهما سواء من سقوط الأمطار أو تقادم الزمن ، بالإضافة الى أن المسجد الأخير سبق أن أوقفت له سبع « حلال » معفاة من الخراج بقصد الانفاق عليه ولكنه الغى ، فما كان من الخديوى إلا أن وافق دون تردد على تخصيص مرتبات دائمة للخدم والمؤذنين مع توفير مبالغ أخرى ينفق منها على الفرش وزيت الاضاءة (١) * .

وفى يونية عام ١٨٦٣ وردت مكاتبة من الخرطوم تفيد بأن أحد المساجد ويسمى مسجد الأرباب ، بمدينة الخرطوم ، كان يقوم بمهمة تعليمية بالإضافة الى اقامة الشعائر الدينية ، وليست له أوقاف وفى حاجة الى الإصلاح والمؤونة ، فوافق اسماعيل على هذا المطلب قائلاً : « حيث أن من أمانينا تعمير مثل هذه المساجد الشريفة فإننا نأمر ببناء هذا المسجد وتعميره بحسب المقاييس الموضوعة وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة احسان من لدنا *** » (٢) * .

كما بعث أحد القائمين على التعليم الدينى فى بربر برسالة يقول فيها انه بنى زاوية للصلاة وتعليم الأطفال القرآن الكريم والعلم ويطلب ربط شئ على ذلك حتى يتمكن من أداء مهمته التعليمية والدينية على أحسن وجه ، وبالاستفسار عن هذا المطلب ومدى صحته تبين أن لهذا

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ج ٢ . ص ٥٣ .
(٢) دفتر رقم ١٦٩٤ وارد العرضحالات دواوين ومديريات . صورة المكتبة العربية رقم ٥ ص ٩٣ بتاريخ ٦ محرم ١١٨٠ هـ ، دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ هـ . ، أنظر أيضا : عبد المجيد عابدين — المرجع السابق . ص ٥٤ .

الشيخ زاوية صغيرة للصلاة وبجوارها « راكمبة » * لتعليم الأطفال
وبها ٢٢ طفلا ، وأن الخلوات (الخلاوي) الكبيرة كان يربط للقائمين
عليها مبلغ ٢٥٠ قرشا في الشهر وأربعة أراذب من الذرة ، واقترح
المدير أن يعطى ٧٥ قرشا وأردبا واحدا من الذرة شهريا (١) *
إلا أن الخديوى اسماعيل رأى غير ذلك وأصدر أمره قائلا : « بما
أن أملنا الوحيد هو قيام الشعب بتحصيل العلوم وتعليمها ، وصالح
حالهم ودخولهم الى سبيل المدنية بتعلم القراءة والكتابة ، وحيث أن مثل
هذه الزوايا والأعمال الخيرية مما يستوجب سرورنا ، نأمر بتوسيع
زاوية الشيخ * وتجهيز بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى التى بالسودان
على نفقة الحكومة * ونأمر أيضا بصرف ٢٥٠ قرشا الى ما شاء الله
وكذلك بصرف أربعة أراذب شهريا بصفة احسان للزاوية المذكورة لفقراء
الأهالى الذين سيقصدونها لتعليم القرآن والعلوم الشريفة اسوة
بالمساجد الكبيرة ، كما نطلب منكم أن تبلغوا الشيخ المذكور سرورنا
وممنونيتنا وتطلبوا منه أن يعنى عناية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس
العلوم للأهالى * » (٢)

ويعلق الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد على ذلك بقوله : هل
كان اسماعيل بعمله هذا مستعمرا ؟ وهل نظر الى السودان وسكانه نظرة
المستعمر الى مستعمرته ؟ وهل كان مقترا في العلم على سكان السودان
كما كان الحال في المستعمرات ؟ وهلا كان كافيا أن يوافق على ما اقترحه

(*) الراكمبة هى السفينة التى تبنى من القصب ليجلس عليها التلاميذ
أمام حجرة من حجرات الخلوة . (عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى
السودان ج ١ ص ١١٤) .

(١) دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية عرضحالات دواوين وأقاليم . وثيقة
رقم ٧ ص ١٠٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ هـ .
(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى . ترجمة المكتبة رقم ٢ ص ١١٧ بتاريخ
٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ هـ . أنظر أيضا عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع
السابق . ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

مدير بربر من معونة شهرية قليلة ؟ (١) * ولعل في هذا الصنيع ما يجعل أولئك ألفر — من الباحثين الذين دأبوا على النيل من الحكم المصرى فى السودان ومقارنته بالاستعمار الأوروبى للقارة الافريقية — أن يعيدوا النظر فى مثل هذه الأقوال والعبارات التى فيها الكثير من التعميمات *

وإذا كانت الأمثلة السابقة توضح أن أصحاب الخلاوى والقائمين على عمارة المساجد هم الذين كانوا يطلبون المساعدات فتجانب طلباتهم ، فإن آخرين كانت تعف نفوسهم من طلبها ، ولكن القائمين على شئون الادارة فى السودان كانوا لا يتركونهم ، فمن هؤلاء ثلاثة فى عهد الحكمдар موسى باشا حمدي كان لكل واحد منهم مسجد يقبوم بالتدريس فيه وليست لهم وظائف أخرى سوى هذه المهمة التعليمية فاقترح الحكمдар على الخديوى أن يربط لكل واحد منهم ماهية وشيئا من الذرة كما هو الحال لأصحاب المساجد الأخرى (٢) *

ويبدو أن الدين الاسلامى الذى اشترك فيه كل من الموظفين المصريين والسكان السودانيين كان من العوامل التى قوت التعاطف بينهم ووجدت من تفكيرهم ونظرتهم الى الحياة الدنيا والآخرة * فالمسلم الحاكم أو المحكوم كلاهما يعتقد أن المسجد بيت الله وأن ما يقدم له من مساعدة إنما هى لوجه الله * فعلى سبيل المثال نجد الشيخ يوسف خضر النائب الشرعى بجهة المسلمية التابعة لمديرية الخرطوم يرجو ترميم المسجد الكائن بهذه القرية والذى بناه أحد التجار منذ مدة وكان يتولى الانفاق عليه حتى توفاه الله ولم تكن له أوقاف وأنه آيل للسقوط وبه طلاب علم ، فلما بعث الحكمдар الى الخديوى بذلك وافق على ترميم هذا

(١) التربية فى السودان . ج ٢ . ص ٥٥ .

(٢) سجل رقم ١٤٧ ج ١ وارد الأقاليم بالمعونة السنية . مكتبة رقم ١٣ ، مرور س ١٥٣ بتاريخ ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

المسجد على نفقة الحكومة (١) *

ويبدو أنه قد انتشر سخاء الخديوى اسماعيل فى الانفاق على مساجد العلم فى السودان فكثر الالتماسات على طلب المعونة لدرجة ان بعض طالبيها كانوا يتقدمون باعتبارهم مدرسين فقط دون ذكر للمسجد أو المعهد الذى يقومون بالتدريس فيه ، ومع ذلك فلم يكن يردهم خائبين ، ومن بين هؤلاء الشيخ الأمين محمد الذى كان يقوم بهذه المهمة فى الخرطوم (٢) *

هكذا سار التعليم على هذا المنوال .. مساجد تبنى يقوم عليها فقهاء بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة دونما التوغل والاستزادة من العلوم الأخرى المتعلقة بالقرآن والحديث ، الأمر الذى كان مدعاة لتوجيه النقد الشديد لهذا الأسلوب التعليمى التقليدى *

ويبدو أن جعفر مظهر باشا أراد أن ينتقل بهذا التعليم الأهلى خطوة الى الأمام فاصطحب معه اثنين من أبناء مديرية كسلا الى الأزهر ، بعد أن حفظا القرآن الكريم حفظا جيدا واستطاعا الاحاطة ببعض الأمور الفقهية ، وسلمهما الى شيخ الجامع الأزهر وأوصاه بهما خيرا ، وخصص لهما مرتبا شهريا * وكان يرمى من وراء ذلك عدم الاقتصار على حفظ القرآن وحسب بل فهمه ومعرفته الفقه والنحو وتشجيع السودانين على المجئ الى مصر لاستكمال علومهم الأمر الذى سوف يؤدى الى كثرة العلماء والفقهاء بالسودان والاستغناء عن أمثالهم ممن كانوا يأتون من مصر (٣) *

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨ ، انظر أيضا : دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى ، صورة المكتبة رقم ١٥ ص ١٨٧ ، بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨١ هـ .

(٢) دفتر رقم ٥٦٥ معية تركى وارد عرض حالات . صورة ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ١٧ بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) دفتر رقم ٥٧٦ - معية سنينة (تركى) ص ١٥ . مكتبة رقم ٤ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٨٤ هـ . من المعية الى حاكم السودان . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

وقد بلغت غصبة جعفر مظهر — على التعليم الدينى المتخلف الذى كان يسود السودان آنذاك — قمته حين بعث بخطاب الى الخديوى يشرح له فيه مساوىء هذا التعليم الذى لم يثمر عن طلاب يصلحون لوظائف « القضاء والنيابة والامامة » • ويمضى الحكمدار شارحا مثالب هذا التعليم بقوله « • • • وقد كان المنبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومؤونة » الى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تقتصر اليهم شهريا ، ونظرا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فانهم استحقوا تلك المرتبات بالشهادات الكاذبة واغتالوا المرتبات المنصرفة اليهم والى طلبتهم بدون وجه حق ، فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئا من تلك المبالغ فى تعليم هؤلاء الطلبة • ولو وجد لدى البعض منهم طلاب فانهم لا يزيدون عن بضعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة الى العاشرة وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا جزء (عم) * ويذهبون للعمل كزراعة أو حمالة أو مزارعين ، لذلك التمس اعطائى نصريحا لأقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية وقطع مرتبات من لا علم له ، ونقلها الى من يفوقونهم علما • • • ثم يضيف « • • • ويجب انتخاب مدرسين بعد الامتحان لكل من بربر ودنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وكردفان وفاشودة وربط مرتب لهم علاوة على المرتب القديم • • • وتحديد عدد الطلبة لكل معلم واعفاء الطلبة من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى اذا ما تركوا الاستغال بالتجارة والزراعة ، وتعيين أحد العلماء المبرزين فى الخرطوم بعد امتحانه ليكون ناظرا وملاحظا على الجميع بعنوان * * « شيخ العلماء » واعطائه مرتبا قدره ٥٠٠ قرش شهريا وثلاثة أرباب من الأذرة ، وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئا وحافظا بعنوان « شيخ الفقهاء » بمرتب قدره ٣٠٠ قرش شهريا وأربعين

* الجزء الأول من القرآن الكريم
* تحت اسم •

من الذرة • • « (١) •

من ذلك يتبين لنا ان هذا المشروع الاصلاحى الذى عرضه حكمدار السودان لاصلاح التعليم الأهلى فى السودان كان يرمى الى جعله حكوميا وأن يختار له الصفوة الصالحة من المعلمين عقب اجتيازهم لامتحان ، وتحديد مرتبات ومؤهلات ثابتة لكل منهم مع تحديد عدد الطلاب وتعيين مشرف عام (ملاحظ أو ناظر) على جميع المدرسين يحمل لقب « شيخ العلماء » • ويبدو أن نواة هذا المشروع كانت فى بربر ودنقلة والخرطوم وسنار والثاكة وكردفان وفاشودة الا أن اسماعيل باشا لاحظ أن لقب « شيخ » لا يتناسب والموظيفة التى سيشتغلها رئيس المعلمين وملاحظهم فاقترح تسميته « رئيس الأساتذة » • وبالرغم من هذه الأمور وافق الخديوى على بدء المشروع (٣) •

وقد شرع الحكمدار فى تنفيذ مشروعه التعليمى ، الا أن ثمة عقبات مادية قد صادفته من بنائين ومهندسين معماريين لبناء الجوامع والمكاتب • وللأسف الشديد لا نجد بعد ذلك ذكرا لهذا المشروع وان كلن البعض يؤكد أن هذا المشروع قد نفذ بدليل ان الحكمدار قد قام بالتفتيش على المساجد والخالوى وقرر قطع الاعانات عن أولئك الذين لا يستحقونها (٣) •

وفى تقديرنا أن توقف هذا المشروع يعود فى المقام الأول الى الظروف المالية السيئة التى بدأت مصر تعيشها فى تلك الفترة والتى وقفت حائلا

(١) محفظة رقم ٤٦ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٠ بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ هـ • من حكمدار السودان الى مهر دار الحضرة الخديوية أنظر : جورج جندى وجاك تاجر : المصدر السابق • ص ٢٥٩ - ٣٦٠ •

(٢) دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية • ترجمة المكاتب رقم ٣ ص ٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ هـ • والوقائع المصرية : العدد رقم ٣٤٢ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٦ هـ • أيضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٦٤ •

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٦٥ •

دون توفير الأموال اللازمة له ، بدليل ان الخديوى — أمام شدة ضغط الائتماسات التى كانت تقدم له من قبل المشايخ لنح الاعانات — لم يعد فى استطاعته أن يوافق عليها مالية كانت أم حبوبا ، بل كان يوافق فقط أن يحصل محلها نوع آخر من الاعانات يتمثل فى رفع الضرائب عن الأراضى التى يقوم المشايخ بزراعتها *

ويتساءل أحد الباحثين (١) عن السبب فى تغير سياسة الحكومة واتجاهها — فى عهد جعفر مظهر — الى « توظيف التعليم » ، فيجيب بأن الدولة فى هذه الفترة كانت قد « تهيأت لها كل عوامل الاستقرار ودانت لها القبائل الجماعات وامتد نفوذها الى دارفور وأعلى النيل ومصوع وارتيريا وأصبحت من ثم فى حاجة ملحة الى من يشغل الوظائف الدينية للدولة بعد هذا التوسع » *

والحقيقة ان مقدمة القضية التى طرحها الباحث خاطئة ومن ثم فالنتائج التى ترتبت عليها أيضا جاءت أكثر خطأ * فلست أدري ماذا يعنى « بتوظيف التعليم » ؟ فان كان يعنى — كما يتبين من سياق حديثه — ارسال جعفر مظهر بعض الفقهاء الى مصر للترود من علوم الأزهر حتى يشغلوا الوظائف الدينية عقب التوسع فلا نعتقد ان جعفر مظهر كان يرمى الى هذا الهدف فقط — ان صح هذا القول تاريخيا — وهو غير صحيح كما جاء فى استنتاجه ، فلم تكن دارفور قد ضمت للإدارة المصرية * حتى يبعث البهاء فقهاء ولا الجنوب السودانى بات فى حاجة ملحة الى فقهاء مسلمين على طراز رفيع من التعمق فى فهم الدين * ولكن التفسير الأقرب للصواب نحو اهتمامه برجال الدين وارسالهم الى الأزهر ان هذا الرجل لم يكن مقتنعا تماما بالأسلوب التعليمى الذى كانت تقوم

(١) يحيى محمد إبراهيم : المرجع السابق . ص ٢١٣ .
 * تولى جعفر مظهر باشا الحكم من ٥ مارس سنة ١٨٦٦ الى ٢٠ يولية ١٨٧١ ، بينما ضمت دارفور للإدارة المصرية بالسودان فى أواخر عام ١٨٧٤ .

به الخالوى والذى لم يتقدم خطوة للأمام ، غاراد أن يخلق صفوة متعلمة ومتفكحة لا مجرد حفظة للقرآن الكريم وحسب . وهذا التفسير يتسق — من ناحية أخرى — والسياسة التى نهجها جعفر مظهر والتى قدمها فى مشروعه التعليمى سالف الذكر .

ومع ذلك كله فليس هناك ما يمنع أن تتولى هذه الصفوة أمور القضاء والادارة والزعامة فى السودان ، فقد كان من بينهم مشايخ قبائل وزعماء « حبل » (١) .

وفى عهد ممتاز باشا الذى خلف جعفر مظهر سارت سياسته التعليمية على نهج سلفه تارة ثم بدأت تحمل بصماته تارة أخرى ، فقد سار على نهج سلفه فى حرمان من لم تثبت أهليته من الفقهاء فى الحصول على المرتبات والمربوطات ، وعاملهم بشدة ، ولم يقبل « التدلل » الذى كانوا يعاملون به من قبل . وأما بصماته التعليمية فقد ارتبطت بسياساته الزراعية المعروفة عنه وخصوصا فى شرقى السودان ، حيث قرر أن يعطى كل شيخ أو فقيه مقدارا من الأرض تقدر بنحو ساقية أو أكثر (٢) ، على أن يقوم بتعميرها بدلا من تركها بورا وتعفى من الضرائب ومن ثم يمكن أن تكون الفائدة مزدوجة حيث يمكنهم العيش منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى تزداد مساحة الأراضى الزراعية ويكثر انتاجها ، لأن منحهم النقود قد صرفهم عن العمل فى الأرض كما كان الحال من قبل (٣) .

ولما خلفه اسماعيل أيوب باشا سار أيضا على طريق سلفه لكنه نظر الى بعض الحالات الخاصة التى لا تستطيع العمل فى الأرض كرئيس

Hill; Egypt in the Sudan, p. 126.

(١)

(٢) تقدر الساقية كما سبق أن ذكرنا بثمانية أفدنة فى أراضى الجزائر وعشرة فى الأراضى النابتة .

(٣) دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى ، صورة الامر الكريم رقم ٩ ص ٦٨ أمر كريم الى مدير عموم قبلى السودان فى ٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ . انظر أيضا عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٦٧ .

العلماء و « مميز » الطائفة العلمية والفقهية ، ومميز الوظائف القرائية والحفاظ وغيرهما فقرر استمرار مرتباتهم من النقود والأذرة ، وأما بقية الفقهاء من أرباب المرتبات غلكونهم مزارعين فيمكنهم كسب معيشتهم ، ولذلك حذف مرتباتهم ، أما إذا أرادوا زراعة ساقية من الأراضي فيعاملون كما يرى المدير .

ويبدو أن سيل طلبات الاعانة المالية من جانب الفقهاء قد كثر أرسالها إلى الخديوى اسماعيل فكان يحيلها بدوره إلى الحكمدارين لفحصها ، فكان يتبين في كثير منها ان هؤلاء الفقهاء قد جبلوا على الكسل انتظارا لهذه المرتبات بدلا من العمل بالزراعة (١) .

وينتقد البعض (٢) سياسة الخديوى اسماعيل نحو التعليم الدينى وخاصة أسلوبه فى تقديم الاعانات لها والتي لم تكن تخضع لنظام محدد وثابت بل كانت مركزة فى يده دونما خطة ، وانه لو حدث هذا التنظيم لها لما استغل الفقهاء هذا التشجيع القائم على الثقة ، ولو كانت هناك مصلحة أو دىوان للتعليم — كالذى كان بمصر — أو لو عمل نظام للتعليم بالسودان كما كان الحال بمصر لتشجيع التعليم الأهلى والكتاتيب لربما كانت النتيجة أفضل مما حدث . ولو أتيح لمشروع جعفر باشا مظهر أن يرى النور لوجد مبرر قوى لحرمان الكسالى والمهملين والأدعياء من شيوخ الخلوات وأصبح هناك دليل واضح على فشلهم فى أداء رسالتهم التعليمية فحل غيرهم محلهم ، ولربما شجعهم تنظيم التعليم الأهلى على أن يحسنوا من أنفسهم مادة وأسلوبا . وباختصار شديد فقد انتفت السياسة الواضحة والخطة الحكيمة لإدارة البلاد تعليميا وتنقيفيا . ومرد ذلك ، كما سبق القول — ان ظروف مصر الاقتصادية

(١) دفتر رقم ١٨٧٦ — وارد عرض حالات . ص ٦٧ ، وثيقة رقم ١٥ ، بتاريخ ١١ صفر سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٧٠ .

والمالية منها على وجه الخصوص لم تكن مشجعة لوضع مثل هذه السياسات والخطط التعليمية المستقبلية التى تحتاج الى جهود وموارد مالية فى المقام الأول .

وفى عهد الخديوى توفيق لم تشر الوثائق كثيرا الى التعليم الدينى الأهلى ، وربما يعود ذلك الى بدء اضمحلال الادارة المصرية فى السودان نتيجة الأحداث التى بدأت تعمل فى المجتمع السودانى وفى مقدمتها الثورة المهدية ، أو ربما ان المدارس السابقة استمرت تؤدى رسالتها ولم تعد فى حاجة كثيرة الى الانفاق عليها بعد أن أغدق اسماعيل عليها الكثير ، كما أن السكان أنفسهم أصبحوا يعدون هذا النوع من التعليم جزءا من رسالتهم الدينية التى ينتقربون بها الى الله وليسوا فى حاجة الى الاعلان عنها .

ثانيا : التعليم المدنى (الحكومى) :

لم يكن التعليم الحكومى أو المدنى قد بدأ منذ عهد محمد على فى السودان ، بل صرف الرجل همه الى التعليم الأهلى ، كما سبق ان ذكرنا ، واخذى كان مناسبا للتركيب القبلى فى السودان آنذاك ، كما انه كان فى حاجة الى استقرار البلاد أولا حتى يمكن انشاء مدارس حديثة على غرار ما تم بمصر . وليس معنى ذلك أنه أهمل هذا الجانب ، بل استعاض عنه بأسلوب آخر يتمثل فى ارسال أبناء السودان الى مصر لتلقى التعليم فى مدارسها وخاصة الفنية منها كالزراعية والصناعية . فقد كان السودان فى تلك الآونة فى حاجة ماسة وسريعة لخلق وإيجاد فنيين يقومون على أمور الزراعة والصناعة ، ولم تكن برامج الباشا لتسمح بالانتظار طويلا ليتسنى انشاء المدارس فى السودان . لقد حث الباشا منذ زيارته للسودان الأهالى على ارسال أبنائهم لمصر لتلقى أصول هذه العلوم ، وراح يغرى وجهاء السودان ان يستجيبوا لهذا النداء قائلا : « فان كنتم توغدون أبناءكم فانى الحقهم بالمدارس الكثيرة

التي وفقنى الله سبحانه وتعالى فى انشائها لتعليم أبناء الأمة وتنشيتهم وأدفع لهم نفقات مآكلهم وملبسهم ، وبذلك ينعم أبناءكم بنصيب وافر من العلم والأدب فى هذه المدارس ثم اعيدهم بعد سنوات قليلة الى أوطانهم معززين مكرمين * * « (١) *

وبالفعل فقد كان محمد على صادقاً فى قوله ، فعقب عودته جاءه ستة من أبناء السودان فأمر بتعليمهم الزراعة وارسالهم الى المدرسة التجهيزية والعناية بهم وتمييزهم عن غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين ، وتخصيص خادم لهم للقيام بخدمتهم حتى يتفرغوا تماماً للتعلم والدراسة والعلم ، كما انه طلب قبل كل شئ أن يتم تعليمهم القراءة والكتابة تمهيدا لتعليمهم فن الزراعة (٢) * وكان الباشا يتابع بنفسه مدى تقدم هؤلاء التلاميذ ، وقد وافق فى عام ١٨٤٣ أن يبقوا لمدة سنتين اضافيتين حتى يمكنهم اعادة فن الزراعة علما وعملا (٣) *

وهكذا كانت فترة محمد على المتبقية ، تهدف الى ارسال السودانين الى معاهد التعليم بمصر الى جوار اقربانهم المصريين وان كان محمد على قد كثف عنايته تجاههم ربما لأنهم كانوا فى حاجة الى مزيد من التعليم حتى يمكنهم أن يكونوا نواة طيبة فى السودان تستطيع البلاد ان تعتمد عليها فى المستقبل *

انشاء مدرسة الخرطوم :

وفى عهد عباس الأول يمكن أن نميز — لأول مرة — بين نوعين من

-
- (١) رحلة ساكن الجنان — السودان — محافظ عابدين *
 - (٢) دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة جهادية ، وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة ، انظر ايضا : حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية — الجزء الاول، ص ٣٥٠ .
 - (٣) دفتر رقم ٣١١ — صادر شبرى المعاونة — وثيقة رقم ٦٨٥ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كتاب الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

التعليم في السودان ، الأول وهو التعليم الأهلى أو الدينى والثانى ما عرف
بالتعليم الحكومى أو المدنى •

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن عصر عباس الأول بصفة عامة كان
عهد ركود وضعف • ولم يحظ التعليم — كغيره — من الميادين الأخرى
باهتمامه • بل اقتصر اهتمام الرجل فقط في الإبقاء على بعض المدارس
لتخريج العدد الكافى لإدارة المرافق المحدودة ، كما كان شديد الحرص
في الصرف على معاهد التعليم وإن كان ينفق ببذخ على قصوره ومرافقه
من ناحية أخرى (١) •

وفي تقديرنا أن عباس الأول قد جاء في زمن كانت تشهد فيه مصر
تحولا سياسيا ضخما ، كانت تنتقل فيه من مرحلة توسع ضخمة جلبت
عليها الكثير من المشاكل الدولية الى مرحلة كمون تلتقط فيها الأنفاس
وتعيد النظر في سياستها المختلفة • ولسوء حظ الرجل — من ناحية
أخرى — أنه جاء بعد عصر محمد على الملى بالإنجازات الضخمة في
الداخل أو الخارج فبدأ وكأنه كما محدودا مهما فعل من أعمال في مصر
أو خارجها سواء في السودان أو غيرها •

ومن أهم الإنجازات التعليمية التى تقترن باسم عباس الأول في
السودان مدرسة الخرطوم التى أصبحت النواة الأولى للتعليم الحكومى
في هذه البلاد •

وتجدر الإشارة الى أنه منذ عهد الحكمдар خالد باشا (ديسمبر
١٨٤٥ — أكتوبر ١٨٤٩) بدأ السودان يعود الى نظام اللامركزية في
الإدارة حين ظن رجال الإدارة أن في استمراره استقرارا للبلاد •
ولما كان نجاح هذا النظام مرتبطا بما يمكن أن يوفره المسئولون في
مصر من الجند والموظفين فقد عمل عباس على المزيد من إشراك العنصر

(١) أحمد عزت عبد الكريم : عصر عباس وسعيد • ص ١٣ •

الوطني في سلك الادارة • وأخيرا لجأ الى افتتاح مدرسة بالخرطوم حتى يمكنها أن تمت الادارة المدنية في السودان بالكتابة بعد ثلاث أو أربع سنوات ، وكذلك القوة العسكرية بكتبتها (بلوك أمناء) ، وبعد مضي أربع سنوات أخرى — حين يتخرج تلاميذ القسم التجهيزي — يمكنها امداد الادارات المختلفة بمجموعات طيبة من الموظفين (١) •

ولست مع الرأي القائل بأن هذه المدرسة كانت أساسا لأبناء الترك والمصريين وبعض أبناء العمدة والمشايخ (٢) • صحيح ان هذه الفئات قد انضوت في صفوف هذه المدرسة ، ولكن ما الضير في ذلك طالما يتسع المجال للجميع ، كذلك فاننا لا نتفق مع الرأي القائل بأن الباشا كان يفرق بين رعاياه (٣) ، بل العكس كان صحيحا ، ودليلنا على ذلك هو نص رسالة عباس نفسه الى مدير ديوان المدارس حيث يقول : « •• ان الأقاليم السودانية لديار وسيعة ، ولما تنتشأ بها مع عظيم مساحتها مدرسة من أجل أبناء سكانها الأصليين من مشايخ وأهلين ولأولاد أحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار من سنين ليتعلموا صفتي القراءة والكتابة وليدرسوا العلوم •• » (٤) •

هذا هو نص القرار وكلماته واضحة لا تحتاج الى تأويل ، وواضح أيضا أنه قدم أبناء السكان الأصليين أي السودانيين على سائر الأجناس الأخرى • كذلك فانه لم يقصر دخولها على أبناء المشايخ والعمدة بل كانت لأبناء المشايخ والأهالي كافة • وبمعنى آخر فقد كانت المدرسة لجميع سكان السودان آنذاك من الذين كانوا يعيشون على أرضه ويتبعون ادارة الحكمادارية •

(١) أحمد أحمد سيد : رفاعة رافع الطهطاوى في السودان • ص ٧٣ •

(٢) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٩٧ •

(٣) نفس المرجع • ص ١٩٧ •

(٤) محفظة رقم أوامر لديوان المدارس — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل و ٤ أصل بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ هـ • من الخديو عباس على باشا الى مدير ديوان المدارس • دار الوثائق القومية بالقاهرة •

وقد ارتبط تاريخ هذه المدرسة برفاة الطهطاوى ، ويحلو للبعض ترديد المقولة الشهيرة ان عباس الأول انما أسس مدرسة الخرطوم ليتخلص من رفاة ، وأن هذا الوالى الذى أغلق المدارس بمصر ما كان ليفكر فى فتح مدرسة بالسودان . وقد يكون لهذا رأى وجاهته فيما يتعلق بمصر وظروفها التى بدأ يحكم فيها هذا الوالى ، ولكن ليس بالضرورة ان ينسحب ذلك بشكل تلقائى على السودان الذى لم تنشأ به مدارس حكومية من قبل بعكس ما كان فى مصر حيث تنوعت المدارس المدنية والعسكرية وأصبحت فى عهده زائدة على الضرورة . نقول قد يكون هذا رأى وجيها بالنسبة لمصر ، أما بالنسبة للسودان فالأمر جد مختلف . والخطورة هنا ان نعتقد ان مسألة اغلاق المدارس هى سياسة عامة لدى هذا الرجل سواء فى مصر أو السودان . واستكمالا لهذه الفكرة أيضا نقول ان ارسال رفاة الى السودان لم يكن نفيا أو تخلصا منه ، ولو كان هذا هدف عباس ما أعوزته الحيل كى يتخلص منه . وكان بمقدوره أن يفعل هذا دون اللجوء الى اختلاق فكرة انشاء مدرسة . وللأسف الشديد فان الكثيرين يقفون طويلا عند مثل هذه المسائل الجانبية حتى يطمسوا بعض الأعمال الجليلة التى يمكن أن تخلد لصانعيها .

وقد بعثت المعية السنية الى ديوان المدارس فى ٦ رجب عام ١٢٦٦ هـ (١٨ مايو ١٨٥٠) رأيا أبداه المجلس الخصوصى لتأسيس « . مدرسة بالأقاليم السودانية انقاذا لأولاد أهلها من جحيم الجهل فيمتازوا باكتساب العلوم والمعارف على أن يقبل ويقيّد بها مائتان وخمسون غلاما ، واستحسن أن يولى رفاة بك ناظرا على هذه المدرسة ، فيرسل اليها ، ويصطفى مدرسوها من هنا باختيار البك المشار اليه . » (٢) .

Hill; Op. Cit., p. 88.

(١)

(٢) محفظة التعليم - دفتر رقم ٢١٣٣ مدارس تركى - ترجمة المكتبة التركية رقم ١٦٧ ص ٢١ بتاريخ ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

هذا هو رأى المجلس الخصوصى الذى طلب من مدير المدارس — صاحب الاختصاص الفنى — أن يعمل الترتيب اللازم ويرسل بيانا للمجلس حتى يبحته قبيل اصدار القرار النهائى * وبالفعل فقد تم ذلك حين بعث مدير المدارس الى المعية السنية يقول « * * وقد تشاورنا فى الأمر بالديوان واجتبتينا المعلمين من بين أكفاء الرجال ووضعنا بيانا عن سائر الخدم وعن الملابس والفرش والجرايات والمرتبات الشهرية فرفعناه الى آعتاب جناب الخديو ، فوافقت عليه ارادته السامية * * » (١) .

وهكذا أبدى ديوان المدارس رأيه الفنى وبعث بالبيانات اللازمة الى المعية السنية فرفع الى الوالى فوافق عليه ، ولم يبق إلا قرار المجلس الخصوصى الذى صدر فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ هـ (٢٧ مايو ١٨٥٠ م) (٢) * ويتضمن هذا القرار أن يكون تلاميذ هذه المدرسة من « * * أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بدنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وملحقاتها » كما استقر رأى على أن يكون مقر هذه المدرسة الخرطوم و « تابعة لنظام المدارس المصرية وعلى نسق المبتديان والتجهيزية » ، وأن يقيد بها مائتان وخمسون طفلا ، ويعين رفاعة ناظرا عليها نظرا لآلامه بأصول المدارس * كما طلب من رفاعة أن يستصحب معه الأحد عشر معلما والطبيب الذين خصصوا لهذه المهمة ويسرع بهم الى الخرطوم لتأسيس المدرسة ، وأن يبذل جهده فى ذلك ويعتنى بأمور المعلمين والتلاميذ * (٣) كذلك فقد طلب من حاكم دار السودان أن يخصص

(١) دفتر رقم ٢١٢٤ ديوان المدارس (تركى) — ترجمة المكاتبه رقم ٧٢ ص ١٩٥ بتاريخ ١٣ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر أيضا : عبد العزيز أمين عبد الجيد : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٥٨ — قرارات المجلس الخصوصى — ترجمة المكاتبه التركية رقم ٤ ص ١١٩ — فصل المدارس بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر أيضا : محفظة رقم ٤ — أوامر لـديوان المدارس — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل ، ٤ أصل بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ . من الخديوى عباس حلمى باشا الى مدير ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقاهرة . (٣) نفس الوثيقة السابقة .

مكانا مناسباً للمدرسة وأن يختار الأفراد المعاوين من أهل البلاد مثل الكاتب و « الوزن » و « وكيل العهدة » و « الغسال » والسقاء والطاه والخدم الآخرين على أن تخصص خمسة قروش شهريا لكل طالب (١) * وقد صدر أمر الى ترسانة بولاق - بناء على ما جاء بخطاب ديوان المدارس - بتخصيص « ذهبية » لنقل رفاة والمدرسين البالغ عددهم أحد عشر بالإضافة الى الطبيب (٢) *

ووصل رفاة الى الخرطوم وانقضى عامان ولم تفتح المدرسة لا لأسباب مالية أو فنية أو أية أسباب أخرى إلا لأن رفاة نفسه كان حائقا على مجيئه الى السودان ، وبدلا من سعيه الى افتتاح المدرسة راح يشكو بمرارة لكل من يقابله بأن مجيئه الى السودان كان عقابا له وتخلعا منه * وقد لقيه في الخرطوم الرحالة الأمريكي بايرد تيلور Bayard Taylor في عام ١٨٥١ وظل يشكو له قرابة ساعة مما حدث له من عباس باشا من متاعب وكيف انه عزل الرجال الذين قربهم محمد على اليه (٣) *

ويكتب رفاة نفسه حول هذا الموضوع فيقول انه سافر « .. الى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم

(١) نفس الوثيقة السابقة *

(٢) دفتر رقم ٢٥٧ ديوان الكنخدا - وثيقة رقم ١٧٧٢ بتاريخ ٢١ رجب سنه ١٢٦٦ هـ الى ترسانة بولاق . دار الوثائق بالقلعة .

اما اسماء المدرسين فهي كالتالى : (١) القائم محمد بيومى أفندى (٢) الصاغق أحمد طائل (٣) الملازم أول على محمد أفندى « ٤ » الملازم ثان على عثمان أفندى (٥) الملازم ثان ابراهيم محمد أفندى (٦) الملازم ثان محمد مرسى أفندى (٧) الملازم ثان أمين أفندى . ويرجع الرجوع الدكتور عزت عبد الكريم انهم من تلامذة رفاة بك في مدرسة اللسن (عصر عباس الأول وسعيد ص ١١٧) (٨) الشيخ رجب « ٩ » الشيخ مكاوى (١٠) الشيخ اسماعيل فرغلى (١١) الشيخ أحمد الواعظ (١٢) سليمان السيوطى أفندى - طبيب (نفس المرجع ص ١١٧) .

(٣) عبد العزيز أمين : المرجع السابق . ص ٢٩ *

(م ٣٢ - التطور الاقتصادى والاجتماعى)

فلبث نحو الأربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتي من الخوجات المصريين» (١) *

وهكذا ظل رفاة يشكو ولا يعمل وينقضى نحو عامين ولما اتصل منه أخبار الى مصر حول افتتاح المدرسة حتى كتب اليه ديوان المدارس يستفسر الأمر ويذكره بأنه اختير لهذه المهمة لما هو معروف عنه من المهمة والخبرة في أمور المعارف والعلوم والتربية ، وطلب منه أن يكتب مفصلا عن عدد التلاميذ بالمدرسة وعن العلوم التي تلقوها خلال هذه المدة (٢) *

ولقد كان بمقدور رفاة — بما عرف عنه من نشاط وخبرة في هذا المجال التربوي — أن يفتتح هذه المدرسة في فترة وجيزة دون الانتظار لحولين كاملين ، والتهاون الشديد لدرجة أنه أهمل المهمات التي اعطيت له من أجل المدرسة حتى وزعت على آليات الجهادية بمعرفة بعض المسؤولين في الحكمدارية * ومما يؤكد قولنا في أنه كان بمقدوره افتتاح هذه المدرسة ، ان الحكمدار سليم باشا صائب (ابريل ١٨٥٣ — مارس ١٨٥٤) الذي وصل السودان في شهر شعبان ١٢٦٩ هـ * استطاع أن

(١) مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية . ص ٢٦٥ .
وقد نظم رفاة في السودان قصيدة يشكو فيها حاله قائلا :

وما السودان قط مقام مثلي ولا سلماي فيه ولا سعادي
بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفئه وادي
ثم يقول في موضع آخر :

وقد فارقت اطفالا صفارا بطهطا دون عودي واعتيادي
أفكر فيهم سرا وجهرا ولا سمري يطيب ولا رقادى
ويقول أيضا :

ثلاث سنين بالخرطوم مرت بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى هناك ودونها خرق القتاد
(مناهج الالباب . ص ٢٦٥ — ٢٦٨) .

(٢) دفتر رقم ٢٠٩ — مدارس عربى — مكتبة رقم ١٦٦٥ . ص ٢٤٩٥
بتاريخ غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ . الى ناظر مدرسة الخرطوم .

يفتتحها في شوال من نفس العام ، علما بأن شهر رمضان كان شهر أجازة وراحة للموظفين (١) .

ويبدو أن افتتاح هذه المدرسة كان غير مشجع ، حيث كان تلاميذها واحدا وثلاثين فقط ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الحكمدار لم يزداد عددهم إلا سبعة آخرين بعد شهر ونصف من الافتتاح .

وقد كانت هذه المدرسة على غرار مدرسة المبتديان والتجهيزية كما سبق القول ، ولكنها لم تستمر حتى يتكون بها قسم تجهيزي ، فلم تتجاوز المرحلة الابتدائية . وقد ألحق بهذه المدرسة خلوة من خمسة فصول لتعليم القرآن الكريم ، تضم الأطفال بين سن الخامسة والعاشر (٢) .

وكانت المدرسة داخلية لأن تلاميذها كانوا من جهات متعددة خارج الخرطوم ، كما كانت مزودة بكل مستلزمات القسم الداخلي من غذاء وفرش وغير ذلك . ومعروف ان الغرض من المدرسة الابتدائية (المبتديان) هو اعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ، وعلى هذا فقد كانت مدرسة الخرطوم الابتدائية هي المرحلة السابقة للمدرسة التجهيزية . وكان يقبل في هذه المدرسة التلاميذ من سن السابعة الى الثانية عشرة على أن يكون التلميذ سليم البدن خاليا من الأمراض . ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات وتزداد الى أربع لمن يحدث له عذراً مرض . وكان التلميذ يبدأ بالفرقة الثالثة فاذا نجح ينقل الى السنة الثانية ثم الأولى (٣) .

أما مواد الدراسة في هذه المدرسة فكانت الكتابة والقراءة ومبادئ

(١) دفتر رقم ١١٧ — وارد معية — صورة المكاتب العربية رقم ٣٥ ص ٥٩٤ . بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦٩ هـ . من سليم باشا صائب حكمدار السودان الى المعية السنية — دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٠٥ — ١٠٧ .
(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٤ — ٣٥ .

النحو والصرف العربى والحساب والفرائض الدينية (١) • وكان التلاميذ يجلسون على حصر على الأرض ، والمدرس يستمع اليهم وهم يقرأون ، أو يلقي عليهم درسا في الحساب • وقد أبدى الرحالة الانجليزى (جيمس هاملتون) اعجابه من التقدم الذى أبداه تلاميذ هذه المدرسة في وقت وجيز (٢) •

ولم تستمر مدرسة الخرطوم أكثر من عام دراسى واحد من شوال سنة (١٢٦٩ هـ • الى شعبان سنة ١٢٧٠ هـ) حيث أصدر محمد سعيد أمرا بإغلاقها في ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ هـ (٢٣ يولية ١٨٥٤ م) (٣) •

وكما كان يحدث في مدارس مصر حدث نفس الشيء في مدرسة الخرطوم حين عقد امتحان لتلاميذها وقد حضر هذا الحفل حكامدار السودان وبعض الأعيان والعلماء ومشايخ البلاد وعمدها وتم ارسال جدول الامتحان الى مصر (٤) •

وقد عاد رفاة الى مصر بعد أن أقفلت المدرسة التى لم تؤت أكلها طيبة • وبالرغم من ذلك فانها قد تركت بعض الأثر في السودان حيث تعلم فقهاء الخرطوم من المشايخ الذين رافقوا رفاة للتدريس تجويد القرآن وعلم القراءات بالاضافة الى التلاميذ الذين أمضوا العام الدراسى بها (٥) •

ولا شك أن وجود أمثال رفاة وبيومى وغيرهما في الخرطوم — كما ذكر الدكتور مكى شبيكة — كان له بعض الأثر في الطبقة المتعلمة في السودان في ذلك الوقت ، فقد ذكر رفاة وصاحبه بالخير (٦) •

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عهد محمد على ص ٦٨١ •

(٢) Hill; Op. Cit., p. 88.

(٣) محفوظة رقم ٤ — معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٠ ص ٢٥ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٣١ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٥ — ٣٦ .

(٥) رفاة الطهطاوى : المصدر السابق . ص ٢٨ .

(٦) السودان في قرن . ط ٢ ، ص ٥٧ .

أما عهد سعيد كما قلنا فقد استهل بالغاء مدرسة الخرطوم * وقد ركز البعض هنا حول مسألة كراهية سعيد للتعليم وعدم عنايته بالسودان عموما ، وفسر هذا الالغاء من جانب سعيد بسبب الشكوى المستمرة من لدن رفاة وبقائه في السودان بالاضافة الى أن المدرسة بعد أربع سنوات من انشائها لم تثبت ضرورة من وجودها (١) *

ويبدو أن سعيد باشا لم يكن موفقا في سياسته التعليمية بوجه عام ، فلم يوجه عنايته للنهضة العلمية في مصر واستمر الجمود الذي أصابها في عهد عباس (٢) * وقد حاول البعض أمثال مسيو (مريو) وهو من المعجبين بسعيد باشا الدفاع عنه في هذا الجانب بأن عباس الأول كان قد أهمل المدارس فأصابها الاضمحلال وازدادت حالتها سوءا حين بدأ سعيد يتولى الحكم فرأى من الحكمة اغلاقها نهائيا بدلا من البدء في تنظيمها الذي كان عبثا لا يجدى * ولا يوافق الرافعى على هذا الدفاع الذي لا يقبله المنطق — من وجهة نظره — فليس من المعقول — عنده — أن يعالج القصور في ذلك باغلاق هذه المدارس ، بل ينبغي أن يكون بتنظيمها واصلاحها ، فاذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم فالأسهل من ذلك اصلاح الخلل الذي أصابها (٣) *

ويذهب المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في تفسير سياسة محمد سعيد التعليمية الى انه تولى حكم مصر بعد ست سنوات من وفاة محمد على * شهدت خلالها مصر توقف الحركة الاصلاحية الواسعة النطاق التي وجهت مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كمبا شهدت انكماش القوة العسكرية والنظام الصناعي الكبير ، وانحلال السياسة الاقتصادية * فكان الأمور كلها قد ساءت ومن بينها الجانب التعليمي أيضا (٤) *

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٣٨ .
 (٢) عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل . الجزء الأول ص ٤٢ .
 (٣) نفس المرجع . ص ٤٢ .
 (٤) عصر عباس الأول ومحمد سعيد ١٨٤٨ - ١٨٦٣ . ص ١٦٩ .

وهكذا تولى سعيد الحكم ولما توجد في مصر المدارس التي أنشأها محمد علي سوى المنزر اليسير ، فلم يعمل على إعادة احياء ما اندثر ، بل انه ألغى ديوان المدارس وكثيرا من المدارس (١) * وعلى هذا فليس من الغريب والحالة هكذا بمصر أن يشهد السودان في عصر سعيد نكوصا في التعليم الحكومي .

وليس معنى ذلك أن السودان كان غائبا عن ذهن سعيد ولكن يبدو أن آثار التجربة السابقة لمدرسة الخرطوم كانت ماثلة أمامه * فالسودان قد نال عنايته القصوى في جوانب أخرى كما مر بنا * * وكل ما نستطيع قوله ان محمد سعيد لم يكن موفقا في الجانب التعليمي في السودان ، والحكومي منه على وجه الخصوص * * *

وفي عهد الخديوي اسماعيل بدأنا نشهد عودة الى التعليم الحكومي المدني في السودان ، وقد كان ذلك على عهد الحكمدار موسى حمدي الذي قدم اقتراحا في نهاية عهد سعيد بادخال كل من يرغب من أبناء العمدة والأعيان والأهالي في دواوين المديريات وفي ديوان الحكمادارية لتعليمهم فن الكتابة من حسابات وتحريرات وغيرها حتى يمكن الاستفادة منهم بدلا من طلب كتبة من مصر نظرا الى أن الأخيرين يتكفون مصاريف كثيرة بالاضافة الى اختلاف المناخ الذي يؤثر على صحتهم * وقد بدأت مناقشة هذا الاقتراح في عهد اسماعيل الذي أقره وأدخل عليه تعديلا جوهريا حيث قال : « * بما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التوطن والعمارية * ومن لزوم ذلك

(١) الراجع السابق . ص ١٤ .

(*) انظر فيما سبق فصل (الضرائب وشئون المال) .

(**) جرت محاولة في نهاية عهد سعيد من جانب الحكمدار موسى حمدي لادخال أبناء العمدة والأعيان والأهالي في دواوين المديريات والحكمادارية لتعليمهم فن الكتابة والحساب ولما كان هذا الحكمدار قد حاول تنفيذها بشكل جدى في عصر اسماعيل فقد أثرنا ان نتحدث عنها في عهد اسماعيل .

استحصال * الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائماً مجبولين على حب الوطن أو متشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم في المعارف والفنون فلذلك قد سنع لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن تثبت مهارتهم في ذلك ليعلموا قدر خمسمائة نفر تلامذة من أهالى تلك الجهات * * (١) * ثم استدرك في حاشية الخطاب أن يتم عمل مكتبين بدلا من مكتب واحد اذا كان ذلك موافقا لأحوال السودان (٢) *

وهكذا وسع الخديوى اسماعيل الدائرة التعليمية فبدلا من الموافقة على انتظام الصبيان من أبناء العمدة والأعيان والأهالى في دواوين الحكومة لجرد التدريب على فن الكتابة اقترح انشاء مدرسة لتكون مؤسسة صالحة للتعليم بل زاد على ذلك واقترح ان تنشأ مدرسة ثانية ان كان ذلك مناسباً للبلاد * ويبدو أن هذا السخاء « الاسماعيلى » قد صادف هوى في نفس الحكمدار فطلب ان تنشأ خمس مدارس لتعمم الفائدة جميع مديريات السودان * وشرح الحكمدار مطلبه قائلا : « * بما أن من المعلوم أن بلاد السودان عبارة عن ديار متسعة وأن المديرىات بعيدة بعضها عن بعض ، وأن قصر « خمسمية التلميذ » * * السالفة ذكرهم على مدرسة أو مدرستين يوجب تمتع أهل المديرية التى بها تلك المدرسة بحب ثمرات الثمدن وحرمان أهل غيرها من تلك الثمرات النافعة * وبما أن افتتاح المدارس من جملة مراحم ولى النعم واحساناته السنية ، فلو أسست خمس مدارس صغيرة في مديريات الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والفاكة بدلا من مدرستين عظيمتين وتعلم في كل منها

(*) حصـول *

(١) لفتح رقم ١٩٠٤ أوامر كرام عربى صاندر الى الأقاليم . صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ هـ ، انظر تنويم القيل وعصر اسماعيل - الجزء الثانى - المجلد الثانى - ص ٤٥٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٢ .

(*) الخمسمائة تلميذ .

مائة تلميذ كى تشمل ثمرات التمدن وانتشار العلوم أهالى عموم بلاد السودان ومستوطنيا ويمتازوا بتحصيل العلوم النافعة * (١) *

وهكذا أراد الحكمدار أن يعطى كل مديرية سودانية نصيبها من التعليم المدنى فينشئ فى كل واحدة منها مدرسة ، وربما يكون فى هذا التوزيع على كافة المديريات السودانية رد على أولئك الذين يرددون أن التعليم فى تلك الفترة كان يقتصر على أبناء الترك وحسب دون أبناء السودان * وقد كان الحكمدار حصيفا عندما وافق على ألا يزيد عدد تلاميذ المدارس الخمس عن خمسمائة تلميذ كما طلب الخديو * وربما أراد من هذا التقييد عدم التوسع فجأة فى عددهم ، بل عليه أن يتروى قليلا حتى يضمن السماح بالمدارس الخمس ثم يترك زيادة العدد للظروف وربما أيضا كان قد استفاد من تجربة مدرسة الخرطوم زمن عباس الأول - حين عزف التلاميذ عن الالتحاق بها بشكل كبير - فلم يسرف فى التفاضل (٢) *

ولقد وافق الخديوى على طلب الحكمدار قائلا : « ... وحيث أن ازدياد وانتشار آثار المدنية والعمران فى ربوع السودان وتعميم ثمرات العلم والمعارف بواسطة انشاء وفتح المدارس الخمس على الوجه المذكور أمر فى محله وموافق لآمالنا ورغبتنا * فبناء عليه يجب أن تبادروا باجراء موجهه وبالسعى والاهتمام بخصوص تعليم وتقديم أهالى الجهات المذكورة * » (٣) *

وقد تم افتتاح تلك المدارس فى يونية عام ١٨٦٣ ، وأصبحت تحت

(١) محفظة رقم ٢٩ معية تركى - ترجمة الوثيقة رقم ٥٠٨ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ . من موسى حمدي حكمدار السودان الى حضرة باشمعاون الخديو . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) عبد العزيز أمين . عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٧٣ .

(٣) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا - المجلد الثالث - الجزء الثالث ص ٤٧٦ - ٤٧٧ . أنظر أيضا دفتر رقم ٥١٦ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ ص ٦٢ بتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

الإشراف الفني لديوان المدارس ، وتتبع نفس الخطط الدراسية المعمول بها في المدارس المصرية من حيث البرامج وخطط التدريس والاجازات (١) *

أما المواد الدراسية المقررة في تلك المدارس فكانت اللغة العربية والقرآن الكريم واللغة التركية والحساب والنحو والمصرف والخط الثلث والرقعة والمنطق (٢) *

وبمرور سبع سنوات على افتتاح المدارس ونظرا لأن تلاميذها ومعلميها أظهروا كفاءة فقد طلب حكمدار السودان جعفر مظهر رفع مرتبات القائمين على التدريس بها فوافق الخديوى على ذلك تشجيعا لهم على بذل المزيد من الجهد (٣) *

ويبدو أن تعلم اللغة التركية في دنقلة ببلاد النوبة لم يلق نجاحا كبيرا حيث كانت برامج المدارس الخمس تحوى مادة اللغة التركية ، فلم يبذل معلمو هذه اللغة هناك عناية كافية في تعليمها ، فقد ذكر مدير عموم دنقلة وبربر في خطاب الى المعية السنية ان القائم على تدريسها بدنقلة لا يؤدى مهمته كما ينبغي وأنه مشغول بصيد الأسماك ، وكذلك الحال بالنسبة لمدرس هذه اللغة بمدرسة بربر ، ويقترح المدير — لذلك — الاستغناء عنهما والاكتفاء بتدريس اللغة العربية والقرآن ومبادئ النحو

(١) شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٤٢ ، ١٤٣ أنظر أيضا : ابراهيم عبده : مصر واغريقية في العصر الحديث . ص ٣٣ .

(٢) سجل رقم ١٣٩ وارد معاونة — صورة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة . أنظر أيضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٢٧٤ ، أنظر أيضا : ابراهيم الحارثى : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٥ .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٩ — معية عربى — صورة المكاتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ . وأيضا : دفتر رقم ١٩٣٣ أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٢ ض ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

والحساب (١) * وإذا كان الفشل في تعلم اللغة التركية في دنقلة يعود أساسا الى تقاعس القائمين على تدريسها ، فانه ينبغي أن نشير أيضا الى حقيقة هامة وهي ان اللغة الأساسية لسكان منطقة دنقلة وسائر بلاد النوبة كانت اللغة النوبية وليست العربية فهم يتعلمون العربية كلغة أجنبية تماما ، بينما الوضع غير ذلك بالنسبة لتلاميذ مدرسة الخرطوم وغيرها فكان أهل دنقلة يدرسون لغتين أجنبيتين معا ، وبذلك يمكن تفسير ما ذكره مدير دنقلة وبربر حين تفقد مدرسة دنقلة ووجد بين تلاميذها من تقدمت بهم السن وأصبحت أعمارهم « ٠٠ تتراوح بين العشرين والثلاثين ومع ذلك لا يفهمون شيئا في النحو والصرف والتركي ، وفقط يفهمون شيئا قليلا في العربى ٠٠ » (٢) *

ولم يقتصر عهد الخديوى اسماعيل في السودان على تلك المدارس الخمس التي انشئت دفعة واحدة بل اضيفت اليها مدارس أخرى ، ففي سداد انشئت مدرسة ، وفي مصوع انشئت أيضا مدرسة ، حيث نقرأ في إحدى الوثائق بتاريخ ٢ صفر عام ١٢٨٤ هـ (٥ يونية عام ١٨٦٧) يطلب فيها رياض باشا من أحد مهندسى الجيزة أن يرسل الرسوم الخاصة بهذه المدرسة لدراستها (٣) * كذلك فقد انشئت مدرسة في مساكن ، وطلب الخديوى أن يتم انشاء هاتين المدرستين في تلك الجهات من نفس المواد المتوفرة بهما من مواد البناء فيما عدا الأتشياء الضرورية التي يمكن جلبها من مصر * وكلف « منسجربك » بفتح هاتين المدرستين

(١) دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى ص ١٠ . وثيقة رقم ٣ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٢) دفتر رقم ١٨٥٩ من دفتر قيد الاغادات الواردة من الأقاليم والمحافظات جواب رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ (موضوع التعليم) دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٣) دفتر رقم ٤ عابدين صادر تليغرافات صورة التليغراف العربى رقم ٤٧٣ ص ٣٥ بتاريخ الأربعاء ٢ صفر ١٢٨٤ هـ . من رياض باشا الى على أفندى رضا المهندس بالجيزة . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

في عام ١٨٧٣ (١) ، كذلك فقد افتتحت واحدة في جنوب السودان ، حيث تشير الوثائق الى اسم « زايد عبد الله » الذي كان ناظراً لمدرسة « مديرية البحر الأبيض » (٢) .

ومن بين المدارس التي انشئت في السودان — طبقاً لظروف خاصة مر بها التطور الاجتماعي في البلاد — مدرسة الرقيق المحزر . فقد نصت معاهدة ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ — الخاصة بالغاء تجارة الرقيق في تلك الجهات — على انشائها وان يلحق بها من يحزر من الأطفال الأرقاء . وعلى هذا قام محافظ شرقي السودان وسواحل البحر الأحمر بتأسيس هذه المدرسة واختيار سواكن مقراً لها (٣) .

وفي عام ١٨٧٧ تم افتتاح مدرسة بهرر . وقد جاء في تقرير جريدة أركان حرب الجيش المصري في نفس العام ان أكثر معارف أهل هرر هي علوم الشريعة الإسلامية خاصة مذهب الإمام الشافعي ، وان أطفالهم لا يحسنون التكلم باللغة العربية وان كانوا يقرأون ويكتبون بها . ولما رأى رئيس المأمورية (رؤوف باشا) تأخر المعارف هناك شرع في انشاء مدرسة صغيرة لتدريس النحو والحساب والخط وترتيل القرآن الكريم (٤) .

ويشير أحد الباحثين الى أن غوردون أصدر أمراً بالغاء المدارس الأميرية في السودان بدعوى انها كانت تمثل عبئاً مالياً لا طاقة لمصر به ،

-
- (١) دفتر رقم ١٥٤٩ أوامر شفاهية . صورة المكتبة العربية رقم ٤٢ ص ١٣ بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٠ هـ .
 (٢) محافظ الأبحاث — البحر الأحمر — وثيقة بتاريخ ١٢ أغسطس ١٨٧٣ ، انظر أيضاً : ابراهيم عبده : المرجع السابق . ص ٣٣ ، وايضاً الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الأول ص ١٦٣ .
 (٣) انظر نص الاتفاقية بالوقائع المصرية بالعدد رقم ٧٣١ بتاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ وبمحافظة اللواتج . بدار الوثائق القومية بالقلعة .
 (٤) جريدة أركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٤ هـ . انظر أيضاً شوقي الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر . ص ٢١٨ .

وانه حاول اغلاق مدارس الأهالى ومدارس الكاثوليك ، إلا انه لم ينجح فى مساعاه ، فطلب بعدم سفر الطلاب الناجحين فى المدارس الى مصر بحجة ان الادارة لم تعد بحاجة اليهم (١) .

وبالرغم من أننا نأخذ الكثير على سياسة غوردون فى السودان ، إلا أنه لم تثبت صحة هذا الزعم ، كما اننا لم نطالع — حتى الآن — وثائق تثبت أنه أغلق هذه المدارس بدليل انها استمرت تؤدى رسالتها حتى قيام الثورة المهدية .

وفى عهد جعفر مظهر باشا جرت محاولة لادخال علمى الطب والصيدلة لأول مرة فى السودان والخروج من دائرة تخريج موظفين للإدارة الى لون آخر من ألوان العلم وحتى يرتفع بالخدمة الطبية للشعب السودانى . وكان هذا المشروع يقضى بجمع عشرين تلميذا من تلاميذ مدارس السودان ليتعلموا الطب والصيدلة تحت اشراف طبيب مستشفى الخرطوم (٢) .

التعليم الفنى فى عهد اسماعيل :

لقد أعطى المسئولون فى السودان على عهد الخديوك اسماعيل اهتماما كبيرا لهذا النوع من التعليم ، وذلك لسد حاجات البلاد الضرورية من الفنيين بدلا من ارسالهم من مصر فى ظروف صعبة . ويبدو أن السياسة التى كانت مفهومة ضمنا أنه كلما أبدت مجموعة من تلاميذ مدارس السودان تقدما ملحوظا فى التعليم وظهرت صلاحيتهم لأى عمل ارسلوا الى مدارس مصر ثم يتم « فرزهم » وتوجيههم الى الأعمال

(١) أنتونى سوريال . جهود مصر الثقافية فى السودان . ص ١٣٥ .
 (٢) دفتر رقم ١٨٣٩ معية عرتى — صورة المكاتب العربية رقم ٤٤ بتاريخ ربيع الأول عام ١٢٨٧ هـ . انظر أيضا : محفظة رقم ٤٧ معية تركى — ترجمة المكاتب التركية رقم ٦٥٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ ، وهذه الوثيقة مودعة بالمحفظة التى تحمل اسم (موضوع التعليم) وهى من حكمدار السودان الى مهردان خديوى دار الوثائق بالقلعة .

التي حذقوها ، فمنهم من يعين في وظائف التليغراف أو هندسة البواخر وغيرهما (١) * ونتيجة لما حدث من توسع كبير في المواصلات السلكية دعت الحاجة الى وجود جهاز فنى يقوم بالأعمال التى تجعل هذه الشبكة تؤدى مهمتها على أكمل وجه * فكان لابد من تعلم فن التليغراف في مدارس خاصة بذلك * وكانت الشروط التى تؤهل الفرد للالتحاق بهذه المدرسة تقضى بأن يكون من خريجي المدارس الأميرية في السودان ومتقدما في القراءة والكتابة (٢) *

وكانت مدة الدراسة بهذه المدرسة ثلاثة شهور ، ومن يجتاز الامتحان فيها يعين على درجات ثلات : « تليغرافجى أول » و « تليغرافجى ثان » و « تليغرافجى ثالث » ، كما كان يتم توزيع هؤلاء الخريجين الفنيين في كافة المحطات المنتشرة في السودان (٣) * ومن الأماكن التى انشئت فيها مثل هذه المدارس الخرطوم وكسلا (٤) * وكان يشرف على تعليم هؤلاء التلاميذ وكيل تليغراف كل جهة تحت اشراف مهندس (٥) *

كذلك فقد عمدت الادارة في السودان الى ادخال تعلم الحرف مثل حرفة « الحياكة » بمديرية التاكة ، ففى هذه المديرية تم انشاء « ورشة ترزية » لعمل الملابس اللازمة للجنود وتلاميذ المدارس * ويبدو أن الأعداد التى كانت تقوم بتشغيل هذه الورشة لم تكن كافية

-
- (١) المحفظة السابقة . نفس الوثيقة .
 (٢) دفتر رقم ١٨٣٩ معية عربى — صورة المكتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ . انظر أيضا : دفتر رقم ١٩٣٣ ، أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٣) محفظة ٤٧ معية تركى — نفس المكتبة السابقة .
 (٤) شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ج ١ . ص ٤٣ .
 (٥) دفتر رقم ١٨٧١ ، معية عربى — صورة المكتبة الصادرة من المعية السفينة الى حاكم دار السودان . ص ٩ بتاريخ ٣ ربيع الأول . سنة ١٢٩١ هـ .

لسد حاجة الاستهلاك مما دعا الأمر الى طلب « دواليب » (ماكينات خياطة) أخرى كى يتم تدريب بعض أبناء السودان عليها * واقتصرت مدة تدريب هؤلاء على شهر حيث كانت المدة كافية للمامهم بهذه الحرفة * وكان يمنح كل تلميذ فى نهاية هذه المدة « دولابان » بلوازمها (١) *

ولقد امتد التعليم الفنى من شمال السودان الى جنوبه حين أرسل الخديوى اسماعيل فى عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) لائحة الى حكام السودان يشرح له فيها خطته الإصلاحية ومنها ادخال تعليم الحرف والصناعات فى تلك المناطق طالبا منه أن يخصص مكافأة لكل من يرغب من أبناء تلك الجهات فى تعلم هذه الحرف والصناعات ، وقد أعدت الحكومة كافة المعلمين المخصصين لهذا الأمر ، كما تم توفير الأموال اللازمة (٢) *

وفى مجال التعليم الزراعى أيضا كان للحكمدار ممتاز باشا اهتمام شديد ، فقد بعث بعدد من الشبان السودانيين الى مصر لتعلم الصناعات الميكانيكية حتى يتمكنوا بعد عودتهم من ادارة ماكينات حلج وكبس الأقطان التى لم تكن لها أيدي لتشغيلها (٣) *

وفى هذا المجال أيضا تجدر الاشارة الى ذلك المشروع الذى نشر بالوقائع المصرية عام ١٨٦٨ (٤) * وهذا المشروع أو الاقتراح كان يتلخص

(١) دفتر رقم ١٧٢٢ وارد جهادية - صورة المكاتبة العربية رقم ٣٣ ص ٦٤ بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩١ هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .
 (٢) أنظر فيما سبق فصل الثروة المعدنية والصناعة .
 (٣) مكى شبكية : السودان عبر القرون . ص ١٣٨ - ١٤٣ .
 (٤) نشر هذا المقال فيجارى بك Figari الذى كان استاذًا للنباتات ومشرفا على حديقة النباتات بمدرسة الطب البشرى فى عهد محمد على . وعقب انشاء مدرسة الزراعة فى عهد اسماعيل أصبح أحد أساتذتها . (أنظر الوقائع المصرية ، العدد ٢١٣ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ « ٤ يوليو ١٨٦٨ ») ، أنظر أيضا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ .

في انشاء حقول نموذجية في « اطفو » * وقنا وجرجا وأسيوط والمنيا وقلوب وفي وسط البحيرة + ويقترح أن يعمل في هذه الحقول أفراد سودانيون بحيث يمكنهم التأقلم على مناخ مصر شيئاً فشيئاً بالانتقال من بساين ادفو الى قنا فجرجا وهكذا حتى الشمال + وبعد مضي حوالي عشرين عاماً يتأقلم أبناؤهم على مناخ البلاد حتى يصلوا نحو القاهرة وقد تعلموا أصول الزراعة ، كما يقترح صاحب المشروع أيضاً أن يتعلم العاملون فيه القراءة والكتابة داخل البستان على أن يتم وضع قوانين زراعية حربية يسيرون وفقها + ويرمى صاحب المشروع من وراء ذلك كله الى انصهار الشعبين السوداني والمصري ، واعتياد السودانيون على مناخ مصر ثم هو أيضاً يرمى من ورائه الى أن يتعلم السودانيون عن قرب — من مزارعي مصر — أحدث الوسائل الزراعية التي كانت سائدة آنذاك بمصر ، فإذا ما عادوا الى بلادهم أمكنهم تطبيق ما تعلموه فتزداد محاصيل السودان ويحدث الرخاء (١) +

ويبدو أن هذا المشروع لم يخرج عن حيز الأمانى الحلوة التي كانت تراود أحد المشتغلين بهذه العلوم في ذلك الوقت ، ولكنها على وجه العموم انعكاس حقيقى لما كان يدور في أذهان المسؤولين آنذاك في محاولة لايجاد شكل من أشكال التكامل في القرن التاسع عشر !

الرسالية الكاثوليكية ودورها التعليمي :

ما أن ضم محمد على السودان حتى انفتح الطريق الى قلب القارة الافريقية ، واقرن ذلك باستتباب الأمن الأمر الذى شجع الأفراد والجماعات ذات الأهداف المتنوعة الى الولوج نحو هذه الاصقاع ، كل يحاول تحقيق الأغراض التى تقدم من أجلها + ومن بين هؤلاء كان المبشرون وعلى رأسهم الرسالية الكاثوليكية + ولسنا — في هذا المقام —

(*) ربما كان المقصود بها مدينة ادفو الحالية .

(١) الوقائع المصرية نفس العدد السابق . وأنظر أيضاً عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها .

بحاجة الى الاسهاب فى الدور التبشيرى لهذه الارسالية ، ولكن تجدر
الاشارة الى أن تاريخها فى السودان يرجع الى عام ١٨٤٣ حين وصل
الأب لويجى منتورى (Fr. Luigi Montori) الى الخرطوم قادما من
الحبشة كى يؤسس فرعا لهذه الارسالية ويلحق بها مدرسة صغيرة .
وبالفعل فقد افتتحت المدرسة وكانت مدرسة داخلية ، انتظم فى صفوفها
أطفال زنوج من المقيمين حول النيل الأبيض والمستترين من سوق
الرقيق بالاضافة الى عدد قليل من البيض والملونين . ويبدو أن هذه
المدرسة كانت مرتبطة بوجود الأب منتورى والهدف الذى جاء من أجله ،
إذ انتهى أمرها بمجرد عودته الى الحبشة عام ١٨٤٥ . وبعودة
الارسالية الكاثوليكية الى الخرطوم عام ١٨٤٨ كان من بين برامجها
افتتاح مدرسة داخلية تؤازرهم فى نشر المسيحية . وفى سنة ١٨٥٠
حوت المدرسة عشرين تلميذا بينهم أربعة عشر طفلا من أبناء الزنوج ثم
ازداد عددهم الى أربعين طفلا . وكانت تقوم بتعليمهم القراءة والكتابة
والحساب واللغات العربية والفرنسية والايطالية والموسيقى والأشغال
الييدوية .

وفى سنة ١٨٥٥ افتتحت بالمدرسة قسم خارجى لأبناء الأهالى . وفى
عام ١٨٥٩ أضيف اليها فرع لتدريس المواد التجارية لامداد حكومة
الخرطوم بالموظفين . ثم بدأت المدرسة بعد ذلك تولى اهتماما بالتعليم
المهنى حيث افتتحت أقساما للتجارة والحداة والحيكة وصناعة الأحذية
تحت اشراف خبراء ايطاليين . وقد كان مدير دار الصناعة بالخرطوم —
وهو ايطالى الجنسية — يقوم بتدريس الميكانيكا للتلاميذ الذين أظهروا
كفاءة ، كما كان هؤلاء التلاميذ ينضوون فى سلك العمل بهذه الادار
عقب تخرجهم (١) .

ومنذ عام ١٨٥٩ بدأت هذه المدرسة الارسالية فى التوسع فى قبول

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة فى السودان . ص ١٨٣ .

التلاميذ (بنين — بنات) ولاسيما في القسم الخارجى ، حتى وصلت أعداد البنين فى عام ١٨٧٨ الى ثلاثمائة تلميذ والبنات الى مائتين (١) .

ويبدو ان الادارة المصرية فى السودان لم تكن تتقف ضد نشاط الارسالية وخاصة التعليمى منه ، كما كانت حريصة على رعايتهم وحمايتهم كسائر مواطنى السودان ، ففى أوائل محرم عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٠ م) طلب المسئولون ببربر تخصيص (وابور) « لنقل رئيس عموم الكنائس الكاثوليكية وبعض المعلمين وأرباب الصنائع وبعض الراهبات » (٢) .

وربما يعود هذا التأييد الى تعاظم النفوذ الأجنبى فى ذلك الوقت . وقد ظلت مدرسة الارسالية بالخرطوم تقوم بمهمتها التعليمية حتى قيام الثورة المهدية فتوقف نشاطها مع توقف سائر نشاطاتها الأخرى ورحلت الى القاهرة .

الآثار الثقافية :

على ذلکم المنوال مضت السياسة التعليمية فى السودان ، فى شماله وجنوبه ، فى شرقه وغربه ، سواء بالنسبة للتعليم الأهلى المتمثل فى الخلاوى العديدة التى كانت منتشرة فى أرجاء البلاد ، أو بالنسبة للمدارس الحكومية أو ما عرف بالتعليم المدنى الذى بدأ بمدرسة واحدة على عهد عباس الأول ثم اتسع ليشمل عدة مدارس على عهد اسماعيل وزعت بشكل منتظم فى مديريات السودان .

وقد يرى البعض ان الدور التعليمى والثقافى للادارة المصرية فى السودان حتى عام ١٨٨١ كان متواضعا جدا اذا قورن بما حدث فى مصر فى تلك الفترة أو حتى الفترة التى سبقتها ، ربما يكون ذلك صحيحا

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٢) دفتر رقم ١٨ عابدين وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٨٣٢ بتاريخ ٢١ المحرم سنة ١٢٩٠ هـ . انظر أيضا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ١٠٩ .
(٣ م ٣٣ — التطور الاقتصادى والاجتماعى)

ولكننا اذا لاحظنا الظروف الاقتصادية والسياسية التي مرت بها مصر في أعقاب عام ١٨٤١ ، والظروف الطبيعية في السودان خلال القرن التاسع عشر ، بالإضافة الى تلك الشعوب العديدة — ذات السمات المتنوعة والميراث الثقافى المتواضع — التي حوتها هذه الرقعة الفسيحة أدركنا مدى ثقل المهمة الثقافية والتعليمية التي كانت تقف على كاهل الادارة المصرية حينذاك . حقيقة انها بالقياس الى منجزات القرن العشرين تعد عملا متواضعا إلا أنها بمقياس القرن التاسع عشر في المشرق العربى وافريقيا هي انجاز ضخم .

ومن العلامات البارزة فى الحياة الثقافية السودانية على عهد الخديوى اسماعيل نذكر شخصية الحكمدار جعفر مظهر الذى قاد الحركة الثقافية والتعليمية فى ذلك الوقت ، فقد وصفه الرحالة الفرنسى (F. La Forge) بأنه « رجل كتاب ومسجد » ، حيث عرف الرجل بالتدين الشديد ، بالإضافة الى حرصه الشديد على حضور الصالونات العلمية التي كانت تعقد بدار الحاكم العام والتي كان يؤمها كبار رجال العلم والفكر والدين (١) . وقد زار الرحالة شوينفرت (George. Schweinfurth) جعفر مظهر فوجد عنده الكثير من الأطالس والكتب العلمية الأمر الذى يشير الى حبه للعلم والمعرفة (٢) .

كذلك فقد اتجهت الحكومة آنذاك الى ترجمة بعض الكتب ، فقد طلب هذا الحكمدار ترجمة كتاب الرحالة « سبيك » وكتاب « ملطبرون » فى علم الجغرافيا والسياحة وقد وافق الخديوى على ذلك (٣) .

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١١٣ .

(٢) Sabry, M; L'Empire Egyptien Sous Ismail. p. 438.

نقد عن : Schweinfurth. G; A Coeur de L'Afrique (1868 - 1871).

(٣) سجل رقم ٥٥٧ ، ترجمة الارادة الصادرة الى ديوان المدارس رقم

٥٩ نمرة ٥ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وقد لقي الجنوب السوداني اهتماما لا بأس به في محاولة لادخال الثقافة العربية بين أبنائه * وقد بدأت هذه المهمة الثقافية بارسال أفراد يقومون بالترجمة بين هؤلاء السكان من ناحية وبين الضباط والجنود من ناحية أخرى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه الى شرح مهمة الدور الحضارى الذى كانت تقوم به مصر فى هذه الجهات * وقد بدأ البرنامج الثقافى بتعليم السكان اللغة العربية فى محاولة لاييجاد أرضية مشتركة للتفاعل والاندماج ، كما تم ارسال المعلمين وكافة المتطلبات التى اقتضتها هذه المهمة (١) * ويبدو ان سكان تلك الجهات قد استجابوا للنداء الثقافى الذى أعلنته مصر فى جنوب السودان فتردد صداه الى أوغندا ، الأمر الذى دعا غوردون باشا فى مايو عام ١٨٧٤ أن يطلب من مصر ارسال شيخ فقيه يكون فى معيته من أجل تعليم الاوغنديين وملكهم (٢) *

هذا فيما يتعلق بالآثار القرية والمباشرة التى نتجت عن الجهود الثقافية التى قام بها رجال الادارة فى السودان * ولكن اذا نظرنا على البعد وخاصة فيما يتعلق بالآثار الثقافية التى خلفتها المدارس التى أنشأتها الادارة المصرية فلا شك أن تلك المدارس كما يذكر أحد الكتاب السودانين قد كونت - مع غيرها من المدارس التى انشئت حتى سقوط الخرطوم وانتصار المهدي على غوردون - نواة طيبة من القراء الذين أصبحوا فى شوق للاطلاع على الصحف والمجلات والكتب التى أخذت ترد الى الخرطوم من القاهرة منذ أوائل القرن العشرين (٣) * ويرجح نفس الكاتب بأن هذه المدارس وان لم تكن قد أخرجت قادة حملوا لواء الحركة الأدبية والثقافية ، فلم تعرف فى السودان نهضة أدبية قبل

(١) أمين سامى : المصدر السابق . ص ٥٦٥ ، أنظر أيضا : حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا - الجزء الأول ص ٣٥٣ .
 (٢) عمر طوسون : المرجع السابق . الجزء الأول ص ١٢٨ ، وأنظر أيضا : جميل عبيد : المديرية الاستوائية . ص ٣٨٥ .
 (٣) ابراهيم الحارذلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٧ .

ثلاثينيات هذا القرن ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن خريجى تلك المدارس كانوا هم القاعدة العريضة التى تلقفت الكتب والمجلات التى أصدرتها مصر ، كما أن هذه القاعدة أيضا كانت هى الطبقة الواعية ذات الصلة بالجماهير العريضة فى أنحاء السودان ، وهى ذات الطبقة التى نشرت الوعى بين أفراد الشعب ممن كانوا لا يقرأون ولا يكتبون (١) *

ولقد كان ادخال المطبعة من مصر الى السودان واقامة مصنع للورق لأول مرة فى السودان بمثابة شرايين ثقافية تدفق من خلالها الفكر والثقافة الى عقول السودانيين . كما كان لاسقاط الحواجز السياسية بين السلطنات والمشيخات السودانية رد فعل ثقافى خطير ، فكما توحدت البلاد سياسيا توحدت ثقافيا وأمكن للثقافة العربية والدماء العربية ان يتدفقا فى سهولة ويسر (٢) *

واذا ما رحنا نفتش عن الشعر السودانى كينبوع ثقافى فلا نكاد — للأسف الشديد — نلمح له انفعالا شديدا أو صدى لما حدث من تطورات اقتصادية واجتماعية باعتباره مرآة ثقافية تعكس وجدانات الشعوب . وقد يكون مرجع هذا القصور الى أن الخط الواضح للشعراء السودانيين فى ذلك الوقت كان هو الخط الدينى ، فالدين هو المناخ الحقيقى الذى كانوا يتنفسون من خلاله دونما أى جانب آخر من الحياة . ومن أمثلة ذلك الخط الدينى تلك القصيدة التى مدح فيها (الشيخ الأمين الضير) الرسول عليه الصلاة والسلام والتى جعل فيها سور القرآن الكريم محورا لجميع أبياتها والتى استهلها بقوله :

يارب صلّ على من كان فاتحة بكر الوجود به عمرائنا اتصلا

(١) ابراهيم الحارذلو : المرجع السابق . ص ١٧ .

(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

وختمها بقوله :

إخلاصه فلق الاشراق إذ وضحت للناس أخلاق هذا الخاتم الرسلا (١)

وكانت قصائد الشعراء في ذلك العصر ، ونعنى بها قصائد المديح النبوية ، تبدأ عادة بالغزل أو التشويق الى أماكن بعينها مثل نجد ، وقد يأتي ذكر النبي في خاتمة قصيدة المدح ، وهذه السمة تبدو جلية في شعر أحمد الأزهرى وابراهيم عبد الرافع . كذلك فان التأثير القرآنى كان يطغى على هذه القصائد . وقد مدح هؤلاء الشعراء الحكام ذاكرين مآثرهم ، فالشيخ أحمد محمد جدوى مدح الحكمدار رؤوف باشا في قصيدة تقع في ستة وخمسين بيتا بدأت بقوله :

وافى زمان الانس والتبشير والعز والاقبال والتيسير
وبدت بكل مسرة أيامنا وصفت ليالينا من التكدير
والروض أينع زهره إذ نسمت ريح الصبا فيه بنثر عبير

ثم يمدح الحكمدار رؤوف فالخديوى توفيق فينتهى بالصلاة على النبي وآله ولا ينسى أن يذكر اسمه :

ثم الصلاة على النبي وآله السائرين بسيرة المبرور
ما قاله الأسوانى أحمد ناظما وافى زمان الانس والتبشير

وكذلك فعل محمد حسين بركاره حين افتتحت مدرسة بربر في عهد الخديوى اسماعيل (٢) .

وقد اختلطت النعرة الدينية بالتيار الصوفى الذى ساد البلاد في تلك الآونة في شعر الشيخ أحمد الأزهرى الذى مدح أباه (اسماعيل الولى)

(١) عبده بدوى : الشعر في السودان . ص ٢٨ .

(٢) نفس المرجع . ص ٢٩ ، ٣٠ .

واعتبره في مصاف الأولياء ، ورد على أولئك المنكرين لهذه الصفات التي
تميز بها والده حيث يقول :

ولا تعتبر أقوال غمر ومنكر على أولياء الله من غير طائل
ألم تران الله ميز خلقه بتأخير مفضول وتقديم فاضل ؟

وعلى وجه العموم فالمديح في هذه الفترة كان يغلب عليه الفتور
والتقيرية ونظم بعض الأحداث ، والشاعر كان يحرص فقط على شكل
القصيدة ، أما المضمون فكان رداءً فضفاضاً — كعادة الشعر القديم —
يمكن أن ترتديه أكثر من شخصية (١) .

لقد كان طبيعياً أن يفرز المناخ الثقافي في السودان هذا الشعر الذي
ظل يدور في الأطار الديني ، ومن الصعب أن نطالب الشاعر السوداني
في القرن التاسع عشر وهو محكوم بهذا الأطار أن يتخير موضوعات
أخرى لقصائده .

وهكذا كانت المسيرة التعليمية في السودان في هذه الفترة ، التي
غلب عليها التعليم الديني والثقافة الإسلامية . وقد احتضنت الإدارة
المصرية هذا اللون من التعليم فأغدقت عليه الكثير من الأموال والأراضي
كما حاولت ادخال التعليم المدني لأول مرة في البلاد واستطاعت من
خلاله أن تسد حاجة البلاد من الكتبة والفنيين الأمر الذي يعد
تطوراً نسبياً — في تقديرنا — بمقياس القرن التاسع عشر . وللأسف
الشديد فإن تلك الجهود التعليمية والثقافية لم تؤت أكلها ، وظلت
— على حد تعبير البعض (٢) — « نباتاً هساً » أطاحت به رياح المهدية
عام ١٨٨١ .

(١) عبده بدوي : المرجع السابق . ص ٣٠ .

(٢) Hill; op. cit. p. 127.

الخاتمة

تلكم هي تطورات السودان الاقتصادية والاجتماعية خلال أربعين حولا من الزمان * وهي أشبه بملحمة نضال طويلة بين الأرض والانسان تارة ، وبين الانسان ونفسه تارة أخرى * ولم تجر فصولها — كعادة الملحمات — في مكان واحد بل تنوعت في بقاع شتى من أرض السودان ، في الشرق على شطآن البحر الأحمر ، وفي الغرب عند مرتفعاته وسهوله وفي الجنوب وسط أدغاله وحيواناته ، وفي الشمال على أنغام سواقيه * وهذه الملحمة صيغت كلماتها في مصر على هيئة قوانين ونظم وارشادات راح ينفذها أبطالها في السودان بكل ما أوتوا من دربه وحنكة *

ولعلنا في حاجة الى أن نتساءل — بعد أن شهدنا هذه الملحمة — عن النتائج أو الآثار التي أسفرت عنها * ففي مجال الأرض والانتاج الزراعي تبين أن أراضي السودان الشاسعة والمترامية الأطراف ، لم تكن بحاجة الى اصلاح وتمهيد بقدر ما كانت تحتاج الى جهود الانسان فقط ، لتسخيرها لصالحه ، وقد وضحت هذه الرؤى أمام محمد علي حين زار السودان عام ١٨٣٨ وخطب القوم مبصرا وناصحا ، داعيا السودانيين الى الاقتراب من الأرض ، واعداء اياهم بادخال أساليب العصر وأدواته الحديثة *

ثم راح الخلفاء من بعده يتابعون الخطى ، فهاهو ذا اسماعيل باشا يحيل شرقي السودان الى بساتين خضراء لزراعة القطن ، ويقيم من أجله أحدث مشروعات الري من خلال شخصية ممتاز باشا الذي استطاع أن ينتصر على الأرض ويستخرج من باطنها تلك الكنوز * وقد صحب هذه العملية ظاهرة جديدة في شرقي السودان ونعنى بها توطين أعداد كبيرة من بدو تلك المناطق ممن ينتمون الى المجموعة البيجاوية فعرفوا الزراعة والاستقرار بعد أن كانوا يضربون في فلوات السودان هائمين على غير هدى *

هذا فيما يتعلق بالأرض المنبته ، أما الأخرى فلم تترك ، حيث مضى المنقبون والباحثون يخصوصون في باطنها باحثين عن كنوزها ومعادنها مسلحين في ذلك بأحدث ما كان يمتلك العصر من أدوات ، فتلك كانت سمة محمد على في كل مناحي الحياة • ولكنهم هذه المرة لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتائج ايجابية ، لذا فقد كان النتاج الطبيعي متأخرا في الصناعة السودانية واستمرار تلك الألوان البدائية والتقليدية لبعض الحرف الصناعية ، ساعد على تأخيرها أفكار ومعتقدات بالية حطت من قدر العمل اليدوى الصناعى •

وفي الميدان التجارى شهدنا منذ عام ١٨٤١ نشاطا مكثفا ، على الصعيد الداخلى ، شهدنا تبادلا تجاريا بين أسواق الأقاليم السودانية ، وقد كان هذا شيئا طبيعيا بعد أن تمت الوحدة الادارية والسياسية ، وأصبح من المألوف أن نجد في سوق الأبيض بكرديان « الدنقلاوى » من شمالى السودان ، وكذلك الحال بالنسبة لجنوبه ، كما كان من المألوف أيضا أن نشهد التجار « الحداربة » وهم يجوبون شرقى وأوسط السودان • وفوق ذلك كله راح الجميع يبيعون بمناجرهم الى مصر حيث عدت سوقا داخلية بالنسبة لهم • وعلى الصعيد الخارجى شهدنا محاولات للتبادل التجارى مع الحبشة وشمال وغرب أفريقيا ، وأخرى لا بأس بها مع بلاد شبة الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا • وبين هذه أو تلك شهدنا هجمة أجنبية قوامها تجار مغامرون كرسوا جهودهم في تجارة العاج ثم انتقلوا الى الرقيق حتى اذا أوصدت دونهم الأبواب راحوا يبتاعون الأراضى في شرقى السودان ، لتأتى دولهم من بعدهم بجيوشها وذلك ما تم بالفعل في تلك الجهات •

وما كانت تلك التجارة على المستويين الداخلى والخارجى أن تزدهر لولا شبكة المواصلات المتنوعة التى حاولت الادارة المصرية جاهدة أن تقيمها ، بالاضافة الى محاولاتها المضنية لحفظ دروب التجارة من كافة الأخطار المحدقة بها بشرية كانت أم طبيعية •

وتزداد ضراوة تلك الملحمة حين نصل الى واحد من أهم فصولها حيث ينفجر الستار على صوت جدل وحوار ملتهبين ، انها « المسألة الضرائبية » فمنهم من ذهب الى أن الحكم المصرى كان صارما في هذا الجانب من خلال نظمه الدقيقة والتي طبقت بشكل صارم دونما مراعاة لأحوال الأهلىن ، بينما ذهب آخرون الى أن هذه الضرائب لم تكن « بدعة » ابتدعتها الادارة المصرية فى السودان ولكنها كانت موجودة من قبل ، زمن السلطنة السنارية وان كانت أقرب الى « الأعباء » منها الى « الضرائب » . ويعترف الفريق الثانى بأن ثمة أخطاء جرت ابان تناول الضريبة زمن الادارة المصرية لكنها لم تكن متعمدة .

ومع جموع السكان السودانين وبينهم تمضى الملحمة ، وهذه الجموع كانت متنوعة تنوعا شديدا بحيث يترأى للناظرين أنهم (أفريقيا مصغرة) ، منهم البجاة والغوبيون ، ومنهم النوباويون والزنج (أخيرا منهم القبائل العربية ...) وكانت كل جماعة منها تنتمى الى أصول عرقية تختلف عن الأخرى وان اختلطت الأنساب تدريجيا وعلى استحياء بمرور الزمن . فقد حدث امتزاج عرقى وخصوصا فى الجزء الأوسط من البلاد ، الأمر الذى أدى الى تنوع شديد فى الملامح والألوان بين السودانين العرب الذين لم يعودوا فى هذا الموطن الجديد من ذوى البشرة البيضاء ، فقد يصادفك رجل عربى من بين قبيلة البقارة ذو لون أسمر أبنوسى يعتز بأصوله التى تعود به الى القحطانيين .

ووسط هذه الجموع نلمح نمطا اجتماعيا فريدا ظل يعيش حياته وفق أعرف ونظم اجتماعية خاصة به تمثل فى مجتمع القبيلة السودانى ، فقد ظل مجتمع السودان - فى جملته - رغم تلك التطورات الاقتصادية مجتمعا قبليا حتى وان حدث فى بعض الأحيان لون من الاستقرار ، فلم يمنع ذلك كله من الانصواء تحت مظلة قبيلة من القبائل .

وبقدر ما تنوعت هذه الجموع تنوعت عاداتها وتقاليدها ولا شبك

أنها كانت وليدة الظروف التي عاشتها كل جماعة منها استطاعت بها ومن خلالها أن تكيف حياتها الاجتماعية ، فبعضها كانت ذات سمات خطيرة تهدد المجتمع و « سلامة الاجتماعى » ، حاولت الادارة المصرية التدخل فيها • أما كثيرها فكان طيبا الأمر الذى شكل اضافة جديدة وقوية للنظم والقوانين الادارية سهلت من أمر القائمين على أزمة الحكم •

ولما كان المجتمع السودانى فى جملته شديد التمسك بعقيدته الاسلامية فقد انعكس ذلك على أمرين : الأول ويتمثل فى جموع المتصوفة التى انتشرت فى ربوع السودان وتخطت ، بل قل - ان شئت - كسرت الحاجز القبلى السميك ذا الأساس العرقى الذى كان يصعب اختراقه ، فانتمت هذه الجموع تحت لواء الطرق المتعددة ، فجلس البجاوى والنوبى والعربى والزنجى وغيرهم جنبا الى جنب طارحين كل الأطر القبلية قانعين بكلمة « المريدين » •• الجميع يدعو الى عبادة الله فى سكونية وسلام ابتغاء الدار الآخرة ، مع محاولات من بعضها التدخل - أحيانا - لحسم نزاع شجر بين طرفين ، وربما كانت الحكومة أحد هذين الطرفين • ومن هنا كانت محاولات البعض أن يرمى بعض هذه الطرق بتهمة الارتقاء فى أحضان الحكومة - فى ذلك الوقت - ناسين أو متجاهلين ان هذه المهمة التى يقومون بها هى من صميم فكرهم وأهدافهم الاجتماعية •

أما الأمر الثانى فقد كان مظهره التعليم والثقافة حيث شهدنا ميلا كبيرا من لدن السودان تجاه التعليم الدينى - رغم محاولات ادخال التعليم النظامى فى عهد عباس الأول والخديوى اسماعيل - وانتشارا واسعا « لخلأويه » التى راحت تغرى أفراد المجتمع بالثقافة الدينية •

ويبدو أن الطرفين : الحكومة والشعب السودانى قد ارتضيا ذلك - حيث كان هذا اللون التعليمى موائما للتركيب الاجتماعى القبلى والمناخ الدينى السائد فى البلاد - ومن ثم راح المسئولون يغدقون الأمـوان

٥٢٣

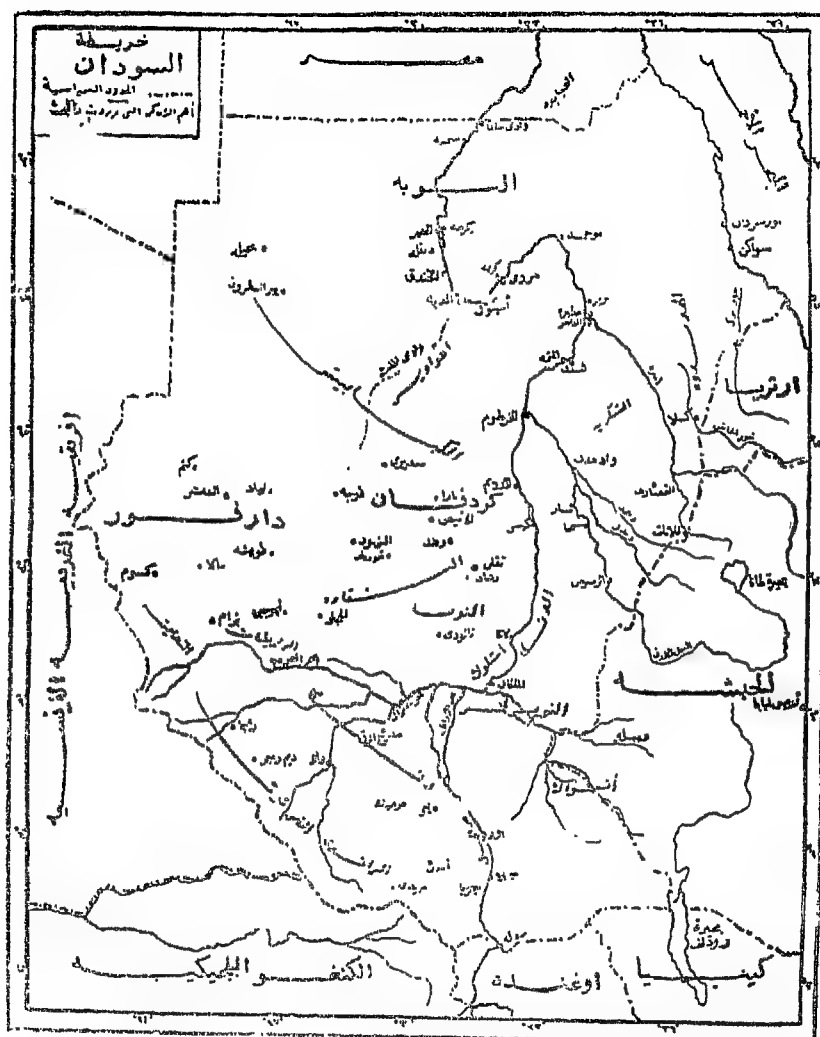
ويوقفون الأراضي لهذا الغرض ، الأمر الذي أدى الى نشاط الفقهاء —
في أحيان كثيرة — في أداء مهمتهم *

ومع تعاقب السنين تفاعلت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية .
فبدأت الأوضاع الاقتصادية تتأرجح نتيجة عوامل كثيرة ، ثم بدأ التيار
الدينى ينمو نموا سريعا ولاح في الأفق نذير خطير راح يزلزل كل شىء ..
انه طوفان المهديّة عام ١٨٨١ *

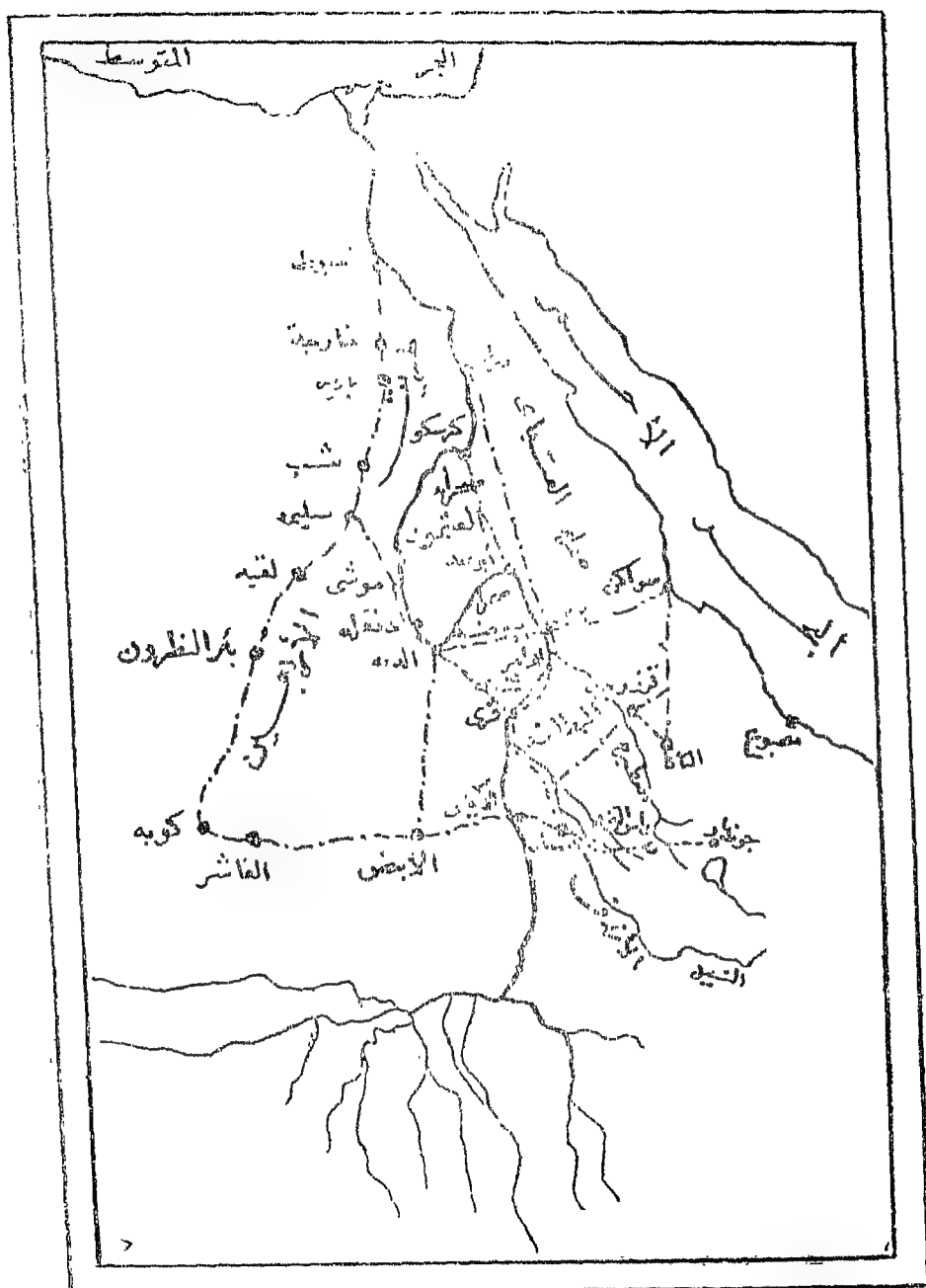
[illegible]

يبتلى هذا يكون احمالي الميزانية كالتالى

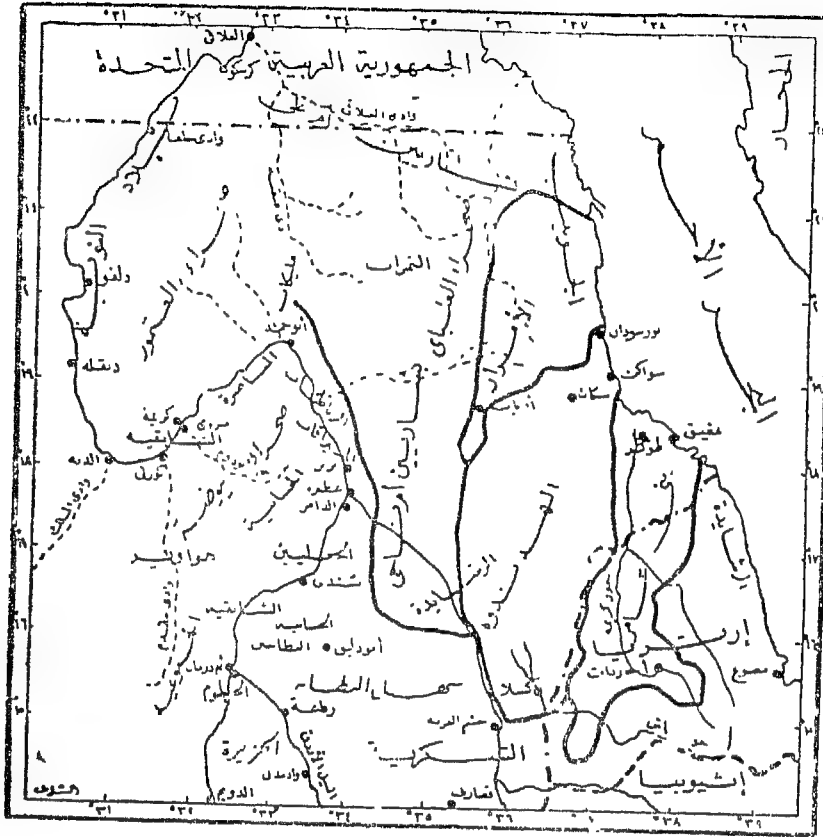
[illegible]



نسل رقم (۱)



شكل رقم (٢) طرق القوافل التجارية في القرن التاسع عشر

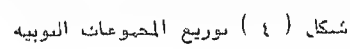


شكل (٣)

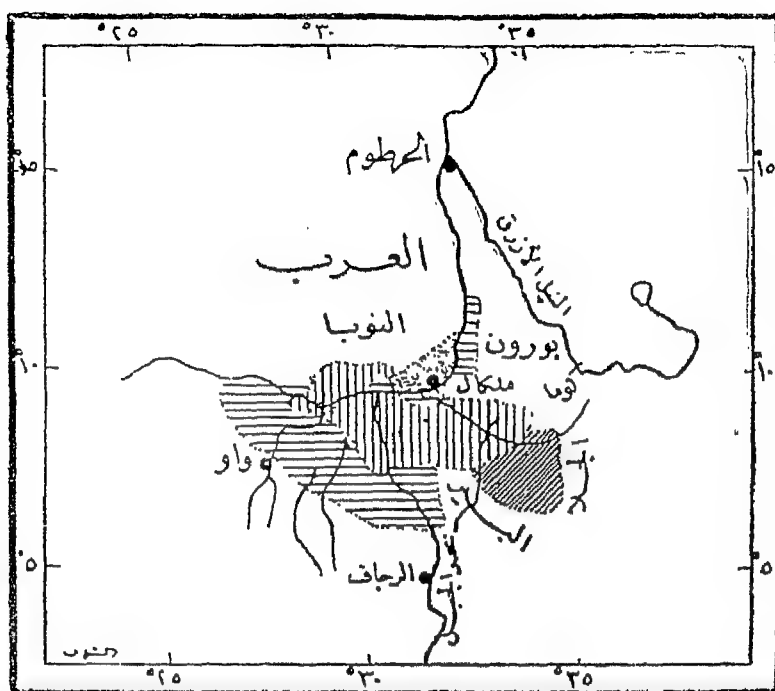
١٠٠ ميل

الحدود السياسية ————— الحدود توزيع القبائل
مقياس الرسم

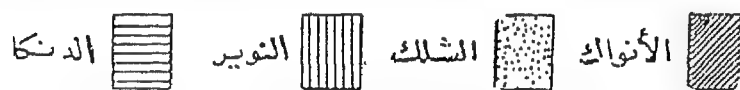
الاقسام الرئيسية للجهة
(في السودان الشمالي الشرقي)



٥٢٩



عراينهايت (١٩٦١)



شكل (ه) الدنكا وجيرانهم

(م ٣٤ - التطور الاقتصادي والاجتماعي)

أولا : وثائق غير منشورة

وثائق دار الوثائق القومية بالقلعة :

- دفاتر وسجلات المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين *
- دفاتر وسجلات المعية (تركى) : وهى عبارة عن المكاتبات التركية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين *
- محافظ المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين كل من الدواوين والأقاليم وبين المعية *
- محافظ المعية (تركى) : وهى عبارة عن بعض المكاتبات العربية التركية بين الدواوين والأقاليم وبين المعية *
- ديوان خديوى تركى : ومحتوى دفاتر هذا الديوان عبارة عن أوامر ومراسلات وتوجيهات من جانب محمد على أو المسئولين فى مصر الى المسئولين فى السودان ، وهى متعلقة بجوانب متعددة ، سواء كانت اقتصادية أو ادارية أو غيرها *
- سجلات مديريات السودان : وتضم هذه السجلات المراسلات المتعلقة بكل مديرية ، فقد كان لكل مديرية سجلاتها الخاصة ، ويمكن للباحث أن يتتبع تطور أوضاع كل مديرية من خلال هذه الدفاتر *
- سجلات حكمدارية السودان : وهى تضم الأوامر والمراسلات والتوجيهات التى كان يصدرها الحكمداريون الى المديرين وحكام الأقسام والأخطاط والمتعلقة بكافة الشؤون الاقتصادية والادارية وكافة القضايا التى تهم المديريات ، بالاضافة الى ردود هؤلاء الحكام متضمنة اسلوب ادارتهم لجهات بلادهم والعقبات التى كانت تصادفهم *

- سجلات مجلس الأحكام (عربى) : وتحتوى سجلات هذا المجلس جميع الأوراق المتعلقة بالشئون القضائية التى تعرض على الجمعية الحقانية وعلى مجلس الأحكام *
- سجلات ودفاتر حسابات مديريات السودان : وهى عبارة عن الميزانيات المتعلقة بمديريات السودان والتى تشمل كافة الايرادات وأوجه الصرف المتنوعة * والملفت للنظر حقا فى هذه السجلات - على وجه الخصوص - الدقة المتناهية فى الحسابات من حيث تسجيل كل شاردة وواردة وعدم وجود أى « كشط » أو أخطاء بالدفاتر ، بالإضافة الى تنسيقها ووضوح خطها وتجليدها بأسلوب يحفظها لسنوات طويلة *
- ديوان المدارس : ويضم هذا الديوان كافة الوثائق المتعلقة بأمور التعليم * وتوجد محفوظة خاصة بالدار تحمل عنوان (التعليم) وهى تحوى وثائق متنوعة عن التعليم فى مصر والسودان من حيث نظمته ولوائحه . كما تشمل أيضا الجهود التى بذلت لادخال التعليم بكافة أشكاله فى السودان *
- الملفات الخاصة : وهى تتعلق إما بشخص بذاته أو جهة خاصة ، وأهم ما أطلعت عليه : (أ) ملف أحمد باشا أبو ودان حاكم السودان *
(ب) ملف متفرقات *
- محافظ تحت عنوان السودان (مجلس الوزراء) : وعددها حوالى ٢٩ محفظة تتعلق بموضوعات مختلفة عن السودان فى النواحي الاقتصادية والاجتماعية والادارية وغيرها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين * وهذه المحافظ لا تحمل أرقاما بل لكل محفظة عنوان خاص بها جاءت على النحو التالى :

- ١ — السودان : موضوعات *
- ٢ — السودان : موضوعات *
- ٣ — السودان : سكة حديد *
- ٤ — السودان : تحاويل السودان *
- ٥ — السودان : ديوان السودان *
- وتحتوى هذه المحفظة على تقرير هام عن مالية وميزانية السودان *
- ٦ — السودان : اعتمادات ميزانية *
- ٧ — السودان : شئون موظفين *
- ٨ — السودان : شئون موظفين *
- ٩ — السودان : شئون عسكرية — الثورة المهدية *
- ١٠ — السودان : تليغرافات *
- ١١ — السودان : رقيق *
- ١٢ — السودان : رقيق *
- ١٣ — السودان : موضوعات هرر * ويوجد بهذه المحفظة تقرير
حكممدار السودان محمد رؤوف عن أحوال السودان
عام ١٨٨١ *
- ١٤ — السودان : اعانات قبائل وعربان *
- ١٥ — السودان : قوانين ، وتضم خمس محافظ *
- ١٦ — السودان : مشروعات الرى *
- ١٧ — السودان : سواكن *
- ١٨ — السودان : توزيع *

١٩ — السودان : الأوقاف — محافظ للتوزيع *

٢٠ — السودان : موضوعات عوايد *

٢١ — السودان : توزيع *

٢٢ — السودان : شئون عسكرية *

٢٣ — السودان : استعدادات عسكرية — تعيينات *

٢٤ — السودان : تليغرافات باللغتين الانجليزية والايطالية *

— محافظ أبحاث السودان : وتقع في ٤٤ محفظة ، تبدأ من عام ١٣٣٥ هـ وتنتهى في عام ١٣٠٠ هـ * وكل محفظة مقسمة الى عدة دقاتر حسب الشهور الهجرية * وهذا المحافظ تحتوى على معلومات متعددة الجوانب وذات أهمية تاريخية قيمة * فقد جمعت من عدة دواوين وسجلات مختلفة كالجهادية والمعينة السننية ومديريات السودان وغيرها * وتتميز هذه المحافظ بترتيبها الأمر الذى يمكن الباحث الاطلاع عليها دونما عناء * ويمكن للباحث أن يجد بها معلومات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية *

— محافظ عابدين (بدون أرقام) : وهى عبارة عن ١٤ محفظة غير مفهرسة وتحت الترتيب * وتحتوى على وثائق باللغة الانجليزية ، بالاضافة الى وثائق متنوعة حول الرقيق والجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك * وأهم ما اطلعت عليه : مذكرة بشأن تجارة السودان عام ١٨٣٨ ، ومجموعة ٤٥ ، السودان (تجارة) *

— محفظة اللوائح : وهى عبارة عن عدة كتيبات وملفات تحوى اللوائح الرسمية مثل : « سياسة نامه » الصادرة فى عهد محمد على وقانون « نامة همايونى » وغيرهما * وقد اطلعت فى هذه المحفظة على نصوص

معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ ، بالإضافة الى نص اللائحة التنفيذية للقرار الخاص بالغناء الرقيق في السودان والحبشة ومصر ، تنفيذا للمعاهدة سالفة الذكر .

— محفظتان عن (موضوع التجارة) : وبهما موضوعات متفرقة عن التجارة والجمارك والأوامر التي تصدر الى المسؤولين حول التجارة الداخلية والخارجية . وقد جاءت المحفظة الأولى تحت عنوان : موضوع التجارة ، وتغطي فترة تسعة عشر عاما (من عام ١٢٤٢ هـ الى عام ١٢٦١ م) ، وأكثرها مستخرج من محفظة رقم ٦ (محفوظات ديوان التجارة والمبيعات) .

وجاءت المحفظة الثانية تحت عنوان موضوع التجارة (محفظة رقم ٢) . وهي عبارة عن عدة بطاقات وملفات مستخرجة من محافظ متنوعة . ويتحدث بعضها عن تجارة مصر الخارجية في القرن التاسع عشر ، وخاصة في عهد محمد علي .

— محافظ بحر برا : وهي عبارة عن المكاتبات الواردة من خارج مصر والسودان ، كما يشير اسمها ، وتضم معلومات قيمة ، خصوصا المحفظة رقم ١٩ والملفات ١ ، ١١ ، ١٢ .

— محافظ الوثائق الافريقية : يبلغ عددها حوالي ١٢ محفظة تدور موضوعاتها حول علاقات كل من مصر والسودان بجيرانها من الدول الافريقية مثل الحبشة وجهات الصومال ودارفور (قبل ضمها) وغيرها . وهذه العلاقات تشمل الأمور الاقتصادية والسياسية ، كما ان احدى محافظها تضم نسخة من معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ .

— الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

أولا : الأرشيف الأوربي :

يوجد هذا الأرشيف بدار الوثائق القومية بالقلعة ويضم وثائق الخارجية الانجليزية والخارجية الفرنسية والخارجية النمساوية + وهي عبارة عن تقارير قناصل هذه الدول في مصر والسودان + وتكاد هذه الوثائق تغطي أحداث القرن التاسع عشر في مصر والسودان بدءاً من عهد محمد علي • وقد عالجت هذه التقارير عدة موضوعات وان كان موضوع التجارة في مصر والسودان قد شغل جزءا كبيرا منها •

١ — وثائق الخارجية الانجليزية :

- F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's Death.
- F. O. 78 - 502, Cairo, September 30, 1842, to L. T. Col. Barnette.
- F. O. 78 - 589, Aden 18 th. March, 1844 Copts Battains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Eoq Chief Secretary to Gov. t Bomby.
- F. O. 78 - 582, No. 4, Alexandria, 24 th. May, 1844 JL. S L Oddart the Earl of Aboarden.
- F. O. 78 - 582, No. 25, Cairo, November 16 th. 1844. C. J. Barnette to Earl of Aberden.
- F. O. 78 - 708, Cairo. 2 nd. July, 1847. Thomas Mirialacchi to Alfred Sloalne.
- F. O. 78 - 758, No. 14, Alexandria, 15 th. July, 1847. 'A Murray to Lord Cowley.
- F. O. 78 - 708, No. 69, Cairo, December 25 th. 1847è Ch. 'A Murray to Viscount Palmerston.
- F. O. 78 - 708, No. 99, 10 August 1847. Ch. A. Murray to Viscount Palmerston.
- F. O. 78 - 756, No. 2, February 4 th. 1848. to M. Murray.

- F. O. 87 - 735, Memorandum for Ibrahim sent in September, 1848.
- F. O. 78 - 804, No. 6, Cairo, March 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford Canning.
- F. O. 78 - 840, No. 2, Cairo, January 5, 1850, Ch. A. Murray to viscount.
- F. O. 78 - 841, No. 4, Alexandria, March 12, 1850, Ch. A. Murray.
- F. O. 78 - 841, No. 20. Inclose in M C. A. Murray's May 1850.
- F. O. 78 - 1200, No. 52, Alexandria, November 4 th. 1850. Fredrick to A. Brucets the Earl of Clorendon.
- F. O. 78 - 2632, Cairo, May 12, 1877. G. vivian to the Earl Derby.
- F. O. 78 - 1404. December 10 th., 1857. John Pethrick to L. Muller.

٢ — وثائق الخارجية الفرنسية :

وهي عبارة عن التقارير التي كان يبعث بها قنصل فرنسا بالاسكندرية ، والتي كان يتلقاها من نائبه في السودان * وكان أكثرها يدور حول الأوضاع التجارية بمصر والسودان * وقد اطلعت على عدة وثائق منها واعتمدت على بعض منها ، خصوصا تلك المودعة بالمحفظة رقم ٥٩ من محافظ الأرشيف الأوربي وأهمها :

— تقرير مرسل من :

M. Tastu, Agent et Consul Général de France à Alexandrie. à M. Drouyn De Lhuys, Ministre des Affaires Etrangées. Alexandrie Le 24 Juillet, 1864.

— تقرير مرسل من :

M. C. Thibaut, Vice-Consul de France à Khartoum. à M. Tastu, Agent et consul général de France à Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre., 1864.

— تقرير مرسل من :

M. Munzinger Grant du vice-consulate de France à Mussaoua à M. Outrey, Agent et consul général de France à Alexandrie.

Annex. No. 1 à La lettre de M. Outrey, du 19 November, 1865.

ثانيا : الأرشيف الأمريكي :

ويحتوى على عدة محافظ عبارة عن تقارير من القنصل العام للولايات المتحدة بالاسكندرية الى الخارجية الأمريكية * وقد اعتمدت منها على ما يلى :

- Despatch No. 93, Agency and Consular general of the U.S.A., Alexandria, Egypt, June 17, 1867. To Hon-William. H. Seward, Secretary of State.

(بالمحفظه رقم ٤ ، ملف رقم ٤)

- Desp. No. 36, Agency and consulate general of the U.S.A. in Egypt. Cairo, July, 31, 1876.

(بالمحفظه رقم ١٢)

- Desp. No. 235, Agency and consulate general of U.S. in Egypt, Cairo. June, 1878. Hon. W. m. Evarts, Secy. of State.

(بالمحفظه رقم ١٤)

- Desp. No. 378, Cairo, November, 26, 1878.

(بالمحفظه رقم ١١)

وثائق دار المحفوظات العمومية بالقاهرة :

استفدت منها ببعض دفاتر الحسابات الخاصة بمديريات السودان فى عصر محمد على ، وكانت مودعة « بمخزن السودان » * والبحث عن

هذه الأوراق من خلال الدفاتر يمثل صعوبة بالغة — الآن — وذلك لعدم ترتيبها داخل هذا المخزن • فهي أشبه بتل متراكم لا دليل له ولا مرشد • وقد تم — أخيرا — نقل أكثر محتويات هذا المخزن الى دار الوثائق القومية بالقلعة • وربما تكشف هذه الأوراق — بعد ترتيبها — عن اضافات جديدة حول بعض الجوانب التاريخية للسودان ومصر •

ثانيا : وثائق منشورة :

— تقرير « جون بورنج » J. Bowring الذي بعثت به حكومة إنجلترا الى مصر عام ١٨٣٧ ، فوضع تقريرا عن حالة مصر في ذلك الحين من النواحي الاقتصادية والادارية والعسكرية ، بالاضافة الى حديثه عن الرق وأسلوب تجارته • وهذا التقرير ترجمه الدكتور محمد فؤاد شكرى ونشره بكتاب : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) •

— تقرير آرثر هولرويد A. Holroyd السائح الانجليزى الذى زار السودان فى عهد محمد على ، واتصل بمعظم قناصل الدول الأجنبية ، وهذا التقرير منشور ضمن تقرير جون بورنج ، ومن أهم الموضوعات التى طرقتها موضوع الرق فى السودان •

— رحلة ساكن الجنان محمد على الى السودان — ترجمة جرنال الرحلة الذى صدر فى ٦ صفر عام ١٢٥٥ هـ (٢١ ابريل عام ١٨٣٩ م) ملحقا بالعدد رقم ٦١٨ من جريدة الوقائع • وقد نشر باللغة التركية ، وقام بترجمته ونشره الدكتور محمد فؤاد شكرى بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد الثامن من المجلد الثانى عام ١٩٤٦ •

— رحلة محمد على الى السودان (اكتوبر عام ١٨٣٨ — ١٥ مارس ١٨٣٩) كتبها أنجلو ساماركو باللغة الايطالية ثم عربها طه فوزى عام

١٩٤٢ ، ونشرت في مجلة الرابطة العربية • وتوجد نسخة مصورة عبارة عن كتيب صغير بالمحفظة رقم ٣ من محافظ السودان بدار الوثائق القومية بالقلعة •

— الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض) • الصادر بأمر ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان — ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا في عددها الصادر في يوليو عام ١٨٤٢ ، (تعريب محمد مسعود ، القاهرة ١٩٣٢) •

— رئاسة مجلس الوزراء ، مجموعة من الوثائق عن السودان • وهى عبارة عن وثائق متنوعة تشمل عدة مجالات ادارية واقتصادية وسياسية ••• الخ • وقد نشرت بالقاهرة عام ١٩٤٧ •

— مجموعة متنوعة من الوثائق تتعلق بفترة حكم الخديوى اسماعيل • نشرها جورج جندى وجاك تاجر تحت عنوان : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ •

— مجموعة متنوعة من الوثائق الخاصة بفترة حكم الخديوى اسماعيل • وتختص بسياسة مصر في الجهات الشرقية للسودان وساحل البحر الأحمر ، تحت عنوان : الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) • أعدها الدكتور شوقى الجمل • من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ •

ثالثاً : الدوريات :

أولاً : الدوريات العربية :

(أ) الوقائع المصرية :

(ب) جريدة أركان حرب الجيش المصرى :

(ج) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

(د) مجلة الجمعية الجغرافية :

(هـ) حولىة كلية الآداب ، جامعة القاهرة •

ثانياً : الدوريات الأجنبية :

— Sudan Notes and Records (S.N.R).

رابعاً : كتب ودراسات باللغة العربية :

- إبراهيم الحارثي : الرباط الثقافي بين مصر والسودان .
دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ١٩٧٧ .
- إبراهيم طرخان (دكتور) : امبراطورية البرنو الاسلامية ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .
- إبراهيم غوزي : السودان بين يدى غردون وكنتشنر ، الجزء
الأول ، القاهرة ١٣٣٩ هـ .
- أحمد أحمد الحته (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع
عشر ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ١٩٥٨ .
- أحمد أحمد الحته (دكتور) : الأجانب في مصر والسودان (١٨٤٩ —
١٨٦٢) مستخرج من مجلة الاقتصاد والتجارة .
العدد الثاني ، (يولييه — ديسمبر ١٩٥٨) .
القاهرة ١٩٥٨ .
- أحمد أحمد سيد أحمد (دكتور) رشاعه رافع الطهطاوى في
السودان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٣ .
- أحمد بن الحاج أبو على : مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة
السنارية والادارة المصرية . تحقيق الشاطر
بصلى عبد الجليل ، القاهرة ١٩٦١ .
- أحمد بن الحاج أبو على : تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور
مكى شبيكه ، الخرطوم ١٩٤٧ .
- أحمد صدقي الدجاني (دكتور) : الحركة السنوسية . نشأتها
وتنمؤها في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم في عصر محمد
على . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم في مصر من نهاية
حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ —
١٨٨٢) ، الجزء الأول عصر عباس الأول وسعيد
(٨٤٨ — ١٨٦٣) .
- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم في مصر من نهاية
حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ، الجزء
الثاني ، عصر اسماعيل والسنوات المتصلة من
حكم توفيق (١٨٦٣ — ١٨٨٢) .

— ارنولد ، سير توماس الدعسوة الى الاسلام . بحث في تاريخ
نشر العقيدة ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم
حسن وآخر ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة
١٩٤٧ .

— اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء
الثاني . مطبعة بولاق . القاهرة ١٣١٦ هـ .

— الياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا
من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . مطبعة دار
الكتب المصرية . المجلد الثاني . القاهرة ١٩٢٣ /
١٣٤١ هـ .

— أمين المعلوف : احتلال بحر الغزال ، مجلة الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية . القاهرة عام ١٩٥٣ .

— أمين سامي : تقويم النيل وعصر محمد علي باشا . الجزء
الثاني . الطبعة الأولى . مطبعة دار الكتب
المصرية . القاهرة ١٩٢٨ .

— أمين سامي : تقويم النيل وعصر عباس حلمي باشا ومحمد
سعيد . المجلد الأول من الجزء الثالث مطبعة دار
الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

— أمين سامي : تقويم النيل وعصر اسماعيل ، المجلد الثاني من
الجزء الثالث . القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .

— أمين سامي : تقويم النيل وعصر اسماعيل . المجلد الثالث
القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

— بنولا ، غردريك : كتاب مصر والجغرافيا وهو خلاصة تاريخية عن
الأعمال الجغرافية التي أنجزتها العائلة المحمدية
العلوية بالديار المصرية . ترجمة أحمد زكي .
القاهرة ١٩٣٧ .

— بوركهارت ، جون لويس : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة
والسودان ترجمة فؤاد اندراوس . من مطبوعات
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة
١٩٥٩ .

— التونسى ، محمد بن عمر : تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب
والسودان (نشر خليل عساكر ، مصطفى محمد
مسعد المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة
١٩٦٥ .

— التيجانى عامر : جنوب السودان ، بحر الغزال بين العصابات
والحكومات (١٨٥٠ — ١٩٢٠) . سلسلة
دراسات قومية . العدد العاشر . الأهرام
القاهرة ١٩٨٠ .

— جمال زكريا قاسم (دكتور) : الاصول التاريخية للعلاقات العربية
الافريقية . معهد البحوث والدراسات العمومية .
القاهرة ١٩٧٥ .

— الجمعة المصرية للدراسات التاريخية : الأرض والفلاح . القاهرة ،
١٩٧٤ .

— جميل عبيد (دكتور) : المديرية الاسنوائية . وزارة الثقافة .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة
١٩٦٨ .

— حسن أحمد ابراهيم (دكتور) : محمد على فى السودان . (دراسة
لأسباب الفتح التركى المصرى) جامعة الخرطوم ،
الخرطوم ، بدون تاريخ .

— حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى
افريقيا ، الجزء الأول مكتبة النهضة العربية ،
القاهرة ١٩٥٨ .

— حسين كامل أبو الليف : مرحلة من مراحل التطور السياسى
والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،
القاهرة ١٩٥٦ .

— حسين خلاف (دكتور) : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢ .

— رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب
العصرية . الطبعة الثانية ، مطبعة شركة
الغرائب . القاهرة ١٩١٢ .

- زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى
حتى الاستقلال ١٨٢١ — ١٩٥٣ . مكتبة الانجلو
المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .
- سعد الدين الزيسر : الزبير باشا ، الطبعة الاولى ، القاهرة
١٩٥٢ .
- السيد ابراهيم البدوي (دكتور) : النوباويون . دراسة تاريخية
أنثروبولوجية مجلة الجمعية الجغرافية . العدد
٦ ، القاهرة عام ١٩٧٣ .
- سلاطين باشا : السيف والنار في السودان . تعريب جريدة
البلاغ . مطبعة البلاغ . القاهرة ١٩٣٠ .
- سليجمان ، س ، ج : السلالات البشرية في افريقيا . ترجمة
يوسف خليل ، مراجعة الدكتور محمد محمود الصياد
مكتبة العالم العربى بالقاهرة القاهرة ١٩٥٩ .
- السيد يوسف نصر (دكتور) : جهود مصر الكشفية في افريقيا في
القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ١٩٧٩ .
- الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ السودان وادى النيل من
القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى .
الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٥ .
- الشاطر بصيلي : تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل القسم
الأول حتى عام ١٩٠٦ عطبرة ١٩٥٠ .
- شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ السودان وادى النيل ، حضارته
وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت
الحاضر الجزء الأول ، مكتبة الانجلو المصرية
القاهرة ١٩٦٩ .
- شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ السودان وادى النيل ، حضارته
وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت
الحاضر . الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية
القاهرة ١٩٦١ .
- شوقى الجمل (دكتور) : سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف
الثانى من القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية
العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٤ .

- شوقي الجمل (دكتور) : سياسة مصر واستراتيجيتها في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . دراسة بكتاب البحر الأحمر في التاريخ والسباسة الدولية المعاصرة ، القاهرة ١٩٨٠ .
- صلاح الدين الشامي (دكتور) : المواصلات والتطور الاقتصادي في السودان مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٥٩ .
- صلاح الدين الشامي (دكتور) : الموانئ السودانية . دراسة في الجغرافيا التاريخية القاهرة ١٩٦١ .
- عبده بدوي (دكتور) : الشعر في السودان . عالم المعرفة — الكويت ١٩٨١ .
- عبد الحليم محمود (دكتور) : المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي . القاهرة ١٣٨٧ هـ .
- عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥١ .
- عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الأول . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ، الجزء الثاني . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- عبد الرحمن الوكيل : هذه هي الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .
- هذه هي الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .
- عبد العزيز أمين عبد المجيد (دكتور) : التربية في السودان (ثلاثة أجزاء) القاهرة ١٩٤٩ .
- عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : تاريخ العرب الحديث — الجزء الأول — العراق ، القاهرة ١٩٧٩ .
- عبد القادر محمود (دكتور) : الفكر الصوفي في السودان . مصادره وتياراته وألوانه . دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٩ .
- (م ٣٥ — التطور الاقتصادي والاجتماعي)

- عبد القادر محمود (دكتور) : الطوائف الصوفية في السودان .
الطبعة الأولى . الخرطوم ١٩٧١ .
- عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة
المصرية (جزآن) ، القاهرة ١٩٣٥ .
- عبد المجيد عابدين (دكتور) : تاريخ الثقافة العربية في السودان
منذ نشأتها الى العصر الحديث . الدين .
الاجتماع . الأدب . دار الثقافة ، بيروت
١٩٦٧ .
- عبد المجيد عابدين (دكتور) : قبائل من السودان الأوسط والسودان
الغربي الدار السودانية للكتب ، الخرطوم
١٩٧٢ .
- على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقيا في العصر الحديث —
الطبعة الأولى — دار القلم — القاهرة ١٩٦٢ .
- على الجريتلى (دكتور) : تاريخ الصناعة في مصر في النصف
الأولى من القرن التاسع عشر — دار المعارف —
القاهرة ١٩٥١ .
- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ١٧ ، دار الكتب
القومية — القاهرة ، ١٩٦٩ .
- عمر طوسون ، الأمير : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من
فتحها الى ضياعها من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٩٨ .
الجزء الثاني . الاسكندرية ١٩٣٧ .
- كلوت بك : لمحة عامة الى مصر . الجزء الأول ، مطبعة أبى الهول
— القاهرة (بدون تاريخ) .
- محمد ابراهيم أبو سليم (دكتور) : الفور والأرض . وثائق تملك .
معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ، الخرطوم
١٩٧٥ .
- محمد أحمد الجابري : في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه
أهله . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .
- محمد صبرى (دكتور) : مصرف افريقيا الشرقية . هرر . زيلع .
بربره . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٣٦ .

— محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٤٩ .

— محمد ضيف الله (ود ضيف الله) : مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان . نشر وتحقيق ابراهيم صديق الخرطوم ١٩٢٩ .

— محمد عمر بشير : جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع نرجمة أسعد حليم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى سكانه وقبائله . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الافريقية . سلسلة دراسات افريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان ووادى النيل . دراسات فى تكوين وادى النيل ومكان السودان وسكانه من حوض هذا النهر . القاهرة ١٩٥١ .

— محمد غؤاد شكرى (دكتور) : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ .

— محمد غؤاد شكرى (دكتور) وآخرون : بناء دولة . مصر محمد على (السياسة الداخلية) دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد غؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧ .

— محمد غؤاد شكرى (دكتور) : رحلة محمد على الى السودان . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد ٨ ، ١٩٤٦ .

- محمد محمود الصياد (دكتور) : الناس في افريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد محمود الصياد (دكتور) وآخر : السودان . دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشرى والبناء الاقتصادي . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٦ .
- مصطفى فهمى وآخرون : في جنوب السودان . دراسات اجتماعية ونفسية تربية دار مصر للطباعة . القاهرة (بدون تاريخ) .
- مصطفى مسعد (دكتور) وآخرون : سلطنة دارفور : تاريخها وبعض مظاهر حضارتها . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد ١١ عام ١٩٦٣ .
- مكي شبكية (دكتور) : السودان في قرن ١٨١٨ — ١٩١٩ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة — ١٩٤٧ .
- مكي شبكيه (دكتور) : السودان عبر القرون . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤ .
- مورهييد ، آلان : النيل الأبيض . ترجمة محمد بدر الدين خليل . دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ .
- مورهييد ، آلان : النيل الأزرق . ترجمة نظمي لوقا . دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .
- نسيم مقار (دكتور) : جهود مصر في الكشف الجغرافي البيكباش سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠ .
- نسيم مقار (دكتور) : الرحالة جيون بترك . مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦١ .
- نعموم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته مطبعة المعارف القاهرة (بدون تاريخ) .
- نكولز ، و : الشيايقية (ترجمة عبد المجيد عابدين) معهد البحوث والدراسات الافريقية . القاهرة (بدون تاريخ) .

- هولت ، ب . م . : الهدية في السودان . ترجمة جميل عبيد
دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٨ .
- يوسف فضل (دكتور) : مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في
السودان الشرقى (١٤٥٠ - ١٨٢١) ، معهد
البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧١ .
- يوسف فضل (دكتور) : الشلوخ . أصلها ووظيفتها في السودان
وادي النيل الأوسط . دار جامعة الخرطوم
للنشر . الخرطوم ١٩٧٦ .
- يونان لببيب رزق (دكتور) : نفكك الامبراطورية المصرية في افريقيا
(دراسة بكتاب : العلاقات العربية الاغريقية .
دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار .
معهد البحوث والدراسات العربية : القاهرة
١٩٧٧ .
- يونان لببيب رزق (دكتور) وآخرون : مشكلة جنوب السودان .
مركز بحوث الشرق الاوسط جامعة عين شمس
القاهرة ١٩٨١ .

خامساً : كتب ودراسات بلغات أوربية حديثة :

- Abbate : De l'afrique central ou Voyage De S. A. Mohammed Said - Pasha dans ses provinces Du Soudan. (Paris, 1858).
- Arkill, A. J. : Fung Origins, S. N. R. Vol. XV, 1932.
- Baker, Sir Samuel : The Nile Tributaries of Abyssinia (London, 1857).
- Bell : Shiabun Gold, S. N. R. Vo.. 20, 1937.
- Bloss, J. F. : The History of Suakin S. N. R. Vo.. XX, Part II, 1937.
- Budge E. A. Wallas : The Egyptian Sudan, Its History and Monuments. Vol. I (London, 1951).
- Cailliauld, F. : Voyage a Méroé, au Fleuve Blanc, au della de Fazogl dans Le Midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis 1819 - 1822, Tome II, III (Paris, 1826).
- Clark, W. T.; : Manners, customs and beliefs of the Northern Bega. Vol. XXI. part I, 1938.
- Combes, Edward : Voyage en egypte et Nubie dans les deserts et Beyouda, Des Bicharys et Sur les cotés et la Mere Rouge. (Paris, 1846).
- Crabités, Pierre : Gordon. The Sudan and Slavery. (London, 1933).
- Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom. (London, 1951).
- Deherain, Henri : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. (Paris, 1898).
- Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien 1820 - 1822, Tome. I. (Le Caire, 1944).
- Douin, G. : Histoire Du Regne Du Khedive Ismail. L'Empire Africane, 3 E partie (1874-1876) Fasciale A. Tome III. Le Caire. Imprimerie De L' institute Francaise Orientale, 1941.

oo\

- Driault, Edward : La Formation De l' Empire De Mohamed 'Aly, De l' arabie au Soudan Correspondence De Consuls De France en Egypt. L'imprimé par l' imprimerie De l' institute Francaise D' archeologie Orientale Du Caire Pour la Société Royal De Geographie D' Egypt. MCCCXXVII, S. R. G. E., 1927.
- English, G. B. : A Narrative of the Expedition to Dongola and Senar under the Command of his Excellence Ismail Pasha, (London, 1822).
- Gessi, Romolo : Seven years in the Soudan. (London, 1892).
- Hamilton, J. A. dec. : The Anglo Egyptian Sudan from within (London, 1935).
- Hill, Richard : A biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan. (Oxford, 1951).
- Hill, Richard : Egypt in the Sudan. 1820 - 1881 (Oxford University Press, 1959).
- Holt, P. M. : A Modern History of the Sudan from the Fung Sultnate to the present Day. (London, 1957).
- Hoskins : Travels in Ethiopia above the second cataract of the Nile. (London, 1835).
- Mac Michael, O.S.O. : A History of the Arabs in the Sudan. Vol. I (Cambridge, 1922).
- Mekki Abbas : The Sudan Question. (London, 1952).
- Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. (Oxford University Press, 1948).
- Packler Muskau : Egypt under Mehemet Ali, Vol. II. (London, 1845).
- Pallme, I. : Travels in Kordofan. (London. 1844).
- Petherick, J. : Egypt, the Soudan and Central Africa, with exploration from Khartoum on the White Nile to the regions of the Equator. (London. 1861).

- Poncet, M. D. : A Voyage to Ethiopia (1698 - 1700) (London, 1709).
- Reid : Some notes on the tribes of the White Nile Province. S.N.R. Vol. XIII, 1937.
- Sabry, M. : L'Empire Egyptien Sous Ismail. (Paris, 1933).
- Santandrea, S. : Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal. S.N.R. Vol. XXIX, 1948. Part II.
- Shukry, M. F. : Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan (Cairo, 1938).
- Smith, Hempston : The New Africa. (London, 1961).
- Taylor, B. : A Journey to the Central Africa (New York, 1884).
- Terence Walz : Trade between Egypt and Bilad As - Soudan, 1700 - 1820. Institute Francaise D' Archeologie Orientale Du Caire, 1978.
- Trimingham, J. S. : Islam in Ethiopia. (Oxford University Press, 1952).
- Walkely, C. F. J. : The Story of the Khartoum. S.N.R. Vol. XVIII, 1935.
- Wailis, O. B. E.; : Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.), 1921.
- Werne, F. : Expedition to discover the sources of the white Nile in the years 1840 - 1841. Vol. II. (London, 1849).
- Werne, F. : African Wanderings or an Expedition from Sennar to Taka, Basa, Bani Amer, with particular glance at the races of Belad Sudan. tr. by J. R. Johnston. (London, 1852).
- Zenkovsky : Zar and Tumbura. S.N.R., Vol. XXXI, Part I., 1950, (Paper read before the Philosophical Society of the Sudan).

الرسائل العلمية :

- أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ — ١٨٨٥ — رسالة دكتوراه (غير منشورة) جامعة القاهرة ، ١٩٦٣ .
- أبو كروق ، الناصر عبد الله : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ — ١٨٩٧ . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٦ .
- أنتونى سوريال : جهود مصر الثقافية فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٧٩ . رسالة ماجستير (غير منشورة) معهد البحوث والدراسات الافريقية . جامعة القاهرة .
- حمدنا الله مصطفى حسن : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالسودان ١٨٢٠ — ١٨٤٨ ، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٠ .
- عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى عهد الخديوى اسماعيل . ١٨٦٣ — ١٨٧٩ رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨١ .
- مصطفى بسيونى أبو شعيشع : تاريخ الزراعة فى السودان منذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ م . رسالة دكتوراه (غير منشورة) معهد البحوث والدراسات الافريقية . جامعة القاهرة .
- محمد الأمين سعيد : سياسة محمد على فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٤٩ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٥٧ .
- نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى الأول ١٨٢٠ — ١٨٢١ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٥٧ .

— نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية في الفترة من عام
١٨٢١ — ١٨٤٨ ، رسالة دكتوراه (غير
منشورة) ، جامعة عين شمس ، ١٩٥٨ /
١٩٥٩ .

— يحيى محمد إبراهيم : التعليم الدينى في السودان . رسالة
ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة
القاهرة ، ١٩٧٨ .

رقم الايداع ٤٨١٢ لسنة ١٩٨٥

مطابع سجل العرب

۷۷

